دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

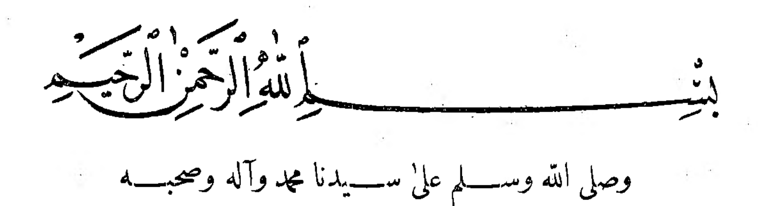
تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٨ هـ
١٩١٩ م



وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(فى الهُدَنِ الواقعةِ بين مُلُوك الإسلام وملوكِ الكُفْر ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

فى أصولٍ تتعيَّنُ على الكاتب معرِفَتُها ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأوّل

(فى بيان رُتْبتها ومعناها ، وذِكْرِ ما يُرادِفُها من الألفاظ)

أما رُتْبَتُها فإنها متأخرةٌ — عند قُوّة السلطان — عن عَقْدِ الجِزْيَة : لأن فى الجِزْيَة ما يدلُّ علىٰ ضَعْفِ المعقود له ، وفى الهُدْنةِ ما يدلُّ علىٰ قُوّته .

وأما معناها فالمُهادَنة فى اللُّغَة المُصالحةُ ، يقال : هادَنَه يُهادِنُه مُهادَنةً إذا صالحه والاسم الهُدْنة . وهى إما من هَدَن بفَتْح الدال يَهْدُن بضَمِّها[(1)] هُدُونًا إذا سكن ، ومنه قولُهم : « هُدْنَةٌ علىٰ دَخَنٍ » . أى سُكونٌ علىٰ غِلٍّ ، أو تكون[(2)] قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(1) أى من باب قتل كما فى المصباح و به ضبط بالقلم فى نسخة خطية من الصحاح ولكن ضَبْطُه فى القاموس واللسان وكذا المحكم بالقلم يفيد أنه من باب ضرب ، فلعل فيه لغتين .

(2) هذا هو أحد شق التفصيل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظٌ أخرى :

احدها — المُوادَعة، ومعناها المُصالحَةُ أيضا، أخذًا من قولهم : عليك بالمَوْدوع يريدون بالسَّكينة والوَقَار، فتكونُ راجعةً إلىٰ معنى السُّكون . وإما أخْذًا من تَوْديع الثَّوْب ونَحْوِه : وهو جَعْلُه فى صِوَان يَصُونُه، لأنه بها تحصل الصِّيانةُ عن القتال . وإما أخْذًا من الدَّعة : وهى الخَفْضُ والهَنَاء، لأن بسببها تحصلُ الراحةُ من تَعَب الحَرْب وكُلَفه .

الثـانى — المُسالَمَة ومعناها ظاهِرٌ : لأن بوقوعها يَسْـلَمُ كلٌّ من أهْلِ الجانبين من الآخر .

الثالث — المُقاضاةُ، ومعناها [المُحاكَمةُ مُفاعَلَةٌ من القَضَاء بمعنى الفَصْل والحُكْم] .

الرابع — المُواصَفةُ، سُميتْ بذلك لأن الكاتِبَ يَصِفُ ما وقع عليه الصُّلح من الجانبين . علىٰ أن الكُتَّابَ يخُصُّون لَفْظ المواصفة بما إذا كانت المهادنة من الجانبين، ولا شَـكَّ أن ذلك جارٍ فى لَفْظِ المُوادَعةِ والمُسالَمَة والمُقَاضاة أيضـا : لأن المفاعلة لاتكون إلا بين اثنين إلا فى ألفاظٍ قليلةٍ محفوظةٍ، علىٰ ماهو مقرّر فى عِلْم العربية .

أما لفظُ الهُدْنَة فإنَّه يصدُقُ أن يكونَ من جانبٍ واحدٍ، بأن يَعْقِدَ الأعلىٰ الهدْنةَ لمن هو دُونَه . علىٰ أنها عند التَّحْقيق ترجع إلىٰ معنى المفاعلة، إذ لا تتصوّر إلا من اثنين .

وأما فى الشَّرْع فعبارةٌ عن صُلْحٍ يَقَعُ بين زعيمين فى زَمَنٍ معلومٍ بشروطٍ مخصوصةٍ، علىٰ ماسيأتى بيانه فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

والأصل فيها أن تكون بين مَلِكَيْنِ مُسْلِمٍ وكافِرٍ، أو بين نائِبَيْهما، أو بين أحَدِهما ونَائِبِ الآخر. وعلىٰ ذلك رتَّب الفُقَهاءُ رحمهم الله باب الهُدْنَة فى كُتُبِهم . قال صاحب

"موادّ البيان" . وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التّوادُع والتّسالُم واعتقاد المَودّةِ والتّصافِي، والتّوازُر والتّعاوُن، والتّعاضُد والتّناصُر، ويشترِطُ الأضعَفُ منهم للأقوىٰ تسليمَ بعض ما فى يده والتّفادى عنه بمعاطَفته والانقياد إلى اتّباعه، والطاعة والاحترام فى المخاطبة ، والمجاملة فى المعاملة، أو الإمداد بجَيْش، أو امتثال الأوامر والنواهى وغيرها مما لا يُحْصىٰ .

قلتُ : وقد يكون المَلِكَانِ متساويين فى الرُّتْبة أو مُتَقَارِبَيْنِ ، فيقَعُ التّعاقُد بينهما على المُسالَمَة والمُصافَاة، والمُوازَرَة والمُعاوَنَة، وكَفّ الأذِيّة والإضرار وما فى معنى ذلك، دُونَ أن يلتزِمَ أحدُهما للآخَرِ شيئًا يقومُ به أو إتاوَةً يحملُها إليه ؛ ولكلّ مَقامٍ مَقالٌ، والكاتِبُ الماهِرُ يُوَفّى كلّ مقامٍ حَقّه ، ويُعطِى كلّ فَصْلٍ من الفصول مُستَحَقّه .

الطــرف الثـانى

(فى أصْلِ وَضْعِها)

أمّا مُهادَنَةُ أهْلِ الكُفْرِ فالأصْلُ فيها قولُه تعالىٰ : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ الآية، وقولُه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ .

وما ثبت فى صحيح البُخارِىّ من حديث عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ رضى الله عنه :

« أنّ قُرَيْشًا وجَّهَتْ إلى النّبِيّ صلّى الله عليه وسلم وهو بالحُدَيْبِيَة حِينَ »
« صَدّه قُرَيشٌ عن البَيْتِ ــ سُهَيلَ بنَ عَمْرو ، فقال للنبِيّ صلى الله عليه »
« وسلم : هاتِ [اكْتُب] بينَنا وبَيْنَك كِتابًا، فدعا النبِيُّ صلّى الله عليه وسلم »
« الكَاتِبَ ، فقال النّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « اكْتُب بسم الله الرحمن »

«الرحيم» . فقال سُهَيلٌ : أما الرحمٰن فوالله ماأدرى ماهو؟ ولكن اكْتُبْ»
«باسمك اللَّهُــمَّ كما كُنْتَ تكتُبُ . فقال المسلمون : والله لانكتبُ إلَّا»
«بسم الله الرحمن الرحيم، فقــال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلَّم : اكتُبْ :»
«باسمك اللهم ـ ثم قال : هذا ماقاضَى عليه محمدٌ رسولُ الله ـ فقال سُهَيْلٌ :»
«واللهِ لو كُنَّا نعلمُ أنَّك رسولُ اللهِ ما صَـدَدْناك عن البَيْتِ ولا قَاتَلْناك؛»
«ولكن اكتب محمدُ بنُ عبدِالله، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم : وَاللهِ»
«إني لرسولُ الله وإن كَذَّبْتموني، اكتُبْ محمدُ بنُ عبد الله، ثم قال النبيُّ»
«صلى الله عليه وسلم : على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البَيْتِ فَنَطُوفُ به ـ فقال»
«سُهَيلٌ : والله لاتَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا قَدْ أُخِذْنا ضُغْطَةً، ولكن ذٰلك من»
«العَامِ المُقْبِلِ، فكتب ـ قال سُهَيلٌ : وعلى أنه لا يأتيـك منَّا رَجُلٌ»
«وإنْ كان على دِينِك إلا رَدَدْتَه إلينـا ـ قال المسلمون : سُبْحانَ الله!»
«كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلمـا! فبينما هُمْ كذٰلك، إذ جاء»
«أبو جَنْدَلٍ يَرْسُفُ في قُيُودِه، وقد خَرَج من مَكَّةَ حتَّى رمىٰ بنفسه بين»
«أَظْهُرِ المسلمين ـ فقال سهيلٌ : هذا يا محمدُ أوّلُ ما أُقَاضِيك عليـه أن»
«تَرُدَّه إلىّ ـ فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : إنا لم نَقْضِ الكِتَابَ بعدُ ـ»
«قال : فواللهِ [إذًا] لا أُصالِحُكَ على شَيْءٍ ابدا ـ قال النبيُّ صلى الله»
«عليه وسـلم : فأَجِزْهُ لِي ـ قال : ما أنا بمُجِيزِهِ لك ـ قال بلى فافعلْ ـ !»

«قال : ما أنا بفاعِلٍ . قال مِكْرَز بنُ حَفْصٍ : بلى قد أجَزْناه لك . قال»
«أبو جَنْدلٍ: أى مَعْشَرَ المسلمين : أُرَدُّ إلى المشركين وقد جِئْتُ مُسْلِماً؟»
«ألا تَرَوْنَ ما قد لَقِيتُ؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شـديدًا فى الله تعالى .»
«قال عمرُ بن الخَطَّابِ : فأتيْتُ النبيَّ صـلى الله عليه وسـلم ، فقلت :»
«ألستَ نَبِيَّ اللهِ حقًّا؟ قال بلى! قلتُ : ألَسْنَا على الحقّ وعَدُوُّنَا على»
«الباطلِ؟ قال بلى! قلتُ : فلِمَ نُعْطِى الدَّنِيَّةَ فى دِينِنا إذًا؟ قال : إنى»
«رسولُ الله ولستُ أَعْصِيه وهو نَاصِرِى» .

قلت : هـذا ما أورده البخارىُّ فى حديثٍ طَوِيلٍ[1] . والذى أورَدَه أصحـابُ السِّيَرِ أن الكاتبَ كان علىَّ بنَ أبى طَالِب ، وأن نُسْخَةَ الكتاب :

«هذا ما قاضَى عليه محمدُ بنُ عبدِ اللهِ سُهَيلَ بنَ عمرٍو على وَضْعِ الحَرْبِ»
«عن النـاس عَشْر سنين ، وأنه من أَحَبَّ أن يدخُلَ فى عَقْدِ محمدٍ»
«وعَهْدِه دخلَ فيـه ، ومن أحَبَّ أن يدخُلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وعَهْدِهم»
«دخل فيه» .

وأشهد فى الكتَّاب على الصُّلْح رجالًا من المسلمين والمُشْركين .

---

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من "ارشاد السارى" للقسطلانى ومنه كان التصحيح .

الطـــرف الثـالث

(فيما يجبُ على الكاتب مراعاتُه فى كتابة الهُدَن)

قال فى "موادّ البيان" : وهـذا الفنُّ من المكاتبات له من الدَّوْلة محلٌّ خَطير، ومن المَمْلكة مَوْضِعٌ كبير؛ ويتعين على الكاتب أن يُخَلِّى له فِكْرَه، ويُعْمِلَ فيه نَظَره، ويَتَوفَّرَ عليه تَوَفُّراً يُحكِمُ مبانِيَه، ويهذِّب معانِيَه .

والذى يلزمُ الكاتِبَ فى ذلك نوعان :

النـــوع الأوّل

(مايختص بكتابة الهُدْنة بين أهْلِ الإسلام وأهْلِ الكفر)

وهى الشروط الشرعية المعتبرة فى صِحَّةِ العَقْد، بحيثُ لا يصحُّ عقدُ الهُدْنة مع إهمال شَىْءٍ منها . وهى أربعة شروط :

الأوّل — فى العاقد . ويختلفُ الحالُ فيه بٱخْتِلاف المَعْقودِ عليه : فإن كان المعقودُ عليه إقْليماً : كالهِنْدِ والرُّومِ ونحوهما، أو مُهادَنَةَ الكُفَّارِ مطلقا، فلا يصحُّ العَقْدُ فيه إلا من الإمام الأعْظَمِ أو من نائِبِه العامِّ المفوَّضِ إليه التَّحدُّثُ فى جميع أمور المملكة . وإن كان على بَعْضِ القُرَى والأطراف، فلآحادِ الوُلاة المُجاوِرِينَ لهم عَقْدُ الصُّلْحِ معهم .

الثـانى — أن يكونَ فى ذلك مَصْلَحةٌ للمسلمين : بأن يكون فى المسلمين ضَعْفٌ أو فى المـال قِلَّةٌ، أو توقُّع إسلامِهم بسبب ٱختلاطهم بالمسلمين، أو طَمَعٌ فى قبولهم الجِزْيَةَ من غير قِتالٍ و إنفاقِ مالٍ . فإن لم تكنْ مصلحةٌ فلا يُهادَنُون بل يُقاتَلُون حتَّى يُسْلِموا أو يؤدّوا الجِزْيَةَ إن كانوا من أهلِها .

الثـالث — أن لا يكون فى العَقْد شَرْطٌ يأباه الإسْـلامُ : كما لو شُرِطَ أن يُتْرَكَ بأيديهم مالُ مُسلِمٍ، أو أن يُرَدَّ عليهم أسيرٌ مُسلِمٌ ٱنفلَتَ منهم، أو شُرِطَ لهم على المسلمين

مالٌ من غير خَوْفٍ على المسلمين، أو شُرِطَ رَدُّ مُسلِمَةٍ إليهم، فلا يصحُّ العَقْدُ مع شَيْءٍ من ذلك، بخلاف ما لو شُرِطَ رَدُّ الرجلِ المسلمِ أو المرأةِ الكافرة فإنه لا يمنَعُ الصِّحَّة.

قال الغزالي: وقد جَرَت العادةُ أن يقول: (١) علىٰ أنَّ مَن جاءكم من المُسْلمين رَدَدتُمُوه، ومن جاءنا مُسْلمًا رَدَدْناه. فإن كان فى المسلمين ضَعْفٌ وخِيفَ عليهم، جاز ٱلتزامُ المـالِ لهم دَفْعًا للشَّرِّ، كما يجوز فكُّ الأسيرِ المُسلِم إذا عَجَزْنا عن ٱنتزاعه.

الرابع – أن لا تَزيدَ مدّةُ الهُدْنةِ عن أربعة أشْهُر عنـد قُوَّة المسلمين وأَمْنِهـم، ولا يجوز أن تَبْلُغ سَـنةً بحال، وفيما دُون سَـنَةٍ وفوقَ أربعـةِ أشْهُر قولانِ للشافعيِّ رضى الله عنه، أصَحُّهما أنه لا يجوز. أما إذا كان فى المسلمين ضَعْفٌ وهناك خَوْفٌ، فإنه تجوزُ المهادَنةُ إلىٰ عَشْرِ سنين؛ فقد هادَنَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسـلم أهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سنين كما رواه أبو دَاوُد فى سُنَنِه. ولا تجوز الزيادةُ عليها على الصحيح، وفى وجهٍ تجوزُ الزيادةُ علىٰ ذلك لَلمَصْـلَحَةِ. فلو أطلَقَ المُـدَّةَ فالصحيح من مَذْهَبِ الشافعيّ أنَّها فاسِدَةٌ، وقيـل: إن كانت فى حال ضَعْفِ المسلمين حُمِلَتْ علىٰ عَشْرِ سنين، وإن كانت فى حال القُدْرَة: فقد قيل تحمل على الأقل: وهو أربعةُ أشْهُر، وقيـل على الأكثر: وهو ما يقارب السَّـنَة. ولو صَرَّحَ بالزيادة علىٰ ما يجوز عَقْدُ الهُدْنَة عليـه: فإن زاد علىٰ أربعة أشْهُر فى حال القُوَّة أو علىٰ عَشْرِ سـنينَ فى حال الضَّعْفِ صح فى المدّة المُعْتَبَرة وبَطَل فى الزائد. فإن ٱحتيج إلى الزيادة على العَشْرِ، عقِدَ علىٰ عَشْرٍ ثم عَشْرٍ ثم عشرٍ قبل تَقَضِّى الأولىٰ، قاله الفُورانىُّ وغيرُه من أصحابنا الشافعيـة. وذهب أصحاب مالك رحمهم الله إلىٰ أن مُدَّتَها غيرُ مَحْدودَةٍ، بل يكون موكولا إلى ٱجتهاد الإمام ورَأْيِه.

---

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة ولعله «نهادنكم علىٰ الخ».

النـــوع الثـانى

(ماتشترك فيه الهُدَن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقودُ الصُّلح الجاريةُ بين زعماء المسلمين، وهى ضربان)

الضـــرب الأوّل

(الشروط العادية التى جَرَتِ العادةُ أن يقعَ الاتّفاق عليها بين الملوك فى كتابة الهُدَنِ خلا ماتقدّم)

وليس لها حَدٌّ يحصُرُها، ولا ضابِطٌ يَضْبِطُها، بل بحسَبِ ما تَدْعو الضرورةُ إليه فى تلك الهُدْنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يَشْترِطَ عليه أن يكون لوَليِّه مُواليًا، ولعَدُوِّه مُعاديًا، ولمُسَالِمه مُسالمًا، ولمُحارِبه مُحارِبًا، ولا يُواطِئَ عليه عَدُوًّا، ولا يوقع عليه صُلْحًا، ولا يُوافِق علىٰ ما يَقْدحُ فى أمْرِه، ولا يَقْبل سُؤالَ سائِلٍ، ولا بَذْلَ باذِلٍ، ولا رِسَالةَ مُراسِل ممـا يخالفُ الاتّفاقَ الجارى؛ والأَخْذَ علىٰ يَدِ من سَـعىٰ فى نَقْضِ الصُّلْح ونَكْثِ العَهْـد إن كان من أهْلِ طاعتِه، والمُقاتَلةَ إن كان من المُخالِفين له، وأنّه إذا جنىٰ من أهْلِ مملكتِهم جَانٍ كان عليه إحْضارُه أو الأَخْذُ منه بالجناية .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه أن يَكُفَّ عن بلادِه وأعمالِه، ومُتَطَرِّفِ ثُغُورِه، وشَاسِعِ نواحيه — أيدىَ الداخلين فى جماعته، والمُنْضَمِّين إلىٰ حَوْزَتِه، ولا يُجَهِّز لها جَيْشًا، ولا يُحاولَ لهـا غَزْوًا، ولا يَبْدأَ أهْلَها بمُنازَعةٍ، ولا يشرع لهم فى مُقارَعة، ولا يَتَناوَبهـم بمَكِيدَةٍ ظاهرة ولا باطنـة، ولا يُعامِلَهم بأَذِيَّةٍ جَلِيَّـة ولا خَفِيَّـة، ولا يُطْلِقَ لأحَدٍ ممّن ينوبُ عنه فى إمارة جَيْشِه، ومن يُنْسبُ إلىٰ جُمْلتِه، ويتصرَّف

علىٰ إرادَتِه ــ عِنَانًا إلىٰ شَيْءٍ من ذلك بوَجْهٍ من الوجوه، ولا سَبَبٍ من الأسباب، وأن لا يُجاوِزَ حُدُودَ مملكته إلى المملكة الأخرىٰ بنَفْسِه ولا بعَسْكَرٍ من عساكره .

ومن ذلك ــ أن يشترطَ عليه أن يُفْرِجَ عمَّن هو فى حَوْزَتِه ممَّن أحاطت به رِبْقَةُ الأَسْر، ويُمَكِّنَهم من المَسِيرِ إلىٰ بلادهم: بأنفسهم وخَدَمِهم وعيالِهم وأتْباعِهم، وأصنافِ أمْوالِهم، فى أتَمِّ حِراسَةٍ، وأَكْمَلِ خِفَارَةٍ، دون كُلْفَةٍ ولا مَئُونَةٍ تَلْحَقُهم علىٰ إطلاقهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك ــ أن يشترطَ عليه مالًا يحمِلُه إليه فى كُلِّ سَنَةٍ، أو أن يُسَلِّمَ إليه ما يختارُه: من حُصُونٍ وقلاعٍ وأطْرافٍ وسَواحِلَ ممـا وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أَحَبَّ انتزاعَه أو استضافته من بِلادِ مَن يُهادِنُه من مُلوكِ الكُفْر، وأن يُبْقِيَ مَن بها من أهلها، ويُقَرِّرهم فيها بحُرَمِهم وأوْلادِهم ومَواشِيهم وأزْوَادِهم وسِلاحِهم وآلاتِهم، دون أن يَلْتمِسَ عن ذلك أو عن شَيْءٍ منه مالًا، أو يَطْلُبَ عنه بدلًا، وما يَنخَرِطُ فى هذا السِّلْك .

ومن ذلك ــ أن يشترط عليه عَدَمَ التَّعرُّضِ لتُجَّارِ مَمْلَكَتِه، والمُسافرِينَ من رَعِيَّتِه، برًّا وبَحْرًا بنَوْعٍ من أنواع الأَذِيَّةِ والإضْرار، فى أنفُسِهم ولا فى أموالهم، وللمُجاوِرِينَ للبَحْرِ عَدَمَ رُكُوبِ المراكب الحَرْبِيَّةِ التى لا يعتادُ التُّجَّارُ رُكُوبَ مثلها .

ومن ذلك ــ أن يشترطَ عليه إمضاءَ ما وقعتْ عليه المعاقدةُ، وأَن لا يرجِعَ عن ذلك ولا عن شَيْءٍ منه، ولا يؤخِّرَ شيئًا عن الوقت الذى [1] ... ...

ومن ذلك ــ أن يشترطَ عليه أنه إذا بَقِيَ من مُدَّةِ الهُدْنَةِ مدّةٌ قريبةٌ ممـا يحتاج إلى التَّعْبِيءِ فيه، أن يعلمه بمـا يُرِيدُه من مُهادَنَةٍ أو غيرها .

(١) بياض بالأصول ولعله «الذى اتفق عليه» .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه أنه إذا ٱنقضىٰ أَمَدُ الهُدْنة علىٰ أحدٍ من الطائفتين وهو فى بلاد الآخرين، أن يكون له الأَمْنُ حتّى يلحَقَ مَأْمَنَه .

ومن ذلك — أن يشترطَ ما لا يحمله إليه فى الحال أو فى كُلِّ سَنَةٍ ، أو حُصُونًا، أو بلادا يُسَلِّمُها من بلاده ، أو ممـا يغلب عليه من بلاد مُهادِنِه ، إلىٰ غير ذلك من الأمور التى يجرى عليها الاتِّفاقُ ممـا لا تُحْصىٰ كَثْرةً .

الضـــــرب الثـانى

(ممـا يَلْزم الكاتِبَ فى كتابة الهُدْنَة ـ تَحْرِيرُ أوضاعها ، وترتيب قوانينها ، وإحْكَامُ مَعَاقِدِها)

وذلك باعتماد أُمُور :

منها ـ أن يَكْتُبَ الهُدْنَةَ فيما يناسِبُ المَلِكَ الذى تجرى الهُدْنةُ بينه وبين مَلِكه ، ولم أَرَ مَن تعرَّض فى الهُدَنِ لِمقْدارِ قَطْع الوَرَق وإن كَثُرتْ كتابَتُها فى الزَّمنِ المتقدّم بَيْن ملوك الديار المِصْرية وبين ملوك الفرنج ، كما سيأتى ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ . والذى ينبغى أن يُراعَىٰ فى ذلك مقْدَارُ قَطْعِ الوَرَقِ الذى يُكاتَبُ فيه المَلِكُ الذى تَقَعُ الهُدْنة معه : من قَطْعِ العادةِ أو الثُّلُثِ أو النِّصْفِ .

ومنها ـ أن يَأْتى فى ٱبْتِدائها ببراعة الاستهلال : إما بذِكْر تَحْسينِ مَوْقِع الصُّلْح والنَّدْبِ إليه ويُمْنِ عاقِبَتِه ، أو بذِكْرِ السلطان الذى تَصْدُر عنه الهدنةُ ، أو السُّلْطانَين المُتَهادِنَين ، أو الأمْرِ الذى ترتَّبَ عليـه الصُّلْحُ ، وما يَجْرى هذا المجرَىٰ ممـا يقتضيه الحالُ ويَسْتَوْجِبُه المَقامُ .

ومنها ـ أن يأْتِىَ بعد التَّصْدير بمقدِّمَةٍ يذكر فيها السَّبَبَ الذى أوجب الهُدْنَة ودعَا إلىٰ قَبُولِ المُوادعَة .

فإن كانتِ الهُدنَةُ مع أهْلِ الكُفر، ٱحْتجَّ للإجابة إليها بالأئْتِمار بأمر القرآن والأنقيادِ إليه، حيثُ أمرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلم بالمُطاوَعةِ على الصُّلح والإجابةِ إلى السَّلْمِ بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. وما وردتْ به السُّنَّة من مصالحَتِه صلَّى الله عليه وسلم قُرَيْشًا عام الحُدَيْبِيَة، وذَكَر ما سنَح له من آيات الصُّلْح وأحاديثِه، وما جرىٰ عليه الخُلَفَاء الراشدون من بَعْدِه، وكَفِّهم عن القتال وُقُوفًا عند ما حدّ لهم. وأنَّه لولا ذلك لشَرَعُوا الأَسِنَّةَ إلىٰ مُخالِفِيهم في الدِّين، وركَضُوا الجِيادَ إلىٰ جِهادِ من يَلِيهِمْ من المُلْحِدين.

وإن كان الصُّلحُ بين مُسْلِمَيْنِ ٱحتجَّ بنَحْوِ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. وبأحاديث التَّحْذِيرِ من تَقَاتُلِ المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: «إذَا ٱلْتَقَى المسلمانِ بسَيْفَيْهِمَا فقتل أحدُهما صاحبَه فالقَاتِلُ والمقتولُ في النَّارِ» وما يجرى هذا المَجْرىٰ.

ومنها — أن يراعِيَ المقام في تَبْجِيلِ المتهادِنَيْنِ أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحالُ، ووَصْفِ كلِّ واحِدٍ منهما بما يليقُ به: من التعظيم، أو التَّوسُّطِ، أو ٱنحطاط الرُّتْبةِ بحسب المقام، ويجرى علىٰ حَسَبِ ذلك في الشدّة واللين.

فإن كانت الهُدْنةُ بين مُتَكافِئَيْنِ سَوَّىٰ بينهما في التعظيم، وجرىٰ بهما في الشِّدّةِ واللِّينِ علىٰ حدٍّ واحدٍ، إلا أن يكونَ أحدُهما أَسَنَّ من الآخَرِ، فيراعِي للأَسَنِّ ما يجبُ له على الحَدَثِ من التَّأدُّبِ معه. ويُراعِي للحَدَث ما يجب له على الكبير من الحُنُوِّ والشَّفَقة.

وإن كانت الهُدْنةُ من قوىٍّ لضَعِيفٍ، أخَذَ في الأشْتِدادِ، آتيًا بما يدلُّ علىٰ عُلُوِّ الكلمة، وٱنْبِساطِ القُدْرةِ، وحصولِ النُّصْرةِ، وٱستكمال العدد، وظهور الأَيْد،

ووُفُور الجُنْـدِ، وقُصُور الملوك عن المُطاوَلَة، وعَجْزِهم عن المُحاوَلَة، ونحو ذلك ممـا ينخرط فى هذا السِّلْك، لاسيَّمـا إذا كان القَوِىُّ مُسْلِماً والضعيفُ كافرًا، فإنه يَجِبُ الأزديادُ من ذلك، وذِكْرُ ما للإسـلامِ من العِزّةِ، وما تَوالىٰ له من النُّصْرة، وذِكْرُ الوقائع التى كانت فيهـا نُصْرَةُ المسلمين على الكُفَّار فى المواطن المَشْهُورة، والأماكن المعروفة، وما فى معنىٰ ذلك .

وإن كانت الهُدْنة من ضَعِيفٍ لقَوِىٍّ، أخَذَ فى المُلايَنَة بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجَلادَةِ، وتَمَاسُكِ القُوَّة، خصوصا إذا كان القَوِىُّ المعقودُ معه الهُدْنَةُ كافرا . وإن شَرط له مالًا عندَ ضَعْفِ المسلمين للضَّرورة أتىٰ فى كلامه بمـا يقتضى أنَّ ذلك رَغْبَةً فى الصُّلْح المأمور به، لا عن خَوَرِ طِباعٍ وضَعْفِ قُوَّة، إذ الله تعالىٰ يقول : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنهـا ــ أن يتحفَّظ من سَقَطٍ يُدْخِلُ على الشريعـة نَقِيصَةً، إن كانت المهادنةُ مع أهْلِ الكُفْر، أو يَجُرُّ إلىٰ سُلْطانه وهِيصَةً، إن كانتْ بين مُسْلِمَين، ويتحذَّر كلَّ الحَذَرِ من خَلَلٍ يتطرّقُ إليه : من إهْمالِ شَىْءٍ من الشروط، أو ذِكْرِ شرطٍ فيه خَلَلٌ على الإسـلام أو ضررٌ على السلطان، أو ذِكْرِ لفظٍ مُشْـتَرَك أو مَعْنًى مُلْتَبِسٍ يُوقِعُ شُـبْهةً تُوجِبُ السبيلَ إلى التأوّلِ، وأن يأخُذَ المأْخَذَ الواضحَ الذى لا تتوجّه عليـه مُعارَضَه، ولا تتطرّقُ إليه مُناقضَه، ولا يَدْخُله تأْويلٌ .

ومنها ــ أن يُبيِّنَ أن الهُدْنَةَ وقعتْ بعد آستخارةِ الله تعالىٰ وتَرْوِيَةِ النَّظَرِ فى ذلك وظُهُور الخَيْر فيه، ومُشاوَرَةِ ذَوِى الرَّأْى وأهْلِ الحِجىٰ، ومُوافَقَتِهم علىٰ ذلك .

ومنها ــ أن يُبيِّنَ مدّةَ الهُدْنةِ . فقد تقـدّم أن الصَّحِيحَ من مَذْهَبِ الشافعىِّ أنه إذا لم تُبيَّن المدّةُ فى مُهادَنَةِ أهْلِ الكُفْرِ فسدت الهُدْنَة .

قال فى "التعريف" : وقد جرت العادةُ أن يَحْسُبُوها مَدّة سِنِينَ شَمْسِيَّة فيحرِّر حسابَها بالقَمَرِيّة. ويذكُر سِنِينَ وأشْهُرًا وأيّامًا وساعاتٍ حتّى يَسْتوفِيَ السنينَ الشَّمْسية المهادنَ عليها . أما فى عقد الصُّلح بين مسلمين فإنه لايشترطُ ذلك، بل ربَّما قالوا: إن ذلك صار لازمًا للأَبَد، حتّى فى الوَلَدِ ووَلَدِ الوَلَد .

ومنها — أن يُبَيِّن أن الهُدْنة وقعتْ بين المَلِكَيْن أنفسِهما، أو بين نائبِيهما، أو بَيْنَ أَحَدِهما ونائبِ الآخَرِ، ويستوفى ما يجب لكلِّ قِسْمٍ منها .

فإن كانت بين الملكين أنفُسِهما بغير واسطة بين ذلك، ذَكَر ما أُخِذَ عليهما من العُهُود والمواثيق، والأَيْمانِ الصادرةِ من كلٍّ منهما، وذَكَر ماوقَع من الإشْهادِ بذلك عليهما، وما جرىٰ من ثُبُوتِ حكمه إن جرىٰ فيه ثُبوتٌ ونحو ذلك .

وإن كانتْ بين المكتوب عنه ونائبِ الآخَرِ، بَيَّن ذلك، وتعرَّض إلى المُسْتَنَد فى ذلك : من حُضُورِ كِتابٍ من المَلِك الغائب بتَفْويض الأمْر فى ذلك إلىٰ نائبِه، وأنه وَصَل علىٰ يَده أو يَد غيره، والإشارة إلىٰ أنّه مُعَنْوَنٌ بعنْوانه، مَخْتُومٌ بخَتْمه المتعارَف عنه أو وكَالَة عنه. ويتعرَّضُ إلىٰ قيام البيِّنَة بها وثُبُوتِها بمَجْلِس الحُكْم ونحو ذلك من المستندات .

وإن كانتْ بين نائِبَيْن، بيَّنَ ذلك وذَكَر مُسْتَنَد كلِّ نائبٍ منهما علىٰ ماتقدّم ذكره . ويتعرَّضُ إلىٰ أن النائبَ فى ذلك قام فيه بٱخْتِياره وطَوَاعِيَته، لا عن إكْراه ولا إجْبارٍ، ولا قَسْرٍ ولا غَلَبَةٍ، بل لِمَا رأىٰ لنَفْسه ولمُسْتَنِيبِه فى ذلك من المَصْلَحة والحَظِّ . وأنَّ كتابَ الهُدْنَة قُرِئَ عليه وبُيِّنَ له فَصْلًا فَصْلًا، وتُرجِمَ له بموثُوقٍ به، إن كان لا يَعْرِفُ العَرَبيَّة ونحو ذلك .

ومنها — أن يتعرّضَ إلىٰ ما يجرى من التَّحْليف فى آخرها : على الوَفَاء، وعَدَمِ النَّكْث والإخْلالِ بشَيْءٍ من الشروط، أو الخُرُوج عن شَيْءٍ من الالْتِزامات،

او مُحاوَلَة التأْوِيلِ فى شَىْءٍ من ذلك، أو السَّعْى فى نَقْضِهِ أو فى شَىْءٍ منه، وما فى مَعْنىٰ ذلك :

فإن كانتْ بين مَلِكَيْنِ، تعرّض إلىٰ تَحْلِيف كلٍّ منهما على التَّوْفية بذلك .

وإن كانت بين أحدهما ونائبِ الآخرِ، حُلِّف المَلِكُ كما تقدّم، وستأتى صُورَةُ الحَلِفِ الذى يقعُ فى الهُدَنِ فى الكلام على الأَيْمَانِ[1] فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها — أن يُحَرَّرَ أَمْرَ التَّاريخ بالعَرَبِىّ وما يُؤَرَّخُ به فى مَمْلكةِ المَلِك المُهادَن : من السُّرْيانِىّ والرُّومىّ وغيرهما . قال فى "التعريف" : ولهم عادة أن يَحْسُبُوها مدّة سِنِينَ شَمْسِيَّة فيُحَرِّرُ حسابَها بالقَمَرِيّة، ويَذْكُرُ سِنِينَ وأشْهرًا وأيّامًا وساعاتٍ حتّى يَسْتكمل السنين الشمسية المُهادَن عليها . وقد تقدّم فى الكلام على التَّارِيخ من المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ وٱسْتخْراجها .

ومنها — أن يَقَعَ الإشهادُ علىٰ كلٍّ من المتعاقدين بذلك، ولا بَأْسَ بإثبات ذلك . وقد جَرَتِ العادةُ أنه يَشْهَدُ علىٰ كلِّ مَلِكٍ جماعةٌ من أَهْلِ دَوْلتِه لِيُقْضَى علىٰ مَلِكهم بقَوْلهم وإن كان مُخالِفًا فى الدِّين . وقد ثبت فى الصَّحِيح أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم «أشهد علىٰ مُصالَحَتِهِ مع قُرَيْشٍ رجالًا من المسلمين ورجالًا من المُشْركين» . وربّما طَلَبَ النائبُ عن المَلِك الغائبِ إحضار نُسْخةِ مُهادَنَةٍ من جِهَةِ مُسْتَنِيبِه علىٰ ماوقع به العَقْد، مشمولةً بخَطِّ الكُتَّاب، مشهودًا عليه فيها بأَهْلِ مَمْلكته، أو تُجَهَّزُ إليه نسخةٌ يَكْتُبُ عليها خَطَّه، ويَشْهَدُ عليه فيها أَهْلُ مَمْلَكَتِه . والغالبُ الٱكْتِفاءُ بالرُّسلِ فى ذلك .

---

(١) أى الأيمان الواقعة فى عقود الصلح، وإلا فالأيمان بأنواعها تقدمت فى ج ١٣ .

الفصل الثانى

فى صورة ما يُكْتبُ فى المهادنات والسِّجِلَّات، ومَذاهِب الكُتَّاب فى ذلك ، وفيه طرفان

الطرف الأوّل

(فيما يَسْتَبِدُّ ملوكُ الإسلام فيه بالكتابة عنهم ـ وتُخَلَّد منه نُسَخٌ بالأبواب السلطانية ، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلىٰ ملوك الكُفْر)

ثم ما يُكْتبُ فى ذلك علىٰ نَمَطيْنِ :

النَّمَطُ الأوّل

(ما يُكْتبُ فى طُرَّةِ الهُدْنةِ من أعلىٰ الدَّرْج)

وقد جرت العادةُ أن يفتتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما فى معنىٰ ذلك ، مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صُلْحٍ » أو « هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوادَعة» أو « هذه مُواصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربَّما حُذِف المبتدأُ وهو «هذا» وآكتفى بالخبَر عنه، مثل أن يقال: «كِتَابُ هُدْنَةٍ» أو «كِتَابُ مُوَادَعةٍ» أو «عَقْد مُصالَحةٍ» وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعَقْدِ صُلْحٍ أنشأتُها ليُنْسَجَ علىٰ مِنْوالهـا ، وهى :

هذا عَقْدُ صُلْحٍ آنتظمتْ به عُقُود المَصالح ، وآنْتَسقَتْ بواسطته سُبُلُ المَنَاجِح ؛ وتَحدَّثَ بحُسْنِ مُقَدِّمَتِه الغَادِى وتَرَنَّم بيُمْنِ نَتِيجَتِه الرَّائح . عاقَدَ عليه السلطانُ فلانٌ فلاناً القائمَ فى عَقْدِ هذا الصُّلْح عن مُرْسِلِه فلانٍ، حسَبَ ما فوض إليه الأمْر فى ذلك فى كِتَابِه الواصِـلِ علىٰ يَدِه، المؤَرَّخِ بكذا وكذا ، المُعَنْوَن بعُنْوانه، المختومِ بطابَعِـه

المُتعارَف عَنْه ـ علىٰ أن يكون الأمر كَذَا وكَذَا . ويشرحُ مُلَخَّص مايَقَعُ من الشروط التي يقع عليها الاتفاقُ بينهما فى الصُّلْح إلىٰ آخرها، ثم يقال : علىٰ ما شُرِحَ فيه .

النَّمَــــطُ الثــانى

(ما يُكْتب فى مَتْنِ الهُــدْنَةِ ، وهو علىٰ نوعين)

النـــــوع الأوّل

(ما تكونُ الهُدْنةُ فيـــه من جانبٍ واحدٍ)

بأن يكون الملكان متكافئين، [فيتعاقدان إما علىٰ حِصْنٍ] (١) وإما علىٰ مالٍ يعطيـه الملك المعقودة له الهُدْنةُ لعاقدها، كما كان يُكْتَبُ عن صاحب الديار المصرية .

وللكُتَّابِ فيـــه مذهبان :

المــــذهب الأوّل

(أن تُفْتتحَ الهُدْنةُ بلفظ : «هذا ما هَادَنَ عليه»
أو «هذه هُدْنةٌ أو مُوادَعَة أو مُواصَفَةٌ أو سِلْمٌ أو صُلْح» أو نحو ذلك
علىٰ نحو ما تقدّم فى الكلام على الطرّة)

وعلىٰ ذلك كُتِبَ كِتَابُ القَضِيَّة بين النبىِّ صلى الله عليه وسـلم وبين قُرَيْش عام الحُدَيْبِيَة، علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ أصْلِ مشروعِيَّتها .

وهــذه نسخةُ هُدْنةٍ كُتِب بها عن سُلْطانٍ قَوِىٍّ ، لملِكٍ مَضْعُوفٍ ، باشتراط مالٍ يقومُ به المَضْعُوفُ للقَوِىِّ فى كلِّ سَنَةٍ أو حُصُونٍ يسلِّمها له أو نحو ذلك ، وهى :

هــذا ما هادَنَ عليه ، وأجَّلَ إليه ، مَولانَا السلطانُ فلانٌ ـ خَلَّد اللهُ سُـلْطانَه وشَرَّفَ به زَمانَه ـ الملِكَ فلانًا الفلانىَّ . هادَنَه حِينَ ترَدَّدتْ إليه رُسُله ، وتَوالتْ عليه

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتُبُه ؛ وأمَّلَه ، ليُمْهِلَه ؛ وسَأَلَه ، ليكُفَّ عنه أَسَلَه ؛ حين أبَتْ صِفَاحُه أن تَصْفَح ، وسَمَاءُ عَجَاجِهِ بالدِّماءِ إلا أن تَسْفَح ؛ فرأىٰ ـ سدّدَ اللهُ آراءَه ـ أن الصُّلْحَ أَصْلَح ، وأن مُعاملَةَ اللهِ أَرْبَح ؛ وهادَنَ هـذا الملك (ويسميه) علىٰ نَفْسِـه وأهْلِه ، ووَلَدِه ونَسْـلِه ؛ وجَميعِ بِلادِه ، وكلِّ طَارِفِه وتِلَادِه ؛ ومالَه من مِلْكٍ ومال ، وجِهـاتٍ وأَعْمال ؛ وعَسْكَرٍ وجُنُود ، وجُموعٍ وحُشُود ؛ ورعايا فى مَمْلَكَتِه من المُقِيم والطَّارِى ، والسَّائِر بها والسَّارِى ـ هُدْنةً مُدَّتُها أوّلُ تاريخ هذه الساعة الراهنة وما يَتْلُوها ، مدّة كذا وكذا من سِنِينَ وأشْهُرٍ وساعاتٍ ، يَحْمِلُ فيها هذا المَلِكُ فلانٌ إلىٰ بَيْتِ مال المسلمين ، وإلىٰ تَحْتَ يَدِ مولانا السلطان فلانٍ قَسِيمِ أمير المؤمنين ؛ فى هـذه المدّة كذا وكذا ـ يَقُومُ به هذا المَلِكُ من ماله ، وممـا يتكفَّلُ بجبايتِه من جِزْيَةِ أَهْلِ بلاده وخَرَاجِ أعمـاله ؛ علىٰ أقساط كذا وكذا ـ قِياماً لا يُحوِجُ معه إلىٰ تَكَلُّفِ مُطالَبَه ، ولا إلىٰ تَناوُلِه بيَدِ مُغالَبَه .

علىٰ أن يكُفَّ مولانا السلطانُ عنه بَأْسَ بَأْسَائِه ، وخَيْلَه المُطِلَّةَ عليه فى صَباحِه ومَسائِه ؛ ويَضُمَّ عن بلاده أطْرَافَ جُنُوده وعَساكِرِه وأتْباعِهم ، ويُؤَمِّنَه من بِطَائِهم وسِرَاعِهِم ، ويمنَعَ عن بلاد هذا المَلِكِ المُتاخِمةِ لبلاده ، والمُزَاحِمَةِ لدَوَافِق أَمْدادِه ، ويردَّ عنهـا وعمَّن جاورها من بقيَّـة ما فى مملكته ، وهى كذا وكذا أَيْدِىَ النَّهْب ، ويكُفَّ الغـاراتِ ويَمْنعَ الأذىٰ ، ويرُدَّ من نَزَح من رعايا هـذا المَلِكِ إليـه ، ما لم يدخُلْ فى دِينِ الإسـلام ويشهد الشَّهادَتَينِ ، ويُقِرَّ بالكلمتين المُعْتادتين ؛ ويؤَمِّنَ جَلَّابَةَ هذا الملِكِ وتُجَّارَه المتردِّدِينَ من بلاده إلىٰ بلاد الإسـلام فى عَوَارِض الأشغال ، ولا يحصلَ عليهـم ضَرَرٌ فى نَفْسٍ ولا مال ؛ وإن أَخَذَت المُتَجَرِّمَةُ منهم مالًا أو قتلتْ أحدًا ، أَمَر بانْصافهم من ذلك المتجَرِّم ، وأن يُؤْخَذَ بحقِّهم من ذلك المُجْرِم . وعليه مِثْلُ ذلك فيمَن يدخلُ إليه من بلاد الإسلام ، وأن لا يفْسَحَ لنَفسِه

ولا لأحدٍ من جميع أهل بلاده فى إيواء مُسْلِمٍ مُتَنَصِّر، ولا يرخِّص لذى عمًى منهم ولا مُتَبَصِّر .

وأنه كلما وردتْ إليه كتب مولانا السُّلطانِ فلانٍ أو كتبُ نُوّابِه، أو أحد [من المتعلِّقين](١) بأسبابِه؛ يسارعُ إلىٰ آمتثاله والعمَلِ به فى وَقْته الحاضر ولا يُؤَخِّرُه ولا يمهِلُه، ولا يَطْرحُه ولا يُهْمِلُه .

وعليه أن لا يكونَ عَيْناً للكُفَّار، علىٰ بلاد الإسلام وإن دَنَتْ به أو بعُدتِ الدَّار، ولا يواطِئ علىٰ مولانا السُّلطانِ فلانٍ أعداءَه [وأوّلُهم التَّتار](٢)، وأن يَلْتزِمَ ما يلزَمُه من المُسْكَةِ بالمَسْكَنَه، ويفعلَ ما تسكتُ عنه به الأسِنَّة وما أشبهها من الألسنه .

وعليه أن يُنْهِيَ ما يتجدّدُ عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهْلَ مِلَّته، ويُنَبِّهَ علىٰ سُوءِ مقاصِدِهم، ويعرِّفَ ما يُهِمُّ سماعُه من أحوال ماهُمْ عليه .

هذه هدنةٌ تمَّ عليها الصُّلْح إلىٰ منتهى الأجَلِ المعيَّنِ فيه ما آستَمْسَكَ بشُروطِها، وقام بحُقُوقِها، ووقف عند [حَدِّهَا الملتزم به](٣)، وصَرَف إليها عِنَانَ آجْتهاده وبَنَى عليها قَواعِدَ وَفائِه، وصان من التكدير فيها سَرائرَ صَفَائِه؛ سأل هو فى هذه الهُدْنَة المقرَّره، وأجابه مولانا السلطانُ إليها علىٰ شُروطِها المحرَّره، وشهد به الحضُورُ بالمملكتين وتَضَمَّنته هذه الهُدْنة المُسَطَّره؛ وبالله التوفيق .

قلتُ: الظاهر أنه كان يُكْتَب بهذه النُّسْخة عن صاحب الديار المصرية والممالك الشامية، لمتملِّك سِيسَ، فإنَّ فى خِلَالِ كلامِ المقرِّ الشِّهابىِّ بعد قوله: ولا يواطئ علىٰ مولانا السلطان فلانٍ أعْداءَه : «وأوّلُهم التَّتار»، وقد تقدّم فى الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .
(٢) « « (ص ١٦٩) ومما يأتى قريبا .
(٣) بيض له فى الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن متملك سِيسَ كان يمالئُ التَّتارَ ويَميلُ إليهم، ويساعدهم فى حَرْبِ المسلمين ويُكَثِّر فى سَوادِهـــم .

* * *

وعلىٰ مثل ذلك يُكتَبُ لكلِّ مَلِكٍ مضعوفٍ فى مُهادنة المَلِكِ القَوِيِّ له .

وهذه نُسْخة هُدنَةٍ من هـذا النَّمَط، كتب بهـا أبو إسحق الصَّابِى، عن صَمْصامِ الدَّولة، بن عَضُـدِ الدَّوْلة، بن رُكْنِ الدَّوْلة، بن بُوَيه الدَّيلَمِيِّ، بأمْرِ أمير المؤمنين الطَّائـع لله، الخليفةِ العبَّاسِيِّ ببَغْدادَ يومَئِـذ، لوردس المعروف بسفلاروس مَلِكِ الرُّوم، حِينَ حِيلَ بينـه وبين بِلادِه، وٱلتَمَسَ أن يُفْرَجَ له طَرِيقُه إلىٰ بلاده، علىٰ شُروطٍ ٱلتزمها، وحُصُونٍ يُسلِّمها، علىٰ ما سيأتى ذكره، وهى :

هذا كِتابٌ من صَمْصامِ الدَّوْلة، وشَمْسِ المِلَّة، أبى كَالِيجَارَ، بنِ عَضُـدِ الدَّولة وتَاجِ المِلَّة أبى شُجاعٍ، بنِ رُكْنِ الدَّولة أبى عَلِيٍّ، مَولَىٰ أميرِ المؤمنين؛ كتبه لوردس ٱبن بينير المعروف بسفلاروس مَلِكِ الروم .

إنك سألتَ بسِفَارَةِ أخينا وعُدَّتنا، وصاحِبِ جَيْشِنا (أبى حَرْبٍ ربار بن شَهْرا كَوَيْه) تأمُّلَ حالك فى تَطاوُلِ حَبْسِك، وٱعْتِياقِكَ عن مُراجَعَةِ بَلدِك؛ وبذَلْتَ ـ متىٰ أُفْرِجَ عنك، وخُلِّيَ طرِيقُك، وأُذِنَ لك فى الخروج إلىٰ وَطَنِك، والعَوْدِ إلىٰ مَقَرِّ سُلْطانك ـ أن تكونَ لَولِيِّنا وَلِيّا، ولعَدُوِّنا عَدُوّا، ولِسلْمِنا سِلْما، ولحَرْبِنا حَرْبا : من جميع الناس كلِّهم، على ٱختلافِ أحوالهم وأدْيانِهم، وأجْناسِهم وأجْيالِهم، ومَقارِّهم وأوْطانِهم؛ فلا تُصالِحُ لنا ضِـدًّا مُبايِنا، ولا تُواطِئُ علينا عَدُوًّا مُخالِفا؛ وأن تَكُفَّ عن تَطرُّق الثغور والأعمـال التى فى أيدينا وأيدى الدَّاخلينَ فى طاعَتِنا : فلا تُجهِّز إليها جَيْشا، ولا تُحاوِلُ لها غَزْوا؛ ولا تَبدأُ أهْلَها بمُنازَعه، ولا تَشْرَعُ لهم فى مُقارَعه، ولا تَتَناوَلُهم بمَكِيدَةٍ ظاهرةٍ ولا باطنة، ولا تُقابِلُهم بأَذِيَّةٍ جَلِيَّةٍ ولا خَفِيَّة؛ ولا تُطلِقُ لأحَدٍ ممن

ينوبُ عنك فى قيادة جُيُوشك، ومن يُنْسَبُ إلىٰ جُماتك، و يتَصَرَّفُ علىٰ إرادتك — الآجتراءَ علىٰ شَيْءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كُلِّها ؛ وأن تُفْرِجَ عن جميع المسلمين وأهْلِ ذِمَّتِهم الحاصلين فى محابِسِ الرُّوم، ممَّن أحاطتْ بعُنُقه رِبْقَةُ الأَسْر، وآشتملتْ عليه قَبْضَةُ الحَصْرِ والقَسْر، فى قديم الأيَّامِ وحَديثِها، وبَعيدِ الأوقات وقَريبِها ؛ المقيمين علىٰ أدْيانِهم، والمختارِينَ للعَوْد إلىٰ أوْطانِهم ؛ وتُنْهِضَهم بما يُنْهَضُ به أمثالُهم، وتُمكِّنَهم من البرُوزِ والمَسيرِ بنفوسهم وحُرَمِهم وأولادِهم وعِيالاتِهم وأتْباعِهِم، وأصنافِ أمْوالِهِم ؛ مَوْفُورِينَ مَضْمُونِينَ، مُتَبَذْرَقِينَ[1] مَحْرُوسِينَ، غير ممنوعين، ولا مُعَوَّقِينَ، ولا مُطالَبِين بمُؤونَةٍ ولا كُلْفَةٍ صغيرةٍ ولا كبيرة .

وأن تُسَلِّمَ تَتِمَّةَ سبعةٍ من الحُصُون، وهى : حِصْن أرحكاه المعروف بحصن الهندرس، وحِصْن السناسنة، وحِصْن حويب، وحصن اكل، وحِصْن انديب، وحِصْن حالى، وحِصن تل حرم، برَساتيقِها ومَزارِعها إلىٰ من نُكاتبُك بتَسْليمها إليه، مع مَن بها من طبقات أهْلِها أجمعين، المُختارِينَ لسُكْناها والآستِقرارِ فيها، بحُرَمِهم وأولادِهم وأسْبابِهم ومَواشِيهم وأصْنافِ أمْوالِهِم وغَلَّاتِهم وأزْوادِهم وسِلاحِهم وآلاتِهم، ليكونَ جميعُها حاصلًا فى أيدينا وأيْدى المسلمين، علىٰ غابرِ الأيام والسِّنين ؛ من غير أن تَلْتمسَ عنها أو عن شَيْءٍ منها مالًا، ولا بَدَلًا، ولا عِوَضًا من الأعواض كُلِّها .

وعلىٰ أنك تُمْضِى ما عَقَدتَه علىٰ نَفْسِك من ذلك كلِّه بابًا بابًا، وتَفِى به أوَّلًا أوَّلًا، مُنْذ وقت وُصولِك إلىٰ أوائل أعمالك، وإلىٰ غَايَةِ آستيلائك عليها، ونَفَاذِ أمرِك فيها ؛ ولا تَرجِعْ عن ذلك ولا عن بَعْضه، ولا تُؤَخِّرْ شيئًا منه عن الوَقْت الذى تقدر فيه عليه، ولا تُرَخِّصْ لنَفْسك فى تَجاوُزٍ له ولا عُدُولٍ عنه . ومتَىٰ سعتْ طائفةٌ من الطَّوائف التى تُنْسَبُ إلى الروم والأرْمَنِ وغيرهم فى أمْرٍ يخالِفُ شرائط هذا الكِتَاب،

(١) البذرقة الخفارة معرّبة .

كان عليك مَنْعُهم من ذلك إن كانوا من أهْـلِ الطاعَةِ والقَبُول مِنْك ، أو مُجاهَدَتُهم ومُمانَعَتُهم إن كانوا من أهْلِ العُنُود عنك ، والخلافُ عليهم حتَّى تَصْرِفَهم عما يرومونَه ، وتحولَ بينهم و بين ما يُحاوِلُونَه ، بمشيئةِ اللّهِ و إذْنِه ، وتَوْفِيقِه وعَوْنِه .

وآشترطتَ علينا بعد الذى شَرَطْتَه لنا من ذلك التَّخْلِيةَ عن طَرِيقك وطريقِ من تَضَمَّنَتْه جُمْلَتُك ، وآشتَمَلَتْ عليه رُفْقَتُك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، فى جميع أعمالنـا حتَّى تَنْفُـذَ عنها إلىٰ ما وراءها ، غيرَ مُعَوَّقٍ ، ولا مُعْتَقَلٍ ، ولا مُؤْذًى ، ولا مُعارَضٍ ، ولا مُطالَبٍ بمُؤنَةٍ ولا كُلْفةٍ ، ولا مَمْنوعٍ من آبْتِياعِ زادٍ ولا آلَة ، ولا نُؤْثِرُ عليك أحَدًا نَاوَأَك فى أعمـالك ، ونازَعَك سُلْطانَ بِلادِك ، ودافعك عنـه وناصَبَك العَداوَةَ فيه : ممَّن ينتَسِبُ إلى الرُّوم والأرْمَنِ والخزرية وسائر الأمم المُضادَّةِ لك ، ولا نُوَقِّع معه صُلْحًا عليك ، ولا مُوافقةً علىٰ ما يعُود بثَلْمِك أو قَدْحٍ فى أمْرِك ، ولا نَقْبلُ سُؤالَ سائل ، ولا بَذْل باذلٍ ، ولا رِسالَةَ مُراسِل فيما خَالَفَ شَرائِطَ هـذا الكِتابِ أو عاد بإعْلالِه ، أو إعْلالِ وَثِيقَةٍ من وثائِقِه .

ومتىٰ وَفَد إلينـا رَسُولٌ من جهة أحَدٍ من أضْدادِك ، راغبًا إلينا فى شَيْءٍ يُخالِفُ ما آنعقد بيننا و بينك ـ آمْتنَعْنا من إجابَتِـه إلىٰ مُلْتَمَسه ، ورَدَدْناه خائبًا خاليًـا من طَلِبَتِه . وإذا سَلَّمتَ الحُصونَ المقدَّمَ ذِكْرُها إلىٰ من نُكاتِبُك بالتَّسْليم إليه ، كان لك علينـا أن نُقِرَّ مَن فيها وفى رساتيقها علىٰ نِعَمِهـم ومَنَازِلِهم وضِـياعِهِم وأملاكِهم ، وأن لا نُزِيلَهم عنها ولا عن شَيْءٍ منها ، ولا نَحُولَ بينهم و بين ماتَحْوِيهِ أيديهم من جميع أموالهم ؛ وأن نُجْرِيَهم فى المعاملات والجِبايَاتِ علىٰ رُسُومِهم الجاريةِ المـاضِيةِ التى عُومِلُوا عليها ، علىٰ مَرِّ السـنينَ ، و إلىٰ الوَقْت الذى يَقَعُ فيه التَّسْليم ، من غير فَسْخ ولا تَغْيِيرٍ ولا نَقْضٍ ولا تَبْديل .

فأنْهينَا إلىٰ مولانا أميرِالمؤمنين الطائعِ لله ماسَألْتَ وٱلتمسْتَ، وضَمِنْتَ وشَرطْتَ وٱشْترطْتَ من ذلك كله، وٱسْتَأْذَنَّاه فى قَبُوله منك، وإيقاعِ المُعاهَدَةِ عليه معك؛ فأَذِنَ ـ أدام الله تَمْكِينَه ـ لنا فيه، وأَمَرَنا بأن نُحْكِمَه ونُمْضِيه؛ لما فيه من ٱنتظام الأمور، وحياطَةِ الثُّغُور، وصَلاحِ المسلمين، والتَّنْفِيسِ عن المأسُورِين.

فأَمْضيْنَاه علىٰ شرائطه، وتراضَيْنا جميعًا به، وعاقدْناك عليه، وحلفْتَ لنا باليمينِ المؤكَّدة التى يحلِفُ أهْلُ شَرِيعتِك بها، ويتحرَّجُون من الحِنْثِ فيها على الوَفَاءِ به؛ وأشهدْنا علىٰ نُفُوسنا، وأشْهدتَ علىٰ نَفْسِك اللهَ جلَّ ثَنَاؤُه، وملائِكَتَه المقرَّبِينَ، وأنبياءَه المُرْسلين، وأخَانَا وعُدَّتَنَا أبا حَرْبٍ زيار بن شَهْرا كَوَيْهِ مَوْلىٰ أمير المؤمنين، ومن حَضَر المجلِسَ الذى جَرَىٰ فيه ذلك، باستقرارِ جميعِهِ بيننا وبينك، ولُزُومِهِ لنا ولك.

ثم حضر بعد تمام هذه المُوافَقَة وٱستمرارها، وثُبوتِها وٱسْتِقْرارِها، قُسْطَنْطِينُ ٱبن بينير أخو وردس بن بينير، وأَرْمانُوسُ بن وردس بن بينير، فوَقَّعا علىٰ هذا الكِتَابِ، وأحاطا به عِلْمًا، وٱسْتوعَباه مَعْرِفة، وشَهِدا علىٰ وردس بن بينير مَلِكِ الرُّومِ بإقراره به، وٱلْتزامه إياه. ثم تبرَّعَ كلُّ واحدٍ منهما بأن أوْجَب علىٰ نَفْسه ٱلتَّمسُّكَ به والمُقامَ عليه متَىٰ قام وردس بن بينير فيما هو مَوْسومٌ به من مَلِكِ الرُّوم، وجعل جَمِيعَ الشرائط الثابتة فى هذا الكتاب المَعْقودِ بَعْضُها بِبَعْضٍ أمانةً فى ذِمَّته، وطَوْقًا فى عُنُقِه، وعهْدًا يُسْأَلُ عنه، وحَقًّا يُطالَبُ فى الدُّنيا والآخِرةِ به؛ وصار هذا العَقْد جامعًا لهم ولنا، ولأولادِنا وأوْلادِهم، وعَقِبِنا وعَقِبِهم؛ ماعِشْنا وعاشُوا، يَلْزَمُنا وإيَّاهُم الوَفاءُ بما فيه علينا وعليهم، ولنا ولهم، علىٰ مُرورِ اللَّيالى والأيام، وٱختِلاف الأدْوارِ والأَعْوام.

أمْضَىٰ وأنفَذَ صَمْصامُ الدَّوْلةِ وشَمْسُ المِلَّة أبو كَالِيجَار ذلك كُلَّه علىٰ شرائطه وحدوده، وٱلْتَزَمَهُ وردس بن بينير المعروف بسفلاروس مَلِكُ الرُّومِ، وأخوه

قُسْطَنْطِينُ ، وٱبنه أرمانُوسُ بن وردس بن بينير ، وضَمِنُوا الوَفَاءَ به ، وأشهدُوا كلَّ واحِدٍ منهم علىٰ نُفُوسهم بالرِّضَا به ، طائعينَ غير مُكْرَهين ولا مُجْبَرِينَ ، لا عِلَّةَ بهم من مَرَضٍ ولا غيره ، بعد أن قرأه عليهم ، وفَسَّره لهم وخاطبهم باللغة الرُّومية من وُثِقَ به ، وفَهِمُوا عنــه ، وفَقِهُوا مَعْنىٰ لَفْظه ، وأحاطوا عِلْمًــا ومعرفةً به ، بعــد أن مَلَكُوا نُفوسَهم ، وتَصَرَّفوا على ٱختيارهم ، وتَمَكَّنُوا من إيثارهم ، ورَأَوْا أن فى ذلك حَظًّا لهم ، وصَلاحًا لشأنهم ، وذلك فى شعبان سنة ست وسبعين وثلثمائة .

وقد كُتِبَ هذا الكِتَابُ علىٰ ثلاث نُسَخٍ متساوياتٍ ، خُلِّدت ٱثنتانِ منهــا بدواوين مَدِينَةِ السلام ، وسلمت الثالثةُ إلىٰ وردس بن بينير مَلِكِ الرُّوم وأخيه وٱبنه المذكورَيْنِ معه فيه .

* * *

وهذه نُسْخةُ هُدْنةٍ من مَلِكٍ مضعوفٍ لمَلِكٍ قَوِيٍّ ، كَتَبَ بها الفقيهُ أبُو عَبْدِ الله ابن [1] أحدُ كُتَّاب الأَنْدَلُس ، عن بعض ملوك الأَنْدَلُس من المســلمين ، من أتْبــاع « المَهْدِىّ بن تُومَرْتَ » القائمِ بدَعْوة الموَحِّدِينَ ، مع « دون فرانده » صاحبِ قَشْتالَةَ من مُلُوك الفَرَنْج بعَقْد الصُّلْح علىٰ مُرْسِيَةَ من بلاد الأَنْدَلُس ، وهى :

هذا عَقْدُنا بعد ٱستخارة الله تعالىٰ وٱسْتِرْشاده ، وٱسْتعانَته وٱسْتِنْجاده ، نيابَةً عن الإمارة العَلِيَّــة بحُكْمِ ٱستنادنا إلى أوَامِرِها العالية ، وآرَائِها الهَــادِيَة . عقَدْناه ــ واللهُ الموفِّقُ ــ لقَشْــتالَةَ مع فُلانٍ النائبِ فى عَقْده معنا عن مُرْسله إلينــا ، المَلِكِ الأجَلِّ الأَسْنَى المُبَجَّلِ « دون فرانده » مَلِكِ قَشْتالَةَ ، وطُلَيْطِلَةَ ، وقُرْطُبة ، وليُون ، وبَلَنْسِيَة ــ أدام الله كرامته وميزته بتقواه ــ حين وَصَلَنا من قِبَلِه كتابٌ مختومٌ بطَابَعِه المعلومِ له المُتعارَفِ عنه ، تَفْوِيضًا منه إليه ، فى كل ما يُعْقَدُ له وعليه . وعاقَدَنا علىٰ أن يكونَ

(١) بياض بالأصول .

السِّلْم بيننا وبين مُرْسِله المذكور لعامَيْنِ آثنين، أوّلها شَهْر المحرَّم الذى هو أوّلُ سَنَة تاريخ هذا الكِتَاب، الموافِقُ من الأشْهُرِ العَجَمِيَّة شهر كذا، علىٰ جميع ما تَحْتَ نَظَرِنا الآنَ من البلاد الراجعة إلى الدَّعْوة المهديَّة ـ أسماها الله تعالىٰ ـ حَواضِرِها وثُغُورِها، مَوَاسِطِها وأطْرافِها، من جزيرة شَقْر إلىٰ بَيْرَةَ والمنصورة وما يليها ـ حرس الله جميعها ـ سِلْمًا محافَظًا عليها من الجهتين، محفوظًا عَهْدُها عند أهل المِلّتَيْنِ؛ لا غَدْر فيها، ولا إخْلالَ فى مَعْنًى من معانيها؛ ولا تُشَنُّ فى مُدُنِها غَارَه، ولا تُذْعَرُ سَيَّارَه؛ ومَهْما وقع اغوار، أو حَدَث اقدار، على جهة المجاهره، إذا آتّصلت والمُساتَره؛ فإن كان من جهة النصارىٰ، فعلىٰ ملك قَشْتالَةَ تَسْريحُ الأسارىٰ، وردُّ الغنائم والنَّهْب، والإنْصافُ من الغنيمة إن عُدِمَت العين، وأعْوزَ الطَّلَب . وعلينا مثلُ ذلك سَواء، ليقابَلَ بالوَفاء، هذا بعد أن يُتَّبَعَ الأمْرُ ويُعلَمَ من أين كان .

ومن هذه المهادنة أن لا يُتَسبَّبَ إلى الحُصُون بالغَدْر ولا بالشَّر، ولا يتجاوَزَ النصارىٰ حُدُودَ بلادهم وأرْضِهم بشَيْءٍ من البِنَاء، ولا يَصِلَ من بَلَدِ قَشْتالَةَ مَدَدٌ لمُخالِفِنا، ولا مَعُونَةٌ لمُقاتِلِنا . وكل ما يرجِعُ إلىٰ هذه الدَّعْوة، ويدخلُ فى الطَّاعَة من البلاد بعد هذا العَقْد فداخِلٌ فى السِّلْم، بزيادة نِسْبَتِه من المال الذى هو شَرْطٌ فى صِحَّة هذا الحُكْم . وإذا بَقِيَ من مُدّةِ هذه المُسالَمَة شهرانِ آثنان، فعلىٰ ملك قَشْتالة أن يُعْلِمَنا بغَرَضه فى المهادَنة أو سِوَاها، إعلامًا من مذاهب الوَفَاء أوْلاها .

وقد آلتزَمَ رسولُ المذكور لنا هذه الشُّروطَ، وأحْكَم معنا ـ نِيابَةً عنه فيها ـ العُقُودَ والرُّبوطَ، علىٰ كلِّ ما ذكرناه . وآلتزمنا فى هذا السلم لِلْمَلِك قَشْتالَةَ المذكورة ـ مكافأةً عن وَفاءِ عَهْده، وصِحَّةِ عَقْده ـ مائةَ ألفِ دينارٍ واحدةً، وأربعين ألفَ دينار فى كلِّ عامٍ من عامَيْ هذا الصُّلْحِ المقدَّمِ الوَصْف، مقسَّمًا ذلك علىٰ ثلاثة أنْجُم

فى العام، ليتقاضاها ثِقاتُه، ويوَفِّىَ عَيْنها على التمـام والكمال، قَبضَ منها كذا ليوَصِّلَها إلىٰ مُرْسله ، وٱلتُزِمَ له تَخْليصُ باقى كذا عنـد ٱنقضاء كذا على أوْفَىٰ وجْهٍ وأكْمله ؛ فإن وُفِّىَ له بذلك بعد الأربعين يوما المؤقَّتة، فالسِّلْم باقيةٌ وحُكْمُها ثابتٌ، وإلا فالسِّلْم مفْسُوخَةٌ ولا حُكْمَ لها إن عُجِز عن الوَفَاء له، بحصول مابَقِىَ من الشُّروط فى ٱستِصحاب الحكم وٱتِّصالِ العَمَل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وعلى ما تَضَمَّنه هذا الكِتَابُ أمْضَىٰ فلانٌ ــ أعَزَّه اللهُ ــ بحُكْمِ النيابة، عن الأمر العَالِى ــ أسماه الله ــ هذا العَقْدَ الصُّلْحِىَّ، وأشهد بما فيه علىٰ نَفْسه وحضَرَه المفسل طور(؟) المذكور، فتُرجِمَ له الكِتَابُ وبيِّنتْ له معانيه، وقُرِّرَ علىٰ مَضَامِينه، فالتزم ذلك كلَّه عن مُرْسلِه مَلِكِ قَشْتالَةَ حسَبَ مافوِّض إليه فيه؛ وأشْهد بذلك على نَفْسه، فى صِحَّتِـه وجَوَاز أمره فى كذا ، واللهُ الموفِّقُ لـما يرضاه ، ومُقَدِّم الخَـيْر والخِيرَةِ فيما قَضاه، بمَنِّه والسلام .

المـــــذهب الثـانى

(أن تُفْتتح المُهادنَةُ قبـــل لفظ «هذا» ببَعْدِيَّةٍ)

وهذه نُسْخةُ هُدْنةٍ بين مَلِكين متكافئين دون تَقْرير شَىْءٍ من الجانبين، كَتَب بها الفَقِيهُ المحدِّثُ أبو الرَّبيع بن سالم من كُتَّاب الأنْدَلُس، فى عَقْد صُلْح على بَلَنْسِيَةَ وغيرها من شَرْق الأنْدَلُس، وهى :

وبعدُ، فهذا كتابُ مُوادَعةٍ أمْضَىٰ عَقْدَها وٱلتزمه، وأبْرَمَ عَهدها وتممه ؛ فُلانٌ لملِكِ أرْغُونَ، وقومط بَرْجَلُونة، ويرنسب مقت بشلى، حافظة(؟) بن بَطْرة، بن أدفونش، ٱبن ريموند، أدام اللهُ كرامتَه بتقواه له خاتمـا وعنوانا، المعهود صدوره فى أمثالـها من المراوضات الصُّلْحيَّـة تضَرُّعًا وإعلانا ؛ مُتضَمِّنًا من الإحالة فى عقْـدِ المُسالمَة

عليه، والتَّفْويض فى إبْرامِ أسْبابِها وٱلتزام فُصولها وأبوابها إليه ؛ ما أوجب صَحيحَ النَّظر، وصَريحَ الرَّأْيِ المُعتَبر، مُقارَبةً فيه، ومُوافَقةً منه علىٰ ما يحفظُ حقَّ المسلمين ويُوفِّيه، جُنُوحًا منه إلىٰ ما جَنَح إليه من ذلك مُتقاضيه، وتَحرِّيًا للعَمَل على شاكِلَة الصَّوابِ والإيثارِ لما يقْتضيه، بعد مُحاوَلاتٍ بلغ منها النَّظر غايَته من الآجتهاد، وإراغاتٍ قَرَن بها من آستخارةِ الله تعالىٰ وٱستنجادِه ما رضِى فيه من فَضْلِه العَميم مَعْهُود التَّسْديد والإنجاد ؛ فأجْلىٰ ذلك عن إمْضاءِ عَهْدِ السِّلْم لملِكِ أرْغُونَ علىٰ بَلَنْسِيَةَ وكافَّة جهاتها أطرافًا ومَواسِط، وثُغُورًا وبَسائط، وكذلك شاطِبَةُ ودانيَه، وما ينْتَظِمُ معهما من أحْوازِهما ويرجعُ إلىٰ حُكْمِ بَلَنْسِيَةَ وحالها من الجِهَةِ النَّائيَة والدانيَه ؛ لمدَّةِ عامَيْنِ آثنين، شَمْسِيَّيْنِ مُتَّصلَين، وأيام مُتَّصِلَةٍ بهما كذلك . وهذا يَحصُرُ أمْرَه، ويُحقِّقُ عَدَده ؛ أن نفْتتِحه بيوم الأحدِ الرابع والعشرين لشَهْرِ نوبر، الموافِقِ لعاشِرِ ذي القَعْدةِ المؤرَّخ به هذا الكتاب، الذى هو من عامِ أحدٍ وعشرين وسِتَّمائةٍ بتاريخ الهجرة ــ مُسالمةً تَضَع بها الحَرْبُ بين الجانبين أوْزارَها، وتُمهِّدُ للهُدْنَة بين الطائفَتَين آثارَها، وترفَعُ اللابنة (؟) عمن ذُكِرَ من المِلَّتينِ أذيَّتَها وأضْرارَها ؛ البَرُّ والبَحْر فى ذلك سيَّان، والمُساتَرَةُ فيها بالأذىٰ والمُجاهَرَةُ ممنوعان، وحَقيقةُ اللَّازِمِ من ذلك غَنِيٌّ ببَيانه ووُضُوحِه عن الإيضَاحِ والتِّبيان ؛ لا ٱلْتِباسَ ولا إشْكال، ولا غائِلَةَ ولا ٱحْتيال ؛ ليس إلَّا الأمْنُ الكافِلُ لكافَّةِ من تَشْتَمِلُ عليه كافَّةُ المواضِعِ المذكورةِ من المسلمين، ومن تَحْويهِ بلادُ مَلِكِ أرْغُونَ من الطَّوائِف أجمعين . وكلُّ مُنْتَمٍ إلىٰ خِدْمة هذه المملكة الأرْغُونيَّة بما كان من وُجُوهِ الآنْتِماء، أو ناظِرٍ فى جُزْءٍ منها كائنًا ما كان من الأجْزاء، فهو فى هذا الحُكْمِ داخِل، وتحتَ هذا الرَّبْطِ الصُّلْحيِّ واصل ؛ ولا حُجَّةَ لمن كان له منهم حِصْنٌ ينفَرِدُ به عن هذه المملكة، علىٰ ما لهم فى ذلك من العوائد المُتعارَفة . فإن نَقَضَ بجُزْءٍ منه وذهب إلىٰ أن يكون فى حِصْنِه مُنْفرِدًا فهو

وما آختار، إذا تنكّب الإضرارَ؛ فإن رام التّطرّق بشَيْءٍ إلىٰ أحَدِ الجانبَين كان على المسلمين وعلىٰ أهْل أرْغُونَ التظافُرُ على آسْتِنزاله، والتظاهُرُ علىٰ قِتاله، حتّىٰ يَكُفُّوا ضَرَره، ويُعَفُّوا أثَرَه.

والحُدُودُ الفاصلةُ بين الجزأين هي أوساطُ المسافات، علىٰ ما عُرِف من مُتقدِّم المسالمات؛ ويَدُ كلِّ فَرِيقٍ منهم مُطْلَقةٌ فيما وَرَاءَ حَدِّه بما شاء، من آنتشاءٍ برَسْم الإصلاح والانشاء؛ وكلّ من قصد المسلمين من رِجال المملكة الأرْغُونيَّة بريئًا من تَبِعَةِ الفَساد فقَبُولُ قَصْدِه مُبَاح، وليس فى آستخدامه والإحسانِ إليه جُنَاح؛ والطريق للتُّجّار المعهودِ وُصُولُهم من بلاد أرْغُونَ إلىٰ بَلَنْسِيَةَ فى البَرِّ والبَحْر مُباحَةُ الآنْتِيَاب، مَحْفُوفةٌ بالأَمَنَة التامَّة فى الجَيْئَةِ والذَّهاب؛ وعلىٰ تُجّارِ البَحْر منهم أن يَتجَنَّبوا رُكُوب الأجفان الحَرْبِيَّة التى يُمكِنُ بها الإضرار، ويَسْتَغنِى عن (١) التُّجّار؛ والآستِرْهابُ مَرْفوعٌ عن هٰؤلاءِ الواصلين برَسْم التِّجارة على آختلافهم، وتَبايُن أصْنافِهم؛ فيما لم تَجْنِه أيْديهم، ولا كان مَنْسُوبًا إلىٰ تَعَدِّيهم؛ وكلُّ مُعتَقِلٍ من الطائفتين بأدْنىٰ شَيْءٍ يُطَرِّق إلىٰ حُكْمِ هذه السِّلْم خِلافا، أو يُلْحِق بعَهْدِها إخْلافا؛ فعلى أهْلِ مَوْضِعه الإنْصافُ ممن جَنَاه، وصَرْفُ ماسَلَبَتْه يَدَاه، وإحْضارُه مع ذلك ليُعاقَبَ بما أتاه. وليس لأحَدٍ من الطائفتين أن يتسبَّبَ بآستِرْسال، إلى الإنْصاف من جنايةِ حَال؛ بل يقومُ بدَفْعِ ذلك حيثُ يُحَب، ويطلُبه فى المَوْضِع الذى ينبغى فيه الطَّلَب؛ حتّى يخاطَبَ الناظرُ على المملكة التى نُسِبَتْ إليها هذه الإذايه، وصدَرتْ عن أهْلِها [تلك] الجنايه؛ بِطلَبِ الإنصافِ من عُدْوانها، وتعادُ عليه الأعْذارُ فى شأنها؛ وعليه ــ ولا بُدَّ ــ التّخليصُ منها عملًا بالوَفَاء الذى يَجِبُ العمَلُ به، وقِيامًا بحقِّ العَهْد الذى أُكِّد الآعْتلاقُ بسَبَبه؛ ومتى غادر مغادِرٌ من أحَدِ المِلَّتين حِصْنًا من حُصُون

(١) بياض بالأصول ولعله « عن ركوبها » .

الأخرىٰ فله الأمْنُ على الكمال، والرَّعْىُ الحافِظُ للنَّفْسِ والمـال؛ حتى يُلْحَقَ بمأْمنِه، ويَعُودَ سالِمًا إلىٰ وَطَنِه .

فعلى هـذه الشروطِ المحقَّقه، والرُّبُوط الموَثَّقه، انعقد هذا السِّلْم، وعلىٰ من ذُكِرَ من المسـلمين وأهْـلِ أرغون الحُكْم ؛ وهـذا الكِتَابُ ينطِقُ فى ذلك بالحَقِّ اللازِم للطائفتين، ويُعْرِب عن حقيقة ما انعقَد بين من سُمِّىَ من أهْـلِ المِلَّتين ؛ والتزم كُلَّه عن مَلِكِ أرغُونَ النائبُ عنـه بتَفْوِيضِه إليـه، واستِنابَتِه إيَّاه عليـه ؛ الزعيم بطره ابن فدانف بكدريش(؟) على أتم وجوه الالتزام، وأبْرَمَ ذلك مَلِكُ أرْغُونَ بأوْثَقِ علائق الإبرام، وكلُّ ذلك بعـد أن بُيِّنَتْ له الفُصولُ المتقـدِّمَةُ غايَةَ التَّبْيِينِ وأُفْهِمَها حقَّ الإفْهام ؛ وألزم نفْسَـهُ مع ذلك وُصولَ كِتَابِ هـذا المَلِكِ الذى تولَّى النِّيابَةَ عنـه فى هـذا العَقْدِ، مصرِّحًا بالتزامه وإمضائه فيـه عَمَلَه، وَفْقَ ما تَضَمَّنه كِتَابُه الذى أرسَلَه، وأشهد مع ذلك زعمـاءَ دَوْلَتِه وكُبراءَ القائمين عليه، تحقيقًا لمعناه، وتَوْثِيقًا لمَبْناه، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الثـانى

(من الهُدَن الواقعةِ بين مَلِكٍ مُسْلِم ومَلِكٍ كافِرٍ ـ أن تكونَ الهدنةُ من الجـانبين جميعا)

وفيها للكُتَّاب ثلاثة مذاهب :

المــذهب الأول

(أن تُفتتحَ الهُدْنةُ بلفظ : «هذه هُدنَةٌ» ونحو ذلك)

قال فى "التعريف" : وسبيلُ الكِتابَة فيها أن يُكْتَبَ بعد البَسْملة : هٰذه هُدْنةٌ استقرّتْ بين السُّلطانِ فلانٍ والسُّلطانِ فلانٍ، هادَنَ كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ على الوَفاءِ عليه، وأجَّل له أجَلًا ينتهى إليه؛ لمـا اقتَضَتْه المصلحةُ الجامعه، وحُسِمتْ به موادُّ

الآمالِ الطّامِعه ؛ تأكّدتْ بينهما أسْبابُها، وفُتِحتْ بهما أبْوابُها ؛ وعليهما عَهْدُ الله على الوَفاء بشَرْطِها، والآنتهاءِ إلىٰ أمَدِها، ومَدِّ حَبْلِ المُوادَعَةِ إلىٰ آخر مُدَدِها ؛ ضَرَبا لهـا أجَلًا أوّلُه ساعةُ تاريخـه وإلىٰ نهاية المُدَّة ، وهي مُدّة كذا وكذا ؛ علىٰ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُغْمِدُ بينه وبين صاحِبِه سَيْفَ الحَرْب ، ويَكُفُّ ما بينهما من السِّهام الراشِقَة، وتُعقَلُ الرِّماحُ الخطّارة، وتُقَرُّ علىٰ مرابطِها الخَيْلُ المُغِيرة . وبلادُ السلطان فلانٍ كذا وكذا ، وبلادُ السلطانِ فلانٍ كذا وكذا ، وما في بلادِ كلٍّ منهما من الثُّغُور والأطْرافِ والمَوانِي والرَّساتيق والجهات والأعمال : برًّا وبَحْرا، وسَهْلًا وجَبَلًا، ونائيًا ودانيًا، ومَن فيها : من مالِكِها المسمَّىٰ وبَنِيه، وأهْلِه وأمْوالِه ، وجُنْدِه وعَساكِرِه، وخاصٍّ من يتعلَّقُ به وسائِرِه ؛ ورعاياه على آختلاف أنواعهم ، وعلى آنْفِرادِهم وآجْتماعِهم؛ البادِي والحاضِر، والمُقِيم والسّائِر، والتُّجّار والسَّفّارة، وجميع المتردّدين من [سائر] الناس أجمعين . علىٰ أن يكون علىٰ فلان كذا و[على فلان][1] كذا[ويعين ما يعين][1] : من مالٍ، أو بلادٍ، أو مساعدةٍ في حَرْبٍ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه، وينهَضُ من حقِّه المقرَّرِ بواجِبِه؛ وعليهما الوفاءُ المؤكَّدُ المواثيق ، والمحافظةُ على العَهْد والتَّمسُّكُ بسَبَبِه الوَثيق ـ هدنةً صحيحةً صريحةً، نَطَقا بهـا ، وتَصادقا عليها ، وعلىٰ ما تَضَمَّنته المواصفةُ [المستوعَبَةُ بينهما فيها، وأشْهدَا الله عليهما بمَضْمُونها، وتَواثقَا علىٰ دُيُونها، وشَهِدَ من حَضَر مقام كلٍّ منهما علىٰ هذه الهُدْنة وما تضَمَّنْته من المواصفه][1] ، وجرتْ بينهما علىٰ حُكْمِ المُناصَفه ، رَأَيا فيها سُكونَ الجِماح، وغَضَّ طَرْفِ الطِّماح .

وعلىٰ أنَّ علىٰ كلٍّ منهما رعايةَ ما جاوره من البِلادِ والرَّعيَّه، وحَمْلَهم في قضاياهم على الوُجُوه الشَّرعيّـه؛ ومن نَزَح من إحْدَى المملكتين إلى الأُخْرىٰ أُعيد، وما أُخِذَ منها باليَدِ الغاصِبَةِ آستُعِيد؛ وبهذا تم الإشْهاد، وقُرِئَ على المسامع علىٰ رُءُوس الأشْهاد .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٧٠ .

المـــذهب الثـانى

(أن تُفْتتحَ الهُـدْنة : بلفظ : «ٱستَقَرّتِ الهُدْنة بين فلانٍ وفلانٍ» ويقدّم فيـــه ذِكْر الملِكِ المُسْـلِم)

وعلىٰ ذلك كانت الهُدَنُ تُكتَبُ بين ملوك الدِّيار المصرية ، و بين ملوك الفَرَنْج ، المتَغلِّبينَ علىٰ بَعْضِ البلاد الشامية .

وهذه نُسْخة هُدْنةٍ علىٰ هذا النَّمَط : دون تَقْريرٍ من الجانبين ؛ كُتِبتْ بين المَلِك الظَّـاهِر « بيبرس البندقدارى » صاحبِ الدِّيارِ المصرية ، و بين الاسْبتَار(١) بحِصْنِ الأكراد والمَرْقَب ، فى رابع شَهْر رمضانَ سنة خَمْسٍ وستين وسِتِّمائةٍ ، وهى :

ٱستَقَرّتِ الهُـدْنةُ المباركةُ المَيْمونَةُ بين مولانا السلطانِ المَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْن الدِّين أبِى الفَتْح «بيبرس» الصَّالحىِّ النَّجْمىِّ ، و بين المقدّم الكبيرِ الهُمامِ فلانٍ مُقدَّمِ بَيْتِ الاسْبِتَار الفلانىِّ بعَكَّا ، والبلادِ السَّاحِليَّة ، و بين فُلانٍ مقدَّمِ حِصْنِ الأكراد ، و بين فلانٍ مُقـدَّم حِصْنِ المَرْقَب ، وجميعِ الإخْوةِ الاسْبِتَار ، لمدّةِ عَشْرِ سـنين مُتَوالية وعَشَرةِ أشْهُرٍ وعشرةِ أيّامٍ وعَشْرِ ساعات : أوّلهـا يومُ الاثنينِ رابعُ رمضانَ سـنة خَمْسٍ وستِّين وسِتِّمـائةٍ من الهِجْرة النَّبوِيَّة علىٰ صاحبِها أفضلُ الصَّلاةِ والسـلام ، الموافِقُ لليومِ الثَّلاثين من أيّام (٢) سنةَ ألفٍ وخَمْسِمائةٍ وتسعةٍ وسبعين سنة للإسْكَنْدر بن فيلبس اليُونَانِىّ — علىٰ أن جميعَ المَمْلكةِ الحِمْصيَّةِ والشَّيْزَرِيَّةِ والحَمَوِيَّة وبلادِ الدَّعْوةِ المُبارَكَة ، واقِعٌ عليها الاتفاقُ المُبارك ، ومُسْتقِرّةٌ لها هذه الهُدْنة المَيْمونَة بجميعِ حُدُود هذه المَمـالك المَعْروفه ، و بلادِها الموصوفه ؛ وقُراها وضِياعِها ، وسَهْلِها وجَبَلِها ، وعامِرِها وغامِرِها ، ومَزْرُوعِها ومُعَطَّلِها ، وطُرُقاتِهـا ومِياهِها ، وقِلاعِها

---

(١) الاسبتار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاسبتارية .

(٢) بياض بالأصول .

وحُصونِها ـ علىٰ مايُفَصَّلُ فى كلِّ مملكة، ويُشْرَح فى هذه الهُدْنةِ المباركة للمّدَةِ المعيَّنَة إلىٰ آخرِها .

وعلىٰ أن المستقرَّ بمَمْلَكَةِ حِمْصَ المحروسةِ أنَّ جميع المَواضِع والقُرَىٰ والأراضِى التى من نَهْرِ العاصِى ،وتغرِّب إلى الحَدِّ المعروفِ من الغَرْبِ لبَلَدِ المُناصَفَات : عامِرًا ودَاثِرًا، وبمـا فيها من الغَلَّات صَيْفيا وشَتْويا، والعداد وغَيرِها من الفوائد جَميعِها ـ تقرَّرَ أن يكونَ النِّصفُ من ذلك للسُّلطانِ الملِكِ الظاهرِ رُكْنِ الدنيـا والدِّين أبى الفَتْح «بيبرس»، والنِّصف لبَيْتِ الأسبِتار .

وعلىٰ أن كلَّا من الجهتين يَجْتَهِدُ ويَحْرِصُ فى عمارة بَلَدِ المُناصفاتِ المذكورة بجُهْدِه وطَاقَتِه، ومَن دخل إليهـا من الفلَّاحين بدَوابَّ، أو من التُّركمان، أو من العَرَب، أو من الأكْرَاد، أو من غيرهم، أو القُنَاة ـ كان عليهم العِدادُ بجَارِى العَادَة . ويكون النِّصْفُ للسلطانِ، والنِّصفُ لبَيْت الاسْبِتَار .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهرِ يَحْمِى بلَدَ المناصفات المقدَّمَ ذِكْرُها من جَميعِ عَسْكَره وأتباعه، وممَّن هو فى حُكْمه وطاعَتِه، ومن جميع المسلمين الدَّاخلين فى طاعته كافَّة . وكذلك مقدَّمُ بَيْتِ الاسْبِتَار وأصحابُه يَحْمُونَ بِلادَ مولانا السلطانِ الدَّاخلةَ فى هذه الهُدْنة .

وعلىٰ أنَّ جميعَ من يتعدَّىٰ نَهْر العاصِى مُغَرِّبًا لرَعْيِ دوابِّه : سواءٌ أقام أو لَمْ يُقِمْ، كان عليه العِدادُ سِوىٰ قُنَاة البلد ودَوابِّه، ومن يخرجُ من مَدِينة حِمْصَ ويعودُ إليها، ومن غَرَّبَ منهم ومات كان عليه العِدَادُ .

وعلىٰ أن يكون أمْرُ فلَّاحِى بلَدِ المناصفات فى الحَبْس والإطلاق والجِبايَة راجعاً إلىٰ نائِبِ مولانا السلطان، باتِّفاقٍ من نائِبِ بَيْت الاسبِتار، علىٰ أن يحكُمُ فيه بشريعة الإسلامِ إن كان مُسْلمًا، وان كان نَصْرانياً يحكم فيه بمقتضىٰ دَوْلَة حصْن الأكراد .

وأن يكونَ الفلاحونُ الساكنون فى بلاد المناصفات جميعِها مُطْلَقين من السُّخَرِ من الجانبين .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهِرَ لايأخذُ فى بَلَدِ المناصفات المذكورةِ : من تُرْكمانٍ ولا عَرَبٍ ولا أَكْرادٍ ولا غَيْرِهِم عِدَادًا ولا حقًّا من حقوق بَلَدِ المناصفات ، إلا ويكونُ النِّصفُ منه للمَلِك الظاهر ، والنِّصفُ الآخرُ لبَيْت الأسْبِتَار .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهِرَ لا يتقـدَّمُ بمنع أحدٍ من الفَلَّاحين المعروفين بسُكْنَى بلاد المناصفات من الرُّجوعِ إليها ، والسَّكَنِ فيها إذا آخْتارُوا العَوْدَ . وكذلك بيْتُ الأسْبِتَار لا يمنعون أحدًا من الفَلَّاحين المعروفين بسُكْنىٰ بلاد المناصفات من الرُّجوعِ إليها والسَّكن فيها إذا آختارُوا العَوْد .

وعلىٰ أن المَلِك الظاهِرَ لا يَمنـعُ أحدًا من العُرْبانِ والتُّركمان وغيرهم : ممَّن يُؤدِّى العِدَاد ، من الدُّخولِ إلىٰ بَلَدِ المناصفات ، إلَّا أن يكونَ مُحارِبًا لبَعْض الفَرَنج الداخلين فى هذه الهُدْنة ، فله المَنْع من ذلك . وأن تكونَ خُشَاراتُ الملك الظاهر وخُشَاراتُ عساكِرِه وغِلمانُهُـم وأهلُ بَلَدِه تَرعَىٰ فى بلد المناصفات آمِنَـةً من الفَرَنج والنَّصارىٰ كافَّة . وكذلك خُشَاراتُ بَيْتِ الاسْبِتَار وخُشَاراتُ عَسْكرِهم وغِلْمانِهم وأهْلِ بَلَدِهم ترعى آمِنةً من المسلمين كافَّةً فى بَلَدِ المناصفات . وعند خروج الخُشارات من المَراعِى وتَسْليمِها لأصحابها ، لا يُؤخَذُ فيها حقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعارَضُ من الجهتين .

وعلىٰ أن تكونَ مِصْيَدة السَّـمك الرُّوميَّة مهما تحصَّلَ منها ، يكونُ النِّصفُ منه للمَلِكِ الظاهِرِ والنِّصفُ لبيْت الاسْبِتَار . وكذلك المَصَايد التى فى الشَّطِّ الغَرْبىِّ من العاصِى يكونُ النِّصفُ منه للمَلِك الظاهِر والنصفُ لبيْتِ الاسْبِتَار . ويكونُ لبَيْت الاسْبِتَار فى كلِّ سنةٍ خمسُونَ دينارًا صُورِيَّة عن القَشّ ، ويكون القَشُّ جميعُه للمَلك الظاهر يتصرَّفُ نُوَّابُه فيه علىٰ حَسَب آختيارهم . ويكونُ اللَّيْنوفَرُ مناصَفَةً : النِّصفُ

منه للمَلِك الظاهر والنِّصفُ لبَيْت الاسْبِتَار . وتقرّر أن الطاحُونَ المستجدَّ المعروفَ بإنشاءِ بَيْت الاسْبِتَار، الذى كان حصل الحَرْب فيه، والبُسْتانَ الذى هناك المَعْروفَ بانشاء بيت الاسْبِتَار أيضا يكون مناصفة . وأن يكونَ متولِّى أمْرِهما نائبٌ من جِهَةِ نُوّابِ السلطان ونائبٌ من جِهَةِ بيت الاسْبِتَار، يتوليان أمْرَهما والتَّصرُّفَ فيهما وقَبْضَ مُتَحَصِّلِهما . وتقرّر أنَّ مهما يجدّدُه بَيْتُ الاسْبِتَار على الماء الذى تَدُور به الطاحُونُ ويَسْقِى البُسْتانَ من الطواحين والأبنية وغير ذلك، يكون مُنَاصَفَةً بين المَلِك الظاهِر وبين بَيْتِ الاسبتار .

وأما المستقَرُّ بمَمْلَكَةِ شَيْزَر المحروسة، فهى شَيْزَرُ، وأبو قُبَيْس وأعماله، وعَيْنتابُ وأعمالُها، ونِصفُ زاوية بَغْراس المعروفةِ بحماية بَيْت الاسبتار وأعمالُها، وجميعُ أعمال المَمْلكةِ الكِسْروية والبلادِ المذكورةِ بحُدُودِها المعروفةِ بها، وقُراها المُسْتقرّةِ بها، وسَهْلِها وجَبَلِها وعَامِرِها وغامِرِها .

وما ٱستقرّ بمملكة المَلِك المَنْصور، ناصِر الدِّين «محمد» بن المَلِك المظَفَّر أبى الفَتْح «محمود» بن الملك المَنْصور «محمد» بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهى : حَمَاةُ المحروسةُ وقِلاعُها ومُدُنها، والمَعَرَّةُ وقُراها وسَهْلُها وجَبَلُها وأنهارُها، ومَنَافِعُها وثِمارُها وعامِرُها وغَامِرُها، وبلادُ رُقَيبة وبلادُ بارِينَ بحُدودها وتُخُومها وعامِرِها ودَاثِرِها وجميع من فيها وما فيها ــ على أن المَلِك المَنْصور لا يرخِّصُ للتُّركمان ولا للعَرَب أن ينزلوا بَلَدَ رُقَيبة وبارِينَ سِوَى ثلاثين بَيْتًا يحملون الغَلَّةَ لقَلْعَةِ بارِينَ، وإن أرادوا الزيادةَ يكونُ بمراجعة الإخْوة الاسبتارية والٱتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنّه إن تعدّى أحدٌ من أصحابه بأذيّةٍ، أو تعدّى أحدٌ من الفَرَنجة فى بِلادِه بأذيّة، كانت المُهْلة فى ذلك خَمْسة عشر يوما، فإن ٱنكشفت الأخيذة،

أعيدت . وإلا تُحَلَّفُ الجِهَةُ المدَّعَىٰ عليها أنها ما علِمتْ وما أحَسَّت ، وكما لهُــم ، كذٰلك عليهم .

والمستقِرُّ لمملكة الصاحِبَيْن : نَجْم الدِّينِ وجَمالِ الدِّين ، والأميرِ صارِم الدِّين نائِبَيِ الدَّعْوةِ المُبـاركة ، وولَد الصاحِب رَضِيِّ الدِّين ، وهى : مِصْياف والرُّصافة وجميعُ قِلاعِ الدَّعْوةِ وحُصُونِهـا وسَهْلِها ووَعْرِها وعامِرِها وداثِرِها ، ومُدُنِهـا وبلادها ، وضياعِها وطُرقاتِها ، ومياهها ومنَابِعِها ، وجميعُ بلادِ الإسماعيلية بجَبلَي بَهْرا واللُّكّام ، وكُلُّ ماتشتملُ عليــه حُدُود بلادِ الدَّعوة وتُخُومِها ـ أن يكونَ الجميع آمِنِينَ من علىٰ الرَّصيف الذى بشَــيْزَر إلىٰ نهاية الأَراضِى التى بحُصُون الدَّعوةِ وبلادِها . وحمــايَةُ القَرْيَةِ المعروفةِ بعرطار (؟) يكونُ له أسوة الاسماعيلية . وإن عَلِم الأصحابُ أن أحدًا من الإسماعيلية قد عَبر إلىٰ بَيْتِ الاسبتار لأذِيَّة ، أَعلمُوا بَيْت الاسبتار قبلَ أن تَجْرِىَ أذِيَّة ، وما لم يُعْلِمُوا به عليهــم اليمينُ أنَّهــم ما علِمُوا به ، وإن لم يحلِفُوا يردُّوا الأذِيَّة التى تَجْرِى .

وتقرّر أن يكونَ فَلّاحُو بَيْتِ الاسبتار رائحِينَ وغادِينَ ومتَصَرِّفِينَ فى بَيْعِهــم وشِرائِهم ، مطمئِنِّينَ لا يتعَدَّىٰ أحدٌ عليهم . وكذلك جميعُ فلّاحِى بلاد الإسمــاعيلية لا يتعدَّىٰ أحدٌ عليهم ، وأن يكونُوا آمنِينَ مطمئِنِّينَ فى جميع بلاد الاسبتارية ، وإن تعدَّى أحدٌ من الجهتين فى سُوقٍ أو طَرِيقٍ ، فى لَيْلٍ أو نهار ، تكون المُهْلَة خمسةَ عَشَرَ يوما ، فإن ردَّت الشَّكْوىٰ كلُّها فمـا يكون إلا الخيْر بينهم ، ومن تَوجَّهتْ عليه اليمينُ حَلَف ، ومن لم يفعلْ يحلِّفْ وإلا يَرُدُّ الأذِيَّة . وتكون الضَّيْعةُ التى رهَنَها عبدُالمسيح رَئيسُ المَرْقَب الاسبتار ، وهى المشيرِفة تكون آمنةً إن كان الحال آســتقرّ عليها إلىٰ آخرِ وَقْتِ عند كتابة هــذه الهُدْنة المباركةِ بين الأصحــاب وأصحابهم . ويحمل الأمْر فى الحقوق .

ويبطل ما هو على بلاد الدّعوة المباركة من جميع ما لبيت الاسبتار على حماية مصياف والرّصافة، وهو فى كلّ سنة ألف ومائتا دينار قومصية، وخمسون مُدًّا حنطة، وخمسون مُدًّا شعيرا، ولا تبقى قطيعة على بلاد الدّعوة جميعها، ولا يتعرّض بيتُ الاسبتار ولا نوّابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا منكسر ولا ماض، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه.

وتقرّر أن تكون جميعُ المباحات من الجهتين مُطْلقة ممّا يختصّ بالمملكة الحمْصيّة، يسترْزق بها الصّعاليك. وأنّ نوّابَ المَلك الظاهر يحمونهم من أذيّة المسلمين من بلاده المذكورة، وأن نُوّاب بيت الاسبتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النّصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة فى هذه الهُدْنة. ولا يتعرّض أحدٌ من المسلمين كافّةً من هذه البلاد الدّاخلة فى [هذه] الهُدْنة [إلى بلاد الاسبتارية] بأذيّة ولا إغارة، ولا يتعرّض أحدٌ من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة فى هذه الهُدْنة بحُدُودها الجارية فى يد نُوّاب الاسبتار وفى أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذيّة ولا إغارة.

وعلى أنه متى دخل فى بلاد المُناصَفات أحدٌ ممن يجب عليه العِدَادُ وامتنع من ذلك، وكان عِدادُ إحْدى الجهتين حاضرًا : إمّا عِدادُ ديوان المَلك الظاهر، وإمّا عِدادُ بيْت الاسبتار، فلنائب العِداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشّخْص الممتنع عن العِدَاد أو الخارج من بَلد المناصفات رَهْنًا بمقْدار ما يجبُ عليه من العِدَاد، بحضور رئيس من رُؤساء بَلد المناصفات، ويُترك الرّهْن عند الرّئيس وديعةً إلى أن يحْضُر النائبُ الآخَر من الجهة الأخرى، ويُوصّل إلى كلّ من الجهتين حقّه من العِدَاد.

وإن خرج أحدٌ ممن يجب عليه العِدَادُ، وعجز النائبُ الحاضرُ عن أخْذ رَهْنه : فإن دخل بلدًا من بلاد المَلك الظاهر، كان على النوّاب إيصالُ بيْت الاسبتار إلى حقّهم

ممـا يجبُ علىٰ الخَارِج من العِدَاد . وكذلك إن دخل الخـارجُ المَذْكورُ إلىٰ بَيْتِ الاسبتار، كان عليهم أن يُوصِّلوا إلىٰ نوّابِ الملك الظاهِرِ حَقَّهُم مما يَجِبُ على الخارج من العِدَادِ . وكذلك يعتمدُ ذلك فى المَمْلكةِ الحَمَويَّة و بلادِ الدَّعوة المحروسة .

وعلىٰ أن التُّجَّار والسُّـفَّار والمترَدِّدِينَ من جميع هـذه الجهات المذكورةِ يكونون آمِنِينَ من الجِهَتين : الجِهَةِ الإسلامية ، والجِهَةِ الفرنجية والنَّصرانيَّة، فى البلاد التى وقعتْ هذه الهُدنَةُ عليها ـــ علىٰ النُّفوسِ والأموال والدَّوابِّ وما يتعلقُ بهـم، يحميهم السُّلطانُ ونوّابُهُ ، ويتعاهدُون البلادَ الداخلةَ فى هـذه الهُدْنة المبـاركةِ الواقعِ عليها الصُّلْح وفى بَلَد المناصفات ـــ من جَميع المسلمين . ويحميهم بَيْتُ الاسبتار فى بلادهم الواقع عليها الصُّلْح وفى بلد المناصفات ـــ من الفَرَنْج والنصارىٰ كافَّة .

وعلى أن يتردَّدَ التُّجَّارُ والمسافِرُون من جَميـعِ المتردّدين على أيِّ طريقٍ اختاروه من الطُّرق الداخلةِ فى عَقْدِ هذه البلاد الداخِلةِ فى هذه الهُدْنةِ المباركة المختصَّة بالمَلك الظاهِرِ، وبلادِ مُعاهَدِيه، وبلادِ المناصفات، وخاصِّ بَيْتِ الاسبتار والمناصفات؛ يكونُ الساكِنُون والمتردِّدُون فى الجِهَتينِ آمِنـينَ مُطْمَئِنِّين على النُّفوسِ والأموال ؛ تحمِى كلُّ جِهةٍ الجهةَ الأُخرىٰ .

وعلىٰ أنَّ ما يختص بكلِّ جهةٍ من هـذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاسبتارية . لا يكونُ عِدادٌ على ما لَهـا فى المناصفات : من الدَّوابِّ والغَنَم والبَقَرِ والجِمَالِ وغيرها ، على العادةِ المقرَّرةِ فى ذلك .

وعلى أنَّ إطلاقَ الرُّؤساءِ يكونُ باتفـاقٍ من الجهتين : الإسـلامية ، والفرنجية الاسبتارية . ومتىٰ وقعتْ دعوى على الجهـة الأُخرىٰ، وُقِفَ أمرُها فى الكشف عنهـا أربعين يومًا ، فإن ظهرت أُعِيدتْ علىٰ صاحبها ، وإن لم تظهرْ حلَفَ ثلاثة

نَفَرٍ مِمَّن يختارهم صاحبُ الدَّعوىٰ على ما يعلمونَه فى تلك الدَّعوَىٰ، وإن ظهرتْ بعد اليمينِ أعيدَتْ إلىٰ صاحبها، وإن كان قد تعوَّض عنها أُعِيد العِوَضُ .

وعلىٰ أن يكْشِفُوا عن الأَخيذة بجُهْدِهم وطَاقَتِهم . ومتىٰ تحققتْ أعِيدتْ الىٰ صاحِبها ؛ فإن حَلَفوا يبرءون من الدعْوىٰ ، وإن ظهرتْ بعد اليمين أعيدتْ علىٰ صاحبها ، وإن ٱمتنع المدَّعىٰ عليه من اليمين حَلَف المدَّعى، ولا يستحق (١) عوض ما عدم من كل شيء مثله . وكذلك يجرى الأمْرُ فى القتْل : عِوَضُ الفَارِس فارسٌ ، وعِوَضُ الرَّاجِلِ راجِلٌ ، وعِوَضُ البرْكِيلِ برْكِيلٌ ، وعِوَضُ التَّاجِرِ تاجِرٌ ، وعِوَضُ الفَلَّاح فَلَّاحٌ . وإذا ٱنقضت الأربعون يومًا المذكورةُ لكَشْفِ الدَّعوىٰ ولم يَحْلِف المدَّعَىٰ عليه للمدَّعِى وجب عليه العِوَضُ حتَّىٰ يردّ، وإن ردّ اليمينَ على المدَّعِى ومَضىٰ علىٰ ذلك عشرةُ أيَّامٍ، ولم يَحْلِفْ صاحب الدعوىٰ بطلتْ دعواه وحُكْمُها ، وإن حلف أخَذَ العِوَض .

ومتىٰ هَرَب من إحْدى الجِهَتَينِ إلىٰ الأخْرىٰ أحَدٌ، ومعه مالٌ لغيره أُعِيدَ جميعُ مامعه، وكان الهاربُ مخيَّرًا بين المُقامِ والعود . وإن هرب عبدٌ وخرج عن دِينِه، أعِيدَ ثَمَنُه ، وإن كان باقِيًا علىٰ دِينِه أعيد .

وعلى أن لا يدخلَ أحدٌ من القاطِنِينَ فى بلَدِ المناصفات : من الفلَّاحِينَ والعَرَب والتركمان وغيرِهم، إلىٰ بلادِ الفَرَنْج والنَّصارىٰ كافَّةً لإغارة ولا أذِيَّةٍ بعِلْمِ المَلِك الظاهر وبلاد مُعاهَدِيه ، [ولا يدخُلَ أحدٌ] بلاد المسلمين لإغارةٍ ولا أذِيَّةٍ بعلم بيْتِ الاسبتار ولا رِضاهُم ولا إذْنِهم .

وعلىٰ أنَّ الدعاوىٰ المتقدِّمةَ على هذا الصُّلح يحْمَلُ أمْرُها على شَرْط المُواصَفةِ التى بين الملك الظاهِر وبين مُعاهَدِيه وبين بَيْتِ الاسبتار .

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل الصواب «ويستحق» كما هو ظاهر .

وعلىٰ أن هذه الهدنةَ تكونُ ثابتَـةً مُستقرّةً، لا تُنْقَضُ بموت أحدٍ من الجهتين، ولا وَفاةِ مَلِك ولا مُقَدَّمٍ، إلىٰ آخر المدّة المذكورة، وهى : عَشْرُ سنينَ وعشرةُ أشهرٍ وعشرةُ أيام وعَشْرُ ساعات، أوّلهـا يوم تاريخه .

وعلى أن نُوّابَ الملِكِ الظاهرِ ومعاهديه لا يتركونَ أحدًا من التُّركمان، ولا من العُرْبان، ولا من الأكْرادِ، يدخلُ بلادَ المناصَـفَات بغيرِ آتِّفاقٍ من بَيْت الاسبتار أو رِضاه، إلا أن يكْفُلوه علىٰ نُفُوسهم فى هذه الطوائف المذكورة، ويعلَمُوا حالَه، لئلَّا تَبْدُوَ منهـم أذِيّةٌ أو ضَرَرٌ أو فَسادٌ ببلد المناصفات وببلد النصارىٰ . ولنوّاب مولانا السلطان أن تتركهم علىٰ شَرْطِ أنهم يعلَمُ بهم بيْتُ الاسبتار فى غَدِ نزولهم المَكَان، إن كان المكانُ قريبا . وإن ظهر منهم فَسَادٌ كان النوّابُ يجاوبون بَيْت الاسبتار .

وعلىٰ أن المهادنةَ بحُدُودِها يكونُ الحكمُ فيها كما فى المناصفات، والحُدُودُ فى هذه البلاد جميعِها تكونُ علىٰ ما تَشْهدُ به نسخ الهُـدَنِ، وما آستقرَّ الحـالُ عليه إلىٰ آخرِ وَقْت .

وعلىٰ أن تخلّىٰ أمورُ المَملكَةِ الحِمْصِيَّة علىٰ ما كان مستقرًّا فى الأيام الأشْرفِيَّـة، علىٰ ما قرّره الأمير عَلَمُ الدِّين «سنجر» .

هذا ما وقع الآتِّفاقُ والتَّراضِى عليـه من الجهتين . وبذلك جَرَى القلمُ الشريفُ السلطانىُّ المَلَكِىُّ الظاهِرِىُّ : حجّـةً بمقتضاه، وتأكيدًا لمـا شُرِحَ أعلاه . كُتِب فى تاريخ كذا وكذا .

* * *

وهذه نُسْخةُ هُدْنَةٍ من هذا النَّمَـط، عُقِدتْ بين السلطان المَلِك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين مَلِكةِ بيروت من البلاد الشامية، فى شُهُور سنة سبع وستين وستمـائة حين كانت بيدها، وهى :

آستقرّت الهُدْنة المباركةُ بين السُّلطانِ الملِكِ الظاهِرِ رُكْنِ الدين «بيبرس» وبين المَلِـكَة الجليلة المَصُونة الفاخرةِ ، فُلانة آبنـة فلان ، مالِكَةِ بيروتَ وجميع جبالهـا وبلادها التَّحْتية مدّةَ عَشْرِ سنين متوالية ؛ أوّلهُـا يومُ الخميس سادِسُ رمضانَ سـنة سـبع وستين وستمائة الموافِقِ لتاسع إيار سـنة ألفٍ وخمسمائة وثمـانين يونانيـة ـ علىٰ بيروتَ وأعمالها المضافة إليهـا ، الجارى عادتُهم فى التَّصرُّف فيها فى أيام المَلِكِ العَادل ، أبى بَكْرِ بنِ أيُّوبَ ، وأيامِ ولَدِه الملكِ المعظَّمِ عِيسَى ، وأيَّامِ المِلِكِ النـاصِرِ صلاحِ الدِّين يُوسفَ بن الملك العَزِيزِ . والقاعدةِ المسـتقرّة فى زمَنِهم إلىٰ آخر الأيام الظاهرية ، بمقتضى الهُدْنَةِ الظاهِرِيَّة . وذلك مدينةُ بيروتَ وأماكنُها المضافةُ إليها : من حدّ جُبَيْلٍ إلىٰ حدّ صَيْدا ، وهى المواضع الآتى ذِكْرُها : جُونيَة بحدودها ، والعذب بحدودها ، والعصفورية بحدودها ، والراووق بحدودها ، وسِنّ الفيل بحدودها ، والرح والشويف بحدودها ، وانطلياس بحدودها ، والحديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ، والبشرية بحدودها ، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحـدودها ، وجلدا بحدودها ، والناعمة بحدودها ، ورأس الفيقه ، والوَطاءُ المعروف بمدينة بيروتَ ، وجميعُ ما فى هـذه الأماكِنِ من الرَّعايا والتُّجَّار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصَّادرين منها والواردين إليها من جميع أجْناسِ النَّاس ، والمتردّدين إلىٰ بلاد السلطان فلانٍ ، وهى : الحميرةُ وأعمالُها وقلاعُها وبلادُها وكلُّ ماهو مختصٌّ بها ، والمَمْلكة الأَنْطاكية وقلاعُها وبلادُها ؛ وجَبَلةُ واللَّاذِقِيَّةُ وقلاعُها وبِلادُها ؛ وحِمْصُ المحروسةُ وقِلاعُها وبِلادُها وما هو مختَصٌّ بها ؛ ومملكةُ حِصْنِ عَكَّا وما هو مَنْسُوبٌ إليه ؛ والمملكةُ الحَمَوِيَّةُ وقِلاعُها وبِلادُها وما هو مختَصٌّ بها ؛ والمملكة الرَّحَبِيَّة وما هو مختَصٌّ بها : من قلاعِها وبِلادها ؛ والمملكةُ البَعْلَبَكِّيَّةُ وما هو مختَصٌّ بها : من قلاعِها وبِلادها ؛ والمملكةُ الدِّمَشْقِيَّةُ وما هو مختَصٌّ بهـا : من قِلاعِهـا وبِلادها ورعاياها

ومَمالِكها، والمملكة الشَّقيفيَّة وما يختصُّ بِها من قِلاعِها و بِلادِها و رعاياها، والمملكةُ القُدْسيَّة وما يختصّ بها، والمملكةُ الحَلبيَّة وما يختصُّ بها، والمملكةُ الكَركِيَّةُ والشَّوْبَكيَّة وما يختص بها من القِلاعِ والبلادِ والرَّعايا، والمملكةُ النَّابُلُسيَّةُ، والمملكةُ الصَّرْخَدِيَّةُ، ومملكةُ الدِّيار المِصْرِيَّة جميعها : بثُغُورها، وحُصُونِهـا، ومَمـالِكها، و بلادِها، وسَواحِلها، و بَرِّها، وبَحْرِها، ورعاياها، وما يختصُّ بها، والسَّاكنينَ فى جميع هـذه المَـالك : المذكورة وما لم يذكر من ممالك السُّلْطانِ و بلادِه، وما سيفتحُه اللهُ تعالىٰ علىٰ يَدِه ويَدِ نُوّابِه وغِلْمانِه يكونُ داخلاً فى هـذه الهُدْنة المباركة، ومُنْتَظِماً فى جُمْلة شروطِها، و يكونُ جميعُ المتردّدين من هذه البلاد و إليها آمِنينَ مُطْمئِنِّين علىٰ نُفُوسِهِم وأموالِهِم و بضائِعهم، من المَلِكة فلانةَ وغِلمانِها، وجميع من هو فى حُكْمِها وطاعتِها : بَرًّا وبحرًا، ليلًا ونهارًا، ومن مَراكِبِها وشوانِيها . وكذلك رعيَّةُ المَلِكَة فلانةَ وغِلْمانُها يكونون آمنين علىٰ أَنْفُسِهِم وأَمْوالِهِم و بضائعهم من السُّلطانِ ومن جميع نُوّابِه وغِلْمانِه ومَن هو تحت حُكْمِه وطاعتِـه : برًّا و بحرًا، ليلًا ونهـارًا : فى جَبلَة، واللّاذِقيَّة، و جميعِ بلادِ السلطان، ومن مَراكِبِه وشَوانيه .

وعلىٰ أن لا يُجـدَّدَ علىٰ أحدٍ من التُّجّارِ المتردّدين رَسْمٌ لم تَجْرِ به عادةٌ، بل يُجْرَوْنَ على العوائد المُسْتَمِرَّة، والقواعد المُسْتَقِرَّة من الجِهَتَين . وإن عُدِم لأحدٍ من الجانبين مالٌ، أو أخِذَتْ أخِيـذَةٌ، وصحتْ فى الجِهَة الأُخرىٰ رُدّتْ إن كانت موجودةً، أو قِيمَتُها إن كانتْ مفقودةً . وإن خَفِى أمْرُها كانت المدّةُ للكَشْف أرْبعين يومًا، فإن وُجِدتْ رُدَّت، و إن لم توجدْ حلَّف وَالِى تلك الولايةِ المدّعىٰ عليـه، وحلَّف ثلاثة نَفَرٍ ممَّن يختارُهم المُدّعِى، وبَرِئَتْ جِهَتُه من تلك الدَّعْوىٰ . فإن أبىٰ المدّعىٰ عليه عن اليمينِ حلَّفَ الوَالِى المُدّعِىَ، وأخذ ما يدَّعِيه . وإن قُتِلَ أحدٌ من الجانبين خَطأً كان أو عَمْدًا، كان على القَاتِلِ فى جهته العِوَضُ عنه نَظِيره : فارِسٌ بفارِس،

وبَرْكِيلٌ ببَرْكِيلٍ ، وراجِلٌ براجِلٍ ، وفَلَّاحٌ بفَلَّاحٍ . وإن هرب أحدٌ من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، ردّ من الجهتين هو والمالُ، ولا يُعتَذَرُ بعُذْرٍ .

وعلىٰ أنه إن تاجر فرنجى صَدَر من بيروتَ إلىٰ بلاد السُّلطان يكونُ داخلًا فى هذه الهُدْنة، وإن عاد إلىٰ غيرها لا يكون داخِلًا فى هذه الهُدْنة .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَة فلانةَ لا تُمَكِّنُ أحدًا من الفرنج على آختلافهم من قَصْد بلاد السُّلطانِ من جهة بيروتَ وبلادِها ؛ وتمنعُ من ذلك وتدفعُ كلَّ متطرِّقٍ بسُوءٍ ، وتكونُ البلادُ من الجهتينِ محفُوظةً من المتجَرِّمين المُفْسِدين .

وبذلك آنعقدت الهُدْنة للسلطان ، وتقرَّرَ العملُ بهذهِ الهُدْنةِ والآلتزامُ بعُهُودها والوفاءُ بها إلىٰ آخر مُدَّتِها من الجهتين : لا ينقُضُها مُرُورُ زمانٍ، ولا يُغَيِّرُ شروطَها حِينٌ ولا أوان ؛ ولا تُنقَضُ بموْتِ أحدٍ من الجانبين . وعند آنقضاءِ الهُدْنة تكون التُّجَّار آمنين من الجهتين مدّةَ أربعين يوما ، ولا يُمنَعُ أحدٌ منهم من العَوْدِ إلىٰ مستقره ، وبذلك شَمِلَ هذه الهُدْنةَ المباركةَ الخطُّ الشريفُ حُجَّةً فيها، والله الموَفِّقُ ، فى تاريخ كذا وكذا .

***

وهذه نُسخةُ هُدْنةٍ عُقِدتْ بين السلطان المَلِكِ الظاهر «بيبرس» وولده المَلِكِ السَّعيد، وبين الفرنج الاسبتارية، علىٰ قَلْعةِ لُدٍّ بالشام، فى سنة تسع وستين وستمائة، وهى :

آستقرّتْ الهدنةُ المباركةُ بين السُّلطانِ المَلِك الظَّاهرِ رُكْن الدِّين «بيبَرْس الصَّالحىّ» قَسِيمِ أمير المؤمنين وولَدِه المَلِكِ السَّعيد ناصر الدِّين «محمد بَرَكه خاقان» خليل أمير المؤمنين ؛ وبين المُباشِر المقدَّمِ الجَلِيلِ افريز أولدكال مقدَّمِ جميع بَيْتِ آسبتار سرجوان بالبلاد السَّاحِلية ، وبين جميع الإخْوَة الاسبتارية ، لمدّة عَشْر سنينَ

كوامِلَ مُتوالياتٍ مُتَتابعاتٍ، وعَشَرةِ أشْهُرٍ، أوّلُهـا مُسْتهَلُّ رمضانَ سنَة تسع وستين وستمائةٍ للهِجْرةِ النبويَّة المحمَّديَّة، الموافِق للثامن عَشَر من نَيْسانَ سنةَ ألْفٍ وخمسمائةٍ وآثنتين وثمـانين للإسْكَنْدَر بن فيلبس اليُونانِيّ ـ علىٰ أن تكونَ قَلْعـةُ لُدٍّ بكمالها وَرَبَضِها وأعمالِها ، وما هو مَنْسوبٌ إليها ومَحْسُوبٌ منها ، بحُدُودِها المعروفة بها من تقادُم الزمان، وما آستقرّ لهـا الآن، وما يتعلّقُ بذلك : من المواضع ، والمَصايِدِ، والمَلّاحات ، والبَسَاتين ، والمَعـاصِر ، والطَّواحِين ، والجزائر : سَهْلِهـا وجَبَلِها ، وعامِرِها، ودَاثِرِها ، وما يجري بها من أنْهارٍ ، ويَنْبَعُ بها من عُيُون، وما هو مَبْنِيٌّ بها من عمائر، وما آستجدّ بها من القَراح وغيرِ ذلك ؛ وكلُّ ما عُمِّر في أراضي المُناصفات علىٰ دُورِها وأنهارها ، وما بحدود ذلك من نَهْر بدرة إلىٰ جِهَة الشَّمال ، وما آستقرّ لبَلْدَة من هـذه الجهات إلىٰ آخر الأيام النَّاصِريَّة من الحدود المعروفة بها والمُسْتقرَّة لهـا ، وحِصْن برغين وما يُنْسبُ إلىٰ ذلك من البلاد والضِّـياع والقُرَى التي كانت مُناصَـفَةً ـ تكونُ جميعُ بَلدة وهـذه الجهات خاصا إلىٰ آخر الزائد للمَلِك الظَّـاهِر، ولا يكون لبَيْت الأسبتار ولا للمرقب فيها حقٌّ ولا طَلَبٌ بوجْهٍ ولا سَبَبٍ إلىٰ حين آنقضاء مُدَّة الهُدْنَة وما بعدها إلىٰ آخر الزائد، ولا لأحدٍ من جميع الفرنجة فيها تعلُّقٌ ولا طَلَبٌ بوجْهٍ ولا سبب .

وكذلك مهما كان مُناصَـفةً، كتَلْعة العليقـة في بلادها لبَيْتِ الاسبتار ، يكون ذلك جميعُـه للدِّيوان المَعْمور والخـاصِّ الشريف ، ولا يكون للمرقَب فيهـا شيءٌ ولا لبَيْت الأسبتار .

وكذلك كلُّ ما هو في بلاد الدَّعوة المُبارَكَةِ جميعها وقِلَاعها من القرىٰ ـ لا تكون فيها مُناصَفةٌ لبيت الاسبتار ولا للمرْقَب، ولا حقٌّ، ولا رَسْمٌ، ولا شرطٌ، ولا طلبٌ

فى جميع بلادِ الدَّعْوة : مِصْـيافِ المحروسة ، والكَهْف ، والمنيقـةِ ، والقُدْمُوس ، والخَوابِى ، والرُّصافَة ، والعليقَة . وكلُّ ما هو فى هذه القِلاع وفى بلادها من مُناصَفَة ، يكون ذلك خاصًّا للملك الظـاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيـه حَدِيثٌ ولا طَلَبٌ .

وعلىٰ أن تكونَ بلادُ المَرْقَب وحُدُودُها من نَهْرِ لُدٍّ ومُقَبَّلًا ومُغَرَّباً إلىٰ حدود بلاد مَرْقَبـة المعروفةِ بها ، الدَّاخل جَميعُها فى الفُتُوح الشريف ، وٱسْـتِقْرارها بحُكْم ذلك فى الخاصّ المباركِ الشَّرِيف ، وحَدّ البُيوتِ المحاذيةِ لسُور الرَّبَض ، تسـتقرُّ جميعُها مناصفةً بين السُّلطانِ و بين بَيْتِ الآسبتار نِصْفين بالسَّوِيَّة ، وما فى جميع هذه البلاد : من بَسَاتِين ، وطواحِينَ ، وعمائِرَ ، ومَصايدَ ، ومَلَّاحات ، ووُجُوه العَيْن ، والمُسْتَغَلَّات الصَّيفِيّة والشَّتْوِية ، والقَطَانِى ، والحُقوقِ المستخرجة ، وما هو مَزْرُوعٌ من الفدن لأَهْـل الرَّبَض وبَيادِرها : يكونُ ذلك مُناصَـفَةً بين السلطان و بين بَيْتِ الآسبتار سرجوان بالسَّوِيَّة نِصْفَين .

وما هو دَاخِل الرَّبِض وداخل المَرْقَب ، فإنه مُطْلَقٌ من المَلِك الظاهِرِ للقَـدَّم الكبير افريز أولد كال مقـدّمِ بَيْتِ الآسبتار سرجوان وخَيَّالَتِه ، ورِجَالِه وحَمَّـالَتِه ورَجَّالَتِـه ورَعِيَّتِه ، برَسْمِ إقامتهم وسُكْناهُم من داخل الأسوار ، وعن سُورِ الرَّبَض المحـاذيةِ للسُّورِ تكونُ مناصَـفَةً جميعُها ، بمـا فيـه من حقوق طُرُقات وأَحْكَار ، ومَرَاعِى المَواشِى على ٱخْتلافِ أصوافِها وأَوْبارِها ، وجميع السخريات ، وكلّ أَرضٍ مَزْروعةٍ أو غَيْرِ مزروعةٍ مهما أُخِذَ منه من حَقٍّ أو عِدادٍ يكونُ مُناصَفَةً .

وكلُّ ما هو من المَوَانِى والمَرَاسِى البَحْرِيَّة المعروفةِ جميعِها بحِصْنِ المَرْقَب : من مِينَا بَلْدة إلىٰ مينا القَنْطرة المُجاوِرَةِ لحـدود مَرْقَبَةَ ـ تكونُ هى وما يَتحصَّلُ منها من

الحقوقِ المُسْتخْرجَةِ من الصادرين والواردين والتُّجّار ، وما ينعقِدُ عليــه آرتفاعُها ، وتَشْهدُ به الحُسْبانَاتُ ــ جميعُه مُناصفةً . وما يدخُلُ فى ذلك من أجناس البَضَائِــع على آختلافها يؤخذُ الحقُّ [منه] مُناصَفَةً على العادةِ الجاريةِ من غير تغيير لقاعدَةٍ من حِينِ أَخْذِ بيتِ الآسبتار المَرْقَبَ إلىٰ تاريخ هَــذه الهُدْنةِ المباركةِ مُناصَفَةً على العادة الجاريةِ ، بل تَجْرِى التُّجَّارُ فى الحقوق علىٰ عادتهــم فى البضائع التى يُحْضِرونها والمَتْجَر كائنًا من كان .

يعتمدُ ذلك فى كلِّ ما يَصِــلُ للتردِّدِينَ والمقيمين بالقَلْعةِ والرَّبَضِ : من عامَّةٍ وغير عامَّة ، وخَيَّالةٍ وغير خَيَّالة ، على آختلاف أجناسهم ، خَلَا ما يَصِلُ للإِخْوَةِ ولغِلْمانِهم المعروفين بالإِخْوَةِ الآسبتارية من الحُبُوب والمَئُونة والكُسْوةِ والخَيْلِ التى هى برَسْم رُكُوبِهم خاصَّةً ، لا يكونُ عليها حقٌّ ، بشَرْطِ أنه لا يكون فيها للتُّجَّار شىءٌ من ذلك ، وماخلا ذلك جميعه يُؤْخذُ الحقُّ منه مناصفةً علىٰ ما شَرَحْناه .

وعلىٰ أنه لا يَحْمِى أحدٌ من الإخوةِ الخَيَّــالة ، والوُزَراءِ ، والكُتَّاب ، والنُّوَّاب ، والمستخدمين شيئًا علىٰ آسم بَيْتِ الآسبتار ، ليستطلقَ الحقّ و يمنَعَ من آسْتِيدَائِه ، ولو أنَّه أقْربُ أخٍ إلى المُقَدَّم أو وَلَدُ المقَدَّم . إذا ظَهَر منه خلافُ ما وقع عليه الشَّرْط ، أُخِذَ جميعُ مالِه مُسْتَهلَكًا للجهَتَين : للدِّيوانِ السُّــلْطانىّ المعمور ، ولبَيْت الآسبتار ، إن كان خارجًا من البَحْرِ أو نازلًا إلى البَحْرِ ، صادِراً ووَارِدًا ، وكذلك فى البَرِّ صادرًا ووارِدًا بعد المُحاققَةِ علىٰ ذلك وصِحَّته .

وعلىٰ أنَّ نُوّابَ المُباشِرِ المقَدَّمِ الكبيرِ لبَيْت الآسبتار ، ووُلاتَه وكُتّابَه ومُسْتَخْدمِيه وغِلمــانَه ، يكونونَ آمِنِينَ مُطمَئِنِّينَ علىٰ نفوسِهم وأموالهِم وجميع ما يتعلَّقُ بهــم . وكذلك غِلْمانُنــا ووُلاتُنا ونُوّابُنا ومُسْتَخْدَمُونا وكُتّابُنــا ورعايا بِلادِنا يكونون آمِنِينَ

مُطمَئنِّين علىٰ نفوسهم وأموالهم ، مُتَّفِقِينَ علىٰ مصالح البلاد وأخْذِ الحُقُوق ، وسائر المُقاسَمات والطُّرقات والبَساتين والطَّواحِين ، والحُقُوقِ المقرَّرَة على الفدن على ٱختِلافِ أجْناسها . وكذلك الرَّآسة وٱستخراجُ وُجوهِ العينِ ، والحُبُوبِ ، والتصاريفُ الجارى بها العادة المقرَّرَة على الفدن ، من جميع ما يتعلَّقُ بها .

وعلى أن جميعَ الضمانات يكونُ نُوّابُ السلطانِ ونُوّابُ بَيْتِ الأسبتار مُتَّفقينَ جُملةً علىٰ ذلك ، لا ينفردُ أحَدٌ منهم بشَيْءٍ إلا بٱتفاقٍ وتَنْزِيلٍ فى دفاتر الديوان المَعْمور وديوانِ بَيْتِ الأسبتار ، ولا يُطْلَقُ ولا يُحْبَسُ إلا بٱتِّفاقٍ من الجهتين ، ولا ينفردُ واحدٌ دون آخَر .

وعلىٰ أنَّ أيَّ مُسْلِمٍ تصدُرُ منه أذِيَّةٌ يحكُمُ فيه بما يَقْتَضِيه الشرعُ الشريفُ فى تأديبه ، يعتمدُ ذلك فيه نائبُنا : من شَنْقٍ يجبُ عليه ، أو قَطْع . أو أُدِّبَ بحُكْمِ الشَّرْع الشريف : من شَنْقٍ ، وقَطْعٍ ، وكَحْلِ أعْيُنٍ ، بحيثُ لا يُعْمَلُ ذلك إلا بحضُورِ نائبٍ من جِهَةِ بَيْتِ الأسبتار ، حاضِرٍ يُعايِنُ ذلك بعَيْنِه ، ويكونُ قد عَرَفَ الذَّنْبَ وتَحقَّقَه . وإن كانَ ذَنْبُه يستوجِبُ جنايةً أو غَرامَةَ دراهِمَ أو ذَهَبٍ أو مَواشٍ أو غيرِ ذلك على ٱختِلافِ أجناسه ، يكونُ ما يُستأدَىٰ مُناصَفَةً للدِّيوان المَعْمُور ولبَيْتِ الأسبتار وصاحِبِ المَرْقَب . فإن كان فيها[1] قُماشٌ وبَضائعُ على ٱختلافِ أجْناسه ، وصاحبُه مُسْلِمٌ ، يأخذُ بضاعَتَه من غير ٱعْتراضٍ من الجهَتَينِ بعد أداءِ الحقِّ للدِّيوان المعمورِ ولبَيْتِ الأسبتار . وإن لم يُعْرَفْ صاحِبُ البضاعة وكانَتْ لمُسْلِمٍ ، أعيدتْ للخِزانة السُّلْطانية ولا يكونُ لبَيْتِ الأسبتار فيها تَعلُّقٌ . وإن كان صاحِبُ البضاعة نَصْرانياً على ٱختلاف أجناس النَّصارىٰ ، تُؤْخذُ بضاعَتُه من غير ٱعتراضٍ من جهتِنا ، بعد أداءِ الحَقِّ . وإن لم يُعْرفْ صاحِبُ البضاعة ، وكانتْ لنَصْرانىٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شيء يعود عليه الضمير .

تبقىٰ تحت يَدِ بَيْتِ الأسبتار ، خلا من كان من بلاد مملكة السُّلْطانِ على آختلاف دِينِه : إن كان نَصْرانيًّا أو ذِمِّيًّا ، على آختلاف جِنْسِ دِينِه ، ليس لَبَيْت الأسبتار عليهم آعتراضٌ ، ويحمِلُ ذلك جميعُه على آختلاف أجْناسِ البضائع للدِّيوان المَعْمُور .

وعلىٰ أنه متى آنْكَسر مَرْكَبٌ ، وظهر إلىٰ برّ المَوَانى بِضَاعةٌ ، وقصد صَاحِبُه شَيْلَه إلىٰ جِهَةٍ يختارها فى البَرِّ والبَحْر ، ولا يُتْبَعُ ، فيؤخَذُ الحقُّ منه : إن باع يؤخَذُ الحقُّ ، وإن حَمَل يؤخَذُ الحقُّ ، ويكونُ الحقُّ للجهتين : وهو الحقُّ المعروفُ الجارِى به العادة .

وعلىٰ أن التُّجَّارَ السَّفَّارة والمتردّدِينَ بالبضائع من بلاد المُسْلمين والنَّصارىٰ متىٰ ما خرجُوا من المَوَانِى المحدودة أعْلاه يتوجَّهونَ بخِفَارَةِ الجهتين من غير حقٍّ : لا يُتناوَلُ من الخِفَارةِ شىءٌ منْسوبٌ إلىٰ نفوسهم إلىٰ أن يُخرجَهم ويُحضرَهم إلىٰ برّ حُدُودِ المَرْقبِ آمِنِينَ مُطمئِنِّين تحت حِفْظ الجهتين . ومتىٰ وصلَ التُّجَّار من مملكة السُّلطانِ إلىٰ بلاد المَرْقبِ وموانيها ، فالتَّرْتيبُ على الخِفَارةِ من الجهتين ، مع تدرُّك الرُّؤساء الحِفْظَ للطرقات صادرًا ووارِدًا ، بحيثُ إنَّهم يحضرون إلىٰ بلاد المَرْقبِ ، وإلى الموانى بالمَرْقَبِ المحدودةِ أعْلاه ، طيِّبينَ آمِنِينَ علىٰ أرواحهم وأموالهم بالخِفارة من الجهتين ، علىٰ ما شَرَحناه .

وعلىٰ أنَّ غلمان المباشِرِ المقدَّمِ لَبَيْت الأسبتار والإخْوة والخيَّالة والرَّعيَّة المقيمين بقَلْعة المَرْقب والرَّبَض ، يكونون آمنينَ مُطْمئِنِّين على أنْفسِهم وأموالهم ومن يَلُوذ بهم ويتعَلَّق ، فى حال صُدُورهم ووُرُودِهم إلىٰ بلادنا الجارية فى مَمْلَكتِنا فى البرِّ منَّا ومن نُوَّابِنا بالمملكة والبلادِ الجارية فى حكْمِنا ، ومن وَلَدِنا المَلِك السَّعِيد ، ومن أُمَرائِنا وعَساكِرنا المنصورة . وإن قُتِلَ قتيلٌ أو أُخذَتْ أَخيذَةٌ فى حدود المناصف ببلاد

المَرْقب ، فيقَعُ الكَشْفُ عن ذلك عِشْرين يومًا : فإن وُجد فاعِلُ ذلك ، يؤخَذُ الفاعِلُ بِذَنْبِـه . وإن لم يظهَرْ فاعِلُ ذلك مدّةَ عشرين يومًا فيُمْسِكُ رُؤَساءُ مكانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأَخْذِ الأَخِيذَةِ ، وقَتْلِ القتيلِ ، إن كان أَخْذٌ وقَتْلٌ ـ مكانَ من قتَلَ القتيلَ أو أَخَذَ الأَخِيذَةَ ـ أقْربَ القُرباءِ إلى الذى قَطَع عليه الطريقَ أو قتَل قتيلًا . فإن خَفِىَ الفاعِلُ لذلك ، وعُجِزَ عن إحضاره بعد عشرين يومًا ، يُلزِمُ أهْلُ نُوّابِ الجهتين من القُرباءِ الأقربَ لذلك المكانِ بألْفِ دينارٍ صُورِيَّة : للدِّيوان السلطانىّ النِّصْفُ ، ولِنَقِيبِ الأسبتار النِّصفُ ، ولا تتكاسل الولاةُ فى طَلَبِ ذلك ، ويكونُ طَلَبُـه يَدًا واحدةً ، ولا يختص الواحِدُ دون الآخَر . ولا يحابى أحد منهم لأخْذِ الفَلَّاح فى هذا أوغيرِه فى مَصْلحةِ عِمـارَةِ البلاد ، وآسْـتخراجِ الحُقُوق ، ومُقاسَمةِ الغِلال ، وطَلَبِ المُفْسدين ليلًا ونَهارا .

وعلىٰ أن لا تغيَّرَ الهُدنةُ المُبارَكَةُ بأمْرٍ من الأمور ، لا من جِهَتِنا ولا من جِهَةِ ولدِنا المَلِك السَّعيد ، إلى آنقضاء مُدَّتِها المعيَّنةِ أعْلاه وفروعِها . ولا تتغيَّر بتَغَيُّرِ المقدَّمِ المُباشِرِ لبَيْت الأسبتار الحـاكم على المرقَب وغيره . وإذا جَرَتْ قَضِـيَّةٌ فى أمْرٍ من الأمور يعرِّفُهم نُوَّابُنا ، ويحقَّقُ الكَشْفُ إلى مدَّةِ أربعين يومًا ؛ فمن يكون للبـداية يخرج منها على من سىب(؟) ويكونُ قد عَرَفَ دَيْنَه الذى بدا من جِهَةِ كلِّ واحدٍ . وإذا تغيَّر النوّابُ بالمَرْقِبِ وحضَر نائبٌ مُسْتَجِدٌّ يعتَمِدُ ما تضَمَّنَتْه هذه الهُدْنةُ ، ولا يخرج عن هذه المُواصَفَةِ . وإذا تَسَحَّبَ من المسلمين أحدٌ على آختلاف أجْناسِـه ، إن كان مَمْلُوكًا أو غيرَ مَمْلوكٍ ، أو مَعْتوقًا أو غيرَ مَعْتُوقٍ ، أو كائنًا مَن كان من المسلمين على آختلاف مَنازِلهم ، وإن كان غُلامًا أو غيرَ غُلامٍ ـ يرَدُّ بجميع ما يُوجَدُ معه ، إن كان قليـلًا أو كثيرًا يرَدّ . ولو أنَّ المتَسَحِّبَ دخَلَ الكَنِيسةَ وجلس فيها يُمْسِـكُ بيَده ويخرجُ ويسلَّمُ لنوّابِنا بجميع ما مَعَه ، وإن كان خَيْلًا أو قماشًا أو دَراهِمَ أو ذَهبًا

وما يتعامل الناسُ به، يسلِّمُ بما معه إلى نوابنا على ماشرحناه . وكذلك إذا تسحَّب أحدٌ من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وصل إلى جهة نوابنا يُمسك ويسلَّم بما يحضر معه : من الخيل والأقمشة والعدَّة وجميع مايصلُ إن كان قليلًا أو كثيرا، يُمسكه نوّابنا ويُسلّمون ذلك بما معه لنائب المقدّم المساستر المُقيم بالمَرْقب، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكونُ لهم حديثٌ مع قَلْعة العليقة ، ولا الرَّعيَّة الذين فيها ، ولا مع نُوّاب ابن الرديني المقيمين فيها : لا بكِتاب ، ولا بمشافهةٍ، ولا برسالةٍ، ولا بقولٍ، ولا يَطْلُع أحدٌ من جهتهم إليهم ؛ ولا يمكَّنُ أحدٌ من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جهتهم من القلْعة المذكورة؛ ولا تُسَيَّر إليهم مئُونةٌ ولا تجارة ولا جلَب على اختلاف أجناسه ، ولا تكونُ بينهم معاملة . وإن حضر أحدٌ من جهة قلْعة العليقة إليهم يُمسكون ويُسلّمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خُطوطهم .

وعلى أنهم لايجدّدون عِمارة قلْعةٍ ،ولا فى القلْعة عِمارةً، ولا فى البدنة ولا فى أبراجها؛ ولا [يعتمدون] إصلاح شَيْءٍ منها إلا إذا عاينه نُوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضَّرورة فى ترميمٍ يرمّمونه بعد أن يُعاينه نُوّابنا من هذا التاريخ؛ ولا يجدّدون عِمارةً فى رَبَضها، ولا فى سُورها ، ولا فى أبراجها ، ولا يجدّدون حفْرَ خندقٍ، وعِمارةَ خندقٍ، أو تُجدّدُ بنايةُ خندقٍ أو قَطْعُ جَبَل ، أو تُحَصَّنُ عِمارة ، أو تُحَصَّن بقطْع جبل ، منسوبًا لتَحْصين يَمنعُ أو يَدْفع . ولم نأذنْ لهم بسوى البناية [على] أثر الدُّور التى أحرقتْ عند دُخول العساكر صُحْبةَ المَلِك السَّعيد . وقد أذنا لهم فى عِمارة باطن الرَّبَض على أثر الأساس القَديم .

وعلى أنَّ صِهيَوْنَ وأعمالَها، وبرومه(؟) وأعمالَها، والقليعةَ وأعمالَها، وعيْدُوب وأعمالَها، الجارية تحت نَظَر الأمير سَيْف الدِّين محمد بن عثمان صاحب صِهيونَ ـ

يجرى حُكْم هذه البلاد المختصة به حُكْم بلادنا فى المُهادَنةِ، بحُكْم أنَّ بلادَه المذكورةَ جَارِيةٌ فى ممالِكِنا الشَّريفة .

وعلىٰ أنه لا يُمَكِّنُ بَيْتُ الأسبتار من دُخُول رِجْلٍ غَرِيبةٍ فى البَرِّ ولا فى البَحْرِ إلىٰ بلادنا، بأذيَّةٍ ولا ضَرَرٍ يعودُ على الدَّوْلة، وعلىٰ بِلادِنا وحُصُوننا ورَعِيَّتنا، إلا أن يكونوا يَدًا غالبةً، صُحْبةَ مَلِكٍ مُتَوَّجٍ .

وعلىٰ أنَّ البُرْجَ الداخِلَ فى المُناصَفَةِ، وهو بُرْج مُعاوِيةَ الذى عند المحاصَّةِ الداخلةِ فى مَناصِفِ المَرْقَبِ الآنَ، يُخَرَّبُ ما يَخُصُّنا منه، وهو النِّصفُ من البُرْجِ المذكورِ أعْلاه . وأن الجِسْرَ المعروفَ بجِسْرِ بَلْدةَ لم يكنْ لبَيْتِ الأسبتار فيه شيءٌ من البَرِّيْنِ، وأنه خالصٌ للديوان المعمور دُونَ بَيْتِ الأسبتار . وأن الدَّارَ المستجدَّةَ عمارتُها بقَلْعةِ المَرْقَب برسْم الماستر المقدَّمِ الكَبِير، الذى هو عايز تكميل عِمارةِ سَقْفِ القَبْوِ بالحجارة والكِلْسِ، لا تكَمَّلُ عِمارتُها، ويبقىٰ علىٰ حاله، وهو فى وَسَطِ القَلْعةِ الظاهرِ منه قليلٌ إلىٰ البرّ الشَّرْقى وهو المذكورُ أعلاه .

وعلىٰ أن نُوّابَ الأسْبتارِ بالمَرْقَبِ لا يُخْفُون شيئًا من مُقاسمات البِلادِ ولا شيئًا من حُقُوقها الجارى بها العادةُ أن بَيْت الأسبتار يَسْتخْرِجُونه ولا يُخْفون منه شيئًا؛ وكُلُّ ما كان يستأدىٰ من البلاد فى أَيْدى الأسبتار قبلَ هذه الهُدْنَةِ يُطْلِعُون نوّابَنا عليه ولا يُخْفُون منه شيئًا قليلًا ولا كثيرًا من ذلك .

وعلىٰ أنَّ السلطانَ يأمُر نُوَّابَه بحِفْظ مُناصَفات بلادِ المَرْقَبِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنَة، من المُفسدِين والمتلَصِّصينَ والحراميَّة ممن هو فى حُكْمه وطاعته . وكذلك الماستر المقدَّم افريز أولدكال يلزمُ ذلك من الجِهَةِ الأُخْرىٰ . ومتىٰ وقع ــ والعياذُ باللهِ ــ فَسْخٌ بسبَبٍ من الأسْبابِ، كان التُّجّارُ والسُّفّار آمِنينَ من الجهتين إلىٰ

أن يَعُودوا بأمْوالهِم ، ولا يُمْنعونَ من السَّفر إلىٰ أماكِنِهم من الجهتين ، وتكونُ النهايةُ لهم أربعين يومًا . وتكونُ هذه الهُدْنَةُ منعقدةً بشروطها المذكورةِ ، مُسْتَقِرَّةً بقواعِدِها المسطورة للمدّةِ المعَيَّنة ، وهى : عَشْر سنين وعشرةُ أشْهُرٍ كوامِلَ ، أوّلُها مُسْتَهَلّ رمضانَ سنة تسع وسِتّين وستمائة إلىٰ آخرِها ، متتابعةً متواليةً ، لا تفسخُ بموْتِ أحدٍ من الجهتين ، ولا بعزْلِ والٍ وقيامِ غيره موْضِعَه ، ولا زوالِ رجْلٍ غريبةٍ ، ولا حُضورِ يدٍ غالِبَةٍ ؛ بل يلزمُ كلًّا من الجهتَينِ حِفْظُها إلىٰ آخرِها ؛ ومن تولّى بعد الآخرِ حفظَها إلىٰ آخرها ، بالشُّروطِ المشروطةِ فيها أوّلًا وآخرًا . والخطُّ أعلاه ، حجَّةٌ بمقتَضاه ، إن شاء الله تعالىٰ . فى تاريخ كذا وكذا .



وهذه نُسْخةُ هُدْنةٍ عُقِدتْ بين السلطان المَلِكِ المنصور « قلاوُون » الصالحىّ صاحبِ الدِّيارِ المِصْريّةِ والبلادِ الشاميّةِ وولَدِه المَلِكِ الصالحِ « علىٍّ » ولِىِّ عهْدِه ، وبينَ حُكّامِ الفَرَنْج بعكّا وما معها من بلاد سَواحِلِ الشّامِ ، فى شهور سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، وهى يومئذ بأيديهم . وصُورتُها :

استقرَّتِ الهُدْنةُ بين مولانا السُّلطانِ المَلِكِ المنصورِ سَيْفِ الدِّينِ أبِى الفَتْح «قلاوون» المَلَكِىّ الصّالحِىّ وولَدِه السلطانِ المَلِكِ الصالحِ عَلاءِ الدِّينِ « عَلِىٍّ » ـ خلَّد اللهُ تعالىٰ سلْطَنتَهما ـ وبين الحُكّامِ بمملكة عكّا ، وصيْدا ، وعَثْليث ، وبلادِها التى انعقدتْ عليها هذه الهُدْنةُ ، وهم : الشيخان أو دهيل المملكة بعكّا ، وحضرةُ المقدَّمِ الجليلِ افريز كاسام دسا حول(؟) مقدَّمُ بَيْتِ الديويّةِ ؛ وحضرةُ المقدَّمِ الجليل افريز سكفل للورن(؟) مقدّمُ بيْتِ الاسبتارية ، والمرشانُ الأجَلُّ افريز كورات نائبُ مقدَّمِ بَيْتِ الاسبتار الآمن ـ لمدّة عَشْرِ سنين كوامِلَ ، وعَشَرةِ أشْهر ، وعشرةِ أيّامٍ ،

وعَشْرِ ساعاتٍ : أوَّلُها يومُ الخميس خامسُ ربيع الأوّل سنة آثنتين وثمانين وستمائة للهِجْرَةِ النَّبَوِيَّة، صلواتُ الله علىٰ صاحبها وسَلامُه، الموافِقُ للثالثِ من حَزِيرَانَ سنة ألفٍ وخمسمائةٍ وأربع وتسعين لغَلَبةِ الإسْكَنْدَرِ بنِ فيلبس اليُونانِيِّ - علىٰ جميع بلاد السُّلطانِ وولَدِه، وهي التي في مَمْلكتهما وتحتَ حُكْمِهما وطاعتِهما وما تَحْوِيه أيديهما يومئذٍ : من جميع الأقاليم والمَمَالك، والقِلاع، والحُصُونِ الإسلامية، وثَغْرِ دِمْياطَ، وثَغْرِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ المحروستين، ونَسْتَرُو، وسَنْتَرِيَّة وما ينسب إليها من المَوَاني والسواحل، وثَغْرِ فُوَّةَ، وثغرِ رَشيدَ، والبلادِ الحجازية، وثَغْرِ غَزَّةَ المحروس، وما معها من المَوَانِي والبلاد، والمَمْلكةِ الكَرَكِيَّة، والشَّوْبَكِيَّة وأعمالِها، والصَّلْتِ وأعْمالِها، وبُصْرىٰ وأعمالِها، ومَمْلكةِ بلادِ الخَليل صلواتُ الله عليه وسَلامُه؛ ومَمْلكةِ القُدْسِ الشَّريفِ وأعمالِها، وبَيْتِ لَحْمٍ وأعمالِه وبلادِه، وجميعِ ما هو داخلٌ فيها ومَحْسوبٌ منها، وبَيْتِ جبريلَ، ومملكةِ نَابُلُسَ وأعمالِها، ومملكةِ الأَطْرُون وأعمالِها، وعَسْقَلانَ وأعمالِها ومَوانِيها وسَوَاحِلها، ومَمْلكةِ يافَا والرَّمْلَةِ وميناهَا، وقَيْسارِيَّةَ وميناها وسَواحِلها وأعْمالِها، وأَرْسُوف وأعْمالِها، وقَلْعة قَاقُونَ وأعْمالِها وبلادِها، وأعمال العَوْجَاءِ وما معها من الملاحة، والفُتُوحِ السَّعيدِ وأعمالِها ومَزَارِعِها، وبَيْسَانَ وأعمالِها وبلادِها، والطُّورِ وأعمالِه، واللَّجُونِ وأعمالِه، وجِينِينَ وأعمالِها، وعَيْنِ جالوتَ وأعمالِها، والقَيْمُونِ وأعمالِه وما يُنْسبُ إليه، وطَبَرِيَّةَ وبُحَيْرتِها وأعمالِها وما معها، والمَمْلكةِ الصَّفَدِيةِ وما يُنْسبُ إليها، وتِبْنِينَ وهُونِينَ وما معهما من البلاد والأعمال، والشَّقِيفِ المحروسِ المعْرُوفِ بشَقِيفِ أَرْنُونَ وما معه من البلاد والأعمالِ وما هو مَنْسوبٌ إليه، وبلادِ الفرن وما معه خارجًا عما عُيِّن في هذه الهُدْنةِ المُباركة، ونِصْفِ مَدِينة إسْكَنْدَرُونَةَ، ونِصْفِ ضَيْعةِ مارِبَ بِفُدُنِهما وكُرُومِهما وبَساتِينِهما وحُقُوقِهما؛ وما عدا ذلك من حُقُوقِ إسْكَنْدَرُونَةَ

المذكورة ، يكون جميعه بحُدوده وبلاده للسلطان المَلِك المنصور ولولده النِّصْف ، والنِّصفُ الآخَرُ لمملكة عكَّا . والبِقاع العزيزى وأعماله ، وشَعْرا وأعمالها ، وشَقيف تيرُونَ وأعماله ، والعامِر جميعها ولا نا وغيرها (؟) ، وبَانيَاس وأعمالها ، وقَلْعة الصُّبَيْبَة وأعمالها وما معها من البُحَيْرات والأعمال ، وكَوْكَب وأعمالها وما معها ، وقَلْعة عَجْلُونَ وأعمالها ، ودِمَشْق والمملكة الدِّمَشْقِيَّة ــ حرسها الله تعالى ــ وما لها من القِلَاع والبِلاد والممالك والأعْمال ، وقَلْعة بَعْلَبَكّ المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حِمْص وما لها من الأعمال والحدود ، ومَمْلكة حَماة المحروسة ومَدينتها وقَلْعتها وبلادها وحُدُودها ، وبَلاطُنُسَ وأعمالها ، وصِهْيَوْنَ وأعمالها ، وبَرْزَيه[1] وأعمالها ، وفُتوحات حِصْن الأكْراد المحروس وأعْماله ، وصَافيتَا وأعْمالها ، و[2] أعمالها ، والعُرَيمة وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعْمالها ، والقليعة وأعمالها ، وحِصْن عَكَّار وأعْماله وبلاده ، وقَلعة شَيْزَر وأعمالها ، وأفَامِيَةَ وأعمالها ، وجَبَلَةَ وأعمالها ، وأبو قُبَيْس وأعماله ، والمملكة الحَلَبيَّة وما هو مُضافٌ إليها من القِلاع والمُدُن والبِلاد والحُصُون ، وأنْطاكيَةَ وأعمالها وما دخلَ فى الفُتُوح المُبارَك ، وبَغْراس وأعمالها ، والدَّرْبَسَاك وأعمالها ، والرَّاوَنْدان وأعمالها ، وعَيْنتابَ وأعمالها ، وحَارِم وأعمالها ، ويَبْرِينَ وأعمالها ، وسبح الحَديد وأعماله ، وقَلْعة نَجْم وأعمالها ، وشَقيف دَرْكُوش وأعماله ، والشُّغْر وأعْماله ، وبَكاس وأعْماله ، والسُّوَيْداء وأعمالها ، والبَاب وبُزاعا وأعمالها ، والبيرة وأعمالها ، والرَّحْبَة وأعمالها ، وسَلَمْيَةَ وأعمالها ، وشُمَيْمس وأعمالها ، وتَدْمُر وأعمالها وما هو منسوبٌ إليها ، وجميع ما هو مَنْسوبٌ لمولانا السلطانِ ولولَده من البلاد التى عُيِّنتْ فى هذه الهُدْنة المباركة ، والتى لم تُعَيَّنْ .

---

(١) أوردها ياقوت فى معجم البلدان هكذا : بَرْزُويَه ، وذكر أن العامة تقول : بَرْزَيَه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلىٰ جميع العساكرِ ، وعلىٰ جميع الرَّعايا من سائر الناسِ أجمعين : على ٱختلافِهم ، وتَغَيُّرِ أَنفارِهم وأَجْناسِهِــم وأدْيَانِهم ، للقاطنيــن فيها ، والمتردِّدِينَ فى البَرِّ والبَحْرِ ، والسَّهْلِ والجَبَلِ ، فى اللَّيْـلِ والنهار ، يكونونَ آمنين مُطْمئِنِّين فى حالتى صُــدُورِهم ووُرُودِهم ـ علىٰ أنفسِهم ، وأموالِهم ، وأوْلادِهم ، وحَرِيمِهم ، وبَضائِعِهم ، وغِلْمانِهم ، وأَتْباعِهم ، ومَواشِيهم ، ودَوابِّهم ؛ وعلىٰ جميع ما يتعلَّقُ بهم ، وكلِّ ما تَحْوِى أيْدِيهِــم من سائرِ الأشْياءِ على ٱختلافها ، من الحُكَّامِ بمملكة عَكَّا : وهم كَفِيلُ المملكةِ بهـا ، والمُقــدَّمُ افريزكليـام دسا حول (؟) مقدَّمُ بَيْتِ الديوية ؛ والمقــدَّمُ افريز بيكوك للورن (؟) ، وافريز اهداب نائِبُ مُقَــدَّمِ بَيْت الاسبتار الآمِن ، ومن جميع الفَرَنْج والإخْوة ، والفُرْسان الدَّاخِلِينَ فى طاعَتِهِــم وتَحْوِيهِ مَمْلكتُهم السَّاحِليَّة ، ومن جميع الفَرَنْج على ٱختلافهم ، الذين يَسْتَوْطِنُونَ عَكَّا والبلادَ الساحِليَّة الداخلةَ فى هذه الهُدْنَة من كلِّ وَاصِــلٍ إليها فى بَرٍّ أو بَحْرٍ على ٱخْتلافِ أجْناسِهم وأنْفارِهم ، لا ينــالُ بلادَ السُّــلطانِ ووَلَدِه ، ولا حُصُونَهما ، ولا قِلاعَهما ، ولا بِلادَهما ، ولا ضِــياعَهُما ، ولا عَسَاكِرَهُمـا ، ولا جُيُوشَهما ، ولا عَرَبَهما ، ولا تُرْكمانَهُما ، ولا أَكْرادَهُمـا ، ولا رَعاياهُما ، على ٱختلاف الأجناس والأنفار ؛ ولا ما تَحْوِيهِ أيديهم من المَواشى والأمْوالِ والغِلالِ وسائِرِ الأَشياء منهم غَدْرٌ ولا سُوءٌ ، ولا يَخْشَوْنَ من جميعهم أمْرًا مكْروهًا ولا إغارةً ، ولا تَعرُّضًا ولا أَذِيَّة .

وكــذلك ما يَسْــتفتِحه ويُضِيفُه الســلطانُ ووَلَدُه علىٰ يَدَيْهما ، وعلىٰ يَدِ نوابهما وعَسَاكِرِهما : من بلادٍ ، وحُصونٍ ، وقِلاعٍ ، ومِلْكٍ ، وأعْمــالٍ ، وولاياتٍ ، برًّا وبَحْرًا ، سَهْلًا ووَعْرًا .

وكذلك جميعُ بلادِ الفَرَنج التى ٱســتقرَّتِ الآنَ عليها هــذه الهُدْنَةُ : وهى مدينةُ عَكَّا وبساتِينُها ، وأَرَاضِــيها وطواحينُها ، وما يختصُّ بهــا من كُرُومها ، وما لهــا من

حُقُوقٍ حَوْلَهَا ، وما تقرّر لهـا من بلادٍ فى هـذه الهُدْنة وهى : البصة ومَزْرَعتُها[١] ، مجدل ، حمصين ، رأس عبده ، المَنْوات ومَزْرَعتُها ، الكابرة ومزرعتها ، نصف ومه جعون ، كَفْر بَرَدَى ومَزْرَعَتُها ، كَوْكَبُ عمقا ومَزْرَعتُها ، المونيـه ، كفر ياسيف ومَزْرَعتُها ، تُوسيان ، مكر حرسين ومَزْرَعتُها ، الحديدة ، الغياضة ، العطوانية ، مرتوقا الحارثية ، ثمرا الطره ، الرب ، النا بوحه ومَزْرَعتُها ، العرج ومَزْرَعتُها ، المزرعة السَّميرية البَيْضاء ، دعوق والطاحون ، كردابه والطاحون ، حدرول ، تل النحل ، الغار ، الرخ والمجدل ، تَلُّ كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكه ، المشـيرقه ، العطرانية ، المنيبر ، اكليل ، هريا سيف العربية ، هوشـه ، الزراعة الجديدة الشمالية ، الرحاحيـه ، قسطه ، كفر نبتل ، الدويرات ، ماصوب ، متماس العباسية ، سيعابه ، عين الملك ، المنصورة ، الرصـيفة ، حاما ، سرطا ، كفرتا ، أرض الزراعة ، رواس ، صغد عدى ، سفرعم . هذه البلادُ المذكورةُ [تكون] خاصا للفَرَنْج . حِيفَا والكُرُومُ والبَسَاتين التى لهـا جميعها ، والقَصْر وهو الحوش وكَفْر تُوثا ، وهى : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعر ، والباجور ، وسومرا . تكون حِيفَا وهـذه البلادُ المذكورةُ بحُدُودِها وأَرَاضِيها خاصَّـةً للفرنج . وكذلك قرية مارسا ناره بها ، المعروفة بهـا وكرومها وغروسها يكون خاصا للفرنج . ودَيْرُ السـياح ، ودَيْرُ مارلباس بأَرَاضِيهِمَا المعروفةِ بهما وكُرُومِهما وبَسَاتِينِهما يكونُ خاصًّـا للفرنج .

وعلىٰ أن يكونَ للسُّلطانِ المَلِكِ المَنْصور ولوَلَدِه الصَّالح : من بلاد الكِرْمِل ، وهى : الدالية ، ودونه ، وضريبـة الريح ، والكَرَك ، ومعليا ، والرامون ، ولونه ، وسور ،

(١) لم نقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها فى معجم ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبعنا الأصول فى الاهمال والنقط .

وخربة يونس، وخربة خميس، ورشميا، ودوابه، يكون خاصًّا للفَرَنْج فى بلادٍ أخرىٰ ذَكَرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولوَلَدِه بكمالها .

وتكونُ جميعُ هذه البلاد العَكَّاوِيَّة وما عُيِّن فى هذه الهُـدْنةِ المباركةِ من البلاد السَّاحليـةِ آمنـةً من السُّلطانِ المَلكِ المنصور وولَده المَلك الصَّالح، وآمنةً من عساكرِهما وجُنودِهما ومن خَدَمِهما، وتكونُ هذه البلادُ المشروحةُ أعلاه، الداخلَةُ فى هذه الهُـدْنةِ المباركةِ : الخاصِّ بها، وما هو مُناصَفَةٌ ـ مُطْمَئِنَّةً هى ورعاياها، وسائرُ أجْناسِ الناس فيها، والقاطنين بها، والمتَرَدِّدينَ إليهـا على آختلاف أجْناسِهم وأدْيانِهم، والمتَرَدِّدِينَ إليها من جميع بِلادِ الفَرَنْجة والسُّفَّار، والمتردّدين منها وإليهـا فى بَرٍّ وبَحْرٍ، فى لَيْلٍ أو نَهارٍ، سَهْلٍ وجَبَلٍ، آمنينَ على النُّفوسِ والأموالِ والأوْلادِ، والمَراكِبِ والدَّوابِّ، وجميع ما يتعلَّقُ بهم، وكلِّ ما تَحْويهِ أيديهم من الأشْياءِ على آختلافِها، من السُّلطانِ وولَدِه، وجميع من هو تحتَ طاعَتِهما : لا ينالُهم ولا ينالُ هذه البلادَ المذْكُورةَ التى آنعقدتْ عليها الهُدْنةُ سُوءٌ ولا ضَرَرٌ ولا إغارةٌ، ولا ينالُ إحْدَى الجهتين المذكورتين : الإسـلاميَّةِ والفَرَنْجيةِ من الأخْرىٰ ضَرَرٌ ولا أذِيَّةٌ؛ ويكونُ ما تقرّرَ أنه يكونُ خاصًّا للفرنج حسب ما بُيِّنَ أعْلاه لهم، وما تقرَّرَ أن يكونَ للسُّـلطانِ ولوَلَدِه خاصًّا لهما، والمناصـفاتُ تكونُ كما شُرِح . ولا يكونُ للفرنج من البلاد والمُناصَفاتِ إلا ما شُرِحَ فى هذه الهُدْنةِ وعُيِّن فيها من البِلادِ .

وعلىٰ أنَّ الفرنج لا يُجَدِّدُون فى غير عَكَّا وعَثْليثَ وصَيْدَا : ممَّا هو خارِجٌ عن أسْوار هذه الجهاتِ الثَّلاثِ المذْكُوراتِ، لا قَلْعةً، ولا بُرْجًا، ولا حِصْنًا، ولا مُسْتَجَدًّا .

وعلىٰ أنه متىٰ هَرَب أحدٌ ـ كائنًا مَن كان ـ من بلاد السُّلطانِ وولَدِه إلىٰ عَكَّا والبلاد السَّاحلية المعيَّنة فى هـذه الهُدْنة، وقصدَ الدُّخولَ فى دِينِ النَّصْرانيَّة وتَنَصَّر

بإرادته، يُرَدُّ جميعُ ما يَروحُ معه ويَبْقىٰ عُرْيانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُّخولَ فى دين النصرانية ولا يَتنَصَّر، رُدَّ إلىٰ أبوابهما العاليـةِ بجميع مايروحُ معه، بشفاعةِ ثِقَةٍ بعد أن يُعْطَى الأمانَ . وكذلك إذا حَضَر أحدٌ من عَكَّا والبلادِ السَّاحليَّةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، وقصدَ الدُّخولَ فى دين الإسلام وأسْـلَم بإرادته، يردُّ جميعُ ما معـه ويبقىٰ عُرْيانا . وإن كان مايقصدُ الدُّخولَ فى دِينِ الإسلام ولا يُسْـلِمُ، يردُّ إلى الحُكَّامِ بعَكَّا، والمقدَّمِينَ بجميع مايروحُ معه بشفاعةٍ بعد أن يُعْطىٰ له الأمانُ .

وعلىٰ أنَّ الممنوعاتِ المعروفَ مَنْعُها قَديمًـا تَسْـتقرُّ علىٰ قاعِدَةِ المَنْعِ من الجهتين . ومتىٰ وُجِدَ مع أحدٍ من تُجَّـارِ بلاد السُّـلطان وولَدِه من المسلمين وغيرهم علىٰ آختلاف أدْيانِهِـم وأجْناسِهِم شَىْءٌ من الممنوعات بعَـكَّا والبلادِ السَّاحليَّـةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، مِثْل عدَّةِ السِّلاح وغيره، يُعادُ علىٰ صَاحِبِه الذى آشتراه منه، ويعادُ إليه ثَمَنُه، ويردُّ ولا يُؤخَذُ مالُه آستهلاكًا، ولا يُؤذَىٰ . وللسُّلْطانِ ولوَلَدِه أن يفتصلا فى من يخرجُ من بِلادِهما من رَعِيَّتِهما، علىٰ آختِلاف أدْيانِهم وأجْناسِهم، بشَىْءٍ من الممنوعات . وكذلك كَفِيلُ المملكةِ بعَكَّا والمقـدَّمُون لهم أن يفْتَصِلُوا فى رَعِيَّتِهم الذين يخرجُونَ بالممنوعاتِ من بِلادِهم الدَّاخلةِ فى هذه الهُدْنَةِ .

ومتىٰ أخِذَتْ أخيذةٌ من الجانبَين، أو قُتِلَ قَتِيلٌ من الجانبين، علىٰ أىِّ وَجْهٍ كانَ ـ والعيـاذُ باللهِ ـ رُدَّتِ الأَخيـذةُ بعَيْنِها إن كانتْ مَوْجودةً، أو قيمتُها إن كانتْ مَفْقُودةً . والقَتِيلُ يكون العِوَضُ عنه بنَظِيرِه من جِنْسه : فارسٌ بفارِسٍ، وبَرْكِيلٌ ببَرْكِيلٍ، وتَاجِرٌ بتاجِرٍ، ورَاجِلٌ براجِلٍ، وفَلَّاحٌ بفَلَّاحٍ . فإن خَفِىَ أمرُ القَتِيلِ والأخِيذةِ، كانت المهْلَةُ فى الكَشْف أربعين يوماً، فإن ظهرتْ الأخيذةُ أو تعيَّنَ أمْرُ المقتولِ، رُدَّت الأخيـذةُ بعَيْنِها ويكونُ العِوَضُ عن القَتِيل بنَظِيرِه، وإن لم تَظْهَرْ

كانتِ اليمينُ علىٰ وَالِي المكانِ المدَّعىٰ عليـه، وثلاثةِ نَفَرٍ يقعُ آختيار المدَّعِي عليهم، من تلك الوِلَايَة . وإن آمْتنعَ الوَالِي عن اليمِينِ حُلِّف من الجِهَةِ المدَّعِيةِ ثلاثةُ نَفَرٍ تختارهم الجِهَةُ الأخرىٰ وأخذ قيمتها . وإن لم يُنْصِفِ الوَالِي ولا ردّ المـال، أنْهَى المـدَّعِي أمْره إلى الحُكَّامِ من الجِهَتَينِ، وتكونُ المهْلَةُ بعدَ الإنْهـاءِ أربعين يومًا، ويُلْزمُ الولاةُ من الجهتين بالوَفَاء بهذا الشَّرْط .

ومتىٰ أخْفَوْا قتيـلًا أو أخِيـذَةً، أو قدَرُوا علىٰ أخْذِ حَقٍّ ولم يأخُذْه كلُّ واحدٍ فى ولايته، يتعيَّن على الذى يوليه من مُلُوكِ الجهتين إقامَةُ السِّياسَـةِ فيه : من أخْذ الرُّوحِ والمَـالِ والشَّنْق، والإنكار التـامّ علىٰ من يتَعَيَّنُ عليه الإنكارُ إذا فعل ذلك فى وِلايَتِه وأرْضِه .

وإن هَرَب أحدٌ بمـالٍ وآعْترف ببَعْضِه وأنْكَر بعْضَ ما يُدَّعَىٰ به عليه، لَزِمه أن يَحْلِفَ أنه لم يأخُذْ سِوَىٰ ماردَّه . فان لم يقْنَع المدَّعِي بيمِينِ الهَارِب، حَلَفَ وَالِي تلك الولاية أنه لم يَطَّلِـعْ علىٰ أنه وَصَل معه غيرُ ماردَّه . وإن أنْكَرَ أنَّه لم يَصِلْ معه شَيْءٌ أصْلًا، آستحلف الهارِبُ أنه لم يَصِلْ معه للمدَّعِي شَيْءٌ .

وعلىٰ أنه إذا آنكسر مَرْكَبٌ من مَرَاكِبِ تُجَّـارِ السُّلطانِ وولَدِه التى آنعقدت عليها الهُدْنة، ورَعِيَّتِهما من المسـلمين وغيرهم : على آختلاف أجْناسهم وأدْيانهم، فى مِينَا عَكَّا وسَواحِلِها، والبِـلادِ السَّاحِليَّة التى آنعقدتْ عليها الهُدْنة، كان كلُّ من فيها آمِنًا على الأنْفُسِ والأمْوالِ والأتْباعِ والمَتَاجِر . فإن وُجِدَ أصحابُ هـذه المراكِبِ التى تَنْكسِر تُسلَّم مراكِبُهم وأموالُهم [إليهم] . وإن عُدِمُوا بمَوْتٍ أو غَرَق أو غَيْبةٍ، فيُحتَفَظُ بموجودِهم ويُسَـلَّم لنوّابِ السُّـلطان وولَدِه . وكذلك المَرَاكِبُ المتوجِّهةُ من هذه البلاد السَّاحِلية المنعقِدِ عليها الهُدْنةُ للفرنج، يجْرِى لهـا مثلُ ذلك فى بلاد

السُّلْطانِ ووَلَدِه، ويحتفَظُ بموْجُودِها إن لم يكن صاحِبُها حاضِرًا إلى أن يُسَلَّم لكَفيل المملكة بعَكَّا أو المقَدَّم .

ومتى تُوُفِّى أحدٌ من التُّجَّارِ الصادرين والواردين : على ٱخْتلافِ أجْناسِهم وأدْيانِهم، من بلاد السُّلطانِ ووَلَده، فى عَكَّا وصَيْدَا وعَثْليثَ، والبلادِ السَّاحليةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ على ٱختلاف أجْناسِهم وأدْيانِهم [فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده] ، وإذا تُوُفِّى أحدٌ فى البلاد الإسلاميةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، يحتَفَظُ على مالِه إلى حِين يسلَّمُ إلى كفيل المملكة بعَكَّا والمقدَّمين .

وعلى أنَّ شَوانِى السُّلطانِ ووَلَدِه إذا عمرتْ وخَرجتْ لا تتعرَّضُ بأذِيَّةٍ إلى البلاد الساحِليَّة التى ٱنعقدتْ عليها هـذه الهُدْنة . ومتى قصدت الشَّوانِى المذكورةُ جِهَةً غير هذه الجهات، وكان صاحبُ تلك الجِهَةِ مُعاهِدًا للحُكَّامِ بمَمْلَكَةِ عَكَّا، فلا تدخُلُ إلى البلاد التى ٱنعقدتْ عليها هـذه الهُدْنةُ ولا تتزوَّدُ منها . وإن لم يكنْ صاحبُ تلك الجِهَةِ التى تقصِدُها الشَّوانِى المنصورةُ مُعاهِدًا للحُكَّامِ بمَمْلَكَةِ عَكَّا والبِلادِ التى ٱنعقدتْ عليها الهُدْنَة ، فلها أن تدخُلَ إلى بلادها وتتزوَّدَ منها . وإن ٱنكسر شىءٌ من هـذه الشَّوانِى ـ والعياذُ باللّه ـ فى مِينا من موانِى البلادِ التى ٱنعقدتْ عليها الهُـدْنَةُ وسَواحِلِها : فان كانتْ قاصِـدَةً مَن له مع مَمْلَكَةِ عَكَّا ومُقَدَّمِى بيُوتِها عَهْـدٌ، فيلزمُ كَفيلُ المَمْلَكَةِ بعَكَّا ومقدَّمِى البُيوت بحفْظِها، وتَمْكِينِ رجالها من الزوادة وإصْلاحِ ما ٱنكسر منها ، والعَوْدِ إلى البـلاد الإسلامية ، و [لا] يبطِلُ حركَة ما تنكَّر منهـا ـ والعِياذُ باللّه ـ أو يرميه البَحْر . هـذا إذا كانتْ قاصدةً من له مع مَمْلَكَةِ عكَّا ومُقَدَّميها عَهْدٌ . فإن [قصدتْ مَن] لم يكنْ لهـا معهم عَهْدٌ، فلها أن تتزوَّدَ وتُعمرَ رجالها من البلاد المُنعَقِدِ عليها هذه الهُدْنَة، وتتوجَّهَ إلى البلاد المَرْسومِ لها بقَصْدِها، ويعتمدُ هذا الفَصْلُ من الجهتين .

وعلى أنّه متى تحرّك أحدٌ من مُلوكِ الفَرَنجة وغيرهم من جُوَّا البَحْرِ لقَصْد الحضور لحضْرَة السُّلطان وولَده فى بلادهما المتّفقَة عليها هـذه الهُدْنَة ، فليلزَمُ نائب المملكة والمقدّمين بعَكّا، أن يعرِّفوا السلطانَ وولَده بحركتِهم قبلَ وصُولِهم إلى البلاد الإسلاميّة الداخلة فى هذه الهُـدْنة بمدّةِ شَهْرين . و إن وصَلُوا بعد انقضاء مُدّةِ شَهْرين ، فيكونُ كَفيلُ المَلَـكَةِ بعَكّا، والمقدّمونَ بَريئِين من عُهْدة اليمينِ فى هـذا الفَصْل . ومتى تحرّك عَدُوٌّ من جِهَةِ البرِّ من التّتَارِ وغيرِهم ، فأَىٌّ مَن سَبَق الخبرُ إليه من الجهتين يُعرِّفُ الجِهَةَ الأخرى بمـا سبق الخبرُ إليه من أمْرِهم .

وعلى أنه إن قصدَ البلادَ الشّامِيَّة ــ والعِياذُ باللهِ ــ عدُوٌّ من التّتَارِ وغيرِهم فى البَرّ، وانحازَتِ العساكرُ الإسْلاميةُ من قدّام العَدُوّ ، ووصـل العَدُوُّ إلى القُرْب من البلاد السَّاحليّةِ الداخلةِ فى هذه الهُـدْنَةِ وقصَدُوها بمضَرّةٍ ، فيكتب إلى [كفيل] المَمْلَكَةِ بعَكّا، والمقَدّمينَ بها أن يَدْرءُوا عن بُيوتِهم و رَعِيَّتِهم و بلادِهم بما تصلُ قُدْرتُهم إليه . و إن حَصل ــ والعِياذُ باللهِ ــ جفلٌ من البِلادِ الإسْلاميَّة إلى البلادِ السَّاحليَّة الداخلةِ فى هذه الهُدْنة ، فيلزم كَفيل المملكة بعَكّا ، والمقدّمين بها حِفْظُهم والدَّفْعُ عنهم ومَنْعُ من يَقْصِدُهم بضَرَرٍ ، و يكونون آمِنِينَ مُطْمَئِنّينَ بمـا معهم .

وعلى أنّ النّائب بمملكة عَكّا، والمقدّمين بها يوصُونَ فى سائرِ البِلادِ الساحلية التى وقعتْ الهُـدْنةُ عليها، أنّهـم لايمكِّنُون حَرَامِيَّةَ البَحْرِ من الزوادةِ من عندهم ولا من حَمْل ماءٍ . وإن ظَفِرُوا بأحدٍ منهـم يُمْسِكُونه ، و إن كانوا يبيعون عنـدهم بَضَائع فيُمْسكُها كَفيلُ المملكة بعَكّا والمقدّمونَ حتّى يظهَرَ صاحِبُها وتسلَّمَ إليـه . وكذلك يَعتَمِدُ السلطانُ وولَدُه .

وعلى أن الرَّهائنَ بعَكّا والبلادِ السَّاحليةِ الدَّاخلةِ فى هذه الهُدْنة ، كلّ من عليه منهم مَبْلغ أو غَلّة ، فيحلف وَالِى ذلك المَكَانِ الذى منه الرَّهينة ، ويحلف المُباشِرُ والكاتِبُ

فى وَقْتِ أخْذ هـذا الشَّخْص رَهِينةً أنه عليـه كذا وكذا : من دراهمَ أو غَلَّةٍ أو بَقَرٍ أو غيره . فاذا حَلف الوَالِى والْمُباشِرُ والكَاتبُ قدّامَ نائبِ السلطان وولَده علىٰ ذلك يقوم أهْلُ الرَّهينة عنه بما للفرنج عليـه ويُطْلِقُونَه . وأما الرَّهائن الذين أخِذُوا منسوبين إلى الجفل والاخْتِشاء أنهـم لا يهرُبون إلىٰ بلاد الإسـلام ويمتنع الولاةُ والمباشِرُون من اليمين عليهم، فأولئك يطلقون .

وعلىٰ أنْ لا يجدَّدَ على التُّجّار المسافرين : الصادِرِينَ والوارِدِينَ من الجهتين حقٌّ لم تجْرِ به عادةٌ ، ويُجْرَوْا علىٰ عوَائدهم المستمرّة إلىٰ آخر وقتٍ ، وتُؤخَذُ منهم الحقوقُ على العَـادَة المسـتمرَّةِ ، ولا يجدَّدُ عليهم رَسْمٌ ولا حَقٌّ لم تَجْرِ به عادةٌ . وكلُّ مكان عُرِفَ بٱسـتخراج الحقّ فيه يسـتخرجُ بذلك المكانِ من غَيْر زيادةٍ من الجهتَين ، فى حالتى سَـفَرِهم وإقامَتِهم؛ ويكونُ التُّجّار والسُّفّارُ والمتردّدون آمنين مطمئِنّينَ مُخَفَّرين من الجهتينِ فى حالتى سَفَرِهم وإقامَتِهـم ، وصُدُورِهم ووُرُودهم بما صُحْبَتَهم من الأصناف والبضائع التى هى غير ممنوعة .

وعلىٰ أنه ينادَىٰ فى البلاد الإسلاميةِ والبلادِ الفرنْجِيةِ الدَّاخلَةِ فى هـذه الهدنة : أنه من كان من فَلّاحِى بلادِ المُسْلمِينَ يَعودُ إلىٰ بلاد المسلمين مُسْلماً كان أو نَصْرانيًّا . وكذلك من كان من فَلّاحِى بلاد الفرَنج مُسْـلِماً كان أو نَصْرانيًّا ، معروفًا قراريًّا من الجهتين ، ومن لم يَعُدْ بعد المناداة يُطْرَدُ من الجهتين . ولا يمكَّنُ فَلّاحُو بلاد المسلمين من المُقَامِ فى بلاد الفرنج المنعقِد عليها هذه الهُدْنة ، ولا فَلّاحُو بلاد الفرنج من المُقَام فى بلاد المسلمين التى ٱنعقدت عليها هذه الهُدْنة ؛ ويكون عَوْدُ الفَلّاح من الجهة إلى الجهة الأخْرىٰ بأمَانٍ .

وعلىٰ أنْ تكونَ كَنِيسةُ النّـاصِرة وأرْبَعُ بيُوتٍ من أقربِ البيُوت إليهـا لزيارَةِ الحُجّاجِ وغيرهم من دِينِ الصَّليبِ : كَبِيرِهم وصَغِيرِهم على ٱختلاف أجْناسِهم وأنْفارِهم :

من عَكّا والبلادِ الساحِليّـةِ الداخلةِ فى هذه الهُـدنة ، ويُصَلِّى بالكَنيسـةِ الاقِسّاءُ[1] والرُّهْبانُ ، وتكونُ البيوتُ المذكورةُ لزُوّارِ كَنيسة النَّاصرَة خاصَّة ، ويكونون آمنين مُطْمَئِنِّين فى توجُّهِهم وحُضُورِهم إلىٰ حدود البلاد الداخلة فى هـذه الهُدْنَة . وإذا نُقِبتْ الحجارةُ التى بالكنيسة المذكورة تُرْمىٰ برا ، ولا يُحَطُّ حَجَرٌ منها علىٰ حَجَرٍ لأجْلِ بِنَايَتِـه ، ولا يتعرّضُ إلى الأَقِسَّاءِ[1] والرُّهْبانِ ، وذلك علىٰ وَجْه الهِبَة لأجل زُوّار دينِ الصَّليبِ بغير حقٍّ .

ويلزمُ السـلطانَ وولَدَه حِفْظُ هـذه البلادِ المشروحةِ التى آنعقدتْ عليها الهُـدْنةُ من نَفْسِهما وعَساكِرِهما وجُنُودِهما ، ومن جميع المتجرِّمَةِ والمتَلَصِّصِين والمُفْسِدِين : ممَّن هو داخلٌ تحت حُكْمِهما وطاعَتِهما . ويلزمُ كَفيلَ المملكة بعكَّا والمقدّمينَ بهـا حِفْظُ هـذه البلادِ الإسلامية المشْروحةِ التى آنعقدتْ عليها الهُـدْنةُ ، من نَفْسِهم وعَساكِرِهم وجُنودِهم ، وجميع المتجرِّمةِ والمتَلَصِّصِينَ والمُفْسدِين : ممن هو داخلٌ تحتَ حُكْمِهم وطاعَتِهم بالمملكة السَّاحِليّة الداخلةِ فى هذه الهُدْنَة . ويلزم كَفيلَ المملكةِ بعَكَّا، ومقدِّمِى البُيُوتِ بها الحُكّامِ بعكَّا والبلاد الساحليـة الداخلةِ فى هَذه الهُدْنةِ ـ القيامُ بمـا تَضَمَّنْته هذه الهُدْنَة من الشُّروطِ جَميعِها ، شَرْطًا شَرْطًا ، وفَصْلًا فَصْلًا ، والعَمَلُ بأحكامها ، والوُقُوفُ مع شُروطِها إلى آنقضاء مُدَّتِها . ويَفِى كلٌّ منهم بمـا حَلَف به من الأَيْمـانِ المؤكَّدةِ : من أنَّه يَفِى بجميع ما فىهذه الهُدْنَة علىٰ ماحَلَفُوا به .

تَسْتمرُّ هذه الهُدْنَة المباركةُ بين السُّلطانِ وولَدِه وأوْلادِهما وأوْلادِ أوْلادِهم ، وبين الحُكَّامِ بمملكة عكَّا ، وصَيْدا ، وعَثْليثَ ؛ وهم الشيخان أودرا(؟) المقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغـيَّر بموْتِ مُلوكِ أحَدِ الجهتين ، ولا بتَغَيُّرِ مُقَـدّم وتَوْلِيَةِ غيره ، بل تَسْـتَمِرُّ علىٰ حالِهـا إلىٰ آخِرِها وآنْقضائِها ، بشُرُوطِها المَحْدودَةِ ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقواعدِها المقرّرة ، كاملةً تامَّة . ومتى ٱنقضتْ هـذه الهُدنةُ المبـاركةُ ، أو وقع ـ والعياذُ باللهِ ـ فَسْـخٌ ، كانت المُهلةُ فى ذلك أربعين يومًا من الجهتين . ويُنادىٰ برجوع كلِّ أَحَدٍ إلىٰ وَطَنِه بعد الإشهادِ، ليعُودَ الناسُ إلىٰ مواطنِهم آمِنينَ مُطْمَئِنِّينَ ، ولا يمنعون من السَّـفَرِ من الجهتين ، ولا تبطُلُ بعَزْلِ أحَدٍ من الجهتين ، وتُشَـيَّدُ أحْكامُها مُتَتابِعةً متواليةً ، بالسنين والشُّهورِ والأيَّامِ إلى ٱنقضائها ؛ ويلزم المتولىَ حِفْظُها والعَمَل بشُرُوطِها وفُصُولها ، وفُروعِها وأُصولِهـا ؛ ويَجْرِى الحالُ فيها علىٰ أجْمِلِ الحالات إلىٰ آخِرِها . وعلىٰ جميع ذلك وَقَع الرِّضا والصَّفْحُ والاتِّفاقُ ، وحلف عليها من الجهَتَينِ ، واللهُ الموفِّق .

* * *

وهذه نُسْخةُ هُدنَةٍ ، عُقِدتْ بين المَلِكِ الأشْرفِ ، صَـلاحِ الدِّين « خليل » ٱبن المَلِك المَنْصورِ سَيْفِ الدِّين « قلاوون » صاحبِ الديارِ المِصْرِيَّة والبلادِ الشَّامية ؛ وبين دون حاكم الريدأرغون ، صاحِبِ بَرْشَلُونَة من بلاد الأنْدَلُس ؛ علىٰ يَدِ رُسُلِه : أخَوَيْهِ وصِهْرَيْهِ الآتِى ذكرهم ، فى صَفَر سنة ٱثنتين وتسعين وسِتِّمائةٍ ، وهى :

ٱستقرّتِ المَوَدَّةُ والمُصادَقَة بين المَلِكِ الأشْرفِ ، وبين حَضْرة المَلِك الجليـلِ ، المُكَرَّمِ ، الخَطِيرِ ، البَاسِـلِ ، الأَسَدِ ، الضِّرْغامِ ، المفَخَّمِ ، المبَجَّلِ « دون » حاكم الريدأرغون ، وأخَوَيْهِ دون ولَذَريك ، ودون بيدرو ؛ وبين صِهْرَيْهِ اللَّذيْنِ طلب الرَّسولان الوَاصِلَان إلى الأبوابِ الشريفةِ عن مُرْسِلِهما المَلِك دون حاكم أن يكونَا دَاخِلَيْنِ فى الهُدْنةِ والمُصادَقَةِ ، وأن يلتزِمَ الملكُ دون حاكم عنهما بكلِّ ما ٱلتزم به عن نَفْسه ، ويتَدَرَّكَ أمْرَهما . وهما المَلِكُ الجليلُ ، المكَرَّمُ ، الخَطِيرُ ، البَاسلُ ، الأسَدُ ، الضِّرْغامُ ، دون شانجه ، مَلِكُ قَشْـتَالةَ ، وطُلَيْطِلَةَ ، ولِيُونَ ، وبَلَنْسِيَةَ ، وأشْبِيلِيَةَ ، وقُرْطُبَةَ ، ومُرْسِيَةَ ، وجَيَّانَ ، والغربِ ، الكفيلُ بمملَكَةِ أرغون وبرتقال ـ والمَلِكُ

الجَلِيـلُ دون أتفونش مَلِكُ بُرْتُقال، من تاريخ يومِ الخميس تاسع عَشْر صفر سَـنَةَ ٱثنتين وتسعين وسِتّمائة، المُوافِقِ لثلاثٍ بَقِينَ من جنير سـنة ألْف ومائتَين وٱثنتين وتسعين لمولانا السَّيِّد المَسِيح عليه السلام. وذلك بحضُورِ رَسُولَي الملك دون حاكم، وهما: المُحْتَشِمُ الكَبِيرُ روصوديمـار موند الحاكِمُ، عن المَلِك دون حاكم فى بَلَنْسِيَةَ، ورَفِيقُه المُحْتَشِمُ العُمْدة ديمون المـان قرارى بَرْجَلُونَةَ، الوَاصِلَيْن بكتاب المَلِكِ دون حاكم، المختومِ بخَتْم المَلِكِ المذكور، المُقْتَضِى معنـاه أنّه حَمَّلهما جميعًا أحْوالَهُـم ومَطْلوبَهم، وسَأَلَ أن يَقُوما فيما يقُولَانه عنه، فكان مَضْمونُ مُشَافَهَتِهما وسُؤَالِها تَقْرِيرَ قَوَاعِدِ الصُّلْحِ والمَوَدَّةِ والصَّداقَةِ. والشُّروط التى يَشْتَرِطُها المَلِكُ الأشرفُ على الملك دون حاكم، وأنّه يلتزِمُ بجميع هذه الشُّروطِ الآتى ذِكْرُها، ويحْلِفُ المَلِكُ المذكورُ عليها هو وأخَواهُ وصِهْراه المذْكُورون. ووَضَعَ الرسولان المذكوران خُطُوطَهما بجميع الفُصُولِ الآتى ذكْرُها، بأمْرِهِ ومَرْسُومه. وأَنّ الملكَ دُون حاكم وأخَوَيْهِ وصِهْرَيْهِ يلتزمون بها، وهى: ٱسْـتقرارُ المَوَدّةِ والمُصادَقَةِ من التّاريخ المقدّم ذِكْرُه، على مَمَرّ السنينَ والأعوامِ، وتَعاقُبِ اللّيالى والأيّام: بَرًّا وبحْرًا، سَهْلًا ووَعْرًا، قُربًا وبُعدًا.

وعلى أن تكونَ بِلادُ السلطانِ المَلِكِ الأشرف، وقلاعُه، وحُصُونُه، وثُغُورُه، وممـالِكُه، وموانِى بِلادِه وسَوَاحِلُها، وبُرُورُها، وجميعُ أقاليمها ومُدُنها، وكُلُّ ما هو داخِلٌ فى مملكته، ومحْسوبٌ منهـا، ومَنْسوبٌ اليها: من سائر الأقاليم الرُّوميَّـةِ، والعِراقيَّة، والمَشْرقِيَّة، والشَّاميَّة، والحَلَبية، والفُراتيَّة، واليَمَنية، والحِجَازِيَّة، والدِّيار المصرية، والغَرْب.

وحدُّ هـذه البلاد والأقاليم ومَوَانِيها وسَوَاحِلها من البَرِّ الشَّامىِّ من القُسْطَنْطِينِيَّة والبلادِ الرُّوميـة السَّاحِليَّة، وهى: من طَرابُلُس الغَـرْب، وسَواحل بَرْقَةَ، والإسْكَنْدرِيَّة، ودِمْيـاط، والطِّينَة، وقَطْيـا، وغَزَّةَ، وعَسْـقَلانَ، ويَافَا،

وأَرْسُوف ، وقَيْسارِيَّة ، وعَثْليث ، وحَيْفا ، وعَكّا ، وصُور ، وصَيْدا ، وبَيْروت ، وجُبَيْل ، والبَيْرون ، وأَنَفَة طَرابُلُس الشَّام ، وأَنْطَرسُوس ، ومَرَقِيَّة ، والمَرْقَب ، وساحل المَرْقَب : بَانياس وغيرها ، وجَبَلة ، واللَّاذِقِيَّة ، والسُّوَيْدِيَّة وجميع الموانى والبرور إلىٰ ثَغْر دِمْياط وبُحَيْرة تِنِّيس .

وحَدُّها من البَرِّ الغَرْبىّ : من تُونُس وإقليم إفْرِيقية وبلادها وموانيها ، وطَرَابُلُس الغَرْب وثُغُورها وبِلادِها ومَوانيها ، وبَرْقة وثُغُورها وبِلادِها ومَوانيها ، إلىٰ ثَغْر الإِسْكَنْدَرِيَّة ورَشِيد وبُحَيْرة تِنِّيس وسواحِلها وبِلادِها ومَوانيها .

وما تَحْوِيه هذه البلادُ والمَمالكُ المذكورةُ والّتى لم تُذْكَر ؛ والمَدائن والثُّغور والسَّواحل والمَوانى والطُّرقات فى البَرّ والبَحْر ، والصُّدُور والوُرود ، والمُقام والسَّفَر ، من عَساكر وجُنُود ، وتُرْكانٍ ، وأَكْرادٍ ، وعُرْبانٍ ، ورعَايا ، وتُجّار ، وشَوانى ، ومَراكِب ، وسُفُن ، وأَمْوال ، ومَواشٍ ، علىٰ اختلاف الأَدْيانِ والأَنْفارِ والأجناس ، وما تَحْوِيه الأيدى من سائر أصْناف الأَمْوال والأَسْلِحة والأَمْتِعة والبضائع والمَتاجِر ، قليلًا كان أو كثيرًا ، قَرِيبًا كان أو بعيدًا ، بَرًّا كان أو بَحْرًا ـ آمِنَةً[1] على الأنفُس ، والأَرْواح ، والأموال ، والحَرِيم ، والأَوْلادِ من المَلِك دون حاكم ومن أَخَوَيْه وصِهْرَيْه المذكورِين ، ومن أَوْلادِهم ، وفُرْسانِهم ، وخَيَّالَتِهم ، ومُعاهَدِيهم ، وعَمائِرهم ، ورِجالِهم ، وكلّ من يتعلَّق بهم . وكذلك كُلُّ ما سيفتحه الله تعالىٰ علىٰ يد المَلِك الأشرف ، وعلىٰ يد أولاده وعَساكِره وجُيوشِه ، من القِلاع والحُصُون ، والبلاد والأقاليم ، فإنه يَجْرِى عليه هذا الحُكْم .

وعلىٰ أن تكونَ بلادُ المَلِك دون حاكم وبِلادُ أَخَوَيْه وصِهْرَيْه ومَمالِكُه المذكورةُ فى هذه الهُدْنة ، وهى : أَرْغُونُ وأعمالُها وبِلادُها : صَقَلِّية وجَزِيرتُها وبِلادُها

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة فى الصفحة قبل .

وأعْمالُهـا، بَرْبُولِيَةَ وأعمالُها و بِلادُها، جَزِيرَةُ مالَقَةَ، وقَوْصَرة و بلادُها وأعْمالُهـا، مَيُورَقةُ و يابِسَــةُ وبلادُها ، وأرسو يار (؟) وأعمالُها، وما سَيفتَحُه المَلِكُ دون حا كم من بلاد أعْدائِه الفَرَنْج المجـاورينَ له بتلك الأقاليم ـ آمِنِـينَ من المَلِكِ الأشْرف وأوْلادِه، وعَساكِرِه وجُيُوشِه، وشَوانِيه وعَمائِرِه، هى ومَن فيها من فُرْسانٍ وخَيَّالةٍ ورعايا . وأَهْلُ بلادِه آمِنِـينَ مطمَئِنِّينَ على الأنفُسِ والأموالِ ، والحَرِيمِ والأوْلادِ ، فى البَرِّ والبَحْرِ ، والصُّدُور والوُرُود .

وعلىٰ أنَّ الملِكَ دون حاكم هو وأخَوَاهُ وصِهْراه أصْدِقاءُ مَن يُصادِقُ المَلِكَ الأشْرَفَ وأَوْلادَه، وأعْداءُ من يُعادِيهم من سائر المُلُوك الفَرَنْجية وغير الملوك الفرنجيــة . و إن قَصَدَ البابُ برُومِيَةَ، أومَلِكٌ من مُلوكِ الفَرَنْج : مُتوَّجًا كان أو غَيْرَ مُتوَّجٍ، كبيرًا كان أو صــغيرًا ، أو من الجَنَوِيَّةِ ، أو من البَنادِقَةِ ، أو من سائر الأجناس على آختلاف الفَرَنْج والرُّوم ، والبُيُوتِ : بيتِ الإخْوَةِ الديوية ، والاسبتارية ، والرُّوم ، وسائِرِ أجناسِ النَّصارى ـ مَضَرَّةَ بلادِ المَلِكِ الأشْرَفِ، بمُحارَبَةٍ أو أذِيَّةٍ، يمنعُهُم الملِكُ دون حاكم هو وأخَوَاهُ وصِهْراه و يرُدُّونَهم ، و يعْمُرون شَوانِيَهم ومَراكِبَهم ، و يقصدون بِلادَهُم، و يشْغَلُونهــم بنُفُوسِهم عن قَصْــد بلاد المَلِكِ الأشْرفِ ومَوانِيهِ وسَواحِلِه وثغورِه المذكورةِ، وغَيرِ المذكورة ، و يقاتِلُونَهم فى البَرِّ والبَحْر بشوانيهم وعمائِرِهم، وفُرْسانِهم وخَيَّالَتِهم ورَجَّالَتِهم .

وعلىٰ أنَّه متىٰ خرج أحَدٌ من مُعاهِدى المَلِكِ الأشْرفِ من الفَرَنْج عن شروط الهُـدْنَة المستقرَّةِ بينَه و بينَهُم، ووقَعَ ما يُوجِبُ فسخ الهُدْنَةِ ، لا يُعينُهم المَلِكُ دون حاكم ولا أحَدٌ من أخَوَيْه ولا صِهْرَيْهِ ، ولا خيَّالَتِهــم ، ولا فُرْسانهم ، ولا أَهْـلِ بِلادِهم ، بخَيْــلٍ ولا خَيَّالةٍ، ولا سِلاحٍ ولا رَجَّالَةٍ ، ولا مال ولا نَجْدةٍ، ولا مِيرَةٍ ، ولا مَراكبَ ولا شَوَانٍ ولا غير ذلك .

وعلىٰ أنَّه متى طلبَ البَابُ برُوميَــةَ، ومُلوكُ الفَرَنْج، والرُّومِ، والتَّتـارِ، وغَيرُهُم من الملك دون حاكم أو من أخَوَيْه أو من صِهْرِيْهِ أو من بلادهم، إنْجادًا، أو مُعاوَنَةً: بخَيَّالة، أو رَجَّالةٍ، أو مَال، أو مَراكِبَ، أو شَوانٍ، أو سِلاحٍ - لا يُوافِقُهم على شَيْءٍ من ذلك، لا فى سِرٍّ ولا جَهْرٍ، ولا يُعِينُ أحدًا منهم ولا يُوافِقُـه علىٰ ذلك. ومتى ٱطَّلَعُوا علىٰ أنَّ أحدًا منهم يقْصِدُ بلادَ المَلِكِ الأشْرفِ لمُحارَبتِه أو لمضَرَّتِه بشَيْءٍ، يعرِّفُ المَلِكُ الأشرفُ بخَبَرِهم، وبالجِهَةِ التى ٱتَّفقوا علىٰ قَصْـدِها فى أقْرَبِ وَقْتٍ، قبل حوطتهم من بلادهم، ولا يُخْفيه شيئًا من ذلك.

وعلىٰ أنَّه متى ٱنْكسر مَرْكَبٌ من المراكب الإِسْلاميَّة فى بلاد الملك دون حاكم، أو بلادِ أخَويْهِ أو بلاد صِهْرَيْهِ، [فعليهم] أن يَخْفُروهم، ويحفظوا مَراكِبَهم وأموالَهم، ويُساعِدُوهم علىٰ عِمـارةِ مَراكِبِهم، ويُجَهِّزوهم وأمْوالَهم وبَضائِعَهم إلىٰ بلاد الملك الأشْرفِ. وكذلك إذا انكسرتْ مَرْكَـبٌ من بلاد دون حاكم، وبلاد أخَويْهِ وصِهْرَيْه، ومُعَاهِديه فى بلاد المَلِك الأشْرفِ، يكون لهم هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه.

وعلىٰ أنَّه متىٰ مات أحَدٌ من تُجَّـارِ المسلمين ومن نصارَىٰ بلادِ المَلِكِ الأشْرفِ، أو ذِمَّةِ أهْلِ بلاده، فى بلاد المَلِك دونـــ حاكم وبلادِ أخَوَيه وصِهْريه وأولاده ومُعَاهِديه، لا يعارضوهم فى أموالهم ولا فى بَضائِعهم، ويُحمَلُ مالُهم ومَوْجُودُهم إلىٰ بلادِ الملك الأشرف: ليفعلَ فيه ما يَخْتارُ. وكذلك من يَموتُ فى بلاد المَلِكِ الأشرف من أهْـلِ مملكة المَلِك دون حاكم وبلادِ أخَوَيْه وصِهْرَيْه ومُعَاهِدِيهــم، فلهم هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه.

وعلىٰ أنَّه متى عَبَرَ علىٰ بلاد المَلِكِ دون حاكم أو بلادِ أخَوَيه أو صِهْرَيْه أو مُعَاهِدِيه رُسُــلٌ من بلاد المَلِكِ الأشْرف قاصِــدين جِهَةً من الجهات القريبة أو البعيــدةِ،

صَادِرِين أو وَارِدِين ، أو رماهم الرِّيحُ فى بلادهم ، تكونُ الرُّسُلُ وغِلمانُهم وأتباعُهم، ومن يَصِلُ معهم من رُسُل الملوك أو غيرهم ـ آمِنِينَ محفوظِينَ فى الأنفُسِ والأموال، ويُجهِّزُهم إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَ دون حاكم وأخَوَيه وصِهْرِيْه متى جَرَىٰ من أحدٍ من بلادهم قَضِيَّةٌ تُوجِبُ فَسْخ المهادنة ، كان على كلٍّ من المَلِكِ دون حاكم وأخويه وصِهْرَيْه طَلَبُ من يفعل ذلك وفِعْلُ الواجبِ فيه .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَ دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه يفسحُ كلٌّ منهم لأهْلِ بلاده وغيرهم من الفرنج ، أنَّهم يجلُبُون إلى الثُّغور الاسلامية : الحَدِيدَ والبَيَاضَ والخَشَبَ وغير ذلك .

وعلىٰ أنَّه متى أُسِرَ أحَدٌ من المسلمين فى البرِّ أو البَحْرِ ، من مَبْدإِ تاريخ هذه المُهادَنَة من سائر البلاد : شَرْقِها وغَرْبِها ، أقصاها وأدْناها ، ووصلوا به إلىٰ بلاد المَلك دون حاكم وبلاد أخَوَيه وصِهْرِيْه ليبيعوه بها ، فيلزمُ الملك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرِيْه فَكُّ أَسْره وحَمْلَه إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف .

وعلىٰ أنَّه متىٰ كان بين تُجَّار المسلمين ، وبين تُجَّار بلاد الملك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْهِ مُعَاملةٌ فى بضائعهم ، وهم فى بلاد المَلِكِ الأشرف ، كان أمْرُهم محمولًا علىٰ مُوجَبِ الشَّرْعِ الشريف .

وعلىٰ أنَّه متىٰ رَكِبَ أحدٌ من المسلمين فى مَرَاكبِ بلاد الملك دون حاكم وأخَوَيه وصِهْريه ، وحَمَلَ بضاعَتَه معهم وعُدِمَتْ البِضاعة ، كان على المَلِك دون حاكم وعلىٰ أخَوَيه وصِهْريه ردُّها إن كانت موجودةً ، أو قيمَتها إن كانت مَفْقُودةً .

وعلىٰ أنَّه متىٰ هَرَب أحَدٌ من بلادِ المَلِك الأشرف الدَّاخلةِ فى هـٰذه المُهادَنَةِ إلىٰ بلاد المَلِك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْريه ، أو تَوَجَّه ببضاعة لغيره وأقام بتلك البلاد ،

كان على المَلِك دون حاكم وعلىٰ أخَوَيه وصِهْرَيه ردُّ الهاربِ أو المقيم ببضاعة غيره، والمَالِ معه إلىٰ بلاد المَلِك الأشرف ما دام مُسْلِماً . و إن تَنَصَّر، يردُّ المالُ الذى معه خاصَّة . ولمَمْلَكَةِ المَلِك دون حاكم وأخَوَيه وصِهْرَيْه فيمن يَهْرُب من بلادهم إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه .

وعلىٰ أنَّه إذا وصل من بلاد المَلِكِ دون حاكم و بلادِ أخَوَيه وصِهْرَيه ومُعَاهِديه من الفَرَنج من يقصِـدُ زيارة القُدْس الشَّريف، وعلىٰ يَدِه كِتَابُ المَلِكِ دون حاكم وخَتْمه إلىٰ نائِبِ المَلِكِ الأشرف بالقُدْس الشَّريف، يُفْسَحُ له فى الزِّيارة مَسْمُوحًا بالحَـقِّ ليَقْضِيَ زيارَتَه و يَعُودَ إلىٰ بلاده آمِنًا مُطْمئِنًّا فى نَفْسِـه ومَالِه ، رجلًا كان أو آمْرأةً ؛ بحيثُ إن الملك دون حاكم لا يَكْتبُ لأحَدٍ من أعدائه ولا من أعْداءِ المَلِكِ الأشرف فى أمْرِ الزيارة بشَيْءٍ .

وعلىٰ أنَّ المَلِك دون حاكم يحرُسُ جميعَ بلادِ المَلِك الأشرفِ هو وأخَوَاه وصِهْراه من كل مَضَرةٍ ، و يجتهدُ كلٌّ منهم فى أنَّ أحدًا من أعْداءِ المَلِك الأشرف لا يَصِـلُ إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشْرف، ولا يُنْجِـدُهم علىٰ مَضَرَّةِ بلاد الملك الأشْرفِ ولا رعاياه ، وأنه يساعِدُ المَلِك الأشْرَفَ فى البَرِّ والبَحْرِ بكلِّ ما يشتهيه و يختارُه .

وعلىٰ أنَّ الحقوقَ الوَاجِبةَ علىٰ من يَصْدُر و يَرِدُ و يَتردَّدُ من بلاد الملك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه، إلىٰ ثَغْرِي الإسْكَنْدريَّة ودِمْياط، والثُّغورِ الإسلامية، والممالِكِ السُّلْطانية، بسائر أصناف البضائع والمَتَاجِر على آختلافها، تستمرُّ علىٰ حُكْم الضرائبِ المستَقِرَّةِ فى الدِّيوان المَعْمُورِ إلىٰ آخر وَقْتٍ ، ولا يُحْدَثُ عليهم فيها حَادِثٌ . وكذلك يَجْرِى الحُكْمُ علىٰ من يتردَّدُ من البلاد السلطانية إلىٰ بلاد المَلِك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه .

تَسْتَمِرُّ هذه المودّةُ والمُصادَقَة علىٰ حُكْم هذه الشُّروطِ المَشْروحةِ أعلاه من الجهات على الدَّوامِ والاستمرار، وتَجْرِى أحْكامُها وقَواعِدُها علىٰ أجْملِ الاستقرار، فإن المَمالكَ بها قد صارتْ مَملكَةً واحِدَةً وشيئًا واحِدًا ؛ لا تَنْتَقِضُ بمَوْتِ أحَدٍ من الجانبين ، ولا بعَزْلِ والٍ وتَوْليَةِ غيره، بل تُؤَيَّدُ أحكامُها، وتَدُومُ أيَّامُها، وشُهُورُها وأعوامُها . وعلىٰ ذلك انتظمتْ واستقرَّتْ فى التاريخ المَذْكور أعلاه، وهو كذا وكذا، واللهُ الموفِّقُ بكَرَمِه إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وهذه النُّسَخُ الخمسُ المتقدِّمَةُ الذِّكْرِ نقلتُها من تَذْكِرَة محمد بن المكَرَّمِ ، أحَدِ كُتَّابِ الإنشاء بالدَّوْلة المنصورية «قلاوون» المُسَّماةِ : «تَذْكِرَة اللَّبِيب، ونُزْهَة الأَديب» من نُسْخةٍ بخَطِّه ، ذَكَر فيها أن النُّسْخَةَ الأولىٰ منها كَتَبَها بخطِّه علىٰ مَدينَةِ صَفَد . وليس منها ماهو حَسَنُ التَّرتيبِ، رائِقُ الألْفاظِ، بَهِجُ المَعَانِى، بَلِيغُ المقاصد، غَيرِ النُّسخَةِ الأخيرةِ المعقودةِ بين المَلِك الأشْرفِ و بين المَلِك دون حاكم . أما سائرُ النُّسخِ المتقدِّمةِ فإنها مُبْتذَلَةُ الألفاظِ ، غيرُ رائِقَةِ التَّرتيبِ ، لا يَصْدُر مِثْلُها من كاتِبٍ عنده أدْنىٰ مُمارَسَةٍ لِصِناعةِ الكلام . والعَجَبُ من صدور ذلك فى زَمَنِ «الظَّاهِر بِيبَرْس» و«المَنْصورِ قلاوون» وهما من هما منْ عُظَماءِ المُلُوك ! ! وكِتَابةُ الإنشاءِ يومَئِذٍ بيَدِ بنى عَبْد الظَّاهِرِ الذين هم بَيْتُ الفصاحةِ ورُءُوسُ أرباب البَلاغة ! ! ! ولَعلَّ ذلك إنما وَقَع؛ لأن الفَرَنْج كانوا مُجاوِرينَ للمسلمين يومئذٍ ببلاد الشَّام، فيقَعُ الاتِّفاقُ والتراضى بين الجِهَتين علىٰ فَصْلٍ فَصْلٍ ، فيكتُبُه كاتِبٌ من كلِّ جهةٍ من جهتى المسلمين والفرنج بألفاظٍ مُبْتذَلةٍ غيرِ رائقةٍ، طَلَبًا للسرعَةِ، إلىٰ أن ينتهىَ بهم الحالُ فى الاتِّفاق والتراضى، إلىٰ آخر فُصُول الهُدْنة ، فيكتبها كاتِبُ المَلِكِ المُسلِم علىٰ صُورة ما جَرىٰ فى المُسْوَدّة ، ليطابِقَ ما كتب به كاتِبُ الفَرَنْج . إذ لو عَدَلَ فيها كاتِبُ

السلطان إلى الترتيب ، وتَحْسينِ الألفاظِ وبَلاغةِ التَّركيبِ ، لاَخْتلَّ الحالُ فيها عما وافَقَ عليه كاتِبُ الفَرَنْج أوّلا ، فينكرونَه حينئذٍ ، ويَرَوْنَ أنه غيرُ ما وقع عليه الاتِّفاق ، لقُصُورهم فى اللُّغةِ العربيَّة ، فيحتاجُ الكاتبُ إلىٰ إبقاء الحَالِ علىٰ ما توافق عليه الكَاتبان فى المُسْوَدَّةِ . وبالجُمْلة فإنما ذكرتُ النُّسخَ المذكورةَ ـ علىٰ سَخافةِ لَفْظِها ، وعَدَمِ انْسِجام تَرْتِيبِها ـ لاشتمالها على الفُصُول التى جَرىٰ فيها الاتِّفاقُ فيما تقدّم من الزَّمان ، ليَسْتمدَّ منها الكاتبُ مالَعلَّه لا يحْضُر ببَالِهِ من مَقاصِدِ المُهادَنات ، أغنانا اللهُ تعالىٰ عن الحَاجَةِ إليها .

واعلم أنه قد جَرَت العادةُ ، أنه إذا كُتبت الهُدنةُ ، كُتب قرينها يمينٌ يَحْلِفُ بها السلطانُ أو نَائبُه القائمُ بعَقْدِ الهُدْنةِ ، على التَّوْبِيَة بفُصُولها وشُروطِها ؛ ويَمينٌ يحلِفُ عليها القائمُ عن المَلِك الكافِرِ بعَقْدِ الهُدْنةِ ، ممَّن يأذَنُ له فى عَقْدِها عنه ، بكتابٍ يصْدُر عنه بذلك ، أو تُجَهَّزُ نسخَتُها إلى المَلِك الكَافِرِ ليَحْلِفَ عليها ، ويكتبَ خَطَّه بذلك ، وتُعادَ إلى الأبواب السلطانية .

المَــــذْهَب الثـالث

(أن تُفْتتحَ المُهادَنةُ بخُطْبةٍ مبتدأةٍ بـ« الحمد لله »)

وعلىٰ هذا بَنىٰ صاحِبُ "موادّ البيان" أمْرَه فى كتابة الهُدْنةِ ، حيث قال : والرسم فيها أن تُفْتتحَ بحمدِ الله تعالىٰ على الهِدايَةِ إلىٰ دِينِ الإسلام الذى أذَلَّ كُلَّ دِينٍ وأعَزَّه ، وخَذَل كُلَّ شَرْعٍ ونَصَره ، وأخْفىٰ كلَّ مَذْهبٍ وأظْهره ؛ والتَّوغُّل فى تَوْحيدِه ، وتَقْديسِهِ وتَمْجِيدِه ؛ والثَّناء عليه بآلائه ، والصلاة علىٰ خَيرِ أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلتُ : ولم يأتِ بصُورة هُـدْنةٍ مُنْتظمةٍ علىٰ هـذا الترتيب ، بَلْ أشار إلىٰ كَيْفيَّةِ عملها . ثم قال : والبَلِيغُ يكتَفِي بقَرِيحَتِه فى ترتيبِ هذه المعانى إذا دُفِع إلى الانشاء فيها ، إن شاء الله تعالىٰ . ولم أقِفْ لغيره علىٰ صُورة هُدْنةٍ مفتتحةٍ بالتحميد ، ولا يخفىٰ أن الابتداءَ به فى كلِّ مُهِمٍّ من العُهودِ وجلائِل الولايات ونَحْو ذلك هو المَعْمولُ عليه فى زَمَاننا .

الطـــــرف الثـانى

(فيما يُشارِكُ فيه مُلوكُ الكُفْرِ مُلوكَ الإسلام فى كتابة نُسَخٍ من دواوينهم)

اِعلم أنَّ الغالِبَ فى الهُدَنِ الواقعـةِ بين مُلوكِ الديار المصرية وبين مُلُوكِ الكُفْر أن تُكْتبَ نسـخةٌ تخلَّدُ بديوان الإنشاء بالدّيار المصرية ، ونُسْـخةٌ تجهَّزُ إلى المَلك المُهادَنِ . ورُبمّـا كتبتْ نسخةٌ من دِيوانِه مُفْتتحةٌ بيَمِينٍ .

وهذه نسخةُ هُدنةٍ ورَدَتْ من جهة الأشـكرى ، صاحبِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ فى شَهْر رمضان سـنة ثمـانين وستمائة ، مؤرَّخَةٌ بتاريخ موافقٍ لأواخر المحرَّم من السَّنة المذكورة ، فعُرِّبتْ فكانت نُسْخَتُها علىٰ ماذكره ابن مُكَرَّمٍ فى "تَذْكِرَته" :

إذْ قد أراد السلطانُ العَظِيمُ ، النَّسيبُ ، العَالِى ، العَزِيزُ ، الكَبِيرُ الجِنْس ، المَلِكُ ، المنصورُ ، سَـيْفُ الدِّين «قلاوون» صاحِبُ الديار المصرية ودِمَشْقَ وحَلَب ، أن يكونَ بينه وبين مَمْلَكَتِي مَحَبَّةٌ ـ فمملَكَتِي تُؤْثِرُ ذلك ، وتختارُ أن يكونَ بينها وبين عزِّ سلطانه محَبَّة . ولهذا وجب أن يَتَوسَّطَ هذا الأمْرَ يمينٌ واتِّفاقٌ : لتَدومَ المَحَبَّةُ التى بهذه الصُّورة فيما بين مَمْلكتِي وعِزِّ سُلْطانِه ثابِتَـةً بلا تَشْوِيشٍ . فمملَكَتِي هذا اليوم ، وهو يَومُ الخميس الثامنُ من شهر إيار من التاريخ [الرومى] التابع لسنة ستة آلاف

وسبعمائة وتِسْعٍ وثمانين لآدَم ـ تَحْلِفُ بأناجيل اللهِ المقدَّسة، والصَّليبِ المُكَرَّمِ المحيِّ، أنَّ مملكتِي تكونُ حافظةً للسُّلطانِ العظيمِ، النَّسيبِ، العَالِي، العَزيزِ، الكَبِيرِ الجنْسِ، سَيْفِ الدِّين «قلاوون» صاحبِ الدِّيار المصرية ودمَشْقَ وحَلَبَ، ولولَدِه ولوَارِث مُلْكِ عِزِّ سُلْطانِه: محبَّةً مُسْتقيمةً، وصَداقَةً كامِلةً نَقِيَّةً، ولا يُحرِّكُ مُلْكِي أبدًا علىٰ عِزِّ سلطانه حَرْبًا، ولا علىٰ بلادِه ولا علىٰ قِلَاعِها، ولا علىٰ عساكره؛ ولا يَتحرّكُ مُلْكِي أبدًا علىٰ حَرْبِه، بحيثُ إنَّ هذا السُّلطانَ العَظِيمَ، النَّسيبَ، العالِي، العزيزَ، الكَبير الجِنْسِ، المَلِكَ المنصورَ سَيفَ الدِّين «قلاوون» صاحِبَ الدِّيارِ المِصْرية ودِمَشْقَ وحَلَبَ، يحفظُ مثلَ ذلك لمَمْلكَتِي ولوَلَدِ مَمْلكَتِي الحَبِيبِ الكمينوس، الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا يُحرِّكُ عِزُّ سُلطانه علىٰ مَمْلكتِنا حَرْبًا قطُّ، ولا علىٰ بِلادِنا، ولا علىٰ قِلَاعِنا، ولا علىٰ عَساكِرنا؛ ولا يُحرِّكُ أحدًا آخرَ أيضًا علىٰ حَرْبِ مملكتنا. وأن تكونَ الرُّسلُ المتردّدون عن عِزِّ سلطانه أيضًا مطلقا [آمنين، لهم] أن يَعْبُرُوا فى بلاد مَمْلكَتِي بلا مانع ولا عَائِقٍ، ويتوجَّهُوا إلىٰ حَيْثُ يَسِيرون من عِزِّ سلطانه، وكذلك يعودُون إلىٰ عِزِّ سلطانه. وأن لا يحصُلَ للتُّجّار الواردين من بلاد عِزِّ سلطانه [ضرر] من بلاد مَمْلكَتِي، لايحذَرُونَ من أحَدٍ جَوْرًا ولا ظُلْمًا، بل يكون لهم مباحًا أن يعملوا مَتَاجِرَهم. ونظيرُ هذا ـ التُّجّارُ الواردون إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه من أهْلِ بلاد مُلْكِي، يقومون بالحقِّ الواجِبِ علىٰ بضائعهم، وليقُمْ كذلك التُّجّار الواردون من بلاد عِزِّ سلطانه إلىٰ بلاد مُلْكِي بالحقِّ الواجِبِ علىٰ بضائعهم. وإن حضر من بلاد سُوداقَ تُجّارٌ وأرادوا السَّفَرَ إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه، فلا ينالُ هؤلاء تَعْويقٌ فى بلاد مُلْكِي، بل فى عُبُورِهم وعَوْدِهم يكونون بلا مانع ولا عَائِقٍ بعد القيام بالحقِّ الواجِبِ. وهؤلاء التُّجّارُ الذين من بلاد عِزِّ سلطانه والذين من أهْلِ سُوداقَ إن حضر صحبتَهم مماليكُ وتُجّار، فليُعُودُوا بهم إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه بلا عائقٍ

ولا مانع ، ماخلا إن كانوا نَصارىٰ ، لأنَّ شَرْعنا وتَرْتيبَ مَذْهَبِنا لا يسمحُ لنا فى أمر النَّصارىٰ بهذا .

وأمَّا إن كان فى بلاد عِزِّ سلطانه ممـاليكُ نصارىٰ : رُومٌ وغيرُهم من أجنـاس النَّصارىٰ ، متمسِّكون بدِينِ النصارىٰ ، ويحصلُ لقومٍ منهم العِتْقُ ، فلْيكُنْ للذين معهم عَتَائق مباح ومطلق من عِزِّ سلطانه ، أن يَفدُوا فى البَحْرِ إلىٰ بلاد مَمْلكَتِي . وكذلك إن أراد أحدٌ من أهل بلاد عِزِّ سُلْطانِه أن يبيعَ مملوكًا نَصْرانيًّا هـذه صورتُه لأحَدٍ من رُسُـل مملكتى ، أو لتُجَّار وأُناس بلادِ مملكتى ، أن لا يَجِدَ فى هذا تَعْويقًا ، بل يَشْـتروا المذكورَ ويَفدُوا به فى البَحْر إلىٰ بلاد مملكتى بلا عَائِقٍ . وأيضًا إن أراد هـذا السلطانُ العَظِيم النَّسيبُ ، أن يُرْسِـلَ إلىٰ بلاد مُلْكى بضائع مَتْجَرا ، وأرادتْ مملكَتِي أن تُرسِلَ إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه بضائع مَتْجَرا ، فليكُنْ هكذا : وهو إن أراد عِزُّ سـلطانه أن تكونَ بضائع مَتَاجِرِه فى بلاد مُلْكِي مُنَجَّاة من القيام بكلِّ الحقوق ، فلتكُنْ أيضـا بَضَائِـعُ متاجر مَمْلكَتِي فى بلاد عِزِّ سـلطانه مُنَجَّاةً مِثْل ذلك من كلِّ الحقوق ، وإن أراد أن تَقُومَ مَتاجِرُ مُلْكِي فى بلاده بالحُقوق الواجبـةِ [يَقُومُ] بمثلِ ذلك . وأيضًا أن يُطْلِقَ عِزُّ سلطانه لمُلْكِي أن يُرسلَ أناسًا من بلاد مَمْلكَتِي إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه ، فيشترون لى خَيْلًا جيـادًا ويحملُونها إلىٰ بلاد مُلْكِي . وكذلك إن أراد عِزُّ سُلطانِه شَيْئًا من خيرات بِلادِ مُلْكى ، فَمملكَتِي أيضا تُطْلِقُ لعِزِّ سُلْطانه أن يُرسلَ أنَاسَهُ ليشتروه ويَحْمِلُوه إلىٰ عِزِّ سُلطانِه .

ولمَّـا كان فى البَحْرِ كرساليه من بلاد غَرِيبَـةٍ ، وقد يَتَّفِقُ فى بَعْضِ الأوقات أن يعـمَلُوا خسارةً فى بلاد مُلْكِي ، وكذٰلك يجدون هؤلاء الكرساليـة قومًا من بلاد عِزِّ سلطانه فيعملون لهم خَسَارَة ، ثم إنَّ هؤلاءِ الكرسالية يفعلون هذا فى الآفاق فى تُخُومِ بلاد مُلْـكى . لأجْلِ هذا صار : إذا حَضَر قَوْمٌ مِن بلاد مَمْلكَتِي إلىٰ بلاد عِزِّ

سُلطانه بمَتْجَرٍ يُمْسَكُون من أهْلِ بلاد عِزّ سُلطانه و يغرَّمون . ولهذا فلْيَصِر مرسومٌ من عِزِّ سلطانِه فى كلِّ بلاده أن أحدًا من أهـل بلادِ مَمْلَكَتِي لا يغرّم بهذا السَّبَبِ ولا يُمْسك ، و إن عَرَض أن يقولَ أحَدٌ من أهل بلاد عزّ سلطانه : إنه غُرِّمَ أو ظُلِمَ من أهْـلِ بلاد مُلْكى فليعترف مُلْكى بذلك . و إذا كان الذى وضَع الغرامةَ من أهل بِلادِ مُلْكى ، فمُلْكِي يأمُر، وتعادُ تلك الخَسَارةُ إلىٰ بلاد عِزّ سُلطانه . وكذلك إن قال أحدٌ من أهل بلادِ مَمْلَكَتِي : إنه ظُلِمَ أوغُرِّم من أحَدٍ من بلادِ عِزِّ سُلطانه ، يأمُر عِزُّ سُلْطانه ، وتعادُ الغَرامَةُ إلىٰ بِلادِ مُلْكِي . وأيضا إذ قد أزْمعَتِ المحبّـةُ أن تَصير بهذه الصُّورة ، وتكونَ الصَّداقةُ بين مَمْلَكَتِي وعِزّ سلطانه خالِصةً ، حتَّى إنه أرسل يقولُ لمُلْكِي علىٰ مَعُونةٍ ونَجْدةِ مُلْكِي فى البَحْرِ لمَضَرَّةِ العَدُوّ المشترك ، فمَمْلَكَتِي تفوِّضُ هذا الأمْرَ إلى آختيـارِ عِزّ سُلْطانه ، أن يرتب فى نسخة اليمين مع بَقِيَّةِ الفصول المعيَّنَة فيه ، وتأتى الصورة كيف تعين وتنجد مملكتى فى البحر . وإن كان لا يُريد نَجْدةَ ومَعُونةَ مَمْلَكَتِي ، فمملكَتِي تسمحُ بهذا الفَصْل أن لا يضَعَه عِزُّ سلطانه فى نُسْخة يَمِينِه ، وهذه اليمينُ منا بحفظ مُلْكى لعِزّ سلطانه ثابِتَةٌ غيرُ مُتَزَعْزِعة إن كان هذا السلطان العظيم يَحْلِفُ لى يمينًا بمثلها ، وأنه يحفَظُ المحبّة لمملكتنا ، ثابِتةً غير مُتَزَعْزِعَة ، والسَّلام .

✢

وهذه نُسخةُ آتِّفاقٍ ، كتبتْ من الأبواب السلطانية عن المَلِكِ المنصور «قلاوون» عن نظير الهُـدْنة المتقدّمة ، الواردة من قِبَـلِ صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة ، مفتتحةً بيمين موافِقَةٍ لها ، وهى :

أقولُ وأنا فلانٌ : إنه لمـا رغِبَ حضرة المَلِكِ الجليلِ ، كرميخائيل ، الدوقس ، الأنجالوس ، الكمينيوس ، البالاولوغس ، ضابِطِ مَمْلكةِ الرُّوم والقُسْطَنْطِينِيَّة العُظْمىٰ ،

أكبرِ ملوكِ المَسيحيَّة ، أبقاه الله ــ أن يكونَ بين مَمْلكته وبين عِزِّ سُلْطانى ، محبةٌ وصَداقةٌ ومَوَدَّةٌ لاتتغيَّر بتغيُّرِ الأيام ، ولا تَزُولُ بزوال السِّنين والأعوام ؛ وأكَّد ذلك بيَمينٍ حَلَف عليها ، تارِيخُها يومُ الخميسِ ثامنِ شهر إيار سـنة ستة آلافٍ وسـبعمائة وتسع وثمانين لآدَمَ ، صلواتُ الله عليه ، بحضورِ رَسُولِ عِزِّ سلطانى ، الأميرِ ناصرِالدِّين ابن الجَزَرِىِّ ، والبَطْرِكِ الجليـلِ انباسيوس بَطْرَكِ الاسكندرية ، وحضر رسـولاه فلان وفلان إلىٰ عِزِّ سلطانى بنُسْخةِ اليمين ، مُلْتمسَيْنِ أن يتوسَّطَ هذا الأمْرَ أيضًا يَمِينٌ وآتفاقٌ من عِزِّ سُلْطانى ، لتَدُوم المحبَّةُ فيما بين مَمْلكتِه وعِزِّ سُلْطانى ، وتكونَ ثابتةً مستَمِرَّةً على الدَّوام والآسْتِمْرار .

فعِزُّ سُـلطانِى من هـذا اليَوْم ، وهو يومُ الآثنين مُسْتَهَلُّ رمضانَ المعظم ، سـنة ثمـانين وسِتِّمائة للهِجرة النَّبويَّة المحمَّدِيَّة ، علىٰ صاحبها أفضـلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ؛ يحلِفُ بالله العَظِيم ، الرَّحمٰنِ الرَّحيم ، عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ ، والسِّرِّ والعَلانِيَةِ وما تُخْفِى الصُّدُور ، وبالقُرءان العَظِيم ، وبِمَن أنْزله ، وبِمَن أُنْزِلَ عليه ، وهو النَّبِيُّ الكريمُ ، محمدُ صـلَّى الله عليه وسَـلَّم ــ على آستمرار الصَّداقَة ، وآستِقْرارِ الموَدَّة النَّقِيَّـة ، للمَلِكِ الجليـلِ كر ميخائيـل ، ضَابِطِ مملكَةِ الرُّومِ والقُسْطَنْطِينيَّة العُظْمىٰ ، ولوَلَدِ مملكتِه الحَبِيبِ الكمينيوس الانجالوس ، الدُّوقس ، البالاولوغس ، الملك إيرإندرونفوس ، ولوارِثِى مملكة مُلْكه . ولا يحرِّك عِزُّ سـلطانِى أبدًا علىٰ مملكتـه حَرْبًا ، ولا علىٰ بِلادِه ، ولا علىٰ قِلاعِـه ، ولا علىٰ عَساكِره : فى برٍّ ولا بَحْرٍ . ولا يحرِّكُ عِزُّ سلطانِى أحدًا آخَرَ علىٰ حَرْبِه ، بحيثُ إن المَلِكَ الجليلَ كر ميخائيل يحفظُ مثلَ ذَلك لعِزِّ سُلطانِى ، ولِمُلْكِى ، ولِبِلادِى ، ولِقِلاعِى ، ولعَساكِرِى ، ولوَلَدِى السُّلطانِ المَلِكِ الصالح علاء الدين «عَلِىٍّ» ولوَارِثِى مُلْكى من أولادى ؛ ويسـتمرُّ علىٰ هـذه الصـداقَة والموَدَّةِ النَّقِيَّـة ، ولا يُحرِّكُ مُلْكُه علىٰ عِزِّ سلطانى حَرْبًا قطُّ ، ولا علىٰ

بلادى ، ولا علىٰ قلاعى ، ولا علىٰ عساكرى ، ولا علىٰ مملكتى ، ولا يحرّكُ أحدًا آخَرَ علىٰ حَرْبِ مملكةِ عزّ سُلْطانى فى البَرّ ولا فى البَحْرِ ، ولا يساعدُ أحدًا من أضْدادِ عزّ سُلطانى ، ولا أعْدائى من سائر الأديان والأجنـاس ، ولا يُوافقُه علىٰ ذلك ، ولا يَفْسَحُ لهم فى العُبورِ إلىٰ مملكة عزّ سلطانى لمَضَرّة شَىْءٍ فيها بجُهْده وطَاقَتِه .

وأن الرسـلَ المسَيَّرِينَ من مَمْلكَةِ عزّ سُـلطانى إلىٰ بَرّ بَرْكَةَ وأوْلادِه و بلادهـم وتلك الجهات ، وبَحْرِ سُوداق و بَرِّه ، يكونون آمنينَ مُطمَئنّين مطلقًا : لهم أن يَعبُروا فى بلاد مملكَةِ المَلِك الجليل ، كرميخائيل من أوَّلها إلىٰ آخرِها ، بلا مانـِعٍ ولا عائِقٍ : أُرْسلُوا فى بَرّ أو بَحْرٍ ، علىٰ ماتقتضيه مَصْلحةُ ذلك الوَقْتِ لمملكَةِ عزّ سُلطانى ، آمنين مُطمئنّين ، غير مَمْنوعين بجميع من يَصِلُ معهم من رُسُلِ تلك الجهات وغيرها ، وكلّ من معهم من مَمَـاليكَ وجَوارٍ وغير ذلك . وأن لايحصُلَ للتُّجّار الواردينَ من مَمْلكَةِ المَلِك الجليلِ كرميخائيل إلىٰ بلاد عزّ سُلطانى جَوْرٌ ولا ظُـلْمٌ ، و يترددون آمنين مُطمَئِنّين يعملون مَتاجِرَهم ، ولهم الرِّعايةُ فى الصُّدُورِ والوُرُودِ ، والمُقامِ والسَّـفَرِ : بحيثُ يكونُ لتُجّارِ مملكةِ عزّ سُلطانى فى بلاد مملَكَةِ المَلِك الجليل كرميخائيل مثلُ ذلك ، و يكونون مَرْعيِّين ، لايجدون من أحَدٍ فى بلاد مملكة المَلِك الجليل كرميخائيل جَوْرًا ولا ظُلْمًا . ومن عليه حَقٌّ واجِبٌ فى الجهتين علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ ، يقومُ به من غير حَيْفٍ ولا ظُلْمٍ .

وأنّ من حضر من التُّجّار : من سُـوداقَ وغيرها بمماليـكَ وجَوارٍ تُمَكِّنُهم مملكةُ المَلِك الجليلِ كرميخائيل من الحضور بهم إلىٰ مَمْلكَةِ عزّ سلطانى ولا تَمْنعُهم . وأن الكرسالية مَتىٰ تعرّضُوا إلىٰ أخْذ أحَدٍ من التُّجّار المسـلمين فى البَحْرِ ، ونُسبَتْ الكرسالية إلىٰ رَعيّةِ مملكة المَلِك الجليلِ كرميخائيل ، يُسيِّرُ عزّ سُلطانى إليه فى طَلَبِهم ،

ولا يتعرّض أحَدٌ من نُوَّاب مملكة عِزِّ سلطانِى إلىٰ هـذا الجنْس بسَبَبِهم، إلا أن يَتحقَّق أنهم آخِذُون، أو تَظْهَرَ عَيْنُ المـالِ معهم، علىٰ ما تضمَّنَتْه نُسْخةُ يمينِ المَلِك الجليلِ كـر ميخائيل، ولمملكة الملك الجليـل كر ميخائيل من بلاد عِزِّ سُـلطانِى مثلُ ذلك .

وعلىٰ أنَّ الرسُلَ المتردّدين من الجهتين : من مملكةِ عِزِّ سُـلطانى ، ومن مملكة المَلِكِ الجليلِ كر ميخائيل، يكونون آمِنِينَ مُطمَئِنِّين فى سَفَرِهم ومُقَامِهم : بَرًّا وبَحْرًا، وتكون رَعِيَّةُ بلاد عِزِّ سلطانى ، ورعيةُ بلاد المَلِك الجليل كر ميخائيل، فى الجهتين من المسلمين وغيرهم آمِنِينَ مُطمَئِنِّين ، صادِرِينَ وارِدِينَ، مُحْتَرَمِينَ مَرْعِيِّين . وهذه اليمينُ لا تزالُ مَحْفوظةً مَلْحوظةً ، مُسْتمِرَّةً مستقرّةً، على الدَّوامِ والاستِمْرار .

قلتُ : وهذه النُّسخةُ والنُّسخةُ الوارِدَةُ من صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة المتقدّمة عليها، وإن عُبِّرَ عنهما فى خلالها بلَفْظِ اليمين ، فإنهما بعَقْدِ الصُّلْح أشْـبَهُ ، واليمينُ جُزْءٌ من أجْزاءِ ذلك، ولذلك أوردتُها فى عُقُودِ الصُّلْح دون الأَيْمـان .

الباب الخامس
من المقالة التاسعة
(فى عقود الصُّلح الواقعة بين مَلِكين مُسْلمين ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
فى أُصولٍ تُعتمَدُ فى ذٰلك

اعلم أنَّ الأصْلَ فى ذلك ما ذكره أصحابُ السِّيَرِ وأهْلُ التَّارِيخ ، أنه لمَّا وقع الحَرْبُ بين أمير المؤمنين عَلِىّ بن أبى طَالِبٍ كَرَّم اللهُ وجْهَه ، وبين مُعَاوِيَةَ بن أَبى سُفْيانَ رضِىَ اللهُ عنه ، فى صِفِّينَ ، فى سنة سبع وثلاثين من الهِجْرةِ ـ تَوافقَا علىٰ أن يُقِيما حَكَمَيْنِ بينهما ، ويَعْمَلا بما يَتَّفِقانِ عليه . فأقام أميرُ المؤمنين عَلِىٌّ أبا مُوسىٰ الأشْعَرِىَّ حَكَمًا عنه ، وأقام مُعاوِيةُ عَمْرَو بن العَاصِ حَكَمًا عنه . فاتَّفق الحَكَمان علىٰ أن يُكْتبَ بينهما كِتَابٌ بعَقْدِ الصُّلح ، وآجتمعا عند عَلِىٍّ رضى الله عنه ، وكُتِب كتَابُ القَضِيَّة بينهما بحَضْرتِه ، فكُتِب فيه بعد البَسْملة :

هذا ما تقاضىٰ أميرُ المؤمنين عَلِىٌّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تمْحُ آسم أمير المؤمنين فإنى أخاف إن مَحَوْتَها أن لا ترجعَ إليك أبدا . لا تَمْحُها و إن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبىٰ ذلك علىٌّ مَلِيًّا من النَّهار . ثم إن الأشْعَثَ](1) آبن قيس قال : أُمح آسم أمير المؤمنين ، فأجاب عَلِىٌّ ومحاه . ثم قال عَلِىٌّ : اللهُ أكبر ! سنةٌ بسنةٍ . واللهِ إنى لكَاتِبُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَةِ ، فكتبتُ : محمدٌ رسولُ اللهِ ، فقالوا : لَسْتَ برسولِ اللهِ ، ولكن آكتبِ آسْمَك وآسْمَ أبِيكَ .

(1) بياض فى الأصل والتصحيح من الكامل لآبن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فأمرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمَحْوِه ، فقلتُ : لا أستطيع أفعل ! فقال إذَنْ أرنيه فأريْتُه فمحاه بيده، وقال : « إنَّكَ سَتُدْعَىٰ إلىٰ مِثْلِها فتُجيب » .



وهذه نُسْخةُ كِتاب القَضِيَّة بين أمير المؤمنين عَلِيٍّ و بين مُعاوِيَةَ ، فيما رواه أبو عَبْدِ الله الحُسَيْنُ بن نَصْر بن مُزاحِم المِنْقَرِيّ ، فى "كتاب صِفِّينَ والحَكَمَين" بسَنَدِه إلى محمد بن علىّ الشَّعْبىّ ، وهو :

هذا ما تقاضىٰ عليه عَلِيّ بنُ أبِي طالِبٍ ، ومُعاوِيةُ بنُ أبى سُفْيانَ وشِيعَتُهما ، فيما تَراضَيَا من الحُكْم بكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبِيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم . قَضِيَّةُ عليٍّ علىٰ أهْلِ العِرَاقِ ومن كان من شِيعَتِه من شاهِدٍ أو غائِبٍ ، وقَضِيَّةُ مُعاوِيَةَ علىٰ أهْلِ الشَّام ومن كان من شِيعَتِه من شاهِدٍ أو غائِبٍ ، انا رَضِينا أن نَنْزِلَ عند حُكْم كِتاب اللهِ بيننا حُكْمًا فيما آختلفنا فيه من فَاتِحَتِه إلىٰ خَاتِمَتِه ، نُحْيِي ما أحْيَا ، ونُمِيتُ ما أمات . علىٰ ذلك تَقاضَيْنا ، و به تَراضَيْنا . وانَّ علِيًّا وشِيعَتَه رَضُوا أن يبعثُوا عبدَ اللهِ بنَ قَيْسٍ ناظِرًا ومُحاكِمًا ، ورَضِيَ مُعاوِيةُ وشِيعَتُه أن يبعثُوا عَمْرَو بنَ العاص نَاظِرًا ومُحاكِمًا ، علىٰ أنهم أخَذُوا عليهما عَهْدَ الله ومِيثَاقَه ، وأعْظَمَ ما أخَذَ اللهُ علىٰ أحدٍ من خَلْقِه ، لَيَتَّخِذَانِ الكِتابَ إمامًا فيما بُعِثا له ، لا يَعْدُوانِه إلىٰ غَيْره فى الحُكْمِ بما وَجَدا فيه مَسْطورًا ، وما لم يَجِداه مُسَمًّى فى الكِتَاب رَدَّاه إلىٰ سُنَّةِ رسولِ اللهِ الجامعةِ ، لا يتعمَّدانِ لها خِلافًا ، ولا يتَّبِعانِ فى ذلك لهما هَوًى ، ولا يدخلان فى شُبْهةٍ .

وأخَذَ عبدُ اللهِ بنُ قَيْسٍ ، وعَمْرُو بنُ العاص علىٰ عَلِيٍّ ومُعاوِيَةَ عَهْدَ اللهِ ومِيثاقَه بالرِّضا بما حَكَما به من كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبِيِّه ، ليس لهما أن يَنْقُضَا ذلك تَخالُفًا إلىٰ

غَيْره ، وأنهما آمِنَانِ فى حُكومَتِهما علىٰ دِمَائِهما وأموالِهما وأهْلِيهما ، مالم يَعْدُوَا الحقَّ ، رَضِيَ بذلك رَاضٍ أو أنْكَرَ مُنْكِرٌ . وأنَّ الأمةَ أنصارٌ لهما علىٰ ما قَضَيا به من العَدْل .

فإن تُوُفِّيَ أحدُ الحَكَمَيْنِ قبل ٱنقضاء الحُكُومَةِ ، فأميرُ شيعتِهِ وأصحابُه يختارون رَجُلًا ، لا يألُوَان عن أهْلِ المَعْدَلة والإقْساط ، علىٰ ما كان عليه صاحبُه من العَهْد والمِيثَاق والحُكْم بكتاب اللهِ وسُنَّة رسولِه ، وله مثلُ شَرْطِ صَاحِبِه .

وإن مات واحدٌ من الأميرين قبل القَضَاءِ ، فلِشيعَتِه أن يُوَلُّوا مكانَه رجُلًا يرضَوْنَ عَدْلَه .

وقد وَقَعتِ القَضِيَّة بيننا والأَمْنُ والتَّفاوُضُ ، ووُضِعَ السِّلاح . وعلى الحَكَمين عَهْدُ اللهِ وميثاقُه : لَيَحْكُمَان بكتاب اللهِ وسُنَّة نَبِيِّه ، لا يَدْخُلانِ فى شُبْهةٍ ولا يألُوَانِ ٱجْتِهادًا ، ولا يَتَعَمَّدان جَوْرًا ، ولا يتَّبِعانِ هَوًى ، ولا يَعْدُوان ما فى كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رَسُولِه . فإن لم يفعلا برِئَتِ الأُمَّةُ من حُكْمِهما ، ولا عَهْدَ لهما ولا ذِمَّةَ . وقد وجبتِ القَضِيَّة علىٰ ما سَمَّينا فى هذا الكِتَاب من مَوْقِع الشَّرْط على الأميرينِ والحَكَمينِ والفَرِيقَينِ ، واللهُ أقربُ شَهِيدا وأدْنَى حَفِيظا ، والناسُ آمِنُونَ علىٰ أنْفُسِهم وأهْلِيهِمْ وأمْوالِهِم إلى ٱنقضاء مُدَّةِ الأجَلِ ؛ والسِّلاحُ مَوْضُوعٌ ، والسَّبِيلُ مُخَلًّى ، والشاهِدُ والغائبُ من الفريقَيْنِ سَوَاءٌ فى الأمْرِ . وللحَكَمينِ أن يَنْزِلَا مَنْزِلًا عَدْلًا بين أهْلِ العِرَاق وأهْلِ الشَّام ، ولا يَحْضُرُهما فيه إلا من أَحَبَّا عن مَلَإٍ(١) منهما وتَرَاضٍ . وأجَّلَ القاضِيَيْنِ المسلمون إلىٰ رَمَضان : فإن رأى الحَكَمان تَعْجِيلَ الحُكُومة فيما وُجِّها له ، عَجَّلَا . وإن أرادا تأخيرَه بعد رَمَضانَ إلىٰ ٱنقضاء المَوْسِم ، فإن ذٰلك إليهما . فان هما لم يَحْكُمَا بِكتابِ الله وسُنَّة نَبِيِّه إلىٰ ٱنْقضاءِ المَوْسِم ، فالمسلمون علىٰ

(١) أى تشاور واجتماع .

أمْرِهِم الأوّلِ فى الحَرْبِ، ولا شَرْط بين واحِدٍ من الفَرِيقَيْنِ . وعلى الأمَّة عَهْدُ الله وميثَاقُهُ على التمـام علىٰ ما فى هذا الكِتَابِ . وهم يَدٌ علىٰ من أراد فى هـذا الكِتَاب إلْحَـادًا أو ظُلْمًا ، أو أراد له نَقْضًا .

شَهِدَ علىٰ ما فى هـذا الكتاب من أصحاب عَلِيٍّ : الأشْعَثُ بن قَيْسٍ ، وعَبْدُ الله ٱبن عَبَّاسٍ ، والأشْتَرُ بن الحٰرِث، وسَعِيدُ بن قَيْسٍ الهَمْدَانِيُّ ، والحُصَيْنُ والطُّفَيل ٱبنا الحٰرِثِ بن المُطَّلِب ، وأبو أَسـيد بن رَبِيعَةَ الأنْصارِيُّ ، وخَبَّابُ بن الأَرَتِّ ، وسَهْلُ بن حُنَيف الأنْصارِيُّ ، وأبو اليَسَرِ بن عمرو الأنْصارِيُّ ، ورِفَاعَةُ بنَ رافِع ٱبن مَالِك الأنصارِيُّ ، وعَوْفُ بن الحٰرِثِ بن المُطَّلب القُرَشِيُّ ، وبُرَيْدَةُ الأسْلَمِيُّ ، وعُقْبَةُ بن عَامِرٍ الجُهَنِيُّ، ورَافِعُ بن خَدِيج الأنْصارِيُّ ، وعَمْرو بن الحَمِق الخُزَاعِيُّ ، والحَسَنُ والحُسَيْنُ ٱبنـا عَلِيٍّ ، وعبـدُ الله بن جَعْفرٍ الهَـاشِمِيُّ ، والنُّعْمَرُ بن عَجْلانَ الأنْصارِيُّ، وحُجْرُ بن عَدِيٍّ الكِنْدِىُّ، ووَرْقاءُ بن سُمَيٍّ البَجَلِيُّ، وعبدُالله بنُ الطُّفَيْل الأنْصارِيُّ، ويَزِيدُ بن حجية الدكرِىّ[(١)] ، ومَالِكُ بن كَعْب الهَمْدانِيُّ ، ورَبِيعةُ بن شُرَحْبِيلَ ، وأبو صُفْرَةَ ، والحارِثُ بنُ مالِكٍ ، وحُجْرُ بن يزيد، وعقبة بن حجبةَ .

ومن أصحاب مُعاوِيَةَ : حَبِيبُ بنُ مَسْلَمَة الفِهْمِيُّ[(٢)] ، و[أبو] الأعْورِ السُّلَمِيُّ ، وبُسْرُ ٱبن أَرْطاة القُرَشِيُّ ، ومعاويةُ بن حُدَيج الكِنْدِىُّ ، والمُخَارِقُ بنُ الحٰرِث الحِمْيَرِيُّ ، وزُمَيْل بنُ عمرو السَّكْسَكِيُّ ، وعبدُ الرحمن بن خالِدِ بنِ الوليد المَخْزُومِيُّ ، وحَمْزَةُ بن مالك الهَمْدَانِيُّ ، وسبع بن زيد الحميرىُّ[(٣)] ، وعبدُ الله بن عمرو بن العَاصِ ، وعلقمةُ بن مَرْثَد

---

(١) فى الكامل لابن الأثير "ابن حجية التيمى" .

(٢) فى خلاصة أسماء الرجال : الفهرى .

(٣) فى الكامل : "سبيع بن يزيد الأنصارى" .

الكَلْبِىّ، وخالد بن الحُصَيْن السَّكْسَكِىُّ، وعلقمةُ بن يزيد الحَضْرمىّ، ويَزِيدُ بن الحرّ العَبْسِىُّ، ومَسْروق بن حملة العكىّ، ونُمَيْر بن يَزِيدَ الحِمْيَرِىُّ، وعبدُ الله بن عامر القُرَشِىُّ، ومَرْوانُ بن الحَكَم، والوَلِيدُ بن عُقْبة القُرشِىُّ، وعقبةُ بن أبى سُفْيانَ، ومحمدُ بن أبى سُفْيانَ، ومحمدُ بن عَمرو بن العَاص، ويزيدُ بن عمرو الجُذَامِىُّ، وعَمَّارُ ابن الأخوص الكَلْبِىّ، ومَسْعَدَةُ بن عمر القَيْنِىّ، وعاصم بن المستنير الجُذَامىّ، وعبدُ الرحمن بن ذِى كَلاعٍ الحِمْيَرِىُّ، والصباح بن جلهمة الحِمْيَرِىُّ، وثُمامَةُ بن حَوْشَب، وعَلْقمةُ بن حكيم، وحمزةُ بن مالك .

وإنَّ بيننا علىٰ ما فى هذه الصَّحِيفَةِ عَهْدَ الله ومِيثاقَه . وكَتبَ عُمَيْر يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلةً بقِيتْ من صفر سنة سَبْعٍ وثلاثين .

وأخرج أيضا بسَنَده إلىٰ أبى إسحق الشَّيبانىّ أن عَقْدَ الصُّلْح كان عند سَعِيد ابن أبى بُرْدَةَ فى صحيفةٍ صَفْراءَ عليها خاتَمانِ : خاتَمٌ فى أسْفَلِها، وخاتَمٌ فى أعلاها . فى خاتَمِ عَلِىٍّ «محمدٌ رسولُ الله» وفى خاتَمِ مُعاوِيةَ «محمدٌ رسولُ الله» .

قلتُ : وذكر روايات أخرىٰ فيها زِيادةٌ ونَقْصٌ أضْربْنا عن ذِكْرِها خَوْفَ الإطالة، إذ فيما ذَكَرْنا مَقْنَعٌ. علىٰ أن المؤَرِّخِينَ لم يَذْكروا من ذلك إلا طَرَفًا يَسِيرًا .

الفصل الثانى

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرتْ العادةُ بِكِتَابته بين الخُلَفاء ومُلوكِ المسلمين على تعاقُب الدول، ممّا يُكْتبُ فى الطُّرّةِ والمَتْنِ)

أما الطُّرّة : فليُعلَمْ أنّ الذى ينبغى أن يُكْتب فى الطُّرّة هنا : «هذا عقدُ صُلْحٍ» ويكمل علىٰ ما تقدّم فى الهُـدْنةِ . ولا يكتبُ فيه : « هذه هُدنةٌ » لما يسبق إلى الأذهان من أن المرادَ من الهُدْنةِ ما يجرى بين المسلمين والكُفّار .

وأما المَتْنُ فعلىٰ نوْعين :

النـــوع الأوّل

(ما يكون العَقْدُ فيـه من الجانبَين)

ولم أَرَ فيه للكُتَّابِ إلا الاستفتاحَ بلَفْظ : «هذا» . وعليه كُتِب كِتابُ القَضيّة بين أمير المؤمنين عَلِيّ بن أبى طالبٍ كَرّم الله وَجْهَه ، وبين مُعاوِيةَ بن أبى سُـفْيانَ رضى الله عنه، علىٰ ما تقدّم ذكره .

وعلىٰ ذٰلك ٱستكْتبَ هٰرُونُ الرّشيدُ ولَدَيْه : محمدا الأمينَ ، وعبدَ الله المأْمونَ : العَهْدَيْنِ اللّذَيْنِ عَهِدَ فيهما بالخلافة بعده لٱبنه الأمينِ ، ووَلّىٰ خُراسَانَ ٱبْنَه المَأْمونَ، ثم عَهِدَ بالخلافة من بعد الأمين للمَأْمون، وأَشْهدَ فيهما ، وبعثَ بهما إلىٰ مَكّةَ فعُلِّقا فى بَطْنِ الكَعْبة، فى جُمْلةِ المعلّقاتِ التى كانت تُعَلّق فيها، على عادة العَرَبِ السّابِقة : من تَعْليقِ القَصائِد ونحْوها . وبذٰلك سُمِّيتِ القصائدُ السبعُ المشهورةُ : بالمعلّقاتِ، لتعليقهم إيّاها فى جَوْف الكَعْبة .

أما عَهْدُ الأمينِ ، فنُسْخَتُه بعد البَسْملة ــ علىٰ ما ذكره الأَزْرَقىُّ فى أخبار مكَّةَ ــ ما صُورَتُه :

هذا كِتَابٌ لِعَبْد الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين ، كتبه [له] محمدُ آبنُ أميرِ المؤمنين فى صِحَّةٍ من بَدَنِه وعَقْلِه ، وجَوازٍ من أَمْرِه ، طائِعًا غيرَ مُكْرَهٍ .

إنَّ أميرَ المؤمنين هٰرونَ وَلَّانِى العَهْدَ من بعده ، وجعلَ لى البَيْعَةَ فى رِقَاب المسلمين جميعًا ، ووَلَّىٰ أخى عَبدَ الله بنَ أميرِ المؤمنين هٰرونَ العَهْدَ والخلافةَ وجَميعَ أُمُورِ المسلمين من بَعْدِى ، بِرِضًا منِّى وتَسْليمٍ ، طائِعًا غيرَ مُكْرَهٍ . وولَّاه خُرَاسَانَ بثُغُورها ، وكُوَرِها ، وجُنُودها ، وخَرَاجِها ، وطِرازِها ، وبَرِيدها ، وبُيُوتِ أموالِها ، وصَدَقاتِها ، وعُشْرِها وعُشُورِها ، وجميعِ أعمالِها ، فى حَيَاتِه وبعد وَفاتِه . فشَرطتُ لعبد الله آبنِ أمير المؤمنين عَلَىَّ الوَفَاءَ بما جعله له أميرُ المؤمنين هٰرونُ : من البَيْعَة والعَهْدِ ، ووِلَايةِ الخلافَةِ وأُمورِ المسلمين بَعْدى ، وتَسْليمِ ذلك له ، وما جعلَ له من وِلَايةِ خُراسانَ وأعمالِها ، وما أقطعَه أميرُ المؤمنين هٰرونُ من قَطِيعةٍ ، وجعل له من عُقْدَةٍ أو ضَيْعَةٍ من ضِياعِه وعُقَدِه ، أو آبْتاعَ له من الضِّياع والعُقَدِ . وما أعطاه فى حَيَاتِه وصِحَّتِه : من مالٍ ، أو حُلِيٍّ ، أو جَوْهَرٍ ، أو مَتَاعٍ ، أو كُسْوَةٍ ، أو رَقِيقٍ ، أو مَنْزِلٍ ، أو دَوَابَّ ، قليلًا ، أو كثيرًا ، فهو لعبد الله آبنِ أمير المؤمنين مُوَفَّرًا عليه ، مُسَلَّمًا له . وقد عرفتُ ذلك كُلَّه شيئًا فشيئًا بآسْمِه وأصْنافِه ومَواضِعِه ، أنا وعبدُ الله آبن هٰرونَ أميرِ المؤمنين . فإن آختلَفْنا فى شَىْءٍ منه فالقولُ فيه قولُ عبدِ الله بنِ هٰرونَ أميرِ المؤمنين ، لا أَتْبَعُه بشَىْءٍ من ذلك ، ولا آخُذُه منه ، ولا أنتَقِصُه ، صغيرًا ولا كبيرًا [من ماله] ولا من وِلايةِ خُراسانَ ولا غَيرِها مما وَلَّاه أميرُ المؤمنين من الأعمال ، ولا أَعْزِلُه عن شَىْءٍ منها ، ولا أَخْلَعُه ، ولا أستَبْدِلُ به غيرَه ، ولا أُقَدِّم عليه

فى العَهْدِ والخلافَةِ أحدًا من الناس جميعًا، ولا أُدْخِلَ عليه مَكْرُوهًا فى نَفْسِه ولادَمِه، ولا شَعْرِه ولا بَشَرِه، ولا خَاصٍّ ولا عامٍّ من أموره وولايته، ولا أمْوالِه، ولا قَطَائعه، ولا عُقَده؛ ولا أُغَيِّرَ عليه شيئًا لسبب من الأسْباب، ولا آخُذُه ولا أحدًا من عُمّالِه وكُتّابِه ووُلاةِ أمْرِه — ممن صَحِبَه وأقام معه — بمُحاسَبَةٍ، ولا أتَتَبَّعُ شيئًا جرىٰ علىٰ يَدَيه وأيديهم فى ولايَةِ خُراسانَ وأعمالِهـا وغيرها ممـا ولاه أميرُ المؤمنـين فى حَياته وصحّتِـه: من الجِبَايَةِ، والأمْوالِ، والطِّرازِ، والبَرِيد، والصَّدَقات، والعُشْر والعُشُور، وغيرِ ذلك؛ ولا آمُرُ بذلك أحدًا من الناس، ولا أُرَخِّصُ فيه لغيْرى، ولا أحَدِّثُ نَفْسى فيه بشيءٍ أمْضيه عليه، ولا ألْتَمِسُ قَطيعةً له، ولا أنقصُ شيئًا مما جعله له هٰرونُ أميرُ المؤمنين وأعطاه فى حَياته وخلافَتِه وسُلْطانه من جميع ما سَمَّيْتُ فى كِتَابى هذا. وآخذُ له عَلَىَّ وعلىٰ جميع الناس البَيْعَةَ، ولا أُرَخِّصُ لأحَدٍ — من جميع الناس كُلِّهم فى جميع ما وَلَّاه — فى خَلْعِه ولا مُخالَفَتِه، ولا أسْمَعُ من أحدٍ من البَرِيَّة فى ذلك قَوْلًا، ولا أَرضَىٰ بذلك فى سِرٍّ ولا عَلانِيَةٍ، ولا أُغْمِضُ عليه، ولا أتغافَلُ عنه، ولا أقبلُ من بَرٍّ من العباد ولا فَاجِرٍ، ولا صادِقٍ ولا كاذِبٍ، ولا ناصِحٍ ولا غاشٍّ، ولا قريبٍ ولا بَعيدٍ، ولا أحدٍ من وَلَدِ آدمَ عليه السـلام: من ذَكَرٍ ولا أُنْثَىٰ — مَشُورَةً، ولا حِيلَةً، ولا مَكيدةً فى شيءٍ من الأمور: سِرِّها وعَلانِيَتِها، وحَقِّها وباطِلِها، وظاهِرِها وباطِنِها، ولا سَبَبٍ من الأسبابَ، أُريدُ بذلك إفْسادَ شَيْءٍ ممـا أعطيتُ عبـدَالله بنَ هٰرُونَ أميرِ المؤمنين من نَفْسى، وأوجبْتُ له عليَّ، وشرطتُ وسَمَّيتُ فى كِتَابى هذا.

وإن أراد به أحدٌ من الناس أجمعين سُوءًا أو مَكْرُوهًا، أو أراد خَلْعَه أو مُحارَبَتَه، أو الوُصُولَ إلىٰ نَفْسِـه ودَمِه، أو حُرَمِه، أو مَالِه، أو سُلْطانه أو وِلَايته: جميعًـا أو فُرادَىٰ، مُسِرّينَ أو مُظْهِرين له — فإنّى أنصُرُه وأحُوطُه، وأدْفَعُ عنه، كما أدْفَعُ عن نَفْسى، ومُهْجَتِى، ودَمِى، وشَعْرِى، وبَشَرِى، وحُرَمِى، وسُلْطانى؛ وأُجَهِّزُ الجُنودَ

إليه ، وأُعينُه علىٰ كلِّ من غَشَّه وخَالَفَه ، ولا أُسْلِمه [ولا أخذله] ولا أتَخَلَّىٰ عنه ، ويكونُ أمْرِى وأمْرُه فى ذلك وَاحِدًا [أبدا] ما كُنْتُ حيًّا .

وإن حدث بأمير المؤمنين هٰرون حَدَثُ المَوْتِ ، وأنا وعبدُ اللهِ ٱبنُ أميرِ المؤمنين بحَضْرة أمير المؤمنين ، أو أَحَدُنا ، أو كُنَّا غائِبَيْنِ عنه جميعًا : مجتمعَيْن كُنَّا أو مُتَفَرِّقَيْن ، وليس عبدُ الله بنُ هٰرونَ أميرِ المؤمنين فى وِلايَتِه بخُراسَانَ [فعَلَىَّ لعَبْدِ اللهِ ٱبنِ أميرِ المؤمنين أن أُمْضِيَه إلىٰ خُراسَانَ] وأَنْ أُسَلِّمَ له وِلَايَتَهَا بأعمالِها كلِّها وجُنودِها ، ولا أَعُوقُه عنها ، ولا أحْبِسُه قِبَلِي ، ولا فى شىءٍ من البُلْدانِ دون خُراسانَ ، وأُعَجِّلُ إشْخاصَه إلىٰ خُراسَانَ وَالِيًا عليها مُفْرِدًا بها ، مُفَوَّضًا إليه جميعُ أعمالِها كُلِّها ، وأُشْخِصُ معه من ضَمَّ إليه أمير المؤمنين : من قُوَّادِه ، وجُنُودِه ، وأَصْحابِه ، وكُتَّابِه ، وعُمَّالِه ، ومَوَالِيه ، وخَدَمِه ، ومن تَبِعَه من صُنُوف الناس بأهليهم وأموالِهِمْ ؛ ولا أحْبِسُ عنه أحدًا ، ولا أُشرِكُ معه فى شَىْءٍ منها أحدا ، ولا أُرْسِلُ أَمِيناً ولا كَاتِباً ولا بُنْدارا ، ولا أَضْرِبُ علىٰ يديه فى قليلٍ ولا كَثِيرٍ .

وأعْطيتُ هٰرونَ أميرَ المؤمنين وعَبْدَالله بنَ هٰرونَ علىٰ ما شرطت لهما علىٰ نَفْسى ، من جميع ما سَمَّيْتُ وكتَبْتُ فى كِتَابِى هذا ـ عَهْدَ اللهِ وميثَاقَه ، وذِمَّةَ أميرِ المؤمنين وذِمَّتِي ، وذِمةَ آبائِي وذِمَمَ المؤمنين ، وأشَدَّ ما أَخَذَ اللهُ تعالىٰ علىٰ النَّبِيِّينَ والمرسَلِين وخَلْقِه أجمعين : من عُهُوده ومَوَاثِيقِه ، والأَيْمانَ المؤَكَّدَةَ التى أَمَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بالوَفَاءِ بها ، ونهىٰ عن نَقْضِها وتَبْدِيلِها .

فإن أنا نقضتُ شيئًا ممَّا شرطتُ لهٰرونَ أميرِ المؤمنين ولعَبْدِ اللهِ بن هٰرونَ أميرِ المؤمنين وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا ، أو حَدَّثْتُ نَفْسِى أن أنقضَ شيئًا ممَّا أنا عليه ،

أو غيَّرتُ أو بدَّلتُ، أو حُلْتُ أو غَدَرْتُ، أو قبِلتُ [ذلك] من أحَدٍ من الناس: صَغيرًا أو كبيرًا، برًّا أو فاجِرًا، ذكرًا أو أُنثى، وجماعةً أو فُرادىٰ ـ فبرِئْتُ من اللهِ عزَّ وجلَّ، ومن وِلايتِه، ومن دِينِه، ومن محمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ ولَقِيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ يوم القيامة كافرًا مُشرِكًا. وكلُّ امرأةٍ هى اليومَ لِى أو أتزوَّجُها إلىٰ ثلاثين سَنَةً طالِقٌ ثلاثًا، البتَّةَ، طَلاقَ الحَرَجِ، وعلَىَّ المَشْىُ إلىٰ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ ثلاثين حَجَّةً: نَذْرًا واجِبًا لله تعالىٰ فى عُنُقِى، حافِيًا راجِلًا، لايقبلُ اللهُ منِّى إلا الوفاءَ بذلك. وكلُّ مال هو لى اليَوْمَ، أو أَمْلِكُه إلىٰ ثلاثين سَنةً هَدْىٌ بالِغُ الكَعْبَةِ الحرامِ. وكلُّ مَمْلوكٍ هُو لِى اليومَ، أو أَمْلِكُه إلىٰ ثلاثين سَنَةً أحْرارٌ لوَجْه اللهِ عزَّ وجَلَّ.

وكلُّ ماجعلتُ لأميرِ المُؤْمنينَ ولعَبْدِ اللهِ بنِ هٰرونَ أميرِ المؤمنين، وكتبتُه وشرطتُه لهما، وحَلَفْتُ عليه، وسَمَّيتُ فى كِتَابى هذا لازِمٌ لى الوَفَاءُ به، لا أُضْمِرُ غيرَه، ولا أَنْوِى إلَّا إيَّاه. فإن أضمرتُ أو نَوَيْتُ غيرَه فهذه العُقُودُ والمواثيقُ والأَيْمانُ كُلُّها لازِمَةٌ لى، واجِبَةٌ علَىَّ. وقُوَّادُ أميرِ المؤمنين وجُنُودُه وأَهْلُ الآفَاقِ والأمْصارِ فى حِلٍّ من خَلْعِى وإخراجِى من وِلَايَتِى عليهم، حتَّىٰ أكُونَ سُوقَةً من السُّوق، وكَرجُلٍ من عَرْضِ المُسْلِمين، لاحَقَّ لى عليهم، ولا وِلَايَةَ، ولا تَبِعةَ لى قِبلَهم، ولا بَيْعةَ لى فى أعناقهم، وهم فى حِلٍّ من الأيْمانِ التى أعْطَوْنِى، بَرَاءٌ من تبِعَتِها ووِزْرِها فى الدُّنْيا والآخِرَةَ.

شَهِدَ سُليمانُ بنُ أميرِ المؤمنين المَنْصُورِ، وعيسَى بنُ جَعْفَر، وجَعْفَر بن جَعْفَر، وعبدُ اللهِ بنُ المَهْدِىّ، وجَعْفَرَ بن مُوسىٰ أميرِ المؤمنين، وإسْحٰقُ بن مُوسىٰ أميرِ المؤمنين، وإسْحٰقُ بنُ عيسي بن علِىٍّ، وأحمدُ بن إسماعيلَ بن علِىٍّ، وسُليمانُ بن

جَعْفر بن سُـلَيمانَ ، وعِيسى بنُ صالح بن عليّ ، ودَاوُدُ بن عيسى بن مُوسَىٰ ، ويَحْيي آبنُ عيسى بن مُوسَىٰ ، وداودُ بن سُلَيمان بن جَعْفر ، وخُزَيمةُ بن حَازِم ، وهَرْثَمَةُ بن أَعْيَنَ ، ويحيي بنُ خَالدٍ ، والفَضْلُ بنُ يحيىٰ ، وجَعْفَرُ بن يحيىٰ ، والفَضْلُ بنُ الرَّبيع مولىٰ أمير المؤمنين ، والقاسِمُ بن الرَّبيع مَوْلىٰ أمير المؤمنين ، ودماثة بن عَبْـدِ العزيز العَبْسِيّ ، وسُلَيمانُ بن عبد الله بن الأَصَمّ ، والربيعُ بنُ عبدِ اللهِ الحَارِثيّ ، وعبدُ الرحمٰن آبنُ أبي الشِّمْرِ الغَسَّانيّ ، ومحمدُ بن عبد الرحمٰنِ قاضِي مَكَّة ، وعبدُ الكَرِيمِ بن شُعَيْبٍ الحَجَبيّ ، وإبراهيمُ بنُ عبد الله الحَجَبيّ ، وعبدُ الله بن شُعَيْبٍ الحَجَبيّ ، ومحمدُ بن عبد الله آبن عثمانَ الحَجَبيّ ، وإبراهيمُ بن عبد الرحمٰنِ بن نَبِيهٍ الحَجَبيّ ، وعبدُ الواحدِ بنُ عبدِ اللهِ الحَجَبيّ ، وإسماعيلُ بن عبدِ الرحمٰن بن نَبِيهٍ الحَجَبيّ ، وأبانٌ مولىٰ أمير المؤمنين ، ومحمدُ آبن منصور ، وإسماعيلُ بن صبيح ، والحارثُ مَوْلَىٰ أمير المؤمنين ، وخالدٌ مَوْلَىٰ أميرِ المؤمنين .

وكُتِبَ في ذي الحجة سنة ستٍّ وثمـانين ومائةٍ .

✣

وأما ما كتبه المأمُونُ ، فنَصُّه بعد البَسْملة :

هذا كِتابٌ لعَبْدِاللهِ هٰرُونَ أميرِ المؤمنين ، كتبه له عبدُاللهِ بنُ هٰرُون أميرِ المؤمنين ، في صِحّةٍ من عَقْلِه ، وجَوَازٍ من أَمْرِه ، وصِدْقِ نيَّـةٍ فيما كَتَبَ من كِتَابِه ، ومَعْرِفَة ما فيه من الفَضْلِ والصَّلاح له ولأهْلِ بَيْتِه ولجماعةِ المسلمين .

إنَّ أميرَ المؤمنينَ هٰرُونَ ولَّانِي العَهْدَ والخلافَةَ وجميعَ أُمُورِ المسلمين في سُـلْطانه بعدَ أخي محمدِ بن هٰرُون أميرِ المؤمنين ، وولَّاني في حَياته وبعده خُراسانَ وكُوَرَها ، وجميعَ أعمالها : من الصَّدَقاتِ والعُشْرِ والبَرِيدِ والطِّرَازِ وغيرِ ذلك . وآشترط لي علىٰ

محمد ٱبنِ أميرِ المؤمنــين الوَفَاءَ بمـا عقَدَ لى من الخلافة والوِلَايةِ للعبادِ والبلاد بعدَه ، وولايتى خُرَاسَانَ وجميعَ أعمالها ، ولا يعْرِضُ لى فى شَىْءٍ ممَّـا أقطعنى أميرُ المؤمنين ، أو ٱبتاع لى من الضِّيَاع والعُقَدِ والدُّور والرِّبَاع ، أو ٱبتعْتُ منه [لنفسى] من ذلك ، وما أعطانى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ من الأموالِ والجوْهرِ والكُسَا والمتَـاعِ والدَّوَابِّ فى سَبَب مُحاسَنَتِه [لأصحابى] ، ولا يَتَتَبَّعُ لى فى ذلك ولا لأحَدٍ منهم أثرًا ، ولا يُدْخِلُ عَلَىَّ ولا علىٰ أحَدٍ ممَّن كان مَعِي ومِنِّى ، ولا عُمَّالِى ولا كُتَّابِى ، ومن ٱستعنتُ به من جميع النَاس ــ مَكْرُوهًا : فى دَمٍ ، ولا نَفْسٍ ، ولا شَعَرٍ ، ولا بَشَرٍ ، ولا مَالٍ ، ولا صَغِيرٍ ، ولا كَبِيرٍ .

فأجابه إلىٰ ذلك وأقَرَّ به ، وكتب له به كِتَابًا كتبه علىٰ نَفْسه ورَضِىَ به أميرُالمؤمنين [هٰرُون وقَبِلَهُ وعَرَف صِدْقَ نِيَّتِـه . فشَرَطتُ لعبـد الله هٰرُونَ أمير المؤمنــين] وجعلتُ له على نَفْسِى أن أسمعَ لمحمد ٱبن أميرالمؤمنين وأُطِيعَه ولا أَعْصِيه ، وأَنْصَحَه ولا أَغُشَّــه ، وأُوَفِّىَ ببيْعَتِه ووِلايَتِــه ، ولا أَغْدِر ولا أَنْكُث ، وأُنَفِّذَ كُتُبَه وأُمورَه ، وأُحْسِنَ مُؤَازَرَتَه ومُكَانَفَتَه ، وأجاهِدَ عَدُوَّه فى ناحيتى بأحْسنِ جِهادٍ ما وَفىٰ لى بمـا شَرَط لى ولعَبْدِ الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين ، وسَمَّاه فى الكِتَاب الذى كتبه لأميرالمؤمنين ورَضِىَ به اميرُ المؤمنين ، ولم ينقصْ شيئًا من ذلك ، ولم ينقُضْ أمرًا من الأمور التى ٱشترطها لى عليه هٰرُونُ أميرُ المؤمنين .

وإن ٱحتـاج محمدُ بنُ هٰرُونَ أميرِ المؤمنيــن إلى جُنْــدٍ وكتب لى يَأمُرنِى بإشْخاصِهم إليه ، أو إلىٰ ناحيةٍ من النَّواحِى ، أو إلىٰ عَدُوٍّ من أعْدائه خالَفَه أو أراد نَقْصَ شَىْءٍ من سُلْطانه وسُلْطانِى الذى أسـنده هٰرُونُ أمير المؤمنين إلينا ووَلَّاناه ــ أن أُنَفِّذَ أمْرَه ولا أُخَالِفه ، ولا أُقصِّرَ فى شَىْءٍ كتب به إلىّ .

وإن أراد محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين هٰرُونَ أن يُوَلِّى رجُلًا من وَلَدِه العَهْدَ والخلافةَ من بَعْدِى، فذلك له ما وَفَّىٰ لى بما جعل لى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ، وآشترط لى عليه، وشَرطه علىٰ نفسِه فى أمْرِى، وعلَىَّ إنْفاذُ ذلك والوَفاءُ له بذلك، ولا أَنْقُضُ ذلك ولا أُغَيِّره، ولا أُبَدِّلُه، ولا أقدّم [قبله] أحدًا من وَلَدِى، ولا قَرِيبًا ولا بعيدًا من الناس أجمعين، إلا أن يُوَلِّى هٰرُونُ أميرُ المؤمنين أحدًا من وَلَدِه العَهْدَ من بعدى، فيلزمُنِى الوَفاءُ بذلك.

وجعلْتُ لأميرِ المؤمنين ومحمدِ بنِ أميرِ المؤمنين عَلَىَّ الوَفاءَ بما آشترطتُ وسَمَّيْتُ فى كِتَابى هذا، ما وَفَّى لى محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين هٰرُونَ بجميع ما آشترطَ لى هٰرُونُ أميرُ المؤمنين عليه فى نَفْسِى، وما أعْطانِى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ من جميع الأشياء المسمَّاةِ فى الكِتَاب الذى كتبه له. [وعلَىَّ] عهدُالله تعالىٰ وميثاقُه، وذِمَّةُ أميرِ المؤمنين، وذِمَّتِى، وذِمَّةُ آبائى، وذِمَمُ المُؤْمنين، وأشَدُّ ما أخذَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ على النبيين والمُرْسلين من خَلْقه أجمعين من عُهُوده ومَوَاثِيقه، والأَيْمَانِ المُؤَكَّدةِ التى أمر الله عَزَّ وجَلَّ بالوَفاءِ بها.

فإنْ أنا نَقَضتُ شيئًا مما آشترطتُ وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا له، أو غَيَّرتُ، أو بَدَّلْتُ، أو نَكَثْتُ، أو غَدَرتُ - فبَرِئْتُ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ ومن وِلايَتِه ومن دِينه، ومن محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم؛ ولَقِيتُ اللهَ سبحانه وتعالىٰ يومَ القِيامَةِ كافرًا مُشْرِكًا. وكلُّ آمْرأةٍ لى اليومَ أو أتزوَّجُها إلىٰ ثلاثين سنةً طالِقٌ ثلاثًا البتَّةَ [طَلاقَ] الحَرَجِ. وكلُّ مَمْلُوكٍ لى اليوم أو أَمْلِكُه إلىٰ ثلاثين سنةً أحْرارٌ لوَجْهِ الله تعالىٰ. وعلَىَّ المَشْىُ إلىٰ بَيْت الله الحَرَامِ الذى بمكّةَ ثلاثين حَجَّةً، نَذْرًا واجبًا علَىَّ وفى عُنُقِى،

حَافيًا رَاجِلًا ، لا يقبَلُ اللهُ منِّى إلا الوفَاء به ، وكلُّ مال هو لى اليومَ أو أَمْلِكه إلىٰ ثَلاثِينَ سَـنَةً هَدْىٌ بَالِـغُ الكَعْبةِ . وكل ماجعلت لعبد الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين أو شرطتُ فى كِتَابِى هذا لازِمٌ لى ، لا أُضْمِر غيره ولا أنْوِى سِوَاهُ .

شَهِدَ فلانٌ وفلانٌ ، بأسماء الشهود المقدّم ذِكْرُهم فى كتاب الأَمِينِ المبتدإِ بذِكرِه .

قال الأزرقىُّ : ولم يَزَلْ هـذانِ الشرطانِ مَعلقَيْنِ فى جَوْفِ الكَعْبـةِ حتّىٰ مات هٰرُونُ الرَّشِيدُ ، وبعد ما مات بسنتين فى خِلافَةِ الأمين . فكَلَّم الفَضْـلُ بنُ الربيع محمدَ بن عبد الله الحَجَبىَّ فى إتْيانه بهما ، فنزعهما من الكَعْبةِ وذهب بهما إلى بَغْداد ، فأخذهما الفَضْل فخَـرَّقَهما وحَرَّقَهُما بالنَّار .

قلتُ : وعلىٰ نَحْوٍ من ذلك كتبَ أبُو إسحاق الصَّـابِى مُواصَفَةً بالصُّلْح بين شَرَف الدَّوْلة وزَيْنِ المِلَّة أبِى الفَوَارِس ، وصَمْصامِ الدَّوْلة وشَمْسِ المِلَّة أبى كَالِيجَارَ ، ٱبْنَىْ عَضُدِ الدَّوْلة بن رُكْنِ الدَّولة بن بُوَيه ، فى النِّصف من صَفَر سنة سِتٍّ وسبعين وثلثمائة .

ونَصُّها بعد البَسْمَلَةِ الشَّرِيفة :

هذا ما ٱتَّفق وٱصْطلَح وتَعَاهَد وتعاقَدَ عليه شَرَفُ الدَّوْلة وزَيْنُ المِلَّة أبُوالفوَارِس ، وصَمْصامُ الدَّوْلَة أبُو كَالِيجَارَ ٱبْنا عَضُـدِ الدَّوْلة وتَاجِ المِلَّة أبى شُجَاع بنِ رُكْنِ الدَّولةِ أَبِى عَلِىٍّ ، مَوْلَيَـا أميرِ المؤمنين الطائـع لله ــ أطال اللهُ بَقاءَه ، وأدام عِزَّه وتَأْيِيدَه ، ونَصْرَه وعُلُوَّه وإذْنَه .

ٱتَّفقا وتَصالَحَا ، وتعاهَدَا وتعاقَدَا ، علىٰ تَقْوَى اللهِ تعالىٰ وإيثارِ طاعَتِه ، والاْعْتصامِ بحَبْله وقُوَّته ، والاْلْتجاءِ إلىٰ حُسْنِ تَوْفِيقه ومَعُونَتِه ، والإقْرارِ بٱنْفرادِه ووَحْدانِيَّتِه ؛ لاشَرِيكَ له ولا مِثْل ، ولا ضِدَّ ولا نِدَّ ؛ والصلاةِ علىٰ محمدٍ رسولِه صلَّى الله عليه وعلىٰ

آله وسَلَّم تسليما ، والطَّاعَةِ لأمير المؤمنين الطَّائِـعِ لله ، والآلتزام بوَثائِقِ بَيْعَتِه ، وعلائق دَعْوتِه ، والتَّوازُرِ علىٰ موالاة وَلِيِّـه ، ومُعادَاةِ عَدُوِّه ، وعلىٰ أن يُمْسِكا [ذات] بينهما بالسِّيَرِ الحَميده ، والسُّنَنِ الرشيده ، التى سَنَّها لهما السَّلَفُ الصالحُ من آبائهما وأجدادهما فى التآلُف والتَّوازُر ، والتَّعاضُدِ والتَّظافُر ، وتَعْظِيم الأصْغرِ للأكْبَر ، و إشْبالِ(١) الأكْبَر على الأصغر ، والاَشتراك فى النِّعم ، والتَّفاوُض فى الحظوظ والقِسَم ، والاَتِّحادِ بخُلُوص الطَّوَايا ، والخَفَايا ، وسلامةِ الخَوَاطِر ، وطهارة الضَّمائر ، ورَفْعِ ما خالف ذلك من أسْـبابِ المُنافَسَه ، وجَرَائِرِ المضاغَنَه ، وجَوَالِب النَّبْوَه ، ودوَاعِي الفُرْقَه ، والإقْران لأعْداءِ الدَّوْلة ، والإرْصـادِ لهم ، والاَجتماعِ على دَفْعِ كلِّ ناجِم ، وقَمْعِ كُلِّ مُقـاوِم ، و إرْغامِ أنْفِ كُلِّ ضَارٍ متجبِّر ، و إضْراعِ خَدِّ كُلِّ مُتطاوِلٍ مُسْتَكْبِر ، حتَّى يكونَ المُوالِى لأحَدِهم مَنْصورًا من جَماعَتِهِـم ، والمُعادِى له مَقْصودًا من سائرِ جوانِبِهم ؛ فلا يجِدُ المُنابِذ علىٰ أَحَدِهم مَفْزَعًا عنـد أحَدٍ من البَاقِينَ ولا آعْتِصامًا به ، ولا آلْتِجاءً إليه ، لكنْ يكونُ مَرْمِيًّا بجميع سِهامِهم ، ومَضْرُوبًا بأسْيافِ نِقْمَتِهم ، ومأْخُوذًا بكُلِّيَّةِ بَأْسِهِم وقُوَّتِهم ، ومَقْصودًا بغالِبِ نَجْدَتِهم وشِدَّتِهم ؛ إذْ كانت هذه الآدَابُ القَوِيمَه ، والطَّرائِقُ السَّلِيمَه ؛ جارِيَةً للدُّوَلِ مَجْرَى الجُنَنِ الدَّافعةِ عنها ، والمَعَاقِلِ المَـانِعةِ لها ؛ و بِمِثْلِها تَطْمَئِنُّ النعم وتَسْكُن ، كما أنَّ بأضْدادِها تَشْمَئِزُّ وتَنْفِر .

ولمـا وفَّق اللهُ تعـالىٰ شَرَفَ الدَّولةِ وزَيْنَ المِلَّة أبا الفَوارِس ، وصَمْصَامَ الدَّولةِ وشَمْسَ المِلَّة أبا كَالِيجار آعْتِقادَ هذه الفَضائِل و إيثارَها ، والتَّظاهُرَ بها وآسْتِشْعارَها ؛ ودعاهما مَوْلاهُما الطائِـعُ لِلهِ أميرُ المؤمنين إلىٰ ما دَعَاهما إليه من التَّعاطُف والتآلُف ، والتَّصافِي والتَّخالُص ؛ وأمَرَ صَمْصـامَ الدَّولةِ أبا كَالِيجارَ بمُراسَـلَةِ شَرَفِ الدَّولة

---

(١) الاشبال العطف والمعونة .

أَبِي الفَوَارِس فى إِحْكَامِ مَعَاقِدِ الأُخُوَّة ، و إِبْرَامِ وَثَائِقِ الأُلْفَة ـ ٱمْتثَلَ ذلك وأَصْغىٰ إليه شَرَفُ الدَّوْلةِ وزَيْنُ المِلَّة أبوالفَوَارِس : أصغىٰ إليْه شَرَفُ الدَّولة إِصْغَاءَ المُسْتَوثِق المُسْتَصِيب ، وتَقَبَّله تَقَبُّلَ العالم اللَّبِيب ؛ وأنْفذ إلىٰ باب أَميرِالمؤمنين رَسُولَه أبا نَصْر خرشيد بن ديار بن مأفنة بالمعروف من كِفايَتِه ، والمَشْهورِ من ٱصْطِناعِ المَلِكِ السَّعيد عَضُدِ الدَّوْلة وتَاجِ المِلَّة رضوانُ الله عليه له ، و إيْدَاعِه إيَّاه وَدِيعةَ الإحسانِ التى يَحِقُّ عليه أن يُساوِىَ فى حِفْظِها بين الجِهَتَيْنِ ، و يُوازِىَ فى رِعايَتِها بين كلا الفَرِيقَيْنِ .

فَجَرتْ بين صَمْصامِ الدَّولة وشَمْسِ المِلة أبى كَالِيجَارَ و بَيْنه مُخاطَبَاتٌ ٱسـتقرّتْ علىٰ أمورٍ أتَت المفاوضــةُ عليها ، وأُثْبِتَ منها فى هــذه المُواصَفَةِ ما ٱحتيج إلىٰ إثْباته منها [أَمْرٌ] عامٌّ للفَرِيقين ، وقِسْمانِ يختصُّ كلُّ واحِدٍ منهما بواحِدٍ منهما .

فأما الأَمْرُ الذى يجمعهما عُمُومُه ، ويَكْتَنِفُهما شُمُولُه ، فهو : أن يَتَخَالَصَ شَرَفُ الدَّوْلةِ وزَيْنُ المِلَّة أبو الفَوَارِس ، وصَمْصَامُ الدَّولة وشَمْسُ المِلَّة أبو كَالِيجَارَ فى ذَاتِ بينهما ، ويتصَافيَا فى سَرَائرِ قُلُوبِهِما ، ويَرْفُضا ما كان جَرَّهُ عليهما سُفَهاءُ الأَتْبَاع : من تَرْكِ التَّواصُل ، وٱسْتِعمالِ التَّقاطُع ؛ ويَرْجِعَا عن وَحْشَةِ الفُرْقة ، إلىٰ أُنْسِ الأُلْفة ؛ وعن مَنْقَصَةِ التَّنَافُرِ والتَّهاجُر ، إلىٰ مَنْقَبَةِ التَّبارِّ والتَّلاطُف ؛ فيكونُ كلُّ واحد منهما مُرِيدًا لصاحِبِه من الصَّلاحِ مِثْلَ الذى يُرِيدُه لنَفْسِــه ، ومُعْتَقِدًا فى الذَّبِّ عن بلاده وحُدُودِه مِثْلَ الذى يَعْتَقِدُه فى الذَّبِّ عمــا يختصُّ به ؛ ومُسِرًّا مثلَ ما يُظْهِرُ : من مُوالَاةِ وَلِيِّــه ، ومُعادَاة عَدُوِّه ؛ والمُرامَاةِ لمن رَامَاه ، والمُصافَاةِ لمن صَافَاه ؛ فان نَجَمَ علىٰ أَحَدِهما نَاجِم ، أو رَاغَمَه مُرَاغِم ؛ أو هَمَّ به حاسِد ، أو دَلَفَ إليه مُعَانِد ؛ ٱتَّفقا جميعًا علىٰ مُقارَعَتِه : قَرِيبًا كان أو بَعِيدًا ، وتَرافَدَا علىٰ مُدافَعَتِه : دَانِيًا كان أو قَاصِيًا ؛ وسَمَحَ كلُّ منهما لصَاحِبِه عنــد الحاجة إلى المُواسَاةِ فى ذلك فى سائِرِ أَحْداثِ الزَّمان

ونُوَبِه، وتَصارِيفه وغَيرِه؛ بما يتَّسِعُ ويشتملُ عليه طَوْقُه من مال وعُدَّه، ورِجَال ونَجْدَه، وآجْتِهادٍ وقُدْرَه؛ لا يغفُل أخٌ منهما عن أخيه، ولا يَخْذُله ولا يُسْلِمه، ولا يتركُ نُصْرتَه، ولا ينصرِفُ عن مُؤازَرَتِه ومُظاهَرتِه بحالٍ من الأحوال التى تَسْتحيلُ بها النِّيَّات: من إرْغابِ مُرْغِب، وحِيلَةِ مُحْتالٍ، ومُحَاولة مُحاوِل. ولا يقبلُ أحَدُهما مُسْتأمِنًا إليه من جِهَةِ صاحبه: من جُنْدِىٍّ، ولا عَامِلٍ، ولا كَاتِبٍ، ولا صَاحِبٍ، ولا مُتَصرِّفٍ فى وَجْهٍ من وُجوه التصرفاتِ كُلِّها؛ ولا يُجِيرُ عليه هَارِبا، ولا يَعْصِمُ منه مُوَارِبا؛ ولا يتطرف له حَسَدًا، ولا يَتَحيَّفُه حَقًّا، ولا يَهْتِك له حَرِيمًا، ولا يتَناوَلُ منه طَوْقًا، ولا يُخِيفُ له سَبِيلا، ولا يَتَسَبَّبُ إلىٰ ذلك بسَبَبٍ باطن، ولا بآعْتِلال ظاهر؛ ولا يَدَعُ مُوافَقَته، ومُلاءَمَته، ومُعاوَنَته ومُظافَرته فى كلِّ قَوْلٍ وفِعْل، وسِرٍّ وجَهْر، علىٰ سائر الجهات، وتَصَرُّف الحالات، ووُجُوه التَّأويلات. يلتزمُ كلُّ واحدٍ منهما ذلك لصَاحِبِه آلتزامًا على التماثُل والتَّعادُل، والتَّوازى والتَّقابُل.

وأما الأمرُ الذى يختصُّ شَرَفُ الدَّولةِ وزَيْنُ المِلَّة به، ويلتزمُه صَمْصامُ الدَّوْلة وشَمْسُ المِلَّة له، فهو أن يُقدِّمَه صَمْصامُ الدَّولة وشَمْسُ المِلَّة علىٰ نَفْسه، ويُعْطِيَه ما أعطاه اللهُ له من فَضْلِ سِنِّه، ويُطِيعَه فى كلِّ ما أفادَ الدَّوْلةَ الجامعة لهما صلاحًا، وهاضَ من عَدُوِّهما جَنَاحا؛ وعاد علىٰ وَلِيِّهما بعِزّ، وعلىٰ عَدُوِّهما بذُلّ؛ وأن يُقيمَ صَمْصامُ الدَّولةِ الدَّعْوةَ علىٰ مَنَابِر ما فى يَدِه من مدينة السَّلام وسائر البُلْدان والأمْصار، التى أحاطتْ بهما حُقُوقه، وضُرِبَتْ عليهما حُدُودُه، لأمير المؤمنين ثم لشَرَفِ الدَّولة وزَيْنِ المِلَّة أبى الفوارس، ثم لنَفْسه. ويُجْرِى الأمْرَ فى نَقْشِ سِكَكِ دُورِ الضَّرْبِ التى يُطبَعُ بها الدِّينارُ والدِّرْهم فى جميع هذه البلاد على المِثَال. ويُوَفِّى صَمْصامُ الدَّوْلة وشَمْس المِلَّة أبو كَالِيجَارَ شَرَفَ الدَّولة وزَيْنَ المِلَّة أبا الفَوارِس فى المكاتبات

والمخاطبات حَقَّ التّعظيم ، وشِعَارَ التَّفْخِيم ، على التَّقْرِيرِ بينه و بين خرشيد بن ديار ابن مأفنة فى ذلك .

وأما الأمْرُ الذى يختصُّ صَمْصامُ الدَّوْلةِ وشَمْسُ الملة أبو كاليجَارَ به ، ويَلْتَزِمُه شَرَفُ الدولة و زَيْنِ المِلَّة أبو الفوارسِ له ، فهو تَرْكُ التَّعَرُّض لسائرمَمَالِكه ، وما يتَّصلُ بها من حُدُودها الجارية معها ؛ والإفراجُ منها عما يَوَدُّه و يُسْرِع إليه أصحابُ شَرَفِ الدولة و زَيْنِ المِلَّة ، وتَجَنُّبُ التَّحَيُّف لها أو لشَىْءٍ من الحقوق الواجبةِ فيها ، ومُرَاعَاتُه فى الأمور التى يحتاج فيها إلىٰ نَظَرِه وطَوْلِه ، و إجْماله وفَضْله ، وما يجب على الأَخِ الأكْبَرِ مُرَاعَاةُ أخيه وتَالِيه فيه ، مِمَّا ثَبَتَ فى هذه المُواصَفَةِ جُمْلته ، وآشتَمَلتْ المفاوضة مع خورشيد بن ديار بن مأفنة علىٰ تَفْصِيله .

آتَّفق شَرَفُ الدَّولة و زَيْنُ المِلَّة أبو الفوارس ، وصَمْصَامُ الدَّوْلة وشَمْس المِلَّة أبو كَاليجَار ، بأمْرِ أمير المؤمنين الطائع لله ، وعلى الآخْتِيارِ منهما ، والآنْشِراحِ من صُدُورِهما ، من غير إكْراهٍ ولا إجْبار ، ولا آضْطِبارٍ ولا آضْطِرَار ــ على الرِّضا بذلك كُلِّه ، والآلتزامِ له ، ويَصيرُ جَمِيعُه عَهْدًا مَرْجوعًا إليه ، وعَقْدًا معمولًا عليه ؛ وحَلَفَ كُلٌّ منهما علىٰ مايلتزمه من ذلك يَمِينًا عَقَدها بأن يحلِفَ صاحِبُها بمِثْلِها ، علىٰ مايلتزمه منه . فقال صَمْصامُ الدَّولة : واللهِ الذى لا إلٰهَ إلا هُو (ويستتم اليمين) .

النـــــوع الثـانى
(ممّا يجرى عَقْد الصُّلْح فيه بين مَلِكَيْن مُسْلمين ـ
ما يكونُ العَقْد فيه من جانبٍ واحدٍ)

وللكُتّابِ فيه مَذْهبان :

المَـــذْهب الأوّل
(أن يُفتَتَح عَقْدُ الصُّلْح بلفظ : « هذا » كما فى النوع السابق)

وهـذه نُسْخةُ عَقْد صُلْح من ذلك ، كتب بهـا أبو إسْحٰق الصّابى ، بين الوزير أبى نَصْر سابُور بن أزدشير، والشّريفَيْن : أبى أحْمَد الحُسَينِ بن مُوسى ، وأبى الحَسَنِ محمدٍ آبنه الرَّضِىّ ، بمـا آنعقد من الصُّلْح والصِّهْر بين الوزير المذكور ، وبين النَّقيب أبى أحمد الحُسَينِ وولده محمدٍ ، حين تزوّج آبنه محمدٌ المذكورُ بنتَ سابورَ المذكورِ ، وجعله علىٰ نُسْختين ، لكلِّ جانبٍ نسخةٌ ، بعد البسملة ماصُورتُه :

هـذا كِتابٌ لسَابُور بن أزْدَشير ، كَتبه له الحسـينُ بن موسىٰ المُوسَوىّ ، ووَلَدُه محمد بنُ الحسين المُوسَوىّ .

إنّا وإيّاكَ ـ عند ما وصـله اللهُ بيننا من الصِّهْر والخُلْطَه ، ووَشَجه من الحـال والمَوَدّه ـ آثرْنا أن ينعقِدَ بيننا و بينك ميثاقٌ مُؤكَّد ، وعَهْدٌ مُجَدّد ؛ تَسْكُن النفوسُ إليهما ، وتطمئنُّ القُلوبُ معهما ؛ وتزدادُ الأُلْفَةُ بهما على مَرِّ الأيَّام ، وتَعاقُبِ الأعوام ؛ ويكونُ ذلك أصْلًا مُسْتَقِرًّا نرجع جميعًا إليه ، ونُعوِّلُ ونَعْتمِدُ عليه ؛ ونَتَوارَثُه أعْقابُنا ، ونَتْبَعُنا فيه أخْلَافُنا .

فأعطيناكَ عَهْدَ اللهِ ومِيثَاقَه ، وما أخذَهُ على أنبيائه المرسلين ، ومَلائكَته المُقَرَّبين ، صلى الله عليهم أجمعين ؛ عن صُـدُورٍ مُنْشَرِحه ، وآمال فى الصَّلاح مُنْفَسِحَه ـ أنّا

نُخْلِصُ لك جميعًا وكلُّ واحدٍ منَّا إخلاصًا صحيحًا يُشاكِلُ ظاهِرُه باطِنَه، ويوافِقُ خافيه عالِنَه، وأنَّا نُوالِى أوْلياءَك، ونُعادِى أعْداءَك، ونَصِلُ من وَصَلَك، ونقْطَعُ من قَطعَك، ونكونُ معك فى نَوائِبِ الزمان وشَدائِدِه، وفى فَوائِدِه وعوائِدِه، وضَمِنًّا لك ضَمانًا شَهِدَ اللهُ بلزُومِه لنا، ووُجُوبِه علينا. وأنَّا نَصُونُ الكريمةَ علينا، الأثيرةَ عندنا، فلانةَ بنتَ فُلانٍ — أدام اللهُ عِزَّها — المُنْتقِلةَ إلينا، كما تصانُ العيونُ بجُفُونِها، والقُلوبُ بشِغَافِها، ونُجْرِيها مُجْرَى كَرائِمِ حُرَمِنا، ونَفائِسِ بنَاتِنا، ومن تَضُمُّه مَنازِلُنا وأوطانُنا، ونَتَناهَى فى إجلالِها وإعْظامِها، والتَّوسِعَةِ عليها فى مَراغِدِ عَيْشِها، وعَوارِضِ أوْطارِها، وسائرِ مُؤَنِها ومُؤَنِ أسْبابِها، والنُّهوض والوَفَاءِ بالحقِّ الذى أوجبه اللهُ علينا لها ولك فيها، فلا نُعْدِمُ شيئًا ألِفَتْه: من إشْبالٍ عليها، وإحْسانٍ إليها، وذَبٍّ عنها، ومُحاماةٍ دُونَها، وتَعَهُّدٍ لمسارِّها، وتَوَخٍّ لمحابِّها، ونكونُ جميعًا وكلُّ واحدٍ منا مُقيمين لك ولها على جميع ما اشتمل عليه هذا الكِتَابُ فى حَياتِك — أطالها اللهُ — وبعد الوَفَاةِ إن تَقَدَّمْتَنا، وحُوشِيتَ من السُّوءِ فى أُمُورِك كُلِّها، وأحْوالِك أجْمَعِها.

ثم إنا نقولُ — وكُلُّ واحدٍ منا، طائِعِينَ مُخْتارِينَ، غيرَ مُكْرَهِين ولا مُجْبَرِينَ، بعد تمامِ هذا العَقْدِ بيننا وبينك، ولُزُومِه لنا ولك — : واللهِ الذى لا إلَهَ إلَّا هُو الطَّالِبُ الغَالِبُ، المُدْرِكُ المُهْلِك، الضَّارُّ النَّافِع، المطَّلِعُ على السَّرائِر، المُحِيطُ بما فى الضمائر، الذى يعلم خَائِنَةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدور. وحَقِّ محمدٍ النَّبِيِّ، وعليٍّ الرضِيِّ — صلى اللهُ عليهما وسلَّم وشَرَّفَ ذِكْرَهما، وسَادَتِنا الأئمَّةِ الطيبين، الطاهِرِين، رحمةُ الله عليهم أجمعين. وحقِّ القُرآنِ العَظِيم، وما أُنْزِلَ فيه من تَحْليلٍ وتَحْريم، ووَعْدٍ ووَعِيد، وتَرْغيب وتَرْهِيب، لَنَفِيَنَّ لك يا سابورُ بنَ أزْدَشِيرَ، والكَرِيمةِ الأثيرةِ ابْنَتِكَ فُلانة — أحسن الله رِعايَتَها — بجميع ما تضمَّنَه هذا الكِتَابُ، وَفَاءً صحيحا، ولنَلْتَزِمَنَّ لك ولها شرائِطَه ووَثائِقَه، فلا نَفْسَخُها، ولا نَنْقُضُها،

ولا نَتَتَبَّعها، ولا نَتَعقَّبُها، ولا نتأوّلُ فيها، ولا نَزُولُ عنها، ولا نلتمِسُ مَخْرجًا ولا مَخْلَصًا منها، حتَّىٰ يجمعنا المَوْقِفُ بين يدى الله، والمَقْدَمُ علىٰ رَحْمَةِ الله، ونحن يومئذ ثابتَانِ عليها، ومُؤَدِّيان للأَمَانَةِ فيها . أداءً يشهدُ اللهُ تعالىٰ به وملائكتُه يومَ يَقُومُ الأشْهاد، ويُحاسَبُ العباد . فإن نَحْنُ أخْلَلْنا بذلك أو بِشَيْءٍ منه، أو تَأَوَّلْنا فيه أو فى شَيْءٍ منه، أو أَضْمرنا خِلافَ ما نُظْهِر، أو أسْرَرْنا ضِـدَّ ما نُعْلِنُ، أو ٱلتمَسْنا طَرِيقًا إلىٰ نَقْضه، أو سَبِيلًا إلىٰ فَسْـخِه، أو أَلْمَمْنا بإخفارِ ذِمَّةٍ من ذِمَمِه، أو ٱنْتِهاكِ حُرْمة من حُرَمِه، أو حَلِّ عِصْمَةٍ من عِصَمِه، أو إبْطَـالِ شَرْط من شُروطِه، أو تَجاوُزِ حَدٍّ من حُدُوده ـ فالذى يفعل ذلك مِنَّا يوم يَفْعَلُه أو يَعْتَقِدُه، وحين يدخُلُ فيه ويَسْتَجِيزُه ـ بَرِىءٌ من الله جَلَّ ثَناؤُه، ومن نُبُوّةِ رسولِه محمدٍ، ومن وِلايَةِ أمير المؤمنـين عَلِيِّ بن أبى طَالِبٍ صلى الله عليهما وسَلَّمَ، ومن القُرآنِ الحكيم العَظِيم، ومن دِينِ الله الصحيحِ القَوِيم؛ ولَقِيَ اللهَ يوم العَرْضِ عليـه، والوُقُوفِ بين يديه، وهو به ـ سـبحانه ـ مُشْرِكٌ، ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلم مُخَالِفٌ، ولأهْلِ بَيْتِه مُعادٍ، ولأعْدائِهم مُوَالٍ؛ وعليه الحَجُّ إلىٰ بَيْتِ الله الحَرامِ العَتِيقِ الذى بمكَّةَ : راجِلًا، حَافِيًا، حاسرًا؛ وإماؤُه عَوَاتِق، ونِساؤُه طَوَالِق، طلاقَ الحَرَجِ والسُّنَّة، لا رَجْعةَ فيه ولا مَثْنَوِيَّة؛ وأمْوالُه ـ على ٱخْتِلافِ أصْنافِها ـ مُحَرَّمَةٌ عليه، وخارِجَةٌ عن يَدَيْه، وحَبِيسَةٌ فى سبيل الله وبرأه اللهُ من حَوْلِه وقُوّتِه، وألجأه إلى حَوْلِه وقُوّتِه .

وهذه اليمين لازمةٌ لنا، وقد أطلقَ كلُّ واحِدٍ منا بها لِسانَه، وعقَدَ عليها ضَمِيرَه، والنِّيةُ فى جميعها نيِّـة فلانِ بنِ فلان، لا يقبلُ الله من كلِّ واحدٍ منَّا إلا الوَفَاء بها، والثَّباتَ عليها، والاَلْتِزامَ بشُرُوطِها، والوُقُوفَ علىٰ حُدُودِها، وكَفَىٰ بالله شهيدًا، وجازِيًا لعِبَادِه ومُثِيبا . وذلك فى يوم كذا، من شهر كذا، من سَنَة كذا .

المـــــذهب الثـانى

(أن يُفتتح عَقْدُ الصُّلح بخُطبة مُفتَتَحةٍ بـ«الحمدُ لله» ورُبَّمـا كُرِّر فيها التحميدُ إعلاماً بعظيم مَوْقع النِّعمة)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْح كتبَ بها أبو الحُسَيْنِ أحمدُ بن سَعْدٍ عن بعض الأمراء لمن كان (١) ... ...

ونَصُّها علىٰ ماذكره فى "كتاب البلاغة" فى الترسل، بعد البَسْملةِ :

الحمدُ لله الذى خلق العِباد بقُدْرتِه ، وكَوّن الأُمُور بحِكْمته، وصَرَّفها علىٰ إرادَته . لم يَلْطُفْ عنه خَفِىٌّ، ولا آمتَنع عنــه قَوِىٌّ؛ آبْتَدَع الخَلائِقَ على آختلاف فِطَرِها، وتَبايُنِ صُوَرِها، من غير مِثَالٍ آحْتذاه، ولا رَسْمٍ آقتفاه؛ وأيَّدَهُم بنِعْمتِه ، فيما ركبــه فيهــم من الأَدَواتِ الدَّالَّة علىٰ رُبُوبِيَّتِهِ، الناطقَة بوَحْدانيَّتِه ؛ وآكْتَفَوْا بالمَعْرِفَة به ـ جلَّ جَلالُه ـ بخَبَر العُقُول ، وشَهادَةِ الأفْهام . ثم آستظهر لهم فى التَّبْصِره، وغلبهم فى الحُجَــه ؛ برُسُلٍ أرسلها ، وآياتٍ بيَّنها ؛ ومَعَالِمَ أوْضَحها ، ومَنارَاتٍ لمسَالكِ الحَقِّ رفَعَها ؛ وشَرَع لهم الإسْلامَ دِينًـا وآرْتضاه وآصْطَفاه ، وفَضَّــله وآجْتَباه ، وشَرَّفه وأعلاه؛ وجعله مُهَيْمِنًا على الدِّينِ كُلِّه، وقَدّر العِزَّ لحِزْبِه وأهْلِه ؛ فقال جَلَّ جَلالُه : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ وأيَّده بأنبيائه الدَّاعِينَ إليه ، والنَّاهِجِين لطُرُقِه ، والهَـادِينَ لفرائضه ، والمُخْبِرِينَ عن شَرَائعه؛ قَرْنًا بعد قَرْن ، وأُمّةً بعد أُمَّة، فى فَتْرَةٍ بعد فَتْرَه ، وبَيِّنَةٍ بعــد بَيِّنَه ؛ حتّىٰ آنتهىٰ تَقْــدِيرُه ـ جَلَّ جلالُه ـ أن بَعثَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ، الفَاضِلَ الزَّكِىَّ؛ الذى قَفَّى به على الرُّسُــل، ونَسَخ بشَريعتِه شَرائــعَ المِلَل ، وبِدِينه أدْيانَ الأُمَم ؛ علىٰ حِينِ تَراخِى

(١) بياض بالأصل .

فَتْرَه ، وتَرامِى حَيْرَه ؛ فَأَبَاخَ[1] به نِيرانَ الفِتَنِ بعد ٱضْطِرامِها ، وأضَاء به سُبُلَ الرَّشادِ بعد إظْلامِها ؛ علىٰ عِلْمٍ منه ـ تعالىٰ ذِكْرُه ـ بمـا وجده عنده من النُّهُوض بأَعْباءِ الرِّسالَه ، والقِيامِ بأداءِ الأَمَانَه ؛ فأزَاحَ بذلك العِـلَّة ، وقَطَعَ المَعْذِرَة ؛ ولم يُبْقِ للشَّاكِّ مَوْضِعَ شُبْهَة ، ولا للمُعانِدِ دَعْوى مُمَوَّهَة ؛ حتىٰ مَضَى حَمِيدًا تشهدُ له آثارُه ، وتقومُ بتأييـد سُنَّتِه أخْبارُه ؛ قد خَلَّفَ فى أُمَّتِه ، ما أصارَهم به إلىٰ عَطْفِ اللهِ ورَحْمَتِه ، والنَّجاةِ من عِقابِه وسُخْطِه ؛ إلَّا من شَقِىَ بسُوءِ ٱخْتِيارِه ، وحُرِمَ الرَّشادَ بخِذْلانِه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطيبينَ أفْضَل صَلاةٍ وأتَمّها ، وأوْفاها وأعَمَّها .

والحمـدُ للهِ الذى خَصَّ سـيدَنا الأميرَ بالتَّوفيق وتَوَحَّده بالإرْشادِ والتَّسْـديد ؛ فى جميع أنْحائِه ، ومَوَاقع آرائِه ؛ وجعل هِمَّتَه (إذْ كانتْ الهِمَمُ منْصرِفَةً إلىٰ هَشِيمِ الدُّنيا وزَخَارِفِها ، التى يتحلَّىٰ بهـا الأبناءُ وتَدْعوها إلىٰ نَفْسِها) ، مَقْصُورةً علىٰ ما يجمعُ له رِضا رَبِّه ، وسَلامةَ دِينِه ؛ وٱسْتِقامَةَ أُمورِ مَمْلَكَتِه ، وصلاحَ أحْوالِ رعِيَّتِه ؛ وأيَّده فى هذه الحَـالِ المعارضه ، والشُّبْهة الواقعه ؛ التى تَحارُ فى مِثْلِها الآراء ، وتَضْطرِبُ الأهْواء ؛ وتَتَنـازَعُ خَواطِرُ النفوس ، وتفتلج وَسَاوِسُ الصُّـدُور ؛ ويَخْفَىٰ مَوْقِعُ الصَّواب ، ويُشْكِلُ مَنْهَجُ الصَّلاح ـ بمـا ٱختار له من السِّـلْمِ والمُوَادَعه ، والصُّلْح والمُوافقَه ؛ الذى أخبر الله تعـالىٰ فى كِتابه علىٰ فَضْلِه ، والخَيْرِ الذى فى ضِمْنِه ، بقوله جَلَّ وعزَّ : ﴿ والصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وقوْله جلَّ ذِكْرُه : ﴿ وَإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَـا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ حتَّىٰ أصبح السَّـيْفُ مَغْمُودا ، ورِوَاقُ الأَمْنِ مَمْدُودا ؛ والأهْواءُ مُتَّفِقَه ، والقُلُوب مُؤْتَلِفَه ، والكَلِمةُ مُجْتَمِعَه ؛ ونِيرانُ الفِتَنِ والضَّلالَة خَامِدَه ، وظُنُونُ بُغاتِها والسَّاعِينَ لهـا كَاذِبَه ، وطَبقاتُ الاولياء والرَّعِيَّة ـ بمـا أُعِيدَ إليهم من

(١) أى سكنها وأطفأها .

الأَمَنة تُعْقِبُ الخِيفَة، والأُنْسَة من بعد الوَحْشَة ـ مُسْتَبْشِرةٌ؛ و إلى الله عزّ وجلّ ـ في إطَالَة بقاء الأمير و إدَامَة دَوْلتـه ، وحِراسَة نِعْمَتـه وتَثْبِيت وَطْأته ـ رَاغِبِينَ ، وفي مُسَالَمَته مُخْلِصين . ولو لم يَكُن السَّلْمُ في كتَاب الله مأمورًا به، والصُّلْحُ مخبرًا عن الخَيْرِ الذى فيه ؛ لكان فيما يَنْتَظِمُ به : من حَقْنِ الدِّماء، وسُكُونِ الدَّهْمـاء؛ ويجمعُ من الخِلَال المَحْمودَة، والفَضائِل المَمْدودَة ، المُقَـدَّم ذِكْرُها ـ ماحَدًا عليه ، ومَثَّلَ للعُقُول السَّليمَة والآراءِ الصَّحِيحَة مَوْضِعَ الخَيْر فيـه ، وحُسْنَ العَائِدَة على الخـاصّ والعامّ به؛ فيما يَتَجَلَّى للعُيُونِ، من مشتبهات الظُّنُونِ، إذ الدِّينُ واقِعٌ ، والشَّكُّ جانح بين المُحِقّ والمُبْطِل ، والجَائِر والمُقْسِط . وقد قال الله جَلَّ ثَنَـاؤُه : ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ناظرًا للمسلمين من مَعَرَّةٍ أو مَضَرَّةٍ تلحَقُ بعضَهم بغـير عِلْمٍ ؛ ومُؤْثِرًا تَطْهِـيرَهم من ظَنّ العُدْوَان، مع رَفْعِـه عنهم فَرَطاتِ النِّسْـيان، وكافًّا أيدى المسلمين عن المشركين ، كما كَفَّ أيديَهم عن المسلمين؛ تَحَنُّنا علىٰ بريّتِه، و إبْقاءً علىٰ أهْلِ مَعْصِيَتِه؛ إلىٰ أن يَتِمَّ لهم الميقاتُ الذى أدْنَاه، والأمْرُ الذى أمْضاه، ومَوْقِعُ الحَمْد في عاقبَته، والسَّلامَة في خَاتِمَتِه . وبَلَّغهم من غاية البَقَاءِ أمَدَها، ومن مَرافِقِ العَيْش أرْغَدَها، مقصورة أيدى النَّوائِب عما خَوَّله، ومعصومة أعْيُنُ الحَوَادِث عما نَوَّله؛ إنه جَوادٌ ماجدٌ .

قلتُ : وعلىٰ هـذا المَذْهَب كُتِبَ عَقْـدُ الصُّلْح بين السُّـلطانِ المَلِكِ النَّـاصِر أبي السَّعاداتِ «فَرَج» بن السُّلطانِ المَلِك الظَّاهِر «برقوق» ،وبين المَقام الشَّريف القُطْبيّ تَيْمُـور كوركان صاحِبِ ما وَرَاء النَّهْرِ بعـد طُرُوقه الشَّامَ وفَتْحِه دِمَشْـقَ وتَحْرِيقها وتَخْرِيبها، و إرسالِ كتَابِه في مَعْنَى طَلَبِ الصُّلْح ، و إرْسال الأمير أطلمش لزمه ، المأسورِ في الدَّولة الظَّاهِرِيَّة « برقوق » صحبـة الخواجا نظام الدين مَسْـعُود الكججانى . جُهِّز ذلك إليـه قرينَ كتَابٍ من الأبواب السلطانية صُحْبـةَ الخواجا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانبيه، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة خمسٍ وثمانمائة، بإشارة المَقَرِّ الفَتْحِىِّ صاحب دِيوانِ الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدِّين طاهر، آبن الشيخ بدر الدين حَبِيبٍ الحَلَبِىِّ، أحَدِ كُتَّاب الدَّسْتِ الشَّريف بالأبواب السلطانية، وهو مَكْتوبٌ فى قَطْعِ ... ...(١) بقَلَم ... ...(١) وفى طُرَّته ما صُورَتُه :

«مَرْقومٌ شريفٌ جَليلٌ عَظِيمٌ، مبجَّلٌ مكَرَّمٌ جَميلٌ نَظِيمٌ، مُشْتملٌ علىٰ عَقْد صُلْحٍ آفتتحه المَقَامُ الشريفُ ، العالى ، القُطْبىُّ ، نُصْرةُ الدِّينِ ، تَيْمُور كوركان ، زِيدتْ عَظَمتُه ، يكونُ بينه وبين المقام الشريف ، السُّلطانِ ، المَالِكِ ، المَلِكِ النَّاصِرِ أبِى السَّعادَاتِ « فرج » بنِ السلطانِ الشَّهِيدِ، المَلِكِ الظَّاهِرِ أبى سَعِيدٍ « بَرْقوق» خادمِ الحَرَمَيْن الشريفين، خَلَّدَ اللهُ تعالى مُلْكَه . آنعقد بمباشرة السَّفِيرِ عن المقام الشريف القُطْبِىِّ، المشارِ إليه ووَكِيله فى ذلك، الخواجا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعود الكَجَجانى، بشَهَادة من حضر صُحْبته من العُدُول بالتوكيل المذكور، علىٰ حُكْم إشارةِ مُرْسِلِه إليه ومضمون مُكَاتَبته ، وقَصده تجْهيز الأمير أطلمش لزمه . وحَلَفَ المقامُ القُطْبِىّ على المُوافَاة والمُصافاةِ ، وآتِّحادِ المَمْلَكَتَيْنِ ، وإجراءِ الأُمُور علىٰ السَّدادِ ، وعمل مصالح العباد والبلاد» .

والبياضُ ثلاثةُ أوصالٍ بوَصْلِ الطُّرَّة ، والبَسْملةُ فى أوَّلِ الوَصْلِ الرابع بهامِش عن يمينها ، وتحتَ البسملة سَطْرٌ، ثم بَيْت العلامة ، والسَّطْر الثانى بعد بَيْت العلامة . والعَلامةُ بجَلِيل الثُّلُثِ بالذَّهَبِ ما صُورَتُه : « اللهُ أمَلِي » .

---

(١) بياض بالأصول .

ونُسْخةُ المَكْتوبِ بعد البسملة ما صُورَتُه :

الحمدُ للهِ الذى جعل الصُّلْحَ خَيْرَ ما آنعقَدَتْ عليه المَصالِح ، والإصْلاحَ بينَ النَّاسِ أولَىٰ ما آتَّصلَتْ به أسبابُ المَناجِح ، وأحَقَّ ما نَطَقتْ به أَلْسُنُ المحامد وأثْنَتْ عليه أفْواهُ المَدائِح .

نَحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى جمعتْ أشْتَاتَ القُلوب الطَوائح ، وأضافَتْ إلىٰ ضِياءِ الشَّمْس نُورَ القَمَر فاهتدىٰ بهما كلُّ غَادٍ ورائِح ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا الله وَحْدَه لا شَرِيكَ له شهادةً تُبَلِّغُ قائِلَها أهْنَى المَنائِح ، وتتعطَّرُ مجالسُ الذِّكْرِ بعَرْفِ روائحها الرَّوائِح ؛ ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه أفضلُ من آخَى بين المتحَاكمين فنصح لله ورأَى الصُّلْحَ من أعظمِ النَّصَائح ، وأكملُ رَسُولٍ آنقادتْ لأَخْلاقِه الرَّضِيَّة ، وصِفاتِه المَرْضِيَّة ، جوانحُ النُّفُوس الجوانح ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ ما آجتمعتْ عليه آراءُ أولِي الألْباب ، ورَكَنتْ إليه قُلوبُ ذَوِى المَعْرفة من أهْـلِ المَودَّةِ والأحْباب ـ آئتِلافُ القـلوبِ بعد آخْتِلافِها ، وآتصافُها بِالتَّلَبُّسِ بأحْسَنِ أوْصافِها ؛ والعَمَلُ على الصُّـلْحِ الذى هو أصلَحُ للنـاس ، وأرْبَحُ مَتَاجِرِ الدُّنيا والآخرة وأدْفَعُ لليَأْسِ والباس ؛ إذ هُو مِفْتَاحُ أبواب الخيرات الشَّامِلَه ، ومِصْباحُ مَناهِجِ الفِكَرِ الصَّحيحةِ الكامِلَه ؛ والدَّاعِى إلىٰ كلِّ فِعْلٍ جميـل ، والسَّاعِى بكلِّ قَوْلٍ هو شِفَاءُ صَدَى الغليل ونَجاةٌ من دَاءِ العَليل .

ولـمَّـا كان المقـامُ الشَّريفُ ، العَالى ، الكَبِيرِىُّ ، العَالِمِىُّ ، العَامِلِىُّ ، المؤَيدِىُّ ، المُظَفَّرِىُّ ، المَلْجَئِىُّ ، المَلاذِىُّ ، الوَالِدِىُّ ، القُطْبِىّ ؛ نُصْرة الدِّين ، مَلْجَأُ القاصِدين ، ملاذُ العابِدِين ، قُطْبُ الاسلام والمسلمين ، تَيْمورُ كوركان ، زِيدَتْ عظمتُه ـ هو البَادِئَ بإحْياءِ هذه السُّنَّةِ الحَسَنة ، والحَادِىَ إلى العَمَلِ بمقتضَى مُفَاوَضَتِه الشريفة

التى هى لذلك مُتَضَمِّنه ، الوَارِدَة إلىٰ حَضْرة عبد الله وَوَلِيِّـه ، السُّلطانِ المَـالِكِ ، المَلِكِ النَّاصرِ، زَيْنِ الدُّنيـا والدِّين ، أبى السَّعادات « فَرَج» بن السُّلطانِ الشَّهيدِ المَلِكِ الظَّاهِرِ، أبى سَـعِيد « بَرْقُوق » خادمِ الحَرَمين الشَّريفَين ـ خلَّد الله تعـالىٰ مُلْكَه ـ علىٰ يَد سـفيرِ حَضْرتِه ، المَجْلِس السَّامىّ ، الشَّـيْخىّ ، النِّظَامىّ ، مَسْعودِ الكَجَجانى، المؤرَّخَةِ بمُسْتَهَلِّ شهر ربيع الأوّل سنة تاريخه .

وجُلُّ مَضْمونِهـا ، وسِرُّ مَكْنونِها ـ قَصْـدُ إيقاعِ الصُّـلْح الشريف بين المُشارِ إليهما ، ونَسْجُ المَوَدَّةِ والمَحَبَّـةِ والمُصادَقَة بينهما ، وإسْـبالُ رِداءِ محاسِنِها عليهما ؛ بمقتضى تَفْويضِ المقامِ الشَّريف القُطْبِىِّ المُشارِ إليـه الأَمْرَ فى الصُّلْح المَذْكورِ إلىٰ الشَّيخ نِظَامِ الدِّين مَسْعود المذكور، وتَوْكِيلِه إيَّاه فيه، وإقامَتِه مَقامَ نَفْسه الشَّريفة، وجَعْلِ قَوْلِه من قوله ، وأنَّه ـ عَظَّم اللهُ تعالىٰ شَأْنَه ـ أشهدَ اللهَ العَظيمَ عليه بذلك، وأشْهدَ عليـه من يَضَعُ خَطَّه من جماعَتِه المجهَّزِينَ صُحبةَ الشَّـيخِ نِظامِ الدِّين مَسْعود المذكور، وهما : الشَّيخُ بَدْرُ الدِّين أحمدُ بنُ الشَّيخِ الإمامِ العالِمِ شَمْسِ الدين محمد بن الجَزَرِىّ الشَّافِعِى، والصَّدْرُ الأجَلُّ كمالُ الدِّين كمال أغا ؛ وأنَّ ذلك صَدَر عن المقام الشريف القُطْبِىِّ المشار إليـه، لمُوافَقَتِه علىٰ الصُّلْح الشريف ، وإجابَةِ القَصْد فيه بإطْلاقِ الأمير أطلمش لزم المَقَامِ القُطْبِىِّ المشارِ اليـه، وتَجْهيزِه إلىٰ حَضْرتِه العَالِيَةِ؛ وأنَّه عاهدَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ بحُضُورِ جَمٍّ غَفِيرٍ من أُمَراء دَوْلته وأكابِرِها ، ومَن حَضَر مَجْلِسَهُ، باليمينِ الشَّرْعية الجامِعَةِ لأشْتاتِ الحَلِف : باللهِ الذى لا إلٰهَ إلا هُوَ رَبِّ البرِيَّةِ وبَارِئِ النَّسَم ، علىٰ ذلك جميعـه ، وعلىٰ أنه لا يدخُلُ إلىٰ البلاد الداخلة فى مَمْلَكَةِ مولانا السُّلطان المَلِك النَّاصِرِ المشارِ إليه، وأنَّه مهما عاهَدَ وصالَحَ وعاقَدَ عليه الشَّيخُ نِظَامُ الدِّينِ مسعودُ الوَكِيلُ المذكورُ يقْضِى به المقـامُ القُطْبِىُّ المشارُ اليـه، ويُمْضِيه ويَرْتَضِيه . وانْفصَلَ الأَمْرُ علىٰ ذلك .

فعند ما وقف مولانا السلطانُ المَلِكُ النَّاصِرُ المشارُ إليه ـ خلَّد اللهُ تعالىٰ مُلْكه ـ على المُكاتَبةِ الشَّريفةِ المشارِ اليها، وتَفهَّم مَضْمُونَها، ورأىٰ أن المَصْلحةَ فى الصُّلْح: تبرُّكًا بما وَرَد فى كِتَاب الله عزَّ وجلَّ، وسُنَّةِ رَسُوله صلَّى الله عليه وسلم ـ اسْتخارَ الله عزَّ وجلَّ، وأمَرَ بتجهيزِ الأميرِ أطلمش المذكور، وتَسْليمه للشَّيْخِ نِظامِ الدِّين مَسْعودٍ المذكور، وأذنَ لهما فى التَّوجُّهِ إلىٰ حضْرةِ المقام الشريفِ القُطْبيِّ المشار إليه: بمُوافَقةِ مولانا أميرِ المُؤْمنين المتوكِّلِ على الله ـ أدام الله تعالىٰ أيَّامَه ـ على ذلك، وحُضُورِ الشَّيخ الإمامِ الفَرْدِ الأوْحَدِ، شيخ الإسلامِ، سِراجِ الدِّينِ، عمرَ البُلْقِينيِّ ـ أعاد الله تعالىٰ على المسلمين من بَرَكاته ـ وقُضاةِ القُضَاةِ الحُكَّامِ ـ أعزَّ الله تعالىٰ أحْكامَهم ـ ومَشايخ العِلْم الشَّريفِ والصَّلاحِ، وأرْكانِ الدَّوْلة الشريفةِ، ومَن يَضَعُ خَطَّه فى هذا الصُّلحِ الشَّريفِ بالشهادة بمَضْمُونه.

وعُقِدَ الصُّلْحُ الشريفُ بين مولانا السُّلطانِ المَلِكِ الناصِرِ المشارِ اليه ـ خلَّد اللهُ تعالىٰ مُلْكَه ـ وبين الشَّيخِ نِظامِ الدِّينِ مَسْعودٍ الوكيلِ المذكورِ عن المقام الشَّريفِ القُطْبيِّ المشار اليه ـ زِيدَتْ عَظَمَتُه ـ علىٰ حُكْمِ مَضْمون مُفاوَضَته الشريفةِ المقدَّمِ ذِكْرُها، وما قامتْ به البَيِّنَةُ الشَّرْعية، بشهادة العَدْلَيْنِ المذكورِينِ الواصِلَيْن صُحْبَةَ الوَكِيلِ المذكورِ بالتَّوكِيلِ المَشْروحِ فيه. فكان صُلْحًا صحيحًا شَرْعيًّا، تامًّا كاملًا مُعتبرًا مَرْضيًّا؛ علىٰ أحْسَنِ الأمور وأجْمَلِها، وأفْضَلِ الأحْوال وأكْمَلِها.

وحَلَفَ مولانا السلطانُ المَلِكُ الناصِرُ المُشارُ اليه ـ خَلَّد الله مُلْكَه ـ وعاهَدَ الله عزَّ وجَلَّ نظيرَ ماحَلَف وعاهَدَ عليه المَقَامُ الشَّريفُ القُطْبيُّ المشارُ إليه من القَوْلِ والعَمَل؛ واسْتقرَّتْ بمشيئةِ الله تعالىٰ الخَواطِر، وسُرَّتِ القُلوبُ وقَرَّت النَّواظِر؛ لِما فى ذلك من حِفْظِ ذِمامِ العُهُودِ الشريفه، وإقامةِ مَنَارِ الشَّرْعِ الشريفِ وآمْتِدادِ

ظِلالِ أعْلامِه الوَرِيفه ؛ وإجْراءِ كَلمةِ الصِّدْقِ ، علىٰ لسان أهْلِ الحَقِّ ، وصَوْنِ أمَانةِ اللهِ تعالىٰ وشِعَارِ دِينِه بين الخَلْق ؛ فلا يتغيَّر عَقْدُ هذا الصُّلْح الشريف علىٰ مَدَى الليالى والأيام ، ولا ينْقضى حُكْمُه ولا يَحُلُّ إبْرامُه علىٰ تَوالى السِّنين والأعْوام .

هذا : على أن لا يدخُلَ أحَدٌ من عساكرهما وجُنْدِهما ومَمَالِيكهما إلىٰ حُدُود مَمْلكةِ الآخر ، ولا يتعرَّضَ إلىٰ ما يتعلَّقُ به من ممالكَ وقِلاع ، وحُصُونٍ وسَوَاحِلَ ومَوَان وغير ذلك من سائر الأنواع ؛ ورَعَاياهُما من جميع الطوائف والأجناس ، وما هو مختصٌّ ببِلادِ كلٍّ منهما ومَعْروفٌ به بين الناس : حاضِرِها وباديها ، وقاصِيها ودَانِيها ، وعامِرِها وغامِرِها ، وباطِنِها وظاهِرِها ، ولا إلىٰ من فيها من الرَّعيَّةِ والتُّجَّار والمسافرين ، وسائر الغَادِينَ والرَّائحينَ فى السُّبُل والطُّرُق : متفرِّقين ومجتمعين .

هذا علىٰ أن يكونَ كلٌّ من المَقَامَين الشَّريفين المُشارِ إليهما مع الآخَرِ علىٰ أكْمَل ما يكون فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاء : من حُسْنِ الوَفَاء ، وجَميل المَوَدَّة والصَّفَاء ؛ ويكونا فى الاتحاد كالوَالِد والوَلَد ، وعلى المُبالَغَةِ فى الامْتِزاجِ والاخْتِلاطِ كرُوحَيْنِ فى جَسَد ؛ مع ما يُضافُ إلىٰ ذلك من مُصَادَقةِ الأصْدقاء ، ومُعادَاةِ الأعْداء ، ومُسَالَمَةِ المُسَالمين ، ومُحارَبَةِ المُحارِبين ؛ فى السِّرِّ والإعلان ، والظُّهُور والكِتْمان ؛ وبالله التَّوْفيق ، وهو العالِمُ بما تُبْدِى الأعْيُنُ وما تُخْفِي الصُّدور ، وعليه التُّكْلانُ فى كُلِّ الأمور ، فى الغَيْبة والحُضُور ، والوُرُود والصُّدُور .

الباب السادس
من المقالة التاسعة
(فى الفسوخ الواردة على العقود السابقة ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
الفَسْخُ ، وهو ما وقع من أحَدِ الجانبين دونَ الآخَر

قال فى "التعريف" : وقلّ أن يكونَ فيه إلا ما يبعثُ به علىٰ ألْسِنَةِ الرُّسل .
قال : وقد كتب عَمّى الصاحبُ شرفُ الدِّين [أبو محمدٍ](١) عبدُ الوهّابِ رحمه الله ، سنة دخول العساكر الإسلامية مَلَطْيَةَ ، سنة أربع عشرةَ وسبعمائةٍ فَسْخًا على التكفور متملك سِيسَ ، كان سببا لأن زاد قَطِيعتَه . ولم يذكر صورة ما كتبه فى ذلك .

وقد جرتِ العادةُ أنه إذا كان الفَسْخُ من الجانبِ الواحدِ أن يذكُرَ الكاتبُ فيه مُوجِبَ الفَسْخِ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظُهورِ ما يوجب نَقْضَ العَهْد ، ونَكْثَ العَقْد ، وإقامَةَ الحُجَّة على المفسوخ عليه من كل وَجْهٍ .

قال فى "التعريف" : والذى أقولُ فيه : إنه إن كُتِب فيه ، كُتِب بعد البسملة :

هذا ما آستخار الله تعالىٰ فيه فلانٌ ، آستخارةً تَبَيَّنَ له فيها غَدْرُ الغادر ، وأظهر له بها سِرَّ البَاطِن ما حقّقه الظّاهِر ؛ فسخَ فيها علىٰ فلانٍ ما كان بينه وبينه من المُهادنَةَ التى كان آخِرُ الوقتِ الفلانىّ آخِرَ مُدّتِها ، وطهّر السيوف الذُّكور فيها من الدِّماء إلى آنقضاء عِدّتِها ، وذلك حين بدا منه من مُوجِبات النَّقْض ، وحَلّ المُعاقَدَةِ التى كانت يُشَدُّ بَعْضُها ببعض (وهى كذا وكذا ، وتذكر وتعدّ) ممـا يوجبُ كلُّ ذلك إخْفارَ

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الذِّمَّه ، ونَقْض العهود المَرْعِيَّة الحُرْمَه ؛ وهَدّ قواعِدِ الهُدْنه ، وتَخْليَة ما كان قد أُمْسِك من الأَعِنَّه ؛ كتبَ إنْذارا ، وقدّم حِذارا ؛ وممن يشهدُ بوجوب هذا الفَسْخ ، ودخول مِلَّة تلك الهُدْنة فى حُكْم هذا النَّسْخ ؛ ما تشهدُ به الأيَّام ، ويحكم به عليه النَّصْر المكتَتَبُ للإسلام ؛ وكُتِب هذا الفسخُ عن فلانٍ لفلانٍ وقد نبذ إليه عَهْده ، وأنْجز وَعْده ؛ وأنفذ إليه سَهْمه بعد أن صبر مَليًّا علىٰ مُمالَاته ، وأقام مدّة يُدارى مَرَض وَفائه ولا ينجح فيه شيءٌ من مُداواته ؛ وليَنصُرَنَّ اللهُ من ينصُرُه ، ويَحْذَر من يأْمَنُ مَكْرَه مَن يَحْذَرُه ؛ وأمر فلانٌ بأن يقرأَ هذا الكتَابُ علىٰ رءُوس الأشهاد ، لينقلَ مَضْمونَه إلى البلاد ؛ أَنَفَةً من أمر لا يتأدَّىٰ به الإعلان ، وينصبُ به لهذا الغَادِرِ لِواءٌ لا يقال إذا يقال : هذا اللِّواءُ لغَدْرة فلان بن فلان .

الفصل الثانى

المُفاسَخَة وهى ما يكون من الجانبين جميعا

قال فى "التعريف" : وصورةُ ما يُكتَبُ فيها : هذا ما آختاره فلانٌ وفلانٌ من فَسْخِ ما كان بينهما من المُهادَنَةِ التى هى إلىٰ آخر مدّة كذا . آختارا فَسْخَ بِنائِها ، ونَسْخ أنْبائِها ؛ ونَقْضَ ما أُبْرِمَ من عقودها ، وأُكِّدَ من عُهُودها ؛ جرت بينهما علىٰ رِضا من كلٍّ منهما بايقاد نارِ الحَرْبِ، التى كانت أُطْفِئَتْ ، وإثارة تلك الثَّوائر التى كانت كُفِيَتْ ؛ نبذاه علىٰ سَواءٍ بينهما ، وآعتقادٍ من كلٍّ منهما ؛ أن المَصْلحةَ فى هذا لِجهَتِه ، وأسْقط ما كان يَحْمِله للآخَرِ من رِبْقَتِه ؛ ورَضِىَ فيه بقضاء السُّيوف ، وإمضاءِ أمْرِ القَدَرِ والقَضاءِ فى مُساقَات الحُتُوف ؛ وقد أشهدا عليهما بذلك اللهَ وخَلْقَه ومن حَضَر ، ومن سَمِعَ ونَظَر ؛ وكان ذلك فى تاريخ كذا وكذا .

المقالة العاشرة

في فُنُونٍ من الكِتَابة يَتَداولها الكُتَّابُ وتَتَنافَسُ في عملها، ليس لها تعلُّقٌ بكتابة الدَّواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأوّل

في الجِدِّيَّات، وفيه خمسة فصول

الفصل الأوّل

في المَقَامات

وهي جمع مَقَامَةٍ بفتح الميم، وهي في أصْلِ اللُّغة آسمٌ للمَجْلِس والجماعةِ من الناس. وسُمِّيت الأُحْدُوثَة من الكلام مَقَامةً، كأنها تُذْكر في مجلس واحدٍ يجتمعُ فيه الجماعةُ من الناس لسماعها. أما المُقامَةُ بالضَّم، فبمعنى الإقَامَة، ومنه قوله تعالى حكايةً عن أهل الجنَّة: ﴿ الَّذِي أَحَلَّنا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِه ﴾.

وآعلم أن أوَّلَ من فتح بابَ عَمَلِ المقامات، عَلَّامةُ الدَّهْر، وإمام الأدَب، البَدِيعُ الهَمَذَانِيُّ: فعَمِل مقامَاتِه المشهورةَ المنسوبةَ إليه، وهي في غايةٍ من البلاغة، وعُلُوِّ الرُّتبة في الصَّنْعة. ثم تلاه الإمام أبو محمدٍ القاسمُ الحَرِيريُّ، فعمل مَقَاماته الخمسينَ المشهورةَ، فجاءت نهايةً في الحُسْن، وأتت على الجُزْءِ الوَافِر من الحَظّ؛ وأقبل عليها الخاصُّ والعامّ، حتَّى أنْسَتْ مقاماتِ البَدِيع وصيَّرتها كالمرْفُوضة. على أن الوزيرَ ضياءَ الدِّين بنَ الأثير في "المَثَلِ السَّائر" لم يُوَفِّه حَقَّه، ولا عَامَلَه بالإنصاف، ولا أجْمَلَ معه القَوْل. فإنه قد ذكر أنه ليس له يَدٌ في غير المقامات،

حتّىٰ ذَكَرَ عن الشيخ أبى محمدٍ أحمدَ بنِ الخَشَّابِ أنه كان يقول : إن الحَرِيرِىَّ رَجُلُ مقاماتٍ . أىْ إنَّه لم يُحْسِن من الكلامِ المنْثُورِ سواها ، فإن أتىٰ بغيرها فلا يقولُ شيئًا . وذَكرَ أنه لما حضر بَغْدَادَ ، ووُقِفَ علىٰ مَقَاماته ، قيل : هذا يُسْتصلَحُ لكتابة الإنشاء فى ديوانِ الخلافَةِ ، ويحْسُن أثَرُه فيه ، فأُحْضِر وكُلِّف كِتَابةَ كِتَابٍ فأُفْحِمَ ، ولم يَجْرِ لسانُه فى طويلِه ولا قَصِيرِه ، حتّىٰ قال فيه بعضُهم :

شَيْخٌ لنا من رَبِيعَةِ الفَرَسِ ❊ يَنْتِفُ عُثْنُونَه من الهَوَسِ ،
أنْطقَه اللهُ بالمَشَانِ وفى ❊ بَغْدَادَ أضْحَى المَلْجُومَ بالخَرَسِ !

وٱعتَذرَ عنه بأن المقاماتِ مَدَارُها جَمِيعُها علىٰ حكايةٍ تخرجُ إلىٰ مَخْلَصٍ ، بخلاف المكاتبات فانها بَحْرٌ لا ساحِلَ له : من حيثُ إن المعانِىَ تتجدّدُ فيها بتَجَدُّدِ حوادث الأيام ، وهى مُتَجدِّدَةٌ علىٰ عَدَدِ الأنفاس .

وهذه المقامةُ التى قَدَّمتُ الإشارة إليها فى خُطْبةِ هذا الكِتَابِ ، إلىٰ أنِّى كنتُ أنشأتُها فى حُدُود سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة ، عند ٱستقرارى فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنها ٱشتملتْ ـ مع الٱخْتِصَار ـ علىٰ جُملةٍ جَمَّةٍ من صِناعَة الإنشاء ، وسَمّيْتُها بـ "الكَواكِب الدُّرِّيَّه ، فى المَنَاقِبِ البَدْرِيَّه" ووجَّهتُ القولَ فيها لتَقْرِيظِ المَقرِّ البَدْرِىِّ ، بن المَقرِّ العَلَائِىِّ ، بن المَقرِّ المحْيَوِىِّ ، بن فَضْلِ الله ، صاحبِ ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالدِّيار المِصْرية يومئذٍ . جعلتُ مَبْناها علىٰ أنه لا بُدَّ للإنسانِ من حِرْفةٍ يتعلَّق بها ، ومَعِيشةٍ يتمسَّكُ بسَبَبِها ؛ وأن الكتابةَ هى الحِرْفَةُ التى لا يليقُ بطالِبِ العِلْمِ سِوَاها ، ولا يجوزُ له العُدُولُ عنها إلىٰ ما عداها ؛ مع الجُنُوح فيها إلىٰ تَفْضِيل كِتَابة الإنشاء وتَرْجِيحها ، وتَقْدِيمها علىٰ كِتَابة الدِّيْوَنَةِ وتَرْشِيحها .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد، وما ينبغي أن يسلكه من الجواد؛ مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده، ومهدت قواعده؛ على ما ستقف عليه في خلال مطاويها إن شاء الله تعالى، وهي :

حكى الناثر ابن نظام، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف؛ أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل، وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل، مشمرا عن ساق الجد ذيل الاجتهاد، مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد؛ أنتهز فرصة الشباب قبل توليها، وأغتنم حالة الصحة قبل تجافيها؛ قد حالف جفني السهاد، وخالف طيب الرقاد؛ أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتنفر عن الطلب وتجمح؛ مميلا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها، صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها؛ متخيرا أليق الأماكن وأوفق الأوقات، قانعا بأدنى العيش راضيا بأيسر الأقوات؛ أونس من شوارد العقول وحشيها، وأشرد عن روابض المنقول حوشيها؛ وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها؛ مقدما من العلوم أشرفها، ومؤثرا من الفنون ألطفها؛ معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع، مقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع؛ منتقيا من الكتب أمتعها تصنيفا، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا؛ منتخبا من أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثا وألطفهم تدقيقا؛ عارفا لكل عالم حقه، وموفيا لكل علم مستحقه؛ قد استغنيت بكتابي عن خل ورفيق، وآثرت بيت خلوتي على شفيق وشقيق؛ أجوب في الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهدها عيانا، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كامن المعاني فلا أثني عنها عنانا؛ وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بالغَنيمه ، وأهْجُمُ علىٰ حُصُون الدَّفاتر ثم لا أوَلّى عن هَزِيمَه ؛ بل كُلّما لاحَتْ لى فِئَةٌ من البَحْثِ تحَيَّزْتُ إليها ، أو ظهرتْ لى كَتِيبَةٌ من المعانى حَملتُ عليها ، إلىٰ أن أُتِيحَ لى من الفَتْح ما أفاضته النِّعْمه ، وحَصَلتُ من الغنيمة علىٰ ما اقْتَضَتْه القِسْمه .

فبَيْنا أنا أرْتَعُ فى رِياضِ ما نُقِّلت ، وأجْتَنِى ثِمارَ ما خُوِّلْت ، إذْ طَلَع علىَّ جَيْشُ التَّكْليف فحَصرنى ، وخرج علىَّ كَمِينُ التَّكْليف فأسَرَنِى ؛ فأمْسَيْتُ فى أضْيَقِ خِنَاق ، وأشَدِّ وَثاق ؛ قد عاقَنِي قَيْدُ الاكتساب عن الاشتغال ، وصَدَّنِى كَلُّ الكَدِّ عن الاهْتِمام بالطَّلَبِ والاحْتِفال ؛ فغَشِيَنِي من القَبْض ما غَشِيَنِي ، وأخَذَنى من الوَحْشَة ما أخَذَنى ؛ وتعارضَ فِيَّ حُكْمُ العَقْل بين الكَسْب وطَلَبِ العِلْم ، وتَساوَيَا فى التَّرْجيح فلم تَجْنَحْ واحدةٌ منهما إلى السِّلْم ؛ فَصِرْتُ مَدْهوشًا لا أُحْسِنُ صُنْعا ، وبَقِيتُ مُتَحيِّرًا لا أدْرِى أىّ الأمْرَين أقربُ إلىَّ نَفْعا ؛ : إن طلبتُ العِلْم للكَسْبِ فقد أخْفَشْتُ رُجُوعا ، وإن تركتُ الكَسْبَ للعِلْم هَلَكْتُ ضَيْعَةً ومُتُّ جُوعا .

فلما عَلِمتُ أنَّ كلًّا منهما لا يقوم إلا بصَاحِبِه ، ولا يَتِمُّ الواجِبُ فى أحَدِهما مالم يُقَمْ فى الآخَرِ بواجِبِه ؛ التمستُ كَسْبًا يكونُ للعِلْم مُوافِقا ، وبِحَمَلَتِه لائقا ؛ ليكونَ ذلك الكَسْبُ للعِلْم مَوْضوعًا والعِلْم عليه محْمولا ، والجَمْعُ ولو بوَجْهٍ أوْلىٰ ؛ فجعلتُ أسْبرُ المَعايِشَ سَبْرَ مُتَقَصِّد ، وأسيرُ فى فَلَواتِ الصَّنائِع سَيْرَ مُتَعَهِّد ؛ لكَىْ أجِدَ حِرْفَةً تُطابِقُ أرَبِى ، أو صَنْعةً تُجانِسُ طَلَبِي .

فبينما أنا أَسِيرُ فى مَعاهِدِها ، وأرَدِّدُ طَرْفِى فى مَشاهِدِها ؛ إذْ رُفِعَ لى صَوْتٌ قَرَعَ سَمْعِى بِرَنَّتِه ، وأخَذَ قَلْبِي بحَنَّتِه ؛ فقَفَوْتُ أثَرَه مُتَّبِعا ، ومِلْتُ إليه مُسْتَمِعا ؛ فإذا رَجُلٌ من أحْسَنِ الناس شَكْلا ، وأرْجَحِهم عَقْلا ؛ وهو يترَنَّم ويُنْشِدُ :

إنْ كُنْتَ تَقْصِدُنِى بظُلْمِكَ عامِدًا ، * حُرِمْتَ نَفْعَ صَداقَةِ الكُتَّابِ ؛

السَّائِقِينَ إلى الصِّدِيقِ ثَرَى الغِنَىٰ * والنَّاعِشِينَ لِعَـثْرَةِ الأَصْحَـابِ،
والنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبْءٍ مُثْقِـلٍ * والنَّاطِقِينَ بِفَصْلِ كُلِّ خِطَابِ،
والعَاطِفِينَ على الصَّدِيقِ بِفَضْلِهِمْ * والطَّيِّبِينَ رَوَائِحَ الأَثْوَابِ.
وَلَئِنْ جَحَدتهـم الثَّنـاءَ فطَالَمَـا * جَحَـدَ العَبِيدُ تَفَضُّلَ الأَرْبَابِ!

فلما سمعتُ منه ذلك، وأعْجَبنِي من الوَصْفِ ما هُنالِك، دَنَوتُ منهُ دُنوَّ الوَاجِل، وجَلَستُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِل، وقلتُ: هذه وأبِيكَ صِفاتُ المُلُوك بل مُلُوكُ الصِّفات، وأَكْرَمُ الفَضَائِل بل أفْضَـلُ المَكْرُمات، ولم أَكُ أظُنُّ أنَّ للكتابة هـذا الخَطَرَ الجَسِيم، وللكُتَّابِ هـذا الحَظَّ العَظِيم، فأعْرَضَ مُغْضبا، ثم فَوَّق بَصَره إلىّ مُعْجبا، وقال: هَيْهاتَ فاتَكَ الحَزْم، وأخْطَأَكَ العَزْم، إنها لمن أعْظَمِ الصَّنائع قَدْرا، وأرْفَعِها ذِكْرا، نَطَق القرآنُ الكَريمُ بفَضْلِها، وجاءت السُّـنَّة الغَرّاءُ بتَقْدِيم أهْلِها، فقال تعالىٰ جلَّ ثناؤه، وتَبارَكتْ أسماؤه: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْـلَمْ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه عَلَّمَ بالقَلَم، حيثُ وصف نفسه بالكَرَم، إشارةً إلىٰ أن تَعْليمَها من جَزِيل نِعَمه، وإيذانًا بأن مَنْحَها من فَائِضِ دِيَمِه؛ وقال جَلَّتْ قُدْرَته: ﴿نٓ وَٱلْقَـلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فأقسم بالقَلَم وما سَـطَّرته الأقْلام، وأتىٰ بذلك فى آكَدِ قَسَمٍ فكان من أعْظَمِ الأقْسَام. وقال تقَدَّسَتْ عَظَمَتُه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ فجعَلَ الكِتابةَ من وصْفِ الكِرَام، كما قد جاء فِعْلُها عن جمـاعةٍ من الأنبياء عليهم السلام؛ وإنمـا مُنِعَها النَّبىُّ صلَّى الله عليـه وسلم مُعْجِزةً قد بيَّنَ تعـالىٰ سَبَبَها، حيثُ ذكر إلْحَـادَهُم بقوله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.

هذا : وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم فى كَثْرةِ الكُتَّاب رَاغبا ، فقد رُوِىَ أنه كان له عليه أفضَلُ الصَّلاة والسَّلام نَيِّفٌ وثلاثون كاتبا ، هم نُخْبَة أصْحابه ، وخُلاصَة أتْرابِه ، مَن ٱئْتَمَنَهـم علىٰ أسرار الوَحْيِ والتَّنْزِيل ، وخاطَبَ بألْسِـنَةِ أقْلامِهِم مُلُوكَ الأرض فأجابوا بالإذْعانِ على البُعْدِ والمَدَى الطَّوِيل ، وكتبَ المُلُوكُ أيضا إليه ٱبتداءً وجوابا ، وكاتَبَ أصْحابَه وكاتَبُوه فأحسن ٱستماعا وأفْخَم خِطَابا ، وبذلك جَرَتْ سُـنَّة الخُلَفاء الراشدين فمن تَلاهُم ، وعلىٰ نَهْجِهِ مَشَتْ ملوكُ الإسلام ومن ضَاهَاهم .

فالكِتَابَةُ قانُونُ السِّيَاسَه ، ورُتْبَتُها غَايَةُ رُتَبِ الرِّياسَه ، عِنْدها تَقِفُ الإنَافَه ، وإليها تَنْتَهِى مَنَاصِبُ الدُّنيا بعد الخِلافَه ، والكُتَّابُ عُيُون الملوك المُبْصِرَة وآذانُهم الوَاعِيـه ، وألْسِنَتُهم النَّاطِقـة وعُقُولُهم الحَاوِيَه ؛ بل مَحْضُ الحقِّ الذى لا تَدْخلُه الشُّـكُوك ، وإن المُلُوكَ إلى الكُتَّاب أحْوَجُ من الكُتَّاب إلى المُلُوك ؛ ونَاهِيكَ بالكِتَابَة شَرَفا ، وأَعْلِ بذَلِكَ رُتْبَـةً وكَفَىٰ ؛ أنَّ صاحِبَ السَّـيْف والعَلَم يُزاحِمُ الكَاتِبَ فى قَلَمِـه ، ولا يُزاحِمُ الكَاتِبُ صَاحبَ السَّيْف والعَلَم فى سَيْفِهِ وعَلَمِه .

وعلى الجُمْـلةِ فهم الحَاوُون لكلِّ وَصْفٍ جَمِيـل ، وشَأْنٍ نَبِيل ؛ الكَرَمُ شِعَارُهم ، والحِـلْم دِثَارُهم ، والجُودُ جَادَّتُهم ، والخَـيْرُ عادَتُهم ؛ والأدَبُ مَرْكَبُهـم ، واللُّطْفُ مَذْهَبُهم ؛ ولله القائلُ :

وَشَمُولٍ كَأَنَّمَـا ٱعْتَصَرُوها ＊ من مَعَانِى شَمَائِلِ الكُتَّاب!

فلمـا ٱنْقضَىٰ قِيلُه ، وبانَتْ سَبِيلُه ؛ قلتُ : لقد ذكرتَ قَوْمًا رَاقَنِى وَصْفُهم ، وشَاقَنِى لُطْفُهم ؛ ودَعانِى طِيبُ حَدِيثِهم ، وحُسْن أوْصافِهِم ، وجَمِيلُ نُعُوتِهِم ؛ إلىٰ أن أَحُلَّ بنَادِيهم ، وأنْزِلَ بوادِيهِم ؛ فأجْعَلَ حِرْفَتَهم كَسْبِي ، وصَنْعَتَهم دَأْبِى ؛ ليَجْتَمِعَ بالعِلْمِ شَمْلِى ، ويَتَّصِلَ بالٱشْتِغالِ حَبْلِى ؛ فأكُونَ قد ظَفِرْتُ بمُنْيَتِى ، وفُزْتُ ببُغْيَتِى .

فأىَّ قَبِيلٍ من الكُتَّابِ أَرَدت ؟ وإلىٰ أىِّ نَوْعٍ من الكِتَابَةِ أشَرْت ؟ أكِتَابَةَ الأَمْوالِ ؟ أم كِتَابةَ الإِنْشاءِ والخطابة؟ ، أم غيرَهُمَا من أنْوَاعِ الكِتَابة ؟ ؛ فنظَرَ إلىَّ مُتَبَسِّما ، وأنشد مُتَرَنِّما :

قَوْمٌ إذا أخَذُوا الأقلامَ من غَضَبٍ * ثم ٱسْتَمَدُّوا بها مَاءَ المَنِيَّاتِ ،
نالُوا بها من أعَادِيهِمْ وإن بَعُدُوا * مالَمْ ينَالُوا بحَدِّ المَشْرَفِيَّاتِ !

فقلتُ : كأنَّك تُرِيدُ كِتَابةَ الإنشاءِ دونَ سائرِ الكِتَابات ، وهى التى تَقْصِدُها بالتَّصْريحِ وتُشِيرُ إليها بالكِنَايات ؛ فقال : وهَلْ فى أنواع الكِتَابة جُمْلَةً نَوْعٌ يُساوِيها ، أو فى سائرِ الصَّنائِعِ على الإِطْلاقِ صَنْعَةٌ تُضاهِيها؟ ؛ إنَّ لها القِدْحَ المُعَلَّىٰ ، والجِيدَ المُحَلَّىٰ ؛ والذِّروةَ المُنيفَه ، والرُّتْبَةَ الشَّرِيفَه ؛ كُتَّابُها أسُّ المُلْكِ وعِمَادُه ، وأرْكانُ المُلْكِ وأطْوَادُه ؛ ولِسَانُ المملكَةِ النَّاطِق ، وسَهْمُها المُفَوَّقُ الرَّاشِق ؛ ولله حَبِيبُ بن أوسٍ الطَّائِىّ حيثُ يقول :

ولَضَرْبَةٌ من كَاتِبٍ بِبَنَانِه * أمْضَىٰ وأقْطَعُ من رَقِيقِ حُسَامِ !
قَوْمٌ إذا عَزَمُوا عَدَاوةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّمَا بأَسِنَّةِ الأَقْلامِ !

قَلَمُها يبلِّغُ الأَمَل ، ويُغْنِى عن البِيضِ والأَسَل ؛ به تُصانُ المَعَاقِل ، وتُفَرَّقُ الجَحَافِل :

فَلَكَمْ يَفُلُّ الجَيْشَ وهو عَرَمْرَمٌ * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأغْمادِ !

فقلتُ : إن كُتَّابَ الأموالِ يزعمون أن لهم فى ذلك المَقَامَ الأعلىٰ ، والطَّرِيقَةَ المُثْلىٰ ؛ ويَسْتَشْهِدُون لفَضْلِها ، وتَقَدُّمِ أهْلِها ؛ بقولِ الإمامِ أبى محمد القاسِمِ الحَرِيرِىِّ رحمه الله ، فى مقاماته :

«إنَّ صناعَةَ الحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ على التَّحْقِيق ، وصِناعَةَ الإنْشاءِ مَبْنِيَّة على التَّلْفِيق ؛ وقَلَمَ الحَاسِبِ ضَابِط ، وقَلَمَ المُنْشِئِ خَابِط ؛ وبين إتَاوَةِ تَوْظِيفِ المُعَامَلات ، وتلاوة

طَوَامِير السِّجِلّات ؛ بونٌ لا يُدرِكُه قِياس، ولا يَعْتوره ٱلْتِبَاس ؛ إذِ الإتاوَةُ تَمْلأ الأكْيَاس، والتِّلاوةُ تُفرِّغُ الرَّاس ؛ وخرَاجُ الأوارِج ، يُغْنِي النَّاظِر ، وآستِخْراجُ المَدَارِج ، يُعَنِّي الخَاطِر ؛ والحَسَبَةُ حَفَظَةُ الأموال ، وحَمَلَةُ الأثْقال ؛ والنَّقَلَةُ الأثْبَات ، والسَّفَرَةُ الثِّقات ؛ وأعْلامُ الإنْصَاف والآنْتِصَاف ، والشُّهُودُ المَقَانِعُ في الآختلاف ؛ ومنهم المُسْتَوْفِي الذي هو يَدُ السُّلطان، وقُطْبُ الدِّيوان؛ وقِسْطَاسُ الأعمال ، والمُهَيْمِنُ على العُمَّال ؛ وإليه المَآبُ في السِّلْمِ والهَرْج، وعليه المَدَار في الدَّخْلِ والخَرْج؛ وبه مَنَاطُ الضُّرِّ والنَّفع، وفي يَدِه رِبَاطُ الإعْطاءِ والمَنْع؛ ولولا قَلَمُ الحُسَّاب، لأوْدَت ثَمَرَةُ الآكتساب، ولآتَّصل التَّغَابُنُ إلىٰ يوم الحِسَاب؛ ولكان نِظَامُ المعاملات مَحْلُولا ، وجُرْحُ الظُّلامات مَطْلُولا ، [وجِيدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولا](1)، وسَيْفُ التَّظَالُمِ مَسْلُولا ؛ على أنَّ يَرَاعَ الإنشاء مُتَقَوِّل ، وَيَرَاعَ الحِسَابِ مُتَأَوِّل ؛ والمُحَاسِبُ مُنَاقِش، والمُنْشِئُ أبو بَرَاقِش» .

فوصفَ كِتَابَةَ الأموال بأتمِّ الصِّفات، ونَبَّه من شِيَمِ أهْلِها وشِيَاتِهم علىٰ أكْرَمِ الشِّيَم وأحْسَنِ الشِّيات .

فقال : هذه الحُجَّة مُعارَضَةٌ بِمِثْلِها ، بل بَاطِلَةٌ من أصْلِها ؛ وأَيْنَ ذلك من قوله في صَدْرِ كلامه ؟ :

«اعلموا أن صِنَاعَةَ الإنشاءِ أرْفَع، وصِناعَة الحِسَابِ أنْفع؛ وقَلَم المُكاتَبَة خَاطِب، وقَلَم المُحاسَبَة حَاطِب؛ وأسَاطِيرُ البلاغات تُنْسَخُ لتُدْرَس، ودَساتِيرُ الحُسْبانَات تُنْسَخُ وتُدْرَس ؛ والمُنْشِئُ جُهَيْنَةُ الأخبار، وحَقِيبَةُ الأسْرار ؛ ونَجِيُّ العُظَماء، وكَبِير النُّدَماء؛ وقَلَمُه لِسَانُ أسْرارِ الدَّوْله، وفَارِسُ الجَوْلَه ؛ ولُقْمَانُ الحِكْمَه، وتَرْجُمَانُ الهِمَّه؛ وهو

(1) الزيادة من مقامات الحريري .

البَشير والنَّذير، والشَّفيع والسَّفير، به تُسْتخلَص الصَّياصِي، وتُمْلَكُ النَّواصِي، ويُقتَاد العَاصِي، ويُسْتدْنَى القَاصِي، وصَاحِبُه بَرِيءٌ من التَّبِعات، آمِنٌ كَيْدَ السُّعات، مُقَرَّظٌ بين الجماعات، غير مُعَرَّضٍ لنَظْمِ الجماعَات» .

فهذه أرْفَع المَرَاتب، وأشْرَف المنَاقِب، التى لا يَعْتورُها شَيْن، ولا يَشُوبُها مَيْن، وصَـدْرُ الكَلَام يَقْتَضِي التَّرْجِيح، ويُؤْذِنُ بالتَّرْشِيح، والرَّفْع، أبْلَغُ فى الوَصْف من النَّفع، فقـد يُنْتَفَع بالنَّزْرِ اليَسير، ولا يُرْتَفَع إلا بالأَمْرِ الكَبِير، على أنَّه لو ٱعتبر نَفْع كِتَابة الإنشاءِ لكان أبْلَغ، وإقامَةُ الدَّليل عليه أسْوَغ، وأنَّىٰ لكُتَّاب الأموال، من التأثير فى فَلِّ الجُيُوش من غير قِتَـال، وفَتْحِ الحُصُون من غير نِزَال، فهـذه هى الخِصِّيصَى التى لا تُسَاوَىٰ، والمَنْقَبَةُ التى لا تُنَاوَىٰ :

تِلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ * شِيبَا بمَـاءٍ فعَادَا بَعْـدُ أبْوالَا !

فقلتُ : الآن قد ٱنقطَعَت الحُجَّه، وبانَتِ المحَجَّه، فما الذى يحتاج كاتب الإنشاء إلىٰ مُمارَستِه ؟ فقال : إذًا قد تعلَّقتَ من الصَّنْعة بأسْبابِها، وأتيْتَ البُيُوتَ من أبْوابِها .

إعلم أن كَاتِبَ الإنشاء لاتظهر فَصَاحَتُه، وتَبِينُ بَلاغَتُه، وتَقْوىٰ يَرَاعَتُـه، وتَجِلُّ بَرَاعَتُه، إلا بعد تحْصِيلِ جُمْلَةٍ من العلوم، ومَعْرِفة الاَصْطلاح والإحاطة بالرُّسُـوم، ثم أَهَمُّ ما يَبْـدَأُ بتَحْصِيله، ويَعْتَمِدُ عليه فى جُمْلة الأمْرِ وتَفْصيله، حِفْظُ كِتَابِ الله العَزِيزِ الذى هو مَعْدِنُ الفَصَاحه، وعُنْصُر البلاغَه، وإدَامةُ قِراءَتِه وتكْرِيرُ مَثَانيه، مع العلم بتَفْسيره وتَدَبُّرِ مَعَانيه، حتَّىٰ لايزال دَائرًا على لِسَانه حَاضِرًا فى ذِكْرِه، ولا يبرح معناه مُمَثَّلًا فى قَلْبِه مُصَوَّرا فى فِكْرِه، ليكونَ مُسْتَحْضِرًا له فى الوقائع التى يَحْتاج إلىٰ الاَستشهاد به فيها، ويُضْطَرُّ إلىٰ إقامة الأَدِلَّة القاطعةِ عليها، فلِلَّهِ الحُجَّةُ البالغَه، ولآياته الأجْوِبَة الدَّامِغَه، خصوصا السِّيَرِ والأحْكام، وما يتعلَّقُ بذلك من مُهِمَّات

الدِّينِ وقَوَاعِد الإسلام؛ وما آشتَمَل عليه كَلَامُ النُّبوَّةِ من الألفاظ البَديعَة التى أبْكَمتِ الفُصَحاء، والمعانِى الدَّقيقةِ التى أعْيَتِ البُلَغَاء؛ مع النَّظَرِ فى معانيها ومَعْرِفَة غريبها، والاطِّلاع علىٰ ما للعلمـاءِ فى ذلك من الأقوال بَعيدِها وقَرِيبِها؛ لتكونَ أبدًا حُجَّتُـه ظاهِـرَه، وأدِلَّتُـه قَوِيَّةً مُتظَاهِرَه؛ فإنَّ الدَّليلَ إذا آستَنَد إلى النَّصِّ آنْقطَعَ النِّزاعُ وسُـلِّمَ المدَّعىٰ ولَزِم، والفَصَاحةُ والبَلَاغةُ غايَتُهما ـ بعد كِتَابِ اللهِ تعالى ـ فى كلام من أُوتِىَ جَوَامِعَ الكَلِم؛ والعِلْمُ بالأحْكَام السُّلطانيَّة وفُرُوعِها، وخُصُوصِها وشُيُوعِها؛ والتَّوَغُّل فى أشْعارِ العَرَب والمولَّدين، وأهْلِ الصِّناعَة من المُحْدَثين؛ وما ورد عن كلِّ فَرِيقٍ منهم من الأمثال نَثْرًا ونَظْمًا، وما جرىٰ بينهم من المُحَاوَرَاتِ والمُناقَضَاتِ حَرْبًا وسِلْمًا؛ والتَّعْويلُ من ذلك على الأشْعارِ البَديعَةِ التى آختارها العُلَماءُ بها، فتَمَسَّكُوا بأوْتادِها وتَعَلَّقوا بسَبَبِها؛ والأمثالُ الغَرِيبَةُ التى آنْتَقَوْها، ودَوَّنُوها ورَوَوْها؛ وآسْتِيضاحُ القِسْمَينِ وآسـتكشافُ غَوامضهما، وآسْـتِظهارُ النَّوْعِين واسْتِمطـارُ غَوارِضِهما؛ والاطِّلاعُ علىٰ خُطَبِ البُلَغـاء، ورَسَائِلِ الفُصَحاء؛ وما وَقَع لهم فى مُخَاطَبَاتِهـم ومُكَاتبَاتِهم؛ والعِلْمُ بأيَّامِ العَرَب وحُرُوبِهم، وما كان من الوقائع بين قَبَائِلِهم وشُعُوبِهم؛ والنَّظَرُ فى التَّوارِيخ وأخْبارِ الدُّوَلِ المَـاضِيَه، والقُرُون الخَالِيه؛ وسِيَرِ المُلُوك وأحْوالِ المَمَـالِك، ومَعْرِفة مَكَايِدِهم فى الحَرْبِ المُنْقِذَةِ من المَهَاوِى والمُنْجِيَةِ من المَهَالِك .

مع سَعَةِ البَاع فى اللُّغَةِ التى هىَ رأْسُ مَالِه، وأُسُّ مَقَالِه؛ وكَنْزُه المُعَدُّ للإنْفاق، ومُعِينُه بل مُغِيثُه وَقْتَ الضَّرُورة على الإطْلاق؛ والنَّحْوِ الذى هو مِلْحُ كَلَامِه، ومِسْكُ خِتَامِه؛ والتَّصْرِيف الذى تُعرفُ به أُصُولُ أبْنِيَة الكَلِمَة وأحْوالها، وكَيفِيَّةُ التَّصَرُّف فى أسمائها وأفعالها؛ وعُلُومِ المَعَانِى والبَيَانِ والبَدِيعِ التى هى حِلْيَةُ لِسَانِه، وآيَةُ بَيَانِه؛ ومَعْرِفة أبْوابِها وفُصُولِهـا، وتَحْقِيقِ فُرُوعِها وأُصُولِهـا : من الفَصَاحة وطَرَائِقِها، والبَـلَاغة ودَقَائِقِها؛ وآختيار المَعَانِى وترتيبها، ونَظْمِ الألفـاظ وتَرْكِيبِها؛ والفَصْل

والوَصْلِ ومواقِعِهما ، والتَّقْديم والتَّأْخير ومواضعهما ؛ ومَوَاطِن الحَذْف والإضمار ، وحُكْم الرَّوابِطِ والأخبار ؛ وغير ذلك من الحَقِيقَةِ والمجاز ، والبَسْط والإيجاز ؛ والحَلّ والعَقْد ، وتَمْييز الكلام جَيِّده من رَدِيِّه بصِحَّة النَّقْد ؛ مع مَعْرفةِ أنواع البَديع وطرائقها ، والاطِّلاع علىٰ غَوامِض أسْرارِها وفَرائِد دَقائِقِها .

علىٰ أن آكَدَ شَيْءٍ يَجِبُ تَحْصيله قبل كلِّ حَاصِل ، ويَسْتَوِى فى الاحتياج إلىٰ مَعْرِفَتِه المَفْضُولُ من الكُتَّابِ والفَاضِل ؛ العِلْمُ بالخَطِّ وقَوانِينِه : من الهِجَاءِ والنَّقْط والشَّكْل ، والفَرْقِ بين الضَّادِ والظَّاءِ المتخالفين فى الصُّورَة والشَّكْل ؛ مع المعرفة بآلات الكِتَابة وصِفَاتِها ، وتَبايُنِ أنْواعِها واختلاف صِفَاتِها .

هذه أُصُولُه التى يُبنىٰ عليها ، وقَواعِدُه التى يُرْجَعُ إليها ؛ فإذا أحاطَ بهذه الفُنُون عِلْما ، وأتْقَنَها فَهْما ؛ غَزُرَتْ عنده المَوَادّ ، واتَّضحتْ له الجَوادّ ؛ فأخَذَ فى الاستِعْداد ، وسَهُل عليه الاسْتِشْهاد ؛ فقال عَنْ عِلْمٍ وتَصَرَّف عن مَعْرِفة واسْتَحْسَنَ ببُرْهان ، وانْتَقَدَ بحُجَّة وتَخَيَّر بدليل وصاغ بتَرْتِيب وبَنىٰ علىٰ أرْكان ؛ واتَّسَع فى العِبارَة مَجَالُه ، وفُتِح له من باب الأوْصَافِ أقْفَالُه ؛ وتَلَقَّ كُلَّ واقعةٍ بما يُماثِلُها ، وقابلَ كُلَّ قَضِيَّة بما يُشاكِلُها ؛ وعَلِم المُجِيدَ فنَسَج علىٰ مِنْواله ، وظَهر له القَاصِرُ فأعْرَض عن أقْواله ؛ وحصل له القُوَّةُ علىٰ فَهْمِ الخِطَاب ، وأنْشَأَ الجوابَ بحَسَبِ الوَقَائِع والأَغْراض ، علىٰ طِبْقِ المَقَاصِد والأغْراض ؛ ومتىٰ أخَلَّ بشَيْءٍ من ذلك فاتَتْهُ الفَضَائل ، وعَلِقَتْ به الرذائل ؛ وقَلَّتْ بِضَاعَتُه ، ونَقَصتْ صِنَاعَتُه ؛ وساءَتْ آثارُه ، وقَبُحَتْ أخْبارُه ؛ وخَلَط الغُرَرَ بالعُرَر ، ولم يُمَيِّزْ بين الصَّدَف والدُّرَر ؛ فأخرجَ الصَّنْعَةَ عن أمَاكِنِها ، وطَمَس من الكِتَابة وُجُوهَ مَحاسِنِها ؛ فجَرّ اللَّوْمَ إلىٰ نَفْسه ، وأمْسىٰ مَهْزَأَةً لأبْناءِ جِنْسِه .

ووَرَاءَ ذلك علومٌ هى كالنــافلَةِ للكَاتِب ، والزِّيادَة للّراغب :

منهــا ما تكْمُلُ به صِناعَتُــه ، وتعظُمُ به مكَانتُــه : كعِلْمِ الكَلَام ، وأُصولِ الفقْه وسائرِ الأحكام ؛ والمَنْطِقِ والجَدَل ، وأحوالِ الفِرَقِ والنِّحَلِ والمِلَل ؛ وعِلْمِ العَرُوض والميزانِ المُحْكَم ، وعِلْمِ القَوَافِي وحَلِّ المُتَرجَم ؛ والحِسابِ المفتوحِ وما يترتَّبُ عليه من المُعامَلَه ، وما تُسْتَخرَجُ به المجهولاتُ : من حساب الخطاين والدِّرْهمِ والدِّينارِ والجَبْرِ والمُقَابَلَه ؛ وحِسابِ الدَّوْرِ والوصايا ، والتَّخْت والمِيْــلِ وما لأعمــاله علىٰ غيرها من المَزَايا ؛ والعِلمِ بالفِلَاحَه ، وأحوال المِسَاحه ؛ وعلمِ عُقُودِ الأبْنِيَةِ والمَنَاظِرِ المحقَّقَه ، ومَرَاكِزِ الأثقال والمَرَايا المُحْرِقَه ؛ وعِلمِ جَرِّ الأثقال الأَبيَّه ، والعلمِ بالآلات الحَرْبيَّه ؛ وعلمِ المَوَاقِيت والبِنْكامات ، والتَّقَاويم والزِّيجات ؛ وعلمِ تَسْطِيحِ الكُرَة والتَّوصُّل بها إلى ٱستخراج المَطَالِب الفَلَكِيَّه ، وكيفيةِ الأرْصاد وأحْكامِ النُّجومِ والآلات الظِّلِّيَّه ؛ وعلمِ الطِّبِّ والبَيْطَره ، وأحوال سائرِ الحيوان وعِلْمِ البَيْزَره .

ومنها ما تكمل به ذاتُه ، وتَتِمُّ به أدوَاتُه ؛ كعِلْمِ التَّعْبيرِ وعلم الأَخْلاق وعِلم السِّياسَه ، وعِلمِ تدبيرِ المَنْزل وعلمِ الفِرَاسَه . وغيرِ ذلك من العلوم التى أضْربْنا عن ذِكْرها خَشْيَةَ الإطَالَه ، وأعْرَضْنا عن إيرادها خَوْف المَلَاله ؛ فهذه عُلُوم فَضْــلَةٌ يعظُمُ بعِلْمِها أمْرُه ، وفَضِــيلَةٌ يرتفعُ بتحصيلها ذِكْرُه ؛ بل لا يَسْتغنى عن العِلْم برءُوس مَسَائلِها ، وإشارات أرْبابِهــا الآخذَةِ من بِحَارِها بأطراف سَــوَاحِلِها ؛ علىٰ أنَّه قد تَرِدُ عليــه أوقاتٌ لايَسَعُه جَهْلُ ذلك فيها ، وتمرُّ عليه أزمانٌ يودُّ لو تُشْتَرىٰ فيَشْتَرِيها .

قلتُ : قد بانتْ لى عُلُومُها ، فمــا رُسُومها؟ . قال : إن أعْباءَها لَبَاهِظَةٌ حَمْلا ، وإنها لَكَبِيرَةٌ إلّا ، ولكن سَأُحْدِثُ لك ممــا سألتَ ذِكْرا ، وأنَبِّئُكَ بمــا لم تُحِطْ به خُبْرا .

فمن ذلك : المعرفةُ بالولايات ولواحقِها، على اختلافِ مقاصدها وتباينِ طرائقِها؛ من البيْعاتِ وأحكامِها ، والعُهود وأقسامِها ؛ والتقاليد وصِفَاتِها ، والتفاويض ومضاهاتها ؛ والمرَاسيم وأوضاعِها ، والتواقيع وأنواعِها ؛ والخُطَب ومُناسَباتها ، والوَصايا ومُطابَقاتها؛ ثم العِلْمُ بالمَناشير ومَراتبِها ، والمربَّعاتِ الجَيْشيَّة ومعايِبها ؛ ومعرفةِ رُتَبِ المكاتبات وطَبَقاتِها ، ومن يستحِقُّ من الرُّتَبِ أدْناها أو يستوجب الرَّفْعَ إلىٰ أعلىٰ دَرَجاتِها : من المكاتبات الصادرةِ عن الأبواب الشريفة الخليفتيه، والمكاتباتِ الواردةِ عليها وعلىٰ أرباب المَناصِبِ من سائر الآلِ والعِتْرةِ النَّبويّه ؛ ومُلوكِ المسلمين والقانَات ، ومُلُوك الكُفرِ وأرباب الدِّيانات ؛ وأهْلِ المملكةِ من النُّوّابِ والكُشّافِ والوُلاه ، والأُمَراء والوُزَراءِ والعُرْبانِ والقُضَاه ؛ وسائرِ حَمَلةِ الأقلام ، وأهْلِ الصَّلاح وبَقِيَّة الأعلام ؛ ونِساءِ المُلوك والخُونْدات، ومكاتبات التُّجّارِ وما عساه يَطْرَأُ من المكاتبات المُسْتجِدّات ؛ وكُتُبِ البُشْرىٰ بالجُلُوس على التَّخْتِ والفَتْحِ والظَّفَر، والبُشْرىٰ بوَفَاءِ النِّيل والقُدُوم من الغزْوِ والسَّفَر؛ واستِرهَاف العزائم، والبَطَائِق المَحْمولةِ علىٰ أجْنِحَةِ الحَمائِم؛ والمُلَطّفات التى يُضْطرُّ إليها، ويُعوَّلُ فى الأمور الباطنة عليها ؛ وأوْراقِ الجَوازِ فى الطُّرُقات ، والإطلاقات فى التَّسْفير والمِثالات المطلقات ؛ ومَعْرفةِ الأوصاف التى يَكْثُرُ فى المكاتبات تكْرارُها، ويتَّسِقُ فى جِيدِ المراسلات إيرادُها وإصْدارُها : كوَصْفِ الأنْواءِ والكَواكِب ، والأفلاكِ العَلِيَّةِ المَراتِب؛ والآلاتِ المُلُوكية الجَليلةِ المِقْدار ، والسِّلاحِ وآلات الحِصار؛ والخَيْلِ المُسَوَّمه ، والجَوارِحِ المُعَلَّمه ؛ وجَلِيلِ الوَحْش وسِباعه ، وطَيْرِ الواجِب وأتْباعه؛ والأمْكِنَةِ والرِّياض، والمياه والغِياض؛ وغير ذلك مما يَعِزُّ ويَغْلُو، ويرتفعُ ويَعْلُو؛ وإخْوانيّات المكاتبات وطَبقَاتِها ، وتميز كلِّ طَبَقةٍ منها عن أخَواتِها؛ وما تشتمل عليه من الابْتداء والجَواب ، والتَّشوُّق والعتاب؛ والتَّرفُّق والاعْتِذار ،

والشَّفاعة وطَلَب الصَّفْح والعفْو عنــد الاقتدار ، والتَّهانِى والتَّعازِى ، وما يكتبُ مع الهَدِيَّة ويجابُ عنها من المجَازِىّ وغيرِ المجَازِى .

وغير ذلك من مَقَاصِــدِ المكاتبات التى يَتعــذَّرُ حَصْرُها ، ويمتنعُ على المُسْتقصِى ذِكْرُها ، ومعرفة الطُّغْراة والطُّرَّةِ والعنْوانِ والتَّعريف ، والعَلَامة فى الكُتُب علىٰ أماكِنِها الفارقة بين انحطاط القَــدْرِ والتَّشْريف ، وتَرْتيبِ الكِتَاب وطَيِّه وخَتْمه ، وتَعْمِيَة ما فى الكُتُب بضَرْبٍ من الحِيــلَة وإخْفاءِ ذلك وكَتْمه ، ونُسَخ الأَيْمَـانِ التى يُسْتَحْلف بهــا ، ويُتَمَسَّكُ للوَفَاء بسَبَبها ، كيَمِينِ البَيْعة العامَّة للموافِقِ والمُخالِف ، وما يختصُّ من ذلك بالنُّوَابِ وأرْبابِ الوَظَائِف ، وأيْمَــانِ أصحاب البِدَع والأهْواء ، وأهْلِ المِلَلِ والحُكَماء ، وكِتَابَةِ الهُدَن والمُواصَفات ، والأمانَات والدَّفْنِ والمُفاسَخات ، ومَعْرِفة الأسمــاء والكُنىٰ والألقاب ، وبيانِ المستندات ومَحَلِّها المصطَلَح عليــه بين الكُتَّاب ، وكِتابة التَّاريخ وما أخذتْ به كلُّ طائفةٍ وثابتْ إليه تَمَسُّكا ، وما يفتتَحُ به فى الكِتَابة تَيُّمنًا ويختتم به تَبرُّكا ، ومعرفةِ قَطْع الوَرَق : من كامِلِ البَغْدادِىّ والشَّامىّ والثُّلُثَين والنِّصْف والثُّلُث والمَنْصورِىّ والعَادَه ، ومن يســتحقُّ من هذه المقــادير أعلاها أو يُوقَفُ به مع أدنى رُتَبِها من غير زياده ، والأَقْلامِ المناسبة لهذه الأقدار ، من الرِّقَاعِ والتَّواقِيع والثُّلُث ومُخْتَصرِ الطُّومار ، والعلِم بالأوضاع وكيفيــة الترتيب ، ومقادير البياض ومُباعَدَة ما بين السُّــطور والتقريب ، ومعرفة الزَّرادِيق وقُطَّانِهــا ، والنَّواحِى والبُلْدانِ وسُكَّانها ، والأُمَم ومَمَــالِكِها ، وطُرُق الأقاليم ومَسَالِكِها ، ومَرَاكِز البَرِيد ومَسَافَاتها ، وأبراج الحَمَــام ومطارَاتِها ، وهُجُن الثَّلْج والسُّفُنِ المُعَــدَّة لنَقْــله ، والمُحْرِقَات المؤدِّية إلى اجْتِياحِ العَــدُوِّ وتَفْرِيق شَمْله ، والمَنَاوِر وأماكنها ، والقُصَّاد ومَكامِنِها .

هذه رُسُومها علىٰ سبيل الإجمال، والإشارة إلىٰ مصطلحاتها بأخْصَرِ الأقوال .

وٱعلم أنَّ حُسْنَ الخَطِّ من الكتابة واسِطةُ عِقْـدِها، وقُوَّةَ المَلَكةِ على السَّجْع والٱزْدِواجِ مِلَاكُ حَلِّها وعَقْدِها؛ علىٰ أنَّ خَيرَ الخَطِّ ما قُرِئ، وأحْسَنَ السَّجْعِ ماسَلِمَ من التَّكَلُّف وبَرِى؛ وللكُتَّاب فى بَحْرِ الكتابة سَبْحٌ طَوِيل، وتَفَنُّنٌ يُسْفِر عن كلِّ وَجْهٍ جَمِيل .

قلت: فهل لهذه الرُّتبة الرَّئيسه، والمَنْقَبة النَّفيسَه، سِمْطٌ يَلُمُّها، أو سِلْكٌ يضُمُّها؟؛ فقال: سبحان الله: إن بَيْتَها لأشْهَرُ من قِفَانَبْك، وأظْهَرُ للعِيانِ من شَامِخاتِ جِبَال النَّبْـك؛ أيَخْفىٰ من البَـدْرِ ضَوْءُه الباهر، ونُورُه الزَّاهِر؟؛ إن ذلك لقـاصِرٌ علىٰ «آلِ فَضْلِ الله» حقًّا، ومُنْحصِرٌ فى المَقَرِّ البَدْرِىّ صِدْقا؛ فهو قُطْبُها الذى تدور عليه، وٱبْنُ بَجْدَتِها التى تَرجِعُ فى عُلُومِها ورُسُومِها وسائرِ أمورها إليــه؛ فلو رآه «الفَاضِلُ عبدُ الرحيم» لم يَرَ لنَفْسِه فضلًا ولا رَضِىَ لِفيـه مَقَالا، أو عَايَنَه «عبدُالحميد الكاتبُ» لقـال: هكذا هكذا وإلَّا فلا لا؛ أو عاصره «قُدَامةُ» لجلس قُدَّامَه، أو أدركه «ٱبن قُتَيْبةَ» لٱتَّخَـذه فى "أدبِ الكَاتِب" شَيْخَه وإمامَه؛ أو بَصُرَ به «الصَّابى» لصَبَا إليه ومال، أو قارَنَ زَمانَه «الحَسَنُ بن سَهْلٍ» بل «الفَضْلُ» أخُوه لأقام ببَابِه وما زال؛ أو جنح «ٱبْنُ العَـدِيم» إلىٰ مناوأته لأدركه العَدَم، أو جَرَى «الصاحِبُ بنُ عَبَّادٍ» فى مِضْمارِ فَضْلِه لَكَبَا وزَلَّتْ به القدَم؛ أو ٱطَّلَع «ٱبنُ مُقْلَةَ» علىٰ حُسْنِ خَطِّه لقـال: هذا هو الجَوْهَرُ الثَّمِين، أو نظر «ٱبنُ هِلَالٍ» إلىٰ بَهْجة رَوْنَقه لقال: إنَّ هذا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِين؛ إن تكلَّم نَفَثَ سِحْرا، أو كَتَب خِلْتَ زهرا أو تَخَيَّلتَ دُرّا:

يُؤَلِّفُ اللُّـؤْلُؤَ المَنْثورَ مَنْطِقُه، * ويَنْظِمُ الدُّرَّ بالأقْلامِ فى الكُتُبِ!

قد علَا نَسَبا، وفاق حَسَبا؛ وورِثَ الفَضْلَ لا عن كَلَالَه، وٱستحَقَّ الرُّتبةَ بنَفْسه وإن كانت له بالأَصَالَه :

فَحَيَّهَــلًا بالمَكْرُماتِ وبالعُــلَىٰ، * وحَيَّهَلًا بالفَضْل والسُّؤْددِ المَحْض!

فلمــا سمعتُ ذلك زال عَنِّى الإلباس، وقلتُ : ذلك من فَضْــلِ الله علينا وعلى النَّاس . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذى تُشــيرُ إليه، إلا تَدُلُّنِي عليه؛ فقال : إنَّه صَفِيُّ المَلِكِ ونَجِيُّه؛ وكاتبُ سِرِّه ووَلِيُّه؛ والقَرِيبُ منه إذا بَعُدوا، والمخصوصُ بالمُقَامِ إذا طُرِدُوا؛ والموَجَّهُ إليــه الخطابُ إذا حَضَروا، والمُسْتأثِرُ بالوُرُودِ إذا صَــدَرُوا؛ والمتكَلِّم بلِسَانِ المَلِكِ إذا سَكَتوا، والناطقُ بفَصْــلِ الخِطَابِ إذا بُهِتوا؛ والصَّائِلُ بحُسَامِ لِسَانه وخَطِّيِّ قلَمه، والحَامِى المَمَــالِك بجُيُوشِ سُطُوره وجُنْدِ كَلِمه؛ والمُشَتِّتُ شَمْلَ العَدُوِّ ببديعِ أَلْفاظِه ودَقِيقِ حِكَمِه؛ والحائزُ قَصَبَ السَّبْقِ بكَرَمِ فَضْلِه وفَضْــلِ كَرَمه، والمُرْوِى ظَمَأَ الوافدين إليــه بَوا كِفِ وَبْلِه وفائِضِ دِيَمِه، والمُجْلِي غَياهِب الظُّلَمِ بنَيِّرِ بَدْرِه ومُضِيءِ أَنْجُمِه :

فمــا زالَ بَدْرًا فى سَمَــاءِ سِــيَادَةٍ * يُشارُ إليـــه فى الوَرَىٰ بالأنامِلِ :

بَسِيطَ مَسَاعِي المَجْـدِ يركَبُ نَجْدَةً * من الشَّرَفِ الأعْلىٰ وبَذْلِ الفَوَاضِلِ؛

إذا سَالَ أعْيَىٰ السَّامِعــينَ جَوابُه * وإن قال لم يَــتْرُكْ مَقَالًا لقَائِلِ!

قلتُ : حَسْبُك! قد دَلَّنِي عليه عَرْفُه، وأرْشَدنِي إليه وَصْفُه؛ وبَانَ لى مَحْتِدُه الفَاخِرُ وحَسَبه الصَّمِيم، وعرفتُ أَصْلَه الزَّاكِيَ وفَرْعَه الكَرِيم، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

ثم عَرَّجتُ إلىٰ حِمَاه، وملْتُ إلىٰ حَيِّه كَىْ أراه؛ فإذا به قد بَرَزَ تتلألأُ أنوارُه، وتُشْرِق بالجَلَالة أقْمــارُه؛ قد عَلَتْه الهَيْبــة وغَشِيَتْه السَّكِينَة وحَفَّتْه الرياســة وجَلَّلَتْه السعاده، وحكَمَتْ بعِزِّ مَنَال قَدْرِه الأقْدارُ كما ٱقتضَتْه الإرَادَه .

فلما رأيتُه آستصغرتُ الرُّتبــةَ مع شَرَفِها البَاذخ فى جانبه ، وعَلِمْتُ أن ما تقــدّم من المَدْح لم يُوَفِّ حَقَّه ولم يَقُمْ ببعض وَاجبه ؛ فغَلَبَتْ هَيْبَتُه إقْدامى ، وحالتْ حُرْمته بينى و بين مَرامى ؛ فقلتُ : إنا لله ! قد فَاتَتْنِى مآربى ، و رجعتُ من فَوْرى إلىٰ صاحِبى ، فأظهرتُ له الأسف ، وقَصَصْتُ عليه القِصَّةَ قال : لا تَخَفْ ، إنها لَمَنْقَبةٌ عُمَرِيَّه ، وأثرةٌ عَدَوِيَّه ؛ فالفَارُوقُ جَدُّه ، وبَنُو عَدِىٍّ قَبِيــلُه وجُندُه .

هذا و إنَّه لألْطَفُ وأَرقُّ من النَّسِيم السَّارى ، والماءِ الجارى ؛ وأحْيَىٰ من العَذْراءِ فى خِدْرِها ، وأشْفَقُ من الوَالِدَة إذا ضَمَّتْ وَلَدَها إلىٰ صَدْرِها ؛ وأحْلَمُ من « مَعْنِ بن زَائِدَه » ، و إن كان أفْصَحَ من «قُسِّ بن سَاعِدَه» :

يُغْضِى حَياءً ويُغْضَىٰ من مَهَابَتِهِ * فَــلَا يُكَلَّمُ إلا حِينَ يَبْتَسِمُ !

بالعزائم الفَارُوقِيَّة فُتِحَت الأمصار ، و بالهَيْبة العُمَرِيَّة أقرّ المُهاجِرُون والأنصار ؛ و يشهد لذلك قِصَّة «آبنِ عَبَّاسٍ» فى العَوْلِ وسُكُوتُه فى خِلَافة عُمَر وصَمْتُه ، وجوابُه بعد ذلك للقائل له : هلَّا قُلتَ ذلك فى زَمَنِ عُمَر ؟ بقوله : إنَّه كان مَهِيبًا فهِبْتُه ؛ كيف ؟ وما سَلَك فَجًّا إلا وسَلَك الشَّيطانُ فَجًّا غير فَجِّــه وضاقَتْ عليه الفِجَاج ، ولم تُمــاثِلْ هَيْبَتَه بهَيْبَــةِ غيره و إن عَظُمتْ سَطْوَتُه حتى قال الشَّعْبِىُّ : إن دِرَّةَ عُمَر لأهْيَبُ من سَيْفِ الحَجَّــاج ؛ وهو مع ذلك يلْطُفُ بالأرامِلِ والمساكين ، ويُعِــينُ الفقراءَ والمحتاجين ؛ فقد آتضحَتْ لك القَضِيَّه ، وتحقَّقْتَ أنها سِمَاتٌ إرْثِيَّه .

فعند ذلك ذَهَب رَوْعى ، وقَوِىَ رُوعِى ؛ وقلتُ : فهل له أتبــاعٌ من الكُتَّاب فأتعلَّقَ بحِبالهِم ، وأتأسَّىٰ بهم فى أقوالهِم وأفْعالهِم ؟ ؛ لكى أتَّسِمَ بسِمَةِ الكُتَّاب ، وأُثْبَتَ فى جُمْــلة غِلْمانِ البــاب ؛ قال : أجَلْ ! رأسُ الدَّسْتِ الشريف صِنْوُه الكريم ، وقَسِيمُه فى حَسَبِه الصَّمِيم ؛ به شُدَّ عَضُدُه ، وقَوِىَ كَتَدُه ؛ فآجتمع الفَضْلُ له

ولأخيه ، ووَرِثا سِرَّ أبيهما « والوَلَدُ سِرُّ أبِيـه » ؛ ثم كُتَّابُ ديوانِ الإنشاء جُنْـدُه وأتْباعُه، وأولياؤُه وأشْياعُه؛ وكُتَّابُ الدَّسْت منهم أرْفَعُ فى المَقَـام، وكُتَّابُ الدَّرْج أجْدَرُ بالكتابة وصَنْعةِ الكَلَام .

قلتُ : القِسْمُ الثانى ألْيَقُ بمقْدَارى، وأقْربُ إلىٰ أوْطَارى؛ ثم وَدَّعْتُ صاحِبِى شاكِرًا له علىٰ صَنِيعِه وحامِدًا له علىٰ أدَبِه، وتركْتُه ومَضَيْتُ وكان ذلك آخِرَ العَهْدِ به؛ ثم عُدْتُ إليـه هو فرفَعْتُ إليـه قِصَّتِى، وسألتُه الإسْـعافَ بإجابة دَعْوتى؛ فقابلهـا بالقَبُول، وأنْعَم بالمَسْئُول؛ وقَـررَنِى فى كتابة الدَّرْجِ الشَّريف، وٱكْتَفىٰ بالعَرْفِ عن التَّعْرِيف؛ وطَابَقَ الخُبْرُ الخَبَرَ، وٱستَغْنَيتُ بالعِيَانِ عن الأَثَر؛ ثم قُمْتُ عَجِلا، وأنْشدتُ مُرْتَجلا :

إذا مابنو الفَارُوقِ فى المجْدِ أعْرَقُوا، * ونالوا بفَضْـلِ اللهِ مالاَ كَمِثْـلِه،

وجَلَّتْ دُجىٰ الظَّلْماءِ أنوارُ بَدْرِهم، * وعَمَّتْ بِقَاعَ الأَرْضِ أنْواءُ فَضْلِه،

تَعَالتْ ذُرَى العَلْياءِ فيهم وأنْشَدَتْ : * أبَى الفَضْـلُ إلَّا أن يَكُونَ لِمثْلِه !

ثم تشرفتُ بتَقْبِيل يَده، ومضيتُ إلىٰ ما أنا بصَدَدِه؛ قد منَعتْنِى هَيْبَتِى من اللِّيَاذِ به والقُرْبِ إليـه، وصَيَّرتْ عَاطِرَ مَدْحِى وخَالِصَ أدْعِيتى وَقْفًا عليه؛ وصِرْتُ إلى الدِّيوان، فوجدتُ قوما قد حَفَّهُم الحُسْنُ وزانَهم الإحْسان؛ فقلتُ : الحمـدُ لله ! هٰؤُلاءِ فِتْيةُ ذاكَ الكَهْفِ بلا ٱمْتِراء، وأشْبَالُ ذَاكَ الأَسَـدِ من غير ٱفْتِراء؛ فجلستُ جُلُوسَ الغَرِيب، وأطرقتُ إطْراقَ الكَئِيب ؛ إذ كُنتُ فى هـذه الصَّنْعةِ عِصامِيًّا لا عِظَامِيًّا، ومُتْهِمًا لا تِهَامِيًّا ؛ غيرَ أنى تعلقتُ منهـا بحِبال القَمَر، وٱستوقَدْتُ نارَها من أصْغَرِ الشَّرَر؛ فتلَقَّوْنِى بالرَّحْب، وأحَلُّونى من ديوانهم بالمَكَانِ الرَّحْب؛ وقابلونى بالجميل قبل المَعْرفه، وعامَلُونى بالإحسان والنَّصَفَه .

فلما رأيتُ ذلك منهم حَمِدتُ مَسْراى، وشكرتُ مَسْعاى؛ ودعَوْتُ لصاحِبي أوَّلًا إذ حَبَّبَ صَنْعتَهم إلىَّ وشاقَنِي، ودلَّنى عليهم وساقَنِي .

ولمـا تحققتُ أنى قد أُثْبِتُّ فى ديوانه ، وكُتِبْتُ من جُمْـلةِ غِلْمـانه ؛ رجعتُ القَهْقَرىٰ عن طَلَبِ الكَسْب ، وآسْـتوىٰ عنـدى المَحْلُ والخِصْب ؛ وآكتفيتُ بنَظَرِى إليه عن الطَّعامِ والشَّراب، وتيقَّنتُ أن نَظْرةً منه إلىَّ تُرَقِّينِى إلى السَّحاب؛ وتلوتُ بلِسَانِ الصِّدْقِ على المَلَإ وهم يسمعون : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِـهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّـا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيما تضمَّنته هـذه المَقَامة من فَضْـلِ الكِتَابة وشَرَفِ الكُتَّاب مَقْنَعٌ من غيرها، ومُغْنٍ عن سواها، والحمد لله والمِنَّة .

* * *

وهذه نُسْخة مَقَامَةٍ أنشأها أبو القاسم الخُوارزْمىّ فى لِقائه لأَدِيبٍ يعرفُ بالهِيتِىّ، وآنْقطاعِه فى البَحْثِ، وغَلَبةِ الخُوارزْمِىِّ له . أوردها آبن حَمْدونَ فى "تَذْكِرَتِه" وهى :

وَصِيَّةٌ لكلِّ لَبِيب، مُتيَقِّظٍ أَرِيب، عالِمٍ أَدِيب؛ يَكْرَهُ مواقِفَ السَّقَطات، ويتحفَّظُ من مَصَادفِ الغَلَطات ، ويتلَطَّفُ من مُخْزِيات الفَرَطات ؛ أن يَدَّعى دون مَقَامه ، ويقتصر من تَمـامه ، ويغضَّ من سِهامِه ؛ ويُظْهِرَ بعض شَكِيمَتِه ، ويُساوِمَ بأيْسَرِ قِيمَتِه ، ويَسْتُرَ كثيرًا من بِضَاعَتِه ، ويَكْتُمَ دَقِيقَ صِناعَتِه، ولا يبلغ دقيق غاية آسْتِطاعَتِه ؛ وأن يُعاشِرَ النـاسَ بِصِدْقِ المُناصَحه ، وجَمِيلِ المُسامَحه ؛ وأن لا يَحْمِلَه الإعجابُ بمـا يُحْسِنُه، علىٰ الآزدراء بمَن يَسْتَقْرِئُه، والآفْتِراء علىٰ من يَعْتَرِضُه ويُلْسِنُه؛ ليكونَ خُبْرُه أكثرَ من خَبَرِه، ونَظْرتُه أرْوَعَ من مَنْظَرِه؛ ويكونَ أقربَ من الآعْتِذار، وأبعد من الخَجلةِ والآنْكِسار .

فليس الفتىٰ من قال: إنّي أنا الفتىٰ، * ولٰكنّه من قيل: أنتَ كذلكا.
وكمْ مُدّعٍ مِلْكًا بغير شهادةٍ * له خَجْلةٌ إن قيل: أن لستَ مالِكا!

ولقد نُصِرتُ بالاتّضاع، علىٰ ذى نَباهةٍ وارْتِفاع؛ وذلك أنى أصْعَدْتُ فى بعض الأعوام، مع جماعةٍ من العَوَام؛ بين تاجرٍ و زائرٍ، إلىٰ العَزْلِ والحائر؛ حتّى انتهينا إلىٰ قَرْيةٍ شارِعَه، آهِلَةٍ زارِعَه؛ وما منّا إلا من أملّته السَّمُريّة فاعترضَته، وأسْقمَتْه وأمْرَضَتْه، وقتَرتْه فقبضَتْه؛ وكثُر منا الجُؤار، واستولىٰ علينا الدُّوار؛ فخرجْنا منها خُروجَ المَسْجُون، وقد تقوّسنا تقوُّس العُرْجُون؛ فاسترحنا بالصُّعُود، من طُولِ القُعُود:

كأنّنا الطّيْر من الأقْفاصِ * ناجيةً من أحْبُلِ القَنّاصِ،
طيّبةَ الأنْفُس بالخَلاصِ * مُنَفضاتِ الرِّيشِ والنَّواصِى!

فما استَتَمّتْ الرَّاحَه، ولا استقرّتْ بنا الرَّاحَه؛ حتى وَقَف علينا واقِف، وهَتَف بنا هاتِف؛ أيُّكم الخُوارزْمىّ؟ فقالوا له: ذلك الغُلام المُنْفرِد، والشّابُّ المُسْتَنِد؛ فأقْبلَ إلىّ، وسلَّم علىّ؛ وقال: إن النّاظِر يَسْتزِيرُك، فلْيُعجَّلْ إليه مَصيرُك؛ فقمتُ معه، يتقدّمُنى وأتْبَعُه؛ حتّى انتهىٰ بى إلىٰ جِلّةٍ من الرجال، ذَوِى بهاءٍ وجَلال، وزِينةٍ وجمال؛ من أشْرافِ الأمصار، وأعْيانِ ذَوِى الأخْطار؛ من أهل واسط وبَغْداد، والبَصْرةِ والسَّواد.

ترىٰ كلَّ مَرْهوبِ العِمامَةِ لاثِمًا * علىٰ وَجْهِ بَدْرٍ تحته قَلْبُ ضَيْغَمِ!

فقام إلىَّ ذُو المعرفة لإكرامه، وساعَده البَاقُون علىٰ قِيامِه، وأطال فى سُؤاله وسَلامه؛ وجَذَبُونى إلىٰ صَدْر المجلس فأبَيْتُ، ولَزِمْتُ ذُناباه واحْتَبيت؛ وأخذوا

يَسْتخبِرُونى عن الحال، والمَعِيشَةِ والمَـال؛ وداعية الارتِحَال؛ وعن النِّيَّة والمَقْصد، والأَهْلِ والوَلَد، والجيرانِ والبَلَد .

وما منهُـمُ إلا حَفِيٌّ مُسائِلٌ، * ووَاصِفُ أشْواقٍ ومُثْنٍ بصالح،
ومُسْتَشْفِعٌ فى أن أُقِيمَ لَيالِيًا * أَرُوحُ وأغْدُوعنـده غَيرَبارِح!

ثم قال قائِلُهم : هل لقيتَ عَيْنَ الزَّمانِ وقَلْبَه، ومَالِكَ الفَضْلِ و رَبَّه، وقَلِيبَ الأَدبِ وغَرْبَه؛ إمامَ العِرَاق، وشَمْسَ الآفاق؟ . فقلتُ : ومَن صاحِبُ هذه الصِّفةِ المَهُوله، والكِنَايَةِ المَجْهُوله؛ فقالوا : أو ما سَمِعتَ بكامِلٍ هِيت، ذِى الصَّوْت والصِّيت ؟ :

ذَاكَ الذى لوعَاش[دَهْرًا]إلىٰ * زَمانِه ذا وٱبْنُ صُـوحانِ،
وٱبْنُ دُرَيْدٍ وأبو حَاتِمٍ * وسِيبَوَيْهِ وٱبْنُ سَـعْدَانِ،
وعامِرُ الشَّـعْبِىُّ وٱبنُ العَلا * وٱبْنُ كُرَيْزٍ وٱبْنُ صَفْوانِ.
قالوا مجـابٌ كُلّهم : إنَّه * سَيِّدُنا، أو قال : غِلْمانِى.

فقلتُ لهم : قد قلَّدتُمُ المِنَّه، وهَيَّجتُم الجِنَّه؛ إلىٰ لِقاءِ هذا العَالِمِ المَذْكور، والسَّيِّد المشهور؛ وقد كانت الرياحُ تأتِينى بنَفَحاتِ هذا الطِّيب ، وهَدْرِ هـذا الخَطِيب؛ فالآن لا أثَر بعـد عَيْن ، سأُصَبِّح لأجْلِه عن سُرىٰ القَيْن ؛ ٱغتِنامًا للفَـائِده ، والنِّعَم البارِدَه، ووُجْدانًا للضَّالَّة الشَّارِدَه .

أيْنَ أمْضى وما الذى أنا أبْغِى * بعدَإدرا كِ المُنَىٰ والطِّلابا ؟
فاذا ما وجَدْتُ عندكم العِلْـ * ـمَ قَرِيبًا فمـا أُرِيدُ الثَّوابا .
اِذهَبُوا أنتم فزُورُوا عَلِيًّا : * لأَزُورَ الهِيتِىَّ والآدَابا :
لَنْ أبَالِى إن قيـل الخُوَارِز * مىّ أَخْطا فعـله أوأَصَابا !

فقالت الجماعة : بل أصبْتَ ، ووجدتَ ما طَلَبتْ ؛ وقديمًا كنا ننشُرُ أعلاقَك ، ونتمنَّى اتِّفاقَك ؛ ونتداوَلُ أوْصافَك ، ونُحِب مُضافَك ؛ ونُكْبِر لدَيه ذِكْرَك ، ونُعظِّم لديه قَدْرَك ؛ فيتحرَّكُ منك ساكِنُه ، وتَتقلْقَلُ بك أماكِنُه ؛ ونسأَلُ الله سبحانه أن يَجْمَع بينك و بينه بمَحْضَرِنا ، وتُلامِحَ عَيْنُك عَيْنَه بمَنْظَرِنا ؛ و يلتَفُّ غُبارُك بغُباره ، ويَمْتزِجُ تيَّارُك بتيَّارِه ، و يختلِطُ مِضْمارُك بمِضْمارِه ؛ فيُعْرَف منكما السَّابِقُ والسُّكَيْت ، والسُّوذَانِقُ والكُمَيْت ؛ و يتبيَّنُ من الذى يَحْوى القَصَب ، فانكما كما قال الشاعرُ :

هُمَا رُمْحانِ خَطِّيَّانِ كانا * من السُّمْرِ المثقَّفَةِ الصِّعَادِ

تُهالُ الأرْضُ أن يَطَآ عليها * بمثْلِهما نُسالِمُ أو نُعَادِى !

فقال [بعضُ الجماعة] لقد تنَكَّبتم الإنصاف ، وأخْطَأتُم الاعْتِراف ؛ وأبعدتُم القِياس ، وأوقَعْتُم الالتباس ؛ أيْنَ ابْنُ ثلاثين ، إلى ابنِ ثمانين ؟ ؛ وابنُ اللَّبُون ، من البَازِلِ الأَمُون ؟ ؛ والرُّمْح الرَّازِح ، من الجَوَادِ القَارِح ؟ ؛ والكَوْدن المَبْرُوض ، من المُجَرَّب المَرُوض .

وابنُ اللَّبُونِ إذا مالُزَّ فى قَرَنٍ * لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ !

كم لديهم بطائحُ وسباخ ، وساكِنُ صرائف وأكْواخ ، بين يديه سوادية أنباط ، وعُلُوج أشراط ، ورعاعُ أخلاط ، وسِفْلُ سُقَّاط ؛ فى بلدة إن رأيتُ سُورَها ، وعبرتُ جُسُورَها ، صِحْتُ : واغُرْبتَاه ، و إن رأيتُ وجْهًا غَرِيبًا ناديتُ : واأبتَاه ؛ لا أعرِفُ غير النَّبَطِيَّة كلاما ، ولا ألقى سِوى والدى إماما ؛ فى مَعْشَرٍ ما عَرَفُوا التَّرْحال ، ولا رَكِبُوا السُّرُوج والرِّحال ، ولا فارقوا الجِدَار والظِّلَال .

أولئكَ مَعْشَرٌ كبَنات نَعْشٍ * خَوَالِفَ لاتَغُورُ مع النُّجُوم !

[فأنّى له] بمصاولة رَجُلٍ جَوّال، رَحَّالٍ حَلَّال؛ بهيتَ وُضع، وبالكُوفَةِ أرْضِع؛ وببغدادَ أَثْغَر، وبواسط أَحْفَر، وبالحجاز وتهامَةَ فِطامُه، وبمصرَ والمَغْرِبِ كان آحْتِلامُه؛ وبنَجْدٍ والشَّامِ بَقَل عارِضُه، وباليَمَنِ وعمان قَوِيتْ نَواهِضُه؛ وبخُراسَانَ بلغ أَشُدَّه، وبخَارَا وسَمَرْقَنْدَ تناهَىٰ جِدُّه؛ وبغَزْنَةَ والهِنْدِ شابَ وآكْتَهل، ومن سَيْحُونَ وجَيْحُونَ عَلَّ ونَهَل؛ وبمَيْسَانَ والبَصْرة عَوَّد وقَرِح، وبالجبال جَلَه وجَلَح؛ فهو يعدّ «المَازِنِيّ» إمامه، وآبنَ «جِنِّي» غُلامَه؛ و«المُتَنَبِّي» من رُواتِه، و«المَعَرِّي» حاملَ دَوَاتِه؛ و«الصَّابِي» بارِيَ قَلَمِه، و«الصَّاحِبَ» رَافِعَ عَلَمِه؛ و«آبنَ مُقْلَةَ» من نَاقِلِي غاشِيَتِه، و«بنى أبي حَفْصَةَ» بعضَ حَاشِيَتِه؛ وقد قرأ الكُتُبَ وتَلَاها، وحفِظَ العُلومَ ورواها، ودَرَس الآدابَ ووعاها، ودَوَّن الدَّوَاوِينَ وألَّفها، وأنشأ الحِكَمَ وصَنَّفَها؛ وفَصَّل المُشْكِلاتِ وشَرَحها، وآرتَجل الخُطَبَ ونَقَّحَها؛ فهو البَحْر المَوْرود، والإمامُ المَقْصُود، والعَلَمُ المَصْمُود، هذا بَوْنٌ ومرتقى شديد.

أتلقونَ بالأعْزَلِ الرَّامِحا، * وبالأَكْشَفِ الحاسِرِ الدَّارِعا،

وبالكَوْدَنِ السَّابِقَ السَّابِحا، * وبالمِنْجَلِ الصَّارِمَ القَاطِعا؟

فما آستتم كلامه حتى أَقبل: فاذا نحنُ به قد طلع مُهَرْوِلا، وأقبلَ مُسْتَعْجِلا؛ فرأيتُ رجلًا أجْلَح، أهْتَمَ أفْلَح، أفطَح أرْدَح؛ طَوِيلًا عَنطَنَط، يحكي ذِئْباً أمْعط، أَجْمع أحْبط؛ فتَلَقَّوْه مُعظِّمين، وله مُفَخِّمين؛ فقَصَد فى المَجْلِس صَدْرَه، وأسْنَدَ إلى المِخَدَّةِ ظَهْرَه؛ فما آستقر به المكان، حتى قيل له: هذا فُلَان؛ فقَبَض من أنْفِه، ونَظَر إليّ بشَطْرٍ من طَرْفِه؛ وقال ببَعْض فيه، هَلُمُّوا ما كنتم فيه؛ تَعْسًا للشَّوْهاءِ وجَالِبِيها، والقَرْعاءِ وحالبيها:

جاء زيدٌ مُجَرِّرًا رَسَنَه * فَحْلُ لايمنعه سننه (؟)

أَحَبَّه قَوْمُه على شَوَهٍ * إنّ القَرَنْبَىٰ فى عَيْنِ أُمِّها حَسَنَه!

كان لنا شَيْخٌ بالأنْبار، كثيرُ الأخْبار، قد بلغ من العُمْر أمْلاه، ومن السِّنّ أعْلاه، قرأتُ عليه جَمِيعَ الكِتَاب، وعِلْمَ الأنْسَاب، و "مَسَائِلَ آبنِ السَّرَّاج"، و "دِيوانَ آبن العَجَّاج"، و "كِتَابَ الإصْلاح"، و "مَشْرُوح الإيضاح"، وشِعْرَ الطِّرِمَّاح، و "العين" للفُرْهُودِى، و "الجَمْهَرة" للأَزْدِى، وأكثَرَ من المصَنَّفَات، المجهولات والمعروفات، يَنْفُخُ فى شَقَاشِقِه، ويُزْبِدُ فى بَقَابِقِه، ويتعاظَمُ فى مَخَارِقه، وجعل القَوْمُ يَقْسِمُون بيننا الألحاظ، ويَحْسُبُون الألفاظ، وما منهم إلا من آغْتاظ لسُكُوتى وكلامه، وتَأَخُّرِى وإقْدامه .

ثم هـذى الشيخُ إذ وُصِفَ له رجُلٌ على الغَيْبِ ثم رآه، فاحْتَقَره وآزدراه، وأنْشَد مُتَمَثِّلًا :

لعَمْرُ أبِيكَ تَسْمَعُ بالمُعَيْدِى * بَعِيدَ الدَّارِ خيرٌ أن تَراه

فقال : هذا المُعَيْدِىُّ هو ضَمْرة، بنُ ضَمْرة، بن جَابِر، بن قَطَن، بن نَهْشَل، بن دَارِم، بن مَالِك، بن حَنْظَلة، بن مَالِك، بن زَيْدِمَنَاةَ، بن تَمِيم، بن مُرَّة، بن أُدّ، آبن طَابِخَةَ، بن آلْيَأْس، بن مُضَر، بن نِزَار، بن مَعَدّ، بن عَدْنَانَ . والمُعَيْدِىُّ تَصْغِيرُ مَعْدِى، وهو الذى قالتْ فيه نَادِبَتُه :

أنْعى الكَرِيمَ النَّهْشَلِيَّ المُصْطَفَى * أكْرَمَ من خَامَرَ أو تَخَنْدَفا !

فقلتُ : ما بعد هذا المَقال، وَجْهٌ للآحتمال ؛ وما يَجِبُ لى بعدَ هذه المُوَاقَه، غيرُ المُكَافَحه، ولم يَبْقَ لى بعد المُغَالَبه، من مُرَاقَبه :

ما عِلَّتِى وأنا جَلْدٌ نَابِلٌ[1] * والقَوْسُ فيه وَتَرٌ عُنَابِلُ

* تَزِلُّ عن صَفْحَتِه المَعَابِلُ ! *

(١) كذا فى اللسان فى مادة — علل — وفى مادة عنبل "خب خاتل" .

ماعلتى وأنا [رجل] جَلْدُ * والقَوْسُ فيه وَتَرٌ عُرُدُّ
* مِثْلُ ذِراعِ البَكْرِ أو أَشَدُّ *

فعطفتُ عليه عَطْفَ الثّائرِ العَاسِف ، والتفتُّ إليه ٱلتفاتَ الطَّائرِ الخَاطِف ؛ فقلتُ له : يا أَخاهيت ، قد قُلْتَ ماشِيت ، فأَجِبِ الآنَ إذا دُعِيت ؛ والْزَمْ مَكانَك ، وغُضَّ عِنانَك ، وقَصِّرْ لِسانَك ؛ إنَّ نادِبَةَ ضَمْرة خَنْدَفَتْه ، لمَّا وَصَفَتْه ؛ وما سمعتُ فى نِسْبتك إياه لِخندِفَ ذِكْرا ، فأَبِنْ عن ذلك عُذْرا ؛ فقال : إن خِنْدِفَ هى ٱمرأةُ ٱلْيَأْسَ بنِ مُضَر ، غَلَبَتْ علىٰ بَنِيها فنُسِبُوا إليها ، كَطُهَيَّةَ ومُزَيْنه ، وبَلْعَدَوِيَّةَ وعُرَيْنَه ، والسُّلَكَةِ وجُهَيْنه ، ونُدْبَةَ وأُذَيْنَه ؛ وكَشَبِيب بن البَرْصَاء وٱبن الدَّغْماء . فقلت له : سُئِلْتَ ، فأَجَبْتَ وأَصَبْتَ ؛ فأخبرنى عن خِنْدِفَ هل هو ٱسْمٌ مَوْضُوع ، أو لَقَب مَصْنُوع ؟ ؛ فوقَفَ عند ذلك حِمارُه ، وخَمَدَتْ نَارُه ؛ وركَدَ جَرَيانُه ، وسَكَن هَذَيانُه ، وفَتَرَ غَلَيانُه ، وظَهَر حِرَانُه ؛ وذَلَّ وٱنْقَمع ، وٱنْطَوىٰ وٱجْتَمع ؛ فاضطَرَّه الحَيَاء ، وأَلْجَأَه الاَسْتِجْداء ؛ إلىٰ أن قال وهو يُخْفِى لَفْظَه ، ويُطْرِقُ لَحْظَه : أَظُنُّه لقَباً . فقلتُ : هو كما ظننتَ فما مَعْناه وما سَبَبُه؟ وكيف كان مُوجَبُه؟ فلم يَجِدْ بُدًّا من أن يقولَ : لا أَدْرِى ، فقال وقد أَذَقْتُه مُرَّ الإمَاتَه ، وأَحَسَّ من القَوْمِ بتَظَاهُرِ الشَّماتَه :

وودَّ بجَدْعِ الأَنْفِ لو أنَّ صَحْبَه * تَنَادَوْا وقالُوا فى المَنَاخ له : نَمِ !

ثم أقبلُوا إلىّ ، وعَكَفُوا عَلَىّ ؛ بأَوْجُهٍ مُتَهَلِّله ، وأَلْسِنَةٍ مُتوسِّله ؛ فى شَرْح الحال ، والقيامِ بجواب السُّؤال ؛ فقلتُ : هذا بَدِيعٌ عَجِيب ، أنا أَسْأَلُ وأنا أُجِيب ؛ إن ٱلْيأْسَ ٱبنَ مُضَر تزوّج لَيْلىٰ بنْتَ تَغْلِبَة[1] ، بن حُلْوان ، بن إلحاف ، بن قُضاعةَ ، بن مَعَدّ ، (فى بَعْضِ النَّسَب) ، فوُلِدَ له منها : عَمْرو وعامِرٌ وعُمَيْر . نفقدَتْهم ذاتَ يَوْمٍ ، فألْحَىٰ

(١) صوابه بنت حلوان بن عمران .

علىٰ لَيلىٰ باللَّوم، فقال: آخرجى فى أثَرِهم، وأْتِينى بخَبَرِهم؛ فمَضَتْ فى طَلَبِهم، وعادتْ بهم؛ فقالت: ما زِلتُ أُخَنْدِفُ فى آتباعهم، حتى ظفرتُ بلقائهم؛ فقال لها آلْيأْسُ: أنتِ خِنْــدِف. والخَنْدَفة فى الاتبـاع، تقارُبُ الخَطْوِ فى إسْراع؛ وقال عَمْرو: يا أَبَتِ أنا أدركتُ الصَّيْدَ فَلويتُه، فقال له: أنتَ مُدْرِكة إذ حَوَيْتَه. وقال عامِرٌ: أنا طَبخْتُهُ وشَوَيْتُه. فقال له: أنتَ طابِخَة إذ شَوَيْتَه. فقال عُمَيْرٌ: أنا آنقمعْتُ فى الخِبَاء، فقال له: أنتَ قَمَعَةٌ للاختباء؛ فلَصِقَتْ بها وبهم هذه الألقاب، وجَرَتْ بها إليهم الأنْساب.

فقال حينئذٍ: هذا عِلْمٌ آستفدتُه، وفَضْلٌ آسْتزدتُه؛ وقد قال الحكيمُ: مُذَاكَرةُ ذَوِى الألْبابِ، نَمَـاءٌ فى الآداب. فقلتُ له مُتَمَثِّلا:

أقُولُ له والرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَهُ * تأمَّلْ خُفَافًا: إنَّنِى أنا ذَلِكا!

ثم لم يَحْتَبِس إلا قَلِيلا، ولم يُمْسِكْ طَوِيلا؛ حتى عاد إلىٰ هَدِيرِه، وأخذ فى تَهْذِيرِه؛ طَمَعًا بأن يأخُذَ بالثَّار، ويعودَ الفَيْضُ له فى القِمَار؛ فعدل عن العُلُوم النَّسَبِيَّه، وجَالَ فى مَيْدانِ العَرَبِيَّــه؛ ولم يُحِسَّ أن بَاعَه فيها أقْصَر، وطَرْفَه دون حَقَائِقِها أحْسَر؛ فقال: حضرتُ يومًا حَلْبةً من حَلَبَاتِ العُلُوم، ومَوْسِمًا من مَوَاسِم المَنْثور والمَنْظوم؛ وقد غُصَّ بكلِّ خطيبٍ مِصْقَع، وحَكَمٍ مُقَنَّع، وعالِمٍ مِصْدَع؛ ومُلِئَ من كلِّ عَتِيقٍ صَهَّال، وفَتِيقٍ صَــوَّال، ومِنْطِيقٍ جَوَّال؛ فأخذُوا فى فُنُون المُعارَضَات، وصُنُوف المُناقَضات؛ وسَلَكُوا فى معانى القَرِيض، كلَّ طَوِيلٍ عَرِيض؛ حتَّى أخَذَ السَّائِلُ منهم بالمُخَنَّق، ببَيْت [الفرزدق] (١):

وعَضُّ زَمانٍ يا آبنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ * من المَـالِ إلَّا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ!

(١) الزيادة من اللسان مادة ــ س ح ت ــ وــ ج ل ف ــ .

فكَثُر فيه الجِدَال، وطَالَ المَقال ؛ وما منهم إلا من أجاد القيَاسَ، وأصابَ القِرْطاس؛ ووَقع على الطَّرِيق ، وأتَىٰ بالتَّحْقِيق؛ فلمَّا رأيتهم فى غَمْرتِهم سَاهُون ، وفى ضَلالَتِهم يَعْمَهُون؛ فناديْتُهم : إلىَّ فَسَارِعُوا ، ومِنِّى فاسْمَعوا؛ فإنِّى أنا ٱبنُ بَجْدتِها ، وعالِمُ ماتَحْت جِلْدَتِهـا؛ ثم إنِّى أبديتُ لهم سِرَارَه ، وأبقيتُ ناره؛ وحَلَلْتُ عُقَـدَه ، ومَخَضْتُ زُبَدَه ، وأطَرْتُ لَبَدَه؛ وبَجَسْتُ حَجَره ، وأبْثَثْتهم عُجَرَه وبُجَرَه؛ فقالوا : لله أبُوكَ ! فإنَّك أسْبَقُنا إلىٰ غَايَه ، وأكْشَفُنا لغَيايَه؛ وأجْلَانا لشُبْهه ، وأضْوَأُنا فى بَدْهه؛ وما أعلَمُ اليومَ علىٰ ظَهْرها من يَقُوم بعِلْم مافيه ، ويَطَّلِـع علىٰ خَافِيه .

فأدركَنِي الآمتِعاض ، وأخَذَنِى الآنْتِفَاض؛ فأنشدته :

مَنْ ظَنَّ أنَّ عُقُولَ النَّاسِ ناقِصَةٌ * وعَقْـلَهُ زَائِدٌ أزْرَىٰ به الطَّمَع !

وقلتُ له : ٱدَّعَيْت ، فَوْقَ ما وَعَيْت؛ فأخْبِرْنِى عن أوَّل هذا البَيْت ، يا مُجْرِى الكُمَيْت؛ وكيف نُنْشِدُه : وعَضَّ بالفتح أو وعُضَّ بالضم؟ فقال : كِلَاهُما مَرْوِىّ ، فقلتُ : نَبْتَدِئُ بالفِعْل ثم نَعُود إلى الآسْم ياذا الإعجاب ، تَهيَّأْ للسَّائِل فى الجَوَاب ؛ وأخْبِرْنى لم فَتَحْتَ آخِرَ المـاضى؟ فأسْرَع من غير التغاضى ، وقال : لأنَّه مبْنِىٌّ عليه ، لا يُضاف سِوَاه إليه . فقلتُ : هذا جَوَابٌ نَعْلمُه ، ومن صِبْيانِ المَكْتَبِ لا نَعْدِمُه ؛ وإنمـا أَلْتَمِسُ منك الفائدةَ فيها ، وأطلبُ كَشْفَ خَافِيها . فقـال : ما جاء عن أئمَّة النُّحاه ، وسائِرِ الرُّواه؛ فى هذا غيرُ ما شَرحْتُه ، ولا زَاد علىٰ ما أوضَحْتُه . فقلتُ : دع عنك هذا وأخبرنى عن هذا البِنَاء ، ألِعِلَّةٍ أم لغَيْرها؟ فأقبل يتردَّدُ ويتزَحْزَح ، ويتثاءَبُ تارةً ويتَنَحْنَح . فلما سُـدَّ عليه من طَرِيقه ، وحَصَل فى مَضِيقه ، وغُصَّ بِرِيقِه ؛ قال : لا أعْلَم ! . فقالت الجمـاعةُ : أعْذَرَ إليك من ألْقَىٰ سِلَاحَه ، وغَضَّ جِماحَه؛ ومن أدْبَرَ بعد إقْباله ، عُدِلَ عن قِتَاله :

والحقُّ أبْلَجُ لا يُحَـدُّ سَبِيلُه * والحقُّ يعرفُه ذَوُو الألْبابِ!

والآنَ فقــد فازتْ قِدَاحُك ، وبانتْ غُرَرُكَ وأوْضَاحُك ؛ وأجَدْتَ النِّضال ، وأدرَكْتَ الخِصَال ؛ فأوْضِحْ لنا عمَّا سَألت ، وأرْشِدْنا إلىٰ ما دَلَلت ؛ لئلَّا يقال : هذا بَهْت ، ومُحَالٌ بَحْت ؛ فقلتُ حُبًّا وكَرَامه ، اِسْمَعْ أنتَ ياطَغَامــه ؛ إنَّ الفِـعْل من فاعِلِه ، كالوَلَد من نَاجِلِه ؛ لايخلُو الفِـعْلُ من عَلَامةِ الفَـاعِل ، فى لَفْظِ كلِّ قائِل ؛ وهى الفَتْحة من مَاضِيه ووَاقِعِه ، والزَّوائدُ فى مُسْتَقْبلِه ومُضَارِعِه . وبيانُ ذلك : أن الفَتْحةَ لا تكون مع التـاء والنون ... ... [1] فتثبت الفَتْحةَ ، ثم تقولُ : أخْرَجْتُ وأخْرَجْنَا ، فتُسقِطُ ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنًى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت النونُ التى مع الألف ضَمِيرَ المَفْعول عادَت الفَتْحةُ ، فتقول : أخْرَجَنا الأميرُ ، فهذا بَيِّنٌ . فصَفَّقَتِ الجماعةُ وسمحت ، وحسنت وبجبحت ؛ وجَعَل الأديبُ يضطَرِبُ اضْـطِّرابَ العُصْفُور ، ويتقَلَّبُ تَقَلُّبَ الصُّقور ؛ مُتيقِّناً أن أسَـدَهُ صار جُرَذًا ، وبَازِيَه عاد صُرَدا ، ودوره انقلبت مخشلبا (؟) ، وزَيْتُونَه تحوَّل عِرْبا ، وقَنَاه تغيَّر قَصَبا ، وأن مُسْتَقِيمَه تَعوَّج ، وجَيِّــدَه تَبَهْرَج ، وصَحِيحَه تَدَحْرج ، وجَدِيدَه تَكَرَّج ؛ فقال مُنْشِدُهم :

تَرَى الرَّجلَ النَّحِيفَ فتَزْدَرِيه * وتَحْتَ ثِيـابِه أسَـدٌ مَزِيرُ

ويُعْجِبُك الطَّـرِيرُ فَتَبْتَلِيــه * فيُخْلِفُ ظَنَّك الرجُلُ الطَّرِيرُ

فمـا عِظَمُ الرِّجالِ لهم بفَخْرٍ * ولٰكنْ فَخْرُهم كَـرَمٌ وخِيرُ!

فأخَذَه الأبْلاس ، وضاقَتْ به الأنْفاس ، وسَكَنتْ منه الحَوَاسّ ، ورَفَضَــه النـاس ؛ وجعــل ينْكُتُ الأرْض ، ويُواصِلُ بكَفِّــه العَضّ ؛ ويَتَشاءَمُ بيَوْمه ،

(١) بياض بالأصول .

ويعودُ علىٰ نَفْسِه بلَوْمِه؛ يَمْسَحُ جَبِينَه، ويُكْثِرُ أنِينَه. فقمتُ فقامتْ معى الجماعة وتَرَكْتُه، وٱسْتهانَتْ به وفركَتْه؛ فلما بَقِىَ وَحْدَه، تَمَنَّى لَحْدَه؛ وأسْبَل دَمْعتَه، ووَدَّ أنَّ الأرض بَلَعَتْه :

وكان كمثل البَوْمايِنْ رُوِّمٍ * تَلُوذ بِحَقْوَيْه السَّراةُ الأكابِرُ،
فأصْبَح مِثْلَ الأَجْربِ الجِلْدِ مُفْرَدًا * طَرِيدًا فما تَدْنُو إليه الأَبَاعِرُ!

فقام فتَبعنى، ووَقَف ووَدَّعَنِى؛ وأطال الاعْتِذار، وأظهر التَّوْبَةَ والاسْتِغْفار؛ وقال: مِثْلُك من سَتَر الخَلَل، وأقال العَثْرَةَ والزَّلَل؛ فقد ٱغتررتُ من سِنِّك بالحَدَاثَه، ومن أخْلاقِك بالدَّماثَه. فقلتُ : كُلُّ ذلك مَفْهومٌ مَعْلوم، وأنتَ فيه مَعْذورٌ لا مَلُوم؛ وما جَرىٰ بيننا فهو مَنْسِىٌّ غيرمَذْكُور، ومَطْوِىٌّ غيرمَنْشُور، ومَخْفِىٌّ غيرمَشْهُور :

و[جِدَالُ] أَهْلِ العِلْمِ ليس بقَادِحٍ * مابين غَالِبِهم إلى المَغْلُوب!

ثم سكتَ فما أعَاد، ونَزلْتُ وعاد؛ وكان ذلك أوّلَ عَهْدٍ به وآخِرَه، وباطِنَ لِقَاءٍ وظَاهِرَه، وكلَّ ٱجْتِماعٍ وسَائِرَه.

الفصل الثانى

من البـاب الأوّل من المقـالة العـاشرة

(فى الرَّسَـائِل)

وهى جَمْع رِسالَةٍ، والمرادُ فيها أُمُورٌ يُرَتِّبها الكاتِبُ : من حِكايَةِ حَالٍ من عَدُوٍّ أو صَيْدٍ، أو مَدْح وتَقْرِيضٍ، أو مُفَاخَرَة بين شيئين، أو غيرذلك مما يَجْرِى هذا المجرىٰ. وسُمِّيتْ رسائِلَ من حيثُ إنَّ الأديب المُنْشِئَ لها رُبَّما كَتب بها إلىٰ غيره

مُخْبِرا فيها بصورة الحال، مُفْتتحةً بمـا تُفْتَتح به المكاتباتُ ، ثم تُوُسِّع فيها فافتتحت بالخُطَب وغيرها .

ثم الرَّسائِل علىٰ أصـناف :

الصـــنف الأوّل

(منها الرَّسائِل المُلُوكيَّـة ، وهى علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(رَسَائِل الغَزْوِ ، وهى أعظمها وأجَلُّها)

وهــذه نُسْخة رسالةٍ أنشأها القاضى مُحْيِي الدِّين بن عبد الظَّاهِر رحمه الله، بفَتْح [المَلِك الظَّاهر] لقَيْسَارِيَّة من بلاد الروم، وٱقْتِلاعِها من أيْدى التَّتَار، وٱسْتِيلائِه علىٰ مُلْكها، وجُلُوسه علىٰ تَخْتِ بنى سُلْجُوق، ثم العَوْدِ منها إلىٰ مَمْلكة الدِّيار المِصْرية . كَتَب بها إلى الصَّاحِبِ بَهَاء الدِّين بن حَنَّا، وزيرِ السلطان المَلِكِ الظاهر، ومَعرفَة ما كان فى تلك الغَزْوة، وما ٱشتملت عليه حالُ تلك السَّفْرة، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ بسَاحَاتِ الأبواب الشريفة السَّيِّديَّه، الصَّاحِبية البَهَائيَّه؛ لا زالتْ رَكائِبُ السِّيرِ تَحُثُّ إلىٰ أرجائِها السَّيْر، وصُرُوفُ الزَّمنِ تُسالِمُ خُدَّامها وتُحِلُّ الغِيرَ بالغَيْر، ولا بَرِحَتْ مَوْطنَ البِرِّ ومَعْدِنَ الجُودِ وبَحْر الكَرمِ وعُكَاظَ الخَيْر؛ ويُنْهِى بعـد رَفْعِ أدْعيَتِه التى لاتزالُ من الإجابة مَحُوطه، ولا تَبْرَحُ يداه بها مَبْسُوطَه؛ أنَّ العَبِيـدَ من شأنهم إتحافُ مَوَالِيهم بما يُشَاهِدُونه فى سَفَرَاتِهم من عَجَائِب، وإطْلاعُهم علىٰ مايَرَوْنَه فى غَزَوَاتِهم من غَرائِب؛ ليَقْضُوا بذلك حُقُوقَ الآسترقاق، وتكونَ نِعَمُ ساداتِهم قد أحْسَنَتْ لأفواههم الآسْتِنْطاق؛ ويَتَعرّضُوا لمـا عساه يَعِنُّ من مَرَاحِمِهم التى ماعندهم غَيرُها يَنْفَدُ وما عنْدها بَاقٍ .

ولمّا كان المملوكُ قد آنتظم فى سِلْكِ الخَدَم والعَبِيد، وأصبح كَمْ له قَصيدٌ فى مَدْح هـذا البَيْتِ الشَّرِيفِ كلُّ بَيْتٍ منها بقَصِيدِ بَيْتِ القَصِيد ؛ وأنَّ فى مآثِرِه الرَّسائِلُ التى قد شـاعَتْ ، وضاعَتْ نَفَحاتُها فى الوجود وكَمْ رِسالةٍ غيرها فى غيره ضاعت ـ رأىٰ أن يُتْحِف الخواطِرَ الشَّريفةَ من هذه الغَزْوَة بلُمَح يختارُ منها من يُؤَلِّف ، ويُسْنِد إليها من يُؤَرِّخُ أو يُصَنِّف ؛ وإنَّمـا قصدَ أن يُتْحِفَ بها أبوابَ مولانا مع بَسْطِ القَوْل وآتِّساعِ كَلِمـاته ، لأن الله قد شَرَّف المملوكَ بعبوديَّةِ مولانا : واللهُ أعلَمُ حَيْثُ يجعلُ رِسَالَاته؛ فانْ كان المملوكُ قد طَوَّل فى المُطَارَحه ، فمولانا يَتَطوَّلُ فى المُسَامَحه ؛ وإن قال أحدٌ : هذا هَذَىٰ ، فمـا زال شَرْحُ الوقائـع مُطَوَّلا كذا ؛ وتاللهِ ما وُرِّخ مثْلُها فى التواريخ الأُوَل ، ولعَمْرِى إنَّ خيرًا من سـيرَة ذلك البَطَّال سيرةُ هـذا البَطَل ؛ والأمر أعْلىٰ فى قِراءَتِها وآسْتِمـاعِها، والتَّمَهُّلِ فى تَجَلِّيها حتَّى تُسْفِرَ حَسَنَ نِقابِها وتَرْفَع مَسْدُول قِناعِها ، ... ...(١)

قد أحاطت العلومُ الشريفةُ بالعَزَماتِ الشَّريفة السُّلْطانيـة ، وأنها آستصحبت ذلك ، حتى تصفَّحَت المَهالك؛ وسِرْنا لا يَسْتقِرُّ بنا فى شَىْءٍ منها قَرَار ، ولا يُقْتدَحُ من غير سَـنَابِك الخَيْل نَار ، ولا نَمُـرُّ علىٰ مَدِينـةٍ إلا مُرُورَ الرِّياح على الخمـائل فى الأصَائِلِ والإبْكَار؛ ولا نُقِيمُ إلا بمقدار ما يَتَزَيَّد الزَّائِرُ من الأُهْبَه، أو يتزوَّدُ الطائِرُ من النُّغْبَـه ؛ نَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيث نَنْتَحِى، وتَكادُ مَواطِئُ خَيْلنا بمـا تَسْحَبُه أذْيالُ الصَّوافِنِ تَمْتَحِى ؛ تَحْمِل همنا الخَيْـلُ العِتَاق، ويَكْبو البَرْق خَلْفَنا إذا حاول بنا اللَّحاق، وكلٌّ يقول لسلطاننا نَصَره الله :

أَيْنَ أزمعتَ أيُّهَـذَا الهُمَامُ؟ * نحنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنتَ الغَمَامُ!

(١) بياض بالأصول .

ومَنْ لايفعلُ السَّيفُ أفعالَه ، ولا يَسِـير فى مَهْمَهٍ إلا عَمَّه ولا جَبَـلٍ إلا طَالَه ؛ تُسَايِرُه السَّوارِى والغَوادِى ، ولا ينفَكُّ الغَيْثُ من آنْسِكابٍ فى كلِّ نادٍ ووَادِى :

فباشَرَ وَجْهًا طالمَـا باشَرَ القنا ، ✽ وبَلَّ ثيـابًا طالمَـا بلَّها الدَّمُ !

وكان مولانا السـلطانُ من حَلَب قد أمر جميعَ عساكره بآدِّرَاعِ لامَاتِ حَرْبِهم ، وحَمْلِ آلاتِ طَعْنِهم وضَرْبِهم :

فجَازَ له حَتّىٰ علَى الشَّمْسِ حُكْمُه ، ✽ وبَانَ له حَتّىٰ علَى البَدْرِ مِيسَمُ .

يَمُـدُّ يَدَيْه فى المُفَاضَة ضَـيْغَمٌ ✽ وعَيْنَيْه من تَحْتِ التَّرِيكَةِ أَرْقَمُ !

ورحَلُوا من حَلَب فى يوم الخميس ثانى ذى القعـدة جَرائِدَ على الأمْرِ المعهود ، قد خَفَّفوا كلَّ شَيْءٍ حتَّى البُنودَ والعَمود ، فسِرْنا فى جِبالٍ نشتهى فيها سُلُوكَ الأرض ، وأوْدِيةٍ تَهْـلِكُ الأشْواطُ فيهـا إذا مُلِئَتِ الفُرُوج من الرَّكْض ، نَزُور دِيَارًا ما نُحِبُّ مَغْناها ، ولا نَعرِفُ أقصاها من أدْناها ، وآستقبلنا الدَّرْب فكان كما قال المُتَنَبِّى :

رَمَى الدَّرْبَ بالخَيْلِ العِتاق(١) إلى العِدَا ✽ وما عَلِمُوا أنَّ السِّهامَ خُيُولُ ،

شَوَائِلَ تَشْـوالَ العَقَارِبِ بالقَنـا ✽ لهَـا مَرَحٌ من تَحْتِه وصَهِيلُ .

[وما هِى إلَّا خَطْـرَةٌ عَرَضَتْ له ✽ بحَرّانَ لبَّتْهـا قَنًـا ونُصُولُ

هُمَـامٌ إذا ما هَمَّ أمْضَى هُمُومَـه ✽ بأَرْعَنَ وَطْءُ المَوْتِ فيـه ثَقِيـلُ

وخَيْـلٍ بَرَاها الرَّكْضُ فى كُلِّ بَلْدَةٍ ✽ إذا عَرَّسَتْ فيهـا فلَيْسَ تَقِيـلُ](٢)

فلمَّـا تَجَـلَّىٰ من دَلُوكَ وصَـنْجَةٍ ✽ عَلَتْ كُلَّ طَوْدٍ رَايَةٌ ورَعِيـلُ

---

(١) الذى فى ديوان المتنبى : بالجُرْد الجِياد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبى .

عَلىٰ طُـرُقٍ فيها عَلَى الطُّرْقِ رِفْعَــةٌ * وفِي ذِكْرِهَا عند الأَنِيس خُمُولُ !

ومَرَرْنا علىٰ مدينــة دَلُوكَ وهى رُسُوم سُكَّانها ، ضاحِكَةٌ عن تَبَسُّم أزْهارِها وقَهْقَهَةِ غُدْرانِها ، ذاتُ بُرُوجٍ مُشَـيَّدَه ، وأركانٍ مُوَطَّدَه ، ونيرانِ تَرَاوِيق مُوقَدَه ، فى عَمَــدٍ من كَنَائِسها مُمَدَّدَه ، وسِرْنا منها إلىٰ مَرْجِ الدِّيباج نَتعادَىٰ ، وذلك فى لَيْـلَةٍ ذاتِ أنْدِيَةٍ وإن لم تَكُن من جُمادَىٰ ، ظُلُماتها مُدْلَهِمَّه ، وطُرُقاتُها قد أصــبح أمْرُها عَلَيْنا غُمَّه ، لا يَثْبُتُ تُرْبُها تحت قَدَم المَـارّ ، وكأنَّمـا سَالِكُها يَمْشِي علىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فبِتْنا هُنالِك ليــلةً نَسْتَحْقِر بالنِّسْبة إلىٰ شِدَّتِها ليلةَ المَلْسُوع ، وتَتَمَنَّى العَيْنُ بهــا هَجْمَةَ هُجُوع ، وأخَذْنا فى آخْتِراق غَابَاتِ أشْجارٍ تُخْفِي الرَّفِيقَ عن رَفِيقه ، وتَشْغَلُه عن آقْتِفاء طَرِيقِه ، يَنْبَرِي منها كُلُّ غُصْنٍ يُرْسِله المتقدِّمُ إلىٰ وَجْهِ رَفِيقِه ، كما يَخْرُجُ السَّهْمُ بقُوَّةٍ من مَنْجَنِيقه ، حَوْلَها مَعاثِرُ أحْجارٍ كأنَّها قُبُور بُعْثِرَتْ ، أو جِبَالٌ تَفَطَّرَتْ ، بينها مَخَائِض ، لا بَلْ مَغَائِض ، كأنَّها بِحَارٌ فُجِّرَتْ ، ما خَرَجْنا منها إلا إلىٰ جِبَالٍ قد تَمَنْطَقَتْ بالجَداوِل وتَعَمَّمتْ بالثُّلوج ، وعُمِّيَتْ مَسالِكُها فلا أحدٌ إلا وهو قائِلٌ : فهَلْ إلىٰ خُرُوجٍ من سَبِيلٍ أو إلىٰ سَبِيلٍ من خُرُوج ، تَضِــيقُ مَنَاهِجُها بمَشْيِ الواحد ، وتَلْتَفُّ شَجَراتُها آلْتِفافَ الأكمام على السَّاعِد ، ذَاتُ أوْعَارٍ زَلِقه ، وصُــدُور شَرِقَه ، وأوْدِيَةٍ بالمُزْدَحِمِينَ مُخْتَنِقه ، بَيْنا يقولُ مُنْتَحِيها : قد نِلْتُ السَّماءَ بسُـلَّمٍ من هــذه الشَّواهِق ، إذا هُو مُتَضائِلٌ قد هَبَط فى مَأْزِقٍ مُتَضايِق ، لم تَزَلْ هــذه الجبالُ تأخُذُنا وتَرْمِينا ، وتلك المَسَارِبُ تَضُمُّنا وتِلْك المَشَارِب تُظْمِينا :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أَوْجُهِنَا ، * و[لا](١) تُسَوِّدُ بِيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ ،

(١)[وكانَ حَالُهما فى الحُكْمِ وَاحِدَةً * لَوِ آحْتَكَمْنا من الدنيا إلى حَكَمِ]

---

(١) الزيادة من ديوان المتنبي (ص ٤٢٠) .

وتَتْرُكُ المَـاءَ لا يَنْفَكُّ من سَفَرٍ * ماسَارَ فى الغَيْم منه سَارَ فى الأَدَمِ!

حتى وصلنا الحَـدَثَ الحَمْراءَ المُسَمّاة الآنَ بكينوك ومعنـاها المُحْرَقَة ، كان المَلِكُ قُسْطَنْطِينُ والِدُ صاحِبِ سِيسَ قد أخَذَها من أصحاب الرُّومِ وأحْرَقها ، وتَمَلَّكَها وعَمَرها ، بقَصْـدِ الضَّرر لبلاد الإسلام والتُّجّار . فلما كان فى سـنة ٱثنتين وسبعين وسَبْعِمائة سَيَّرَ مولانا السـلطانُ إليها عَسْكَرَ حَلَبَ فٱفتتحها بالسَّيْف وقَتَل من كان بها من الرِّجال وسَـبَى الحَرِيمَ والذُّرِّيَّة ، وخَرِبتْ من ذلك الحين ، وما بَقِيَ بها من يَكَادُ يُبِين ؛ فشاهَدْنا ما بَنىٰ سَـيْفُ الدَّوْلة بنُ حَمْدان منها والقَنَا تَقرعُ القَنَا ومَوْجُ المَنَـايا حَوْلها مُتَلاطِم ، وقيل حَقيقةً هُنـاك : علىٰ قَدْرِ أهْـلِ العَزْمِ تأْتِى العزائِم ؛ وهى التى عناها أبو الطَّيِّب بقوله :

غَصَبَ الدَّهْرَ والمُلُوكَ عَلَيهـا * فبَناهَا فى وَجْنَـةِ الدَّهْرِ خَالَا

فهِىَ تَمْشِى مَشْىَ العَرُوسِ ٱخْتِيَالَا * وتَثَنَّى عَلَى الزَّمانِ دَلَالَا !

فبِتْنا بها وٱبْتَنينا وخَيْلُنا مَبْثُوثَةٌ فوق الأحيـدب كما نُثِرَت الدَّراهِم فوقَ العَرُوس ، وجِيادُنا على الرُّكُوب فى أعْلَى العَيْنْ تَدُوس ؛ إذا زَلِقَت مَشَتْ كالأراقم على البُطُون ، و إن تَكاسَلَتْ جَرَّ بعضُها بعضًا بالصَّهِيل : «والحديثُ شُجُون» ؛ وخُضْنا فى أثْناء ذلك مَخَائِضَ سَوابِحَ ، كأنَّها لأجْل عَوْم الخَيْلِ بها سُمِّى كُلُّ منها لأجْل ذلك سَابِح ؛ كلّمـا قُلْنا : هذا بَحْرٌ قد قطعناه ٱعْترَضَ لنا جَبَل ، وكلَّما قُلْنا : هذا جَبَلٌ طَلَعناه بانَ لنا وَادٍ يُسْتَهانُ دُونَ الهُوِىِّ فيه نَفَادُ الأَجَل ؛ لم نَزَل كذلك حتّىٰ وصلنا كوكصوا(؟) وهو النَّهْر الأزرق ، وهو الذى رُدّ المَلِكُ الكاملُ منه سنة الدَّرْبَنْدات لمـا قصد التَّوجُّهَ إلى الرُّوم . وهذا النَّهر بين الجبال مَهْوىٰ رِجَامِها ، ومَثْوىٰ غَمامِها ، ومَلْوىٰ زِمَامِها ، ومَأوَىٰ قَتَامِها ؛ فَلِلْوقت عَبَرناه رَكْضا ، وأعْجلت الخَيْلُ فما دَرَتْ هل خاضتْ لُجَّةً أم قطعتْ

أرضًا، وباتَ الناسُ من بَرِّ هذا النَّهر الآخَرِ وأصبحوا مُتَسَلِّلينَ فى تلك الشُّم، ووَقْع السَّنابِك يُسْمَع من تِلْك الجبالِ الصُّم؛ حتَّىٰ وصلُوا إلىٰ أَقْجادربَنْد فما ثَبَتَتْ يَدُ فَرَس لمصالحة صَفَاها، ولا نَعْلُه لمكافحة رَحَاها، ولا رِجْلُه لمطارَحة قُواها؛ وتمرّنت الخَيْلُ علىٰ الاقْتِحام والازْدِحام فى التَّطَرُّق، وتعوّدتْ ما تعوّدتْه الأوعالُ من التَّسرُّب والتَّسَلُّق؛ فصارتْ تَحُطُّ انْحِطاطَ الهَيْدَب، وتَرتَفِعُ ارتفاعَ الكَوْكَب؛ وتَسْرى سَرَيانَ الخَيال، وتُمكِّن حَوافِرَها الجِيادَ فتزولُ منها الجِبَال؛ حتَّىٰ حصلَ الخروجُ من مُنْتهى أَقْجادربَنْد وهو خِنَاقُ ذلك المَأْزِق الذى كَمْ أمسكَ علىٰ طَارِق، وفَمُ ذلك الدَّرْبِ الذى كَمْ عَضَّتْ أنيابُه علىٰ مُساوِقٍ ومُسابِق؛ وذلك فى يوم الأربعاء ثامِنِ ذى القَعْدة، وبات السلطانُ والناسُ فى وَطْأَةٍ هناك، وسَحت السُّحُبُ بما شاءتْ من بَرْدٍ وبَرَد، وجاءت الرِّياحُ بما آلَمَتِ الجِلْدَ واسْتَنْفَدَتِ الجَلَد؛ وانتشرت العساكرُ فى وَطْأَةٍ هناك حتَّى مَلأَتِ المَفَاوِز، ومَلَكت الطُّرُقَ على المارِّ وأخذَتْها على الجائز؛ وقَدَّم مولانا السلطانُ الأميرَ شمسَ الدِّين سُنْقرًا الأشْقَر فى الجاليش فى جماعة من العساكر، فوقع علىٰ ثلاثة آلاف فَارِسٍ من التَّتار مُقَدَّمُهم كراى، فانهزَمُوا مِن بين يديه، وأخذ منهم من قُدِّم للسَّيْف السلطانِىّ فأكل نَهْمَته وأسَار، واستمرّتْ تلك سُنَّةً فيمن يُؤْخذ من التَّتارِ ويُؤْسر؛ وذلك فى يوم الخميس تاسع ذى القَعْدة .

وبات التَّتارُ علىٰ أجْمَل تَرْتِيبٍ لأنفسهم وأجْمَلِ مَنْظَر، وباتَ المسلمون علىٰ أتَمّ تَيَقُّظ وأعْظَمِ حَذَر؛ ولم يتحقَّقُوا قُدُوم مولانا السلطان فى جُيُوش الإسلام، ولا أنَّه حَضَر بنَفْسه النَّفِيسَة ليقومَ فى نُصْرة دِينِ الله هذا المَقَام . فلمَّا كان يوم الجمعة عاشرُ ذى القَعْدة تَتَابع الخَبَر بعد الخَبَر بأن القَوْم قد قَرُبوا، وأنهم تَأبُوا ووَثَبُوا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فى لَجَبٍ * أَنْ يُبْصِروه فلمَّا أبْصَرُوه عَمُوا !

وشَرَع مولانا السلطانُ فوصَّىٰ جُنُوده بالتَّثبُّت عنـد المَصْدَمَه ، والاجتماع عند المُصَادَمه ، ورتَّب جَيْشَ الإسلام اللَّجب ، علىٰ ما يَجب ، وأراهُم من نُورِ رأْيِه ما لا علىٰ بَصَرٍ ولا بَصِـيرةٍ يَحْتَجب ، فطلعت العساكرُ مُشْرِفَةً علىٰ صَخَراتِ هونى من بَلَد أَبُلُسْتَين ، وكان العدوّ لَيلَتَه تلك بائتًا علىٰ نَهْر زمان ، وهو أصْلُ نَهْر جَيْهان ، وهو نَهْر جَيْحَان المذكورُ فى الحديث النَّبَوىّ ، وإنَّما الأرْمَنُ لا تنطق بالهـاء .

فلما أقبل الناسُ من عُلْوِ الجَبَل شاهدوا المُغْل قد ترتَّبوا أَحَدَ عَشَر طَلَبا كلُّ طَلَبٍ يزيدُ علىٰ ألف فارِسٍ حقيقةٍ ، وعَزَلوا عَسْكَرَ الرُّومِ عنهم خِيفَةً مِنْهم ، وجَعَلُوا عَسْكر الكُرْجِ طَلَبًا واحدًا بمُفْرَده . ولمَّـا شاهدُوا سَناجِقَ مولانا السـلطان المنصورةَ ومَن حَوْلها من الممـاليك الظاهرية ، وعليهم الخُودُ الصُّـفْر المُقْترحه ، وكأنَّها فى شُـعاع الشَّمس نيرانٌ مُقْتَدحه ، رجَعُوا إلىٰ ما كانوا عَقَـدوا من العزائم فحَـلُّوا ، وسُقِط فى أَيْديهِمْ ورَأَوْا أنَّهمْ قد ضَلُّوا ، وأقبـل بعضُهم علىٰ بعضٍ يتساءلون ، وعلى المَوْت يَتَرَاسَلُون ، فانصبَّت الخَيْلُ إليهم من أعْلَى الجَبَل انصبابَ السَّيْل ، وبَطَلت الحِيلَةُ منهم ونُفِى الحَيْل ، فشَمَّروا عن السَّواعِد ، ووقفوا وَقْفَةَ رَجُلٍ واحد ، وهؤُلاءِ المُغْل كان طاغِيةُ التَّتارِ آبغا ــ أهلكه الله ــ قد اختارهم من كلِّ أَلْفٍ مائة ، ومن كل مائةٍ عَشَرة ، ومن كلِّ عشرةٍ واحِدًا لأجْلِ هذا اليوم ، وعَرَّفهم بسِيمَا الشَّجاعَةِ وعَرَضهم لهذا السَّوْم ، وكان فيهم من المقَدَّمين الكِبَار تدلون ، ومعنىٰ هذا الاسم النَّفَّاذ ، يعنى أنه ما كان فى عَسْكرٍ قطُّ إلا نَفَّذه ، والمقدَّمُ الآخر توا (؟) وإليـه أمْرُ بلاد الروم وعَسَاكِرِ المُغْل بهـا ، وأرختوا أخو تدلون ، وبهادر بخشى . ومن مُقَدَّمى الأُلُوف دنرك ، وصِهْر آبغا ، وقراق وخَوَاصُّه :

بِيضُ العَوَارِض طَعَّانُونَ مَن لَحِقُوا * من الفَوَارِس شَـلَّالُون للنِّعَمِ !
قَــدْ بلَّغُوا بقَنَاهُم فوق طَاقتِـه * وليس يَبْلُغُ مافيهـم من الهِمَمِ .

فى الجَاهِلِيَّــةِ إلّا أنَّ أنفُسَهمْ * من طِيبِهِنَّ به فى الأشْهُرِ الحُرُمِ!

فعِنْد ما شاهَدُوا نَجْد الملائكه، وتَحَقَّقُوا أن نُفُوسهم هَالِكَه؛ أخْلَدتْ فِرْقةٌ منهم إلى الأرْض فقاتَلَتْ، وعاجَتِ المَنَايا علىٰ نُفُوسهم وعَاجَلَت؛ وباعَت نُفوسُ المسلمين لهم وتاجَرَتْ، وكَسَرت وما كَاسَرَتْ؛ وجاء الموتُ للعَــدُوِّ من كلّ مَكَان، وأصبح ما هناك منهــم وقد هَــان؛ وللوقت خُذِلُوا وجُدِّلُوا، ولبُطونُ السِّــباعِ وحَوَاصِل الطُّيور حُصِّلوا؛ وصارُوا مع عَدَم ذِكْرِ الله بأفواههم وقُلُوبهم، يقاتلون قِياماً وقُعُودا وعلىٰ جُنُوبِهم؛ فكَمْ من شُجاعٍ ألْصَق ظَهْره إلىٰ ظَهْرِ صاحِبِه وحَامىٰ، وناضَلَ ورَامىٰ؛ وكَمْ فيهم من شَهْم، ماسَلَّم قَوْسَه حتَّىٰ لم يَبْقَ فى كِنَانَتِه سَهْم؛ وذِى سِنٍّ طارَحَ به فمــا طَرَحه حتَّىٰ تَثَلَّم، وذِى سَيْفٍ حادثه بالصِّقال فمــا جَلَىٰ مُحادَثَة حتى تكَلَّم؛ وأبانوا عن نُفُوسٍ فى الحَرْب أبِيَّه، وقُلُوبٍ كافِرَةٍ ونَخْوةٍ عَرَبِيَّه؛ وآشْتدَّتْ فِرْقَةٌ من العَدُوِّ من جِهَــةِ المَيْسَرَةِ مُعَرَّجِينَ على السناجق الشريفــة من خَلْفها، مُنْقلِبين بصُفُوفِهم علىٰ صَــــفِّها :

فــلَزَّهُم الطِّــرَادُ إلىٰ قِتــالٍ * أحَدُّ سِلاحِهم فيه الفِرَارُ!

فثَابَ مولانا إليهم، ووَثَب عليهم، فضَحَّىٰ كُلٌّ منهم بكلِّ أشْمَط، وأفْرىٰ الأجْسادَ فأفْرط؛ ولَحِقَ مولانا الســلطانُ منهم من قَصَــد التَّحْصِينَ بالجِبال فأخذهم الأخْذَة الرَّابِيَه، وقتلهم فهل ترَىٰ لهم من بَاقِيَه ؟ :

وما الفِرَارُ إلى الأجْبَالِ من أسَدٍ * تَمْشِى النَّعامُ به فى مَعْقِل الوَعِلِ؟

وآنهزمت جماعة يسيرةٌ طَمِع فيها من العَوامّ من كان لايَدْفع عن نَفْسه، وأخذتهم المَهَاوِى فمــا نجا منهم إلا آيِسٌ من حَياةِ غَدِه فى أمْسِه .

مَضَوْا مُتَسَابِقِى الأعضاءِ فيه * لِأرْؤُسِهــمْ بأرْجُلِهم عِثَارُ

إذا فاتُوا الرِّماحَ تناولَتْهُـمْ * بأرْماحٍ من العَطَشِ القِفَارُ!

وقصدتْ مَيْمنةَ عَسْكرِنا جماعةٌ من المُغْلِ ذَوُو بَأْسٍ شديد، فقاتَلهم المسلمون حتَّى ضَجِرَ الحديدُ من الحديد؛ وكان مولانا الصاحبُ زَيْنُ الدِّين - حرس الله جلالَه - لما دُعِيتْ نَزَالِ أَوّلَ مُسابِق، وأَسْرعَ رَاشِق؛ وأقْرَبَ مُطاعِن، وأعْظَمَ مُعاوِن؛ فذَكَرَ مَن شاهده أنه أَحْسَن في مَعْرَكته، وأجْمَلَ في كَرَّته، وأجاد في طَعْنته؛ وزَأَرَ زَئِيرَ اللَّيْث، وسابَق حتَّى لم يَبْقَ حَيْث؛ ووقف دَرِيئةً للرِّماح من عَنْ يَمِينه وشِمَالِه، وخَضَّب بما تحَدَّر من دَمِ عَدُوِّه أَكْنَافَ سَرْجِه وعِنَانَ لِجَامِه، وكانتْ عليه من الله باقِيَةٌ واقِيَةٌ في تَقَدُّمه وإقْدامه؛ وشاهَدْناه وقد خَرَج من وَسَطِ المَعْرَكةِ وهو شَاكِي السِّلاح، وقد أَخَذَ نَصِيبَه ونَصِيبَ فَرَسه من سَالمِ الجِراح؛ وأراد اللهُ أن لايُخْلِيَه من إسالَةِ دَمٍ يُعَظِّمُ اللهُ الأجْرَ بسائِله، فجَعله - والمِنَّةُ لله - من بَعْضِ أطْرافِ أنامِله.

ولقد ذكر الأميرعزُّ الدِّين أَيْدَمر الدَّوادَار الظَّاهِرِيّ، قال: لَقِيتُني وقد تكَسَّر رُمْحِي، وعادَ - لولا لُطْفُ اللهِ - إلى الخَسَـارة رِبْحِي؛ فأعطاني المَوْلَى الصاحبُ زَيْنُ الدِّينِ رُمْحه فإذا فيـه نُصُول، وبسِنِّه من قِرَاعِ الدَّارِعِين فُلُول؛ ورأيتُ دَبُّوسَ المَوْلَى الصاحِبِ زَيْنِ الدِّين وقد تثَـلَّم، وكان الخوفُ عليه في ذلك اليوم شَـدِيدًا ولكنَّ اللهَ سَـلَّم؛ ولقد بَلَغ مولانا السـلطانَ خبرُه فسأله فما أجابه بغيرأنْ قال: سَيْفُ مولانا السلطانِ هو الذي سَفَك، وعَزْمُه هو الذي فَتَك.

ومَنْ يَكُ محفُوظًا من اللهِ فَلْتَكُنْ * سَلامَتُه ممَّنْ يُحاذِرُ هٰكذا،

ويَخْرجُ من بين الصُّفُوفِ مُسَلَّمًا * ولا مَنَّ يُبْدِيه ولا نَالَه أَذَى!!

وأما العَدُوّ فتقاسمتِ الأيْدِي مايَمْتَطونَه من الصَّوَاهِلِ والصَّوَافِن، وما يَصُولُون به من سُـيوفٍ وقِسِيٍّ وكَنَائِن، وما يَلْبَسُونَه من خُوذٍ ودُرُوعٍ وجَواشِن، وما يَتَموَّلُونه

من جَميع أصناف المَعادن ؛ فغُنِم ماهُنَالِك ، وتَسَلَّم من ٱسْتَشهد من المُسلمين رِضْوانُ وتَسَلَّم من قُتِلَ من الكُفَّار مَالِك .

وكان الذين ٱسْتَشْهدُوا فى هذه الوَقْعةِ من المُقَدَّمين : شرفُ الدِّين قيرانُ العَلَائىُّ ، وعِزُّ الدِّين أخُو الأمير جَمالِ الدِّين المُحَمَّدىّ . ومن المماليك السلطانية : شَرَفُ الدِّين فلحق(؟) الجَاشَنْكير الظَّاهِرىُّ ، وأَيْبَكُ الشَّقِيفِىُّ الذى كان وَزِيرَ الشَّقِيف . وكان المجروحون عِدَّةً لطيفةً لم يُعْلَم عَدَدُها لقِلَّتها ، بل لخِفَّتِها ؛ وأورثَ اللهُ المسلمين مَنَازِلَهم فنزلوها ، وطَاقَاتِهم وخَرْكاوَاتِهم فتموَّلُوها ؛ وكان مولانا السلطانُ وكان أعداؤُه كما قيل :

فَمَسَّاهُــمْ وبُسْــطُهم حَرِيرٌ ، * وصَبَّحَهمْ وبُسْطُهُم تُرَابُ ! !

وأصْــبَح الأعداءُ لا تُرَىٰ إلا أشْــلَاؤُهم ، ولا تُبْصَر إلا أعياؤُهم ؛ كأنَّمــا جَزَرُ أجْســادِهم جَزَائِرُ يتخَلَّلُها من الدِّماء السَّــيْل ، وكأنَّمــا رُءوسُهم المجموعةُ لَدَى الدِّهْليز المَنْصورِ أُكَرٌ تلعبُ بها صَوَالِجَةٌ من الأيْدى والأرْجُلِ من الخَيْل :

أَلْقَتْ إلينا دِماءُ المُغْــلِ طَاعَتَها * فلو دَعَوْنا بلا حَرْبٍ أجابَ دَمُ !

فكَمْ شاهدَ مولانا السلطانُ منهم مَهِيبَ الهَامَه ، حَسَن الوَسَامَه ، نُتَفرَّس فى جَهَامةِ وَجْهِه الفَخامه ، قد فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فقرَع السِّنَّ على الحقيقة نَدَامَه :

ووُجُوهًا أخَافَها منكَ وَجْهٌ * تَرَكَتْ حُسْنَها له والجَمَــالا !

أو كما قيــل :

لا رَحِـــم اللهُ أرْؤُسًا لَهُــمُ[(١)] * أطَرْنَ عَن هَامِهِنَّ أَقْحَــافَا !

وأقبل بعضُ الأحْياءِ من الأسَارَىٰ على الأمْواتِ يتَعارفُون ، ولأخْبار شَجاعَتِهــم يتَواصَفُون ؛ فكَمْ من قائل : هٰذا فلانٌ وهٰذا فلان ، وهٰذا كانَ وهٰذا كان ؛ وهٰذا

(١) فى ديوان المتنبى "لا يرحم" .

كان يُحَـدِّثُ نَفْسَه بأنه يَهزِمُ الألُوف، وهٰـذا يُقرِّر فى ذِهْنِه أنه لا تَقِفُ بين يَدَيْه الصُّفُوف، وكَثُرت الأسارَىٰ من المُغْلِ فاختار السلطان من كُبَرائِهم البَعْض، وعَمِل فيهم بقَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾. فجعلهم للسُّـيوف طُعْمَه، وأحْضِرَتِ الأسَارَىٰ من الرُّومِ فترقَّبَ مولانا السُّـلطانُ فيهم الإِلَّ والذِّمَّـــه :

وما قَتَـــلَ الأَحْرارَ كالعَفْوِ عَنْهُمُ، * ومَنْ لَكَ بالحُرِّ الذى يَحْفَظُ اليَدَا!

وكان فى جمـلة الأسارَىٰ الرُّوميِّين مُهَذَّبُ الدين بكلارنكى، يَعْنى أميرَ الأمَرَاء ولَدُ البرواناه، ونُورُ الدِّين جاجا أكبرُ الأمراء، وجماعةٌ كثيرةٌ من أمَرَاءِ الرُّوم ومُقَدَّمِى عساكره، فكان البرواناه أحَقَّ بقولِ أبى الطَّيِّب :

نَجَـوْتَ بإحْدَىٰ مُقْلتيك جَريحَـةً * وخَلَّفْتَ إحْدَىٰ مُهْجَتَيكَ تَسيلُ!

أتُسْـــلِمُ للخَطِّيَّـــةِ ٱبْنَـكَ هَارِبًا * ويَسْكُنُ فى الدُّنْيا إليـكَ خَليلُ؟

لأنه شَمَّرَ الذَّيْل، وٱمْتطَىٰ ـ هَرَبًا ـ أشْهَبَ الصُّبْح وأحْمَرَ الشَّفَقِ وأصْفَرَ الأصِيل وأدْهَمَ اللَّيل، وثَمَّ يُخْبِر من خَلْفه بمَـا تَمَّ، وهَمَّ قلبه رَفِيقَه حِينَ هَمّ :

فنَحْنُ فى جَذَلٍ، والرُّوم فى وَجَلٍ، * والبَرُّ فى شُغُلٍ، والبَحْرُ فى خَجَلٍ!!

ودَخَل البرواناه مَدينــةَ قَيْصَرِيَّةَ فى تاريخ يوم الأحَدِ ثانى عشر الشَّهْر المذكور، فأفْهَم غِياثَ الدِّين سُلطانَها، والصاحِبَ فَخْرَالدِّين بن مملا (؟) والأتابِكَ مَجْدَالدِّينِ، والأميرَ جلالَ الدِّين المُسْتَوفِى، والأميرَ بَدْرَ الدِّينِ ميكَائيل النَّائب، والأميرَ فُلانَ الدين الطُّغْرائِى، وهو وَلَد عِزِّ الدينِ أخِى البرواناه، وهو الذى يكتُبُ طُرَرَ المناشير ـ أنَّ المســلمين كَسَرُوا بعضَ المُغْلِ وبَقِيتُهم مُنْهزِمُون، ويُخْشَىٰ منهم دُخُولُ قَيْصَرِيَّة وإتْلافُ ما يكون بهــا فى طَرائِفهم حَنَقًا على الإســلام . فأخذهم جرائد، وأخَذَ

زَوْجَته كُرْجِى خَاتُون بْنَت غِيـاثِ الدِّين صاحِبِ أرْزَن الرُّوم، فاستصحبتْ معها أربعمائة جَارِيةٍ لها، وكان لها مالا كان لصاحبِ الرُّوم من البَخَاتِىِّ والخِيَامِ والآلَاتِ، وتوجهوا كلهـم إلىٰ جربه توقات (؟) وهو مكانٌ حَصِينٌ مسـيرةَ أربعـةِ أيامٍ من قَيْصَرِيَّة . ولمـا خرجوا من قَيْصرِية حَمَلَهـم علىٰ سُرْعة الهَرَب، وأنْذَرهم عذابًا قد اقْترب؛ وهَوَّلَ على بَقِيَّة أمَرَاء الرُّوم فاتَّبعُوه إلا قليلا منهم، وأخْفَى البرواناه أمْرَه وأمْرَ من معه حتَّىٰ ولا مُخْبِر يُخْبِر عنهم .

وكان مولانا السلطانُ قد جَرَّد الأميرَ شَمْسَ الدِّين سُنْقرًا الأشْقَر فى عَدَد مُسْتَظْهِرًا به لإدراك من فات من المُغْل، فَمَرُّوا فى طريقهم بفِرْقةٍ معها بُيُوتهم فأخذ منها جانبًا؛ ودخلَ عليهم اللَّيـل فمرَّ كلٌّ فى سِرْبِه ذاهِلًا ذاهبا . ورحلَ مولانا السلطانُ فى بُكْرة السَّبْتِ حادى عشر ذى القَعْدة من مكان المَعْركةِ ، فنزل قَرِيبَ القريةِ المعروفة بريَّان، وهذه القريةُ قَريب الكَهْفِ والرَّقِيم حَقِيقة، لا ما يقالُ : إنه قَرِيبُ حُسْبَانَ من بلاد البَلْقاءِ ، وقريبًا منه صَلْدٌ من الصَّفَا عليه كِتَابةٌ بالرُّومِيَّة أو غيرها من الخَطِّ القَدِيم . وأما القَرْية المذكورةُ المسماةُ بريَّانَ فانَّ بيوتَهـا بُنِيتْ حَوْل سِنِّ جَبَلٍ قائم كالهَرَم إلا أنَّه مَلْمُوم، وعُمِّرت البُيُوت فى سَفْحِه حَوْله بَيْتًا فوق بَيْتٍ فبـدَتْ كأنها مَجَرَّةُ النُّجوم؛ وما من بَيْتٍ منهـا إلا وبه مَقَاعِدُ ذوات درابزينات مَنْجُوره ، ورَوَاشِنَ قد بَدَتْ فى أكملِ صُوَره؛ يختمُها من أعلاها أحْسَنُ بُنْيان، ويَعْلُوها من رأسها مَنْزِلٌ مُسَنَّم الرأس كما يعلو الصَّعْدَةَ السِّنان؛ وتطوفُ بهذه القَرْيةِ جبالٌ كأنَّها أسْوارٌ بل سِوارَ، وكأنَّها فى وَسَطِها إناءٌ فيه جَذْوةُ نار؛ ويتفرَّعُ منها أنهـار، هى فى تلك الأوْدِيةِ كأنَّها بهبُوطها كَثِيبٌ قد انْهار؛ ذَواتُ قَنَاطر لاتَسَـعُ غير راكب، ومَضَايِقَ لا يُلْفَىٰ عَبْرها لناكب؛ قَدَّر اللهُ أنَّ العساكر خَلَصتْ منهـا ولكن بعد مُقَاساةِ الجُهْـد، وخرجتْ وقد رَقَّ لهـا قلب كلِّ وَهْـد؛ ونزلنا قريبًا منهـا حتَّىٰ

تَخَلَّص من تَخَلَّص ، وحَضَر من كان فى المَضَايِق قد تَرَبَّص ، وقال : كُلُّ الأرض حَصْحَص .

ورَحَلْنا من هناك فى يوم الأحَدِ ثانى عشر شَهْر ذى القَعْدة وكانت السماءُ قد حَيَّتِ الأرضَ بثِجَانِ أمْطارِها ، وأغْرقَتِ الهَوامّ فى أجْحـارِها ، والفُتْخَ فى أوْكارِها ؛ وأصبحتِ الأرضُ لا تَمَاسَكُ حتَّىٰ ولا لمُرورِ الأَراقِمِ ، والجبالُ لا تمـاسَك أن تكونَ للعِصَم عَواصِم ؛ تَضَع بها من الدَّواب كلُّ [ذَاتِ] حَمْـل ، وتَزْلَقُ فى صَقِيلها أرْجُلُ النَّمْل ؛ وسِرْنا علىٰ هذه الحالة نَهارنَا كلَّه إلىٰ قريب الغرُوب ، وقَطَعناه بتَسلُّمنا أيْدى الدُّروب من أيْدى الذُّؤوب ؛ ونزلنا عِشاءً فى مُنْتقعِ أرضٍ تَطُوف بها جِبَالٌ شَاهِقَه ، ومِياهٌ دَافِقَه ؛ تُعرف قاعَةُ تلك الأرضِ بوطأة قشلا وسار (؟) من أعمال أصاروس العَتِيق . ويَقْرب من تلك الجِهَةِ مَعْدن الفِضَّة .

وبينما نحنُ قد شَرَعنا فى أُهْبَة المَبِيت ، ولم نَقْض الشَّمْل الشَّتِيت ، وإذا بالصَّادِح قد صَـدَح ، والنَّذِيرِ قد سَـنَح ؛ رافِعًا عَقيرتَه بأن فَوْجًا من التَّتَـار فى بَخْوةٍ هنالك قد اسْـتَتروا ، وفى نَجْوةٍ لِغرَّةٍ قد انْتَظروا ؛ فركِبَ مولانا السلطان ورَكِب الناسُ فى السِّلاح ، وعَزَموا على المَطَارِ فعاقَهُم تَتَابُعُ الغَيْثِ وكيفَ يَطِير مَبْلولُ الجَنَاح ؟ ؛ ثم لطفَ اللهُ وعاد مولانا السلطانُ وهو يقول للناس : ، لاباس ؛ فنِمْنا نومةَ السَّلِيم ، وصـدرت أفكارنا شاغِرَةً فى كلِّ وَادٍ تَهِيم ؛ وأصبَحنا فسَـلَكْنا جِبالًا لا يحيطُ بهـا الوَصْف ، وتَنْبَسِط عَذْراءُ الطَّرْف فيها حينَ يَكْبو فيها الطِّرْف ؛ نَنْحَطُّ منها إلىٰ جَنَادِل ، يَضْعفُ عن الهُوِىِّ إليها قَوِىُّ الأجَادِل ؛ بَيْنا نَقولُ : قد أحْسَن الله لهـا نَفَادًا ومنها نَفَاذا ، وإذا بعد الأوْدِيةِ أوْدِيةٌ وبَعْـد الجِبالِ جِبالٌ نشكُرُ عند ذاكَ هٰذه وذاك عند هٰذا ؛ ومررنا علىٰ قرية أوتراك ، وتحتها قَنَاطِر وخَانٌ من حَجَرٍ منْحوت ، ثم خان آخَر

للسَّبِيل علىٰ رَأْس رابِيــةٍ هناك تعرف باشيبدى ، قَرِيبًــا من حِصْن سَمَنْدُو ، التى عَرَّض بها أبو الطَّيِّب فى قوله :

فإنْ يُقْدِمْ فقدْ زُرْنَا سَمَنْدُو * وإن يُحْجِمْ فمَوْعِدُه الخَلِيجُ!

وكان مولانا السلطانُ قد سَيَّر إليها خواصَّه بكِتَابٍ إلىٰ نائبها فقبِلَه وقبَّله ، وأذْعَن لتَسْليم حِصْنِها المَنِيع وللنُّزولِ لأمْرِ السلطانِ عنها إن ٱسْتَنْزله ؛ فشَكَر مولانا السلطانُ له تلك الإجابَه ، ووفَّاه من الشُّكْر حِسَابَه . وكذلك إلىٰ قَلْعــةِ دوندا وإلىٰ دوالوا ، فكلُّهــم أجابُوا وأطاعُوا ولكَلِمةِ الإذْعانِ قَالُوا ؛ ونَزَلْنا فى وَطْأةٍ قريبَ قَرْيةٍ تعرفُ بجمرها ، وكان الناسُ قد فرغَتْ عُلوفَاتُ خَيْلِهِم أو كادَتْ ، والخَيْــلُ قد باتتْ ليالىَ بلا عَلِيقٍ فمــا ٱسْــتَفَادتْ ، وشارَكَتْها خيولُ الكسوب(؟) فى عَلِيقها ، وما ساعَدَتْها فى طُرُوقها ولا فى طَرِيقِها ؛ فضَعُفَتْ عن حَمْلِ نُفُوسها فمــا ظَنُّك براكِبِيها ، وكاد الفارِطُ ــ لولا لُطْفُ اللهِ عزَّ وجلَّ ــ أن يفْرِطَ فيها ؛ فصادَفْنا فى هذه اللَّيلة بعضَ أتْبانٍ أمسكت أرْماقَها ، وأحْسنَتْ إرفادَها و إرفَاقَها .

وأصبحنا فى يوم الثُّلاثاء رابعِ عَشْر ذى القَعْدة راحلين فى جِبالٍ كأنها تلك الأُوَل ، وهابِطِينَ فى أوْدِيةٍ يَتَمَنَّى سَالِكُها من شِــدَّةِ مَضايِقِها أن لو عاد إلىٰ تَرَقِّى أعلىٰ جَبَــل ؛ وما زِلْنا كذلك حتَّىٰ أشْرَفْنا علىٰ خانٍ هناك يعرف بقرطاى يَدُلُّ علىٰ شَرَفِ هِمَّــة بَانِيه ، وطَلَبِ ثَوابِ اللهِ فِيــه ؛ وذلك أنه من أكْبَر الأبنية سَــعَةً وٱرْتِفاعا ، وأحْسَــنِها شَكْلًا وأوْضَاعا ؛ كلُّه مَبْنِىٌّ بالحَجَر المَنْحوت المَصْــقول الأحْمَر الذى كأنَّه رخام ، ومن ظاهرِ أَسْوارِه وأرْكانِه نُقُوشٌ لا يتمكن أن يرسم مِثْلُها بالأقلام ؛ وله خَارِجَ بَابِه مثــلُ الرَّبَض ببــابَيْنِ بأسْوارٍ حَصِينَة ، مُبَلَّط الأرض ، فيه حَوانِيت . وأبوابُ الخان حَدِيدٌ من أحْسَنِ مايمكن ٱستعماله . ودَاخِلَه أوَاوِينُ صَيْفِيَّه ، وأمْكِنةٌ

شَتْوِيَّه ، و إصْطَبْلاتٌ علىٰ هذه الصورة لا يُحْسِنُ الانسان أن يُعَبِّر عنها بكَيْف ، وما منهـا إلا ما يَجِـدُه الانسانُ رِحْلةً للشِّتاءِ والصَّيْف ؛ وفيه الحَمَّـام والبِيمارِسْتانُ والأَدْوِيةُ والفَرْش والأَوَانى والضِّيافةُ لكلِّ طارقٍ علىٰ قَدْرِه، حُمِـلَ لمولانا السلطان من ضِيَافَتِه لمَّـا مَرَّ عليه، وكثر الناسُ فمـا وَصَل أحدٌ إليها ولا إليه ؛ وعليه أوقافٌ عَظِيمة ، وضِيَاعٌ كثيرةٌ حَوْله وفى غيره من البِلاد ، وله دَوَاوِينُ وكُتَّابٌ ومُباشِرُون يَتوَلَّوْن آستخراجَ أمْوالِه والإنْفاقَ فيه ، ولم يَتعَرَّض التَّتار إلىٰ إبْطالِ شَىْءٍ من رُسُومِه، وأبْقَوْه علىٰ عَوَائِد تكْرِيمِه، وأهْلُ الرُّوم يبالغون فى تَبْجيل بَانِيه ـ رحمه الله ـ وتَعْظِيمه ؛ ونَزَلْنـا تلك اللَّيـلةَ قَرِيبَ قَرْيةٍ تقربُ من قَيْصرِيَّةَ من حُقُوق وَادِى صلعومة شَرْقِىَّ الجَبَلِ المعروفِ بعَسِيب، وفيه قَبْرُ آمرِئ القَيْس الشاعر ... ...

أجارَتَنـا إنَّ الخُطُوبَ تَنُـوبُ، * وإنِّى مُقِــيمٌ ما أقام عَسِيبُ،
أجارَتنـا إنَّا غَرِيبانِ هَاهُنا * وكلُّ غَرِيبٍ للغَرِيب نَسِيبُ ! !

وهــذا الجَبَل يعلُوه جَبلُ أرجاس ، وهو الذى يَضْرِب الرُّوم الأمثالَ بتَسَامِيه، وتَتَضاءَلُ الجبـالُ فى جميـع الدُّنيا لتعَالِيه ؛ لا تُسْـحبُ ذُيولُ السَّحائِب إلا دون سَفْحِه ، ولا يُعرفُ من ثُلُوجِه شِتَاءً وصَيْفًا ومن مثال الأبخرة المُتَصعِّدةِ منه عِشَاؤُه من صُـــبْحِه .

ولمـا كان يومُ الأربعاء منتصـف ذِى القَعْدة ، وهو يومُ شَرَف الزُّهَرَةِ رَكِبت العساكرُ المنصورةُ مُتَرتِّبَـه، ومـلأتِ الفَضاءَ مُتَسَرِّبه ؛ وركب مولانا السـلطانُ فى زُمْرته، وذَوِى أَمْرِه وإمْرَته ؛ يختالُ جَوادُه فى أفْسَح مَيْدان، ويَصِيحُ به فَرَحًا ومَرَحًا كأنَّه نَشْوان دَرَىٰ أنه سُلطان :

تَظَلُّ ملوكُ الأرضِ خَاشعةً له * تُفَـارِقُه هَلْكَىٰ وتَلْقَاه سُجَّدًا !

وخرج أهْلُ قَيْصرِيَّة وأكابِرُها، وعُلماؤُها وزُهَّادُها وتُجَّارُها، ورعَايَاها ونِسَاؤُها وصِغَارُها؛ فأكْرَم مولانا السلطانُ مَمْشاهُم، وشكَرَ مَسْعاهم؛ وتلقَّىٰ قُضَاتَهم وعُلَماءَهم رُكْبانا، وحادثَهم إنْساناً فإنْسانا؛ وحَصَلتْ لجماعةٍ من الفقراء والناسِ حالاتُ وَجْدٍ مُطْرِبه، وصَدَحاتُ ذِكْرٍ مُعْجِبَه. وكان دِهْلِيزُ السلطانِ غياثِ الدِّين صاحبِ الرُّوم وخِيامُه وشِعارُ سَلْطنةِ الرُّوم قد بنى جميع ذلك فى وطأة قريب الجَوْسَق والبُسْتانِ المعروفِ بكيخُسْرَوْ، وترجَّلَ النَّاس على آختلاف طَبَقاتِهم فى الرِّكابِ الشَّريفِ من مَلِكٍ وأمَّةٍ ومأمُورٍ وأَمِير، وآرتفعتِ الأصواتُ بالتَّهْلِيلِ والتَّكْبير:

رَجَا الرُّومُ من تُرْجَى النَّوافِلُ كُلُّها * لَدَيْهِ ولا تُرْجَىٰ لَدَيْهِ الطَّوَائِلُ!

ونزل مولانا السلطانُ فى تلك المَضَارِب المُعَدَّةِ لكَرَم الوِفَادَه، وضُرِبتْ نَوْبَةُ سَلْجُوقَ علىٰ باب دِهْلِيزِه على العَادَه؛ وأذِنَ مولانا السلطانُ للناسِ فى التقرُّب إلىٰ شَرِيفِ فُسْطاطِه، وشَمِلهم بنَظَرِه وآحْتِياطِه؛ وحضر أصحابُ المَلاهِى، فما ظَفرُوا بغَيرِ النَّواهِى؛ وقيلَ لهم: آرْجِعُوا وراءَكُم فالْتَمِسُوا، وآذْهَبوا إلىٰ وادٍ غيرِ هذا الوَادِى فآقْتَبِسُوا؛ فهذه الهناة لا تَنْفُقُ هُنا، وما هذا مَوْضِعُ الغِنَاءِ بَلْ هذا مَوْضِعُ الغِنىٰ؛ وشرعَ مولانا السلطانُ فى إنْفاقِ اللُّهَىٰ، وعَيَّن لكلِّ جِهَةٍ شَخصًا وقال: أنتَ لها؛ وحَكَمَ وحَكَّم، وعَلِمَ وعَلَّم؛ وآعتمد على الأمير سَيْفِ الدِّين جاليش فى النِّيابه، وأعطىٰ كُلًّا بيمينه كِتَابَه؛ وأقام الحُجَّةَ علىٰ من آنْتَزَح بالآسْتِعْطاف، وتأْمِينِ مَنْ خَاف؛ فما خرج كَبِيرُهم عن المُخاتَله، ولا زَعِيمُهم عن المُطَاوَله؛ فلمَّا علم مولانا السلطانُ أنهم لا يُفْلِحُون، ولغيرِ التَّتَارِ لا يَصْلُحُون؛ وأنَّهم إن أصْبَحُوا على الطاعة لا يُمْسُون وإن أَمْسَوْا لا يُصْبِحُون؛ عاد عن تلك الوُعُود، وآختار أن ما بَدَأَ إليه يَعُود، وأن يبعَثَ نَفْسَه إلىٰ ما بعثه اللهُ إليه من المَقَام المحمود؛ فركب يومَ الجُمُعة سابِعَ عَشَر

ذى القَعْدة مستقبلًا من الله كلَّ الخَيْر ، ونَصَب چَتْر بَنِى سَلْجوقَ علىٰ رَأْسه فشاهدَ النـاس منه صَاحِبَ القُبَّةِ والسَّبع وصاحِبَ القُبَّة والطَّير ؛ ودخلَ قَيْصرِيَّة فى بُكْرة هـذا اليوم وكانتْ دار السـلطنةِ قد فُرِشَتْ لنُزوله ، وتَخْتُ بنى سَلْجُوقَ وقد هُيِّئَ لحُلُوله ؛ وهى دارٌ تَزْهو ، ومنازلُ من يَتعبَّدُ أو مَنَازِهُ من يَلْهو ؛ أنيقَةُ المُبْتَنىٰ ، تحفُّ بهـا بَساتِينُ عَذْبَة الجَنىٰ ؛ جُدْرانُها بأحْسَنِ أصناف القَـاشَانِىِّ مُصَفَّحَه ، وبأجْمَلِ نُقُوشِه مُصَرَّحه ؛ فجلس مولانا السـلطانُ فى مرتبةِ المُلْك فى أسْـعدِ وَقْت ، ونال التَّخْت بحلولِهِ أسْعَدَ البَخْت :

وما كان هٰذا التَّخْتُ من حين نَصْبِه * لغَيْرِ المَلِيكِ الظَّاهِرِ النَّدْبِ يَصْلُحُ .
مَليـكٌ على آسْمِ الله ما فَتَحَتْ له * صَوَارِمُه البِيضُ المَواضِى وتَفْتَحُ .
أتَتْـهُ وُفُود الرُّومِ والكُلُّ قَائِلٌ : * رَأيْناكَ تَعفُو عن كَثـيرٍ وتَصْفَحُ .
فَأوْسَـعَهم حِلْمًـا وجَادَ لهم نَدًى * وأمْسَوْا علىٰ مَنٍّ وأمْنٍ وأصْبَحُوا .
ولَو أنَّهـم لم يَجْنَحُوا لمَنَـكَّبٍ * عن الحَقِّ والنَّهْجِ القَوِيم لَأَفْلَحُوا ،
ولٰكِنَّهـمْ أعطوا يَدًا فَوْقَهـا يَدٌ * تُصافِحُ كَفًّا زَنْدُها النارَ يَقْدَحُ ! ! !

وأقبـل الناسُ علىٰ مولانا السلطانِ يُهنِّؤُونَه ، وعلىٰ كَفِّه الشريف يُقبِّلُونه ؛ وبعد ذلك حضرتِ القُضاةُ والفُقَهاء والعُلماءُ والصُّوفيَّة وذَوُو المَرَاتِب من أصحاب العَمائِم علىٰ عادة بنى سَلْجُوق فى كلِّ جُمُعة ، ووَقَف أميرُ المَحْفِلِ وهو كَبِيرُ المِقْدارِ عندهم ، له وَسامةٌ ونَخَامَه ، وله أكْبَرُ كُمٍّ وأوْسَعُ عِمامَه ؛ وأخَذَ فى ترتيب المَحْفِلِ علىٰ قَدْرِ الأقْدار ، وآنتصبَ قائمًا بين يَدَىْ مولانا السلطانِ مُنْتظِرًا ماإليه به يُشَار ؛ وشرع القُرَّاءُ يقرءُون جَميعًا وفُرَادىٰ بأحْسَنِ تَلْحِين ، وأجْمَل تَحْسِين ؛ فأتَتْ أصواتُهم بكلِّ عَجِيب ، وعَدَلوا عن التَّرْتِيل إلى الترتيب . ولمـا فَرَغوا شَرعَ أميرُ المَحْفِلِ صَارِخا ، وبكُورِ فَمِه نَافِخا ؛

فأنشد وأورد بالفارسية ما يعجب مدلوله، ويهول مقوله؛ وأطال وما أطاب، واستصوب من يعرف مقاله قوله، والله أعلم بالصواب .

ولما انقضى ذلك مدّ سماطٌ ليس يناسب همم الملوك، فأكل الناس منه للشرف لا للسرف، ثم عاد كلٌّ منهم إلى مقامه فوقف؛ وقام مولانا السلطان إلى مكان الاستراحة فأقام ساعةً أو ساعتين، ثم خرج إلى مخيمه قرير العين؛ وكان بدار الملك حرم السلجوقية قد أصبحوا لا ترى إلا مسكنتهم ومساكنهم، قد نبت بهم مواطئهم ومواطنهم؛ على أبوابهم أسمال ستورٍ من حرير، ومشايخ خدام يستحق كلٌّ منهم - لكبر سنه - أن يدعى بالكبير؛ عليهم ذلة الانكسار، وأمارات الافتقار؛ فجبرهم مولانا السلطان وآنسهم، وأحسن إليهم؛ وتوجه من توجه إلى صلاة الجمعة في قيصرية وبها سبع جمع تقام، وبها خطباء إن هم إلا كالأنعام؛ فصلينا في جامع السلطان وهو جامعٌ عليٌّ يدل على احتفال ملوكها ببيوت عباداتهم، ورأينا فيه من دلائل الخير ما يقضي بحسن إراداتهم؛ فحضر أهل المدينة وأكابرها، وجلسوا حلقًا لا صفوفا، وأجروا من البحث بالعجمية صنوفا؛ واجتمعت جماعةٌ من حفظة الكتاب العزيز فتخارجوا القراءة آيةً آيه، وهي قراءةٌ بعيدةٌ عن الدرايه؛ بل إنها تبرزها أصواتٌ مترنمه، وألحانٌ لتفريق الكلمات مقسمه؛ ينطقون بالحروف كيف اتفقت، ولا يتوقفون على مخارج الحروف أنها بها نطقت أو لا نطقت .

فلما آن وقت الأذان قام صبيٌّ عليه قباءٌ من وسط جماعةٍ عليهم أقبيةٌ قعودٍ على دكة المؤذنين، فابتدأ بالتكبير أولًا وثانيًا بمفرده من غير إعانةٍ ولا إبانه . ولما تشهد ساعدوه جميعهم بأصواتٍ مجمجمةٍ ملعلعه، ونغماتٍ متنوعة؛ يمسكون له النغم بأحسن تلحين، ويترنمون بالأصوات إلى آخر التأذين؛ وفرغ الأذان وكلهم قعودٌ ما منهم

أحدٌ غير الصَّبيِّ وقَف ، وما مِنَّا أحدٌ لكلمةٍ من الأذَانِ عَرف ؛ ولما فرغَ الأذانُ طَلَع شيخٌ كبيرُ السِّنِّ يعرف بأمير مَحْفِل المِنْبَر، فصَعِد إلىٰ ذِرْوة المِنْبَر، وشَرع فى دُعاءٍ لا نَعْرِفُه ، وآدّعاء لا نَأْلَفُه ؛ كأنَّه مُخاصِمٌ أو وكيلُ شَرْعٍ أحْضَره لمُشادَّة خَصْمه مُحاكَمٌ بين يَدَىْ حَاكِمٍ ؛ وطلع الخطيبُ بعد ذلك نَخَطَب ودعا لمولانا السلطانِ بغير مُشَارَكه ، ودعا الناسُ بما تَلَقَّتْه من الأفواهِ المَلَائكه ؛ وآنقضت الجُمُعة علىٰ هذه الصُّوره، المَسْطُوره؛ وضُرِبتِ السِّكَّة بآسم مولانا السلطانِ، وأحْضِرتِ الدَّراهِمُ إليه فى هـذا اليوم، فشاهَدَها فرأى أوجُهَها باسِمَةً بآسْمِه المَيْمُون، وأقرّت الألْسِنَةُ بهذه النعمة وقَرَّتِ العُيون ؛ وشاهدتُ بقَيْسارِيَّة مَدَارِسَ وخَوانِقَ ورُبُطًا تدلُّ على آهتمامِ بَانيها، ورَغْبَتِهم فى العُلُوم الشَّرْعيـةِ والدِّينية ، مُشَيدةً بأحْسَنِ الحِجَارِ الحُمْرِ المَصْقُولة المَنْقوشـه، وأرَاضيها بأجْمَلِ تلك مَفْرُوشـه؛ وأوَاوينُها وصُفَفُها مُؤَزَّرَةٌ بالقَاشَانىّ الأجْمَلِ صُورة ، وجَميعُها مَفْروشـةٌ بالبُسُط الكُرْجيَّة والعالية، وفيها المِياهُ الجَارِيَة، ولها الشَّبابِيكُ على البَساتين الحَسَنة ، وسُوقُ قَيْصَرِيَّةَ طائِفٌ بها من حَوْلها، وليس داخَلَ المدينةِ دُكَّانٌ ولا سُوقٌ .

والوَزِيرُ فى بلاد الرُّومِ جميعها يُعرفُ بالصَّاحِبِ «فَخْرِالدِّين خواجا علىّ» ولا يُحْسِنُ الكِتَابةَ ولا الخَطَّ ، وخِلْعَتُه من ممـاليكه خاصَّةً مائتا مَمْلوكٍ ، ودَخْلُه فى كلِّ يَوْمٍ ـ غيرُ دَخْلِ أولاده وغيرُ الإقْطاعاتِ التى له ولأولاده وخَوَاصِّه ـ سـبعةُ آلاف درْهم سُلْطانية . ولقد شاهدتُ فى مَدْرسَـتِه من خِيَامِه ونَخرْكاوَاته شيئًا لا يكون لأكبر المُلُوك، وله بِرٌّ ومَعْروف، وهو بالخَيْرِ مَوْصُوف :

وَالْمُسَمَّوْنَ بالوَزِيرِ كَثِيرٌ * والوَزِيرُ الذى لنا المَأْمُولُ!

وعَلِىٌّ هٰـذا وذَاكَ عَلِيٌّ * وعَلِيٌّ هٰـذا له التَّفْضِيلُ!

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وغَرْبًا * ونَدَاه مُقَابِـلِى لا يَزُولُ!
ومَعِى أيْنَمَا سَلَكْتُ كَأَنِّى * كُلّ وَجْهٍ له بوَجْهِى كَفِيلُ!

وأمَّا مُعِينُ الدِّين سُلَيْمان البرواناه وزَوْجَتُه كُرْجِى خَاتُون، فظهر لهما من المَوْجود البَادِى للعيون كُلّ نَفِيس، وبحمد الله آستولى مولانا السلطانُ ومَماليكه من مَوْجُودِه ودَارِ زَوْجَتِه المذكورةِ علىٰ مُلْكِ سُلَيْمان وصَرْحِ بِلْقِيس.

ولمـا أقام مولانا السلطانُ بقَيْصَرِيَّة هـذه المُدَّة، فَكَّر فى أمر عساكره ومصالحه بمـا لا يَعْرِفه سِـواه، ونظر فى حَالهم بمـا أراه الله؛ وذٰلك لأن الأقْوات قَلَّتْ، والسُّيُوفَ من المصارعة مَلَّتْ، والسَّواعِدَ من المُصَادَمة كَلَّتْ؛ وأنَّه ما بَقِى فى الرُّومِ من الكُفَّار من يُعْزىٰ، ولا بجَزاءِ السُّوءِ يُجْزىٰ؛ ولا بَقِىَ فى البلاد غيرُ رعايا كالسَّوائِمِ الهَامِلَه، ولا دِيَةَ ـ للكُفْر منهم ـ علىٰ عاقِلٍ وعاقِلَه؛ وأنَّه إن أقام فالبلادُ لا تَحْمِلُه، ومَوادُّ بلادِه لا تَصِلُه؛ وأعشابُ الرُّوم بالدَّوْس قد آضمحلَّتْ، وعُلُوفاتُها قد قَلَّتْ؛ وزُرُوعها لا تُرْتَجىٰ لِكفايَه، ولا تَرْضىٰ خُيولُ العَساكِرِ المنصورةِ بما تَرْضىٰ به خُيولُ الرُّومِ من الرَّعْيِ والرِّعايَه؛ وأن الحُسَام الصَّقيلَ الذى قُتِـل التَّتار به فى يَدِ القَاتِل، وأنَّهم إن كان أعْجَبهم عَامُهم فيَعُودون إلى الرُّومِ فى قَابِل.

ورَحَل فى يوم الآثنين عِشْرين من ذى القَعْدة بعد أن أعطىٰ أمَراءَه وخَواصَّـه كلَّ ما أُحْضِرَ إليه من الأعِنَّة والأزِمَّه، وكلَّ ما يُطلَقُ علىٰ توليه آسْمُ النِّعْمه؛ فنزل بمَنْزِلةٍ تعرف بعترلوا وفى هذه المَنْزِلة ورَد إلى السلطان رَسُولٌ من جِهَة غِياثِ الدِّين سلطانِ الرُّوم، ومن جِهَةِ البرواناه والكُبَراءِ الذين معه، يسمّى ظَهِير الدِّين التَّرْجُمان، وفى الحقيقةِ هو من عند البرواناه، يَسْتوقِفُ مولانا السـلطانَ عن الحرَكَةِ وما عَلِمُوا إلى أيْن، بل كان الأمرُ شائعًا بين الناس أن الحرَكَة إلى جِهَةِ سِيوَاس. فعَدّد مولانا السـلطانُ عليه حُسْنَ وَفَائِه بعَهْده، وأنه أجاب دُعاءَهم مَرَّةً بعـد مَرَّةٍ من أقصىٰ

مُلْكه مع بُعْـدِه؛ وأنهم ما وَقَفُوا عند الشُّروط المُقَرّره، ولا وَفَوْا بمَضْمونِ الرَّسائل المُسَـيَّره، وأنَّهم لمـا جاء الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ طَلَبُوا نَظِرَةً إلىٰ مَيْسَره؛ وأن أعِنَّتهم للكُفْرِ مُسَلَّمه، وأنَّهم منذ ٱستيلاءِ التَّتارِ هم أصحابُ المَشْأَمَه؛ وعلِمَ مولانا السلطانُ أن بِلادَ الرُّوم ما بهـا عَسْكَرٌ يَسْتخْلِصُه لنفْسِـه، ولا مَن يُقابِل المُغْلَ فى غَدِه خوْفًا ممَّـا شاهده كلُّ منهم فى أَمْسِه؛ وأنهم أهْلُ ٱلْتِذَاذ، لا أهْلُ نَفَاذ؛ وأهْلُ طَرَب، لا أهْلُ حَرْب [وغَلَب]؛ وأهلُ طِيبَة عَيْش، لا قُوَّادُ جَيْش؛ فردَّ السلطانُ إلى سُلَيمان البرواناه مَدَّ يَده، وقال: قُلْ له: إنَّنِي قـد عرفتُ الروم وطُرُقَاتِها، وأخذتُ أمَّه أسيرةً وٱبنَ بِنْتِه ووَلَده؛ ويَكْفينا ماجَرىٰ من النَّصْرِ الوَجِيز، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وما كلُّ من قَضَى فَرِيضَةَ الحَجِّ تجِبُ عليه المُجاوَره، ولا بعدَ هذه المناصَرَة مُناصَره، ولا بعد هذه المُحاوَرَة مُحاوَره، ونحنُ فقد ٱبْتَغينا فيما آتانا اللهُ: من حَقْنِ دِماءِ أهْلِ الرُّوم وعَدَمِ نَهْبِ أموالهم الدَّارَ الآخِرَه، وتَنَزَّهنا عن أموال كُنتم للتَّتارِ تَسْتَحِبّونها، ومَغَارِمَ كثيرةٍ هى لهم من الجنَّات مَغانِمُ يَأْخُذونها حين يَأْخُذُونها؛ وما كان جُلُوسُنا فى تَخْتِ سَلْطَنَتِكم لزيادةٍ بتَخْتِ آلِ سَلْجُوق، إلا لِنُعْلِمَكم أنَّه لا عَائِقَ لنـا عن أمْرٍ من الأمور يَعُوق؛ وأنَّ أحدًا لاينبغى له أن يأمَنَ لنا سَطْوَه، وليتَحقَّقَ كلُّ أنَّ كلَّ مسافةِ جُمْعةٍ لنا خَطْوَه؛ وسُرُوجُنا ـ بحمد الله ـ أعْظَمُ من ذلك التَّخْتِ جلَالا، وأرْفَعُ مَنالا؛ وكَمْ فى مَمَـالكنا كَرَاسىٌّ مُلْكٍ نحنُ آيةُ ذلك الكُرْسىّ، وكَمْ لنا فَتْحٌ كُلُّه ـ والحمد لله ـ فى الإنافَةِ الفَتْحُ القُدْسىّ .

مَنْ كانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُه * فَلَيْسَ يَرفَعُــهُ شَىْءٌ ولا يَضَـعُ!

وٱسْتَصْحَبَ السلطانُ معـه تَحْتَ الرِّضا والعَفْوِ من أكابرِ الرُّوميين ـ الأميرَ سَيْفَ الدِّين جاليش النَّائبَ بالرُّوم، وهو رجلٌ شَـيْخٌ نَبِيهٌ له ٱشتغالٌ بعِلْم، وكان له

فى الرُّوم صُورة، وهو أَمير دَار يعنى أَمِيرَ المَظَالِم . وٱستصحبَ ظَهِيرَ الدِّين موح(؟) مُشَرِّف المَمَالك، ومَرْتبته دُون الوِزارةِ وفيه فَضْلٌ، ونَسَخ كثيرًا من العُلوم بخَطِّه، مثل الصِّحاحِ فى مُجَلَّدٍ واحدٍ، وغير ذلك . وٱستصحبَ الأميرَ نِظامَ الدِّين أوْحَد ٱبن شَرَف الدِّين بن الخَطِير، و إخْوَتَه وجماعتَه وجماعةَ والِده، وأولادَ عَمِّه ضِياءِ الدِّين بن الخَطِير المُسْتَشْهد رحمه الله .

وٱسْتَصْحبَ من الأمراء : الأميرَ مُظَفَّر الدِّين محاف (؟) والأميرَ سَيْفَ الدِّين بِكِيا الجَاشَنْكِير، والأميرَ نُورَ الدِّين المَنْجَنِيقِىّ، وأصحابَ مَلَطْيَة أولادَ رَشِيدِ الدِّين أمير عارض، وهم : كَمَالُ الدِّين و إخْوتُه، وأمير علىّ صَاحِب كَرْكَر .

وٱسْتَصْحبَ قاضِىَ القُضَاةِ بمَلَطْيَة، وهو القاضى حُسَامُ الدِّين ٱبنُ قاضِى العَسْكَر، ووالِدُه الذى كان يَتَرَسَّلُ عن السلطان عَلَاءِ الدِّين إلى المُلُوك، وهو رَجُلٌ عالِمٌ فاضِلٌ . وأكثر هؤُلاءِ حَضَروا ببُيُوتِهم ونِسَائِهم وغِلْمانِهم وحَفَدتهم .

والذين حَضَروا تحت الغَضَب ـــ وَلَدُ البرواناه المذكور، ووَلَدُ خواجا يُونُس، وهو ٱبنُ بِنْتِ البرواناه، ووَالِدة البرواناه . والأميرُ نُورُ الدِّين جاجا، وهو أكبر أُمَراءِ الرُّوم أصحابُ النّعمة والنِّعَم، والأميرُ قُطْبُ الدِّين أحمدُ أخُو الأتابك، والأميرُ سَيْفُ الدِّين سُنْقُر جاه الروناسىّ، والأميرُ سِراجُ الدِّين إسْماعِيلُ بن جاجا، والأميرُ نُصْرةُ الدِّينِ صاحِبُ سِيواسَ، والأمير كَمالُ الدِّين عَارِضُ الجَيْش، والأميرُ حُسامُ الدِّين ركاوك قَرِيبُ البرواناه، والأميرُ سَيْفُ الدِّين الجاويش، والأميرُ سِرَاجُ الدِّين أخُو حُسَامِ الدِّين، والأمير شِهاب الدين غازى بن على شير التُّرْكمانِىّ .

ومن المغل : مقدّمى الألوف والمآت ـــ زيرك وسرطلق، وحنوكه، وسركده وتماديه (؟) .

ثُمَّ رحلَ السلطانُ فى اليوم الثانى ونزَل بمَنْزِلَةٍ قَرِيب خانِ السلطان عَلَاء الدِّين كيقباذ، و يعرف بكروانى صَرَاىْ . وهذا الخانُ بِنْيَةٌ عَظِيمةٌ من نِسْبَةِ خان قرطاى ، وله أوقافٌ عظيمةٌ . ومن جُملةِ ما وُجِد قَرِيبًا منه أذْوادٌ كَثِيرةٌ من الأغْنام عَبِثَتْ فيها العساكرُ المنصورة، سألتُ عنها فقيلَ : إنها وَقْفٌ على هذا الخَان يُذْبَحُ نِتاجُها للواردين على هذا الخانِ ، وهذه الأغنامُ له من جملة الوُقُوف، قَدَّر الله آسْتِيفَادَهَا جُمْلةً لمَّا كثرتْ علىٰ هذا الخَان من الجُيُوش المنصورة الضُّيُوف .

ورَحَلْنا فى اليوم الثالثِ وهو يومُ الأربعاء ثانى عشرين من الشَّهْر، ونزلنا فى وَطْأةٍ عادَةُ التَّتارِ ينزلون بها تسمَّىٰ روران كودلوا، وكودلوا آسم جبال تلك الوَطْأَه .

و رحَلْنا فى يوم الخميس ثالثِ عشرين من ذى القَعْدة ، فعارَضَنا بها — فى وَطْأةٍ خَلْف حِصْن سَمَنْدُو من طريقٍ غيرِ الطريقِ التى كُنَّا توجَّهْنا منها — نَهْرٌ يعرفُ بنَهْر قزل صو، قريب كودلوا الصغير . ومعنىٰ قزل صو النَّهر الأحْمر، وهذا النَّهْرُ صَعْبُ المَخَاض، واسِعُ الاعْتِراض، عَالِى المَهْبَط ، زَلِقُ المَسْقَط، مُرْتَفِعُ المُرتَقىٰ ، بعيدُ المُسْتَقَىٰ، لا يَجِدُ السَّالِكُ من أوحال حَافَتَيْه إلا صَعِيدًا زَلَقا؛ فوقَف مولانا السلطانُ بنَفْسِه ، وجَرَّدَ سَيْفه بيَدِه، و باشَرَ العملَ بنَفْسِه هو و جميعُ خَواصِّه، حتَّىٰ تَهَيَّأَ المكانُ جميعُه، ووقَف راجِلًا يُعبِّر الناسَ أوّلًا فأوّلًا : من كَبِيرٍ وصَغيرٍ وغُلامٍ، وهو فى أثناء ذلك يَكُرُّ على من يَزْدحِم، و يُكرِّر التَّأْدِيبَ لمن يطلب بأذِيَّةٍ رَفِيقَه و يَقْتَحِم؛ وما زال من رَابعة هٰذا النهارِ إلى الساعة الثامنة حتَّىٰ عَبَرت النَّاسُ سالمين . ولمَّا خَفَّتِ البُرور، ولم يَبْقَ إلا المُرور، رَكِبَ فرسَه وعَبَرَ الماءَ والألْسنةُ له دَاعيه، وعليه من اللهِ وَاقِيةٌ باقِيَه ؛ فنزل فى وَادٍ هُناك به مَرْعًى ولا كالسَّعْدان، ومَرْأًى وَلا كَشِعْب بَوَّان .

ثم رحلَ فى يوم الجمعة فنزل عند صَحراتِ قراجار حصار، وهى قَرْيةٌ كانت عامِرَةً فيما مضىٰ ، قَرِيبةً من هدر رجال (؟) قُبالَة بازَار بَلُّو ، وهذا البَازَارُ هو الذى كانت الخلائِقُ تجتمع إليـه من أقْطارِ الأرض ، ويُباعُ فيه كلُّ شَىْء يُجْلب من الأقاليم ، و يقربُ من كودلوا الكبير .

وسِرْنا فى يوم السَّبت سَوْقًا طُولَ النَّهار، حتَّىٰ نزلنا فى وَطْأةِ الأَبُلُسْتَيْنِ، وفى هذا النهار عَبَر مولانا السلطان ـ نَصَره الله ـ علىٰ مكان المَعْركة لمُشاهَدَةِ أُمَمِ التَّار، وكَيْفَ تعاقَبَتْ عليهم من العِقْبانِ كَواسِرُهـا ، وكَفَّ بَأسَهـم من النُّسُور مناسِرُها ؛ وكَيْفَ أصْبَحوا لا يَنْدُبهُم إلا البُوم ، وتَحَقَّقوا أن الَّتى أهلكَتْهم زُرْقُ الأَسِنَّة لا زُرْق الرُّوم ؛ فرآهُم لمن بَقِيَ عِبْره ، وعُرِضُوا علىٰ رَبِّهـمْ صَفًّا وجَاؤُوه كما خُلِقُوا أوَّلَ مَرَّه ؛ وأبْصر الرِّياحَ لأشْلائِهم مُتَخَطِّفَه ، والهَوَامَّ فى أجْسادِهم مُتَصَرِّفَه ، وشاهَدَهم وقـد هَذَأَهم كلُّ شَىْءٍ حتَّى الوُحُوش والرِّياح : فهذه من صَدِيدِهم مُتَكَرِّعةٌ وهذه عليهم مُتَقَصِّفه .

قَدْ سَوَّدَتْ شَجَرَ الجِبالِ شُعُورُهُمْ * فكَأَنَّ فِيه مُسِـفَّةَ الغِرْبَانِ !

ولمَّـا عاينهم مولانا السلطانُ وعاينهم الناسُ ، أكثروا شُكْرَ الله علىٰ هٰذِه النِّعَم التى أمْسَتْ لكافَّة الكُفْر كافَّةً وشَـالَّةً ودَارِزَه ، وأثْنَوْا على مِنَنِه التى سَنَّتْ(١) إليهـم خيارَ العَساكِر المنصورة حتَّىٰ أصبحَتْ تلك الأرضُ بهم بارِزَه ؛ وحضرتْ من أهْلِ الأَبُلُسْتَين هنالك جماعةٌ من أهْلِ التُّقىٰ والدِّين ، وآستخْبَرهم مولانا السلطانُ عن عِدَّة قَتْلَى المُغْلِ فقالوا : ﴿ فَاسْأَلِ العَادِّينَ ﴾ ؛ فاسْتَفْهم من كبيرهم عن عِدَّة المُغْلِ كَمْ من قَتيل ، فقال : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِعِـدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وقال بعضُهم ممن عدّهم وممَّن عنده عِلْمٌ من الكِتَاب : « أنا عَددْتُ سِتَّةَ آلاف وسبعمائةٍ وسبعين نَفَرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سنَّ الإبلَ ساقها سوقا سريعا .

الحِسَاب ؛ هـذا : غير من آوَىٰ إلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُه من مَاءِ السُّيوف فما عَصَمه ، وغيرُ من ٱعتقد أن فَرَسَه تُسَلِّمُه فأسْلَمه ؛ فتركهم مولانا السلطانُ ومضىٰ والفَلَواتُ مَزْرَعةٌ لِجُسُومِهم ، والدُّود ـ لأنَّها مُؤْمِنَةٌ وهم كُفَّار ـ قد أثَّرتْ كالنواسر فى لُحُومِهم ؛ فرسم مولانا السلطانُ بتقـدّم الأثقـالِ والحُرَّاسِ والدِّهْليزِ المَنْصور صُحْبـةَ الأمير بَدْرِالدِّين الخزندار ، والدُّخولِ فى أَجْه دربند ، وأقام مولانا السلطانُ فى سَاقَةِ العَسْكر المَنْصورِ بَقِيَّةَ يوم السَّبت ويوم الأحد :

فهـو يَوْمَ الطِّرادِ أوّلُ سَابِق ＊ وهو يَوْمَ القُفُولِ آخِرُ سائق !

وٱنتَظَر فى هذين اليومين صَيْدًا من العَدُوِّ يَعِنّ ، وما من دِمَاءِهِم إلى السَّيف يَحِنّ ؛ فلمَّا لم يَجِدْ أحدًا رحلَ فى يوم الآثنين فنزل قريبًا من الخَانِ الذى فى الدَّرْبَنْد ، وركبَ يوم الآثنين من طَرِيقٍ غير التى حَضَر منها ، فسَلَك طريقًا من الأوْعَار يَبَسا ، وسَلَك من قُلَلِ الجبال فى هِضَابٍ كأنَّ كُلًّا منها أَلِفٌ حملت من الأنْجُم قَبَسا ؛ فقاسَى العَالَمُ فى هذا اليَوْم من الشِّدَّة ما لا يَدْخلُ فى قِياس ، وكادُوا يَهْلِكُون لولا أن الله عَزَّ وجلَّ تَدارك النَّاس ؛ فتَسَابقوا ولكن علىٰ مِثْـلِ حَدِّ السَّيف ، وتَسَالُّوا ولكن سَلُّ حَوافِر الخَيْـلِ كَيْف ؟ ، وهَبَطوا من جِبـالٍ يَسْتَصْعِبُها كُلُّ شَىْءٍ حتّىٰ طَارِقُ الطَّيْف ؛ يَسْتَصْعِبُ الحَجَرُ المُحَلِّقُ من شَاهِقٍ وُقُوعَه فى عِقابِهـا ، ويَسْتَهْوِلُ النَّجْم الثَّاقِبُ تَرَفُّعَ شِعابِها ؛ بالقُرْب منها جَبَلٌ شاهِقٌ يُعرفُ بسَقَر وما أدراك ما سَقَر ، لا يُبْقِى علىٰ شَىْءٍ من الدَّوابِّ ولا يَذَر ؛ له عَقَبةٌ لَوّاحة للبَشَر ؛ أعان الله على الهُبُوط منها ، وفَازَ بمشيئة الله وبسعادة مولانا السـلطانِ من زُحْزِحَ عنها ؛ وعَدَّينا كوكصوا وهو النَّهْر الأزْرَق ، وبات مولانا السـلطان هناك ، وكان قَضِيمُ البِغَالِ تلك اللَّيلةَ وَرَقَ البَلُّوط ، إلا من أمْسَتْ عناية الله أَنْ تُيَسِّر فى شَعِيرٍ بخمسةَ عَشَر درهمًا كلّ مُدٍّ يَحُوط .

ورحل مولانا السلطانُ فى يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القَعْدة فنزل قريبَ كسول(؟) المقـدّم ذِكْرُها، وعدل إلىٰ طريق مَرْعَش فزال بحمد الله الداعى، وقالوا للشَّعِير : ما فِينَا لك مُخَاطِبٌ ولا مِنَّا فيـك بمَـاله مُخَاطِر، وللخيولِ قد حصلَ لَكِ فى مِصْرِ الرَّبيعُ الأوّل فى شَـعْبان وفى الشَّـامِ فى ذِى الحِجَّـة الرَّبيع الآخِر، فأرْتعتْ لا يَرُوعها أصْحـابُ الموازين فى تلك المساجد، وآسْتمرّتْ فى مُرُوجٍ يتأسف عليها آبن المساجد(؟)، وقسّم مولانا السلطان تِلكَ الأعْشاب كما تَقَسَّمتْ فى آفاق السماء النُّجوم، وأوقَفَ كلَّ أحَدٍ فى مقامٍ حتّىٰ قال : ﴿وَمَا مِنَّآ إلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم﴾، فكَمْ هنـالك مِن مُرُوجٍ أعْشَبتْ فأعْجَبتْ، وآنْجابَتِ السماءُ عنها فأنْجَبتْ، وأرْبَتْ علىٰ زُهْرِ النُّجوم فاهْتَزَّتْ وَرَبَتْ :

يَصُدُّ الشَّمْسَ انَّىٰ وَاجَهَتْنا * فَيَحْجُبُها ويَأْذَنُ للنَّسِيمِ!

يَتَخَلَّلُها هنـالك أتْرَعُ الحِياض، ويَلْهُو بها كلُّ شَىْءٍ فكَمْ قَصَـفَ العَاصِى بهـا فى تِلْك الرِّياض .

هذا كُلُّه : وخَيْرٌ من أرْزنْجان ، حَارَةُ بَرْجَوَان؛ وخَيْرٌ من أراضى تَوْرِيز، قِطْعةٌ من ايليز؛ وكَوْمٌ من كِيمانِ سَـفْط مَيْدُوم، خَيْرٌ من قَصْرٍ فى قَيْصَرِيَّةِ الرُّوم ؛ ونَظْرةٌ إلى المِقْياس، خَيْرٌ من سِيوَاس؛ ومَنَاظِر اللُّوق، خيرٌ من كَيْقباذ آلِ سَلْجُوق؛ وتُرْبَةٌ من تُرَبِ القَرَافَه، خَيْرٌ من مُرُوج العرافه ؛ وشِبْرٌ من شَبْرا، خَيْرٌ من سطا ومرا(؟)

وجُلوسٌ فى باب دَارِكَ خَـيرٌ * من جُلوسٍ فى[بَابِ]إيوَانِ كِسْرىٰ،

وآنْتِمَـاحِى لنُـورِ وَجْهِــكَ خَيْرٌ * لِىَ مِنْ أنَّنِى أُشَاهِــدُ بَدْرا!

ياوَلِيًّـا يُــولِى الأيَادِىَ سِرًّا * ووَزِيرًا فَلَيس يَكْسِبُ وِزْرا:

ما رَأَيْنـا واللهِ فِيمَنْ رَأَيْنَـا * لَكَ مِثْــلًا من البَرِيَّةِ طُــرّا.

كَمْ خَـبَرْنَا الرِّجالَ فى كُلِّ أَرْضٍ * فإذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الخَلْقِ قَــدْرا!
كَمْ فُلانٍ قَالُــوا وقَالُوا فُـلَانا * فإذا النَّاسُ دُونَ عَلْياكَ حَسْرَىٰ.
لَكَ مَدْحٌ قد طَبَّقَ الأرض سُبحَا * نَ إلٰهٍ به إلى النَّـاسِ أَسْرَىٰ!
ما رَأَيْنـا مِصْرًا كمِصْــرَ ولا مِثْـ * ـلَكَ فِينَـا، والحَمْـدُ لِلّهِ شُـكْرا!

الضــــرب الثـانى

(من الرسائل المُلُوكية رَسائِلُ الصَّيْد)

وهــذه نُسْخةُ رسالةٍ فى صَيْد السُّلطان الشَّهيد الملكِ الناصر بن السُّلطان الشَّهيد المَلِكِ المَنْصور «قَلاوُون» من إنْشاءِ القَاضِى تاج الدين البارِزِىّ، وهى :

الحمدُ لِلّه الذى نَعَّم النُّفوسَ الشَّرِيفةَ بإدراكِ الظَّفَر، وأَنْعَم علىٰ هذه الأُمَّة بمُحمَّدِها الذى أنار كَوْكَبُ نَصْرِه وسَفَر، وشَرَع لها علىٰ لِسَانِ نَبِيِّها صلى الله عليه وسلم الغَنِيمَةَ فى السَّـفَر، وأَسْعفَ هــذه الدَّوْلَةَ الشريفةَ بدوام سُلْطانِها الذى حُفَّتْ أيَّامُه بالعِزِّ والتَّأْييد والظَّفَر .

نحمدُه علىٰ أن أقَرَّ العُيونَ بفَضْله بما أقَر، ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللّهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ألانَتْ قَلْبَ من نَفَر، وكَرُمتْ أسبابُها فلا يتمسَّكُ بها إلَّا أعَزُّ فَرِيقٍ ونَفَر، ونشهدُ أن محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى أعَزَّ من آمَن وأذلَّ من كَفَر، صلى الله عليــه وعلىٰ آله وأصحابه الذين تَجاوز اللّهُ عن ذنوبهم وغَفَر، وسلَّم تسليماً .

وبعدُ، فإنَّ فى ٱبتغاء النَّصر مَلاذًّا تُدْرِكها كلُّ ذاتٍ شَرُفَتْ ، وتَمْلِكُها السَّجَايا التى تعــارفتْ بالفَخَار وٱئْتَلفتْ ، وتنالُهــا النُّفوسُ التى مالَتْ إلى العِزِّ وإلىٰ تِلْقائه

صُرِفَت ؛ ومَنْشَؤُها من حالتين : إمّا في مَوْقِفِ عزٍّ عنـد ما تَلمع بُرُوق الصِّفاح ، وتَشيبُ من هَوْلِ الحَرْب رُءُوس الرِّماح ، وتَسْرحُ جَوارِحُ النِّبالِ لتحلَّ فى الجوارح وتَصيدَ فى الأرواح ؛ وإمّا فى مَوْطِنِ سِلْم عند ماتَنْبسِطُ النفوسُ إلى آمتطاء صَهَواتِ الجياد فى الأمْنِ والدَّعه ، وتَنْشرِحُ الصُّـدورُ إلى معاطاة الصُّيودِ والمَسَرَّاتُ مُجْتَمِعه ؛ وتُطْلق البُزَاة فتَصِـيد ، وتتصرَّف بأمْرِ المُلوكِ الصَّيد ؛ وتُرسَـلُ الحَوامى المُمْسكه ، وتُلْقىٰ علىٰ ما سَنَح من الوَحْشِ فلا تُرىٰ إلا مُدْرِكَه ؛ وتُفَاضُ حينئذٍ النِّعَم السُّلطانيةُ وتُجزَلُ مَواهِبُها ، وتَلُوح العِصَابة الشَّريفةُ وتَنْبعثُ مَوا كِبُها .

وكان الله تعـالىٰ قد جمع للمَواقِفِ الشَّريفةِ ، المُعَظَّمة ، السُّـلْطانيةِ ، المَلَكِيَّةِ ، النَّاصرية ، خلَّد اللهُ سُلطانَها ــ سعادةَ الحالتين حَرْبا وسِلْما ، وآتاه فيهما النَّصْرَ الأرفَعَ والعِزَّ الأسْمىٰ ؛ ووَسَم بِصَـدَقاتِه وعَزَماتِه الأمْرَين وَسْمـا ، ونَصَره نَعْتـا وعَظَّمه سُمْعةً وشَرَّفه اسْمـا ؛ فأيَّامُ حُروبِه كلُّها رِفْعةٌ وآنْتِصار ، وآسْتيلاءٌ وآسْتِظْهار ، وقوة تَحْيا بهـا المؤمنون وتَفْنَى الكُفَّار ؛ وأيَّام سِلْمِه كلُّها عَدْلٌ وهِبَه ، وصَـدَقاتٌ مُنْجِيةٌ مُنْجِبَه ، ورَفْعُ ظُلاماتٍ مُتَشعبه ؛ وقَمْـعُ نُفُوسٍ مُتوثِّبه ؛ وحَسْمُ خُطوبٍ مُسْتَدَّه ، وحِفْظُ الحَوْزةِ الإسلامية من كلِّ بأسٍ ووِقايتُها من كلِّ شِدَّه ؛ وفى خِلالِ كلِّ عام تُصْرف عَزائِمُه الشريفةُ إلى آبتغاء صَيْدِ الوَحْشِ والطَّير : لمـا فى ذلك من تَمْرِين النُّفوس على آكتساب التَّأْييـد ، وحُصُولِ المَسَرَّة بكلِّ ظَفَرٍ جَديد ؛ فَيَرْسُم ــ خلد اللهُ سُلطانَه ــ فى الوَقْتِ الذى يَرْسُمُ به من مَشْتَىٰ كلِّ عامٍ بإخراج الدِّهْليزِ المَنْصورِ فيُنْصبُ فى برِّ الجيزة بسَـفْحِ الهَرَم ، فى ساعةٍ مُباركَةٍ آخذةٍ فى إقْبال الجُودِ والكَرَم ؛ فتمدُّ بالتَّأييد أطْنَابُه ، وتُرْفَعُ علىٰ عُمُدِ النَّصْرِ قِبابُه ، ويُحاطُ بحراسـةِ الملائكة الكرام رِحابُه ؛ وتَضرب خِيامُ الأُمَراءِ حَوْله وِطَاقا ، وتَحُفُّ به [مِثْل] النُّجوم بالبَدْرِ إشْرَاقا ؛ ويَسْتقلُّ الرِّكابُ الشريفُ ــ شرّفه الله ــ بعد ذلك بقَصْدِ عُبُورِ النِّيلِ المُبارَكِ فيظهرُ

من القَلْعةِ المحروسةِ والسَّلامةُ تَحْجُبه من المَخَافَه، والحِراسَةُ تصحَبُه فيما قَرُبَ ونَأَىٰ من المَسافَه، ولِسَانُ السَّعْدِ قد خاطبه بالتَّحيَّةِ وشافَه؛ ومَمالِيكُه الأمَراءُ قد حَفُّوا به أَطْلابا، وسَنِيُّ موكِبِه قد بَعَث أمامَه من الإضَاءَةِ نَجَّابا؛ ولم يَزَلْ حتَّىٰ يأتِيَ النِّيـلَ المُبارَكَ ويَسْتَوِيَ على الكُرْسِيّ فى الفُلْكِ المَشْحون، مَحُوطًا بالنَّصْرِ المَيْمون والجَيْشِ المَأْمُون، وقد ٱسْـتَبشر باعْتِـلائه البَحْرُ والنُّون؛ وأضحىٰ لظَهْر الفُلْكِ من الفخار [بحَضْرته] المُكَرَّمه، مالصَّهَواتِ أجْيادِه العِتاقِ المُسَوَّمَه؛ فلهٰذا نَشَر أعْلامَ بُشْراها، وقال: ﴿ ٱرْكَبُوا فِيهَـا بِاسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا ومُرْسَاهَا ﴾؛ فسارتْ به فى اليَمّ، ونَصْرُ الله قد تَم؛ وصَعِدَ من فُلْكه، علىٰ مايَسُرُّ نفوسَ المؤمنين فى كَمَالِ سُلْطانه وعِزَّةِ مُلْكه؛ وٱستقرَّ علىٰ جَوادٍ شَرُفتْ صَهْوتُه، وقُرِنَتْ بالأَنَاةِ والسُّكونِ خَطْوَتُه؛ عَرَبِيِّ النِّجار، يختالُ فى سَيْرِه كأنمـا ٱنْتَشىٰ من العُقَار:

ويختالُ بكَ الطِّـرْفُ * كَأَنَّ الطِّرْفَ نَشْـوَانُ.
تَرَى الطِّرْفَ دَرَىٰ أو ليـ * ـس يَدْرِى أنّكَ سُلْطانُ!

وسار فى زُرُوعٍ مُخْضَرّه، وثُغُورِ نَباتٍ مُفْتَرَّه؛ وقد طلعتْ للظَّفَرِ شُموسُه وبُدُورُه، وأُعِدَّتْ للصَّـيْدِ بُزاتُه وصُـقُورُه؛ من كُلِّ مُتَوَقِّـدِ اللَّحظِ من الشَّهامه، محمولٍ على الرَّاحاتِ من فَرْطِ الكَرَامه؛ يُتوسَّمُ فيـه النَّجاح، قبل خَفْقِ الجَناح، ويخرُجُ من جَوِّ السَّماءِ ولا حَرَجَ ولا جُنَـاح؛ وبَازُها الأَشْهَبُ، يَجِيءُ بالظفر ويَذْهَبُ بصَـدْرٍ مُفَضَّضٍ ونَاظِرٍ مُذْهَب؛ له مِنْسَرٌ أَقْنىٰ، طالَمَـا أغْنىٰ، كأنّمـا هو شَبَا السِّنان وقد حَباه الكُماة طَعْنا:

وصَـارِمٍ فى يَدَيْكَ مُنْصَـلِت * إنْ كانَ للسَّيفِ فى الوَغَىٰ رُوحُ،
مُتَّقِـدِ اللَّحْظِ مِـن شَهَامَتِه * فالجَوُّ من نَاظِرَيْهِ مَجْرُوحُ!

قد راش النُّجْحُ جناحَه، وقَرَن اللهُ باليُمْنِ غُدُوَّه ورَوَاحَه، ونَصَره في حَرْبِه حيثُ جعل مِنْسَره رُمحه ومِخْلَبه صِفَاحَه؛ في قَوَادِمِه السَّعْدُ قَادِم، وفي خَوافِيه النَّصْرُ ظَاهِرُ المَعَالِمِ؛ كأنَّما أُلهِم قَوْلَه صلى الله عليه وسلم: «بُورِكَ لأُمَّتِي في بُكُورِها»، فيسرحُ والطَّيْر جاثِمَةٌ في وُكُورِها؛ ويَخْرج في إغباشِ السَّحَر وعليه سَوَاد، فيَهابُه الصَّادِحُ في الجَوِّ والبَاغِمُ في الوَاد؛ ويأمُر ـ خَلَّد اللهُ سلطانَه ـ أمَراءَه فيضرِبون على الطَّيْر حَلْقةً وهي لَاهِيةٌ في ٱلْتِقاطِ حَبِّها، غَافِلةٌ عمَّا يُرادُ بها، فيَذْعَرُونَها بخَفْق الطُّبولِ وضَرْبِها؛ ومولانا السلطانُ ـ خَلَّد اللهُ مُلكَه ـ لنافِرِها مُتَرقِّب، ولطائِرِها بالجَارِحِ مُعقِّب؛ فما يَدْنُو الكُرْكِيُّ مَقْرُورا، حتَّى يَئُوبَ مَقْهورا؛ ساقِطًا من سَمائِه إلىٰ أرْضِه، ومن سَعَتِه إلىٰ قَبْضِه؛ فسُبحانَ من خَلَق كُلَّ جِنْسٍ وقَهَر بَعْضَه ببَعْضِه؛ هذا: والجَارِحُ قد أنْشَب فيه مَخَالِبَه، وسَدَّ عليه سُبُلَه في جَوِّ السَّماء ومَذَاهِبَه؛ ولم يزلْ ـ خَلَّد اللهُ تعالىٰ سُلْطانَه ـ عامَّةَ يَوْمِه مُتوغِّلا في التَّمتُّع بلَذَّاتِ صُيُودِه، وأوقاتِ سُعُودِه؛ وحُصُولِ أَرَبِه ومَقْصُودِه، وجُنُودُ الملائكةِ حَافُّونَ به وبجُنُودِه؛ حتَّىٰ يَنسَخَ النهارَ الليلُ بظَلْمائِه، ويَلْمعَ الطَّارِقُ بأضْوائِه؛ فيعودُ عند ذلك الرِّكابُ الشريفُ إلى المُخَيَّمِ المَنْصور والجَوارِح كَاسِبَه، والأقْدارُ وَاهِبَه؛ والجَوَارِح مَسْرُوره، والطُّيور مأسُوره؛ والنُّفوسُ مُمَتَّعه، والمَواهِبُ مُنوَّعه، والأرْجاءُ مُضَوَّعَه، واللهُ تعالىٰ مَعَ سُلطانِه بكَلَاءته: «ومن كانَ مَعَ اللهِ كان اللهُ معَه»؛ فيرفع أمامَه فَانُوسانِ تَوْءَمان، كأنهما كَوْكَبانِ بينهما ٱقْتِران، أو فَرْقَدانِ رَفَعَتْهما يدَان؛ فيدْنُو إلىٰ مُخَيَّمِه المنصورِ في سُرَادِقِ العِزِّ الحَفِيل، وعِصابَةِ النَّصْرِ الأثِيل، وتَتَرجَّلُ الانْصارُ قِبَل فُسْطَاطِه المعظَّمِ علىٰ قَدْرِ مِيل؛ ويُسعىٰ بالشُّموعِ لتَلَقِّيه، ويُسَوَّىٰ تَخْتُ المُلْك لتَرَقِّيه؛ فعند ذلك يطوفُ بالدهليزِ المَنْصورِ أمَراءُ الحَرَس بالشُّمُوعِ المَرْفُوعه، والمَزَاهِرِ المَسْمُوعه؛ فإذا طلع الفَجْر مُسْتَطِيلا، وجاء الصُّبْحُ شيئًا قَليلا؛ عُرِضَتْ

عليه النِّعَم فأعطاها ، والمُهِمَّات الإسلامية فقضاها ، وقُدِّمتْ له الجِيادُ المُسَوَّمة فامتَطاها ؛ ويسرحُ إلى الصَّيْد والجَوارح التى صادَتْ بالأمْسِ قد آستأسَدَتْ ، وبسَعادتِه إلىٰ ظَفَرِها قد أُرْشِدت ؛ فإذا سار رِكابُه الشَّريفُ فرِقت علىٰ أثَرِه عَساكر الإسلام ، وقُوِّضَتْ تلك الخيامُ كأنها الأيَّام .

ولم يبرحْ ذلك دَأْبه فى كلِّ يومٍ من أيَّامِ حَرَكَتِه حتَّىٰ يأخُذَ حَظَّه من صَيْدِ الطَّير ، فعند ذلك يَثْنِي عِنَانَ السَّيْر ، إلى آقتِناصِ الوَحْشِ فيعدُّ لإمْساكِها كلَّ هَيكلٍ قَيْدِ الأوابد ، قد عُقِدَ الخيرُ بناصِيَتِه فأصْبَح حَسَنَ المَعَاقِد .

فمن أشْهَب : كريم المَغار ، ذى إهَابٍ من النَّهار ، وأديم كأنَّه صحيفةُ الأبْرار ، أبيضَ مثل الهُدىٰ ، له فى الصُّبْح إثارة النَّصْرِ وإغارةٌ على العِدا ؛ عَلا قَدْرًا وغَلَا قِيمَه ، وله إلى آلِ أعْوَجَ نِسْبةٌ مُسْتَقيمَه ؛ إذا آسْتَنَّ فى مِضْمارٍ يسْبِقُ البُرُوق الخَاطِفَه ، ويُخَلِّفُ الرِّيحَ حَسْرىٰ وهى وَاقِفَه ؛ يَجِدُه الفَارِسُ بَحْرا ، وله عند مَجْرىٰ العَوَالى مع السَّوابِق مَجْرىٰ .

ومن أحْمَر : كأنَّما صبغ بدَمِ الأعْداءِ أديمُه ، وكأنَّما هو شَقيقُ الشَّقيقِ وقَسيمُه ؛ كَرُمتْ غُرَرُه وحُجُولُه ، وحَسُنَتْ أعْراقُه وذُيُولُه ، مِكَرٌّ مِفَرٌّ كجُلْمودِ صَخْرٍ حطَّه من عَلٍ سُيُولُه ؛ حكَىٰ لونه مُحْمَرَّ الرَّحيق ، وله كلَّ يومٍ ظَفَرٌ جديدٌ مع أنه عَتيق .

ومن أدْهَم : مُدْرِكٍ كاللَّيل ، مُنْصَبٍّ كالسَّيْل ؛ كَرِيمِ النَّاصِيَه ، جَوَّابِ قَاصِيَه ؛ كأنَّ غُرَّتَه صُبْحٌ تَنفَّس فى الدُّجَى الحَالِك ، وكأنَّه من اللَّيلِ باقٍ بين عَيْنَيه كَوْكَبٌ يُضِيءُ المَسَالِك ، وكأنَّ حُجُولَه بروقٌ تَفرَّقت فى جوانِبِ الغَسَقِ فحَسُنَ مَنْظَرًا لذلك ؛ سَنابِكُه يُورِى قَدْحُها ، وغُرَّتُه يُنِير صُبْحُها ؛ وجَوَارِحُه مُسْوَدٌّ جُنْحُها ، وصَهْوتُه كَمَن فيها العِزُّ فلا يزالُ ظاهِرًا نُجْحُها .

ومما سوى ذلك من الجياد المختبره ، والصافنات المعتبره :

إذا ما صرفت اللحظ نحو شياتها * وألوانها فالحسن عنك مغيب(١)!

وإنما هى بصبرها على الظما ، وشدة عدوها فى النور والظلما ، وسبقها إلى غايات رهانها ، وثباتها تحت رايات فرسانها .

وتليها الفهود الحسن منظرها ، الجميل ظفرها ، الكاسب نابها وظفرها ؛ تفرق الليل فى أهبها المجتمعه ، وأدركت العواصم فى هضابها المرتفعه ؛ وجوهها كوجوه الليوث الحادره ، ووثباتها على الطريدة وثبات الفئة المؤمنة على الفئة الكافره ؛ مقلصة الخواصر ، عزماتها على الوحش حواصر ؛ ما أطلقت على صيد إلا قنصته سريعا ، ولا بصرت بعانة من حمر إلا أخذتها جميعا .

ثم الحوامى المعلمه ، والضوارى التى أضحت بالنجح متوسمه ؛ ما منها إلا طاوى الخاصره ، وثباته طائلة غير قاصره ؛ بنيوب كالأسنه ، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنه ؛ لو رآه عدى بن حاتم رضى الله عنه لضمه إلى ما لديه ، وأكل مما أمسك عليه .

وتضرب العساكر حلقة ما يلتقى طرفاها إلا إلى الليل فى اتساعها ، تحوى سائر الأوابد على اختلاف أنواعها .

فمن نعام : خضب ظليمها لما أكل ربيعا ، وأحمرت أطراف ريشه فكأنها سهام أصابت نجيعا ؛ طالت أعناقها الناحلة فكأنها خطيه ، واشتدت قوائمها الحاملة فكأنها مطيه ؛ شاركت الطير فى وجود الجناح ، وفارقتها فى كثافة الأشباح ؛ وأشبهت

(١) الذى فى ديوان المتنبى :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها * وأعضائها فالحسن عنك مغيب .

الوَحْشَ فى مَسْكَنِ القِفَار، وشِدَّةِ النِّفار، قد ٱجْتَمع فى ظَاهِرِها اللَّوْنان من الوَحْشِ والطَّيْر وٱئْتَلف فى باطنها الضِّدّان من مَاءٍ ونَار .

ومن ظِباءٍ : مُسْوَدَّةِ الأحْدَاقِ، حَكَتِ الحَبَائِبَ فى كُحْلِ المُقَلِ وحُسْنِ سَوَالِفِ الأعْناق ؛ ٱبيضَّتْ بُطُونها، وٱحْمَرَّتْ مُتُونها ؛ وراقت أوراقُها، وحَاكَتْ آمَاقُها ؛ نَافِرةٌ فى صَحْرائِها، طَيِّبٌ مَرْعاها فالمِسْكُ من دمَائِها .

ومن بَقَرٍ وَحْشِيَّةٍ : عُفْرِ الإهاب، سَاكِنةِ الهِضَاب ؛ لهـا فى حِقَافِ الرَّمْلِ مَرَابِض ، حَذَرًا من قَانِصٍ قابِض ؛ كَمْ فى ... ...[1] من لِوًى يَتَهادَىٰ ، كأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِه قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاة مِدَادَا .

ومن حُمُرٍ إهابهـا أقْمر مَنْسُوبَةٌ إلىٰ أحد (؟) ولم تُرَكَّبْ مُتُونُها، وقد حَكَى الجَزْعَ الذى لم يُثَقَّبْ فى دُجىٰ اللَّيْلِ عيُونُهَا .

وعند ما تَلْتقى حَلْقَةُ العساكر يَلْحقها ــ خَلَّد اللهُ سُلطانَه ــ ومعه الجوارِحُ الصائده، والحوامى الصائِلَه ؛ والأسْهُم النَّافِذه ، والفُهُود الآخِذَه ؛ فَتَموجُ الوَحْشُ ذُعْرا ، وتَرَىٰ مَسالِكَها قد سُدَّتْ عليها سَهْلًا ووَعْرا ؛ وضُرِب دُونَ نَجاتها بسُورٍ من الجِيَاد والفُرْسان ، وحِيلَ بينها وبين خَلَاصِها بنِبَالٍ وخُرْصان ؛ فحِينئذٍ تَفِرُّ النَّعامُ عن رِمَالها ، والظِّباءُ عن ظِلَالهـا ؛ والبَقر عن جَآذِرِها ، والحُمُر عن بولها ؛ ويَقْبِضُ ــ خَلَّد اللهُ سُـلطانَه ــ من جِنْس الوَحْشِ كُلَّ نَوْعٍ ، ولو لم يُمْسِكْها بجارِحٍ لأمْسَكَها كما تُمْسِكُ عُداةُ الإسلامِ بالرَّوْع ؛ وتُجْزَل منها المَكَاسِب ، وتُمْلأُ منها الحَقَائب ؛ فاذا أخَذَ حَظَّه من القَبْضِ ولَذَّةِ ٱكْتِسَابه ، رَسَم لأمرائه بالصَّيْد عند صُـدُور رِكَابِه ؛ فيصيدون ويَقْنصون ، زادهم الله من فَضْله ــ فإنهم فى طَاعَتِه مُخْلِصون ؛ فيكثر عند ذلك كلُّ

(١) بياض بالأصل .

قنِص ذَبِيح، ويأتى كلٌّ بمـا ٱقْتَنَصَـه ليَظْهر التَّرجيح؛ فاذا ٱسْتَكمل أوقاتَ الصَّيْد من الطَّيْر والوَحْش ثنىٰ رِكابَه الشَّريفَ إلىٰ جهة القَلْعة المحروسة والقِفارُ قد شَرُفتْ بمرور مَواكِبه، والوَحْشُ والطَّيْر قد ٱفتخرتْ بكَوْنها أصْبَحتْ من مَكَاسِبِه .

هذا كلُّه وإن كانت النفس تراه لَهْوا، وتَبْلُغ به كلَّ ماتهوىٰ، ففى طَيِّه من تَمْرينِ الجُنُود على الحَرْبِ ما تُشَـدُّ به العَزَماتُ وتَقْوىٰ ؛ فيَؤُمُّ الركابَ الشَّريفَ عائدًا إلىٰ سَرِيرِ مُلْكه بالقَلْعة المحروسـة، والسَّلامةُ قد قَضَتْ ما يجِبُ عليها من حِرَاستِه، والأقدارُ قد وَفَتْ ما يَنْبغِي من كَلاءَتِه؛ فلم يَكُ إلا وهو صاعِدٌ إلى القَلْعة المحروسـة وألْسِنَةُ السَّعادةِ تُخاطِبُه، وسَرِيرُه قد ٱهتزتْ فَرَحًا بمَقْدَمه جَوانبُه، والصَّيْد المُبَارك قد سَعِدَتْ مَبادِيه وحُمِدَتْ عَوَاقِبُه؛ فيُلْقِى أُهْبَةَ السَّفَر، ويأخُذُ فيما بَطَن من المصالح الإسلامية وظَهَر، وتُنْشِدُه ألْسِنةُ السلامةِ ما أملَىٰ عليها العِزُّ والتَّأْيِيد والظَّفَر :

مَلِكُ البَسِيطَةِ آبَ من سَفَرِه * والنَّصْر والتَّأْيِيـدُ فى أَثَرِه،

فَكَأَنَّه فى عِزِّ مَوْكِبِـه * بَدْرٌ تألَّقَ فى سَـنَا خَفَرِه .

ما فى البَرِيَّةِ مِثْـلُه مَلِكٌ * أُوتِى الذى أُوتِيه من ظَفَرِه !

يَسْرِى إلىٰ أعْدائِه رَهَبٌ * ممَّـا يَبُثُّ الناسُ من خَبَرِه .

فاللهُ رَبُّ النَّـاسِ فَاطِـرُنا * يُؤْتِيه ما يُرْبِى علىٰ وَطَرِه ! !

الصـــنف الثـانى

(من الرسائل ما يَرِدُ منها مَوْرِد المَدْح والتَّقْرِيض)

إما بأن يجعلَ المَدْح مَوْرِد الرِّسالةِ ويُصَدِّر بمَدْح ذلك الشَّخْصِ المُراد، وإما بأن يُصَدِّرَ بمـاجَرَيَةٍ يحكيها المُنْشِئُ ويتخلَّصُ منها إلىٰ مَدْح من يَقْصِدُ مَدْحَه وتَقْرِيضَه

وما يَجْرى مَجْرىٰ ذلك . وللكُتَّاب وأهْـلِ الصِّناعةِ فى ذلك أفانينُ مُخْتلفةُ المَقاصِد، وطُرُقٌ متباينة المَوَارِد .

وهذه نُسْخةُ رسالةٍ أنشأها أبو عَمْرو عثمانُ بن بَحْرٍ الجاحظُ سَمَّاها "رسالة الشُّكْر" قَصَد بها تَقْرِيضَ وَزِيرِ المُتَوكِّل وشُكْرَ نِعَمه لَدَيْه، مُصَدِّرًا لهـا بذكر حقيقة الشُّكْر وبيان مَقاصِده، وهى :

جُعِلتُ فِداكَ، أيَّدكَ اللهُ وأكرمك وأعزَّكَ، وأتَمَّ نِعْمتَه عليك وعِنْدكَ . ليس يكونُ الشُّكْر ـ أبقاكَ الله ـ تامًا، ومن حَدِّ النُّقْصانِ خارجا، حتَّى يَسْتَصْحِبَ أربعَ خِلال، ويشتمِلَ علىٰ أرْبَعِ خِصَال :

أوّلهـا : العِلْم بمَوْقِع النِّعمة من المُنْعَم عَلَيه، وبقَدْرِ ٱنتفاعه بمـا يَصِلُ إليه من ذلك : من سَدِّ خَلَّة، أو مَبْلغِ لَذَّةٍ وعُلُوٍّ فى دَرَجة، مع المعرفة بمِقْدار ٱحتمال المُنْعِم لِلْمَشَقَّة، والذى حاول من المُعاناةِ والكُلْفةِ فى بَذْلِ جاهٍ مَصُونٍ، أو مُفـارَقَة عِلْقٍ ثَمِينٍ . وكَيْف لا يكون كذلك ؟ وقد خَوَّل من نِعَمه بعضَ ما كان حَبِيسًا علىٰ حَوادِثَ عِدَّة، فزاد فى نِعَم غيره بما ٱنْتَقَصَ من نِعَمِ نَفْسه ووَلَدِه. فكلَّما تَذَكَّر الشاكرُ ما ٱحتملَ من مَئُونَةِ البَذْل، سَهُل عليه ٱحْتِمالُ ما نَهَضَ به من ثِقَلِ الشُّكْر .

والخَصْلة الثانية : الحُرِّيَّة الباعثةُ علىٰ حُبِّ المكافأة وٱسْتِحْسان المُجَازاة . والشُّكْرُ من أكْبَرِ أبواب الأمَانَه، وأبْعدِه من أسْبابِ الخِيانَه . ولن يبلُغَ أحَدٌ فى ذلك غاية المجد إلا بمَعُونَة الطمع، وإلا الحَرْب سِجَالٌ بَيْنهما، والظَّفَرُ مَقْسومٌ عليهما . كذلك حُكْمُ الأشياء إذا تَساوتْ فى القُوَّه، وتَقاربَتْ فى بُلُوغ المُدَّه . وقد زعم ناس أن الشَّاكرَ والمُنْعِم لا يَسْتوِيان، كما أن البَادِئَ بالظُّلْم والمُنْتَصِرَ لا يَعْتدِلَان ؛ لأنَّ البـادِئَ أخذَ ما لَيْس له، والمُنْتصِرَ لم يتجاوزْ حَقَّه الذى هو له ؛ ولأن البادئَ لم يكن مُهَيَّجًا على

الظُّلْم بعِلَّةٍ جناها المُنْتَصِر، والمُنْتَصِرُ مهيجٌ على المُكافأة بعِلَّةٍ جناها البَادِئُ، والمُثَوَّر للطباع المُغْضَب، والمُستخِفُّ المُهَيَّج أعْذَرُ من السَّاكِنِ الوَادِعِ المُطْمَئِنّ. فلذلك قالوا: إن البَادِئَ أظْلَم، والمُنْتَصِر أعْذَر. وزعَمُوا أن المُنْعِم هو الذى أودَعَ صَدْرَ الشاكِرِ المَحَبَّة بانعامه عليه، وهَيَّجَه بذلك على مُكافَأَتِه لإحْسَانِه إليه، فقد صار المُنْعِمُ شَرِيكَ الشَّاكِرِ فى إحسانه، وتفرَّدَ بفَضْل إنعامه دُونَ مُشارَكَة غيره، والمُنْعِم هو الذى دَفَع للشاكر أداةَ الشُّكْر، وأعَارَه آلَةَ الوَفَاء، فهو من هُهُنا أحَقُّ بالتقديم، وأَوْلى بالتَّفْضيل.

هذا، وقد قال بعضُ الحكماء والأُدَباء والعُلَماء: من تَمَامِ كَرَمِ المُنْعِم التَّغافُلُ عن حُجَّتِه، والإقْرارُ بالفَضِيلة لشاكِرِ نِعْمَتِه؛ لأن المُحاجَّة مُغَالَبه، ولا تَتِمُّ مودَّةٌ إلا مع المُسامَحَه. ولذلك قال الرَّبَعِيُّ لناسٍ من العَرَب يَخْتَصِمُون: هَلْ لَكُم فى الحَقِّ أو خَيْرٍ منه؟ قالوا: قد عَرَفنا الحقَّ، فما الذى هو خَيْرٌ منه؟ قال: التَّغافُلُ فإنَّ الحقَّ مُرٌّ. ألا تَرى إلى بِنْتِ هَرِمِ بن سِنَانٍ لما قالتْ لابْنة زُهَيْر بن أبى سُلْمى فى بَعْضِ المَناحَاتِ، أو فى بعض المُزاوَرَاتِ: إنَّه لَيُعْجِبُنى ما أرى من حُسْنِ شَارَتِكُم، ونَقاءِ نَفْحَتِكم. قالت ابنةُ زُهَير: أمَا والله لَئِنْ قُلْتِ ماقُلْتِ، فما ذلك إلا من فُضُول ماوَهَبْتُم، ومن بَقَايا ما أنْعَمْتُم. قالت بنتُ هَرِم: لابل لكم الفَضْلُ، وعلَينا الشُّكْر؛ أعطينا كم ما يَفْنى، وأعْطَيْتُمُونا ما يَبْقى. وقيل لعَبْد الله بن جعفرٍ حين أجْزَل لنُصَيْبِ الشَّاعِرِ فى الهِبَة، وكَثَّر له فى العَطِيَّة: أتُنِيلُ هذا العَبْدَ الأسْود كلَّ هذا النَّيْل، وتَحْبُوه بِمثْلِ هذا الحِباء؟ فقال عبدُ الله بن جَعْفر: أمَا والله لَئِنْ كان أسْوَد الجِلْدِ إنه لَأَبْيَضُ الشِّعْر، أعطيناه دَراهِمَ تَفْنى، وثِيَاباً تَبْلى، ورَوَاحِلَ تُنْضى؛ وأعطانا ثَنَاءً يَبْقى، وحَدِيثًا يُثْنى، ومَكَارِمَ لاتَبْلى. فلهذه الخِصَالِ تكاملتْ خِصَالُ المَجْد فيهم، فظَهَر عُنْوان كَرَم الخَيْرِ عليهم، فصاروا فى زَمَانِهم مَنَارا، ولمن بعدهم

أعْلاما . وليس تَتِمُّ مَعانى كَرَمِ المُنْعِم ، ومَعَانِى وَفَاء الشاكر ، حتَّى تتوافَقَ أقوالُها ، وتَتَّفِقَ أهْواؤُهما علىٰ تَدَافُع الحجة ، والإقْرارِ بالمُعْجِزَة ، فيزدادُ بذلك المُنْعِمُ فَضْلا ، والشَّاكِرُ نُبْلًا .

هٰذا جُمْلة القَوْلِ فى خَصْلَتَينِ من الأَرْبَع التى قدّمنا ذكرها ، وشَهَرْنا أمرها .

والخَصْلة الثالثة : الدِّيانة بالشُّكْر ، والإخْلاصُ للمُنْعِم فى تَصْفِيَةِ الوُدّ ، فان الدِّينَ قائِدُ المُرُوءة ، كما أن المُرُوءَةَ خِطَامُ الحَمِيَّة . وهٰذه الخِصالُ وإن تَشَعَّبَتْ فى بعضِ الوُجوه ، وافترقَتْ فى بَعْضِ الأماكِنِ ، فإنها تَرْجع إلىٰ نِصَابٍ يَجْمعها ، وإلىٰ إناءٍ يَحْفَظُها ، منه نَجَمَتْ ، وعَنْه انْبَثَّتْ ، وإليه رَجَعَتْ . ولاجْتماعِ هٰذه الخِصالِ علىٰ مُخَالَفَةِ الهَوىٰ ، ومُجَانَبَةِ الهُوَيْنىٰ ، وعلى اتِّهامِ دَوَاعِى الشَّهْوة ، والامْتناع من كَلَبِ الطَّبِيعَة ـ وَفَّقَ الأوّلون بينها فى جُمْلَةِ الاسم ، وقارَنُوا بينها فى جَمْهَرَةِ الحُكْم . ولذلك قال عمرُ بنُ الخَطَّابِ رضى الله عنه : اعْتَبِرْ عَزْمَهُ بحَمِيَّتِه ، وحَزْمَه بمَتَاعِ بَيْتِه .

ومَدَارُ جميع الأحوال المحمودة على الصَّبْر ، ولن يتكَلَّفَ مَرَارَة الصَّبْرِ من يجهلُ عَاقِبَةَ الصَّبْر . وقالوا : لمَّا صار ثِقَلُ الشُّكْرِ لا يُحْتَمَلُ إلا بالصَّبْر ، صار الشُّكْر من نِتَاجِ الصَّبْر . وكما أنه لابُدَّ للحِلْم ـ مع كَرَمِ الحِلْم ـ من الصَّبْر ، فكذلك لابُدَّ للشُّكْرِ ـ مع كَرَمِ الشُّكْر ـ من الصَّبْر . فالصَّبْر يجرى مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يَجْرِى الهوىٰ مع جَمِيع الأفعال المذمومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « خَلَقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ النَّارَ وحَفَّها بالشَّهواتِ ، وخَلَقَ الجَنَّةَ وحَفَّها بالمَكاره » .

والخَصْلَة الرابعة : وَصْفُ ذلك الإحْسان باللِّسان البَيِّن ، وتَحَيُّره بالبيان النَّيِّر ، وباللَّفظِ العَذْبِ الشَّهِىّ ، والمَعْنى الشَّرِيفِ البَهِىّ . فان الكلامَ إذا كان حَسَنًا ، جعلَتْه الحكماءُ أدبا ، ووَجَدَت الرُّواةُ إلىٰ نَشْرِه سَبَبا ، حتَّى يَصِيرَ حَدِيثًا مَأْثُورا ، ومَجْدًا

مَذْكورا ؛ وداخلًا فى أسْمارِ المُلوك ، وسُوقًا من أسْواقِ المُتأدِّبين ، ووُصْلَةً فى المَجالس ، وزيادةً فى العَقْل ، وشَحْذًا للسان ، وتَرْهيفًا للقَلْب ، وتَلْطِيفًا للفِكْر ، وعِمارةً للصَّدْر ، وسُلَّمًا إلى العُظَماء ، وسَبَبًا إلى الجِلَّةِ الكُبَراء . وإذا لم يكُنِ اللَّفظُ رائعا ، والمَعْنىٰ بارِعا ؛ وبالنَّوادِرِ مُوَشَّحا ، وبالمُلَحِ مَجْلُوًّا ؛ لم تَصْغ له الأسْماع ، ولم تَنْشَرِحْ له الصُّدُور ، ولم تَحْفَظْه النُّفوس ، ولم تَنْطِقْ به الأفْواه ، ولم يُخَلَّدْ فى الكُتُب ، ولم يَتَقيَّد بالدَّرْس ، ولم يَجْذَلْ به قائِل ، ولم يَلْتَذَّ به سامِع . ومتىٰ لم يكُنْ كذلك كان كلامًا ككَلامِ اللَّغْو ، ومَعانى السَّهْو ؛ وكالهُجْرِ الذى لا يُفْهَم ، والمُسْتَغْلَقِ الذى لا يُعْلَم .

وليس ــ أبقاك الله ــ شَىْءٌ أحْوَجَ إلى الحِذْق ، ولا أفْقَرَ إلى الرِّفْق ؛ من الشُّكْرِ النَّافِع ، والمَديحِ النَّاجِع ؛ الذى يَبْقىٰ بَقاءَ الوَشْم ، ويَلُوح كما يَلُوح النَّجْم . كما أنَّه لاشَىْءَ أحْوَجُ إلىٰ وُسْعِ الطَّاقَة ، وإلى الفَضْلِ فى القُوَّة ، وإلى البَسْطَةِ فى العِلْم ، وإلىٰ تَمام العَزْم ــ من الصَّبْر . وعلىٰ أن الشُّكْر فى طَبَقاتٍ مُتَفاوِتَه ، ومَنازِل مُتَبايِنَه ؛ وإن جَمَعَها اسْمٌ ، فليس يجمعها حُكْم ، فرُبَّما كان كلامًا تَجِيشُ به الصُّدُور ، وتَمُجُّه الأفْواه ، وتَجْدِفُ به الألْسِنَة ، ويُسْتعمَلُ فيه الرَّأْىُ المُقْتَضَب ، والخاطِرُ المُخْتار ، والكَلامُ المُرْتَجَل ، فيُرمىٰ به علىٰ عَواهِنه ، وتُبْنىٰ مَصادِرُه علىٰ غيرِ مَوارِدِه ، لا يَتَعذَّرُ فيه الشَّاكِرُون لانْتِفاعِ المُنْعِمين ، كما تعذَّرَ المُنْعِمُون لانتفاعِ الشَّاكِرِين . وليستْ غايَةُ القائِلِ إلا أنْ يُعَدَّ بَلِيغًا مُفَوَّها ، أو يَسْتَزيدَ به إلىٰ نِعَمِه السَّالِفَةِ نِعَمًا آنِفَة ، أوَلَيْس إلا ليَغْتَرَّ كَرِيما ، أو يَخْتَدِع غَنِيًّا لايَتَفَقَّد ساعاتِ القَوْل ، ولايَتَعرَّفُ أقْدارَ المُسْتَمِعين ؟ وليس غايَتُه إلا الكَسْب والتَّعرُّضَ والانْتِفاعَ والتَّرَبُّح ؛ وعلىٰ هذا يَدُور شُكْرُ المُسْتاكِلين ، وإحْمادُ المُتَكَسِّبين .

وهذا البابُ وإن جَعلَتْه العوامُّ شُكْرا ، فهو بغَيْرِ الشُّكْر أشْبَه ، وبذلك أولىٰ ، ورُبَّما كان شُكْره عن تأَنُّقٍ وتَذْكير ، وعن تَخَيُّرٍ وتَخْيير ، وعن تَفَقُّدٍ للحالات ،

وتَحْصِيلٍ للأُمُور فى المقامات التى تُحِيطُ بِمُهْجَتِه ، وبحَضْرة عَدُوٍّ لا يزالُ مُتَرَصِّدًا لِنِعْمَتِه ، فربَّما ٱلتمس الزيادةَ فى غَيْظِه ، ورُبَّما ٱلتمس شِفَاءَ دَائِه وإصْلاحَ قَلْبِه ، ونَقضَ المُبْرَمِ من مَعَاقِدِ حِقْدِه ، علىٰ قَدْرِ الرَّد ، وعلىٰ قَدْرِ تَصَرُّف الحالات فى المَصْلحة ، لأن الشاكِرَ كالرَّائِد لأهْلِه ، وكَزَعِيم رَهْطِه ، والمُشَارُ إليه عند مَشُورته ، فرُبَّما ٱختار أن يكون شُكْرُه شِعْرا : لأن ذلك أشْهَر ، ورُبَّما ٱختار أن يكون كَلَامًا مَنْثورًا : لأن ذلك أنْبَل ، وربَّما أظهر اليُسْر وٱنْتَحل الثَّرْوَة ، وجعلَ من الدَّلِيل علىٰ ذلك كَثْرةَ النَّفَقة ، وحُسْنَ الشَّارة ، ويَرَىٰ أن ذلك أصْدَقُ المَدْحَيْن ، وأنْبَلُ الشُّكْرين ، ويجعلُ قائدَه إلىٰ هذا المَذْهَب ، وسَابِقَه إلىٰ هذا التَّدْبِير قولَ نُصَيْبٍ :

فعَاجُوا فَأَثْنَوْا بالذى أنْتَ أهْـلُه ﴾ ولو سَكَتُوا أثْنَتْ عليك الحَقَائِبُ !

وممَّا يدخُلُ فى هذا الباب وليس به ــ قولُ العَنْزِىّ :

يابْنَ العَلاءِ ويابْنَ القِرْمِ مِرْدَاسِ : ﴾ إنِّى لأُطْرِيكَ فى أَهْلِى وجُلَّاسِى .
حَتَّىٰ إذا قِيلَ : ما أعْطَاكَ مِن صَفَدٍ؟ ﴾ طَأْطَأْتُ من سُوءِ حَالٍ عندها رَاسِى !
أُثْنِى عَلَيْكَ ولِى حَالٌ تُكَذِّبُنِى ﴾ بِما أقُولُ فأسْتَحْيِى من النَّاسِ !

وبين هٰذين الشُّكْرَين طبقاتٌ مَعْروفه ، ومَنَازِلُ مَعْلُومه . ومَوْضِعُ الشُّكْر من قَلْب السَّامِعِ فى القَبُول والآسْتِنامه ، علىٰ قَدْرِ حُسْنِ النِّيَّة ، والذى يعرفُ به الشَّاكِرُ من صِدْقِ اللَّهْجَة ، ومن قِلَّة السَّرَف ، وٱعتِدَالِ المَذَاهِب ، والاقْتِصَادِ فى القَوْلِ . وهذا بابٌ سِوَى البابِ الآخَرِ من حُسْنِ الوَصْف ، وجَوْدَةِ الرَّصْف . ولذلك لمَّا أحْسَنَ بعضُ الوَاعِظِينَ فى المَوْعِظَة ، وأبْلَغ فى الاعْتِبارِ وفى تَرْقِيقِ القُلُوب ، ولمَّا لَمْ يَرَ أحَدًا يَخْشَع ، ولا عَيْنا تَدْمَع ، قال : ياهٰؤلاءِ إما أن يكون بى شَرّ ، أو يكونَ بكم شَرّ .

وقيل لجُلَساءِ الفَضْلِ الرَّقَاشِىّ ، وعَبْد الصَّمَد بن الفَضْلِ الرَّقَاشِىّ : مابالُ دُمُوعِكم عِنْدَ الفَضْل أغْزَر ، وعند عَبْد الصَّمد أنْزَر ، وكلامُ عَبْد الصَّمد أغْزَر ،

وكَلامُ الفَضْـل أنْزَر؟ قالوا : لأن قَلْب الفَضْـلِ أرَق، فصارتْ قُلوبُنـا أرَقّ، والقُلُوب تتجارَىٰ .

وقالوا : طُوبَىٰ للمَمْدُوح إذا كان للمَـدْح مُسْتَحِقّا ، وللدَّاعِى إذا كانَ للاَسْتِجابَةِ أَهْلا، وللمُنْعِمِ إذا حَظِىَ بالشُّكْر، وللشَّاكِر إذا حَظِى بالقَبُول .

إنى لَسْتُ أحْتَشِم من مَدْحِك ، لأنى لَسْتُ أتَزَيَّد فى وَصْفِك ، ولستُ أمْدَحُك من جِهَة مَعْرُوفِك عندى، ولا أَصِفُك بتَقْدِيم إحْسانِكَ إلىَّ، حتَّىٰ أقَدِّم الشُّكْر الذى هو أوْلىٰ بالتَّقْـدِيم ، وأفَضِّلَ الصِّـنْفَ الذى هو أحَقُّ بالتَّفْضِيل . وفى الخَـبَر المُسْتَفِيض ، والحَدِيثِ المَأْثُور : « ماقَلَّ وكَفَىٰ خيرٌ مِمَّـا كَثُر وألْهَىٰ . وقَلِيلٌ باقٍ خَيرٌ من كَثِيرٍ فَانٍ » .

تَذَاكَرَ الناسُ عند بَعْضِ الحُكَماء طَبَقاتِ السَّابقين فى الفَضْل ، وتَنْزِيلَ حالاَتِهم فى البِرّ، ومَن كانتِ الخَصْلَةُ المَحْمودةُ فيه أكْثَر ، والخَصْلَةَ الثانيةُ فيـه أوْفَر، فقال ذلك الحَكِيم : ليس بعَجَبٍ أن يَسْـبِقَ رجُلٌ إلى الإسْلامِ، وكلِّ شَىْءٍ، فقد سَبَق إلىٰ تَقْدِيمه ناسٌ وأبْطَأَ آخَرُون ؛ وليس بعَجَبٍ أن يَفُوقَ الرَّجلُ أتْرابَه فى الزُّهْـد ، وأكْفاءَه فى الفِقْه، وأمْثالَه فى الذَّبِّ : وهذا يُوجَدُ فى كلِّ زمانٍ ، ويُصابُ فى كلِّ البُلْدان . ولكنَّ العَجَب العَجِيب، والنَّادِرَ الغَرِيب ، الذى تَهَيَّأ فى عُمَر بنِ الخَطَّاب رضى الله عنه واتَّسَق له . وذلك أنه غَبَر عَشْر حِجَج: يفْتَح الفُتُوح، ويُدَوِّخ البِلَاد، ويُمَصِّر الأمْصار، ويُدَوِّنُ الدَّواوِينَ، ويَفْرِضُ الفُرُوض، ويُرَتِّب الخاصَّـة، ويُدَبِّر العَامة، ويَجْبِى الفَىْءَ، وتَرْمى إليه الأرضُ بأفلاذِ كَبِدها، وأنْواعِ زُخْرُفِها، وأصْناف كُنُوزِها ، ومَكْنُون جَوْهَرِها ، ويَقْتُلُ مُلوكَها ، ويَلِى ممَالِكَها ، ويَحُلُّ ويَعْقد ، ويُوَلِّى ويَعْزِل، ويَضَع ويَرْفَعُ، وبلَغَتْ خَيْلُه إفْرِيقِيَة، ودخلتْ خُراسَانَ: كلُّ ذلك بالتَّـدْبير الصَّحِيح والضَّبْط، والإتْقَانِ والقُوَّة ، والإشراف ، والبَصَر النَّافِذ، والعَزْم

المُتَمَكِّن . ثم قال : لا يَجْمع مَصْلحةَ الأمَّة ، ولا يَحُوشهم علىٰ حَظِّهم من الأُلْفة واجتماعِ الكلمة ، وإقامَتِهم على المَحَجَّة ، مع ضَبْط الأطْراف ، وأمْنِ البَيْضَة ـ إلا لِينٌ فى غَيْر ضَعْف ، وشِدَّةٌ فى غير عُنْف . ثم غبر بعد ذلك سِنِيَّه كُلَّها علىٰ وَتِيرةٍ واحِدَةٍ ، وطَرِيقَةٍ مُطَّرِدَة ، لا يَنْحرِفُ عنها ، ولا يُغَيِّرها ، ولا يَسْأَمُها ، ولا يزولُ عنها : من خُشُونة المَأْكَل والمَلْبَس ، وغِلَظ المَرْكَب ، وظَلَف النَّفس عن صَغيرِها وكَبيرِها ، ودَقِيقِها وجَليلِها ، وكلِّ ما يُناجِزُ الناسُ عليه ، لم يَتغَيَّرْ فى لِقَاءٍ ولا فى حِجَاب ، ولا فى مُعَامَلةٍ ولا فى مُجالَسة ، ولا فى جَمْع ولا فى مَنْع ، ولا قَبْضٍ ولا بَسْط : والدُّنيا تَنْصَبُّ عليه صَبّا ، وتَتَدَفَّقُ عليه تَدَفُّقا ، والخَصْلةُ من خِصَاله ، والخَلَّةُ من خِلاله ، تَدْعُو إلى الرَّغْبة ، وتَفْتَحُ بابَ الأُلْفة ، وتَنْقُضُ المُبْرم ، وتُفِيد المُرُوءَة وتُفْسِح المُنَّة ، وتَحُلُّ العُقْدَة ، وتُورِثُ الاغْترارَ بطُولِ السَّلامة ، والاتِّكالَ علىٰ دَوَامِ الظَّفَر ، ومُواتَاةِ الأَيَّام ، ومُتَابَعةِ الزَّمان . وكان ثَبَاتُه عَشْرَ حِجَجٍ علىٰ هذه الحال أُعْجُوبةً ، ومن البَدَائِع الغَرِيبَة . وبأقلَّ من هذا يظهرُ العَجَب ، ويُسْتعمَلُ الكِبْر ، ويَظْهَر الجفاء ، ويَقِلُّ التَّواضُع .

ونحنُ وإن كُنَّا لا نَسْتَجيزُ أن نُلْحِقَ أحدًا بطِبَاعِ عُمَر ومَذْهَبِه ، وفَضْلِ قُوَّتِه ، وتَمَام عَزْمِه ، فإنَّا لا نَجِدُ بُدًّا من مَعْرِفة فضلِ كُلِّ مَن استقامتْ طَرِيقَتُه ، ودامتْ خَلِيقَتُه ، فلم يتغيَّرْ عند تَتَابُع النِّعَم ، وتَظَاهُر الصُّنْع ، وإن كانتِ النِّعَم مختلفةَ الأجناس ، ومُتفَاوِتَةً فى الطَّبقات . وكيف يَلْحقُ به أحَدٌ ؟ مع قوله : « لَوْ أنَّ الصَّبْر والشُّكْر بَعيرَان ما بَالَيْتُ أيَّهما رَكِبْتُ » ولٰكِنَّا علىٰ حالٍ لا نَدَعُ تعظيمَ كُلِّ من بَانَ من نُظَرائِه فى المَرْتَبَه ، وأشْباهِه فى المَنْزِلَه ، إذ كان أدْوَمَهم طَرِيقَه ، وأشَدَّهم مَرِيرَه ، وأمْضاهُم على الجَادَّةِ الوُسْطَىٰ ، وأقْدَرَهُم على المَحَجَّة العُظْمىٰ .

ولا بدَّ من أن يُعطى كلُّ رئيسٍ قِسْطَه، وكلُّ زمانٍ حظَّه؛ ولا يُعجِبُني قولُ القائل: لم يَدَعِ الأوّلُ للآخِرِ شيئًا، بل لَعَمْرِي لقد تَرَكَ له العَرِيضَ الطَّويل، والثَّمِينَ الخَطِير، واللَّقَمَ النَّهْجَ، والمَنْهَجَ الرَّحْب. ولو أنَّ الناسَ مُذْ جَرَتْ هذه الكلمةُ على أفواهِ العَوام، وأُعْجِبَ بها الأغمارُ من الرِّجال ـ قلَّدوا هذا الحُكْم، واستَسْلَموا لهذا المَذْهَب، وأهملوا الرَّوِيَّة، ويَئِسُوا من الفائدة، لقد كان ارتفع من الدُّنيا نَفْعٌ كثير، وعِلْمٌ غزير.

وأيُّ زمانٍ بعد زمانِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله أحقُّ بالتَّفضيل، وأَوْلىٰ بالتقديم، من زمانٍ ظهرتْ فيه الدَّعوة الهاشِميَّة، والدَّوْلةُ العبَّاسيَّة، ثم زمانِ المُتوكِّلِ على الله، والنَّاصِرِ لدينِ الله، والإمامِ الذى جَلَّ فِكْره، وكَثُرَ شُغْلُه بتَصْفِيَةِ الدِّينِ وتَهْذيبه، وتَلْخِيصه وتَنْقِيحه، وإعزازه وتأييده، واجتماعِ كَلِمَتِه، ورُجُوعِ أُلْفَتِه. وقد سَمِعتُ من يقول ـ ويَسْتَشْهِدُ العِيَانَ القاهِر، والخبرَ المُتظاهِر ـ: ما رأيتُ فى زمانِنا من كُفاةِ السُّلطانِ ووُلاتِه، وأعوانِه وحُماتِه؛ من كان يُؤمِّل لمحلِّك، ويتقدَّم فى التأهُّبِ له، إلا وقد كان معه من البَذْخ والنَّفْخ، ومن الصَّلَفِ والعُجْب، ومن الخُيَلاء، ومن إفراطِ التَّغيُّر للأولياء، والتَّهكُّمِ على الخُلَطاء، ومن سُوءِ اللقاء، ما لا خَفاءَ به على كاتبٍ ولا على عامِل، ولا على خَطِيبٍ ولا على أديب؛ ولا على خاصِّيٍّ ولا على عامِّيٍّ.

فجمعتَ ـ والحمدُ لله على النِّعْمة فيك ـ بين التَّواضُع والتَّحبُّب، وبين الإنصاف وقِلَّة التَّزيُّد؛ فلا يَستطيعُ عدوٌّ مُعْلِن، ولا كاشِحٌ مُسِرّ، ولا جاهِلٌ غبيّ، ولا عالِمٌ مُبرِّز، يزعم أنه رأىٰ فى شمائلك وأعطافك ـ عند تتابُعِ النِّعَم، وتظاهُرِ المِنَن ـ تغيُّرًا فى لقاءٍ ولا فى بِشْرٍ عند المُساءَلة، ولا فى إنصافٍ عند المُعامَلة، واحتمالٍ عند المُطاوَلة. الأمرُ واحِد، والخُلُق دائِم، والبِشْرُ ظاهِر، والحُجَج ثاقِبة، والأعمال

زَاجِيــه، والنفوس راضــيَه ؛ والعُيُون ناطِقة بالمَحَبَّــه ، والصُّدورُ مَأْهولة بالموَدّه ؛ والدَّاعِي كثير ، والشاكِي قليل ؛ وأنت بحمد الله تزدادُ فى كلِّ يومٍ بالتَّواضُعِ نُبْــلا ، وبالإنصافِ فَضْلا ؛ وبحسن اللِّقاءِ مَحَبَّه ؛ وبقِلةِ العُجْبِ هَيْبه .

وقال سَهْلُ بنُ هٰرُون فى دعائه لبعض من كان يَعْتَنِى بشَأْنه : اللهم زِدْه من الخيرات ، وٱبْسُطْ له فى البركات ؛ حتّىٰ يكونَ كلُّ يوم من أيامه مُوفِيًا علىٰ أمسِه ، مُقَصِّرا عن فَضِيلة غَدِه . وقال فى هذا المعنىٰ أعْشَىٰ هَمْدانَ ، وهو من المُخَضْرَمين :

رَأيْتُــكَ أمسِ خَيْرَ بَنِى مَعَــدٍّ * وأَنتَ اليومَ خَيْرٌ منــك أَمْسِ ،

وبَعْــدَ غَدٍ تَزِيدُ الخَــيْرِ ضِعْفًا * كَذاكَ تَزِيدُ سَادةُ عَبْــدِ شَمْسِ !

قد والله أنعم اللهُ عليك وأسْبَغ ، فاشْكُرِ اللهَ وأَخْلِص ؛ مَحْتِدُك شَرِيف ، وأُرُومَتُكَ كَرِيمة ، والعِرْقُ مُنْجِب ، والعَدَد دَثْر ، والأَمْر جَمِيــل ، والوُجُوه حِسَان ، والعُقُول رِزَان ؛ والعَفافُ ظاهر ، والذِّكْر طَيِّب ، والنِّعمة قَدِيمــة ، والصَّنِيعة جَسِيمَة ؛ وما مَثَلُكم إلا كما قال الشَّاعر :

إنَّ المَهَالِبَة الكِرام تَحَمَّــلُوا * دَفْعَ المَكَارِه عن ذَوِى المَكْرُوه ،

زَانُوا قَدِيمَهم بحُسْــنِ حَدِيثِهم * وكَرِيمَ أخْلاقٍ بحُسْنِ وُجُوه !

النعمة محفوظة بالشُّكر ، والأخْلاق مُقَوَّمةٌ بالأَدَب ، والكفاءة مَحْفُوفة بالحِذْقِ ، والحِذْقُ مَرْدودٌ إلى التوكُّل ، والصُّنْعُ من وراء الجميع إن شاء الله .

هــذا إلىٰ ما ألْبَسك الله من القَبُول ، وغَشَّاك من المَحَبَّة ، وطَوَّقك من الصَّبْر . فبَقِى الآنَ أن تَشْتَهِىَ ما أنت فيه شَهْوةً فى وَزْنِ هذه المرتبة ، وفى مِقْدار هذه المَنْزِلة ؛ فإنَّ الرغبــةَ وإن قَوِيَتْ ، والرَّهْبة وإن آشــتدّت ؛ فإنهما لا يثمِرانِ من النشاط ،

ويُنتِجان من القُوَّة على المباشرة والكدّ ، ما تُثْمِره الشَّهوة وإن ضَعُفَت ، والحَرَكة من ذات النَّفس وإن قلَّت ، لأن النَّفس لا تسمح بمكنونها كُلِّه ، وتَجُود بمخزون قُوَاها أجْمَع ، إلا بالشهوة دُون كُلِّ عِلَّة مُحرِّكة ، وكُلِّ سَبَب مُهيِّج .

قال يحيي بنُ خالد لجعفر بن يحيى حين تقلَّد الوزَارَة ، وتكلَّف النُّهوضَ بأعباء الخلافَة : أىْ بُنىَّ ، إنِّى أخافُ عليك العَجْزَ : لعَظيم ما تقلَّدتَ ، وجَسيم ما تحمَّلت . إنى لَسْتُ آمَنُ أن تتفسَّخ تحت ثِقلها تفسُّخَ الجمَل تحت الحِمْلِ الثقيل . قال جَعْفر : لكنِّى أرْجُو القوّة ، وأطمعُ أن أسْتقِلَّ بهذا الثِّقل وأنا مُبْتهِلٌ غير مَبْهُور ، وأجِىءُ قبل السَّوابِق وأنا ثانِى . يقول : وأنا ثانِى عِنَانِى ، لأنى لم أجْهد فَرَسِى رَكْضا . قال يحيى : إن لكلِّ رَجاءٍ سَببا ، فما سَبَبُ رجائك ؟ قال : شَهْوتِى لما أنا فيه ، والمُشْتهِى للعَمَل لا يجد من ألَم الكَدِّ ما يجدُه العَسِيف الأسِيف . قال يحيى : إن نَهَضتَ بثِقْلها فبهذا ، وإلَّا فلا . وأنا أسأل الله أن يصرف شَهْوتَك إلى حُبِّ ذلك ، وهَوَاك إلى الاحتفاظ بنِعْمَتِك : بشُكْر المُصْلحين ، والتوكُّلِ على ربِّ العالمين .

وحقٌّ لمن كان من غَرْسِ المتوكِّل على الله وابتدائه ، ومن صَنَائِعه واخْتِياره ، أن يُخَرِّجَ على أدَبِه وتَعْليمه ، وعلى تَثْقيفه وتَقْويمه ، وأن يُحَقِّقَ اللهُ فيه الأمل ، ويُنْجِز فيه الطَّمَع ، وأن يَمُدّ له فى السَّلامَة ، ويُجْزِلَ له من الغَنيمة ، ويُطَيِّبَ ذِكْرَه ، ويُعْلِي كَعْبَه ، ويَسُرَّ صَدِيقَه ، ويَكْبِتَ عَدُوَّه .

* * *

وهذه نسخةُ رسالةٍ تسمَّى الإغْرِيضيَّة ، أرسلها أبو العَلَاء أحمدُ بنُ عَبْد الله بن سليمانَ المَعَرِّى التَّنُوخىّ إلى أبى القاسم الحُسَيْنِ بن علىّ المَغْرِبىّ ، وهى :

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه الإعانة] (١) .

السلام عليك أيتها الحكمة المغربية، والألفاظ العربية؛ أي هواء رقاك، وأي غيث سقاك؛ برقه كالإحريض، وودقه مثل الإغريض؛ حللت الربوه، وجللت عن الهبوه؛ أقول لك ما قال أخو نمير، لفتاة بني عمير:

زكا لك صالح وخلاك ذم * وصبحك الأيامن والسعود!

لأنا آسف على قربك من الغراب الجحازي، على حسن الزي، لما أقفر، وركب السفر؛ فقدم جبال الروم في نو، أنزل البرس (٢) من الجو؛ فالتفت إلى عطفه وقد شمط فأسي، وترك النعيب أو نسي؛ وهبط إلى الأرض فمشى في قيد، وتمثل ببيت دريد:

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه، * فلما علاه قال للباطل: ابعد!

وأراد الإياب، في ذلك الجلباب؛ فكره الشمات، فكمد حتى مات؛ ورب ولي أغرق في الإكرام، فوقع في الإبرام؛ إبرام السأم، لا إبرام السلم؛ فحرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء في الهاء، فتلك حراسة بغير انتهاء؛ وذلك أن هذين ضدان، وعلى التضاد متباعدان، رخو وشديد، وهاد وذو تصعيد؛ وهما في الجهر والهمس، بمنزلة غد وأمس؛ وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدا، نظير الفعل في أنها لا تخفض أبدا؛ فقد جعلني: إن حضرت عرف شاني، وإن غبت لم يجهل مكاني؛ كيا في النداء، والمحذوف من الابتداء؛ إذا قلت: زيد أقبل، والإبل الإبل؛ بعد ما كنت كهاء الوقف إن ألقيت فبواجب، وإن ذكرت فغير لازب.

---

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريضية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب.

(٢) البرس القطن، والمراد الثلج الشبيه به.

إنّى وإن غَدَوْتُ [فى زمانٍ](١) كثير الدَّد، كهاءِ العَـدَد، لَزِمَتِ المُذَكَّر، فأَتَتْ بالمُنْكَر، مَعَ إلْفٍ يَرَانِى فى الأَصْلِ، كألِفِ الوَصْل، يَذْكُرُنِى بغير الثَّناء، ويَطَّرِحُنِى عند الاسْتِغْناء، وحَالٍ كالهمزة تُبْدَل العَيْن، وتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْن، وتكونُ تارةً حرفَ لِين، وتارةً مثل الصَّامِتِ الرَّصِين، فهى لا تَثْبُتُ علىٰ طَرِيقَـه، ولا تُدْرَكُ لهـا صورةٌ فى الحَقِيقه، ونَوائِبَ أَلْحَقتِ الكَبِيرَ بالصَّغير، كأنها تَرْخيم التَّصْغِير، رَدَّتِ المُسْتَحْلِسَ إلىٰ حُلَيْس، وقَابُوسًا إلىٰ قُبَيْس، لَأَمُدَّنَّ صَوْتِى بتلك الآلاء، مَدَّ الكُوفِىِّ صَوْتَه فى هٰؤُلاء، وأُخَفِّفُ عن حَضْرة سيدنا [الوزير](١) الرَّئِيس الحَبْر، تَخْفِيفَ المَدَنِىِّ ما قَدَر عليه من النَّبْر، إن كاتَبْتُ فلَسْتُ مُلْتمِسَ جَوَاب، وإن أسْهَبْتُ فى الشُّكْرِ فلَسْتُ طَالِبَ ثَواب، حَسْبِى ما لَدَىَّ من أياديه، وما غَمَر من فَضْلِ السَّيِّد الأكبر أبيه، أدام الله لهما القَدْر ما دام الضَّرْبُ الأوّل من الطَّوِيل صَحِيحا، والمُنْسرِحُ خَفِيفًا سَرِيحا، وقَبَضَ الله يَمِينَ عَدُوِّهـمـا عن كلِّ مَعْنٍ، قَبْضَ العَرُوض من أوّلِ وَزْن، وجُمِـع له المَهَـانَةُ إلى التَّقْيِيد، كما جُمِعَـا فى ثَانِى المَدِيد، وقُلِمَ قَلْمَ الفَسِـيط، وخُبِلَ كسُباعِىِّ البَسِيط، وعَصَبَ [الله](١) الشَّرَ بهَامَةِ شانِئِهما وهُو مَجْزُوّ، عَصْبَ الوَافِرِ الثَّالِث وهو مَجْزُوّ، بَلْ أَضْمَرَتْه الأرضُ إضْمارَ ثالثِ الكَامِل، وعَدَاه أَمَلُ الآمِل، وسلِم سَيِّدانا أعَزَّ الله نَصْرَهما ومن أَحَبَّاه وقَرَّباه سَـلَامةَ مُتَوَسِّطِ المَجْمُوعات، فإنه آمِنٌ من المُرَوِّعات، فقد ٱفْتَنَنْتُ فى نِعَمِهما الرَّائِعَه، كافتنانِ الدَّائرة الرَّابِعَه، وذلك أنَّها أُمُّ سِتَّةٍ مَوْجُودين، وثَلاثةٍ مَفْقُودين.

وأنا أعُدُّ نَفْسى مُرَاسَلَةَ حَضْرة سـيدنا الجليلةِ عِدَةَ ثُرَيًّا اللَّيْل، وثُرَيًّا سُهَيْل؛ هـٰذه القَمَر، وتِلْكَ عُمَر، وأُعَظِّمُه فى كلِّ وَقْت، إعظامًا فى مِقَةٍ وبعضُ الإعْظامِ

---

(١) الزيادة من شرح الرسالة.

فى مَمْت ؛ فقد نَصَب للآداب قُبَّة صار الشَّامُ فيها كشامة المَغيب ، والعِراقُ كعراق الشَّعيب ؛ أَحْسَبَ ظِلالُها من البَرْدَيْن ، وأغنَت العالَم عن الهِنْدين ؛ هِنْـدِ الطِّيب ، وهِنْـدِ النَّسيب ؛ رَبَّة الخِمَـار ، وأرْبابِ قِمَـار ؛ أَخْدانِ التَّجْر ، وخَدينَة الهَجر . حاملَة طَوْقٍ من اللَّيل ، و بُرْدٍ من المُرْتبـع مَكْفُوفِ الذَّيل ؛ أَوْفَتِ الأشاء ، فقالَتْ للكَئيبِ ما شاء ؛ تُسْمِعُه غَيْرَ مَفْهوم ، لا بالرَّمَلِ ولا بالمَزْمُوم ؛ كأن سَجِيعَها قَرِيض ، ومُراسِلَها الغَرِيض ؛ فقد مَادَ لشَجْوِها العُود ، وفَقِيدُها لا يعُود ؛ تَنْدب هَدِيلاً فات ، وأُتيح له بعضُ الآفات ــ بأشْوَقَ إلىٰ هَديلِها من عَبْدِه إلىٰ مُناسَمة أَنْبائه ، ولا أَوْجَدَ علىٰ إلْفِها منه علىٰ زِيارة فِنائه ؛ ولَيْستِ الأشواقُ ، لذَوات الأطْواق ؛ ولا عنـد السَّاجِمه ، عَبْرَةٌ مُتَراجِعَـه ؛ إنمـا رأَتِ الشَّرطَيْن ، قَبـلَ البُطَيْن ؛ والرِّشاء ، بعـد العِشاء ؛ فحَكَتْ صَوْتَ المـاءِ فى الخَرير ، وأَتت بَراءٍ دائمـةِ التَّكْرير ؛ فقال جاهِـلٌ فَقَدَتْ حَمِيا ، وثَكِلَتْ وَلَدًا كريمـا : وهَيْهاتَ يا باكِيـةُ أَصْبَحْتِ ، فَصَـدَحْتِ ؛ وأمْسَيتِ ، فتَناسَيْتِ ؛ لا هَمَامِ لا هَمـامِ ، ما رأيتُ أَعْجَبَ من هاتِفِ الحَمَـام ؛ سَلِمَ فناح ، وصَمَتَ وهو مَكْسُور الجَناح ؛ إنَّمـا الشَّوْقُ لمن يَذَّكِرُ فى كلِّ حِين ، ولا يُذْهِلُه مُضِىُّ السِّنين .

وسيِّدُنا الوزير أطالَ اللهُ بقاءَه القائلُ النَّظْم فى ادِّكاءٍ مثل الزَّهَر ، وفى النَّقاءِ مثل الجَوْهر ؛ تَحسَبُ بادِرَته التَّاج ، ٱرتَفع عن الحَجاج ؛ وغابِرَتَه الحِجْل ، فى الرِّجْل ؛ يَجْمَعُ بين اللَّفظ القَليل ، والمَعْنى الجَليل ؛ جَمْعَ الأُفْعُوانِ فى لُعابِه بَيْنَ القِلَّه ، وفَقْدِ البِـلَّه ؛ خَشُن ، فَحَسُن ؛ ولان ، فمـا هَان ؛ لِينُ الشَّكير ، يَدلُّ علىٰ عِتْقِ الحِضْير ، وحَرْشُ الدِّينار ، آيةُ كَرَمِ النِّجار ؛ فصُنُوف الأشْعارِ بعده كألِفِ السَّلام ، يُلْفَظُ بها فى الكلام ، ولا تَثْبُت لهـا هَيئةٌ بعد اللَّام ؛ خَلَص من سَبْكِ النَّقْد خُلُوص الذَّهَب ، من اللَّهَب ؛ واللُّجَـيْن ، من يَدِ القَيْن ؛ كأنَّه لآل ، فى أَعْناقِ حَوال ؛ وسِواه لَطٌّ ، فى عُنُقِ ثَطّ ؛

ما خَانَتْه قُوَّةُ الخاطرِ الأَمين ، ولا عِيبَ بسِنَادٍ ولا تَضْمِين ؛ وأينَ النَّثْرة ، من العَثْرِه ؛ والغَرْقَد ، من الفَرْقد ؟ ؛ فالسَّاعِى فى أثَرِه فارس عَصَا بَصِير ، لا فَارِسُ عَصَا قَصِير .

وأنا ثابِتٌ علىٰ هٰذه الطَّوِيَّة ثَبَاتَ حَرَكَةِ البناء ، مُقِيمٌ تلك الشَّهادةَ بغيرِ ٱسْتِثْناء ؛ غَنِىٌّ عن الأَيْمَان فَلا عَدَم ، مُقْسِمٌ علىٰ ماقلتُ فلاحِنْث ولا نَدَم ؛ وإنَّما تُخْبَأُ الدُّرَّه ، للحَسْناءِ الحُرَّه ؛ ويُجادُ باليَمِين ، فى العِلْقِ الثَّمِين ؛ ما أنْفَسه خاطِرًا ٱمْتَرىٰ الفِضَّه ، من القِضَّه ؛ والوَصَاه ، من مِثْلِ الحَصَاه ؛ ورُبَّما نَزَعت الأشْباه ، ولم يُشْبِهِ المَرْءُ أباه ؛ ولا غَرْوَ لذلك : الخُضْرَةُ أم اللَّهِيب ، والخَمْرة بِنْتُ الغِرْبِيب .

وكذلك سيدُنا وَلَّد من سِحْرِ المتقدِّمين ، حِكْمَةَ للحُنَفاءِ المُتَدَيِّنين ؛ كم له من قافية تَبْنِى السُّود ، وتَثْنِى الحَسُود ، كالمَيْت ، من شُرْب العاتقة الكُمَيْت ؛ نُشُوره قريب ، وحِسَابُه تَثْرِيب ؛ أين مُشَبِّهو النَّاقةِ بالفَدَن ، والصَّحْصَحِ بِرِدَاءِ الرَّدَن ؛ وَجَبِ الرَّحِيل ، عن الرَّبْعِ المُحِيل ؛ نَشَأَ بعدهم وَاصِف ، غُودِرَ رَأْلُه كالمَنَاصِف ؛ إذا سَمِع الخافِضُ صِفَتَه للسَّهْبِ الفَسِيح ، والرَّهْبِ الطَّلِيح ، وَدَّ أَنَّ حَشِيَّتَه بين الأحْنَاء ، وخَلُوقَه عَصِيم الهِنَاء ؛ وحَلَم بالقُود ، فى الرُّقُود ؛ وصَاغَ بُرَىٰ ذَوَاتِ الأَرْسَان ، من بُرَىٰ البِيضِ الحِسَان ؛ شَنَفًا لِدُرِّ النُّحور ، وعُيُونِ الحُور ؛ وشَغَفًا بدَرٍّ بَكِى ، وعَيْنٍ مِثْلِ الرَّكِىّ ؛ وإعْراضًا عن بُدُور ، سَكَنَّ فى الخُدُور ، إلىٰ مُحُول ، كأَهِلَّة المُحُول ؛ فهُنَّ أشْباهُ القِسِىّ ، ونَعَامِ السِّىّ ؛ وإن أخَذَ فى نَعْتِ [الخَيْل][1] فياخيبة من سَبَّهَ[2] الأوابِدَ بالتَّقْيِيد ، وشَبَّه الحَافِرَ بقَعْبِ الوَلِيد ، نعتا غَبَط به الهَجِينُ المَنْسُوب ، والبَازِىُّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حواسَّها . وفى الأصل شَبَّه بالشين .

اليَعْسُوب ، إذْ رُزِقَ من الخَـيْر ، ما ليس لكَثِـيرٍ من سِباَع الطَّيْر ؛ وذلك أنه على الصِّـغَر ، سَمِيُّ بعضِ الغُرَر ؛ وقد مَضَىٰ حَرْس ، وخَفَتَ جَرْس ؛ وللقَالِـع ، أبْغَضُ طَالِـع ؛ والأزْرَق ، يُجَنِّبك عنه الفرَق .

فالآن سَلِمَتِ الجَبْهة من المَعْض ، وشَمِلَ بَعْضَها بَرَكاتُ بَعْض ؛ فأيْقَن النَّطِيح ، أنَّ رَبَّه لايَطِيح ؛ والمَهْقُوع ، نَجاءُ راكِبِه من الوُقُوع ؛ فلن يُحْرَب ، قائدُ المُقْرَب ؛ ولن يُرْجَل ، سائسُ الأرْجَل ؛ والعَاب ، وإن لَحِقَ الكِعَاب ؛ فإنَّه ناكِبٌ ، عن ناقلات المَراكِب . وقالت خَيْفَانَة آمْرِئِ القَيْس : الدَّبَّاءَه ، لراعي المَبَاءه ؛ والأُثْفِيَّه ، للقِدْر الكَفِيَّه ؛ نَقْمَاعلىٰ جاعِلِ غُدَرِها كقُرُونِ العَرُوس ، وجَبْهتِها كمُحَذِّف التُّرُوس ؛ وأنَّىٰ للكِنْدِى ، قَوَافٍ كهَجْمَة السَّعْدى :

إذا آصْطَكَّتْ بِضيقٍ حَجْرَتَاهَا * تَلاَقَى العَسْجَدِيَّة واللَّطِـيمُ !

فالقَسِيبُ ، فى تَضَاعِيف النَّسِيب ، والشَّبابُ فى ذلك التَّشْبِيب ؛ ليس رَوِيُّه بمَقْلوب ، ولكنَّه من إرْواءِ القُلُوب ؛ قد جمع أَلِيلَ مَاءِ الصِّبا ، وصَلِيلَ ظَماءِ الظِّبَا ؛ فالمِصْراعُ كوَذِيلَةِ الغَرِيبَه ، حَكَتِ الزِّينَةَ والرِّيبَه ؛ وأَرتِ الحَسْنَاء سَنَاها[1] ، والسَّمْجَة ما عَنَاها ؛ فأَمَّا الرَّاحُ فلو ذَكَرَها لشَفَتْ من الهَرَم ، وآنْتَفَتْ من الكَرْمِ إلى الكَرَم ؛ ولم تَرْضَ دِنَانُ العُقَار ، بلباسِ القَار ؛ ونَسْجِ العَناكِب ، على المَنَاكِب ؛ ولكن تُكْسَىٰ من وَشْيٍ ثِيابا ، ويُجْعَـل طِلاَؤُها زِرْيَابا ؛ ولقـد سَمِعتُه ذَكَرَ خَيْمَةً يَغْبِطُ المِسْكُ جَارَها من الشِّيام ، ويودُّ سَعْدُ الأَخْبِيَةِ أنه سَعْدُ الخِيام .

ووقفتُ على "مُخْتَصَر إصْلاحِ المَنْطِق" الذى كَادَ بِسماة الأبْواب ، يُغْنِي عن سَائِرِ الكُتَّاب ؛ فعَجِبْتُ كلَّ العَجَب من تَقْييد الأَجْمال ، بِطلَاءِ الأَحْمال ، وقَلْبِ البَحْر ،

---

(١) فى نسخة أخرىٰ «مناها» .

إلى قَلْتِ النَّحْرِ، وإجْراءِ الفُراتِ، فى مِثْلِ الأَخْراتِ، شَرَفًا له تَصْنِيفًا شَفَى الرِّيبَ، وكَفَىٰ من آبنِ قُرَيْبٍ، ودَلَّ على جَوَامِعِ اللُّغَةِ بالإيماءِ، كما دَلَّ المُضْمَرُ علىٰ ما طَالَ من الأسماءِ .

أقولُ فى الإخْبارِ : أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الجَبَّارِ، فإذا أَضْمَرْتَه، عُرِفَ مَتىٰ قُلْتُ : أَمَرْتُه ؛ وأَبَلَّ من المَرَضِ والتَّمْرِيضِ، بما أَسْقَطَ من شُهُودِ القَرِيضِ، كأنَّهم فى تِلْكَ الحالِ، شَهِدُوا بالمُحالِ، عِنْدَ قاضٍ، عَرَفَ أَمَانَتَهم بالانْتِقاضِ، علىٰ حَقِّ عِلْمِه بالعِيَانِ، فآسْتَغْنىٰ فيه عن كُلِّ بَيَانٍ .

وقد تأمَّلْتُ شَواهِدَ " إصْلاحِ المَنْطِقِ " فوجدتُها عَشَرَةَ أنواعٍ فى عِدَّةِ إخْوَةِ الصِّدِّيقِ، لمَّا تَظَاهَرُوا على غيرِ حَقِيقٍ، وتَزِيدُ على العَشَرةِ بوَاحِدٍ، كأَخٍ لِيُوسُفَ لم يكن بالشَّاهِدِ . والشِّعْرُ الأوّلُ وإن كان سَبَبَ الأَثَرِه، وصَحِيفَةَ المَأْثُرِه، فإنه كَذُوبُ القَالَه، نَمُومُ الإطالَه، وإنَّ قِفَا نَبْكِ [علىٰ حُسْنِها]، وقِدَمِ سِنِّها، لَتُقِرُّ بما يُبْطِل شهادةَ العَدْلِ الرِّضَا، فكَيْفَ بالبَغِيِّ الأُنْثىٰ ؛ قاتَلَها اللهُ عجوزًا لو كانت بَشَرِيَّه، كانت من أَغْوى البَرِيَّه . وقد تَمَادىٰ بأبي يُوسُفَ رحمه الله الاجْتِهادُ، فى إقامةِ الأشْهادِ، حتى أَنْشَدَ رَجَزَ الضَّبِّ، وإن مَعَدًّا من ذلك لجَدُّ مُغْضَب، أَعَلىٰ فصاحَتِه يُسْتعانُ بالقَرْضِ، ويُسْتَشْهَدُ بأحْناشِ الأَرْضِ ؟، ما رُؤْبَةُ عنده فى نَفِيرٍ، فما قولك فى ضَبٍّ دَامِي الأظافيرِ ؟ ؛ ومَن نَظَرَ فى كتاب يَعْقوبَ وَجَدَه كالمُهْمَلِ، إلا بابَ فَعْلٍ وفَعَلٍ ؛ فإنّه مُؤَلَّفٌ على عشرين حَرْفا : سته مُذْلَقه، وثلاثة مُطْبَقَه ؛ وأربعةٌ من الحروفِ الشَّديده، وواحدٌ من المَزِيدَه ؛ ونَفِيثَتَيْنِ : الثَّاءِ والذَّالِ، وآخَرَ مُتَعالٍ ؛ والأُخْتَيْنِ العَيْنِ والحَاءِ، والشِّينِ مُضَافَةً إلى حَيِّزِ الراءِ . فرَحِمَ اللهُ أبا يُوسُفَ لو عَاشَ لَفَاظَ كَمَدًا، أو آحْفَاظَّ حَسَدًا، سَبَقَ آبنَ السِّكِّيتِ ثم صارَ السُّكَيْتَ، وسَمَقَ ثم حَارَ وَتِدًا للبَيْتِ، كان الكتَابُ تِبْرًا فى تُرَابِ مَعْدِنٍ، بَيْنَ الحُثِّ وبَيْنَ المُتَدِّنِ، فاسْتَخْرَجه

سَيِّدنا وٱسْتَوْشاه، وصَقَلَه فِكْرُه ووَشَّاه؛ فَغَبطَه النَّيِّرَاتُ على التَّرْقِيش، والآلِ النَّقِيش؛ فهو محبوبٌ ليس بِهَيْن، علىٰ أنه ذُو وَجْهَيْن؛ ما نَمَّ قطُّ ولا هَمّ، ولا نَطَق ولا أَرَم؛ فقد نَابَ فى كَلَامِ العَرَب الصَّمِيم، مَنَابَ مِرْآةِ المُنَجِّمِ فى عِلْم التَّنْجِيم؛ شَخْصُها ضَئِيلٌ مَلْمُوم، وفيها القَمَرانِ والنُّجُوم .

وأقولُ بعدُ فى إعادة اللَّفْظ : إنَّ حُكْم التَّأْلِيف فى ذِكْرِ الكلمة مَرَّتين، كالجَمْع فى النِّكاح بين الأُخْتَين؛ الأولىٰ حِلٌّ يُرَام، والثانية بَسْلٌ حَرَام؛ كَيْف يكون فى الهَوْدَجِ لَمِيسَان، وفى السَّبَّة(١) خَمِيسَان؛ يا أُمَّ الفَتَيات حَسْبُك من الهُنُود، و يا أَبَا الفِتْيانِ شَرْعُك من السُّعُود؛ عَلَيك أنْتِ بزَيْنَب ودَعْد، وسَمِّ أيُّها الرَّجُل بسِوَىٰ سَعْد؛ ما قَلَّ أثِير، والأَسْماء كَثِير .

مَثَلُ يعقوبَ مَثَلُ خَوْدٍ كَثِيرةِ الحُلِيِّ ضاعَفَتْه على التَّراق، وعَطَّلت الخَصْرَ والسَّاق؛ كان يومُ قدُومِ تلك النُّسْخةِ يَوْمَ ضَرِيبٍ حَشَرَ الوَحْش مع الإنْس، وأضَافَ الجِنْس إلىٰ غير الجِنْس؛ ولم يَحْكم على الظِّباء، بالسِّباء؛ ولا رَمَى الآجَالَ، بالأَوْجَال؛ ولكنَّ الأضْدادَ تجْتَمِع، فَتسْتَمِع؛ وتَنْصرف بلَذَّات، من غَيْر أَدَاة؛ و إن عَبْدَه مُوسىٰ لَقِيَنِى بِقابا، فقال : هَلُمَّ كِتابا؛ يكونُ لك شَرَفا، وبمُوَالَاتِك فى حَضْرة سيدنا ــ أطال الله بَقاءَه ــ مُعْتَرِفا؛ فَتلَوْتُ عليه هاتَيْنِ الآيتين : ﴿ إنَّ لَكَ أَنْ لَاتَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا ولَا تَضْحَىٰ ﴾. وأَحْسَبُه رَأَى نُورَ السُّؤْدد فقال لمخَلِّفيه، ما قاله مُوسىٰ صلى الله عليه لأَهْلِيه؛ : ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًىٰ ﴾ . فليتَ شِعْرِى : ما يطلب ؟ أَقَبَسَ ذَهَب ؟ أم قَبَس لَهَب ؟ بل يتَشَرَّفُ بالأخلاق البَاهِرَه، ويتبركُ بالأَحْسابِ الطَّاهِره .

(١) السَّبَّة الزَّمَن من الدّهر، ولعـله يريد بها الأسـبوع كما جاء فى شرح رسائل المعرّى الموجودة بدار الكتب السلطانية .

باتَتْ حَواطِبُ لَيْلىٰ يَقْتَبِسْنَ لها[(١)] * جَزْلَ الجِذا غيرَ خَوّارٍ ولا دَعِرِ!

وقد آب من سَفْرته الأُولىٰ ومعه جَذْوَةٌ من نارٍ قديمة : إن لُمِسَتْ فنارُ إبراهيم ، أو أُونِسَتْ فنارُ الكليم ؛ وٱجْتُنِي بِهارًا حَبَتْ به المَرازِبَةُ كِسْرىٰ ، وحُمِل فى فَكَاك الأَسْرىٰ ؛ وأدرَكَ نُوحًا مع القوم ، وبَقِيَ غَضًّا إلى اليَوْم ؛ وما ٱنْتَجَع مُوسَىٰ إلا الرَّوْضَ العَمِيم ، ولا ٱتَّبَع إلا أصْدَقَ مُقِيم ؛ وورد عَبْده الزُّهَيْرِيُّ من حَضْرته المطَهَّرة ، وكأنّه زَهْرَةُ بَقِيع ، أو وَرْدَةُ رَبيع ؛ كثيرةُ الوَرَق ، طَيِّبة العَرَق ؛ وليس هو فى نِعْمَتِه كالرِّيم ، فى ظِلَال الصَّرِيم ؛ والحُباب ، فى السَّحاب المُنْجاب ؛ لأن الظلام يسفر ، والغمام يَنْسَفِر ؛ ولٰكِنّه مِثْلُ النُّونِ فى اللُّجَّه ، والأعْفَرِ تَحْت جِرْيَه .

وقد كنتُ عَرَّفتُ سَيِّدَنا فى ما سَلَف أن الأدَب كعُهُود فى غِبِّ عُهُود ، أَرْوَت النِّجادَ فما ظَنُّك بالوُهُود ؟ ؛ وأَنِّى نزلتُ من ذلك الغَيْثِ ببَلدٍ طَسْم ، كأَثَرِ الوَسْم ؛ منعه القِراع ، من الإمْراع ؛ يابُؤسَ ، بَنِي سَدُوس ؛ العَدُوُّ حازب ، والكَلَأُ عازب ؛ ياخِصْبَ بنى عَبْدِ المَدَان ، ضَأْنٌ فى الحُرْبُث وإبِلٌ فى السَّعْدان ؛ فلما رأيتُ ذلك أَتْعَبْتُ الأَظَلّ ، فلم أَجِدْ إلا الحَنْظَل ؛ فليس فى اللَّبِيد ، إلا الهَبِيد ؛ جَنَيْتُه من شَجَرةٍ ٱجْتُثَّتْ من فَوْقِ الأَرْضِ ما لَهَا من قَرار . لَبَنُ الإبِلِ عن المُرارِ مُرّ ، وعن الأَراك طَيِّبٌ حُرّ .

هذا مَثَلى فى الأَدَب . فأما فى النَّسَب ، فَلَمْ تَزَلْ لى بحمد الله تعالى وبقاءِ سَيِّدنا بُلْغتان : بُلْغَةُ صَبْر ، وبُلْغَة وَقْر ؛ أنا منهما بين اللَّيْلَةِ المَرْعِيَّه ، واللَّقُوحِ الرِّبْعِيَّه ؛ هٰذه عام ، وتلكَ مالٌ وطَعَام ؛ والقَلِيل ، سُلَّمٌ إلى الجَليل ؛ كالمُصَلى يُريغُ الضَّوء ، بإسْباغ الوُضُوء ؛ والتَّكْفِير ، بإدامَةِ التَّعْفِير ؛ وقاصِدُ بَيْتِ الله يَغْسِلُ الحُوب ، بطُولِ الشُّحُوب .

---

(١) فى شرح الرسالة : يلتمسن .

وأنا فى مكاتبة حَضْرةِ سَـيِّدنا الجليلة، والمَيْلِ عن حَضْرةِ سَـيِّدنا الأَجَلِّ والدِه ـ أعَزَّ اللهُ نَصْرَه ـ كسَبَإِ بْنِ يَعْرُب، لما ٱبْتَهَلَ فى التَّقرُّب؛ إلىٰ خَالِقِ النُّور، ومُصَرِّف الأُمُور، نَظَر فلم يَرَ أشْرَقَ من الشَّمْس يَدا، فَسَجَد لها تَعبُّدا . وغيرُ مَلُومٍ سَيِّدنا لو أعرض عن شَقَائِق النُّعمان الرَّبيعيَّه، ومَدَائِحه اليَرْبُوعيَّه؛ مَلَلًا من أَهْلِ هٰذه البَلَد المُضَاف إلىٰ هـذا الآسم، فغيرُ مُعْتَذِر، مَن أبْغَضَ لأجْلِهم بَنِى المُنْـذِر؛ وهُم إلىٰ حَضْرته السَّنِيَّةِ رَجُلانِ : سَائِل، وقَائِل؛ فأمَّا السَّائِل فأَلَحّ، وأما القَائِلُ فغَـيْرُ مُسْتَمْلَح؛ وقد سَتَرَتْ نَفْسى عنها سَتْرَ الخَمِيص، بالقَمِيص؛ وأَخى الهتْر، بسُجُوف السِّـتْر؛ فَظَهَر لى فَضْلُه الذى مَثَلُه مَثَلُ الصُّـبْح إذا لَمَع تصَرَّفَ الحَيَوانُ فى شُؤُونه وخَرَج من بَيْتِـهِ اليَرْبوع، وبَرز المَلِك من أجَلِّ الرُّبوع، وقد يُولَع الهِجْرِس، بأن يَجْرِس؛ فى البَلَد الجَرْد، قُدَّامَ الأَسَدِ الوَرْد . وإنى خُبِّرتُ أن تلك الرسالة الأولىٰ عُرِضَتْ بالمَعْرِض الكَرِيم : فأوْجَبَ ذلك رَحِيلَ أُخْتِهـا، مُتَعَرِّضَةً لمِثْـل بَخْتِها؛ وكَيْفَ لا تنفع، وفى اليَمِّ تَقَع؛ وهى بمَقْصِد سَـيِّدنا فاخِرَه، ولو نُهِيَتْ الأولىٰ لآنْتَهت الآخِرَه :

كملت الرسالة .

*
* *

قلتُ : وهذه رسالةٌ أنْشَأْتُها فى تَقْرِيضِ المَقَرِّ الكَرِيم الفَتْحِىّ، أبى المعالى فَتْحِ الله، صاحِبِ دَوَاوِين الانشاء الشريف بالديار المصرية والممـالك الإسْلاميَّة، أدام الله تَعالىٰ مَعالِيَه، فى شُهورِ سنة أرْبَعَ عشرةَ وثَمـانِمـائَةٍ، وهى :

الحمدُ لله الذى جَعَل الفَتْح مَحطَّ رِحَالِ القَرَائِح الجَائِدَة، ومُسْـتَقَرَّ نواها، ومُحِيطَ دَائِرَةِ الأَفْكَارِ الوَارِدَة، ومَرْكَزَ شُـعاعِ كُوَاهَا، ومَادَّةَ عَنَاصِر الأَفْهام الجائِلَة، وعِتَادَ شَكِيمَةِ قُوَاها .

نَحْمَـدُه علىٰ أن خَصَّ المملكةَ المِصْرِيةَ من إيداع سِرِّها المَصُونِ بأوْسَع صَدْرٍ رَحيب، وأَنْهَضَ بتَدْبِيرِ مَصَالِحِها مَن إذا سَرَتْ كتائبُ كُتُبِه إلىٰ عَدُوٍّ أنْشَد من شِدَّة الفَرَق : قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَىٰ حَبِيب، وأقام لنُصْرتِها بأَسَلِ الأقْلامِ وصِفَاحِ المَهَارِقِ من إذا طَرَقَها على البُعْـد طارِقٌ تلَا لِسَانُ يَرَاعَتِه : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .
وأَشْهَدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحْدَه لا شَرِيكَ له شَهادةً تَسِـيرُ بها بُرُدُ الهِدَايةِ إلىٰ آفَاقِ الأَخْلاقِ فتُشَيِّدُ لقِلَاعِ الإيمانِ بأقطار القُلُوب أرْكانا، وتُرْقِمُ أسرارُ شَعَائِرِها بنِقْسِ القَبُولِ فى صُحُفِ الإقبـال فتُبَـدِّلُ داعِيها بإذَاعَةِ خَبَرِها من الإسْرارِ إعلَانا، وتَدِينُ بطاعَتِها مُلوكُ الممـالك النائيَـةِ خُضُوعا فتَتَّخِذُ كُتُبَ رَسَائِلها على المَفَارِق بعـدَ اللَّثْمِ تِيجَانًا ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ نَبِيٍّ سَنَّ المعروفَ ونَدَب اليه ، وأكْرَمُ رَسولٍ جَعل خَيْرَ بطانَتِي المَلِكِ التى تأمُره بالخَيْرِ وتَحُثُّه عليه ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين سَلَكُوا فى السَّيْرِ سَبِيلَه وٱتَّبعوا فى السِّـيرة سُنَنَه وٱقْتَفَوْا فيـه سَنَنَه ، وٱتَّبعوا فى المعروف آثارَه فتَلَا عليهم تَالِى الإخْلاصِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَه ﴾ . صلاةً تتناقلُ علىٰ مَرِّ الزمان أخبارُها، ويَتَصَدَّىٰ لرِوَايَتِها من الأُمَّة علىٰ تَمَـادِى الدَّهرِ أحْبارُها، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فان رِياسةَ أهْلِ الدُّوَلِ تتفاوَتُ باعتبار قُرْبِ الرئيس من مَلِكِه فى مُخاطَبَته ومُنَاجاتِه، وٱعْتِمادِ تصرُّفِه فى أمور دَوْلَتِه وتَنْفيذ مُهِمَّاته، والاسْتِنادِ على رأْيِه فى جَليلِ خُطُوبِه وعَظِيمِ مُلِمَّاتِه :

فعَالٍ تَمَـادَتْ فى العُـلُوِّ كأنَّمـا * تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِند بَعْضِ الكَوَاكِبِ!

ولا خَفَاء أن صَاحِبَ دِيوانِ الإنْشاءِ من هذه الرتبة بالمَحَلِّ الأَرْفعِ، والمَنْزِلة التى لا تُدَافَع ولا تُدْفَع، والمَقَامِ الذى تَفَرَّد بصَـدَارَتِه فكان كالمَصْدَرِ لا يُثَنَّىٰ ولا يُجْمَع ؛

إذ هو كَلِيم المَلك ونَجِيّه ، ومُقَرَّبُ حَضْرته وحَظِيّه ؛ بل عَمِيدُ المملكة وعمَادُها ، ورُكْنُها الأعظمُ وسِنَادُها ، حَامِي حَوْمَتها وسِدَادُها ؛ وعِقْدُها المتَّسِقُ ونِظامُها ، ورَأْسُ ذِرْوَتِها العَلْياء وسَنَامُها ؛ وجُهَيْنة خَبَرِها ، وحَقِيبَة وِرْدِها وصَدَرِها ؛ ومُبَلِّغُ أنْبائِها وسَفِيرُها ، وزَنْد رَأْيِها المُورِى ومُشِيرُها .

فَحَيَّهَلا بالمَكْرُمات وبالعُلَىٰ * وحَيَّهلاً بالفَضْلِ والسُّؤْدُدِ المحْضِ!

هذا . وهو الواسطةُ بين المَلك ورَعِيَّته ، والمتكفِّلُ لقَصِيِّهم بدَرْك قَصْده وبُلُوغِ بُغْيَته ، والمُسْعِدُ للظلوم من عزائم تَوْقيعاته بما يقْضِي بنُصْرَته ؛ وحِينَئذٍ فلا يصلُحُ لها إلا مَن كان مع كَرَمِ الخِيم بارِزَ الخِيَامِ لاَصْطِناع المَعْروف ، ومع سُمُوِّ الرُّتْبة سَامِيَ الهِمَّة لإغَاثة المَلْهُوف ؛ ومع عِزِّ الجناب لدَى مَلِكه لَيِّنَ الجانب لِذِى المَسْأله ، ومع قُرْبِه بحَضْرة سُلطانِه قَرِيبًا من الرَّعِيَّة حتَّىٰ من المِسْكين والأَرْمَله .

وغيرُ خَافٍ أن كُلَّ وَصْفٍ من هذه الأوصاف مع مُقَابِله كالضِّدَّيْن اللَّذَيْن لايَجْتَمِعَان بحال ، والنَّقِيضَيْنِ اللَّذَيْنِ قضىٰ العَقْل بأنَّ الجَمْعَ بينهما مُحال ؛ وأنَّىٰ يجتمع العالِي والهَابِط ، والمُرْتفِعُ والسَّاقط ؛ ؟ أم كَيْف تتَّصِلُ الأرضُ بالسَّماء ، أو يَقَعُ آمتزاجُ عُنْصُرِ النَّارِ بعُنْصُرِ المَاءِ ؛ ؟ ومن ثَمَّ عَزَّ هذا المَطْلَب لهذه الوَظِيفَة حتَّىٰ إنَّه لأَعَزُّ من الجَوْهرِ الفَرْد ، وقَلَّ وُجُودُه حتَّى لم يُوجَد إلا فى الواحد الفَذّ فلا تراه إن تَرَاه إلا فى حيز النَّادر ، ولا تَظْفَرُ به إلا ظَفَرَك ببَيْضِ الأَنُوق إن كان يظْفَرُ به ظَافِر ؛ إلا أنه رُبَّما سمح الدَّهْرُ فأتَىٰ بالفَذِّ من هذا النَّوع فى الزَّمَن المتباعد ، أو أَسْعد الدَّهْرُ فأسْعَفَ بالواحد بعدَ ألفِ وَاحد .

ثم قد مضتْ بُرْهَةٌ من الأيام وجِيدُ دِيوانِ الانشاء من نَظَر من هو متَّصِفٌ ببعض هذه الأوصاف عَاطِل ، والدَّهْر يَعِدُ بِمَن يقومُ فيه بتَفْرِيج كُرْبة المَلْهُوفين ولٰكنه يُماطل :

يُرَقِّه ما يُرَقِّه في التَّقاضِي * وليس لَدَيْه غيرَ المَطْلِ نَقْدُ!

إلىٰ أن طَلَع نَيِّرُ الزَّمان وتَوضَّح شُرُوقه، وظهرتْ تَباشِيرُ صَبَاحِه وأَفَل بطُلُوع السَّعْد عَيُّوقُه، فأقْبلَتِ الدولةُ الظاهرية بسَعادَتها، وتلَقَّتْها الأيام الناصرية جارِيةً منها علىٰ وَفْقِ عادَتِها، ووُفِّر للدَّوْلتين من ٱنتخاب الأَصْفياء قِسْمَتُها، ومَخَضَتْ لها الرَّأْيَ الصائِبَ حتَّىٰ ظهرتْ في الوُجُود زُبْدَتُها؛ فكان خُلَاصَةَ ٱصْطِفَائِهما، وزُبْدَةَ ٱنْتِقائِهما؛ المقرُّ الأشْرفُ، العالى، المَوْلَوِيُّ، القاضِوِيّ، الكَبِيرِيّ، السَّفِيرِيّ، المُشِيرِيّ، الفَتْحِيّ، نظامُ الممالك الإسلامية وزِمامُ سِياسَتِها، ومُنَفِّذُ أمورِها، وجامع رَآسَتِها؛ أبُو المعالى فَتْحُ الله صاحِبُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، زادَ اللهُ تعالىٰ في ٱرْتِقائه علىٰ تَعاقُبِ الدُّوَل، وأجْراه من خَفِيِّ اللُّطْف علىٰ أجْمَل العَوائد وقد فَعَل؛ فَأُلْقِيَ إليه من أَسْرارِ المَمْلكة مَقَالِيدُها، وٱتَّفَقَتْ بحُسْن سِفَارَته بٱتِّفاق الرُّواة أَسَانِيدُها؛ فنَفَذَت بتَنْفِيذه أُمُورُها، وكَمَلَتْ بصَحِيح رَأْيه كُسُورُها؛ فجَرَتِ الأمور بحُسْن تَدْبيره على السَّدَاد، ومَشَتِ الأَحْوالُ بلُطْف سِفَارته علىٰ أَتَمِّ المُراد؛ وٱعترفتْ له الكافَّة بالسِّيادةِ فأطَاعَت، وعَرفَتْ له الرَّعِيةُ تَقَدُّمَه في الرَّآسة فرَعَتْ حُرمَته وراعَتْ.

وإنَّ أُمورَ المُلْك أضْحىٰ مَدَارُها * عَليه كما دارَتْ علىٰ قُطْبِها الرَّحىٰ!

قد ٱسْتَعْبَدَ الخَطَّ فأصْبح له كالخَدِيم، وأتَىٰ من المعروف بكلِّ غَرِيبٍ فأنسىٰ من أُثِرَعنه ذلك في الزَّمَنِ القَدِيم؛ فلو رآه «خالدُ بن بَرْمَك» لأحْجَم عن ملاقاته عِظَمًا، أو نَاوأَه «يَحيىٰ بن خالدٍ» لمَاتَ من مُنَاوأَته عَدَما، أو سَابَقَه «الفَضْل وجَعْفَر» ٱبناه لسَبَقَهما كَرَما:

مَنَاقِبُ لو أَنِّى تكلَّفْتُ نَسْخَها، * لأَفْلَسْتُ في أقْلامِها ومِدَادِها!

أو سَمِع به "الحسن بنُ سَهْل" لقَطَع إليه الحَزْنَ والسَّهْل، أو بَصُر به "الفَضْل" أخُوه، لما رأىٰ أَنه للفَضْل أهْل ؛ أو عايَنَه "أبو عَلِيّ بنُ مُقْلَة" لعلم أنه فاقَه حَظًّا وخَطًّا، أو نَظَر "ٱبْنُ هِلَالٍ" إلىٰ أَهِلَّة نُونَاتِه لتَحَقَّق أنه سَبَقَه إلىٰ تَحْرِيرِ هَنْدَسَةِ الحُرُوف وما أَخْطا :

إِذَا أَخَذَ القِرْطَاسَ خِلْتَ يَمِينَه * تُفَتِّحُ نَوْرًا أو تُنَظِّم جَوْهَرا !

فإن تكلَّم أتىٰ من بيانه بالسِّحْرِ الحَلَال، أو حَاوَر أتَىٰ من البَلَاغة بما يُقَصِّر عن رتبته "سَحْبانُ" في المَقال، أو تَرَسَّل أعْيىٰ "عَبْدَ الحَميد" في رَسَائِله ، أو كَتَب رَتَعت من رَوْض خَطِّه في زَهْرِ خَمائِله :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثورَ مَنطِقُــه * ويَنْظِمُ الدُّرَّ بالأقْلَامِ في الكُتُبِ !

فرَأْيُه السَّيْفُ لا ما صَنَع الهِنْد، وعَقْلُه الصَّارِم لا ما ٱسْتُودِعَ الغِمْد :

فَفِي رَأْيِه نُجْحُ الأُمُورِ ولم يَزَلْ * كَفِيلًا بإرْشَادِ الحَيَارىٰ مُوَفَّقا !

أَقْلامُه تُزْرِي بالصَّوارِم وتَهْزَأُ بالأَسَل ، وتَجْرِي بِصِلَةِ الأَرْزَاقِ فتَزِيدُ علَى الأَمَانِي وتَربُو على الأَمَل :

بِتْ جَارَه فالعَيْشُ تَحْتَ ظِلالِه * وٱسْتَسْقِهِ فالبَحْــرُ من أنْوائه !

فمَكَارِمُه تُغْنِي من الإملاق ، وبَوا كِرُه بالإسْعادِ تبادر الغُدُوَّ والإشْراق ، وعَطاياه تَسِيرُ سَيْرَ السَّحابِ فتُمْطِر الغَيْثَ على الآفاق :

كَرِيمُ مَسَاعِي المَجْـــدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * من الشَّرَفِ الأعْلىٰ وبَذْلِ الفَوَاضِلِ !

قد خَدَمَتْه الحُظوظُ وأَسْعدتْه الجُدُود ، وقُسِمتِ المنازِلُ السَّنِيَّةُ فكان له منها سَعْدُ السُّعود :

لو عَدَّدَ الناسُ ما فيه لما بَرِحَتْ * تَثْنِى الخناصِرَ حتّى يَنْفَدَ العَدَدُ !

فلو غَرَسَ الشَّوْكَ أثمر العنبَاءَ أنّى أرادَها ، أو حاوَل العَنْقاءَ فى الجوّ لَصادَها ؛ أو زَرَع فى السِّباخ لكانَ ذلك العامُ العامَ والسَّنَةَ الخِصْبَه ، ولَضُوعِفَتْ مُضاعَفَةَ حَسَناتِه فأنْبَتَتْ كلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّه :

وإذا السعادةُ لاحَظَتْكَ عيونُها ، * نَمْ فالمخاوِفُ كُلُّهنَّ أمانُ ،

وٱصْطَدْ بها العَنْقاءَ فهى حَبائِل * وٱقْتَد بها الجَوْزاءَ فهى عِنانُ !

قد لَبِس شرفًا لا تطمعُ الأيامُ فى خَلْعِه ، وتَقَمَّص من الفَضْل جِلْبابًا لا تَتَطلَّعُ الأيامُ إلىٰ نَزْعِه ؛ وٱنتهىٰ إليه المَجْدُ فوقف ، وعَرَفَ الكَرَمُ مكانَه فانحاز إليه وعَطَف .

فقَصُرتْ عنه خُطَا من يُجارِيه ، وضاق عنه بَاعُ من يُبارِيه :

نَالَتْ يداه أقاصِىَ الكَرَمِ الّذى * مَدَّ الحَسُود إليه بَاعًا ضَيِّقا !

فَمَناقِبُه تَسْبِقُ أقلامَ الكاتِب ، وتَسْتغرِقُ طاقَةَ الحاسِب ؛ ليس لٱرتفاعها غايه ، ولا لتَداوُلِها نِهايَه ؛ فلا تُوفِى جامِعَةٌ بشَرْطِها ، ولا تَقُومُ جَرِيدَةٌ بَبَسْطِها :

وقَدْ وجَدْتَ مَكانَ القَوْلِ ذاسَعَةٍ * فإن وَجَدْتَ لِسَانًا قائلًا فَقُل !

قد هتف بَمْدحِه خُطباءُ الأقلام علىٰ مَنَابِرِ الطُّروس ، ونَطَقتْ بفَضْلِه أَفْواهُ المَحابِر فنُكِّستْ لِرِفْعة قَدْره شَوامِخُ الرُّءُوس ؛ وطَلَعتْ فى أفُقِ المَهارِق سُعودُ إيالَتِه السعيدة فأَفَلَتْ لوجوده النُّحوس ؛ ورُقِمَتْ محاسِنُه بِنِقْسِ اللَّيلِ علىٰ صَفَحاتِ النَّهار فٱرْتَسَمتْ ، وحُمِلَتْ أخبارُ مَعْروفِه فتزاحمت الآفاقُ على ٱنْتِشاقِ أَرَجِ رِيحه العَبِقَة وٱسْتَهمَتْ :

لقَدْ كَرُمتْ فى المَكْرُمات صِفاتُه * فما دَخَلَتْ لاءٌ عليها ولا إلّا !

اتّفقتِ الألْسِنةُ علىٰ تَقْريضِه فمُدِحَ بكلِّ لسان، وتوافقتِ القلوبُ علىٰ حُبِّه فكان له بكلِّ قَلْبٍ مكان، واسْتَغْرَقَتْ مَمادِحُه الأزمِنَةَ والأمْكِنةَ فاستولىٰ شُكْرُه على الزّمان والمَكان :

ولم يَخْلُ من إحْسانِه لَفْظُ مُخْبِرٍ * ولم يَخْلُ من تَقْرِيضِه بَطْنُ دَفْتَرِ !

علىٰ أنّى أسْتقِيلُ عَثْرَتِى من التَّقصير فى إطْرائه، والتَّعرُّض من مَدْحِه لما لا أنْهَضُ بأَعْبائه، فلو أن «الجاحِظ» نَصِيرِى، و«ابْنَ المُقَفَّع» ظَهِيرِى، و«قُسَّ بنَ ساعِدَةَ» يُسْعِدُنى، و«سَحْبانَ وائِلٍ» يُنْجِدُنى، و«عَمْرو بن الأهْتَم» يُرْشِدُنى؛ لكانَ اعْتِرافِى بالعَجْزِ فى مَدْحِه أبلغَ مما آتيه، وإقْرارِى بالتَّقْصير فى شُكْرِه أولىٰ مما أَصِفُه من تَوالِى طَوْله وأيادِيه :

ولَوْ أنَّ لى فى كلِّ مَنْبِتِ شَعْرةٍ * لِساناً يُطِيلُ الشُّكْرَ فيه لقَصَّرا !

وهذه نسخةُ رسالةٍ للشيخ الإمام العَالِم مُعِين الدِّين تاج العلماء، خَطِيبِ الخُطَباء، زَيْن الأئمة، قُدْوةِ الشَّريعة، الصَّدْرِ أبى الفَضْل يحيىٰ بنِ جَعْفر بن الحُسَين بن محمد الحَصْكَفِى رحمه الله، سماها : "عِتَابَ الكُتَّاب، وعِقَابَ الألْقاب، المُشْتملة علىٰ أُصُول الغَرِيب والإغْراب" وهى :

عَذِيرى من وُزَرَاءِ النصبة وكُتَّابِها، وكُبراء الدُّسُوت وأرْبابِها، وأَوَانِى الدُّوَل وأَطْنابِها، ونُوَّابِ الدَّواوِينِ وأَنْيَابِها[1]؛ وجُبَاةِ بُيُوت الأموال، والسُّعاة فى زَمِّ نُشَر الأَحْوال؛ وسَاسَةِ المَمالك، وصُحُفِ أسْرار المَآلك؛ الشَّامِخِين بأُنوف التِّيه والكِبْرياء، والسَّاحِبِينَ ذُيولَ العُجْب والخُيَلاء، الرَّافِلين فى حُلَلِ البَهاء، والغَافِلين عن فُروض العلاء؛ الذين تبوّءوا السُّؤْدَدَ من غير سَدَاد، وتَسَنَّموا الرُّتَب بلا إعْداد؛

(١) الأنياب جمع ناب وهو سيد القوم وكبيرهم .

فكأنهم الحاصب ، وعدوّ الله المناصب ؛ شَغَلهم الأشَرُ والفُجُور ، وكلٌّ على بَسْطَتِه يَجُور ؛ همهم محج الأحْراح ، وثَجُّ الراح بالماء القَرَاح ؛ وٱمْتِطاءُ المُرْد ، والعِتاقِ الجُرْد ؛ أَمَلُهم تَجْيد الأفْنِيَه ، وتَشْيِيدُ الأبْنِيه ، والزِّيادةُ فى الرَّقِيق والكُرَاع ، والخَوَل والأتباع ؛ وليس بغَال ، كَثْرةُ خَيْلٍ وبِغال ؛ بما باعوه من الوَرَع والدِّيانَه ، وأضاعُوه من العفة والصِّيانَه :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنْيا علىٰ غِرّةٍ * ونَافَسُوا فيها السَّلاطِينا !

توزَّعوا الدَّولة والمُلْك والْـ * ـحَضْرَةَ والإسْلام والدِّينَا ،

شَادُوا بأعْمالِهِمُ دُورَهم * وأَخْرَبُوا فيها الدَّواوِينا ،

عَفُّوا وما عَفُّوا بأقْلامِهم * مَسَاكِنًا تَحْوِى مَسَاكِينَا ،

غَرَّتْهم الدُّنيا بأن أظْهَرت * عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُها لِينَا ،

والدَّهْرُ كَمْ جَرَّعَ فى مَرَّةٍ * مُرًّا وحَيْنًا سَاقَه حِينَا .

يا أنْفُسًا ذَلَّتْ بإتْيانِهم * وَيْكِ أَتَأْتِينَ الأَتَاتِينا .

لاتَرْغَبِى فى رِسْلِهِم إنَّما * تَمْرِينَ فى القَعْبِ الأَمَرِّينَا !

وكان يُجْدِى القَصْدُ لو أنّهم * يَدْرُونَ شَيْئًا أو يَدَرُّونَا .

مَوتَىٰ هُمُو فَلْيَكُ تَقْرِيظُهُم * إن كُنْتِ لَا تَأْبِينَ ، تَأْبِينَا ،

لا يَعْتَنِى الفَضْلُ بإطْراءِ مَن * يكونُ فيه الهَجْوُ مَغْبُونا ،

لَو رُمْتَ شَيْئًا دُون أقْدارِهِم * لَهَجْوِهِمْ لم تَجِد الدُّونَا ! ! !

قد أخْلَدوا إلى الوَضَاعَه ، عن تَحْصِيلِ البِضَاعَه ، وكَفَاهُم من البَرَاعَه ، بَرْىُ اليَرَاعَه ، وعُنُوا بٱسْوِدَاد اللِّيقَه ، عن سُؤْدُدِ الخَلِيقَه ؛ وأحَالُوا على الرِّمَم ، عند قُصُورِ الهِمَم ؛ ومن أَعْظَم الآفات ، فَخْرُهُم بالعَظْمِ الرُّفَات .

وكَأنَّهـم لِصَمِيم هَـاشِمْ * أو مِن لَهَـامِيم العَبَاشِمْ،
غَشِـمُوا فما يَغْشَاهمُ * بالطَّوْعِ إلا كُلُّ غَاشِم:

لا يُعِـينُ أحَدُهم علىٰ مُرُوَّه، ولا يُنْعِشُ ذَا أُخُوَّه، ولا يَرْعىٰ وَارِثَ أُبُوَّه، ولو آعْتَزىٰ إلىٰ بُنُوَّه؛ فهو غيرآسٍ بجُودِه، ولا مُواسٍ بمَوْجُوده؛ يَرُوقُك كِيسُه والغُلَام، وتَرُوعُك دُوِيُّه والأقْلام؛ فإذا آسْتَنْطق قَلَمـه الصَّامِت، أَجْذَلَ عَدُوَّه الشَّامِت؛ فزاد أدْرَاجَهُ ناقصا، وعاد على أدْرَاجِهِ ناكصا.

فهْو الذى أمْلَىٰ لهم حِلْمُـه * مع الخَنَـا والنَّكَدِ الباهض:
لَـوْ أنَّنِي وُلِّيتُ تَأدِيبَهُـم * شَفَيْتُ صَدْرَ النَّقِهِ النَّاهِض!
من نَاظِرٍ يُضْحِي بلا نَاظِرٍ، * وعَارِضٍ يُمْسِى بلا عَارِضٍ،
ومُشْرِفٍ للدين ماقَصْـدُه * فى الوَطْبِ إلا زُبْدةُ المَاخِضِ،
وخَازِنٍ إن لَفَّ مَرْضَاتَه * من حُلْوِهِم عَفَّ عن الحَامِضِ،
ومن خَبِيثٍ جاءنا ذِكْـرُه * فى الذِّكْرِ بين البِكْرِ والفَارِضِ،
وكَاتِبٍ لو أنْصَـفُوا مُهْـرَهُ * لكَان أوْلىٰ مِنْهُ بالرَّائِضِ!!!

إن وَقَّع، رأيتَ اللَّفظ المُرَقَّع؛ وإن أطَال وأسْهَب، أذَال عِرْضَه وأنْهب؛ وكان أحَقَّ بتَقْليد الفُهُود، عند تَقْليـد العُهُود؛ وأولىٰ بشَطْرِ المَنَاشِير، عن سَـطْر المَنَاشِير؛ وأجْدَر بقَبْضِ الرُّوح، إذا آنبسط للشُّرُوح؛ وأخَذَ فى ذِكْرِ الوَقَائِع والفُتُوح؛ كَفُّه بالجَـلَم، أوْلىٰ منهـا بالقَلَم؛ وأخْلَقُ بالمِسْحاه، من السِّحاه؛ وألْيَقُ بالفُؤُوس، من الطُّروس؛ يَبْرِى ويَقُط، ولا يَدْرِى مايَخُط؛ إذ لَيْس فى السَّفَط، غير السَّقَط؛ إن فَاتَحْته، أو طَارَحْته؛ ظَفِرتَ بغُصَّة المـائح؛ وخَشْرِ المُفاتح، إن خَطَّ: فَنُونُه كَلَامِه، وخَلَط فُنُونَه فى كلامه.

إن وَقَّعُوا وقعُوا فى ذَمِّ كُلِّ فَمٍ، * أو أَنفَذُوا أَنفَذَتْهم أَسْهُمُ الكَلِمِ،
أو قَلَّدوا قُلِّدُوا خِزْيًا يُجَلِّلُهُمْ، * أَو أَقْطَعُوا قُطِّعُوا شَتْمًا بجَهْلِهِم.
أَرَاقِمُ المَالِ والأَعْمال إن رَقَمُوا * جَاؤُا من الرَّقْمِ والأَلْفاظِ بالرَّقِمِ،
فالله يأخُــذُ منهـــم للدَّواةِ وللأَنْقاسِ بالحَقِّ والقِرْطاسِ والقَلَمِ!!

فالحَدِيد بهم سَمَل، والسَّوامُ بينهــم هَمَل، ولا عِلْم عندهم ولا عَمَــل؛ لَهَفِى على الفَضْل المُذَال، بِرِفْعةِ الأَنْذَال، وضَياعِ الحُقُوق، وآنْصِياع البَيْضَةِ عن العُقُوق.

ثم ما علىٰ ســيِدِنا الوَزِير، مع آصْطحا بِ البَمِّ والزِّير، ونَفَاقِ سُوقِه، وآنغماســه فى فُسُوقه، وآتِّصال صَبُوحه بغَبُوقه، وتَخَلِّيه فى البَهْو، للَّعِب واللَّهْو، من ظَهْرِ غَىٍّ يُرْكَب، وذِى يَسار ينكب، وسَاعٍ يَشِى، ورَاعٍ يَرْتَشِى، ورُسُومِ حَيْفٍ تُجَــدَّد، وسَوْآتٍ تعــدَّد، ما يَضُرُّه من شَكْوى الجَارِح البُغَاث، وصَرِيخٍ لا يُغاث، ووَالٍ يَعْسِــفُ بأَهْلِ مصره، وإن شَرِكَه فى إصْرِه، وقاضٍ لايُنْصِف الرَّعِيــه، ولا يَتَّبِع القضايا الشَّرْعِيه، وفَقِيــهٍ يَسِفُّ إلىٰ تَحْصِــيل عَرَضٍ زائل، وتَعْجِيلِ غَرَضٍ من سَائل، مالَه ولحِفْظِ المال، ومُحَاسَبَةِ العمال؟:

أَمْ ماعَلى العَامِلِ نَمِسِ الدَّجاج * إن نَقَصَ الكَرْمُ وزَادَ الخرَاج؟
عليه أن يَحْصُلَ فى كُمِّــه * شَىْءٌ وإن أَخْلىٰ جَمِيعَ الخرَاج.
وهْــو خُرَاجٌ عنــد مَاينتَهِى * يُبَطُّ بالمِبْضَعِ ما فى الخُرَاج!!!

شُــغْلهم بالشَّهْدِ المَشُور، لا بمَشْهَدِ يَومِ النُّشُور، وقَصْدهم الجَمْع والاكتساب، ومَتَى الجَمْع والحِسَاب؛ إنمــا هو مال يُحْتَقَب، لامآل يُرْتَقب، وفَسادٌ فى الأرض، لا إعداد لِيَوْم العَرْض:

وَإنّى لَأَرْثِى لِلمراتِبِ تَحْتَوِى * عليها قُرُودٌ فوقهن بُرُودُ،
سِراعٌ إلى السَّوْآتِ فيما يَشينهُم * ولٰكنّهم عما يَزِينُ رُكُود،
يِقَاظٌ إذا ما ثَوَّبَ اللُّؤْمُ دَاعِيًا * وعند نِدَاءِ المَكْرُمات رُقُود،
وما غَرَّنِى إلَّا جَلَاوِز حَوْلَهم * وإلا قِيامٌ بينهم وقُعُود.
لقد حُسِدُوا ظُلْمًا علىٰ ما أتاهم * وهَلْ لأخى نَقْصٍ يَسُودُ حَسُودُ؟
وللسَّيِّد المَحْسودِ كَفٌّ عن العُلىٰ * تَذُودُ وأخرىٰ بالنَّوال تَجُودُ.
لَحَا اللهُ دُنْيانا التى ضَلَّ سَعْيُها * وفيها علينا بالضَّلال شُهُود.
إذا صُغِّرَتْ كاسم الحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وعَلا فيها يَزِيدُ يزِيدُ.

إنما الصَّدْرُ من صَدَّره كَمَالُه ، وحَسُنَتْ أعْمالُه ؛ وجَرَّد العَزَمات ، فشَرَّد الأَزْمات ؛ ونَفىٰ بذَبِّه الكُرُبات ، واصْطَفىٰ لرَبِّه القُرُبات ؛ فسهل الغِنَى ، وأفْعَم الإِنا ، ووَضَع مَواضِع النَّقْب الهِنا ؛ فهو يَهَشُّ للنَّوال ، ويَبَشُّ عند السُّؤال ؛ لا يَشُوب وِرْدَه القَذَا ، ولا يُبْطِلُ مَنَّه بالمَنِّ والأَذىٰ ؛ يبشر بِشْره بمحاسِنِ الأخلاق ، وينْشُر نَشْره الطَّيِّبَ فى الآفاق ؛ ويَحْسِمُ بدواته دَاءَ الإمْلاق ، ويُحْرِز بقصبته قَصَبَ السِّباق :

يُجَرِّدُها من مِثْلِ وَفْضَةِ نَابِل * أجِنتها من نَافِذَاتِ المَعَابِل،
وفى خَطِّه المَنْسوبِ تُزْرِى شَبَاتُها * بلَهْذَمَ مَنْسُوبٍ إلى الخَطِّ ذَابِل،
وإن بذَرَتْ عن حَبَّةِ القَلْبِ أنْبَتَت * مِن البِرِّ قبل البُرِّ سَبْعَ سَنَابِل ! !

دُؤُوبُه لإقَالةِ العاثِر ، وعِمَارةِ الدَّاثِر ، وإشَاعةِ المآثِر ؛ هَمُّه فى مُعْضِلةٍ تُراض ، ومَعْدِلَةٍ تُفاض ؛ وخَلَلٍ يُسَد ، وجَلَلٍ يُصَدّ ؛ وعَانٍ بظَهْره يُعان ، وعَاتٍ بقَهْره يُهَان ؛ بابُهُ مَفْتوح ، وخَيْره مَمْنوح ؛ وما أقَلَّ اللَّائِم ، لمن أكثر الوَلَائِم ؛ وأغْفَل الحادب ،

لمن صَنَع المآدِب، وأَخْلَصَ الإخاء، لمن ٱستخلص السَّخاء، فبَذَل الرَّغْوة والصَّريح، والسَّنام الإطْرِيح، لا كمن يَشُحُّ بالقُتَار، لفَرْط الإقْتَار، ويَضِنُّ بالوَضَر، على المُحْتَضَر، ويَبْخَل بالعُرَاق، عمَّن رُوحُه فى التَّراق، ويُسِرُّ الغميره، لمن يَبْتغِى المِيرَه، ويُبْطِنُ الدَّاء، لمن يَنْتَظِر الغَدَاء، ويَسعر الأَحْشاء، لمن تَرَقَّبَ العَشَاء :

مسلط سيرته نقمة * وجائر قِسْمَتُه ضِيزَىٰ،

ليس بذى لُبٍّ يَمَلَّ الثَّأَىٰ * ولا لُبَابٍ يَمْلأُ الشِّيزَىٰ!

يَحْقِدُ على الإخوان، عِنْد ظهور الخِوَان، فتراه يُحَدِّق، إلىٰ مَن يُشَدِّق، ويَنْتَقِم، ممن يَلْتَقِم، ويُذِلُّ الأَكِيل، ويُحِلُّ به التَّنْكِيل، ويُبْغِضُ الشَّرِيب، وإن كان الخِدْنَ القَرِيب، فالحَائِن من يَرِد، فيَزْدَرِد، والخَائِنُ من يَنْبَسِط، فيَسْتَرِط، يَشْنَأُ من الأَجْراس، صَوْتَ الأَضْراس، وحَشْرَجَةَ البَلَاعِم، بدَحْرَجَةِ المَطَاعِم، وهَرْهَرَةَ الشُّدُوق، وجَرْجَرَةَ الحُلُوق، وقد صَدَّتْ حَوَاجِزُ بَلْوَاه، أفواهًا تَصَدَّتْ لِحَلْوَاه، وحَكَمَتْ لِجَامِه، بحِكْمَةِ لِجَامِه، وعُدَّت بكِيوَانِه، لُهًى وُعِدَتْ بألْوَانِه، رَغِيفُه أعرز[1] من الغريف، وأغْرَبُ من الشَّيْءِ الطَّرِيف، صَرِيفُ بَابِه، دون صَرِيف نَابِه، ويُحْكِمُ صَكَّ بَابِه، عن كَبَابِه، ويُعِدُّ سَدِيفَ جِفَانِه، من سَدِيفِ أَجْفَانِه، يُمَانِع بلَدِيدِه، عن سَفُّودِ قَدِيدِه، ويُصَافِحُ بصَفْحَةِ وَرِيدِه، عن صَحْفَةِ ثَرِيدِه، حَمَلُه من نُجوم الحَمَل، وسَمَكُه فوق السِّماكِ الأَعْزَل، وحُوتُه بين الحُوتِ والأَسَد، وجَدْيُه عند جَدْيِ الفَرْقَد، دون عُجَّتِه ٱرتفاع العجاجه، وتَحْتَ دَجَاجَتِه ذَنَبُ الدَّجَاجَه :

يدرج فى القِدْرِ دُرَّاجُه * لِيَلْقُطَ الحَبَّ وطَيْهوجُه

ففى السَّمٰوات سُمَانَاتُه * وعِنْدَ دِيكِ العَرْشِ فَرُّوجُه

---

(١) من عَرَزَه يعرِزُه انتزعه انتزاعا عنيفا والغريف الدلو .

يَحْرسُ مائدَتَه الدَّلْو والعَقْرب ، وهُما منّا أدنىٰ وأقْرَب ؛ يُعْجِبُه التَّشْمِيرُ والاَحْتِجان ، ويَلَذُّ له التَّوْفِير والاَخْتِزان ؛ وقصر مُفَاجَأَة أحوال ، تُصَرِّحُ عن أهْوال ؛ وكَأَنَّك بالأيام بعد الاَبْتِسَام ، شاهرة للحُسام ؛ قد كَشَرَتْ عن أنيابها العُصُل ، فى بُكَرِها والأُصُل ؛ وأجلتْ عن سَلِيبٍ مَسْحُوب ، لتَنَكُّرٍ مَصْحوب ؛ وآخَرَ يتردَّدُ فى البُوس ، ويُخَلَّد فى الحُبُوس ؛ قد حصل علىٰ سَلَّةِ الحاوى ، من سلة الحلاوى ؛ ومن طَعْمِ العَسَل ، علىٰ طَعْنِ الأَسَل ؛ ومن العَذْبِ البَارِد ، علىٰ حَزِّ المَبَارِد :

تقبض من خَطْوِهِ الكُبُول * فهو علىٰ قَيْــدِه يبُولُ ،
خَلَا من الخَيْرِ فهو طَبْل * وهكَذا تضْرِبُ الطُّبُول ،
يَشْــكُو إلى الله مُسْتغيثاً * وما له عنــده قَبُولُ ،
ذَاك بما كان مُسْتطيلًا * تُرْدِى دَوَاهِيــهِ والمُيُول !

فهم بين حصى تعصر ، وقفا يقصر ؛ وكِعَابٍ مَثْقُوبَه ، وأنواعِ عُقُوبه ؛ أو يقال فلانٌ أنارته شَعُوب ، ووَارَتْه الجُبُوب ، واكْتَفَىٰ بسُلْفَةِ المَمَات ، من المُقَدِّمات ؛ وما ظَنُّك بالشِّلْوِ الطَّرِيح ، فى ضَنْكِ الضَّرِيح ؛ تحته البَرْزَخُ المَوْصُود ، وفوقه الجَبَل المَنْضُود ، أُنظر كَيْفَ هُجِر بابه المقصود ، وجانَبَتْ جَنابَه الوُفُود ؛ وأخْلقَت رِبَاعُه ، وتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُه ؛ ثم تَشْوِيه الحوب ، أبشع من تشويه الشُّحُوب(؟) ؛ ووَيْلٌ للقَوْم البُور ، من بَعْثَرةِ القُبُور :

ويا خَسَارَ الأَنْفُسِ الغَاوِيَه * من بعد تلك الحُفَرِ الهَاوِيه ،
وكُلُّ مَن خَفَّتْ مَوازِينُــه * فَأُمُّه فى بَعْثِــهِ هــاوِيَه ،
وليس يَدْرِى وَيْحَهُ ماهِيَــهْ * نَارٌ علىٰ سُكَّانِها حَامِيَــه !

أعاذنا الله من خِلَالٍ يقضى جَهْلُها بالشَّنَار، وأفعالٍ تُفْضِى بأهْلِها إلى النَّار، بكَرَمه وإحسانه، وطَوْلِه وآمْتِنانه .

الصــــنف الثـالث

(من الرسائل المفاخراتُ ، وهى على أنواع)

منها : المفاخرة بين العــلوم .

وهذه نسخةُ رسالةٍ فى المُفَاخَرة بين العلوم ، أنشأتها فى شُهُور سنة ثمـان وتسعين وسبعمائة، لقاضى القضاةِ شيخ الإســلام، عَلَّامةِ الزمان، جلالِ الدِّين ، عبدِ الرحمن آبنِ شيخ الإسلام ، بَقِيَّة المجتهدين ، أبى حَفْص عمرَ البُلقينِىِّ الكنانىِّ ، الشَّافعىّ ، أمْتَع الله تعالىٰ المسلمين ببَقَائه ، ذكرتُ فيها نَيِّفًا وسبعين عِلْمًا، آبتدأتها بعِلْم اللُّغة ، وخَتَمتُها بفَنِّ التاريخ، ذاكرًا فَخْر كلِّ علمٍ على الذى قبله ، محتجًّا عليه بفضائلَ موجودة فيه دون الآخر، وجعلتُ مَصَبَّ القولِ فيها إلىٰ آشتماله علىٰ جميعها، وإحَاطتِه بكُلِّها، مع الإشارة إلىٰ فَضْل والدِه، شيخِ الإسلام، ومساهمتِه له فى الفَضْلِ، علىٰ ماستَقِفُ عليه إن شاء الله تعالىٰ، وهى :

الحمدُ لله الذى جَعَل للعِلْم جلالًا تَوَدُّ جلائلُ الفضائل أن تكونَ له أتْباعا ، وأطلق أَلْسِنةَ الأقلام من جميل ثَنَائِه بمـا أنطقَ به أَلْسِنةَ العالَم ليكونَ الحُكْم بمـا ثَبَت من مَأْثور فَضْـلِه إجماعا ، وأجْرىٰ من قَامُوسِ فِكْره جَدَاوِلَ أنهار العلوم الزَّكِيَّة فنَعَّش قُلوبًا ونَزَّه أبصارًا وشَنَّف أسْماعا .

أحمدُه علىٰ أنْ أفاض نَتَائِجَ الأفكار على الأذهان السَّليمةِ لِذِى النَّظَر الصحيح ، وبَثَّ جيادَ الأَلْسَنة فى مَيْدان الجِدال فحاز قَصَبَ السَّبْق منها كلُّ لسانٍ ذَلِق فَصِيح .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى قَهَرتْ بَيِّنـاتُ دلائِلِه المُلْحِدَ المعَاند، وبَهرتْ قَواطِعُ براهِينِه الألَدَّ الخَصِيمَ والجَدِلَ المُكايد؛ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهرَ من واضحِ الحُجَجِ الجليّةِ ما سقط بحُجِّيَّته دَعْوى المُعارِض، وأتىٰ من فَصْـلِ الخِطَاب بمـا أفحم به الخصومَ فلم يستطع أشَدُّهم فى البلاغةِ شكيمةً أن يأتِيَ له بمُنَاقِض؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فازوا من جَلِيلِ المَنَاقِبِ بكل وَصْفٍ جميـل، واشتهرتْ فى الوجود مَفَاخِرُهم فلم يُحتجْ فى إثباتها إلىٰ إقامة دَلِيل؛ صلاةً يُتمسَّكُ فى دَعْوى الشَّرَف بمتين حَبْلها، وتتَّفقُ أدلَّةُ العَقْلِ والنَّقْلِ على القطع بعُلُوِّ شأنِها وتوفُّرِ فَضْلها .

وبعـد، فلما كانت العلومُ مشتركةً فى أصْلِ التَّفْضيل، مُتَّفقةَ الفَضْلِ فى الجملة وإن تَفاوتَتْ فى التفصيل؛ مُسَلَّماً أصْلُ الشَّرَف فيها من غيرِ منُازِع، مُجْمَعاً علىٰ أنه لا شَيْءَ من العِـلْم من حيثُ هو علمٌ بضَارٍّ ولا شيءَ من الجَهْل من حيثُ هو جهلٌ بنَافِع؛ مع اختلافها فى التَّفاضُلِ باختلافِ مَوْضوعاتها، وتَفاوُتِها فى الشَّرَفِ بحسب الحاجة إليها أو وَثَاقة حُجَجِها أو نفاسة غَاياتها؛ عَطَس كلٌّ منها بأنْفٍ شامخٍ غيرِ مُسَلِّمٍ للآخر ولا مُسالِم، ومَدَّ إلَى العَلْيـاءِ يَدَ المطاولة فتناول الثُّرَيَّا قاعدًا غيرَ قائم؛ وادّعىٰ كلٌّ منها أن بَحْره الطَّامى، وفَضْله النَّامِى، وجَواده الطَّامِح، وسِمـاكَه الرَّامح؛ زاعماً أن حُسامَه القاطِع وعَضْبَه القَاضِب، وقِدْحَه المُعَلَّىٰ وسَهْمه الصَّائِب، ونَجْمَه السارى وشِهابَه الثَّـاقب؛ وأن نَشْر الثناء علىٰ مَجامِرِه مَوْقُوف، وخَطِيبَ المَحـامد بمَنَابِره معروف؛ وفَلَكَ الفَضْلِ علىٰ قُطْبِه دائر، وكلَّ شَرَفٍ عليه مُحبَّسٌ وكلَّ فخرٍ عليه قاصر؛ فَمـاسَ بعِطْفه ومَال، وبَسَط فى الكلام لِسانَه فقال وطَالَ .

هٰذا : وإنَّها اجتمعتْ يوماً اجْتماعَ مَعنًى لا صُورَه، وقامتْ لهـا سُوقٌ بالبَحْثِ معروفةٌ وعلى الجِـدَال مَقْصُوره؛ وتَفاوَضَتْ بلسانِ الحـال وتَخاطَبَتْ، وتَحاوَرَت

فى دَعْوى الشَّرَف وتجاوَبَتْ ، وأَلَمَّتْ بالمُنَافَرة فتنافرَتْ ، وتسابقتْ فى مَيْدان الأنْتِخار فتفاخَرَتْ ، وأخذَ كلٌّ منها فى نُصْرةِ مَذْهبِه ، وتَحْقيق مَطْلَبِه ، بأنواع الحُجَج والاستدلالات ، و إقامةِ البراهين والأَمارات ، ومايَتَوجَّه علىٰ ذلك من الأسئلة والاعتراضات . فكان أوّلَ باديءٍ بدأَ منها بالكلام ، وفتَح بابَ الجدال والخصام : —

علمُ اللُّغَــــة فقال :

قد عَلِمْتم مَعْشَرَ العلومِ أَنِّى أَعَمُّكم نَفْعًا ، وأَوْسعكُم مجالًا وأ كثرُكُم جَمْعا ، علىٰ قُطْبِ فَلَكى تَدُور الدوائر ، وبواسطتى تُدْرَك المَقَاصِد ويستعلمُ ما فى الضمائر ، وبدلالتى تُعْلَمَ المَعَانى المفردات ، ويَتَميَّز مايدلُّ على الذوات ممـا يَدُلُّ على الأَدَوات ، وتَتبيَّنُ دِلالاتُ العامِّ والخاص ، ويتعرفُ ما يُرْشد إلى الأنواع والأجناس وما يختصُّ بالأشخاص ، علىٰ أن كُلَّكُم كَلٌّ عَلَىَّ ، ومُحتاجٌ فى تَرْجمة مَقْصودِه إلَىَّ ، فلَفْظى "المُحْكَم" وأقوالى "الصَّحاح" ، وكَلامى "الجَامِع" وسَيْف لسانى "المُجَرَّد" نَاهيكَ من سِلاح ، وفَضْلى "المُجْمَل" لا يحتاج إلىٰ بيان . اِسْتَأْثرالله تعالىٰ بتَعْليمى لآدمَ عليه السلام ، وآثره بى معرفةً على الملائكة فكان خِصِّيصة[1] له على الملائكة الكرام .

فلمـا ٱنقضىٰ قِيلُه ، وبانَتْ للمستَبِير سَبِيلُه ، ثَابَ إليه علمُ التَّصْريف مُبْتدِرا ، ولنَفْسِـه ولسائر العلوم مُنْتَصِرا ، فقال : رُوَيْدَك أيُّها المُساجِل ، وعلىٰ رِسْلِكَ ياذا المُناضِل ، فقد ذَلَّ مَن ليس له ناصِر ، وحُطَّ قَدْرُ من تَرفَّع علىٰ أبناء جِنْسه ولو عُقِدَت عليـه الخَنَاصِر ، وما يُجْدى البَازِى بغـير جَناح ، أو يُغْنِى السَّاعى إلى الحَرْب بغـير سـلاح ، وأنَّىٰ يَطْعَنُ رُمْحٌ بغير سِنان ، أو يقطَعُ سَيفٌ لم يُؤَيَّدْ بقائم ولم تَقْبِضْ عليه بَنَـان ، إنَّك وإن حَويتَ فَضْلا ، وأعْرقتَ أَصْلا ، وكنتَ للكلام نِظاما ، وإلىٰ

(١) الذى فى كتب اللغة «خِصِّيصىٰ» ويمدّ .

بَيَان المقاصد إِمَاما ؛ فأنتَ غير مُسْتقلٍّ بنفسك ، ولا قائم برَأْسك ؛ بل أنا المتكفِّلُ بتأسِيس مَبَانيك ، والملتزِم بتَحْرير ألفاظك وتَقْرِير مَعانيك ؛ بى تُعرفُ أصولُ أبْنِيةِ الكلمة فى جميع أحوالها ، وكيفيةُ التَّصَرُّف فى أسمائها وأفعالها ؛ وما يتَّصِلُ بذلك من أحوال الحروف البسيطة وتَرْتِيبها ، وٱختلافِ مَخَارِجها وبيان تَرْكِيبها ؛ والأَصْلِيِّ منها والمَزِيد ، والمَهْمُوس والرِّخْوِ والشَّدِيد ، و (١) تَقْدِيره ، والصحيح والمُعْتَلِّ وتحريره ؛ وكيفية التَّثنية والجَمْع ، والفَصْل والوَصْل والٱبتداء والقَطْع ؛ وأنواعِ الأبنية وتَغَيُّرها عند اللَّوَاحِق ، وكيفية تَصْرِيفِ الفِعْل عند تَجَرُّده عن العوائق ؛ وأمْثِلة الألفاظ المفردة فى الزنة والهَيْئة وما يختصُّ من ذلك بالأسماء والأفعال ، وتمييز الجامد منها والمُشْتَقِّ وأصناف الٱشتقاق : وكيفَ هو على التَّفصيل والإجمال .

علىٰ أنَّك لو خُلِّيتَ ومجرَّد التعريف ، وبيان المقاصد بالٱصطلاح أو التَّوْقِيف ؛ لكان عِلْمُ الخَطِّ يقوم مقامك فى الدِّلالة الحالِيَّة لَدَى المُلْتقىٰ ، ويترجَّحُ عليك ببُعْد المسافة مع طُولِ البَقا ؛ مع ما فيه من زِيادَة تَرْتِيب الأحوال ، وضَبْطِ الأموال ؛ وحِفْظِ العلوم فى الأدوار ، وٱستِمرارِها على الأكوار ؛ وٱنتقالِ الأَخْبار من زَمانٍ إلىٰ زمان ، وحَمْلِها سرا من مكانٍ إلىٰ مكان ؛ بل رُبَّما ٱكْتُفِيَ عنك بالإشارة والتَّلْوِيح ، وقامت الكتابة منها مَقَامَ التصريح .

فعندها غَضِب علمُ النَّحْو وٱكْفَهَرّ ، وزَمْجَر وٱشْمَخَرَّ ، وقال : يا لله ! "ٱسْتَنَّت الفِصَالُ حتَّى القَرْعا" ، و"ٱسْتَنْسَرَت البُغَاثُ" فكان أشَدَّ ثُلْمَةً وأعْظَمَ صَدْعا ؛ لقد ٱدَّعيتَ ما ليس لك ففَاتَك الحُبُور ، و"مَن تَشَبَّع بما لم يَنَل فهو كلابِس ثَوْبَىْ زُور" ؛ وهل أنْت الا بَضْعَةٌ مِنِّي؟ ، تُسْنَدُ إلَيَّ وتنقلُ عَنِّي ؛ لم يزل علمك باباً من أبْوابِي ،

(١) بياض بالأصول .

وجُمْلتُـك داخلةٌ فى حِسابى؛ حتَّىٰ ميَّزك "المَـازِنىُّ" فأفردك بالتَّصْـنيف، وتلاه "ٱبنُ جِنِّى" فتبعه فى التأليف؛ وٱقتصر "ابنُ مالك" منك فى تعْرِيفه على الضرورىّ الواجب، وأحْسَن بك "ٱبنُ الحـاجب" فى شافيتـه فرفَع عنك الحَاجِب؛ وأنت مع ذلك كلِّه مَطْوِىٌّ ضمن كُتُبى، نِسْبَتُك مُتَّصلةٌ بِنِسْبتِى وحَسَـبك لاحِقٌ بحَسَبِى؛ أنا مِلْح الكلام، ومِسْـكُ الختام؛ لا يَسْـتغنِى عنِّى متكلم، ولا يَلِيقُ جَهْـلِى بعالِم ولا مُتعلم، بى تتبين أحوالُ الألفاظ المرَكَّبة فى دلالتها على المقاصد، ويرتفع اللَّبس عن سامعها فيرجع من فَهْمِها بالصِّلَة والعـائد؛ فلو أَتَى المتكلِّمُ فى لَفْظِه بأجلِّ معنًى ولحَن لذَهَبَت حَلاوَتُه، وزالتْ طلاوته، وعيبَ على قائِلِه وتغيرتْ دِلالتُه. وقد كانت الخُلَفاء تحثُّ على النَّحْو وترشد إليه، وتحْذر اللَّحْنَ وتُعاقِبُ عليه :

وإذا طَلَبْتَ من العُلُوم أجلَّها * فأجلُّها عِنْـدِى مُقِيمُ الألْسُنِ!

فبَيْنا هو كذلك إذ بَرَزت علومُ المَعَانى والبَيَان والبَدِيع جُمْلَه، وحَمَلتْ عليـه بصِـدْق العَزْم فى اللِّقـاء حَمْلَه؛ وقالتْ : جَعْجَعةً رَحًا من غير طِحْن، وتَصْويتُ رَعْدٍ من غير مُزْن؛ لقد أتَيْت بغـير مُعْرب، وأعْربتَ عن لَحْنٍ ليس بمُطْرِب؛ الحَقُّ أبْلَج، والبـاطِلُ لجْلَج؛ إن الفَوْزَ لِقِـدْحِنا، والوَرْىَ لقَـدْحِنا؛ نحنُ لُبُّ العَرَبِيَّة وخُلاصتها، والمُعْتَرِفُ لنا بالفَضْـل عامَّتُها وخاصَّتُها؛ وهَـلْ أنتَ إلا شىءٌ جَرىٰ عليـك الٱصْطلاح، وساعَدَك الٱستعمالُ فأمِنْتَ الٱطِّراح؛ فلو ٱصْطُلِح علىٰ نَصْب الفاعل ورَفْع المفعول لم يخلّ بالتَّفاهم فى المقاصد، وهٰا كلامُ العامَّة لذلك أقْوَمُ دليل وأعْظَم شاهِد.

فقال علمُ الشعر : أرا كُمْ قد نَسِيتم فَضْلى الذى به فَضَلتم، وصَرَمتُمْ حَبْلى الذى من أجله وَصَلْتُم؛ أنا حُجَّة الأدَب، ودِيوان العَرَب؛ علىّ تَرِدُون، وعَنِّى تَصْدُرون؛

وإلىّ تنتسبون، وبى تشتهرون، مع ما اشتملتُ عليه من المدْح الذى كم رفع وضعا، وجلب نفعا، ووصل قطْعا، وجبر صدْعا؛ والهجْو الذى كم حطَّ قدْرا، وأخمد ذِكْرا، وجعل بين الرَّفيع والوضيع فى حطيطة القدْر نسبًا وصِهرا؛ إلىٰ غير ذلك من أنواعى الشِّعْرية التى شاع ذكرها، وأضواعى العِطْرية التى فاح نشْرها؛ بل لا يكاد عِلْمٌ من العلوم الأدبيَّة يستغنى عن شواهدى، ولا يخرج فى أصوله عن قوانينى وقواعدى؛ حتَّىٰ علم النَّثْر الذى هو شقيقى فى النَّسب، وعديلى فى لسان العرب؛ لم يزل أهْلُه يتطفَّلون علىّ فى بيْتٍ يحلُّونه، ويقفُون من بديع محاسنى عند حدٍّ لا يتعدَّوْنه .

فقال علمُ القافية : إنَّك وإن تألَّق برْقُ مباسِمك، وطابتْ أيَّامُ مواسِمك، فأنت موقوفٌ علىٰ مقاصدى، ومُغْترِفٌ من رَوِىّ مَوارِدى؛ أنا عُدَّة الشَّاعر، وعُمْدَة الناثر؛ لا يستغنى عنى شِعْرٌ ولا خطابه، ولا يستنكِفُ عن الوُقُوف علىٰ أبوابى ذُو ترسُّلٍ ولا كِتابه؛ طالمَا عثَر الفُحولُ فى ميْدانى، وتشعَّبتْ عليهم طُرُقِى فضلُّوا السَّبيلَ واختلفتْ عليهم المَبَانى؛ فلم يُفرِّقُوا بين التَّكاوُس والتَّراكُب فى التَّعارف، ولم يُميِّزُوا بين التَّدارُك والتَّواتُر والتَّرادُف .

فقال علمُ العروض : لقد أسْمعتَ القوْلَ فى الدَّعوىٰ من غير توْجيهٍ فدَخَل عليك الدَّخيل، وأوْقعك الوصْلُ دونَ تأسِيس فى هُوَّة النَّقْص : فهلْ إلىٰ خُرُوجٍ من سبِيل؟؛ أنَا مِعْيارُ القَرِيض ومِيزانُه، وعلىّ تُبْنىٰ قواعِدُه وأرْكانُهُ؛ لم يزَل الشِّعْرُ فى عُلوّ رُتْبته بفضْلِى معترِفًا ولحقِّى متحقِّقا، ومن بُحورى مُغْترِفا، وبأسْبابِى متعلِّقا؛ فأبياتُه بميزانى محرَّره، وأجْزاؤُه بقِسْطاسِ تفاعيلى مُقَدَّره؛ وبفَواصِلى مُتَّصِله، وبأوْتادى مُرْتبطةٌ غير مُنْفصِله .

فقال علمُ المُوسيقىٰ : لقد أسْرفتَ فى الافتخار فضلَلْتَ الطَّرِيقَ وبِنْتَ عنها، وورَّطْتَ نفْسَك فيما لا فائدةَ فيه فلزِمْتَ دائرةً لا تنفكُّ عنها؛ وأتيْتَ من طَوِيل

الكلام بما لاطائل تحته فثقل قولا ، وجئتَ من بَسِيطِ القول بما لو ٱقتصرتَ منه على المُتَقَارَب لكان بك أَوْلىٰ ، فأنتَ بين ذِى طَبْعٍ وَزَّانٍ لا يحتاج إلىٰ معيارك فى نَظْم قَرِيضه ، وآخر نَبَتْ طِباعُه عن الوَزْنِ فلم ينتفع من عِلْمك بضَرْبِه ولا عَرُوضه ؛ فإذًا لا فائدةَ فيك ولا حَاجَةَ إليك ، ولا عِبْرة بِكَ ولا مُعَوَّلَ عليك ؛ وكَفَىٰ بك هَضْما ، ونَقِيصَةً وذَمًّا ، وٱستدلالًا علىٰ دَحْضِ حُجَّتِك ، وضَعْفِ أدِلَّتِك ، قولُ ٱبن حَجَّاج :

مُسْتَفعِلُن فاعِلُنْ فَعُول * مَسَائِلٌ كُلُّها فُضُول ،

قَدْ كان شِعْرُ الوَرىٰ صَحِيحًا * من قَبْلِ أن يُخْلَقَ الخَلِيلُ !

علىٰ أنّه إن ثَبَتَتْ لك فَائِده ، وعاد منك على الشِّعْر أو الشُّعراء عَائِده ، فإنَّما تَفَاعِيلُك مقدِّمةٌ لأَلْحَانِى ، وأَوْزَانُك وَسِيلةٌ إلىٰ أَوْزَانِى ؛ نَعَمْ أنا غِذَاءُ الأرواح ، وقَاعِدَةُ عَمُود الأَفْراح ؛ والمتكَفِّلُ ببَسْطِ النُّفوس وقَبْضِها ، والقائِمُ من تَعْدِيلها وتَقْوِيَتِها بنَفْلها وفَرْضِها ؛ أُحَرِّكُ النَّفْسَ عن مَبْدَئِها فيحدُثُ لها السُّرور وتَظْهر عنها الشَّجاعةُ والكَرَم ، وأَبْعَثُها إلىٰ مَبْدَئِها فيحدثُ لها الفِكْرُ فى العَوَاقِبِ وتَزَايُدُ الهُمُوم والنَّدم ؛ فَتارةً أُستعمَلُ فى الأفراح وزَوَالِ الكُرُوب ، وتارةً فى عِلاجِ المَرْضىٰ وأُخرىٰ فى مَيَادِينِ الحروب ؛ وآوِنَةً فى مَحَلِّ الأَحْزَانِ وٱجْتِماعِ المَآتِمِ ، ومَرَّةً يَسْتعمِلُنِى قومٌ فى بيوت العِبادات فأَبْعَثُهم علىٰ طَلَبِ الطاعات وٱجْتِنَابِ المَحَارِم ؛ وآتِى من غَرِيب الألحان ، بما يَشْبعُ به الجائعُ ويَرْوىٰ به الظَّمآن ، ويأْنَسُ به المُسْتَوْحِشُ ويَنْشَطُ به الكَسْلان ؛ وتَدْنُو لسماعه السِّباع ، ويَعْنُو له بعد الشِّدَّة الشُّجاع .

مع ما يَتفَرَّعُ عنى من علم الآلات الرُّوحَانِيَّة التى تُنْعِشُ الأرواح ، وتَجْلِبُ الأفراح ؛ وتَنْفِى الأَتْراح ، وتؤثر فى البَخِيل السَّماح ، وتَفْعل فى الألباب ما لا تَفْعل فى اللَّبَّاتِ بِيضُ الصِّفاح .

فقال عِلْمُ الطِّب : لَقَدْ أضَعْتَ الزَّمانَ فى اللَّهو، وملْتَ مع الأَرْيَحيَّة فمَاسَ بك العُجْب وزَاد بك الزَّهْو ، وداخَلَك الطَّيْشُ فقَنِعْتَ بالإطراب، وعُنِيتَ بمعرفة اللَّحن ففَاتَك الإعْراب ، تُذَكِّر العُشَّاق أحوالَ النَّوىٰ فيُسْلِمُها الهَوَىٰ إلى الهوَان ، وتَتنقَّلُ فى نَوَاحِى الإيقاعِ تَنَقُّل الهَـائم فتُمْسِى فى حِجَازٍ وتُصْـبِحُ فى أصْبهَان ؛ وأنتَ وإن ٱدَّعَيْتَ أنكَ العِلْم الرُّوحانى، والمُسْـتَوْلِي بتَحْريك الطبائع الأرْبَع على النَّوع الإنسانى وغير الإنسانى ؛ فأنت غير مُسْـتَغْنٍ عنى ، ولا فَنُّكَ فى الحقيقة مُنْفَكٌّ عن فَنِّى ؛ بَلْ قَوَاعِدُكَ مُرَتَّبَـةٌ علىٰ قوَاعِدى ، وفوائدُكَ مُسْـتفادةٌ من فَوَائِدى ، وأهْلُ صِناعَتِك يتَطَفَّلون فى معرفة المُلائِم والمُنافِى علىٰ سَاقِطِ لُبَابِ مَوائِدى ؛ وأنَّىٰ تنبسط بك الروح مع وُجُود السَّـقَم ، أو يَسْتريحُ إليك القَلْب مع شِـدَّة مُقاسَاة الألَمِ ؟ ؛ بل أنا قِوَام الأبْدان ، وغَايَة مِلاكِ الإنْسان؛ بى تُحْفَظُ صِحَّةُ الأجسام ، وتُمكَّنُ النفسُ من ٱستكمال قُوَّتَيْها النظريةِ والعَمَليةِ بواسطة زَوَال الأسْقام وٱنتفاء الآلام؛ مع مايَتَّضِحُ بالنظر فى التَّشْريح الذى هو أحَدُ أنواعى من سِرِّ قوله تعـالىٰ : ﴿ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وما يظهر من حَالِ الصِّحة والمَرَض وسرِّ المَوْت من أنه تعالىٰ بَدَأ الخَلْق أوَّلَ مَرَّةٍ و إليه يحشرون .

مع مايلتحق بى من علم خَوَاصِّ العَقَاقير الغَريبَه ، والأحْجَار التى تُؤَثِّر بتَمْزِيجِها الصِّناعِىّ التأثير العَجِيبَه ، وتَأْتِى من نَوادِر الأفعال بالأعمال الغَرِيبَه ؛ علىٰ أَنِّى لستُ بمختصٍّ فى الحقيقة ببَدَنِ الإنْسان ، ولا قاصِرٍ علىٰ نَوْعٍ من أنواع الحَيوان ، وإنمـا أُفْرِدتُ بنَوْع البَشَر ٱهتمامًا بشانه، وتَنْبيهًا علىٰ جلالة قَدْرِه وعُلُوِّ مَكانه .

ثم أُلْحِقَ بالإنســان فى الآعتناء به الخُيُول فٱشْتُقَّ لهـا منِّى عِلْمُ البَيْطَره، وتَلَاها فى الآعتناءِ جَوَارِحُ الطيور لآهتمامِ الملوك بشَأْنِها فٱسْتُنْبط لها من أجزائى عِلْمُ البَيْزَره؛ وأُهملَ ماسِوىٰ ذلك من جِنْس الحيوان ، فلم يُعْتَن بأمره ولم يُهْتَم له بشَان .

فقال علم القَافَة : لقد ٱرْتَقيتَ مُرْتقًى صَعْبا ، ووَلَجْتَ مَوْلِجًا صُلْبا ، وأَتيتَ من مُشْكلات القضايا بما ضَاقَتْ مَطالِبُه ، وعَرَّضْتَ نفسك لمغالبة المَوْت والمَوْتُ لا شَيْءَ يُغالِبُه ، وٱقتصرتَ فى تَشْريحِك الأعضاءَ علىٰ ذِكْرِ مَنافِعِها وصِفَاتِها ، وأَضْربتَ عما تدلُّ عليه بصُوَرِها وكَيْفياتِها ، أَيْنَ أنتَ من إلحاقِ الآبن بالأب بالصِّفات المتماثلة ، والحُكْمِ بثُبُوت النَّسَبِ بدلائل الأعضَاءِ كما يُحْكم بالبيِّنَة العادلَه ؟ ، فهٰذه هى الفَضِيلة التى لا تُساوىٰ ، والمَنْقَبة التى لا تُعادَلُ ولا تُناوىٰ ، وكَفَاكَ لذلك شاهدا ، وعلىٰ ثُبُوتِه فى الشَّريعة المُطَهَّرة مُساعِدا ، وأنه لا يَعْتَوِر ذلك مُعارَضَةٌ ولا نَقْض ، آسْتِبْشارُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بقول مَدْجِح المُدْلِجِىِّ : « إنَّ هَـذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُها مِنْ بَعْض » .

فقال علم قَصِّ الأَثَر : نعم إن شَأْنَك لغَرِيب ، وإنَّ ٱجْتِهادك لَمُصيب ، غير أنِّى أنا أَغْربُ مِنْك شَأْنا ، وأَدَقُّ فى الإدراك مَعْنى ، إذْ أنْتَ إنما تُلْحِقُ المحقَّقَ بالمشاهدة بِمثْلِه ، وتَقِيسُ فَرْعًا علىٰ أَصْلٍ ثم تُلْحِق الفَرْع بأَصْلِه ، وأنَا فأُدْرِك المؤَثِّر من الأَثَر ، وأَسْتَدِلُّ على الغائب بما يَظْهر من اللَّوائح فى الرَّمْلِ والمَدَر ، ورُبَّما ميَّزْتُ أثَرَ البَعِير الشَّارِد من المَرَاتِع ، وفَرَّقْتُ بالنَّظَرِ فيه بين الصحيح والظَّالع ، فأدركتُ من الأَمْر الخَفِىِّ ما تُدْرِكه أنتَ من الظَّاهِر ، وقضيتُ على الغَائِب بما تَقْضِى به على الحَاضِر .

فقال علم غُضُون الكَفِّ والجَبْهَة : ما الذى أَتيْتَ به من الغريب ، أو أظهرته بعلْمِك من العَجِيب ؟ ، فلو ٱبْتُلِيتَ بأَرْضٍ صُلْبةٍ لوَقفت آمَالُك ، أو مَحَتِ الرِّيحُ مَعالِمَ الأَثَر لبَطَلتْ أعْمالُك ، أو وَلَجَ مَن تُقفِّى أثرَه المَاءَ لفَاتَ حَدْسُك الصائب ، أو جَعَل الماشى مُقَدَّم نَعْله مُؤَخَّره لقلتَ : إنَّ الذَّاهِبَ قادِمٌ والقَادِمَ ذَاهِب ، لكن أنا كَاشِفُ الأسرار الخَفِيَّه ، والمستدلُّ علىٰ لَوَازِم الإنسان بما رُكِّب فيه من الدلائل الخِلْقيَّه ،

أَسْتَخْرِج من أَسَارِيرِ الجَبْهَـةِ وغُضُون الكَفّ أمورًا قد أرْشَـدَتِ الحِكْمَةُ الالٰهيَّة إليها ، وجُعلتْ تلك العلامةُ فى الانسان دِلالةً عليها .

فقال علم الكَتِف : إنه ليس فى الاستدلال على الشَّىءِ بلازِمه أمرٌ مُسْتَغْرب ، ولا ما يقال فيه : هذا من ذَاكَ أعْجَب ، و إنمـا الشَّأن أن يقعَ الاستدلالُ على الشَّىءِ بمـا هو أجنبىٌّ منـه ، وخارجٌ عنه ، كما أسـتدل أنا بالخطوط الموجودة فى كَتِف الذَّبِيحَةِ على الحوادث الغريبه ، والأسرارِ العجيبه ، ممـا أجرىٰ اللهُ به العادة فى ذلك ، وجعله علامة دالة علىٰ ما هنالك .

فقـال علم خطِّ الرَّمْل : لقـد علمتَ أنكَ لستَ بمحقِّقٍ لمـا أنت له مُتَوسِّم ، ولا واثقٍ بالإصابة فيما أنت عنه تُتَرجِم ، وغايَتُك الوقوفُ مع التجارِب ، والرُّجوعُ فيما تُحَاوِلُه إلى التقارب ، مع ما أنت عليه من الرَّفْض والإهمال ، وما رُمِيتَ به من القطيعة وقِلَّةِ الاستعمال ، أما أنا ففَارِسُ هذا المَيْدان ، ومالِكُ زِمامِ هذا الشان ، فكَمْ من ضَميرٍ أبرزتُه ، وأمرٍ خفىٍّ أظهرتُه ، ومكان عَيَّنته فوافق ، وأمَدٍ قدّرتُه فَطابَق ، علىٰ أنه ليس لك أصـلٌ ترجعُ إليه ، ولا دَليلٌ تعتمدُ عليه ، فأنا أثبتُ منك قواعد ، وأوضح عند الاعتبار فى الدلالة على المَقَاصِد ، فان عَدَوْتَ طَوْرَك ، أو جُزْتَ فى الاحتجاجِ خصمك ، فَمَدَاك ، أنه كان نَبِىٌّ يخطُّ فمن وافقَ خَطَّه فذاك .

فقـال علم تَعْبِيرِ الرُّؤْيا : إنَّك وإن أظهرتَ السَّرائر ، وأبرزتَ الضمائر ، فإنَّ أمرَك موقوفٌ فى حَدْسك على الدِّلالة الحاليه ، ومَقْصُورٌ فى تَخْمينك على الأمور الاحتماليه ، أيْنَ أنت مِنِّى حين أُعَبِّر عمـا شاهدتْه النفسُ فى النَّوْم من عالَم الغَيْب ؟ وكَيْف أكْشِفُ عنه الحُجُب بالتَّأويل فيقعُ كفَلَقِ الصُّبْح من غير شَـكٍّ ولا رَيْب ، فأخبر بحوادثَ تَقَعُ فى العالَم قبل وجودها ، وآتِى من حقائق النِّذَارَة والبشارة بمـا يُنَبِّه على التحذير من نُحُوسها والتَّرَقُّب لموافاة سعودها .

فقال علم أَحْكَامِ النُّجومِ : حقيقٌ ما أوَّلت ، وصَحيحٌ ما عنه عَبَّرت وعليه عَوَّلت ؛ إلا أنك قاصرٌ علىٰ وقائع مخصوصةٍ تُرْشد إليها ، وأُمورٍ محدودةٍ تُنَبِّه عليها ؛ علىٰ أنه رُبَّما نَشَأَت الرؤيا عن فِكْرة وقعت فى اليَقَظة فاتَّصلتْ بالمنام ، أو حَدَثتْ عن سُوءِ مِزَاجٍ أو رَدَاءةِ مَطْعَم ونحوِ ذلك فكانتْ أَضْغَاثَ أَحْلام ؛ أما أنا فإنى أدل بما أجراه الله تعالىٰ من العَادَه ، على الحوادث العامّة مصاحبًا لمقتضَيات الإرادَه ؛ ليَظْهَر ما فى الحِكْمة الإلٰهيّـةِ من قضايا التَّـدْبير ، ويتَبَيَّنَ ما آشتملتْ عليه الأفلاكُ العُلْويّة من تَقْـديرِ التَّرتيب وتَرْتيب التَّقْـدير ؛ مع مايترتَّبُ علىٰ ذلك من الأعمال العَجيبه ، والأحوالِ الغَريبه ؛ التى تَبْهرُ العقول ، ويمتنع إليها من غير طَريق الوُصول :

من علم السِّـحْرِ على الإطلاق ، وعلم الطَّلِّسْمَات الغَريبة وعلم الأَوْفاق ، وكذلك عِلْم النيرنجيات وعِلْم السِّيميا الآخذ بالأحداق .

فقال علم الهَيْئَـة : مالَكَ ولأَباطيـلَ تُنَمِّقُها ، وأكاذيبَ تُزَخْرِفها وتُزَبْرِقُها ؛ وأَمَاثِيلَ يَعْتمدها المُعْتمدُ فتَخِيب ، وأقَاويلَ تارةً تُخْطِئ وتارةً تصيب ؛ ولقد وردَتْ الشريعـة المطَهَّرة بالنَّهْيِ عن آعْتبارك ، وجاءتِ السُّـنَّة الغَرَّاءُ بمَحْوِ أخْبارِك وإعْفاءِ آثارك ؛ ونَاهِيكَ بفساد هذا الاعتقاد ورَدِّ هذا المَذْهب ، ما ثَبَت فى الصحيح من أنه من قال : مُطِرْنا بنَوْءِ كذا فهو كافرٌ بالله مُؤْمِنٌ بالكَوْكب ؛ علىٰ أنك فى الحقيقة نَوْعٌ من أنواعى ، مَعْـدودٌ من جُنْدِى ومَحْسوبٌ من أتباعى ؛ نعم أنا القَائمُ من دليل الاعتبار فى القدرة بتَمـام الفَرْض ، والقائدُ بزِمَامِ العَقْل إلى التَّفَكُّر فى خَلْقِ السمٰوات والأَرْض ؛ عنِّى يتفرّع علم الزيجات والتقاويم الذى به يُعرف مَوْضعُ كلِّ واحد من الكواكب السَّـيَّارةِ ومدّة إقامتها ، وزَمَن تَشْرِيقها وتَغْرِيبها ومِقْـدار رُجوعها

وٱسْتِقَامَتِها ، وحال ظهورها وٱختفائها فى كلِّ زمان ، وما يتَّصِلُ بذلك من الاتِّصال والانْفِصال والخُسُوف والكُسُوف وٱختصاص ذلك بمكانٍ دُونَ مكان .

فقال علم كَيْفِيَّة الأَرْصاد : ماعِلْم الزِّيجات والتَّقاوِيم الذى تُقَدِّمه فى الذِّكْرِ علىّ ، وتُؤْثِرُه من الفضل بما لَدَىّ ، إذ بى تُتَعَرَّفُ كيفيةُ تحصيل مقادير الحَرَكات الفَلَكيَّة ، والتوصُّلُ إليها بالآلات الرَّصَديه ، التى عليها يترتب عِلْم الزِّيجات ، ويُعْرف فى التَّقْويم الاتِّصالات والانْفِصالات والامْتِزاجات .

مع ما يَلْتَحِق بى من عِلْم الكُرَة الذى منه تُعْرف كَيْفية ٱتخاذ الآلات الشُّعاعيه ، ويتوصَّلُ به الى ٱستخراج المَطَالِب الفَلَكيَّه .

فقال علم المَوَاقِيت : كيف وأنا سَيِّد عُلُوم الهَيْئة وزَعِيمُها ، وشَرِيفُها فى الشريعة وكَرِيمُها ، بى تُعرف أوقاتُ العبادات ، وتُسْتخرجُ جِهَة القِبْـلَة بل سائِرُ الجهات ، وتُعلَمُ أحوالُ البُـلْدان ومَحالُّها من المَعْمُور فى الطُّولِ والعَرْض ، ومَقادِيرُ أبعادها وٱنْحِرافُ بَعْضِهـا عن بَعْض ، مع ما يَنْخرِطُ فى هـذا السِّلْك من معرفة السُّـموت وٱرْتِفاع الكَوَاكِب ، ومطالعها من أجْزاء البُرُوج والطَّالع منها والغَارِب ، وغير ذلك من الشُّعاعات المَخْروطه ، والظِّلال القَائِمة والمَبْسُوطه ، إلىٰ غير ذلك ممـا يلتحق بى ، ويُنْسَبُ إلىّ ويَتَعلَّق بسَبَبى :

من علم الالات الظِّلِّيَّة التى تُعرَفُ بها ساعات النهار ، ويَظْهر منهـا المـاضى والباقى بأقرب مُلْتَمَسٍ وألْطفِ ٱعتبار ، من نحو الرُّخامات القائمات ، والمَبْسُوطات منهـا والمـائِلات .

فقال علم الهَنْدَسَة : إن فَضْلَك لمَشْهُور ، ومَقامَك فى الشَّرَف غير مَنْكُور ، إلا أن آلاتك بى مُقَدَّره ، وأشْكالَك بأوْضاعى مُحَرَّره ، فأنا إمَامُك الذى به تَقْتَدى ، ونَجْمك

الذى به تهتدى؛ بل جميعُ علوم الهيْئة فى الحقيقة موْقوفةٌ علىّ، وراجعةٌ فى قواعدها إلىّ؛ لولاى لم يُعرف السَّطْح والكُرَه، ولم يُميَّز بين الخُطُوط والقِسِىّ والدَّوائر المقدَّره؛ مع ما ينْشأُ عنى، ويستملىٰ من صحابى ويُقْتبس منّى؛ من أحوال المقادير ولوَاحِقها، ومعرفَةِ ظواهرِها الوَاضحة ودَقائقها؛ وأوْضاعِ بَعْضها عند بعض ونِسَبِها، وخواصّ أشْكالها والطُّرُقِ إلى عمل ما سَبِيلُه أن يعمل لها؛ وآستخراجِ ما يحتاج إلىَ آستخراجه بالبراهين اليَقِينِيَّة القاطعه، وإظهارها إلى الحِسّ بالأشكال البيِّنة والحدود الجامعة المانعه.

فقال علم عُقُود الأبْنية : نَعَم، إلا أنّى أنا أجَلُّ مَقَاصِدك، وأعْذب مَوَارِدِك؛ ونُورُ عيُونِك، وعَرُوسُ فنُونِك؛ منّى يُسْتفادُ بِناَء الحُصُون والأسْوار، ويتعرَّفُ شَقّ الأقْنِيةِ وحَفْر الأنهار؛ وعِمارةُ المُدُن وعَقْد القَواصِر، وسَدُّ البُثُوق وبِناءُ القَناطِر؛ وتَنْضِيدُ المساكِن ووَضْعُ المنازل، ونَصْبُ الأشجار وتَرْتِيبُ الرِّياض ذوات الخمائل.

فقال علم جَرّ الأثْقَالِ : صدقتَ ولٰكِنّى أنا أَساسُ مبانيك وقاعدَة سِنَادِك، وحامِلُ أثقالك وعَمُود آعتمادك؛ بى تُعْرف كيفية نَقْلِ الثِّقْلِ العظِيم بالقُوَّة اليَسيره، حتَّى تُنقَلَ مائَةُ ألْفِ رِطْلٍ بقُوَّة خَمْسِمائَة وذلك من الأسرار النَّفيسة والأعمال الخَطِيره.

فقال علم مَرَاكِز الأثْقَال : إلا أنّك محتاجٌ إلىّ فى أعمالك، ومُتَوقِّفٌ على فى جميع أحوالك؛ من حيثُ آستخراجُ مَرَاكِز الأجْسامِ المحموله، وبيانُ مُعادلة الجِسْم العظيم بما هو دونه لتَوسُّط المسافة بالآلات المعموله.

فقال علم المِسَاحَة : أرَاكَ قد غَفَلْتَ عن معرفة المَقَادِير والمسافات التى هى مُقَدَّمة عليك فى وضع المبانى، ومُنفرِدَةٌ عنك بكثيرٍ من المعانى؛ من أ ـ الخَراج والزراعات،

وتَقْدير الرَّساتيق والبياعات ، وكَيْفِيَّـةِ ذَرْع المُثَلَّثات ، والمُرَبَّعات ، والمُدَوَّرات ، والمُسْتَطيلات ؛ وغير ذلك من دَقَائق الأعمال ، و إدْراك كَمِّيات المقادير على التفصيل والإجمـال .

فقال علم الفِلَاحَة : فإذًا قد ٱعترفتَ أنَّك من جُمْلة لَوَاحِق ، مُنْدَرِجٌ في حُقُوق وداخلٌ تحت مَرَافِق ؛ فأنا في الحقيقة المقصودُ منك في الوَضْع بالقياس ، والمُتَّحِد بك دُونَ غيري من غير ٱلتباس ؛ مع ما أنا عليـه من مَعْرِفة كيفية تدبير النَّباتِ من بَدْءِ كَوْنه إلىٰ تمـام تَدْبيره ، وتَنْمِيَةِ الحُبُوب والثِّمـار بإصلاح الأرض وما تَخَلَّلَها من المُعَفِّنات كالسِّماد وغيره وما أُبْديه من اللَّطائف في إيجـاد بعض الفَوَاكه في غير فَصْله ، وتَرْكيب بَعْض الأشجار على بَعْضٍ وٱستخراج بَعْضها من غير أَصْله .

فقال علم إنْباط المِيَاه : إلا أَنِّي أنا بِدَايَةُ عَمَلِك ، وغاية مُنْتَهىٰ أَملك ؛ لا يتم لك أمْرٌ بِدُوني ، ولا تَنْبُت لك خَضْراءُ ما لم تُسْـقَ من بِئَارِي وعُيُوني ؛ فأنا الكَفيلُ باحياء الأرض المَيِّتة و إفْلاحِها ، والقائمُ بتَلْطِيف مِزَاجِها و إصْلاحِها .

فقال علم المَنَاظِر : ما ٱلذي تُجْدِي أنت وطَرْفي عنك مُرْتَد ، ونَظَري إليك غير مُمْتَدّ ؛ وأنَّىٰ تستَطِيعُ مِيَاهُك التَّرقِي من الأغوار إلى النُّجُود ، وتَتَنَقَّلُ عُيُونُك وأنْهارُك بين الهُبُوط والصُّـعُود ؛ إذا لم أكُنْ لك مُلاحِظا ، وعلى الٱعتناء بأمْرِك مُحافظا ؛ مع ما أَشْتَمِلُ عليه غير ذلك من تَحْقِيق المُبْصَرات في القُرْب والبُعْد على ٱختلاف معانيها ، وما يَغْلَط فيه البَصر كالأشجار القائمة علىٰ شُطُوط المِيَاه حيثُ تُرىٰ وأَسَافِلُها أعَالِيَها .

فقال علم المَرَايا[(١)] المُحْرِقَة : إنَّك و إن دَقَّقتَ النَّظَر ، وحَقَّقتَ كلَّ ما وقع عليـه حاسَّةُ البَصر ؛ فأنا مَقْصِـدُك الأعظم ، ومُهِمُّك المُقَدَّم ؛ طَالمـا أحرقتُ القِـلاع

(١) ذكر في لسان العرب أن المرآة جمعها مراء كمراع وأن العوام يقولون في جمعها : مرايا .

بشُعَاعى، وحَصَّنْت الجيوش بدِفَاعى، وقمتُ بما لم يقم به الجَيْش العرمرم والعسكر الجَرَّار، وأَغْنيتُ مع انفرادى عن كثْرة الأعوانِ ومُعاضَدَة الأنْصار .

فقال علم الآلات الحَرْبِيَّة : وإن حَدَّك لكَلِيل، وإن جَدَاك لقَلِيل، وإنَّ المُسْتنْصِر بك لذَلِيل، وماذا عسى تَصِل فى الإحراق إليه، أو تُسَلَّط فى الحروب عليه؟؛ أنا بَاعُ الحَرْب المَدِيد، والمُحَصِّن من كلّ بأسٍ شَدِيد، والتَّالِى بلِسَان الصِّدْق على الأعداء : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . فأنا نَفْس المقصود وعَيْن المُراد، وعَمُود الحَقِّ وقاعِدَة الجِهاد .

فقال علم الكِيمِيا : ما أنتَ والقِتَال، ومُواقَعَة الحُرُوب وقَوَارِع النِّزال؛ وهَلْ أنتَ إلا آلةٌ من الآلات، لا تَسْتَقِلُّ بنَفْسك فى حالةٍ من الحالات؛ وأنَّى يُغْنى السِّلَاح عن الجَبَان مع خَوَرِ الطِّباع، أو يَحْتاجُ إليه البطَل الصِّنْديد والمُجَرَّب الشُّجاع؛ فالعِبْرة بالمُقَاتِل، لا بالذَّوابِل؛ والعُمْدة على الرِّجال، لا ببوارِق السُّيوف عند النِّزال؛ وبكلِّ حالٍ فالعُمْدة فى الحُروب وجَمْع العساكر على النَّقْدَيْن دون ماعداهما، والاْسْتِناد إلى الذَّهَب والفِضَّة بخلاف ماسواهما؛ وإلىَّ هذا الحديثُ يُساقُ وعلىَّ فيه يُعْتمد، وعنِّى يُؤْخذُ وإلىَّ فى مثله يُسْتَند، أُحَاوِل بحُسْنِ التدبير، ما طَبَخَتْه الطبيعة على مَمَرِّ الدُّهور، فآتِى بمِثْله فى الزَّمن القَرِيب، وأُجانِس بين المَعَادِن فى مُمَازَجَتها فيظهر عنها كلُّ معنًى غَرِيب؛ وأُبْرِز من خصائص الإكْسِير ما يَقْلِب المِرِّيخ قَمَرًا من غير لَبْس، ويُحِيلُ الزُّهَرَة شمْسًا وناهِيكَ بإحالةِ الزُّهَرة إلى الشَّمْس؛ فصاحِبِي أَبَدًا عَزِيزُ المنال، شَرِيف النَّفْس عن الطَّلَب عَفِيفُ اللسان عن السُّؤال .

فقال علم الحِساب المَفْتُوح : إنَّك وإن دَفَعتَ عَنَا، وجلَبتَ غِنَى؛ فأمْوالُك الجَمَّة، وحَواصلُك الضَّخْمه، محتاجةٌ إلى حُسَّابى، غير غَنِيَّة عن كُتَّابِى؛ أنا جامعُ

الأموال وضَابِط أُصُولها ، والمتكفِّل بحِفْظِ جُمْلتها وتَفْصيلها ؛ مع ٱحتياج كثيرٍ من العلوم إلىّ فى الضَّرْب والقِسْمة والإسْقاط .

قد أخذتُ من عِلْم الارتماطيقى الذى هو أصْـل علوم الحساب بجَوانِبِه ، وتعلَّقْتُ منـه بأسْهلِ طُرُقه وأقرب مَذَاهِبـه ؛ ونَاهِيكَ بشَرَف قَدْرى ، ورِفْعـة ذِكْرى ؛ قولُ أبى محمد الحريرىّ فى بعض مَقَاماتِه ، مُنَبِّهًا علىٰ شَرَف قَلَمى وسَنِىّ حالاته : «ولَوْلا قَلَم الحُسَّاب لَأَوْدَتْ ثَمَرةُ الاكْتِسَاب ، ولَاتَّصلَ التَّغابُنُ إلىٰ يَوْمِ الحِسَاب» .

فقال علم حساب التَّخْت والمِيل : مَهْ ! فما أنت إلا عِلْم العامَّة فى الأسْواق ، تَدُور بين الكَافَّة على العموم وتَتَـداوُل بينهم على الإطْلاق ؛ تكادُ أن تكونَ بَدِيهيًّا حتّىٰ للأطْفال ، وضَرُورِيًّا للنساء والعَبِيـدِ فى جميع الأحوال ؛ يَتَّسِعُ عليك مَجَالُ الضَّرْب فتَقْصُر عنه هِمَّتُكَ المُقَصِّره ، وتَتَشَعَّب عليك مَدَارِك القِسْـمَة فتأتى بها على التَّقْرِيب غير مُحَرَّره ؛ أيْن أنتَ من سَعَةِ بَاعى ، وٱمْتداد ذِرَاعى ، وتَحْرِير أوْضَاعى؟ ؛ لا يَعْتَمِدُ أهلُ الهَيْئة فى مِسَاحة الأفْلاك والكَوَاكِب غَيْرَحقائِقِ أُمورى ، ولا يُعَوِّلُون فيها ـ علىٰ سَعَةِ فَضَائِها ـ إلا علىٰ صِحَاحِى وكُسُورى .

فقال علم حِسَاب الخَطَأَيْنِ : مَالِى ولِعِلْمٍ لا يُوَصِّلُ إلى المقصود إلا بعد عَمَلٍ طَوِيل؟ ، ويحتاجُ صاحِبُه مع زيادة العَنَاءِ إلىٰ ٱستصحاب تَخْتٍ ومِيل ، وقد قِيل : كُلُّ عِلْمٍ لا يَدْخلُ مع صاحِبه الحَمَّام فجَدَاه قاصِرٌ ونَفْعه قَلِيل ؛ علىٰ أنَّ غيرك يُشارِكُكَ فيما أنتَ فيه ، ويوصِـلُ إلىٰ مَقْصودك بطريق لا يَدْخُله الغَلَط ولا يَعْتَرِيه ؛ وإنمـا الشَّأْن فى ٱستكشاف غَامِض أو إظْهارِ غَرِيب ، ولا أَعْجَبُ من أن تُصِيبَ إخْراجَ المَجْهول من الأعْداد بخَطَأَيْنِ فيقال : أَتَى بخَطَأَيْنِ وهو مُصِيب .

فقال علم الجبْر والمُقابَلَة : حَسْبُك فإنّمـا أنتَ فى ٱستخراج المجهولات كنُقْطةٍ من قَطْر ، أو نُغْبَـةٍ من بَحْـر ؛ تقتصر منها بطُرُقكَ القاصرة وأعمـالك النأ كبـه ، علىٰ ما أمْكَن صَيْرورَته من العـدَد فى أربعةِ أعْدادٍ مُتَناسِـبه ؛ نَعَمْ أنا أبُو عُذْرَتِها ، وٱبْن بَجْدَتِها ، وأخُو نجْدتِها؛ أسْتَخْرِج جميع المجهولات ، من مَسَائِل المُعَاملَات ، والوَصَايا والتَّرِكَات؛ وغير ذلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ ، ويَنْحُو هذا النَّحْو ويَسْرى هـذا المَسْرىٰ؛ ممـا يدخل تَحْت الأموال والجُذُور، والأعداد المُطْلَقة من الصِّحَاح والكُسُور .

فقال علم حِسَابِ الدِّرْهم والدِّينَـار : مَالَك ولِادِّعَاءِ التَّعْميم فى ٱسـتخراج المجهولات وكَشْفِ الغوامض؟ وإنّمـا أنتَ قاصِرٌ على ٱسْتِعلامِ المجهولات العَدَدِيَّة المعـلومةِ العَوارِض؛ دون ما تَزِيدُ عِدَّتُه على المعادلات الجَبْريَّه، فقد فاتَك حِينَئِـذٍ الدَّعاوى الحَصْريه؛ لٰكِنِّى أنا كاشِفُ هذه الحَقَائق، ومُبَيِّن سُبُلِها بِأَلْطَفِ الطَّرائق؛ فَبِى إليها يُتَوَصَّل، وعلىٰ قَواعِدِى لٱستخراج مَقَاصِدِها يُجْمَل ويُفَصَّل .

فقال علم حساب الدَّوْرِ والوَصَايا : إنَّ استخراجَ المجهولات وإنْ عَظُم نَفْعا، وحَسُن وَضْعا؛ فأنا أعظم منه فَائدَه، وأجَلُّ منه عَائده؛ أُبَيِّن مِقْدار مايتعلَّقُ بالدَّوْرِ من الوَصَايا، حتى يتَّضِحَ لمن يتأمَّل، وأقْطَع الدَّوْرَ فتعود المَسْألَةَ من أظهر القَضَايا، ولَوْلا ذلك لَدَار أو تَسَلْسَل .

فقال عِلْم الفِقْـه : وهل أنتَ إلا نُبْذَة من الوَصَايا التى هى بَارِقَةٌ من بَوَارِقى، تتعلَّقُ بأطْنـابِى وتدخُلُ تحت سُرادِقِى ؛ بِى تَتَمَيَّزُ مَعالِم الأحكام، ويَتَبَيَّنُ الوَاجِب والمَنْدوب والمُبَـاح والمَكْروه والحَـرَام ؛ ويُتَعرَّف ما يُتَقرَّب به إلى الله تعـالىٰ من العِبَـادَات ، وسَائِر أنواع التَّكاليف الشَّرْعِيَّـة العَمَلية ممـا تدعو إليـه الضرورات

وتَجْرِى به العادات ؛ فأنَا إمامُ العلوم الذى به يُقْتَـدىٰ ، وعَميدُها الذى عليه يُعْتَمَدُ ونَجْـمُها الذى به يُهْتَـدَىٰ ؛ فلولا إرْشادى لَضَلَّ سَعْىُ المُكلَّفين ، ولأَمْسَوْا فى دَيْجاءَ مُدْلَهِمَّةٍ فأصْبَحُوا عن رَكائِبِ الخَيْرِ مُخَلَّفِين .

ونَاهِيكَ أن من جُمْلة أفْرادِى ، وآحَادِ أعْدَادِى : ـ

علم الفرائض الذى حَضَّ الشارع علىٰ تَعَلُّمِه وتَعْليمه ، وأخبر بأنَّه نِصْفُ العِلْم مُنَبِّهًا علىٰ تعظيم شَأْنِه وتَفْخِيمه ؛ وبَالَغَ فى إثبـات قوَاعِده و إحكام أُسِّه ، فقال : « إنَّ اللهَ لم يَكِلْ قِسْمَةَ مَوارِيثِكُم إلىٰ مَلَكٍ مُقرَّبٍ ولا نَبِىٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا فَقَسَمَها بنَفْسِه » .

فقال علم أُصُول الفِقْه : إنَّ مَقَالَك لعَـال ، و إنَّ جِيدَك لحَـال ؛ غير أَنِّى أَنَا المتكَفِّلُ بتَقْرِير أُصُولك ، وتَوْجِيهِ المسائل الواقعـة فى خِلَال أبْوابِك وفُصُولك ؛ بى تُعْرف مَطالِب الأحكام الشَّرْعِيَّـة العَمَلِية وطُرُق آسْـتِنْباطها ، ومَوَاد حُجَجِها وآسْـتِخْراجها بدَقِيق النَّظَر وتَحْقِيق مَنَاطِها ؛ فبأُصُولِى فُرُوعُك مقَـرَّرَه ، و بمَحاسِن آسْتِدْلالى حُجَجُك مُنَقَّحَةٌ مُحرَّرَه ؛ قد مَهَّدتُ طُرُقَكَ حتىٰ زال عنها الإلْبَاس ، وبَنَيْتُ علىٰ أعْظَم الأُصُول فُرُوعك فأسْنَدتها للكِتَابِ والسُّنَّة والإِجْمَاع والقِيَاس .

فقال علم الجَدَل : قَدْ علمتَ أن الدَّلِيل لا يَقُوم برَأْسه ، ولا يَسْتقِلُّ بنَفْسِـه ؛ بل لا بُدَّ فى تَقْريره من النَّظَرِ فى مَعْرفة كَيْفِيَّـة الآسْتِدْلال ، والطَّرِيق المُوَصِّـل إلى المَطْلوب على التَّفْصِيل والإجمال ؛ وأَنَا المتكَفِّلُ بذٰلك ، والمُوَصِّل بكَشْفِ حَقَائِقِ البَحْثِ إلىٰ هٰـذه المَـدَارِك ؛ بى تُعْرف كَيْفِيَّـةُ تَقْرِير الحُجَج الشَّرْعِيَّـه ، وقَوادِحُ الأَدِلة وتَرْتِيب النُّكَتِ الخِلَافِيَّـه ؛ فَمَوْضُوعك عَلَىَّ مَحْمول ، ونَظَرُك إلىٰ نَظَرِى بكلِّ حَالٍ مَوْكُول .

فقال عِلم المَنْطق : خَفِّضْ عَلَيك ! فهَلْ أنتَ إلا نَوْعٌ من قِياسَاتِى المَنْطِقيَّة أُفْردتَ بالتَّصْنيف، وخُصِصْتَ بالمبَاحث الدِّينية فخَالَطتَ أُصُولَ الفقْه فى التأليف؟؛ فأنتَ إذًا فَرْدٌ من أفْرادى ، وواحدٌ من أعْدادى ؛ مع ما آشتمَلَ عليه سِواكَ من القياسات البُرْهانيَّة القَاطعة فى المُناظرات، والقِياسَاتِ الخَطابيَّة والبلاغات النَّافعة فى مخاطبات الجُمْهور علىٰ سَبِيلِ المُخَاصَمات والمُساوَرات ؛ وكَذَلكَ حالُ القياسات الشِّعْرِيَّه ، وكَيْف يُسْتعمَلُ التَّشْبِيه المُفيد للتَّخَيُّلِ المُوجِب للانفعالات النَّفْسانيَّه ؛ كالإغْراء والتَّحْذير، والتَّرْغيب والتَّرهيب والتَّعْظِيم والتَّحْقير؛ وغير ذلك من معرفة الأَلْفاظ والمَعَانى المفْرَدة من حيثُ هى عامَّة كُلِّيَّه ، وتَرْكيب المَعَانى المُفْردة بالنسبة إلى الإيجابية والسَّلْبيه؛ تَعْصِمُ مُرَاعاتى الفِكْرعن الخَطَإ فلا يَزِلّ، وتَهْديه سَوَاء السَّبِيلِ فلا يَحِيدُ عن الصِّراط السَّوِيِّ ولا يَضِلّ، وأَسْرى فى جَميع المَعْقولات فأتَصَرَّفُ فيما يَدِقُّ منها ويَجِلّ .

فقال علم دِرَايَة الحَديث : قد علمتَ بما ثَبَتَ به الأدِلَّة بالتَّلْويح والتَّصْريح ، أنه لا مَجَال للعَقْل فى تَحْسِينٍ ولا تَقْبيح ؛ وحِينَئِذٍ فلا بُدَّ من نَصٍّ شَرْعيٍّ تعتمدُ عليه ، وتَسْتنِدُ فى مُقَدِّمَاتك إليه ؛ ولا أقْوَىٰ حُجَّه ، وأوْضَح مَحَجَّه ؛ من كلامِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم ، الذى لا يَنْطِق عن الهَوَىٰ إذا تكَلَّم ؛ فاذا آستندتَ إلىٰ نُصُوصه ، وآعْتَمدتَ عَليه فى عُمُومه وخُصُوصه ؛ فقد حَسُنَ منك المُقَدَّم والتَّالى ، وكانت مُقَدِّماتُك فى البَحْثِ أمْضىٰ من المُرْهَفَاتِ ونَتَائجُك أنْفَع من العَوَالى ؛ وقد تحققتَ أنِّى إمامُ هذا المَقَام، ومالكُ قِيادِ هذا الزِّمام .

فقال علم رِوَاية الحَديث : لقد ذكرتَ من الصَّحِيح المتَّفق عليه بما لا طَعْن فيه لمُريب، وتَعلَّقتَ من كلام النُّبُوَّة بأوْثَقِ سَبَبٍ فأتَيْتَ بكل لَفْظٍ حَسَنٍ ومعنًى

غَريب ، إلا أن الدِّرايه ، مَوْقوفةٌ على الرِّوايَه ، وكيف يَقع نَظَر الناظر فى حديث قَبْلَ وُصُوله إليه ، أو يتأتَّىٰ العِلْم بمَعْناه قبل الوقوف عليه ؟ ، وهل يَثْبتُ فَرْعٌ علىٰ غير أصْلٍ فى مقتضى القِياس ، أو يُرقىٰ من غير سُـلَّم أو يُبْنىٰ علىٰ غير أسَاس ؟ ، فعَلى المحدِّث تقـديم العِلْم بالرواية بشَرْطها ، ومَعْرفة أقواله صلَّى الله عليـه وسلم بالسَّماع المُتَّصِـل وتَحْريرها وضَبْطِها .

فقال علم التَّفْسير : قد تَبيَّن لَدىٰ العلمـاء بالشَّريعة أن حُكْم الكِتاب والسُّـنَّة واحد ، وإن ٱختلفتْ فى الأسمـاء فلم تَخْتلِف فى المَقَاصـد ، إلا أنهما وإن ٱتَّفَقا فى الدِّلالة والإرشاد ، فقد ٱختصَّ الكِتَابُ فى النَّقْل بالتَّواتُر وجاء أكثر السُّنَّة بالآحاد .

فقال علم القِرَاآت : إلا أنه لا يَنْبغِى للمَفَسِّر أن يُقْـدِم على التَّفْسـير ما لم يكن بقراءة السَّـبْع والشَّاذِّ عالِمـا ، وبلُغاتِها عَارِفًا وللنَّظَرِ فى معَانيها مُلازِما ، مع ما يَلْتَحِق بذلك من عِلْم قوانين القِرَاءَة المتعلِّق من المَصَاحف بخَطِّها ، والأشْـكَال والعلامات المتَكَفِّلة بتَحْريرها وضَبْطها .

فقال علم النَّوامِيس : (وهو العِلْم بمتعَلَّقات النُّبُوَّة) : إنَّك لفَرْعٌ مِن فُروع الكِتَاب المُبين ، وما نَزَل به الرُّوحُ الأمينُ علىٰ قَلبِ سَـيِّد المُرْسَـلين ، وإلىَّ النَّظَر فى أحوال النُّبوّة وحَقِيقَتِها ، ومَسِيس الحَاجَة إليها فى بيان الشَّريعة وطَرِيقَتِها ، والفَرْق بين النُّبُوّة الحَقَّه ، والدَّعَاوى البَاطِلة غير المُحِقَّه ، ومَعْرفة المُعجزات المُخْتَصَّـة بالأنْبياء والرُّسُل عليهم السلام ، والكَرَامَات الصَّادِرَة عن الصِّدِّيقينَ الأَبْرار والأوْلِياء الكِرام ، فأنا المُقدَّم علىٰ سائر العُلُوم الشَّرْعيه ، وإمامُ الأصْليَّة منها والفَرْعِيَّة .

فقال علم الإلٰهِى : لقـد تَحقَّقتَ أنَّ اللاَزم المُحَتَّم ، والوَاجِبَ تَقْـديمُه علىٰ كلِّ مُقَدَّم ، العِلْمُ بمعرفة الله تعـالىٰ والطَّرِيقُ المُوَصِّـل إليها ، وإثباتُ صفاته المقدَّسـة

وما يجب لهـا ويَسْتَحيل عليها؛ وأنه الواجبُ الْوُجُودِ لذَاته، وباعثُ الرُّسُل لإقامة الحُجَّة علىٰ خَلْقِه بمُحْكَم آيَاتِه؛ وأنا الزَّعيم بإقامة الأَدِلَّة علىٰ ذلك من المَعْقول والمَنْقول، والمتكَفِّل بتَصْحيح مقدّماته البُرْهانِيَّة بتَحْرِيرِ المُقَدَّم والتَّالِي والمَوْضوع والمَحْمول .

فقال علمُ أُصُولِ الدِّين : فحِينَئِـذٍ قد فُزْتُ من جَمْعِكُما بالشَّرَفَيْن ، وجُمِـعَ لى مِنْكما الفَضْل بطَرَفَيْه فصِرْتُ بِكُما مُعلَمَ الطَّرَفَيْن؛ ومَيَّزْتُ بين صحيح الاعتقاد وفاسِده فكان لى منهـما أَحْسَنُ الاخْتِيارَيْن، وبيَّنْتُ طَرِيقَ الحَقِّ لسالِكِها فكنتُ سَبَباً للفَوْز والنَّجاةِ فى الدَّارَيْـن ؛ فانا المقصودُ للإنسان بالذَّات فى كمال ذَاتِه، وكُلُّ عِلْمٍ يَسْتمِدُّ مِنِّى فى مَبَادِيه ويَفْتَقِر إلىَّ فى مُقَدِّماته .

فقال علم التَّصَوُّف : لو كُشِفَ الغِطَاء ما ٱزْدَدتُ يَقِينـا، إذ كان كُلُّ ٱمْرِئٍ بما عَمِلَ مُجازًى وبمـا كَسَب رَهِينا؛ إنَّه يَجِبُ علىٰ كلِّ من كان بمُعْتَقَدِ الحَقِّ جازما، أن يكونَ عن دَارِ الغُرُور مُتجَافِيًا ولأعمال البِرِّ مُلازما؛ فإنَّمـا الدُّنْيا مَزْرَعَةٌ للآخِرَه، إنْ حَصَلتِ النَّجاةُ فتِلْك التِّجارَة الرَّابِحةُ وإن كانتِ الأخْرَىٰ فتِلْك إذًا كَرَّةٌ خَاسِرَه؛ فمن لَزِم طَرِيقَتِي فى الإعراض عن الدُّنيا والزُّهدِ فيها سَلِم، ومَن ٱغْتَرَّ بزُخْرُفِها الفَانِى فقد خَابَ فى القيامة ونَدِم .

فلمـا كَثُرتِ الدَّعاوَىٰ والمُعارَضَـات ، وتَتابَعتِ الحُجَجُ والمُنَـاقَضات ؛ نَهَض عِلْمُ السِّياسَةِ قائمـا، وقَصَد حَسْم مادَّةِ الجِدَال وطَالمـا؛ وقال: أنَا جُذَيْلُها المُحَكَّك وعُذَيْقُها المُرَجَّب، وسَائِسُها الكَافِي وحَاكِمُها المُهَذَّب؛ لقد ذَكر كُلٌّ منكم من فَضْله ما يُشَوِّق السَّامع ، وأظْهَر من جليـلِ قَدْرِه ما تَنْقَطِع دُونَه المَطَامِع ، وأتىٰ من وَاضِح كلامه بما لا يُحْتَاجُ فى إثباته إلىٰ دَلِيلٍ ظَنِّيٍّ ولا بُرْهان قاطِع؛ غير أنه لا يَلِيقُ بالمُنْصِف أن يَتخَطَّىٰ قَدْره المحـدود ولا يَتعدّى جُزْءَه المَقْسوم ، ولكلِّ أحدٍ حدٌّ يَقِفُ عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ؛ فلو سَلَكَ كلٌّ منكم سبيلَ المَعْدَلَه ، وأنصفَ من نَفْسِه فوقف عند ما حُدَّ له ؛ لكان به أَلْيَق ، ولمقام العِلْم أَرْفَق .

فقال علم تَدْبِيرِ المَنْزِل : لقد تحرَّيتَ الصَّواب ، ونطقْتَ بالحِكْمة وفَصْلِ الخِطَاب ؛ لكنَّه لا بُدّ لكم من حَبْرٍ عالم ، وإمامٍ حاكِم ؛ يكونُ لشَمْلِكم جامعا ، ولمَوَاقع الشَّكِّ فى محلِّ التفاضُلِ بينكم رَافعا ؛ مُحِيطٌ من كلِّ عِلْمٍ بمقْصُودِه ومُرَادِه ، عارِفٌ بما تَشْتملُ عليه مَبادِيه من حَدِّه ومَوْضُوعه وفائدَته وٱسْتِمْدَاده ؛ ليبْلُغَ به من الفَضْلِ مُنْتهاه ، ويَقِفَ به من الشَّرف عند حَدٍّ لا يتعدَّاه ؛ فلا يَدَّعى مُدَّعٍ بغير مُسْتَحَقّ ، ولا يطالِبُ طالِبٌ ما ليس له بحَقّ ؛ إلا أنَّ المحيط بكلكم عِلْما ، والقائمَ بجميعكم فَهْما ؛ أعَزُّ من الجَوْهرِ الفَرْد والكِبْرِيتِ الأَحْمَر ، وأقلُّ وجوداً من بَيْضِ الأَنُوق بل بَيْضُ الأَنُوق فى الوُجْدانِ أَكْثَر .

فقال علم الفِرَاسَة : على الخَبِيرِ سَقَطت ، وبٱبْنِ بَجْدَتِها حَطَطت ؛ أَنَا بذلكم زَعِيم ، وبمَظِنَّته عَلِيم ؛ فلِلعِلْم عَرْفٌ يَنِمُّ علىٰ صاحبه ، وتلوحُ عليه بوَارِقُه وإن أَكَنَّه بين جوانِبه ؛ كحامِلِ المِسْك لا تخفىٰ رِيحُه علىٰ غيرِ ذى زُكَام ، والنَّهار لا يَخْفىٰ ضَوْءُه علىٰ ذِى بَصَرٍ وإن تسترتْ شَمْسه بأذْيال الغَمام ؛ ولقد تَصفَّحتُ وُجوه العلماء الكَمَلَه ، الذين طَوَاياهم علىٰ أَجْمَلِ العلوم مُنطَوِيةٌ وعلىٰ تَفَاصيلها مُشْتمله ؛ وسَبَرت وقَسَّمْت ، وتَفَرَّستُ وتَوسَّمْت ؛ فلم أجِدْ من يَليقُ لهذا المقام ، ويَصلحُ لقَطْعِ الجِدال والخِصام ؛ ويَعْرِف بلُغَةِ كلِّ عِلْمٍ فيُجيبُ بلسانه ، ويَحْكم فلا يَنْقُض حُكْمَه غيرُه لٱنْحطاطه عن بُلُوغِ مكانه ؛ إلا البَحْر الزَّاخِر ، و (١) الذى لا يُعلم لفَضْله أوَّلٌ ولا يُدْرك لمَدَاه آخِر ؛ حَبْر الأمّه ، وعَلَّامة الأَئِمَّه (٢) ؛ وناصِرُ السُّنة وحامِيها ، وقامِعُ البِدْعة وقَامِيها ؛ نَجْلُ

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقامئها بالهمز نخففه من قَمأه كمنعه قمعه .

شَيْخ الإسلام ، وخُلاصَةُ غُرَر الأيَّام ، جَلال الدِّين، بَقِيَّة المجتهدين ؛ أبو الفَضْل عبد الرحمن البُلْقِينِيّ الشَّافعيّ ، النَّـاظِر فى الحُكْم العَزِيز بالديار المِصْريه ، وسائر الممـالك الإسلامية وما أُضِيف إلىٰ ذلك من الوَظَائِف الدِّينيـه ؛ لا زالتْ فواضِلُ الفَضَائل مَعْرُوفَهْ : فهو العَـالِم الذى إذا قال لا يُعارَض ، والحـاكِمُ الذى إذا حكَم لا يُنَاقَض، والإمامُ الذى لا يتخلَّلُ ٱجْتِهادَه خَلَل ، والمُناظِرُ الذى ما حَاوَل قَطْع خصْمٍ إلا كان لِسانُه أمْضَىٰ من السَّيف إذَا يقال : «سَبَق السَّيفُ العَذَل» :

إذا قَالَ بَذَّ القَائِلين ولم يَدَعْ * لمُلْتَمِسٍ فى القَوْل جِدًّا ولا هَزْلَا !

إن تكَلَّم فى الفقْه فكأنمـا بلِسَان « الشَّافعيّ » تكلَّم ، و « الرَّبيع » عنـه يَرْوِى و «المُزَنيُّ» منه يتَعَلَّم؛ أو خاضَ فى أُصُول الفِقْه . قال « الغزاليُّ » : هذا هو الإمامُ باتفاق ، وقَطَع السَّيفُ « الآمِديُّ » بأنه المُقَدَّم فى هذا الفَنّ على الإطلاق ؛ أو جَرىٰ فى التَّفْسير . قال « الوَاحِديُّ » : هـذا هو العَالِم الأوْحد ، وأعطاه « ٱبْنُ عطِيَّةَ » صَفْقَة يَده بأن مِثْلَه فى التَّفْسير لا يُوجَد ، وٱعترف له «صَاحِبُ الكَشَّاف» بالكَشْف عن الغَوامِض ، وقال الإمام «فَخْرُ الدِّين» : "هذه مَفَاتِيح الغَيْب وأسْرارُ التَّنْزِيل" فارتفع الخِلَافُ وٱندفع المُعـارِض ؛ أو أخَذَ فى القِراآت والرَّسْم أزْرَى بأبى « عَمْرو الدَّانِى » ، وعَدَا شَأْوَ « الشَّاطِبِيّ » فى " الرَّائية " وتَقَدَّمه فى « حِرْزِ الأَمانِى » ؛ أو تحَدَّثَ فى الحَـديث شَهِد له « السُّفْيانَانِ » بعُلُوّ الرتبـة فى الرِّوايَه ، وٱعترف له « ٱبن مَعِين » بالتَّبْريز والتَّقَـدُّم فى الدِّرايَه ، وهَتَف « الخَطِيبُ البَغْدادِيّ » بذِكْرِه على المَنَابِر ، وقال « ٱبْنُ الصَّلاح » : لِمثْل هـذه الفوائد تَتَعيَّن الرِّحْلة وفى تحْصِيلها تَنْفَدُ المحَابِر ؛ أو أَبْدىٰ فى أُصول الدِّين نَظَرًا تعلَّقَ منه « أبو الحَسَنِ الأشْعَرىُّ » بأوْفىٰ زمام ، وسَدَّ بابَ الكلام على المُعْتَزِلَة حتَّىٰ يقولَ « عَمْرُو بن عُبَيْد » و « وَاصِلُ بْنُ

عَطاءٍ » : لَيْتَنا لم نَفتح بابًا في الكلام ؛ أو دَقَّق النَّظَر في المَنْطق بَهَر « الأَبْهَرِىّ » في مناظرته ، وكتب « الكَاتِبِىُّ » علىٰ نَفْسِه وَثِيقةً بالعَجْز عن مُقاوَمَته ؛ أو أَلَمَّ بالجَدَل رَمَى « الأُرْمَوِىُّ » نَفْسه بين يَدَيه ، وجعل « العَمِيدِىُّ » عُمْـدَته في آداب البَحْث عليه ؛ أو بَسَط في اللُّغة لِسانَه ٱعترف له ٱبنُ « سِيدَهْ » بالسِّياده ، وأَقَرَّ بالعَجْز لَدَيْه « الجَوْهَرِىُّ » وجَلَس « ٱبنُ فَارِس » بين يديه مَجْلِسَ الٱسْتفاده ؛ أو نَحَا إلى النَّحْو والتَّصْريف أَرْبَىٰ فيه علىٰ « سِيبَوَيْهِ » ، وصَرَف « الكِسَائِىُّ » له عَزْمه فسار من البُعْد إليه ؛ أو وَضَع أُنْمُوذَجًا في عُلوم البلاغة وَقَف عنده « الجُرْجَانِىُّ » ، ولم يَتَعَدَّ حَدَّه « ٱبنُ أَبِي الإِصْبَع » ولم يُجَاوِز وَضْعَه « الرُّمَّانِى » ؛ أو رَوَىٰ أَشعارَ العَرَب أَزْرَىٰ بـ « الأَصْمَعِىّ » في حِفْظِه ، وفَاقَ « أَبَا عُبَيْدَةَ » في كَثْرة رِوَايَتِه وغَزِيرِ لَفْظه ؛ أو تعرّض للعَرُوض والقَوَافِي ٱسْتَحقَّهما على « الخَلِيـل » ، وقال « الأَخْفَش » عنه : أَخَذْتُ المُتَـدارَك وٱعْتَرف « الجَوْهَرِىُّ » بأنه ليس له في هـذا الفَنِّ مَثِيـل ؛ أو أَصَّـلَ في الطِّبِّ أَصْـلًا قال « ٱبْنُ سِينَا » : هذا هو القَانُون المُعْتَـبَرُ في الأُصُول ، وأَقْسَم « الرَّازِىّ » بُمحْيِي المَوْتَىٰ إن « بِقْرَاطَ » لو سَمِعه لمـا صَنَّف "الفُصُول" ؛ أو جَنَح إلىٰ غيره من العـلوم الطَّبِيعِيَّة فكأَنَّمـا طُبِـع عليه ، أو جَذَب له ذلك العِـلْم بزِمَامٍ فٱنْقاد إليه ؛ أو سَلَك في علوم الهَنْدَسَة طَرِيقا لقال « أُوقْلِيدس » : هـذا هو الخَطُّ المُسْـتقيم ، وأعْرَض « ٱبن الهَيْثَم » عن حَلِّ الشُّـكُوك ووَلَّىٰ وهو كَظِيم ، وحمد « المُؤْتَمن بنُ هُودٍ » عَدَم إِكمال كتابه "الٱستكمال" وقال : عَرَفْتُ قَدْر نفسي : وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم ؛ أو عَرَّجَ علىٰ عُلوم الهَيْئة لٱعْتَرف « أَبُو الرَّيْحان البَيْرُونِىُّ » أنه الأُعْجُوبَةُ النَّادِره ، وقال ٱبنُ أَفْلَحَ : هذا العالِمُ قُطْبُ هذه الدَّائِرَه ؛ أو صَرَف إلىٰ عِلْم الحِسَاب نَظَره لقال « السَّمَوْءَلُ بن يَحْيىٰ » لقد أَحْيَا هذا الفَنَّ الدَّارس ، ونَادَىٰ « ٱبن مجلى المَوْصِلِىّ » قد ٱنْجلتْ عن هذا العلم غَيَاهِبُهُ حتى لم يَبْقَ فيه عَمَهٌ لعَامِهٍ ولا غُمَّةٌ علىٰ مُمارِس .

وقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ القَوْلِ ذا سَعَةٍ * فإنْ وَجَدتَ لِسَاناً قَائِلاً فقُلِ!

وكَيف لاتُلْقِى إليه العلومُ مقاليدَها، وتَصِلُ به الفَضَائِل أَسَانِيدَها، وهو ابنُ شَيْخ الإسلام وإمَامِه، ووَاحِد الدَّهر وعَلَّامه، وجَامع العُلوم المُنْفرد، ومن حَقَّق وُجُودُه فى أوا ر الأعصار أن الزَّمانَ لايَخْلو من مُجْتَهِد، ومن لم يَزَل موضوعُ الأوضاع المعتبرة عليه مَحْمولا، ومن كان علىٰ رَأْسِ المـائَةِ الثَّامِنَة مُضاهِيًا لعُمَرَ بن عبد العزيز علىٰ رأس المـائَةِ الأُولىٰ، فالخَناصِرُ عليه وعلىٰ وَلَدِه تُعْقد، ولا غَرْوَ إنْ قام مُنْشِدُهما فأنْشَد:

إنِ المـائَةُ الأُولىٰ علىٰ رَأْسِهـا أَتَىٰ * لهـا عمرُ الثَّانِى لذَا الدِّينِ صَائِنَهْ،

ووَالىٰ رِجالٌ بعـد ذَاكَ كمِثْلِه * فهيا عُمَرٌ وافَى علىٰ رأسِ ثامنَـه

يظَـاهِرُه نَجْلٌ سَـعِيدٌ غَدَتْ به * مَعَاقِلُ عِلمٍ فى ذُرا الحقِّ آمِنَـه.

إذا شَـيْخُ إسلامٍ أضَاءَ سِرَاجُه * رَأيتَ جلالًا من سَنَا الفَضْل قَارَنَه!

فلا يَعْدَمِ الإسْـلَامُ جَمْعَ عُلاهُمـا * ولَـنْ يَبْرحا للدِّين دَأْبا مَيَامِنَه!

فقال علم الأخلاق: أَصبتَ سَوَاءَ الثُّغْرةِ وجِئْتَ بالرَّأْيِ الأكمل، وعَرَفْتَ من أَيْن تُؤْكَلُ الكَتِف فطَبَّقْتَ المِفصَلَ بالمِفْصَل، إلا أنَّ من مَحاسِنِ الأخلاق، ومَعَالِم الإرْفاق، أن تَعُودوا بفَضْلِكم، وتَرجِعُوا بمَعْروفكم وبِرِّكُم، إلىٰ من جَرَىٰ بكم فى التَّفَاخُر مجرى الإنصاف، وبَسَط لسانَ كَلِمِه بمـا آشتمَلَ عليه كلُّ منكم من جَمِيل الأوْصاف، ثم كان من شَأْنِه أن وَصَل بالآتِّفاقِ والآئْتِئَام حَبْلَكم، وجَمَع بالمَحَلِّ الكَرِيم بعد التباعد شَمْلكم، وذَكَّرَكم بحُسْـنِ المُصَافاةِ أَصْلَ الوِدَاد القَـدِيم، وتَلَا بلِسَان الأُلْفة فيكم: ﴿فإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. بأن يَنْتَصِب كلُّ منكم له شفيعًا إلىٰ هذا السَّيِّد الجليل، ويكونَ له وَسِيلةً إلىٰ هذا الإمام الحَفِيل، أن يَصْرِف إليه وَجْه العِنَايَه، ويَنْظر إليـه بعَـيْن الإقبال والرِّعايه، ليَعِز فى النـاس جَانِبُه، ويَطْلَع

فى أفُقِ السَّعْد بعد الأُفُول غَارِبُه ، ويَبْلُغَ من مُنْتَهىٰ أمَلِه ماله جَهِد ، ويَسْعَدَ بالنَّظَر السعيد جَدُّه فقد قيل : «مَن وَقَع عليه نَظَرُ السَّعِيدِ سَعِد» .

علىٰ أنه ـ أمتع الله الإسلام ببَقَائه وبقاء والده ، وجَمَع بينهما فى دَارِ الكَرامة كما جمع لهما بين طَارِفِ المَجْد وتَالِده ، ـ قد فَتَح له من التَّرَقِّى أوّلَ باب ، ولا شَكَّ أنَّ نَظْرةً منه إليه بعد ذلك تُرَقِّيه إلى السَّحاب .

فَأَزْرَقُ الفَجْرِ يَبْدُو قَبْل أبْيَضِه * وأَوّلُ الغَيْث قَطْرٌ ثم يَنْسَكِبُ!

فقال علم التاريخ : آهْبِطوا مِصْرًا فإنَّ لَكُم ما سَأَلْتُم ، وقَرُّوا عَيْنًا فإلى القَصْد الجليل وَصَلْتم ، وعلىٰ غاية الأمَلِ ـ ولله الحمد ـ حَصَلْتم ، فقد بَلَوْتُ الأوائلَ والأَوَاخِر ، وخَبَرْتُ حالَ المتقدِّم والمُعاصِر ، فلم أَرَ فيمَنْ مَضَىٰ وغَبَر ، وشاعَ ذِكْرُه وآشْتَهر ، من ذوى المراتب العَلِيَّه ، والمَنَاصِبِ السَّنِيَّه ، مَن يُساوِى هذا السَّيِّد الجليل فَضْلا ، أو يُدانيه فى المعروف قَوْلا وفِعْلا ، قد لَبِس شَرَفًا لاتطمع الأيام فى خَلْعه ، ولا يَتَطَلَّع الزمانُ إلىٰ نَزْعِه ، وآنتهىٰ إليه المَجْد فوَقَف ، وعَرَف الكَرَمُ مكانَه فانْحازَ إليه وعَطَف ، وحَلَّت الرَّآسةُ بِفِنَائِه فَاسْتغْنَتْ به عن السِّوىٰ ، وأَنَاخَتِ السِّيادة بأفْنائه فألْقَت عَصَاها وآسْتَقَرّ بها النَّوىٰ ، فقَصُرتْ عنه خُطَا من يُجَارِيه ، وضَاقَ عنه بَاعُ مَن يُنَاوِيه ، وآجتمعتْ الألْسُنُ علىٰ تَقْرِيضه فمُدِحَ بكلِّ لِسان ، وتَوافقَتِ القُلوبُ علىٰ حُبِّه فكان له بكلِّ قَلْبٍ مَكَان :

وَلَمْ يَخْلُ من إحْسانِه لَفْظُ مُخْبِرٍ ، * ولم يَخْلُ من تَقْرِيظِه بَطْنُ دَفْتَرِ!

فهو الحَرِىُّ بأن يُكْتَبَ بأقلام الذَّهَب جَمِيلُ مَنَاقِبه ، وأن يُرقَم علىٰ صَفَحاتِ الايام حَمِيدُ مَطالِبِه ، فلا يَذْهب علىٰ مَمَرِّ الزمانِ ذِكْرُها ، ولا يزولُ علىٰ تَوَالى الدُّهور نَشْرُها .

ولما تمّ للعلوم هذا الاجتماع الذى قارن السّعدُ جلالَه، وتفجّرتْ ينابيعُ الفضل خلالَه، أقبلوا بوجوههم على الشّعر معاتِبين، وبما يلزمه من تقريض هذا الحبر ومدحه مُطالِبين، وقالوا : قد أتى النّثرُ من مدحه بقدر طاقته، وإن لم يُوف بجليل قدره ورفيع مكانته، فلا بدّ من أن تختم هذه الرسالة بأبياتٍ بالمقام لائقه، ولما نحنُ فيه من القضيّة الواقعة مُطابِقه، قائمةً من مدحه بالواجب، سالكةً من ذلك أحسنَ المسالكِ وأجملَ المذاهب، لتكمُلَ هذه الرسالةُ نظماً ونثرا، وتفتنَّ فى صناعة الأدب خطابةً وشعرا، فقال : سمعًا وطاعه، واستكانةً وضراعه، ثم لم يلبثْ أن قام عجِلا، وأنشد مُرتجِلا :

بُشراكُم معاشرَ العُلومِ أنْ * جُمِعتُم بصدرِ حَبْرٍ كامِل!

فنونُه لم تجتمِعْ لعالِم * وفضْله لم يكتمِل لفاضِلِ!

يَشفِى الصُّدورَ إن غدا مُناظِرًا، * وبحثُه فزينةُ المحافِلِ!

كمْ عمّرتْ دروسُه من دارِسٍ، * وزيّنتْ بحَلْيِها من عاطِلِ!

وأوضحتْ أقوالُه من مُشكِلٍ * لمّا أتى بأوضحِ الدّلائلِ!

وكمْ غدتْ آراؤه حميدةً، * ونبّهتْ بجِدّها من خامِلِ.

وحكمُه فكمْ أقالَ عثرةً * وجودُه فَفَوقَ قصدِ الآمِلِ!

هذا : وقد فاقَ الورى رآسةً * محفوفةً بألطفِ الشّمائلِ!

مَنْ ذا يرومُ أن ينالَ شأوَه؟ * أنّى له بأمثلِ الأماثِلِ؟

مَولًى علا فوقَ السّماكِ رُتْبةً * قدْ زُيّنتْ بأفضلِ الفواضِلِ!

فما له فى فضْلِه من مُشبِهٍ، * وما لبحرِ جودِه من ساحِلِ!

حاشى لراجٍ فضلَه أن ينثنى * صِفرَ اليدينْ أو مُمَنّى الآجِلِ!

قلتُ : ولم أَرَ من تعرّض للمُفاخَرة بين العُلومِ سوى القاضي الرَّشِـيد أبي الحُسَين ٱبن الزبير في مَقَالتِه المقدّم ذكرها(١) علىٰ أنَّها لم تكنْ جاريةً علىٰ هذا النَّمَط، ولا مُرَتَّبةً علىٰ هـذا التَّرتيب ، مع الاَقتصار فيها علىٰ عُلُوم قليلةٍ ، أشار إلى المُفَاضَلَةِ بينها علىٰ ما تقدّم ذِكْره . ولكنَّ الله تعالىٰ قد هَدَىٰ بفَضْله إلىٰ وُجوه التَّرجيح التي يَرْجُحُ بها كلُّ علمٍ علىٰ خَصْمه ، ويَفْلُجُ به علىٰ غَيْره ؛ والمُنْصِف يعرف لذلك حَقَّه . والذي أعانَني علىٰ ذلك جلالةُ قَدْرِ من صُنِّفتْ له وعُلُوُّ رتبتـه ، واتساعُ فَضْـلِه ، وكثرةُ علومه ، وتَعْداد فُنُونه ، إذْ صِفاتُ المَمْدوح تَهْدِي المَـادح وتُرْشِدُه .



ومنها المفاخرة بين السَّـيْف والقَلَم ، وقد أكثر النـاسُ منها : فمن عالٍ وهَابِط ، وصَاعِد وسَاقِط .

وهذه رسالةٌ في المفاخرة بين السَّيف والقَلَم ، أنشأتُها للمَقَرِّ الزَّيْني أبي يَزِيدَ الدَّوَادَار الظَّاهري ، في شهور سنة أربع وتسعين وسَبْعِمائة ، وسَمَّيتها : "حِلْية الفَضْل وزِينَة الكَرَم ، في المُفَاخَرَة بين السَّيْف والقَلَم" وهي :

الحمدُ لله الذي أعَزَّ السَّـيفَ وشَرَّف القَلَم ، وأفْرَدَهما بُرُتَبِ العَلْياءِ فقَرَن لهما بين المَجْدِ والكَرَم ، وساوَىٰ بينهما في القِسْمة فهذا للحُكْم وهذا للحِكَم .

أحمدُه علىٰ أنْ جَمعَ بخَيْر أميرٍ بعد التَّفرُّق شَمْلَهما ، ووَصَل بأعَزِّ مَلِيكٍ بعد التَّقاطُع حَبْلَهما ؛ وأرْغبُ إليه بشُكْرٍ يكاثِرُ النجومَ في عَدِيدها ، ويكونُ للنِّعمة علىٰ مَمَرِّ الزَّمان أبَا يَزِيدها ؛ وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يأتمُّ الإخلاصُ بمَذْهَبِها ، ولا يَنْجُو من سَيْفِها إلا من أجاب دَاعِيَها وأقَرَّبها ؛ وأن محمدًا عبدُه ورَسولُه

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضىٰ فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذى خُصَّ بأشرف المَناقِب وأفضلِ المآثِر، وٱستأثَر بالسُّؤْددِ فى الدَّارينِ فحَاز أفْخَر المعالى ونَال أعلىٰ المَفاخِر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين قامَتْ بنُصْرتِهم دولةُ الإسلام فسَمَتْ بهم علىٰ سائرِ الدُّول، وكَرَعتْ فى دِماء الكُفْر سيُوفُهم فعادتْ بخَلُوقِ النَّصر لا بحُمْرة الخَجل، صلاةً ينْقضى دُونَ ٱنقضائها تَعاقُبُ الأيام، وتَكِلُّ ألْسِنةُ الأقلام عن وَصْفِها وَلَوْ أنَّ مَافِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَام .

وبعـدُ، فإنَّه ما تقارب ٱثْنانِ فى الرُّتبة إلا تحاسَدا، ولا ٱجْتَمعا فى مَقام رِفْعةٍ إلا ٱزْدَحما على المَجْدِ وتوارَدَا؛ ورَام كلٌّ منهما أن يكونَ هو الفائزَ بالقِدْحِ المُعَلَّىٰ، وأن يكونَ مَفْرِقُه هو المُتوَّجَ وجِيدُه هو المُحَلَّىٰ؛ وٱدَّعىٰ كلٌّ منهما أن جَوادَه هو السابقُ فى حَلْبة السِّـباق، والفَائزُ بقَصب السَّبْق بالٱتِّفاق؛ وأن نَجْمـه هو الطالـعُ الذى لا يأفَل، وسُؤْددَه هو الحـاكِمُ الذى لا يُعْزَل؛ وأن المِسْكَ دُون عَبِيره، والبَحْرَ لا يَجِىءُ نُقْطة فى غَدِيره؛ والدُّرَّ لا يَصْلُح له صَـدَفا، ونَفِيسَ الجَوْهَر لا يُعادِلُه شَرَفا؛ وأن مَنابِر المَعَالِى مَوْقوفةٌ علىٰ قَدَمه، ومَجامِرَ المَفَاخِر فائحةٌ بنَشْرِ كَرَمه .

ولـمَّا كان السَّيفُ والقلَمُ قد تَدَانيا فى المَجْـد وتَقارَبا، وأخذَا بطَرَفَى الشَّرَف وتَجَـاذَبا؛ إذ كانا قُطْبَينِ تَدُورُ عليهـما دَوَائِر الكَمال، وسَـعْدَيْن يجتمعان فى دائرة الٱعتدال؛ ونَجْمَينِ يَهْدِيان إلى المعالى، ومِصْباحَينِ يُستضاءُ بهما فى حَنادِس اللَّيالى؛ وقاعِدَتَينِ تُبْنى الدُّوَلُ علىٰ أركانهما، وشَجَرتينِ يُجتنَى العِزُّ من أغصانهما؛ جَرَّ كلٌّ منهما ثوبَ الخُيلاءِ فَخْرًا فمشىٰ وتَبَخْتَر، وأسْبلَ رِداءَ العُجْبِ تِيهًا فمـا تَخبَّل ولا تَعثَّر؛ وٱتسع له المجالُ فى الدَّعوىٰ فجَال، وطاوَعتْه يَدُ المَقالِ فقالَ وطَال؛ وتطَرَّقتْ إليهما عَقارِبُ الشَّحْناءِ ودَبَّتْ، وتوقَّدتْ بينهما نارُ المُنافَسة وشَبَّتْ؛ وأظهر كلٌّ منهـما ما كان يُخفِيه فكَتَب وأمْلىٰ، وباح بمـا يُكِنُّه صَـدْره والمُؤْمِن لا يكون حُبْلىٰ؛ وبدأ القلَم فتكلم، ومضىٰ فى الكلام بِصِدْق عَزْمٍ فمـا توقف ولا تَلَعْثَم؛ فقال :

باسم الله تعالىٰ أستفتح، وبحمده أتيمّن وأستنجح، إذ من شأني الكتابه، ومن فنّي الخطابه، وكلّ أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه باسم الله تعالىٰ فهو أجذم، وكلّ كلامٍ لا يفتتح بحمده فأساسه غير محكم ورداؤه غير معلم، والعاقل من أتى الأمر من فصّه، وأخذ الحديث بنصّه، والحقّ أحقّ أن يتّبع، والباطل أجدر أن يترك فلا يصغىٰ إليه ولا يستمع، إنى لأوّل مخلوقٍ بالنّص الثابت والحجّة القاطعه، والمستحقّ لفضل السّبق من غير منازعه، أقسم الله تعالىٰ بي في كتابه، وشرّفني بالذّكر في كلامه لرسوله وخطابه، فقال جلّ من قائلٍ: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. وقال جلّت قدرته: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فكان لى من الفضل وافر القسمه، وخصصت بكمال المعرفة فجمعت شوارد العلوم وكنت قيّم الحكمه.

فقال السّيف: بسم الله والله أكبر: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. لكلّ باغٍ مصرع، وللصّائل بالعدوان مهلكٌ لا ينجو منه ولا ينجع، وفاتح باب الشّرّ يغلق به، وقادح زند الحرب يحرق بلهبه، أقول بموجب استدلالك، وأوجب الاعتراض عليك في مقالك:

نعم أقسم الله تعالىٰ بالقلم ولست بذلك، وكان أوّل مخلوقٍ ولست المعنيّ بما هنالك، إنّ ذلك لمعنًى يكلّ فهمك عن إدراكه، ويضلّ نجمك أن يسري في أفلاكه، وأنت وإن ذكرت في التنزيل، وتمسّكت من الامتنان بك في قوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بشبهة التّفضيل، فقد حرّم الله تعالىٰ تعلّم خطّك علىٰ رسوله، وحرمك من مسّ أنامله الشريفة ما يؤسىٰ علىٰ فوته ويسرّ بحصوله، لكنّي قد نلت من هذه الرتبة أسنىٰ المقاصد، فشهدت معه من الوقائع مالم تشاهد، وحلّاني من كفّه شرفًا لا يزول

حَلْيُه أبدا، وقُمتُ بنَصْره فى كلِّ مُعْتَرَك : وسَلْ حُنيناً وسَلْ بَدْراً وسَلْ أُحُدا ! ! ! ؛ ذَكَر اللهُ تعالىٰ فى القرآن الكريم جِنْسى الذى أنا نَوْعه الأكبر ، ونبَّه علىٰ ما فيه من المنافع التى هى من نَفْعِك أعَمُّ وأشهر، وما اجتمع فيه من عَظِيمَيِ الشِّدّة والباس ، فقال تقدّست عظمته : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ . علىٰ أنك لو ٱعتبرت جِنْسَيِ القَصَب والحَديد، وعرفتَ الكَلِيلَ منهما والجَلِيد ؛ لتحققتَ تسلط الحَديد عليك قَطًّا و بَرْيا، وتحكُّمَه فيك أمرًا ونَهْيا .

فقال القَلَم : فَرَرتَ من الشريعة وعَدْلها، وعَوَّلتَ على الطبيعة وجَهْلها؛ فافتخرتَ بحَيْفِك وعُدْوانك ، وٱعتمدتَ فى الفَضْل علىٰ تَعَدِّيك وطُغْيانك؛ فملتَ إلى الظُّلم الذى هو إليك أقْرب، وغلبَ عليك طَبْعُك فى الجَوْر : و «الطَّبع أغلب» ؛ فلا فِتْنَة إلا وأنتَ أَساسُها، ولا غارَةَ إلا وأنت رأْسُها؛ ولا شَرَّ إلا وأنتَ فاتحُ بابِه ، ولا حَرْبَ إلا وأنت وَاصِلُ أسبابِه؛ تُؤَكِّد مواقع الجفاء ، وتُكَدِّر أوقاتَ الصَّفاء؛ وتُؤَثِّر القَساوَه، وتُؤْثِر العَداوه؛ أما أنا فالحقُّ مَذْهبِي ، والصِّدق مَرْكَبِى ؛ والعَدْلُ شِيمَتِى ، وحِلْية الفَضْلِ زِينَتِى؛ إن حكمتُ أقسطت ، وإن ٱسْتُحفِظْتُ حَفِظتُ وما فَرَّطت ؛ لا أُفْشِى سرّا يريد صاحبُه كَتْمه ، ولا أَكْتُم عِلمًا يبتغى مُتَعلِّمُه عِلْمَه ؛ مع عموم الحاجة إلىَّ ، والٱفتقارِ إلىٰ عِلْمى والٱكتسابِ ممـا لَدَىَّ ، أُديرُ فى القرطاس كَاسَاتِ خَمْرِى فأُزْرِى بالمَزامير وأَهْزَأُ بالمَزَاهِر ، وأنفثُ فيه سِحْرَ بَيانِى فألْعَبُ بالألباب وأَستجلبُ الخَوَاطِر ، وأُنْفِذُ جيوشَ سُطُورِى علىٰ بُعدٍ فأَهْزِم العساكر :

فلَكَمْ يَفُلُّ الجَيْشَ وهو عَرَمْرَمٌ * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأَغْمادِ !

فقال السَّيفُ : أَطلتَ الغَيْبه ، وجِئتَ بالخَيْبه؛ وسكتَّ أَلْفًا ، ونَطقتَ خَلْفا .

السَّيفُ أصْدَقُ أَنْباءً من الكُتُبِ * فى حَدِّه الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

إنَّ نِجَادِي حِلْيَةٌ للعواتق، ومُصاحَبَتِي آمِنَةٌ من البوائق؛ ما تقلَّدني عاتقٌ إلا باتَ عَزِيزا، ولا توسَّدني ساعِدٌ إلا كنتُ له حِرْزًا حَرِيزا؛ أَمْرِي المطاعُ وقَوْلِي المُسْتَمَع، ورَأْيِي المصوَّبُ وحُكْمِي المُتَّبَع؛ لم أزَلْ للنَّصر مِفْتاحا، وللظلام مِصْباحا، وللعِزِّ قائدا، وللعُدَاة ذَائِدا؛ فأنَّىٰ لك بمُسَاجَلَتِي، ومُقاوَمَتِي في الفَخْر ومُنافَرَتِي؟؛ مع عُرْيِ جِسْمِي ونَحافَة بَدَنِك، وإسراعِ تَلافِك وقِصَرِ زَمَنِك، وبَخْس أثمانك علىٰ بُعْدِ وطَنِك، وما أنتَ عليه من جَرْيِ دَمْعِك، وضِيقِ ذَرْعِك، وتَفرُّقِ جَمْعِك؛ وقِصَرِ باعِك، وقِلَّةِ أَتْباعِك.

فقال القَلَم: مَهْلًا أيُّها المُسَاجِل، وعلىٰ رِسْلِك أيها المُغَالِبُ والمُنَاضِل؛ لقد أَفْحَشْتَ مَقَالا، ونَمَّقتَ مُحَالا؛ فنادَرَتْك سُبُلُ الإصابه، وخرجتَ عن جادَّة الإنَابَه، وسُؤْتَ سَمْعًا فأسَأْتَ جَابَه؛ إنِّي لمبارك الطَّلْعة وَسِيمُها، شريفُ النَّفْسِ كَرِيمُها؛ آخِذٌ بالفضائل من جميع جهاتها، مُسْتَوْفٍ للمَادِح بسائر صِفَاتها؛ فطائِرِي مَيْمُون، وغُولِي مَأْمُون، وعطائي غير مَمْنُون؛ أَصِلُ وتَقْطَع، وأُعْطِي وتَمْنَع، وتُفَرِّق وأَجْمَع؛ وإنَّ ٱزْدِرَاءَك بي من الكِبْرِ المَنْهِيِّ عنه، وغَضَّك عَنِّي من العُجْب المُسْتَعاذِ منه؛ ومن حَقَّر شيئًا قتَله، ومن ٱستهانَ بفاضِلٍ فَضَله؛ وإنِّي وإن صَغُر جِرْمِي فإني لَكَبِير الفعال، وإن نَحُفَ بَدَنِي فإني لشَدِيد البأس عند النِّزال؛ وإنْ عَرِيَ جِسْمِي فكم كَسَوْتُ عارِيا، وإن جَرَىٰ دَمْعِي فكم أَرْوَيتُ ظامِيا؛ وإن ضاق ذَرْعِي فإني بِسَعَة المَجَال مَشْهور، وإن قَصُر بَاعِي فكَمْ أطلقتُ أسيرًا وأنا في سِجْن الدَّواة مَأْسُور؛ إذا ٱمتَطيْتُ طِرْسِي، وتَدَرَّعْتُ نِقْسِي، وتقلدتُ خَمْسِي، وجاشَتْ على الأعداء نَفْسِي: —

رَأيتَ جَلِيلًا شَأْنُه وهو مُرْهَفٌ * ضَنًى وسَمِينًا خَطْبُه وهو نَاحِلُ!

أَنَسِيتَ إذْ أنتَ في المَعْدن تُرابٌ تُداسُ بالأَقدام؟، وتَنْسِفُك الرِّياحُ وتُزْرِي بك الأيام؟؛ ثم صِرتَ إلى القَيْنِ تَقْعدُ لك السَّنادِينُ بالمَرَاصِد، وتَدْمَغُك المَقَامِعُ وتَسْطُو

بك المَبَارِد ، ثم لولا صِقَالك لأذْهَبك الجَرَبُ وأكَلَك الصَّدَىٰ ، مع قِلَّة صَبْرِك علىٰ المَطَر والنَّدَىٰ .

فقال السَّيْف : إنَّا لله ! لقد آسْتأْسَدَت الثَّعالِب ، وآسْتَنْسَرت البُغَاثُ فعَدَّ العُصْفورُ نَفْسَه من طَيْرِ الوَاجِب ، وجاء الغُرابُ إلى البَازِى يُهَدِّده ، ورجَع ابن آوَىٰ على الأَسَدِ يُشَرِّده ، فلو عرَفْتَ قَدْر نَفْسك ، ولَزِمتَ فى السَّكينة طَريقَ أبْناءِ جِنْسك ، ووقفتَ عند ما حُدَّ لك ، وذكرتَ عَجْزك وكَسَلَك ، لكان أجْدَرَ بك ، وأَحْمَدَ لعاقِبَتِك ، وأليَقَ بأدَبِك .

إن المُلُوكَ لَتُعِدُّنى لمُهِمَّاتِها ، وتَسْتَنْجِدُ بِى فى مُلِمَّاتِها ، وتَتَعالىٰ فى نَسَبِى ، وتَتَغالىٰ فى حَسَبِى ، وتَتنافَسُ فى قُنْيَتِى وتَتَحاسَد ، وتَجْعلنِى عُرْضةً لأَيْمانها فتتَعاقَدُ بالحَلِف عَلَىَّ وتَتَعاهَد ، وتَدَّخِرُنى فى خَزائِنها آدِّخَارَ الأَعْلاق ، وتَعُدُّنِى أنْفَس ذخائرها على الإطلاق ، فتُكَلِّلنى الجَواهر ، وتُحَلِّينِى العقود فأظْهَر فى أحْسَن المَظَاهر ، أبْرِزُ للشُّجْعانِ خَدِّى الأسِيلَ فأُنْسِيهم الخُدُودَ ذواتِ السَّوالِف ، وأزْهو بقَدِّى فأسلبهم هَيَف القُدُود مع لِينِ المَعاطِف ، وأُوهِمُ الظَّمْآن من قُرْبٍ أن بأنْهارِى مَاءً يَسِيل ، وأُخَيِّل للمَقْرور من بُعْدٍ أنِّى جَذْوَةُ نَارٍ فيَطْلُبنِى على المَدَى الطَّوِيل ، ويَخَالُنى مُتوقِّعُ الغَيْث بَرْقًا لامِعا ، ويَظُنُّنِى الحَائِرُ فى الشَّرْق نَجْماً طالِعا ، فالشَّمْسُ من شُعاعى فى خَجَل ، واللَّيْلُ من ضَوْئِى فى وَجَل ، وما أسْرَعْتُ فى طَلَبِ ثَأْرٍ إلا قِيل : « فَاتَ ماذُبِح » و «سَبَقَ السَّيْفُ العَذَل» .

فقال القَلَم : بَرِّق لمَن لا يعرِفك ، وزَوِّج علىٰ غير الجَوْهَرِىِّ صَدَفك ، فما أنت من بَزِّى ولا عِطْرِى ، ولستَ بمُساوٍ حَدَّك القاطعَ بقُلامَةِ ظُفْرِى ، إن بَرْقَك لخُلَّب ، وإن رِيحَك لأَزْيَب ، وإن مَاءَك لجَامِد ، وإن نَارَك لخَامِد ، ومن آدَّعَىٰ ماليس له فقد باء بالفُجُور ، ومن تَشَبَّع بما لم يُعْط فهو كلابِس ثَوْبَى زُور .

ومَن قالَ : إنَّ النَّجْمَ أكْبرُها السُّهَىٰ * بغَيرِ دَلِيلٍ كَذَّبَتْهُ ذُكَاءُ!

أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيْقُها المُرَجَّب، وكَرِيمُها المُبجَّل وعالمها المُهَذَّب؛ يختلف حالى فى الأفعال السَّنِية بٱختلاف الأعراض، وأَمْشِى مع المقاصد الشريفة بحسب الأغراض؛ وأَتزيَّا بكلِّ زِىٍّ جميلٍ، فأنزِلُ فى كلِّ حَىٍّ وأسيرُ فى كلِّ قَبِيل؛ فتَارةً أُرىٰ إمامًا عالما ، وتارة لدُرِّ الكلام ناثرًا وأخرىٰ لعقُود الشِّعر نَاظما ؛ وَطوْرًا تُلْفِينِى جَوادًا سابقا ، ومَرَّةً تَجِدُنِى رُمْحًا طَاعِنًا وسَهْمًا راشِقا ؛ وآونَةً تَخالُنِى نَجْمًا مُشْرِقا ، وحِينًا تَحْسَبُنِى أُفْعُوَانًا مُطْرِقا ؛ قد فُقْتُ الشَّبَّابَة فى الطَّرَب ، و بَرَّزْتُ عليها فى كلِّ معنًى وإن جمع بيننا جِنْسُ القَصَب ؛ فكانتْ للأغانى، وكُنتُ للمَعانى؛ وجاءتْ بغَريب النَّغَم، وجِئتُ ببَديع الحِكَم؛ ولَعِبتْ بالأسماع طَرَبا ، ووَلِعْتُ بالألباب فاتَّخذَتْ لدَهْرِها مما عَراها عَجَبا .

فقال السَّيف : ذَكَّرتَنِي الطَّعن وكُنْتُ نَاسِيا ، وطَلَبتَ التَّكثُّر فازْددتَ قِلَّةً وعُدتَ خَاسِيا ؛ فكنتَ كطالب الصَّيْد فى عِرِّيسَةِ الأسَدِ إن لَقِيَه أهْلَكه ، وخَالَفْتَ النَّصَّ فألقَيْتَ بيَدَيْك إلى التَّهْلُكه ؛ فٱقْنَعْ من الغَنِيمة بالإياب، وعُدَّ الهَزِيمةَ مع السَّلامَةَ من أرْبَحِ الأكساب؛ فلستَ ممن يَشُقُّ غُبَارِى ، ولا يُقابِل فى الهَيْجاءِ ضَرِمِى ولا يَصْطَلِي بنَارى؛ فكَمْ من بَطَل أبطلتُ حِراكَه ، وكَمْ من شُجاعٍ عجلتُ هَلاكه ؛ وكَمْ صِنْدِيدٍ أرَقْتُ دَمَه، وكَمْ ثابِتِ الجَأْش زَلْزَلْتُ قَدَمَه .

وأراد القَلَمُ أن يأخُذَ فى الكلام، ويَرْجِعَ إلى الجدال والخصام؛ فَغَلَب عليه رِقَّةُ طَبْعِه وحُسْنُ مَوارِدِه، وسَلاسَة قِيادِه وجَمِيلُ مَقاصِده؛ فمَال إلى الصُّلح وجَنَح إلى السِّلْم ، وأعرض عن الجَهْل وتَمَسَّك بالحِلْم ؛ وأقبل على السَّيْف بقَلْب صَاف، ولِسان رَطْبٍ غيرِ جَاف؛ فقال : قد طالتْ بيننا المُجادَلَه ، وكَثُرتْ المُراجعة والمُقَاوَله ؛

مع ما بيننا من قَرابَةِ الشَّرف ، وأَخْذِ كلٍّ منّا من الفَضْـل بطَرَف ؛ فنَحْنُ فى الكَرَم شَقيقان ، وفى المَجْد رَفيقان ؛ لا يَسْـتَقِلُّ أَحَدُنا بنَفْسه ، ولا يَأْنَس بغير صَاحِبه وإن كان من غير جِنْسِـه ؛ وقد حَلَبتُ الدَّهرَ أَشْطُرَه ، وعَلِمتُ أَصْفَاه وأَكْدَرَه ؛ وقَلَّبْتُه ظَهْرا وبَطْنا ، وجُبْتُ فَيافِيَـه سَهْلا وحَزْنا ؛ وإنَّ مُعاداةَ الرَّفيق ، ومُبايَنَـةَ الشَّقيق ؛ تُوجِب شَمَـاتةَ العَدُوِّ وتَغُمُّ الصديق ؛ فَهلْ لكَ أن تَعْقِدَ للصلح عَقْدًا لا يُتَعدَّىٰ حَدُّه ، ولا يُحَلُّ علىٰ طُولِ الزَّمانِ عقْدُه ؟ ؛ لنَكونَ أبدًا مُتآلِفَيْن ، وعلى السَّرَّاء والضَّرَّاء مُتَصاحِبَيْن ؛ حتى لا يُضْرب بنَدِيمَىْ جَذِيمَـةَ مع اصْطِحابنا مَثَـل ، ولا يَتَشَبَّه بنـا الفَرْقَدان إلا بَاءَا بالخَطَل .

وَلَسْت بمُسْـتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّـهُ * علىٰ شَعَثٍ ، أَىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟

فقال السَّيفُ : لقد رأيتَ صَوَابا ، ورَفَعتَ عن وَجْه المَحَجَّة نِقابا ؛ وسَرَيْتَ أَحْسَن مَسْرىٰ وسِرْتَ أَجْمَلَ سَيْر ، وصَحِبَك التَّوفيقُ فأشَرْتَ بالصُّلح : وَالصُّلْحُ خَيْر .

وَقَدْ يَجْمَـعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بعـد ما * يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أن لا تَلَاقِيَا !

ثم قالا : لا بُدَّ من حَكَمٍ يكونُ الصُّلح علىٰ يدَيْه ، وحاكِمٍ نَرْجِع فى ذلك إليـه ؛ لنَحْظىٰ بزيادة الشَّرَف ، ونَظْفَر من كمال الرِّفعـة بغُرَفٍ من فوقِها غُرَف ؛ ولَسْـنا بفائزين بطَلِبَتِنا ، وظَافرين ببُغْيَتِنا ؛ إلا لدىٰ السَّـيِّد الأكمل ، والمَـالكِ الأَفْضَل ؛ المـاجد السَّرِىّ ، والبَطَل الكَمِىّ ؛ والبَحْرِ الخِضَمّ ، والغَيْثِ الأَعَمّ ؛ مَوْلى المَعَالى ومُولِى النِّعَم ، ومُمْتَطِى جَوَادِ العِزِّ ورَافِعِ أعلام الكَرَم ؛ جامِعِ أشتات الفضائل ومَالِك زِمَامها ، وضَابِطِ أَمْرِ الدَّولة الظاهرية وحَافِظ نِظامها ؛ المَقَرّ الكريم ، العـالى ، المَوْلَوِىّ ، الزَّيْنِىّ ، أَبى يَزِيدَ الدَّوادار الظَّاهِرِىّ : ضاعف الله تعـالىٰ حَسَناته المُتَكاثِره ، وزاده رِفْعَـةً فى الدَّارَيْن لِيَجْمع له الارْتِقاءَ بين منازل الدُّنيـا والآخِره ؛ فهو قُطْبُ

المملكة الذى عليه تَدُور، وفارِسُها الأرْوَع وأَسَدُها الهَصُور، وبَطَلُها السَّمَيْدَع وليثُها الشهير، وأبو عُذْرَتِها حقًّا من غير نُكْرٍ وٱبْنُ بَجْدَتِها السَّاقِطَةُ منه على الخَبِير، ومَعقِلُها الأَمْنَع وحِرْزُها الحَصِين ، وعِقْدُها الأنفَس وجَوْهَرها الثَّمين ؛ وتِلادُها العَالِم بأحوالها ، والجَدِير بمعرفة أقْوالِها وأفْعالها ؛ وتَرْجُمانُها المُتَكلِّم بلسانها، وعَالِمها المُتَفَنِّن فى أفْنانِها؛ وطَبِيبُها العارِفُ بِطِبِّها، ومُنْجِدُها الكاشف لكُرَبِها .

هذا : وإنَّه لمَـالِكُ أمْرِنا ، ورَافِعُ قَدْرنا ؛ والصَّائِل منا بالحَدَّيْن ، والجَامِع منا بين الضِّدَّين؛ فلو لَقِيه «فَارِسُ عَبْسٍ» لولَّىٰ عابِسا، أو طَرَق حِمىٰ «كُلَيْبٍ» لبات من حِمَاهُ آيِسا ؛ أو قَارَعه «رَبيعة بن مُكَدَّمٍ» لعَلا بالسَّيْف مَفْرِقَه، أو نَازَله «بِسْطامٌ» لبَدَّد جَمْعه وفَرَّقه ؛ كما أنه لو قُرِن خطُّه بنَفِيس الجوهر لعـلاه قِيمَه، أو قاسَمه «ٱبنُ مُقْلَةَ » فى الكتابة لما رَضِىَ أن يكون قَسِيمَه ، أو فاخَرَه «ٱبن هِلالٍ» لَرَأَىٰ انه سَبَقَه إلىٰ كلِّ كَرِيمَه .

وبالجُمْلة فعِزُّه الظاهر وفَضْله الأكمل ، وسِمَاكُه الرَّامِحُ وسِمَـاكُ غيره الأعْزَل ؛ فلا يَسْمَح الزمانُ أن يَأْتِىَ له بنَظِير، ولا أراد مُدَّعٍ بُلُوغَ شَأْوِه إلا قِيل : ٱتَّئِدْ فلقد حَاوَلْتَ الاَنْتِهَاضَ بجَنَاحٍ كَسِير :

فَحَيَّهَـلًا بالمَـكْرُماتِ وبالعُـلَىٰ * وحَيَّهَلًا بالفَضْلِ والسُّؤْدُدِ المَحْضِ !

فالحمدُ لله الذى جَمَعنا بأكْرَمِ محلٍّ وأفْضل، وأحْسَنِ مَقامٍ وأجْمل ؛ فهَلُمَّ إليه يَعْقِد بيننا عَقْد الصُّلح، ونُبَايِعُه على ملازمة الخِدْمة والنُّصْح .

ثم لم يَلْبثا أن كَتَبـا بينهما كتاباً بالصُّلْح والمُصافَاه ، وتَعاهَدا على الوُدِّ والمُوافَاه ؛ وأعْلَنَ بعَقْدِ الصُّلْح مُنادِيهما، وحَدَا بذِكْر التَّعاضُدِ والتَّناصُر حَادِيهما؛ وراح يُنْشِد :

حَسَمَ الصُّلحُ ما ٱشْتَهَتْه الأعَادِى ، * وأذَاعَتْـه ألْسُنُ الحُسَّاد !

وزَالتْ عنهـما الأحْقادُ والإِحَن ، وباتا فى أعَزِّ مكانٍ وأشرفِ وَطَن ؛ وتَلَّتْ قِرانهما فأسْعد ، ثم قام مُنْشِدُهما فأنْشد :

لا يُنْكَرُ الصُّلْحُ بين السَّيفِ والقَلَمِ * فعَاقِدُ الصُّلْحِ عَالى القَدْرِ والهِمَمِ !

أبو يَزِيدَ نِظَـامُ المُـلْكِ مالِكُنا * ووَاصِـلُ العِلْمِ فى عَلْياه بالعَلَمِ .

فهو المُراد بمـا أبْديهِ من مِـدَحٍ * وغَايةُ القَصْدِ من تَرْتِيبِ ذَا الكَلِمِ !

وإنْ جرىٰ مَدْحُ سَيْفٍ أو علا قَلَمٌ ، * فَذَاكَ وَصْفٌ لما قد حَازَ من كَرَمِ !

قلتُ : وسَببُ إنْشائِى لهذه الرسالة أن الأمير أبا يَزِيدَ الموضوعة له ، تَغَمَّده الله تعـالىٰ بالرحمة والرضوان ، كان من جَوْدة الخَطِّ وتَحْرِير قواعِدِه فى الطَّبقَـةِ العُلْيا ، وعَظُمَتْ مَكَانَتُهُ عند سلطانه الملك الظاهر «برقوق» وعَلَتْ رُتْبته حتى وَلَّاه وَظِيفةَ الدَّوَادَارِيَّة بإمرة تَقْدِمة ألْفٍ ، ولم يَزَلْ مُقَدَّمًا عنده حتى مات وهو مُتَولِّيها ، وأوْلَانِى عند عَمَلِها له من الصِّلَةِ والبِرِّ المُتَوالى ما يَقْصُر عنه الوَصْف ، ويَكِلُّ عنه اللِّسان .

الصِّـــنْفُ الخـامس

(من الرسائل ــ الأسئلةُ والأجوبةُ ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الأَسْـئِلة الأمْتِحانِيَّــة)

قد جَرَتْ عادةُ مَشَايخِ الأَدَب وفُضَـلَاءِ الكُتَّاب أنهـم يَكْتُبون إلى الأفَاضِـل بالمَسَائل يَسْألُون عنها : إمّا على سبيل الاستِفهام واستِمـاحَة ما عند المَكْتُوب إليه فى ذلك ، وإمّا علىٰ سبيل الامْتِحان والتَّعْجيز . ثم تارةً يُجابُ عن تلك الأسْئِلة بأجْوِبَة فتُكْتَبُ ، وتارةً لا يُجاب عنها ، بحسب ما تَقْتضيه الحال .

وهــذه رسالةٌ كتبها الشيخ جمال الدين بن نَباتة المِصْرىّ إلىٰ الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحلبىّ صاحب ديوان الإنشاء بالمَمْلكة الشّامِيــة ، وقد بَلَغه أن بعض أهْــلِ الديوان نَالَ منه ، وأن الشيخ شِهاب الدِّين المذكورِ ناضَلَ عنه ودَافَع ، فكتب إليه يَشْكره علىٰ ذلك ويسألُ كُتَّابَ الدِّيوان عن أسـئِلة بعضُها يرجع إلىٰ صَنْعة الإنشاء ، وأكثرُها يرجع إلىٰ فَنِّ التّارِيخ . وقد بَيَّنتُ بعضها ونبهتُ عليه فى مواضعه فى خلال هذا الكتاب ، وهى :

لا يُخْرِجُ الكُرْهَ منّى غيرُ نَائبَةٍ(١) * ولا أَلِينُ لِمَن لا يَبْتَغِى لِينِى !

الاستفتاح بـ«ـلَا» تَيَمُّنٌ ببركة الشّهاده ، وهى هٰهنا مِقْراضٌ يقطَعُ من العَيْب المَدّةَ ويَحْسم المَـادَّه ؛ فَحَسم الله عن سـيدِنا الإمامِ العلّامةِ القُدْوةِ ، شِهابِ الدِّينِ ، مُكمِّلِ الآدَابِ ، ومَلِكِ الشُّعراءِ والكُتّاب ؛ شَرَّ كلِّ عَيْنِ حاسِدٍ ولو أنها عَيْنُ الشَّمْس ، وحَمَاه عن مدِّ أَلْسِنَةِ ذوى الاغْتِياب والارْتِياب مِن الهمجِ والهَمْس ؛ وهَيَّأ له أسْبابَ الخَيْر حتى يكون يَومُه فِيه مُقصِّرًا عن الغد زَائدًا على الأمْسِ ، واستخدَم له الأقدارَ حتّىٰ تكونَ فَرائِضُ تَقْبِيل أنَامِلِه العَشْر عندهم كفَرائِض الخَمْس ، وجَعَل ما يَرُدُّ عنه العَيْنَ من العَيْبِ ـ بُعْدَ شَأْنِه عن المُتَناوَلِ ـ وِقَايةً عن اللَّمْس ، حتّىٰ يكونَ المَعْنِىَّ بقَوْل القَائِل :

ولَا عَيْبَ فِيــه غيرَ أنَّ عَلاءَهُ * إذا حَدَّدُوه كان قَدْ جَاوَزَ الحَـدّا ،

ولا عَيْبَ أيضـا فى مَآثِرِ بَيْتِــه * سِوَى أنَّها تُروىٰ بألْسِـنَةِ الأَعْدَا !

وحتّى يُؤَمِّنَ عليه القَائلُ :

مَا كَان أحْوَجَ ذَا الكَمالِ إلَىٰ * عَيْبٍ يُوقِّيه مِنَ العَيْنِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيّره لما يريد وإنما هو . لا يُخْرِجُ القَسْرَ منى غيرُ مَأْبيَةٍ . القَسْرُ القهرُ والمأبية مصدر كالمَحْمِيَة معناها الإباء والبيت من كلمة لذى الإصبع العَدوانى .

ويُقْبلَ من الآخرِ قولُه :

شَخَص الأنامُ إلىٰ كمالك فاستعذْ * من شرِّ أعينهم بعيبٍ واحدِ!

العَبْد يَخْدمُ بسلامٍ ماروضَةٌ نقّطها الجوُّ بدرّ سحائبِه ، وأفرغ عليها الأفُقُ سفَط كواكبه ، وامتدّ نوء الذِّراع لتدْبيج سمائها ، وتأْرِيج أرْجائها ، وتخْميش معاصِم أنهارِها المنْشقّة بأفْنائها ، وصِقال نَسماتها السَّحَريه ، ومُغازَلة عيونها السِّحْريّه ، وهوانِ الغالِية بنَفحاتِها الشَّجَريّه ، تَصْرِفُ دنانيرَ أزْهارِها الصُّروف ، ويَسُلُّ جَدْولُها على الهُموم السُّيوف ، وتجْذبُ حمائمُها القُلوبَ بالأطْواق ، ويَتَشفّع دَوْحُها إلى النواظر بالأوْراق ، قد تَرَقْرق في وَجَناتها ماءُ الشَّباب ، وغنّىٰ مُطْرِبُ حَمامِها وعَنْترُه[1] في حك من الذُّباب ، وبحرها رونق السَّيْف وفي قلْبِ روضته الذُّباب[2] .

فما كُلُّ أرْضٍ مِثْل أرضٍ هِيَ الحِمَىٰ ، * وما كُلُّ نَبْتٍ مِثْل نَبْتٍ هُوَ البانُ!

يوْمًا بأبْهج منه أشْواقا ، وأطْيبَ منه انْتشاقا واتّساقا ، والطّيِّبون للطيبات ، ولكلِّ غَيْثٍ نَبات ، وما لذلك الغَيْثِ إلا هٰذا النَّبات .

ونَعُود فنَقُول : لا أدْرِي أأتعجَّب :

علىٰ أنّها الأيّامُ قد صِرْنَ كُلُّها * عَجائبَ حتّىٰ ليس فيها عَجائبُ ! !

من قَوْمٍ هُمْ ما هُم : شرْبٌ مُناسِب ، وطِيبُ مَكاسِب ؛ قد أمْكَنتْهم المَعالي ، وطاوَعتْهم الأيّامُ واللّيالي ، وخَدَمتْهم جَوارِي السُّعُود ، وتَطامَنَتْ لكلٍّ منهم مَراقِي الصُّعود ، كابر بسكون الجاش منحدر (؟) وكنتُ قد اسْتَجْدَيْتُ كُلًّا منهم ولكن بالكَلام ، واسْتَسْقَيْتُ ولٰكن قَطْرةً من غَمام الأقْلام :

وأيسَرُ ما يُعطِي الصَّديقُ صَديقَه * من الهيِّن المَوْجودِ أنْ يتَكَلَّما!

---

(١) العنتر الذباب أو صوته . (٢) ذباب السيف حدّه أو طرفه المتطرف .

"ولْيُسْعِد النُّطق إن لم يُسْعِد الحالُ" فضَنَّ وظَنَّ ماظَنّ ، وآسْتُعطِفَ بنَسِيم الكَلامِ غُصْنُ يَراعِه فما عَطَفَ ولا حَنّ ؛ وبَخِل بما رَزَقه الله فإنَّ الفَضِيلة من الرِّزْق ، وحَرَمني لذَّةَ ألْفاظِه فإنها التي إذا أُدْخِلت في رَقٍّ دخل حُرُّ البلاغة تحْتَ ذلك الرِّق ؛ وهَلْ هو البَحْر فكَيْف شَحَّ بمَدَّةٍ من مَدِّه ، والْغَيْثُ ولا أقولُ : إن الذى حَبَسَه إلا ما قَسَمه الله تعالىٰ من الحَظِّ عند عَبْدِه :

و إذا الزَّمانُ جَفَاكَ وهو أبُو الوَرَىٰ * طُـرًّا فَـلَا تَعْتِبْ على أوْلَادِه!

فأعلى الله كلمةَ سَيْدنا العلَّامَة في الدَّارَيْن ، وشَكر غَنِيَّ جُودِ كَرمه وكَلِمِه الدَّارَّيْن ، [فهو] صاحِبُ ديوانهم ، وحُجّة زَمَانِهم ؛ فلقد وَصَفني بما يَزِيد على الجواب ، وشافَهَني من الشُّكْر بما لا يَتَوارَىٰ من الرِّزْق بحِجَاب ، وأَمَّنَنِي العِزَّ والزمانُ حَرْب ، ونَصَرني والأيامُ سُيوفٌ تَتَنَوع من الضَّرْب في كلِّ ضَرْب ؛ وأعطاني كَرَمه والمَحَلُّ مَحْل ، وفي قَلْب الزَّمانِ ذَحْل ، ونَحَلَني شُهْدَةَ إحْسانِه والأوقاتُ كإبَرِ النَّحْل ؛ حتىٰ عَذَرَني في حُبِّه من كان من اللائمين ، وآهْتَديْتُ من لَفْظِه وفَضْله بقَمَرَيْنِ لا يَمِيلُ أحَدُهما ولا يَمِين ، وصُلْتُ من جَاهِه ومَالِه بيَدَيْنِ إلا أن كِلْتَيْهما في الإعْراضِ يَمِين :

ويَلُومُني في حُبِّ عَلْوة نِسْوَةٌ * جَعَل الإلٰهُ خُدُودَهُن نِعالَها!

وحَرَسَ الله سَيِّدَنا شِهابَ زَمانِهم ، كما حَرَس به سَمَاءَ دِيوانِهم ؛ فلقد أسمعني من الشُّكْر ما أَرْبَىٰ علىٰ الأَرَب ، وجَعَلَني كحَاجِب حينَ دَخَل على كِسْرَىٰ وهو وَاحِدٌ من العَرَب خَرَج وهو سَيِّدُ العَرب ، وهَدَتْني أنْوارُه وأنا أَخْبِط من لَيْلِ القَرِيحَة في عَشْواء ، وجَادَتْ علىٰ أنْواؤُه ونَاهِيكَ بتلك الأنْوارِ من الأَنواء ، ورَفَعتْني ألْفاظُه ولٰكِنْ على السِّماكِ برَغْمِ حَسُودِى العَوَّاء ؛ وهٰذِه قَصَائِدُه فِيَّ تَتَدارَسُها ألْسِنةُ الأقْلام ، وتُكْتَب بأنْقاسِ اللَّيالى علىٰ صَفَحاتِ الأَيَّام ؛ من كلِّ بَيْتٍ هو بَيْتُ مالٍ لا يَنْقُصُه الإنفاق ، ولولا التُّقىٰ لقلتُ : إنَّه البَيْتُ الذى أمَرَ الله تعالىٰ بحَجِّه الرِّفاقَ من الآفَاق ؛

فمتىٰ أتفرّغ لطلب مدحه ، وقد شغلني بمنحه؟ ، ومتىٰ أجاريه بامتداح و إنما مدحى له من فوائد مدحه :

وما هو إلّا من نداه و إنّما ✽ معاليه تُمليني الذى أنا كاتبه!

أم أتعجّب ممن ثنيتُ عنان الثّناء إليه ، وجلوتُ عرائس المدائح عليه ؛ وعاديتُ فى تنضيد أوصافه الكرىٰ ، وأنضيتُ بالقلم له فى نهار الطّرس وليل النّقس من السّير والسّرى ؛ ومدحته بملء فىّ واجتهدتُ فى وصفه وكان سواء علىّ أن أجهدتُ ، فى وصفه أو اجتهدت ؛ فجازانى مجازاة السّنّمار ، وأوقعني من عنت عتبه فى النّار ، وجعل محاسنى التى أُدلِى بها ذُنوبًا فكيف يكون الاعتذار ؟ :

وكان كذئب السّوء إذ قال مرّةً : ✽ لعمروسةٍ والذّئبُ غرثانُ مُرمِلُ :

أأنتِ التى من غير سُوءٍ شتمتِني؟ ✽ فقالتْ : متىٰ ذا؟ قال : ذا عامُ أوّلُ

فقالتْ : وُلِدتُ الآنَ بلْ رُمتَ غدْرةً ✽ فدُونكَ كُلْني لا هنالكَ مأكلُ !

وحلُّ هذا المُترجَم ، وتحقيق هذا الظّنّ المُرجّم ؛ أنه بلغني أن جماعةً من الذين استفتيتُهم استنباطًا لفوائدهم ، والتقاطًا لفرائدهم ؛ لا تكليفًا لهم فيما لا يقوم به إلّا الأقوىٰ من الأقوام ، ولا يُستنجدُ به فى هٰذا الوقتِ إلا بأرباب صفحاتِ السُّيوف لا أرباب قصباتِ الأقلام ؛ أرادُوا الغضّ منّي ، ونفْيَ الإحسانِ عنّي ؛ وهيْهات !

✽ أنا أبو النّجمِ وشعْري شِعْري ✽

ها أنا وبضاعتِي ، وهٰذه يدى لا أنّي ألقيْتُ بها إلى السّلْمِ ولٰكنْ لأعْرِضَ صناعتِي : ✽ هُو الحمىٰ ومغانيه مغانيه ✽

وإنهم اجتمعوا بالميْدانِ علىٰ حديثِي ، وذكروا قديمِي وحديثِي ؛ وتسابقُوا فى الغيْبةِ أفراسَ رِهان ، وأعْجب كلًّا منهم أن يقولَ : هٰذه الشّقْراءُ فى يدى وهذا الميْدان ؛

ولاَمُوا وعَذَلوا، وهَمُّوا بالسَّبِّ وفَعَـلوا، وٱسْتطابُوا لَحْمَ أخِيهم فسَلَقُوه بألْسِنَةٍ حِدَاد وأكَلوا؛ حتى تَعَدَّىٰ ذلك إلىٰ من جَادَ علىَّ بالجَوَاب، وفِعْـلُه إمَّا جَزاءٌ للمَدْحِ وإمَّا للثَّـوَاب :

فقلتُ لهـا عِيثِى جَعَـارِ وجَرِّرِى * بلَحْمِ ٱمْرِئٍ لم يَشْهدِ اليَوْمَ نَاصِرُه!

وما كان المَلِيح أن يُغْرِى بى من سبق مَدْحُه إلىّ، ومَن ٱنْتَصَر بعزِّه لنَفْسه فما ٱنتَصَر لَدَىّ "وهذا لعَمْرى جَهْد من لاَلَه جَهْد" وما تَخْلو هذه الأفعال: إمَّا أن تكونَ مُجازَاةً علىٰ مَدْحهـم، فأيْنَ الكِرَام وفَضْـلُهم، والمُنْصِفُون وعَدْلُهم ؟، أو ظَنًّا أنّى عَرَّضتُ بهم فيمَنْ عَرَّضْتُ، فأيْن ذَكَاء الألِبَّاءِ وأينَ عقلُهم ؟؛ وهَلْ تَظنُّ السَّماءُ أن يَدًا تَصِـل إليها، والنُّجُومُ أن خَلْقًا تَحْكُم عليها ؟؛ والذَّهَب مَحْرُوسٌ لا يَصْـدَا جِرْمُه، والجَوْهر مَعْروفٌ لايُجْهَلُ حُكْمُه؛ ومَن الذى تُحَدِّثه نَفْسُه أن يَجْحَد الشَّمسَ فَضْلها الطَّائِل، أو يُحَسِّنَ له عَقْلُه أن يقولَ : سَحْبانُ وائِلٍ كَبَاقِل ؟؛ ... ...(١) أدرَكَنِى ذَلك اليَوْمَ ولَمَّـا أُمَزَّق، وأَنْجَدْنِى بكلِّ لَفْظةٍ هى أمْضَىٰ من السَّهْمِ وأرْشَق، وأضْوَءُ من النَّجْمِ وأشْرَق؛ وما أعْرِفُ كَيْفَ صَـبْرِى علىٰ هـذا الحَرْب فى صُورَة السِّلْمِ؟، وما أظُنُّه أراد إلا أن يُعَلِّمَ قَلْبِى الذى فى يَدِه الحُكْمَ، كما عَلَّمه للقَلَم؛ وحيث قَضَى الحديثُ ما قَضَىٰ، ومَضَى الوقتُ وما كان إلا سَيْفًا فى عِرْضِ العَبْد مَضَىٰ :

فَكَرَّتْ تَبْتَغِيـــه فَصادَفَتْـهُ * علىٰ دَمه ومَصْرَعه السِّـــباعا

فأنا أنْشُـدُ الله تَعالىٰ هؤُلاءِ السادةَ الغائِبين، أو القَوْمَ العاتِبين؛ هلْ يَعْرِفون أنَّ الذى عَرَّضتُ به منهم قَوْمٌ قد ٱسْـتولَىٰ عليهم العِىُّ بجَرِيضـه، ونَزَل فيهم الجِهَاد بقَضِّه وقَضِيضِه؛ وأصْبح بابُهم لهم كبُسْتانٍ بلا ثِمَـار، ودِيوَانُهم علىٰ رَأْىِ أبِى العَلاءِ كديوانِ أبى مِهْيار؛ لايُحْسِنُ أحدُهم فى الكِتَابة غيرَ العِمامَةِ المُدَرَّجه، والعَذَبَة المُعوَّجه،

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة .

والعَباءَةِ الضَّيِّقةِ والأثواب المُفَرَّجَه ؛ و يتَناوَلُ السلم باليمين وكِتابه إن شاء الله تعالىٰ بالشمال، ومَشَىٰ هذا علىٰ هٰـذا ولٰكِن على الضَّلال؛ لو سُئِل أحدُهم عن «البَديع» فى الكِتابَة لم يَعْرِف من السؤال غيرَ التَّرديد، وعن «عبدالحميد» لزاد فى الفكْر ونَقَص : وعَبْدُ الحميد عَبْدُ الحميد؛ و«الصَّاحِب» لقال : إنه تَبَرقَع بمَجْلِسِى، و «الخُوارزْمِيّ» لقال : سَرْجُ فَرَسِى، «والفاضِل» لقال : ها هو ذا ذَيْلُ مَلْبَسِى . فإن كان الأمر كذلك افهِم المَلاَم والتفنيد :

عَلَّقُــوا اللَّحْــمَ للـبُزَا * ةِ عَلَى ذِرْوَتَىْ حَضَــن[1]

ثُمَّ لامُوا الـبُزَاةَ أَنْ * قَطَّعتْ نَحْوَها الرَّسَن،

لَــوْ أرادُوا صِيـانَتِي * حَجَبُوا وَجْهَكَ الحَسَن!

والوَجْه الحَسَن هٰهُنا وَجْه المَنْصِب وحِجابُه عن شَيْن تلك الآثار، وتَحْميش تلك الألفـاظ .

و إن كان غيرَ ذلك فمـا مَثَلِى مع من ذَكَرنِى إلا قولُ القائل :

سَافِرْ بطَرْفِك حَيْثُ شِئْـتَ * فَلَنْ تَرَىٰ إلَّا بَخِيلاَ!

فقيـلَ له : بَخَّلْتَ الناسَ، فقال : كَذِّبونِى بواحِد . وهأَنَا فلْتكَذِّبُونى بواحِدٍ مِمَّن عَرَّضت، وصَحِيح ممَّن أمْرَضْت؛ وليَبْرُزْ إلىٰ مَضْجعِه، وليَكُنْ على يَقين من مَصْرعِه؛ ولا يَتْرك شيئا من أَدوَاته ، ولا يأْتى إلّا ومعه نَادِبتُه من حَمَائِم هَمزاتِه .

وأنا أقْتَرِحُ عليه من مسائل الكتابة بَعْضَ ما آقترحه الفُضَلاء، ونَبَّهَ عليه العُلَماء؛ و إلَّا فمـا أنا أبُو عُذْرَته، ومَالكُ إمْرَته؛ ولا يَلُومُ إلَّا القَائِل :

مَن تَحَلَّىٰ بغَـيرِ ما هو فيــه * فَضَحتْه شَوَاهِدُ الإمْتِحانِ!

---

(١) حضن جبل بأعالى نجد .

فانه الذى نبّهنى عليه و إن لم أكن ساهيا، وذكّرنى الطّعن وما كنتُ ناسيا؛ حتىٰ رميتُه من هذه المسائل، فى مجاهل؛ لا يُهتدىٰ فيها بغير الذّهن الواقد، واقتحمتُ به فى بحارٍ لا يَعصِم منها جبلُ الفكر الجامد؛ علىٰ أنّها فيما أغفلت كالثّمد من البحار، واللّمحة من النّهار، ولولا الاختصار، لأتيتُ منها بالجمّ الجمّ فلنحمد الله والاختصار، فأقول :

من كتب فى الورق واستنبطه ؟ ومن ختم الكتاب بالطّين وربطه ؟ ومن غيّر طين الكتاب بالنّشا وضبطه ؟؛ ومن قال : أمّا بعدُ فى كتابه ؟ ومن جعلها فى الخطب وأسقطها فى ابتدائه فى المكاتبة وجوابه ؟؛ ومن كره الاستشهادَ فى مكاتبات الملوك بالأشعار ؟، وكيف تركها علىٰ ما فيها من الآثار ؟؛ ومن الّذى أراد أن يكتب نثرًا فجاء شعرًا ؟، ومن وضع هذه الطُّرّة فى التقاليد واخترعها ؟، وما حُجّته إذ قدّمها على اسم الله ورفعها ؟، ومن الّذى باعد بين السّطور ووسّعها ؟، وكيف ترك بالتعاظم فى كُتُبه سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسعه من التّواضع ما وسعها ؟؛ ومن استغنىٰ بكتابة آيةٍ من كتاب الله عن الجواب ؟، ومن اكتفىٰ ببيت من الشّعر عما يحتاج من تطويله الكتاب ؟؛ ومن الّذى عانى المترجمات ورتّبها ؟ وأخفىٰ ملطّفات الجواسيس وغيّبها ؟؛ ومن الّذى سنّ البُرُدَ وبعثها فى الملمّات ؟ ، ومن حاكىٰ شيئًا من مُلك سليمانَ فاستخدم الطّيور فى بعض المهمّات ؟ ؛ وما أوجز مكاتبةٍ كُتب بها عن خليفةٍ فى معْنى ؟ ؛ وما أبلغ جوابٍ وأوجزه أجاب به عن خليفـةٍ من لا سمّىٰ ولا كنّىٰ ؟؛ ولِمَ أرّخ بهجرة النّبىّ صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرّخ بمولده أو غير ذلك من الأيام ؟، ومن الذى أمره الخليفةُ بكتابة معْنى فأرْتِج عليـه الكلامُ ولُقّنه فى المنام؟، ومن الذى وصف برسالةٍ طويلةٍ شيئًا لم يصفه بنثارٍ ولا نظامٍ؟؛ وكيف جاز للكاتب أن يكتب آيةً من الكتاب فى لفظةٍ يحسبها من لا يحفظ أنّها من عنده

لامن حِفْظه ؟، مثلُ قَوْله مع الرسول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقَولِ الآخَرِ فى كتابه : ﴿هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ﴾ . وكَثيرٍ من هذا؟ وهَلْ يُؤْخَذُ عليه فى مِثْل ذلك كما أُخِذَ على الحَجّاج فى أسمـاء(١) المُسْتَغيثِينَ به من أهلِ السِّجْن : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ؟ . وما الفَرْقُ بينهما ؟

وعَلامَ يُطوِّل الكَاتِبُ باءَ البَسْمَلَه ؟، ولا يُثْبِت إلا قَليلًا وَاوَ الحَسْبَلَه ؟ ؛ ولا يُحَمْدِل ولا يُبَسْمِل علىٰ ما أَلِف ، وكَيْفَ يُعلِّم فى بَعْض السَّجعَاتِ على الأسمـاء المَقْصورة باليَاءِ والأصـلُ فيها الألِف ؟؛ وأَسْأَله كَيْف يَصِفُ القَراطِيسَ والأقلام ويَسْتَدْعيها ؟، والسِّكِّين والدَّواةَ ويَسْتَهْديها، وكَيْف يكتب مَلِكٌ طَلَب منه عَدُوٌّ قَطيعة عن جَيْشه يُعْطيها ؟؛ وكَيْف يَكْتب عن خَليفَةٍ ٱسْتَسْقىٰ ولم يُمْطَر؟، وخَليفةٍ صَارَع فصُرِعَ كالمُعْتَصِم وكَيْف يُعْذَر؟ ؛ وما الذى يَكْتُبُ فى نَارٍ وقعَتْ فى حَرَم النَّبِيّ صلَّى الله عليه وسلم ؟ وما الَّذِى يَكْتب عن المَهْزوم إلىٰ من هَزَمه فى معنى رُكُونه إلى الإحجام ؟ ؛ وكَيْف يُهَنِّى خليفةً خُلِـعَ فَرَجع، وغُرِّبَ عن السِّجن وطَلَع ؟ ؛ وأَسَره العَدُوُّ ثم تَخَلص وٱستقام بعد مانَهَضه الدَّهْرِ بمَرَض، أو تَمَرَّض فانْتَهَض؟؛ وكيف يُهَنِّى من زَوَّجَ بعـد موت أبِيـه أمَّه ، ويُعزِّى والدا قَتَلَ ولده وولدا قتـل والِدَه ويُصَوِّب حُكْمَه ؟؛ ويَكْتُب عمن حَاصَر حِصْنًا وتركه بعد تَسْهيل المَسَالِك، وكيف يَكْتُبُ فى نِيـلٍ لم يُوفِ لَا أَحْوَجَ اللهُ لذٰلك ؟؛ ويُعَـزِّى كافرًا عن بَعْض الأعِزَّاء الأَلْزام، ويُنْشِئُ عَهْد يَهُودِىٍّ بوزارة أمير المؤمنين عليه السلام؟؛ ويكتبُ تَقْليدًا لثلاثة أو أربعة من الحُكَّام، ويَسْتَنْجِدُ بأموالٍ أو مَسَاكِينَ(؟)من عَدُوٍّ كافرٍ علىٰ كافر؟ ويُبَشِّر عَدُوًّا بأخْذ بلاده منه،ويَعْتذر عن مَلِك أَخذَتْ شَوانيه وحُجِزَت عنه؟؛ ويُهَنِّى خَصِيًّا بزَوَاجِه، ويَعتذرُ عمن فَرَّ وتَرك وَلَده تَحْكُم الظُّبا فى أَوْدَاجِه؟؛

(١) كذا فى الأصول . ولعله فى إساءة .

ويكتب لملك بنىٰ مبانى فاحترقت أو وقعت، أو أجرىٰ خيول رهانٍ فسبقت خيله وانقطعت؟؛ أو خرج لصيد فلم يجد ما يصاد، أو لبرزة بندق احتفل فيها ولم يصرع شيئًا من الواجب المعتاد ؟؛ أو ركب أول يومٍ من تملكه فتقطّر به الجواد، أو وضعت له أنثىٰ فضّلها بكلامٍ علىٰ ما يرجوه من ذكور الأولاد .

ومن هٰهنا أكفّ القلم عن شوطه، وأرفع عنه ما وضعه اللسان من سوطه؛ خوفًا من الملال والصّخب، وكفىٰ بالغرفة عن معرفة النهر .

فاذا نشط هذا الكاتب من هٰذا العقال، وتصرّف فى فنون هذا المقال، وخرج من هذه الأسئلة خروج السّيف من الصّقال؛ امتدّت كفّ الثّريّا فى هذا النّسيان بمسح جبهته، وجاء بجواب هذا النكث كما يقال : برمته؛ (؟) وأماط لثامها، وشمّر عن أزهارها أكمامها ـ انقطعت الأطماع دون غايته، وبسطت أيدى رسائل البلغاء لمبايعة رسالته، بل أتته وحمل قلمه علىٰ أقلامِ فرسان الكلام سوداء رايته؛ وبان هنالك ظلم العائب وحيفه، فكان كمن سلّ لنحره سيفه؛ وعذر علىٰ توالى التأنيب مؤنّبه، وكان يومئذ له الويل لا لمن يكذّبه، وامتاز هذا الفاضل بما تحدثه هذه الواقعة من الفخر وتجلبه :

فعاجوا فأثنوا بالّذى أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب!

والمسئول من إحسان سيّدنا أن يسدّ الخلل كيف ما وجده، ويصلح الخطأ والخطل كما عوّدته منه وكما عوّده؛ فإنّه أمير هذه الصّناعة ونحن الرعايا، وشيخ الفصاحة ونحن الفقراء الذين كم وجدنا فى زواياه منها خبايا؛ وما هٰذه الرسالة إلا يدٌ امتدت تسأل من الحلم ما يسعها، وهٰذه السّطور إلا حبائل تتصيّد من عوائده ما ينفعها ويرفعها :

فأرخ عليها ستر معروفك الّذى * سترت به قدمًا علىّ عوارى !

والله تعالىٰ العالم أنها وَردتْ عن قَلْبٍ مَذْهُولٍ عن حُسْنِ الإيقان، مُمَدَّدٍ عليه نَوائِبُ الدَّهْرِ بأنامِلِ الخفقان، مَرْمِيٍّ بسِهامِ الأعادي في قِسِيِّ الضُّلوع، غائِصٍ في بَحْرِ الهَمِّ وكلما رُمْتُ أن يُلْقِي إلىّ دُرَّ الكلام أَلْقىٰ دُرَّ الدُّموع :

أَبْكي فتَجْري مُهْجَتِي في عَبْرَتِي * وكَأَنَّ مَا أَبْكَيْتُه أَبْكَانِي!

لا يَدَع لِيَ الفِكْرُ في قِلَّةِ ... ...[1] الإِخْوان وَقْتا أَسْتَنبِطُ فيه مَعْنى، ولا يُفْسِحُ لِيَ التَّعَجُّب من أَبْناءِ الزَّمان لنَقْصِهم أنْ أُصَحِّحَ نَقْدًا ولا وَزْنا، أَجْنَح لِسِلْمِ الأيَّام فكأَنِّي لحَرْبِها جَنَحْت، وأَقْدَح فِكْرَتِي في ٱستعطاف الزَّمانِ فكأَنِّي فيه قد قَدَحْت، فلو قَضىٰ الله لى بالمُنْيَة من المَنِيَّة لأَرَحْتُ الزَّمانَ وٱسْتَرَحْت :

فَالأَرضُ تَعْلَمُ أَنَّنِي مُتَصَرِّفٌ * من فَوْقِها وكَأَنَّنِي من تَحْتِها!

ولا فَرْقَ فيما بَيْنَنا غَيْرَ أَنَّنا * بِمَسِّ الأذَىٰ نَدْرِي ومن مَاتَ لا يَدْرِي!

ولا بدّ لى أن أُطَلِّقَ هذه الصِّناعةَ طَلاقًا قَطْعيا، لا طَلَاقا رَجْعِيًّا، وأُجاهِرَها جِهارًا حَرْبِيًّا لا جِهارًا عَيْنيا، وأَضَعُ صَعْدَة حملها من أدبٍ عن بدني، وأتولى قوس داله مع سهم بائها فما أصبتِ غيرَ كَبِدي، «كأنَّما القَوْس منها مَوْضِع الوَتَر»، «وقُلتُ ٱذْهَبِي ياصَبْوَتِي بسَلَامٍ» فماذا لَقِيتِ من آفاتها، ومُنِيتِ به من الخَوْف في عَرَفاتِها، ومُطِرْتِ لا من عَوارِضِ قَطْرِها ولٰكِنْ من عَوارِضِ مُرْجِفاتِها :

وإنِّي رأيتُ الحُبَّ في القَلْبِ والأذَىٰ * إذا ٱجتمعا لم يَلْبَثِ الحُبُّ يَذْهَب!

ومع هذا الحديث لم أَشُكَّ أَنَّ أحدًا سَيَنْتَقِدُ علىٰ تَشْبِيهِي، وطُرُقه قديمة في ٱسْتِفتاح المُكَاتَبه، وٱسْتِنْجاح المُخاطَبه، ويقولُ : تِلْكَ أُمَّةٌ قد خَلَتْ، ودَوْلَةٌ فاضِلِيَّةٌ أَدْبَرَتْ مِثْلَ ما أَقْبَلَت، فكيف تَبِعها وتَرَك طَرِيقة فُضَلَاءِ عَصْرِه، وأَبْنَاءِ مِصْرِه، فالجوابُ

(١) بياض بالأصل ولعله : «مصافاة الاخوان» أو نحوه .

ما قاله القَاضِى السَّعِيدُ بنُ سَناءِ المُلْكِ رحمه الله تعالىٰ ، فما كان أسعَدَ خَاطِرَه ! ، وأَكْثرَ ذَهَبَ لَفْظه وجَوَاهِرِه ! ! :

إنِّى رأيتُ الشَّمْسَ ثم رَأيْتُها ❊ ما ذَا عَلَىَّ إذا عَشِقْتُ الأحْسَنَا ؟ !

وذكرت أن الاس عدره ونسيت أن الاس أفعلها[1] .

انتهت إلىٰ هذا الموضع ، والديك قد نَعى بعيدَ الظَّلام ، وبَلَّغ عن الصُّبْح السَّلَام ، والأزهارُ قد سَلَبَتْه عَيْنَه فقام من كَرَاه يَصِيح ، ومَيْدانُ الغُصُون قد أَصْخَبَ بمَغْنَى الأَطْيارِ وشَغَبِ الرِّيح ؛ ونَسْرُ السَّماءِ قد فَرَّ من الغَدَاةِ وبَازِيها ، والنُّجُوم قد حُمِلَتْ إلىٰ مَلْحَدها من الغَرْب علىٰ نُعُوش دَياجِيها ؛ والمَجَرَّةُ من الجَوْزاءِ عاطِلَةُ الخَصْر ، وخَاقَانُ الصُّبْح قد حَمَل علىٰ نَجَاشِىِّ الظَّلامِ رَايَةَ النَّصْر .

لا بَرِحَ سَيِّدنا مَعْصومَ الرَّوِيَّة والاْرْتِجال ، مسجلا بشَجاعَة البَرَاعة والحَرْبُ سِجال ، مَحْمُودَ المَوَاقِفِ والمَسَاعِى "والنِّقْسُ نَقْعٌ والطُّرُوس مَجَال" ، والسَّلام .

الصنف السادس

(من الرسائل ما تُكْتَب به الحَوَادِثُ والمَـاجَرِيات)

ويختلف الحَال فيها باختلاف الوَقَائِع : فإذا وقعتْ للأديب ما جَرَيَةٌ وأراد الكتابةَ بها إلىٰ بعض إخْوانِه ، حكىٰ له تِلْك المَـاجَرِيَةَ فى كتابه مع تَنْمِيق الكلام فى ذلك ، إما ٱبتداءً وإما جَوابًا ، عند مُصادَفَة وُرُود كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نُسْخَةُ رسالةٍ أنْشأها الإمامُ قاضى قُضاةِ المُسلمين مُحْيِى الدِّين ، أبو الفَضْل يحيىٰ ، بنُ قاضى القضاة الإمامِ مُحْيِى الدِّين أبى المعالى مُحَمد ، بن علىّ ، بن محمد ،

---

(١) وردت هذه الجملة فى الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحُسَين، بن علىّ، بن عبد العزيز، بن علىّ، بن الحسين، بن محمد، بن عبدالرحمن، ابن القَاسِم، بن الوليد، بن القَاسِم، بن عبد الرحمن، بن أَبَانَ، بن عُثْمانَ، بن عفَّانَ رضى الله عنه، لمّـا وَرَد إلى القاهرة المحروسة فى التَّاسِع من جُمادىٰ الأولىٰ من سنة تِسْع وعشرين وستمائة، وتُعْرف "برسالة النَّمْس" وهى :

ورَدتْ رُقْعةُ سَـيِّدنا أسْعدَه الله بتَوْفيقِه، وأوْضَح فى ٱكتساب الخيْرات سُـبُلَ طَرِيقِه ؛ فوقفتُ عليها وُقُوف السَّارّ[1] بوُرودها، المُسْتَسْعِد بوُفُودِها، المُبْتهِلِ إلى الله فى إبقاء مُهجَتهِ التى يَتَشَرَّفُ الوجود بوُجُودِها :

وليْس بتَزْويِقِ اللِّسانِ وصَوْغهِ * ولكنَّه قد مَازَجَ اللَّحمَ والدَّما !

وفَضَضتُها عن مِثْـلِ النَّوْرِ تَفْتَحُه الصَّـبا، وبُرُودِ الرِّياض تَساهَمتْ فى ٱكْتِساءِ وَشْيِها الأهْضابُ والرُّبَا ؛ يَكْبُو جَوَادُ البليغ فى مِضْمار وَصْفِها، ويَنْبو عَضْبُ لِسَانه عن مُجاراتِها فى رَصْفِها ؛ يُخْجِلُ مُحيًّا النهارِ بياضُ طِرسْها، ويَوَدُّ الليلُ لو نَفَضتْ عليه صِبْغَةَ نِقْسِها ؛ وتحسـدُ الكواكبُ رائقَ مَعانِيها، وتَمنّىٰ لو أُعِيرتْ فَضْـلَ إشراقِها وتَلَالِيها ؛ فى كلِّ فِقْرةٍ رَوْضةٌ وكلِّ معنًى كَأْسُ مُدام، وكلِّ أَلِفٍ سَاقٌ وكلِّ سِينٍ طُرَّةُ غُلام ؛ وكلِّ وَاوٍ عَطْفةُ صُـدْغٍ وكلِّ نُونٍ تَقْويسُ حَاجب، وكلِّ لَامٍ مَشْقَةُ عِذارٍ وكلِّ صَادٍ خَطَّة شَارِب ؛ تُصِيبُ من سامعها أقصىٰ ما يُراد بالنَّفْث فى العُقَد، وتَسْتولِى بلَفْظِها علىٰ لُبِّه ٱستيلاءَ الجَوَاد على الأَمد .

فلمّـا ٱجتليتُ منها المَعَانى المُسْهبَة فى اللَّفظِ المُوجز، وأجَلْتُ طَرْفى منها ما بين نُزْهة المُطْمَئنّ وعُقْلَة المُسْـتَوفِز، وأسلمتُ قيادى إلىٰ سِحْرِها المُحَلَّل وإن جَنَىٰ قَتـلَ العَاشِقِ المُتحرِّز ـ علمتُ أنّ سَيِّدنا أجرىٰ فى حَلْبَة السِّباقِ فحَازَ قَصَبَ سَبْقِها،

(١) كذا فى الأصل ولعله المسرور .

وذُلِّلتْ له البلاغةُ فتوغَّل فى شِعابها وطُرُقِها، وحُكِّمَتْ يَدُه فى أعِنَّة الفضائل فسلَّمتِ القَوْسَ إلىٰ بَارِيها، ودَرَجاتِ العُلَىٰ إلىٰ مُسْتَحِقِّيها؛ فَمَن وَائِل؟ ومَن سَحْبان؟، ومن عَبْـدُ الحميد؟ وٱبنُ صُوحَان، وأىُّ خَبَرٍ يقابِلُ العِيَان؟ ومَن يُقاوِمُ ما هو كائنٌ بمـا كان؟ . فسألتُ خَاطِرِى الجامدَ أن يُعارِضَ بوَابِلِه طَلَّها، وأن يُقابِلَ بجُثْمانه ظِلَّها؛ وأن يُجارِيَها فى حَلْبة المُساجَلَةِ و إن دُعِىَ بالسُّكَيت، ولقـدْ أسْمَعْتَ لو نَادَيتَ حَيًّا وكَيْف بنُطْقٍ من مَيْت؛ وأنَّىٰ يُطْمع فى مُجارَاةِ البَحْر ولَاتَ حِينَ لَعَلَّ أولَيْت؛ فوجدتُه أصْلَدَ من الصَّخْرة مَسًّا، وألْفَيْتُ بَاقِلًا لَدَيْه قُسًّا، فمـا كلُّ من طُرِقَ قَرىٰ، ولا مَنْ إذا خَلَق فَرىٰ؛ وهٰذا المعهودُ من خَاطِرِى إذا كان جَامًّا فكَيْف وقد نَضَب مَاؤُه وكَدَّرتِ الحوادثُ بَحْر عِلْمِه والغِيَرَ، فمِنْ دُونِ أن تُسْتَخْرَجَ منه الدُّرَرُ أن يَلِينَ لِضِرْسِ المَـاضِغ الحَجَر؛ فبَذَل جُهْده لمـا شَعَّبتِ الهُمومُ سُبُلَه، وتَقَنَّع بالخَلَقِ مَن لا جَدِيدَ له .

هٰـذا مع وَاقِعَةٍ وقعتْ له فأصْبَح مُتَشَتِّتا، وثَنَىٰ عِنانَه عن كلِّ شيءٍ إليها مُتَلَفِّتا؛ وذلك أنَّه فى بَارِحَتِه ٱستولَىٰ عليـه القَلَقُ بسُلْطانه، وٱسْتَلَبَتْ يَدُ الأَرَق كَرَاه من بين أجْفانه؛ كَأَنَّه سَاورَتْه ضَئِيلَةٌ سُمُّها نَاقِـع، أو مَدَّتْ إليه خَطاطِيفُ حُجْنٌ لهـا أَيْدِى الخُطُوبِ نَوازِع :

إِذَا اللَّيْلُ أَلْبَسَنِى ثَوْبَه * تَقَلَّب فيـه فَتًى مُوجَعُ

فتارةً فِكْرَتُه مُتَوَجِّهةٌ نحو قِلَّة حَظِّه، وآوِنَةً لايَقَعُ إلَّا علىٰ ما يَقْذِفُهُ طَارِفُ لَحْظِه؛ وإن يَدَ الخُمُول قد ٱسْتولتْ عليـه، وأَزِمَّةَ المَطَالِب صُرِفَتْ عنه وحَقُّها أن تُصْرَف إليه، والسعادَة شاردةٌ عنه وما أجْدَرها أن تُطِيف ببَابه وتَسْتَقِرَّ بين يَدَيْه :

لئن كان أدْلَىٰ حابِلٌ فتعَـذَّرتْ * عَلَيْـه وكانَتْ رَادَةً فتخَطَّتِ،

لَمَّا تَرَكْتَه رَغْبَةً عن حِبَالِه * ولٰكِنَّها كانَتْ لآخَرَ خُطَّتِ ! !

ولقد جَهِد فى سِلْم الدَّهْرِ وهو يُحَارِبُه، "وكَيْف تُوَقَّىٰ ظَهْرَ ما أنْتَ راكِبُه"؟ فما شَامَ بارِقَةَ أَمَلٍ إلا أَخْفقَتْ ورَجع بخُفَّىْ حُنَيْن، وقَرَّتْ أعْيُنُ أعَادِيه كلَّما سَخِنَتْ منه العَيْن، فلقد أصْبَح أفْرغ من حَجَّامِ سَابَاط وإن كان "أشْغَل من ذَاتِ النِّحْيَيْن".

وكلما تأمَّل جَدَّه العَاثِر النَّاكِص، ونَظَر رِزْقَه النَّاضِبَ النَّاقِص، وقابَلَه الدَّهْر بالوَجْه العَابس الكَالِح، ومَنَّىٰ نَفْسَه عُقْبىٰ يَوْمٍ صالح، رَبَع عليها فَمَنْ لى بالسَّانِح بعد البَارِح؟ ؛ ونَاجَىٰ نفسه بإعْمال الركائب، والاضطراب فى المَشَارِق والمَغَارِب، وأن يَرىٰ بالجود طَلْعَةَ نَائِر وبالعِرمِس غُرَّةَ آئب ؛ ويَصل التَّهْجير بالسُّرىٰ ، ويَبُتَّ من قيد الأوطان مُوثِقات العُرىٰ ؛ وإن كَسَدتْ فَضِيلةٌ من فضائله ، أو رَثَّتْ وَسِيلةٌ من وَسَائله ؛ اكْتَسب بأخرىٰ من أَخَوَاتها، ونَفَث فى عُقَدها ومَتَّ بها وقال : أنا آبْنُ بَجْدتِها ؛ فإلَامَ وعَلَامَ وحَتَّى مَتىٰ ، أُجَاوِرُ من أنا فيهم أضْيَعُ من قَمَر الشِّتا؟ ؛ وحَالِى أظهرُ من أن يُقامَ عليه دَلِيل، و"إذا ذَل مَوْلَى المَرْءِ فهو ذَلِيل" :

ومَا أنَا كالعَيْرِ المُقِيم بأهْلِه * على القَيْد فى بُحْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ !

ثم آسْتَهْوَلَ تَقَحُّم الإغْوار والإنْجاد، وآستَفْتَح لقَادِح زِنَادِ الحَظِّ الإكْدَاءَ والإصْلاد، وأقولُ : أخْطأَ مُسْتَعْجِلٌ أوكَاد، فأثُوبُ مَثَاب من حَلَب الدَّهر أَشْطُرَه، وأَخَذ إذا آرْتَفَع عن الدَّنِيَّة من حَظِّه أيْسَرَه، وبَنَىٰ كما بَنَىٰ سَلَفُه وقَرَّر ما قَرَّره ؛ فأقولُ : آرفُضِ الدَّنِيَّة ولا تُلْوِ عليها، فتكونَ "أحْمَق من المَمْهُورَةِ إحْدىٰ خَدَمَتَيْها"، "فالحُرَّة تَجُوع ولَا تأكُلُ بثَدْيَيْها" :

ولَسْنَا بأوَّلِ مَنْ فَاتَه * علىٰ رِفْقِه بَعْضُ ما يَطْلُبُ .

وقَدْ يُدرِكُ الأمْرَ غَيْرُ الأَرِيبِ * وقَدْ يُصْرَعُ الحُوَّلُ القُلَّبُ !

وتارةً يخطُر أنْ لو شكوْتُ حالي إلىٰ أصْدقائي من ذَوِي الجاه، وسألتُهم بالحاقِ بهم في الابتغاءِ من فَضْلِ الله ؛ وأَحُضُّهم على انتهاز فُرْصَة الإحسانِ قبل الفَوْت ، وأَضْربُ لهم : "أَعِنْ أخاكَ ولو بالصَّوْت" فليس علىٰ مِثْلِي ممن يُخِيفُه الدَّهْرُ في ذلك من جُناح ، "وهَلْ يَنْهَضُ البَازِي بغيرِ جَناح" ؛ ثم أرىٰ أنهم لو فَضَل عنهم شيءٌ لجادُوا ، بل لو زُوِيتْ الأرض لهم لازْدَادُوا ؛ ولو مُلِّكوا ظِلَّ الله لأصْبحتُ لديْهم ضَاحِيا ، وما حَالِي بخافٍ عَليهم وكَفَىٰ بُرغَائها مُنَادِيا ، وقَبْلِي بَغَى عَلِيٌّ الأمْرَ ففَاتَه وأدرك الجدُّ السَّعِيدَ مُعاوِيا ، وإلىٰ كَمْ أُعَلِّل تَعْلِيلَ الفَطِيم بالخِضَاب :

سَئِمْتُ العَيْشَ حِينَ رأيتُ دَهْرِي * يُكَلِّفُنِي التَّذَلُّلَ للرِّجَالِ !

وأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَه عن مُصَابِها ومَصَائِبِها ، ويُمَنِّيها كَرَّ الأيام بتَعاقُبِها ، ويَقُصُّ عليها تَقَلُّبَ اللَّيالِي بالأُمَم الماضية في قَوالِبِها ؛ وأنها ماقَدَّمَتْ لأحدٍ سعادةً إلا عَقَّبَتْها بتَغْيِير ، وما سَقَتْ صَفْوَ الأماني بَشَرًا إلا شابَتْ كَأْسه بتَكْدِير ، وأَنَّ سَبِيلَ كُلِّ أحدٍ منها سَبِيلُ ذِي الأَعْواد ، وقُصَارَاىَ ولو اتخذْتُ الأرضَ مَسْكَنًا وأَهْلَها خَوَلًا سَبِيلُ رَبِّ القَصْرِ من سَنْدَاد ، ولو عَمَّرتُ عُمْرَ نُوحٍ كنتُ كَأَنِّي وآدم وقْتَ الوَفَاةِ علىٰ مِيعاد ؛ فان شِئْتَ فارْفَع عَصَا التَّسْيارِ أوضَعْ ، فما هُو إلّا : "حَارِبْ بجِدٍّ أُودَعْ".

فبينا أنا أَعُومُ في هذه الخَوَاطر مُتَفَكِّرًا ، وأَقْرَعُ سِنَّ النَّدَم علىٰ تَقَضِّي عُمْرِي في غير مَآرِبِي مُتَحَسِّرا ، وأتَسَلَّى بمَصَارِعِ الأوَّلين أُخْرَىٰ مُعْتَبِرا ؛ ولو أَنْجَزَتْنِي الأيامُ مَواعِيدَ عُرْقوب ، لأَفْضَتْ بي إلىٰ أَحْلَىٰ من مِيراثِ العَمَّةِ الرَّقُوب ، ولقد تَقَاعَس أَمَلِي حتى قَنِعْتُ بحَالِي "وشَرٌّ مَا أَلْجَأَكَ إلىٰ مُخَّةِ عُرْقُوب" ثم يُخاطِبُني حِجَاي بأن تَثَبَّتْ واصْبِرْ ، فالليلُ طَوِيلٌ وأنت مُقْمِرٌ ؛ فَستبلغ بك الأسْباب ، ويَنْتَهِي بك إلى المَقْدورِ الكِتَاب ، فلا تَعْجَلْ بجَرْيِ المُذْكِيات غِلَاب .

فاسْتَرَوْحتُ إلىٰ فَتح بابٍ كان مُرْتَجا ، وٱرْتَدْتُ باستجلاء مُحَيَّا السماء من بَعْض هَمِّى فَرَجا ، وٱنْتَشَقْتُ من نسيم السَّحَرِ ما وجدتُ به من ضِيق فِكْرى مَخْرجا ؛ فَفتحْتُه عن شُبَّاكٍ كتَخْطِيط الأَوْفاق ، أو كُرْقعةِ شِطْرَنْجٍ وُضِعَتْ بين الرِّفاق ؛ أُلْبِس من صِبْغة اللَّيلِ شِعارا ، وٱتُّخِذَ لاَسْتِجْلاءِ وَجْه الغَزالةِ نَهارا ؛ جَلْدٍ على القِيام والكَدّ ، صَبُورٍ على الحالَيْن فى الحَرِّ والبَرْد ؛ يُحَوِّل جُثْمانَ المَرْء عمّا واراه ، ويُبيح إنْسانَ الطَّرْف رَعْىَ حِماه ؛ يُديلُ من ظُلْمة اللَّيلِ ضَوْءَ النهار ، ويَنِم بما ٱسْتُودِعَتْه من الأسرار ؛ يُشْرِف إلىٰ غَيْضَةٍ قد ٱلْتَفَّتْ أشْجارُها ، وتَهَدَّلتْ ثِمارُها ، ورَقَصتْ أغْصانُها إذ غَنَّتْ أطْيارُها ، وٱطَّردَتْ بِصافِى الزُّلالِ أنْهارُها ، ونَمَّتْ بعَرْف العَنْبرِ الشِّحْرِىّ أزْهارُها ؛ وقد قامتْ عَرائسُ النّارنْج علىٰ أرْجُلها ، تَخْتالُ فى حَلْيها وحُلَلِها ؛ قد أُلْبِسَتْ من أوْراقها خِلَعًا خُضْرا ، وحُلِّيَتْ من ثِمارها تِبْرا ؛ ونَظَّم قِداحُها فى جِيادِها لُؤْلُؤًا رَطْبا ، ورَنَّحها نَسيمُ السَّحَرِ فمالتْ عُجْبا ؛ وقد مُدَّتْ فى أرْضها من البَنَفْسَجِ مَفارِشُ سُنْدُسٍ فُروِزَتْ بالجَداوِل ، كبِساطٍ أخْضرَ سَلَّتْ أيْدى القُيُون عليه صَقيلاتِ المَعاوِل ؛ وقد حَدَّقتْ عُيُونُ الرُّقباء من النَّرْجِسِ قائمةً علىٰ ساق ، ولَعِبتْ بها يَدُ النَّسيم فتمايَلَتْ كعِناقِ المُحِبِّينَ عند الفِراق ، فٱجْتَليْتُ مُحَيًّا وَسِيمًا تَتَبلَّج أَسِرَّتُه ، ومَنْظَرًا جَسيما تَرُوقُ بَهْجَتُه ؛ قد مَدَّ السِّماطَ بِساطًا أزْرقا ، بزُهْرِ الكَواكِب مُشْرقا ، وطَرَّزه بالشَّفَقِ طِرازًا مُذْهَبا ، وأبْدَىٰ تحته للاصْباحِ مَفْرِقًا أشْيَبا :

وَرَثَّ قَمِيصُ اللَّيْـلِ حَتَّىٰ كأنَّه * سَلِيبٌ بأنْفاسِ الصَّبا مُتَوَشِّحُ ،
ورَقَّعَ مِنْـه الذَّيْلَ صُبْحٌ كأنَّه * وقد لاحَ شَخْصٌ أشْقَرُ اللَّوْنِ أجْلَحُ ،
ولاحتْ بَقِيّاتُ النُّجومِ كأنَّها * علىٰ كَبِدِ الخَضْراءِ نَوْرٌ يُفَتَّحُ !

وجَنَح البَدْرُ للغُرُوبِ فتداعَتْ الكَواكِبُ تَتْبَعه كَوْكبًا فكوكبًا ، فكأنه مَلِكٌ ٱتَّخذ المَجَرَّةَ عليه مَضْرِبا ، وتَوَّج بالثُّرَيّا إكْليلا ، وخَنَستْ الكَواكِبُ بين يديه تَوْقيرًا له

وتَجِيلا ، وآصْطَفَّتْ حَوْله خَدَمًا وجُنُودا ، ونَشَرتْ من أشِعَّتِها أَلْوِيَةً وبُنُودا ؛ وأخذتْ مَقَاماتِها فى مَرَاكِزِها كجُيُوشٍ عُبِّئَتْ لِلقاء مُناجِزِها ، ومُسَابِقُها أخَذَ فُرْصَةَ النَّصر ومَناهِزَها :

ولَاحَ سُهَيْلٌ من بَعِيدٍ كأَنَّه * شِهابٌ يُنَحِّيه عن الريح قَابِسُ !

وآنبرىٰ نَسِيمُ السَّحَر عليلا ، وجَرَّ علىٰ أعطاف الأزهار ذَيْلًا بَليلا ، وَروىٰ أَحَادِيثَ الرِّياض بِلسان نَشْره ، مُذِيعًا لأسرار خُزَاماه وزَهْرِه ؛ وغَرَّدَتْ خُطَباءُ الطَّيْر علىٰ مَنَابِر الأغْصان ، وآسْتنبطَتْ من قُلُوب المُحِبِّين دَفَائنَ الأشْجَان ؛ وحَثَّ دَاعِى الفَلاح ، طَائِفَةَ التُّقَىٰ والصَّلاح ، علىٰ أن تُؤَدِّى فَرْضَها ونَفْلَها ، وتَرْتَقِى بخُضُوعها بين يدى مَوْلاها دَرَجاتِ السَّعادة التى كانتْ أحَقَّ بها وأهْلَها ؛ وهَتَف بَشِيرُ النُّجْح بمن أحْيَا لَيْلته لما تَمَزَّق قَمِيصُ اللَّيل وآنفَرىٰ : "عِنْد الصَّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرىٰ" .

فَبينا أنا أتفكَّر فى أنَّ جُمْلةَ ما عايَنْتُه سَيُصْبِح زَائِلا ، وعَن تِلْك الصِّبْغة العَجِيبَة حَائِلا ، وأَتَدَبَّر : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ إذْ أهْدتْ إلىَّ الأيامُ إحْدَىٰ طُرَفِها وغَرائِبها ، وكُبْرىٰ أوابِدِها وعَجائِبها ؛ فطَرَق سَمْعى من الشُّبَّاك نَبَأَه ، وتَلَتْها وَجْبَةٌ تَتْبَعُها وَثْبه ؛ فآسْتعَذْتُ من كَيْد الشَّيْطانِ المَرِيد ، وقلتُ : أَسَعْدٌ أم سَعِيد ؛ وإذا بِنِمْسٍ قد فَارَقَ وِجَارَه إلىٰ وِجَارِى ، وآخْتارَنِى على الصَّحراء جارًا فآرْتَضَيْتُه لِجوَارِى ؛ فوَلَج مُسْتأْنِسا ، ومَرَح بين يَدَىَّ آنِسا ، وأرانِى أحَدَ كَتِفَيْه فى الآسترسال لَيِّنًا والآخَر بالتَّمَنُّع شَامِسا ؛ فمَدَّ له الحِرْص علىٰ جَوْرِه حَبَائِلَ مَكْرِه وشِبَاكه ، ويَدُ الغَبَش تَحُول دُون قَنْصه وإمْسا كه ؛ وبَقَايا الظَّلام تَقْضى بتَمَنُّعه ، وتَصُدُّ عن جَعْله من الوَثاق فى مَوْضِعه ؛ وأنا مُلازِمُه مُلازَمَة المُعْسر لِرَبِّ الدَّيْن ، حتى يَتَبَيَّن الصُّبْح لِذِى عَيْنَيْن .

فلما خَشيتُ علىٰ صلاتِى الفَوْتَ عَدلْتُ إلىٰ تأْدِيَةِ فَرْضِها ، وتَوْجِيهِها بَيْن يَدَىْ مُوجِبِها وعَرْضِها ؛ فلما آنْفَتَلْتُ من مُصَلَّاى ، وآنْصرفْتُ عن مُناجَاة مَوْلاى ؛ بَرَقتْ لى بَارِقه ، خُيِّل إلىَّ أنها صَاعِقَه ؛ فقلتُ : أَذَرَّ قَرْنُ الغَزَاله ؟ ، وإلا فَلاَتَ حِينَ ذُبَاله ؛ فقيل : إنَّ الغُلامَ نظر إليــه شَزْرا ، وهَزَّله المُهَنَّدَ فشَقَّ له من الظَّلْماءِ فَجْرا ، وأبْدَىٰ له وَجْهًا مُكْفهِرا ، ورَام أن يُعْطِيَه من المَنِيَّة مَرْكَبًا وعْرا ، كأنَّه قد لاَقَىٰ أَسَــدًا هِزَبْرا ، وأتْرَع له كأْسَ الحِمَام بالوَافِى ، ورَماه بثَالِثَةِ الأثَافِى ؛ فعطفتُ عليه باللَّائِمَة مُنْكِرًا لجَهْلِه ، وهَتَفْتُ به زَاجِرًا عن قُبْح فِعْله ، ثم عَذَرتُه : "ومَنْ لَكَ بأَخِيكَ كُلِّه" ، وقلتُ له : ماذَا تُراكَ تَصْنَعُ لو لاقَيْتَ أسَدًا أغلبا ؟ ، لقدْ خِلْتُ أنَّكَ تَرْتَدُّ ــ وإن كُنْتَ وَلِيدًا ــ أشْيبا ، أَمِن هذا بادَرْتَ إلى السَّيْف مُخْتَرِطا ؟ ، " إنَّك لَأَجْبَنُ من المَنْزُوفِ ضَرِطا " لقد أظهرتَ من الفَشَلِ ما جَاوَزَ قَدْرَ الحَــدّ ، ووضَعْتَ المِزَاح فى مَحَــلِّ الجِدِّ وقابلتَ الأسْهلَ بالأشَــدّ ، فسُحْقًا لك وبُعْــدا ، لقد قدحَ مُرَجِّيك بعدها زِنَادًا صَلْدا ، وآسْتَنْبع المــاءَ جَلْمَدًا جَلْدا .

فصَوّبَ طَرْفَه فِىَّ وهَتَف مُناديا ، وأظْهر وَفاءً أزْرىٰ بالسَّمَوْءَلِ بنِ عَادِيا : أَنُجْ هَرَبًا ولا إخَالُك نَاجِيــا ، إنِّى رُمِيتُ من الخُطُوب بأصْــعبِها ، ولا يُنَبِّئُكَ بالحُرُوب كمُجَرِّبِها ، والغَاصُّ باللُّقْمةِ أخْبَرُ بها ؛ فلقد أوْطَأَنِى مالا أسْتَقِيل منه العَثْره ، وما لَاقَيْتُ فى حَرْبٍ كهٰذه المَرَّه ، "والعَوَانُ لا تُعَلَّمُ الخِمْرَه" ، لقد صَرَّح لى بالشَّرِّ ولم يُجَمْجِم ، وكَشَر عن أنْيابِه غيرَ مُتَبَسِّم ، و"حَسْبُك من شَرٍّ سَمَاعُه" و"آسْتُ البَائِنِ أعْلَم" ، تاللهِ إنَّه لأَجْرَأُ من خَاصِى الأَسَد ، ولَئِن سَبَرْتَه لتعلَمَنَّ مابين الذِّئْبِ والنَّقَد ، ولقد رَضِيتُ نَفْسِى من الغَنِيمة أن تَؤُوبَ بدَمائِها ، لمــا تَشَبَّثَ بخِنْصرِى نَخَضَبَها بدِمائِها ، فقلتُ : "أَجْفَلَ عن جَنَابِك الخَيْرُ وأجْلَىٰ" "أَضَرِطًا وأنْتَ الأَعْلَىٰ" ؟ ، ثم تضاحكتُ إليه لمّــا شاهدتُ آسْتِعبارَه ، وأوَيْتُ له إذ رأيتُ آسْتِكْثارَه الخَطْبَ وآسْتِكْبارَه ، وقلتُ : من ضَافَ الأَسَد

قَرَاه أظْفَاره، ومن حَرَكِ الدَّهْر أراه آقْتِدارَه ؛ وعَدَلتُ إلى الذَّلول الشَّامس، المُسْتأْسِد المُسْتأْنِس؛ ومَدَدْتُ يَدى إليه فآنْقاد لها طَائِعا، وخَضَع لإجابة دَعْوتى سَامِعا .

فلمَّا حَازَه فى القَبْضَةِ الإسَار، وبَطَل الإقْلالُ من ذلك اللَّفظ والإكثار ؛ وقد كان أعَزَّ من الأَبْلَقِ العَقُوق، وأبْعَدَ من بَيْض الأَنُوق ؛ آسْتجليتُ صُورَتَه مُتَأَمِّلا، إذ لم يَبْقَ له سِوىٰ قَبْضتِى مَوْئِلا ؛ فرأيتُ هَامَةً نَخْمَه، وجُثَّة ضَخْمَه ؛ وشِدْقًا أَهْرَتًا رَحْبا، ذا مِرَّةٍ على آختلاف الحَوَادث صَعْبا ؛ وأنيابًا مُحَدَّدَةً عُصْلًا كالنِّصال، وطَرْفًا مُخالِسًا غيرغِرٍّ بالمَكْرِ والخَتَال ؛ كأنَّه شِهَابٌ يتَوَقَّد، أو شُعْلَةُ نارٍ لم تَخْمُد ؛ وسامِعَتَيْن تَتَوجَّسانِ مادار فى الأوهام، وتُدْرِكانِ ما يناجِى به المَرْءُ نَفْسَه ولو فى الأحلام ؛ قد نِيطَتْ بعُنُقٍ صَغُرتْ هَامَتُه بالنسبة إليه، إن آسْتَدْبرتَه قلتَ : هو مُشْرِفٌ عليها أو آسْتَقْبلتَه قلتَ : هى مُشْرِفةٌ عليه ؛ يَشْتمِلُ علىٰ نَحْرٍ خَصِيب، وصَدْرٍ رَحِيب ؛ فيه نَزْعتا بياضٍ كهِلَالَينِ قُرِنا فى نَسَق، أو نَجْمَىْ ذُؤَابة ظَهَرا فى غَسَق ؛ تُسَرُّ نفسُ الناظر إليها، ويُعْقَد خِنْصر الآختيار فى حُسْنِ الشِّيَاتِ عليها ؛ آتَّصل ذلك بمَنْكب عَتِيد، وسَاعِدٍ شَدِيد، وبُرْثُنٍ شَثْنٍ ومِخْلَبٍ حَدِيد :

ذَوَات أَشَافٍ رُكِّبَتْ فى أَكُفِّها * نَوافِذَ فى صُمِّ الصُّخُورِ نَواشِبِ،

مُعَقَّفَةِ التَّرهِيف عُوجٍ كأنَّها * تَعَقُّربُ أَصْدَاغِ الحِسَانِ الكواعِبِ ! !

قد جَاوَر جُؤْجُؤًا نَهْدا، وقَابَل كَاهِلًا مُمتَدّا ؛ يكاد خَصْرُه ينعقِد آضْطِمارًا، وهِمَّتُه تَتَسَعَّر نارا ؛ بِرجْلَيْنِ تَسْبِق فى الحُضْرِ يدَيْه، وتَقُدُّ بأظْفارِها أُذُنَيْه ؛ وذَنَب كالرِّدَاءِ المُسْبَلِ يجُرُّه آخْتيالًا ومَرَحا، ويتِيهُ عُجْبا وفَرَحا ؛ إن آنْسابَ قلتَ : آنْسابَ أُفْعُوان، أو صَالَ قلتَ : أَسَدُ خَفَّان ؛ أو وَثَب سَبَق الوَهْم فى آنحِطاطه، أو طَلَب أدْرَك البَرْق من نَشَاطه، أو طُلِبَ فاتَ الطَّرْف فى آنْخِراطه ؛ أنْعَمُ مَسًّا من أرْنَب،

وأزهى من ثعلب ، قد كساه الظلامُ خِلعته ، وقبّل الصباحُ طلعتَه ، حازَ من القندس صِقاله وبهجته ، ومن الفنك لِينه ونعمته ، أُلبس رِداءَ الشباب ، ونُزّه عن تزوير الخضاب ، إن اختلس فما تأبّط شرّا ، أو خاتل أزرى بالشنفرى مكرا ، أحدّ نفسا من عمرو بن معدى ، لا يُصلِدُ قادِح زِناد بطشِه ولا يُكدِى ، أنزق من أبى عبّاد ، وأصول من عنترة بن شدّاد ، أفتكُ من الحرثِ بن ظالم ، وأنهر فصدًا للدمِ من حاتِم ، لا يلينُ ولا يشكو إلى ذِى تصميت ، "كأنّه كوكبٌ فى إثرِ عفريت" ، يكادُ عند المخاتلةِ فى انسيابِه ، يفوتُ الخاطرَ أو يخرُجُ من إهابِه ، إنْ قارنَ طيرًا أباحَه منسرًا كمنسرِ الأسد ، أغلبَ فيه شغًا كأنّهُ عِقدُ ثمانين فى العدد ، فيُنشده : ألا عِمْ صباحًا أيها الطللَ البالِى ، فلا يُحَسُّ له بعينٍ ولا أثرٍ سجيسَ الليالى ، فكأنّ قُلوبها رطبًا ويابِسًا لدى وكرِه العُنّابُ والحشفُ البالِى ، اعتاد قنصَ السانِح والبارِح ، فما فات وِردَ المنيّة منه غادٍ ولا رائح ، طويلُ القرا مُدمجُ الأعظم ، له مُخاتلةُ سِرحانٍ وهجمة ضيغم ، أحن من نقبه(؟) ، وأظلم من حيّه ، أطيشُ من فراشه ، وأسبقُ إلى الغايات من عُكّاشه ، أخطفُ من عُقاب ، وأشجع من ساكِن غاب ، أسرق من جُرذٍ وأنوم من فهد ، وألين من عِهنٍ وأخشن من قِدّ ، بأسه قضاءٌ على الطيرِ مُنزل ، وبطشُه ملكٌ بآجالِها مُرسَل .

فلما تأملتُ خَلقه ، وسبرتُ بتجرِبة الفِراسة خُلُقه ، عجّلتُ له جريًا مُستحصِد المِرّةِ لوَثاقه ، وأحكمتُ شدّه فى محلّ خِناقِه ، وقلتُ له : إنّى مُجرّبك سحابة هذا النهار ، "ومَنْ سلكَ الجَددَ أمِنَ من العِثار" ، فِعلَ ذِى خِبرة بمكرِه ، وعلى ثقةٍ من غدرِه ، فإن اللئيم ذو صَولةٍ بعد الخضوع ، وفضحَ التطبّعُ شيمةَ المطبوع ، وكيف الثقة به وإن استقرّ ولم ينبِس ؟ وأنّى الطمأنينةُ إليه وهو الأزرقُ المتلمِّس ؟ .

ثم آنصرفتُ إلى البَلَد لبَعْض شَانى ، والآجْتماع بأخلّائى وأخْدانى ؛ وآستغرقْتُ أديمَ النهار فيما توجَّهْتُ له ، وقطعتُ عُمْر يَوْمٍ ما كان أطْوَلَه ! .

فلما قضيتُ نَهْمَتِي ، من نُجْعَتِي ، وحانت مع وُجُوب الشَّمْس رَجْعَتِي ، ألفيْته عَمَد إلى الوَثاق فقَرَضه ، ووفَّاه بالكَيْل الوَافِي ما آقْتَرَضَه ؛ وصالَ علىٰ شَيْخَةٍ نَستَسْعِدُ بدُعَائِها ، ونَفْزَعُ إن دَهَمَنا همٌّ قبلَ نِداءِ أُولِى البَطْشِ إلى نِدَائِها ؛ ذات خُلُقٍ عظيمٍ ، ومَنطِقٍ رَخِيم ، وقَلْبٍ رَحِيم ، ووَجْهٍ ذِى نُضْرةٍ ونَعِيم ؛ إن قامتْ أحْيَت اللّيلَ بالسَّهَر ، أو قرأتْ رأَيْتَنا حوْلها زُمَرًا بعد زُمَر ؛ إن حادَثْتَها نطقتْ بالسِّحْر مُحَلَّلا ، أو تارَكْتها رأَت الصَّمْتَ علىٰ كَثِيرٍ من النُّطْق مُفَضَّلا ؛ تسرُّ نفسَك فى حَالةِ الصَّخَب ، وتُرِيك وَجْه الرِّضا فى صُورَةِ الغَضَب ؛ فمدَّ إليها يَدَ العُدْوان ، وأطَاعَ بأذاها أمْرَ الشَّيْطان ؛ ولم يَرْقُبْ فيها إلًّا ولا ذِمَّه ، وحَمَلها فَحَمَّلَنا من أذَاها غُمَّــه ؛ ومَزَّق قَشِيبَ أثوابِها ، وحَكَّم مَخَالِبَه الحَدِيدَة فى إهَابِها ، فعَظُم مُصَابُ من حَوَتْ دَارِى بمُصَابِها .

فلما وصلتُ رأيتُها باكِيــةً ذاتَ قَلْبٍ مَرِيض ، وجَنَاحٍ مَهِيض ؛ فسَلَّيْتُها بأنَّ المَصَائبَ تُلَقّاها الأبرار ، وتَرفَّقتُ بها إلىٰ أن رَقَأَتْ تلك الأَدْمُع الغِزَار ، وأوْرَدْتُ : «إنَّ جَرْحَ العَجْمَاءِ جُبَار» ؛ وقلتُ : إيهًا لكَ وآها ، لقد آرْتكَبتَ خُطَّةً ما أَلْيَقَها بعُذْرِك وأولاها ! ! ، "فلقدأنْصَفَ القارَةَ من رَامَاها" ثم آلَيْتُ أَلِيَّةَ بَرَّه ، لأُوطِئَنَّه من الوَثَاق جَمْرَه ، ولأَقْتَصَّنَّ بهذه المَرَّة تلك المَرَّه ؛ وأتيْتُه بسِلْسِلَةٍ تَنْبو أنيابُه عن عَجْمها ، ولا تَثْبُت شَياطِينُ مَكْرِه برَجْمِها ؛ قد أبْدَع قَيْنُها الصَّنْعَة بإحكامِها ، وأتَىٰ بالعَجَب فى نِظامِها ؛ فلِلّه هو ممن تَحَكَّم فيما يَقْطَع الجَلْمَــد ، فجعَلَه من اللَّطافَة يُحَلُّ ويُعْقَد ؛ فاسْتَودَعْتُ عُنُقَه منها أمِينًا لا يَخْفِر وَثِيقَ ذِمَّتِــه ، ولا تتطرَّقُ الاوهامُ إلىٰ تُهَمَتِه ؛ مُسْتحكِمَ القُوّة فى الشَّــدّ ، فتَغيَّظ تَغَيُّظَ الأَسِير على القِدّ ؛ ونَظَر إلىَّ بطَرْف حَدِيد ،

وتذَلُّلٍ بعد بأسٍ شديد، وبَصْبَص بذَنَبِه فقلتُ : "أمكرًا وأنتَ فى الحديد" . فلمّا أَيِسَ من الخلاص ، تلوتُ : ﴿ ولاتَ حِينَ مَنَاص ﴾ .

فلما تمّ ما ذكرتُه ، وأبدأتُه وأعدتُه ، وردتْ رُقعةُ سيّدنا على عَقابِيلِ[1] هذه الوقعة التى وقعتْ، وصدّتْ عن الجواب ومنعت ، وآقتضى بى الحالُ كَتْب هذه الخُرافة وإن تَشَبَّثْتُ بأذيال الجِدّ ، فأخرجتُها مَخْرج الهُزؤ وإن دلّتْ على حَوْزِ قصبات المجد، ليُعلم أن فى الزّوايا خبايا، وإذا صحّ أنّ الأصولَ عليها تَنْبُتُ الشَّجر "فأنا آبنُ جلا وطلّاعُ الثّنايا" .

هذا : وإنْ أبقَى قِراعُ الخُطُوبِ فى حدّى فُلُولا ، "فالفحل يحمى شولَه معقولا"، ولقد تجمّعتِ الخُطوب علىّ من كلّ وِجْهةٍ وأَوْب ، وطرقتِ الرّزايا جَنابِى من كلّ صَوْب، وجريتُ مع الخُطوب كفرسَيِ الرِّهان، وما همَمْتُ بمَقْصِدٍ إلا سَقَط بِى العَشاءُ على سِرْحان، وبكلّ حَبْلٍ يَخْتَنِق الشّقِى ، ولعَمْرُكَ مايدرى آمرؤٌ كيف يتّقى ، والجَلْد يرى عَواقبَ الأُمورِ فيَحْمَدُ عند النّجاح عُقْبى السَّيْر، ﴿ولو كُنتُ أعلمُ الغيبَ لَآستكثرتُ مِنَ ٱلخَيْرِ﴾ .

تجوز المُصيباتُ الفتَى وهو عاجزٌ * ويلعبُ صَرْفُ الدّهرِ بالحازمِ الجَلْدِ!

فسطّرتُ هذه الأحرُفَ إلى سيّدنا ليوافقَ خَبَرى عند أصحابه خُبْرَه، "ومن يشترى سيفى وهذا أثرُه" وآعلم أنها سيُضرب بها فى بابها المَثَل، وقد "أوردَها سعدٌ وسعدٌ مُشْتَمِل" .

---

(١) العقابيل جمع عقبولة وعقبول بالضم . وهى الشدائد .

* * *

وهـذه رسالة فى الشُّكْرِ على نُزُول الغَيْث ، من إنشاء أبى عبـد الله محمد بن أبى الخِصَال الغافِقِى الأَنْدَلُسِىّ ، نقلتُها من خَطّ الشيخ شَمْس الدِّين محمد بن محمد آبن سَيِّد الناس اليَعْمُرِىّ المِصْرِىّ ، وهى :

الحمدُلله الذى لايَكْشِفُ السُّوءَ سواه ، ولايَدْعُو المضْطَرُّ إلا إيَّاه ، نُنْزِلُ فَقْرنا بغِنَاه ، ونَعُوذُ من سُخْطِه بِرِضَاه ، ونَسْتَغْفِره من ذُنُوبنا : ﴿ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا اللهُ﴾ .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلهًـا عَلَا فآقتَـدَر ، وأَوْرَد عِبادَه وأَصْـدَر ، وبَسَط الرِّزْق وقَدَر ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بَشَّر وأنْذَر ، ورَغَّب وحَذَّر ، وغَلَّب البُشْرىٰ على الإقْنَاط ، ودَلَّ على الصِّراط ، وأشارَ إلى السَّاعة بالأَشْراط ، ولم يَأْلُ أمَّتَه فى الذَّبِّ والاحْتِياط ، صلَّى الله عليه وعلى الوُزَراء الخُلَفا ، والبَرَرةِ الأتْقِيا ، والأشِدَّاء الرُّحَما ، والأصْحاب الزُّعَمـا ، صـلاةً تَملأُ ما بين الأرض والسَّما ، وتُوافِيهم فى كُلِّ الأوقات والآنَا ، وتَضَعُ الثَّناءَ مَوْضِعَ النَّثَا .

ولمـا لَقِحَتْ حَرْبُ الجَدْب عن حِيال ، وأشْفَق رَبُّ الصَّرِيحَةِ والعِيَال ، وتَنَادى الجِيرانُ للتَّفَرُّق والزِّيَال ، وتَنَاوحَتْ فى الهُبُوب رِيحُها الجَنُوبُ والشَّمال ، وتَرَاوَحَتْ على القُلُوبِ رَاحَتا اليَمِين والشِّمال ، وأُحْضِرَتْ أنْفُسُ الأغْنِياء الشُّح ، ووَدُّوا أن لا تَنْشَأَ مُزْنَةٌ ولا تَسِـحّ ، وتَوَهَّم خَازِنُ البُرِّ أنَّ صَاعَه يَعْدِل صَاعَ الدُّرّ ، وخَفَّت الأزْوَاد ، وماجت الأرْضُ وآلتقت الرُّواد ، وآنتزعت العازبَ القَصِىّ ، فألْقَت العِصِىّ ، وصَدَرَتْ بحَسَرَاتها ، وقد أَسْلَمَتْ حَزَرَاتِها ، وأَصبحت كلُّ قُنَّةٍ فَدْعَاء ، وهَضْبَةٍ دَرْعاء ، (صفاه وهنا ونقبا وهنا) (؟)(١) ، والصُّبْح فى كل أُفُقٍ قِطْرٌ أو قِطَع ، والأرْضُ كلُّها سَيْفٌ ونِطَع ، والشِّعر يشمر ذَيْلَه للنِّفاق ، ويُضَمِّر خَيْلَه للسِّباق ، وجاء الجِدُّ وراح الهَزْل ،

(١) كذا فى الأصل ، ولم نصل إلى حله مع البحث والتنقيب .

وقُلْنا : هٰذه الشِّدَّة هـذا الأَزْل ؛ وللْمُرجِفِين فى المَدينـة عَجَاجَةٌ ظَنُّوها لا تَلْبَد ، وقِسِىٌّ نحو الغُيُوب تُعْطَف وتُلَبَّد ؛ فما يَسْـقُط السَّائِلُ منهم إلا علىٰ نابٍ يَحْرُق ، وشِهابٍ يَبْرُق ؛ حتَّىٰ إذا عَقَدُوا الأَيْمان ، وأَخَذُوا بزَعْمِهم الأمَان ، وقالُوا : لا يُطْمع فى الغَيْث ، وزُحَلُ فى اللَّيْث ؛ فإذا فارق الأسد ، لكَدَّ ما أفْسَد :

تَخَـرُّصًا وأحَادِيثًا مُلَفَّقَـةً * لَيْسَتْ بنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ !

أَنْشَأَ اللهُ العَنان ، وقال له : كُنْ فكَان ؛ فبَيْنا النُّجومُ دَرَارِيّها الأعلام ، وأغْفَالها التى لا تُحْمد عندهم ولا تُلَام ، قد ٱخْتلط مَرْعاها بالهَمَل ، ولم تَدْرِ السـدّة بالحَمَل ؛ ولا علم الجَدْىُ بالرِّئْبال ، ولا أحَسَّ الثَّوْر بالرَّامى ذِى الشِّمال ؛ إذ غَشِيَتْها ظُلَلُ الغَمام ، وحَجَبَتْها أَسْتارٌ كأَجْنِحَةِ الحَمَام ، وأَخَذَتْ عليها فى الطُّرُوق ، مَصادِرَ الغُرُوب والشُّرُوق ؛ فما منها إلا مُقَنَّع بنَصِيف ، أو مُزَمَّلٌ فى نِجادٍ خَصِيف ؛ لم تُتْرَك له عَيْنٌ تَطْرِف ، ولا ثَقْبَةٌ يَطْلُعُ منها أو يُشْرِف ؛ فباتَتْ بين دُوْرٍ مُتدارِكَة السُّـقُوط ، ودُرَرٍ مُتَناثِرَة السُّموط ، ودِيَمٍ مُنْحَلَّة الخُيُوط ؛ وجُيُوشٍ مَنْصورةِ الأعلام ، ثَابِتَةِ الأَقْدام ؛ وكَتَائِبَ صَادِقَةِ الهُجومِ ، صَائِبَـةِ الرُّجُوم ، تَطْلُبُ المَحَلَ ما بين التُّخُوم والنُّجوم ؛ وما زالَتْ ترميه بأحجاره ، وتَحْتَرِشُه فى أَجْحَارِه ، ؛ وتَغْزُوه فى عُقْر دارِه ، حَتَّىٰ عَفَّتْ علىٰ آثارِه ، وأَخَذَتْ للحَزْنِ والسَّهْل بثَارِه .

فيا أيُّها المُؤْمِنُ بالكَوَاكِب ، أُنْظُر إلى الدِّيَم السَّوَاكِب ؛ وٱسْبَح فى لُجَج سُيُولها ، وارتَع فى مَمَرّ ذُيولها ؛ وسَبِّح بٱسْمِ رَبِّك العظيم الذى قَذَف بالحَقِّ على الباطل ، وأعاد الحَلْىَ إلى العَاطِل ؛ فبُرُودُ الظواهر مُخْضَرّه ، وثُغُورُ الأزاهر مُفْتَرَّه ؛ ومَسَرَّات النُّفُوس مُنْتَشِرَه ، والدُّنيا ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِره ؛ وأَرْواحُ الأَدْواحِ حامِلَه ، وأَعْطَافُ الأغصان مَائِله ؛ وأَوْرَاق الأَوْرَاق تُفَصَّل ، وأَجْنِحَة الظِّلال تُرَاش وتُوصَـل ؛ وخُطَباءُ الطَّير

تَرْوِى وتُخْبِر، وشُيوخُ المحَارِبِ تُهَلِّل وتُكبِّر، وإنْ من شَىْءٍ إلا يَخْضَع لِجَبَرُوتِه، ويَشْهَد لمَلَكُوتِه، وتَلُوحُ الحِكْمَة ما بين مَنْطِقه وسُكُوتِه .

فأما الخَطَاطِيفُ فقد سَبَق هَا بِيها، ونَطَق شَادِيها، وتَراجَعَ شُكْرًا لله نَادِيها؛ فعُشٌّ يُرَمّ، ولَبِنَةٌ إلى أخرىٰ تُزَمّ، وشَعَثٌ يُلَمّ، وبَدْأَةٌ تُوَفَّىٰ وتُتَمّ؛ وكأنّها حَنَّتْ نَحْو المَشَاهِد، وسابَقَتِ اللَّقَالِقَ إلى المَعَاهِد؛ فظَلَّت اللَّقَالِقُ بعدها نُزَّاعا، وسَقَطَتْ علىٰ آطَامِها أَوْزَاعا، وأَجَدَّتْ إقطاعا، وأجَابَتْ من الخِصْبِ أمرًا مُطَاعا؛ وحَازَتْ من الحَدَائِق والبَسَاتِين إقْطَاعا؛ وسَيُغَرِّد فى رَوْضَتِه المُكَّاء، ويُضْحِكُه هذا الوَابِلُ البَكَّاء، وتَرُومه فلا تَلْحَظُه ذُكَاء؛ تَحْتَه من الأفنان النَّاعِمَة قِلَاص، وأحْصَنَتْه من الخضراء التُّبَّعِيَّةِ دِلَاص؛ فالوَيْل لأَهْلِ الأقْوالِ المُنْكَرات، والنَّيْلُ لأهلِ الثَّنَاء والخَيْرات؛ والمَرْعَىٰ والسَّعْدان، وأرْضٌ بكَوَاكِبِ النَّوْرِ تَزْدَان، وبِقاعٌ تَدِينُ الغَيْثَ كما تُدَان؛ أَذْكَرَها فذَكَرَت، وسَكِرَتْ من أَخْلاقه فشَكَرَت، وعَرَّفَها ما أَنْكَرَتْ؛ كأنّما أعْدَاؤُها من أم خارجة نسب أو ملح، قالت لها : خِطْبٌ فقال : نِكْح، فَمَثَلَتِ الأزهارُ بسَبِيلِه، ونَبَتَتْ فى مَسِيلِه، وثَبَتَتْ كاللَّحْظَة فى شَطَّىْ نَخِيلِه .

فمِن نَرْجِسٍ تَرْنُو الرَّوَانِى بأحْدَاقِه، وتَسْتَعِير الشَّمْس بَهْجَة إشْراقِه؛ ويَوَدُّ المِسْكُ نَفْحَةَ آنْتِشاقِه، يَحْسُد السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِه، ويَتَمَنَّاه الحَمام بَدَلًا من أطْواقِه؛ كُحْلَةَ نَدًى تَتَرقْرَق، أو غُصْنِ بَانٍ لا يزال يُورِق .

ومن عَرَارٍ تَغَنَّىٰ مُطَالِعُه علىٰ عَرَار، وكَلِفَتْ به السَّوَارِى والغَوَادِى كَلَفَ عَمْرِو بعِرَار؛ فجاء كسَوَالِفِ الغِيد تَرِفّ، وكَوَمِيضِ الثُّغُور يَعْبَقُ ويَشِفّ .

ومن أُقْحُوانٍ جَرَىٰ على الثَّنايا الغُرّ، وسُبِكَ من نَاصِعِ الدُّرّ؛ يُقَبِّلُه النَّسِيم فَيَعْبَق، ويصبح الجَوُّ بما [1] ويَغْبِق، ويَسْتَقْبِلُه ناظِرُ الشمس فيُشْرِق .

---

(١) بياض بالأصل .

ومن بَنَفْسَجٍ كأطْوَاق الوُرْق، أو كاليَوَاقيتِ الزُّرْق ؛ تَشَرَّفَ بأبْدَعِ الخلق، وتألَّف من الغَسَقِ والخَلَق ؛ تلْحَظُه من بين أوراقه نَوَاظِرُ دُعْجٌ بالأجفانِ وُقِيتْ، وبدُمُوع الكُحْلِ سُقِيَتْ ؛ نَسِيمُه ألْيَنُ من الحَرِير، ونَفَسُه أعْطَرُ من العَبِير؛ يُفَاخِر به كَانُونُ البَرد، مُفَاخرة نَيْسَان بالوَرْد .

وكلّ رَبْوَةٍ قد أخَذَتْ زُخْرُفَها وآزَّيَّنَتْ، وبيَّنَتْ من آياتِ الله ما بيَّنَتْ ؛ كما تَتَوَّجَ في إيوَانه كِسْرىٰ، وآستَقْبلَتْه وُفودُه تَتْرىٰ، وآنقَلَبَتْ عن حُسْنِ نَادِيه النّواظِرُ حَسْرىٰ، وكلِّ تَلْعَةٍ مَذَانِبُ نُصُولها تُسَلُّ ومَضَارِبُ فُصُولِها لاتُثْنىٰ ؛ وأرَاقِمُ تَنْساب، ولُجَيْنُ يُذْأب ويُذَاب ؛ علىٰ حَافَاتِها نُجُومٌ من النَّوْرِ مُشْتَبِكَه ، وجُيُوبٌ عن لَبَّاتِ الغَوَانِي مُنْتَهَكَه ؛ فلو آفْتُتِحَت الظُّهورُ والبُطُون ، ونَطَقَتِ السُّهُول والحُزُون ، لقالتْ : ﴿ قُتِلَ الخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ .

فشُكْرًا لرَبِّنا شُكْرا ، وسُحْقًا للذين بدَّلُوا نِعْمَةَ الله كُفْرا ؛ اللّهُمَّ بارِئَ النَّسَم ، ودَارِئَ القَسَم ، ونَاشِرَ الرَّحْمة والنِّعَم ، ومُنْزِلَ الدِّيَم ، وبَاعِثَ الرِّمَم ، ومُحْيِيَ الأُمَم ؛ فإنّا نُؤمن بقَدَرِك : خَيْرِه وشَرِّه ، ونطوى غَيْشَكَ علىٰ غِرِّه ، ولا نَتَعرَّضُ لنَشْره حتّى تَأْذَنَ بنَشْرِه؛ ونَعْتَقِد رُبُوبِيَّتَكَ كلَّ الاَعتقاد ، ونَبْرأُ إليك من أهْلِ المُرُوق والإلْحاد ؛ ونَسْتَزِيدُكَ من مصالح العِبَاد ومَنَافِع البِلاد ؛ رِزْقُنا لَدَيْك ، ونَوَاصِينا بيَدَيْك ، وتَوكَّلُنا عَلَيْك ، وتَوَجُّهُنا إليك ؛ ولا نُشْرِك بك فى غَيْبِك أحدا ، ولا يَجِدُ عَبْدٌ من دُونك مُلْتَحَدا ؛ تبارَكْتَ وتعالَيْت ، وأمَتَّ الحَيَّ وأحْيَيْتَ المَيْتَ ؛ لا هَادِىَ لمن أضْلَلْتَ ولا مُضِلَّ لمن هَدَيْت، فاكْفِنا فِيمَنْ كَفَيْت ، وتَوَلَّنا فِيمَنْ تَوَلَّيْت ، إنَّك تَقْضِى ولا يُقْضىٰ عَلَيْك ، وتَقْرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ الآية .

* * *

وهذه نُسْخة رسالة ، كَتَب بها الصاحِبُ فَخْر الدِّين عبـدُ الرَّحمٰن بن مُكَانِس ، تَغَمَّده الله برَحْمَتِه ، إلى الشَّيْخ بَدْرِ الدين البَشْتكى عند ما زَادَ النِّيلُ الزيادة المُفْرِطة ، سنة أربع وثمـانين وسبعمائة ، وهى :

ربَّنا ٱجْعَلْنا فى هذا الطُّوفَانِ من الآمِنِين ، وسَلامٌ علىٰ نُوحٍ فى العَالَمِين .

ما تأْخِير مَوْلانا بَحْرِ العِلْمِ وشَيْخه عن رُؤْيَةِ هٰذا المـا ؟ ، وما قُعادُه عن زُرْقَةِ هـذا النِّيل الذى جُعِل الناسُ فيه بالتَّوْبَةِ كالمَلَائِكة لمَّـا غدا هو أيضًا كالسَّما ؟ ، وكَيْف لم يَرَ هذا الطُّوفَان الذى ٱسْتَحال للزِّيادة فما أشْبَه زِيادَتَه بالظَّما ، فهى كَزِيادَةِ الأصَابِـع الدَّالَّة فى الكَفِّ علىٰ نَقْصِه ، وأولىٰ أن نُنْشِد بَيْتَ المَثَلِ بنَصِّه :

طَفَحَ السُّرورُ عَلَىَّ حتَّىٰ إنَّه * من عُظْمِ ماقَدْ سَرَّنِى أبْكَانِى !

فإنه قَارَب أن يَمْتَزِجَ بنَهْرِ المَجَرَّة بل وَصَل وٱمْتَزج ، وأرانَا من عَجَائِبه ما حَقَّق أنه المَعْنِيّ [بقَوْلِ القائل] : "حَدِّثْ عن البَحْرِ ولا حَرَج" ، وتَجَاوَزَ فى عَشْرِ الثَّلاثين الحَدّ ، وأَرانا بالمعاينـة فى كلِّ ساحِلٍ منه ما سَمِعْناه عن الجَزْرِ والمَدّ ، وأساء فى دَفْعه فلم يَدْفَع بالتى هى أحْسَن ، وأقْعَدَ المَـاشِىَ عن التَّسَبُّب والحَرَكَة حَتَّى شَكَا إلى الله فى الحَالَيْنِ جَوْرَ الزَّمَن ، وسَـقَى الناسَ من ماء حَيَاتِه المعهودة كما شَرِبُوا من المَوْتِ أصْعَبَ كَاس ، وسُـئِلَ ٱبْنُ أبى الرَّدَّادِ عن قياس الزيادة فقـال : زَادَ بلا قِيَاس ، ٱمْتَلأَ اليَبَاب ، وهَالَ العُبَاب ، وضَاعَ العَدُّ وٱخْتَلط الحِسَاب ، كَالَ فطَفَّف ، وزَارَ فـا خَفَّف ، غَسَل الجُسُور ، وأعَادَ الإمْلاَقَ بعَزْمه إلى البُحُور ، وبَرَع فكان أولىٰ بقَوْلِ الحِلِّيِّ من ٱبن مَنْصُور :

بمَكَارِمٍ تَذَرُ السَّبَاسِبَ أبْحُرًا * وعَزائِمٍ تَذَرُ البِحارَ سَبَاسِبا !

جمع فى صُعُوده إلى الجبَال بين الحَادِى والمَلَّاح، ودَخَل النَّاس إلىٰ أَسْواقِ مِصْر وخُصُوصا سُوقُ الرَّقيقِ علىٰ كلِّ جَارِيةٍ ذَاتِ أَلْوَاحِ ؛ وغَدا التَّيَّار يَنْسَابُ فى كلِّ يَمٍّ كالأَيْم، وأصْبَحَتْ هِضَابُ المَوْجِ فى سَماءِ البَحْرِ وكأنَّما هى قِطَعُ الغَيْمِ؛ وآسْتَحالتِ الأفلاكُ فكُلُّ بُرْجٍ مَائِى ، وتَغيَّرتِ الألوانُ فكلُّ ما فى الأرْض سَمَائِى ؛ وحكىٰ ماؤُه حُكَاكَةَ الصَّنْدَل لمَّا مسَّه شَيْطانُ الرِّيحِ فتَخَبَّط ، وزادَ فآسْتَحالَ نَفْعُه فتحقَّق ما يُنْسَب إلى الصَّنْدَلِ من الآستحالة إذا أَفْرَط ؛ فلقد حَكَتْ أمْواجُه ودَوَائرُه الأعْكَان والسُّرر، وغَدا كلُّ حَىٍّ مَيِّتًا من زيادته لا كما قَالَ المَعَرِّى : حَيًّا مِنْ بَنِى مَطر[1]؛ وتحالىٰ إلىٰ أن أَقْرَفَ اللَّيْمونَ الأَخْضَر، وآحْمَرَّتْ عَيْنُه على النـاس فأذاقَهُم المَوْتَ الأحْمَر؛ ولقد صَعُبَ سُلُوكه وكَيْف لا؟ وهو البَحْر المَدِيد، وأَصْبَح كلُّ جَدْوَلٍ منه جَعْفَرًا ويَزِيد :

فَلَسْتُ أَرَىٰ إلا إفَاضَةَ شَاخِصٍ * إليــه بعَيْنٍ أو مُشِيرًا بأُصْبُعِ!

فلكم قال الهَرَم للسَّارِينَ ياسَارِيةُ الجبَلَ، وأنْشَد وقَدْ شَمَّر سَاقَه للخَوْض : أنا الغَرِيقُ فَمَا خَوْفِى منَ البَلَل؟ وكَمْ قال أبو الهَوْل : لا هَوْلَ إلا هَوْلُ هذا البَحْر، وقال المسافرون : ما رَأَيْنا مثل هذا النِّيل من هُنا إلىٰ ماوَرَاءَ النَّهر، وقال المُؤَرِّخون : لم نَنْقُلْ كهٰذه الزيادة من عهد النَّهْرَوَانِ و إلىٰ هٰـذا الدَّهْر .

وكَيْف يَسُوغُ لمولانا فى هذه الأيام غَيْرُ آرتشاف فَمِ الخُمُور؟ ولِمَ لا يُغَيِّر مَذْهَبَه ويُطَيِّب علىٰ هـذه الخُلُج بالسَّلْسَلِ والدَّوْر ؟ ؛ وكَيْفَ وكَيْف؟!! ، ولِمَ لا يَتَّخِذُ مولانا حَمْوَ النِّيـلِ و بَرْدَه رِحْلَة الشِّتَاءِ والصَّيف؟ ؛ وهو فى المبادرة إلىٰ عُلُوِّ المعالى وغُلُوِّ المعانى، وآنتهاز الفُرَص فى بَلَاغ الآمال و بُلُوغ الأمَانِى :

---

(١) يشير الى بيت المعرى فى قوله :

وإن بخلت عن الأحياءِ كلهم * فآسـقِ المواطر حَيًّا من بنى مَطَر

آنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠) .

عَجَبٌ من عَجَائِبِ البَرِّ والبَحْـ * ـرِ ونَوْعٌ فَرْدٌ وشَكْلٌ غَرِيبُ!

نَعَم:

مَنْ قَاسَكُمْ بِسِوَاكُمُ * قَاسَ البِحَارَ إلى الثِّمَادِ!

أَعْلَى الأَنَامِ فى العُلُومِ قَدْرا، و إمام النُّحَاةِ من عَهْد سيبَوَيْهِ وهَلُمَّ جرًّا، وشَيخ العَرُوضيين على الحقيقة بَرًّا وبَحْرا:

وشَيْخ سَيْحُونَ والنِّيـ * ـلِ والفُرَاتِ وَدِجْلَهْ،

وشَيْخ جَيْحُونَ أيضا، * وشَيْخ نَهْرِ الأُبُلَّهْ!

اى وَاللهِ:

أقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَسَىٰ: * الطَّبْلُ لا يُضْرَبُ تَحْتَ الكِسَا!

لا مَخْبَأَ لعِطْرٍ بعد عَرُوس، أنتَ أعْوَمُ فى بُحُور الشِّعْر من ٱبن قَادُوس، وأصْلَحُ إذا حَدَّثتَ من صَالِح بن عَبْد القُدُّوس، وأَشْهَىٰ إذا هَزَلْتَ من ٱبنِ حَجَّاجٍ إلىٰ النُّفُوس:

ولَوْ أنَّ بَحْرَ النِّيلِ جَارَاكَ ما زخَا * وحَقِّكَ ما ٱسْتَحْلَىٰ له الناسُ زَائِدا!

نَعُود إلىٰ ما كُنَّا فيهِ من وَصْف النيل، وذِكْر حاله الذى أصْبَح كما قال ٱبن عبدالظَّاهِر: كَوَجْهٍ جَمِيل؛: فلو رَآه مولانا وقد هَجَم علىٰ مِصْر بجَاس خِلَال الدِّيار، ودَخَل إلى المَعْشُوق فتركه كالعَاشِقِ المَهْجور لم يُرَ منه غَيْرُ الآثَار؛ لبَكَىٰ بعَيْنَىْ عُرْوَه، وأَوَىٰ من الرَّصَد وقد تَفَجَّرت من صَلْدِه عيون النَّزِّ إلىٰ رَبْوه؛ أورَنَا لرَوْض الجَزِيرَة وقد خَلَع حِلَاه، وتَخَاذَلَتْ عَرَائِسُ أشجاره على الحالين بالمياه. والنَّخيل وقد قُتِلَتْ مُلَّاكُها ـحِينَ فَتَكَـ بالأَسَف، وجَفَّ أحْمَرُ ثَمَرِها وأصْفَرُه فأرانا العُنَّاب والحَشَف. والجِيزَةِ وقد قلتُ لها: تَبًّا لجَارِكِ النِّيلِ إذ أفْسَدَكِ صُورةً ومَعْنى، وَسَكن مَغَانِيكِ فَسَقَىٰ

دِيَارَكَ بغير ٱسْتِئْنا . وقُراهَا الغَرْبيَّة وقد قلتُ لها حِينَ أَوَتْ إلىٰ أعَالِي الأرض هَرَباً من المِيـاه ، وٱعْتَصَمَتْ بالجَبَل الغَرْبيِّ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ . وكُلِّ سَفِينَةٍ وقد عَلَتْ علىٰ وَجْه المـاء ، وٱرْتَقَتْ لٱرتقاء البَحْـر إلىٰ أن ٱختلطتْ بالسَّماء ؛ وقد قالتْ لها أترابُها عند الفِرَاق : إلَّا تَرْجِعى ، وقُلْنا لها نحن علىٰ سَبِيل التَّفاؤُل : ياسَمَاءُ أَقْلِعِى ؛ والنِّيل تَبْدُو عليه القُلُوع خَافِيةً لبُعْدِها فكَأَنَّها الخِيامُ بذى طُلُوح[1] ، وجَارَ على الناس بطُغْيانِه فكأَنَّمـا هو أخُو فِرعونِ مِصْرَ أو ٱبنُ طُوفَانِ نُوح .

فلقد طَارَ النَّسر مَبْلُول الجَنَاح ، ودَنَا نَهْر المَجَرَّةِ من السَّكَارىٰ بالشَّخَاتيت إلىٰ أن كاد يَدْفَعُه من قام بالرَّاح . ونَرْجِس البَسَاتِينِ وقد ٱبْيضَّت عيناه من الحُزْنِ فهو كَظِيم ، وفَارَقَ أحْبابَه من الرَّيَاحِينِ ولم يَبْقَ له غَيْرَ القَلَانِس صَدِيقٌ وغَيْرَ المـاءِ حَمِيم . والوَرْدِ وقد قِيل له : مالَك من آس ، وغُصْنِ البَانِ وقد قيل له : طُوبىٰ لمن عَانَقَك ولا بَاس . والأسماكَ وقد أَلْجَمهم العَرَق ، والقُلْقَاس وقد شَـكا شَكْوىٰ ٱبن قلاقس وٱبنِه من الغَرَق . والقَصَب بالجيزَة وقد شَرِب ماءَ النَّزِّ فهو بِئْسَ الشَّراب ، والقَصَب ببُولَاق لم يُنْجِـه من مُشَاهدة الغَرَقِ إلا كونُه غَاب ، والفَارِسيّ بالبَسَاتِين وقد تَرَجَّل ووَقَع فأرَانَا كَيْف تَكْسِير الأقْصَاب ؛ وقيل للآسِ : عالج جِيرَانَك بالغيطَانِ فالنَّاس بالنَّاس ، وبَادِرْ إلىٰ جَبْر ما كُسِر فالحاجَةُ تَدْعو المَكْسورَ فى الحالَين إلى الآس .

هـذا وأنا مُقيمٌ بالروضة إذْ زَهَتْ علىٰ سائر الرِّياض ، وسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبائِها من أكثر هذه الأعْرَاض ؛ وإن ٱعتَلَّتْ بالٱسْتِسْقاءِ فهو عين الصِّحَّة كما يُنْسَب السَّقَم إلى العُيُون المِرَاض ، أو كما قَالَ المملوك قديمـا من قَصِيدَة فى بعض الأغْرَاض :

وقَائِل : فى لِحَاظِ الغِيدِ باقِيَـــةٌ * من السَّقَامِ وما ضَمَّتْ خُصُورُهُمُ ،

---

(١) ذو طلوح موضع .

وفى النَّسيم فقلتُ : الأمْرُ مُشْتَبِهٌ * عَلَيك فَٱلْزَم فأنتَ الحاذِقُ الفَهِمُ.
قلتُ الصَّحِيح ولٰكِنِّى بمُوجَبِـه * أقولُ : تلك دَوَاةٌ بُرْؤُها السَّقَمُ!

قد أحاط بها النِّيلُ إحاطةَ المَرَاشِفِ باللَّمَا ، فأشْرَقَتْ ضِـياءً بين زُرْقَته فكَأَنَّها البَدْر فى كَبِد السَّما :

بصَحْنِ خَدٍّ لم يَغِض ماؤُه * ولم تَخُضْـهُ أعْيُنُ النَّـاسِ!

مُتَعَطِّش مع هذا الطُّوفان لرَيَّاك ، مُتَشَوِّف وإن كنتُ مُغازِلَ النُّجُوم الأرْضية والسَّمائيَّة يا بَدْرُ لرُؤْيَاك ؛ لٰكِنِّى يُسليني أنى ما نَظَرتُ إلى النِّيلِ إلا رَأَيْتُك من سائر الجهات، ولا لَمحْتُ بيُوتَ البَحْرِ بل البُحُورِ إلا رَأَيْتُك عِمَارةَ الأبيات :

ولا هَمَمْتُ بشُرْبِ المـاء من عَطَشٍ * إلا رأيتُ خَيـالًا مِنْكَ فى المَـاءِ!

ولٰكِنْ للعِيَـانِ لَطِيفُ مَعْـنًى * له طَلَبَ المُشَاهَــدَةَ الكَلِيمُ!

فهَلُمَّ إلى التَّمتُّع برُؤْيةِ هذا النِّيل الذى لم تَرَمْثلَه العُيون، والنَّظَرِ إلىٰ سائرِ المَخْلُوقات لعُمُومه وكُلٌّ فى فَلَك يَسْـبَحُون؛ فليس يَطِيبُ للتِّلميذ رُؤْية هـذا البَحْر بغَيْرِ رُؤْيةِ شَيْخه، ولا يَلَذُّ له التَّملِّى بمشاهدة هذا الفُلْكِ ما لم يُشْرِقْ وَجْهه وذِهْنُه ببَدْرِه ومَرِّيخه؛ فمـا هذا الإهمال ؟ ، ولَيْتَ شِـعْرِى يا أَدِيبُ تَشَاغُلُك بأَىّ الأعمال؟ ، أَبا لكِتَابة؟ فلْتَكُن فى هذا النِّيل الذى هو كالطَّلْحِيَّة بغير مثال، أو بالنَّثْر والنَّظْمِ؟ ففى هذا البَحْر الذى منـه تُؤْخَذ الدُّرر وفيه تُضْرَبُ الأمثال؛ ولَقَد وَلَّد فيه الفِكْرُ للمَمْلُوك ، كيفَ تَصَادُم الأكْفَاءِ وقَهْرُ المُلُوك للْمُلوك ؛ فإنه لم يُسْمع فى مَمْلَكة الإسلام ، ولا وُرِّخَ فى عام من الأعْوام؛ بمِثْلِ هذه الزيادة الزائده، والجَرْى علىٰ خَرْقِ العادة التى لا جَعَلَ

الله بها صِلَةً ولا منها عائده ؛ وغايةُ ما وَصل إليه فى الماضى من عِشرينَ : فَضيَّق بسَعَتِه المسَالِكَ ، وأوْجَبَ المهالك ، وتَطرّق تَطرُّقَ أهْلِ الجرائم والفَسَاد فقطَع الطَّريقَ على السَّالك ، وأحْوَجَ مَرَّاتٍ إلى الاستضحاء لا أحْوَجَ اللهُ لذٰلك .

ودَليلُ ما شَمل به من الفساد ، وما عَامَل به البِلادَ وأهْلَ البلاد ، ما قاله أُدباءُ كلِّ عَصْرٍ ، عند ما أبيح للمسافِر فى مَدِّ عَرْضِه القَصْر .

فمن ذلك ما قاله مولانا القَاضِى الفَاضِل ، وما هو رحمه الله إلا بَحْرٌ طَفَح دُرُّه ، فللهِ دَرُّه ، من رسالةٍ :

وُرُودُ مِثالِه يتَضَمَّن نَبَأَ سُطورِه العظيمةِ أَمْرَ طوفانِ النِّيلِ التى كأنَّها جَدَاوِلُه ، وأنَّه جاد لمُؤَمِّلِه بنَفْسِه التى ليس فى يَدِه غيرُها فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُه ... .

ومنها : ولَمْ يَزَلْ يجرى لمُسْتَقَرٍّ له ، ويَضُمُّه شَيئًا فشَيئًا إلىٰ أن أدْرَكَ آخِرُه أوّلَه ؛ حتى إذا تَكامل سُمُوُّ أمْواجِه حالًا علىٰ حَال ، وتَنَوّر أقاصِى الأرْض من بِنْيَةِ المِقْياسِ فأدناها النَّظَرُ العَال ؛ فلم يَتْرُكْ بُقْعَةً كانت من قبلُ فارِغَةً إلا وكلُّها عند نَظَرِه مَاق ، ولَيْتَ هواه المُعْتَلّ كان عَدْلًا فحَمَّلَ كلَّ غَديرٍ ما أطاق ؛ وطَالَمَا جرىٰ بالصَّفا ولكن كدّر صَفَاه بهذا المَسْعىٰ ، والمَرْجُوّ من الله أن يَتْلُوَ ما أفسده هٰذَا المَاءُ ما يُصْلِحُه خُرُوجُ المَرْعىٰ .

وما قاله القاضى مُحْيِي الدِّين بن عبد الظاهر ، سَقَى اللهُ تلك الألْفَاظَ النِّيلِيَّةَ صَوْبَ المَاطِر :

ويُنْهِى إليه أمْرَ النِّيلِ الذى سَرَّ فى أوائله الأنْفُسَ بأنْفَسِ بُشْرىٰ ، ويَقُصُّ عليه نَبَأَه العظيمَ الذى ما يُرِينا من آية إلا هى أكْبَرُ من الأخْرىٰ ، ويَصفُ له ما سَاقه إلى الأرض من كلِّ طَليعَةٍ إذا تَنَفَّس اللَّيْلُ تَفرَّق صُبْحُها وتَفَرّىٰ ؛ فهو وإن كان

خصَّ اللهُ البلاد المصرية بوفوره ووَفَائه، وأغنىٰ به قُطْرَها عن القَطْرِ فلم يحتج إلىٰ مَدِّ كَافه وفَائه، ونَزَّهَه عن مِنَّةِ الغَمام الذى هو إن جاد فلا بُدَّ من شَهْقَة رعده ودَفْعَـة بُكَائه؛ فقد وَطِئَ بِلادَها بعَسْكَرِه العَجَّاج، وزَاحَم ساحَتَها بأفْواجِ الأَمْواج؛ فعَمِل فيها بذِرَاعِه، ودار عليها بخِنَاقِه وتَخَلَّلها بنِزَاعِه، وحَمَلَها علىٰ سَوَارِى الصَّوَارِى تحت قُلُوعه وما هى إلا عُمُــدُ قِلَاعِه؛ وزار زَرَابِىَّ الدُّورِ المَبْثُوثَه، وجَاسَ خِلَال الحَنَايا كأنَّ له فيها خَبَايا مَوْرُوثَه؛ ومَرَقَ كالسَّهْم من قَنَاطِرِه المَنْكُوسه، وعلا زَبَدُ حَرَكَتِه ولولاه ظَهَرتْ فى بَاطِنِه من الأقمــارِ والنُّجومِ أشِعَّتُها المَعْكُوسَــه؛ وحمل علىٰ بُرْكَة الفيلِ حَمْلَ الأسُــودِ على الأبطال، وجَعَــل المَجْنُونة من تيَّاره المُنْحَدِرِ فى السَّلاسِل والأغلال؛ والمَرْجُوُّ من الله أن يُزِيلَ أذَاه، ويُعيدَ علينا منه ماعَهِدْناه؛ فانَّ له الإيابَ الأكْبَر، وفيه العَجَائِبُ والعِبَر؛ فما وُجُودُ الوَفَاء، عند عَدَمِ الصفاء، وبُلُوغ الهَرَم، إذا ٱحْتَدَمَ وٱضطَّرم؛ وأمن كلّ فَرِيق، إذا قَطَع الطَّرِيق؛ وفَرِحَ قُطَّان الأوطان، إذا كُسر وهو كما يقال: سُلْطَان؛ إلىٰ غير ذلك من خَصَائِصه، وبَرَاءَته مع الزيادة من نَقَائِصه؛ طَالَمَا فتح أبوابَ الرَّحْمــة بتَعْلِيقِه، وفَازَ كلُّ أحدٍ عنــد رُؤْية مائه المُعَصْفَر بتَخْلِيقه.

وما قاله المولى زينُ الدِّين عُمَرُ الصَّــفَدِى تَغَمَّده الله بعَفْوه، وجَمع له بين حلاوة الكَوْثَر وصَفْوِه:

وأما النِّيلُ فقد أخَذ الدَّارَ والسُّكَّان، وقال ٱبن الخَامل كما قال ٱبْنُ النَّبِيه: الأمانَ الأمان، وبَكَى الناسُ عنــد ما رَأَوْه مُقْبِلًا عليهم بالطُّوفَان؛ وٱنْسابَتْ أَرَاقِمُ غُدْرانه فى الإقليم فٱبْتَلعَتْ غُدْرانَ أرَاقِمــه، ومَحَا سَــيْلُه المتدفِّقُ مَعالِمَه المَجْهُولة فٱســتعمل الأقلام فى إثْباتِ مَعَالِمه؛ وأحَاطَ بالقُرىٰ كالمُحَاصِر فضَرَبَ بينها وبين السماء بسُور، وأخَذَ الطريقَ على السَّالِكِينَ فلا مَرْكَبَ إلا المَرَاكِبُ ولا عَاصِمَ إلا البُحُور.

وما قاله السديد ابنُ كاتب المَرْج ، نُصْرَةُ الأقباط ، وأحَدُ عُمُدِ الشِّعْر المشهورة بالفُسْطاط ، فما أطْيَبَ مَدائحَه النَّبويَّة التى جعلها سُورًا بينه وبين النار ، وما أعْجَبَ رِثاءَه : جعل اللهُ قبْرَه بالرحمة كالرَّوض غِبَّ القِطَار ! ! ! :

يا نيلُ يا مَلِكَ الأنْهارِ قد شَرِبَتْ * مِنْكَ البرايا شَرَابًا طَيِّبًا وغِذَا ،

وقَدْ دخلتَ القُرَىٰ تَبْغِى مَنافِعَها * فعمَّها بعد فَرْطِ النَّفعِ منك أَذَىٰ .

فقَالَ : يُذْكَرُ عنِّى أنِّى مَلِكٌ * وتَعْتَدِى نَاسِيًا : إنَّ المُلُوكَ إذَا !

وما قاله شيخُنا الشَّيْخ جمالُ الدين بن نَبَاتة الذى أطاعتْه من الآداب جوانحُ نَظْمِها ونَثْرِها ، وسُخِّرتْ له بُحُور الشِّعر فقالتْ له الآداب : آخْتَرْ من دُرِّها ، فسُبحانَ من يَسَّر له مُمْتنِع الكلام وهَوَّنَه ، وجعله من الذين يَسْتمِعُون القَوْلَ فيتَّبِعُونَ أحْسَنَه ، فما أشَفَّ دَقيقَ فِكْره الجَليل ، وما أكْثَر ما يَضْحَك زَهْرُ تَقاطِيعه علىٰ زَهْرِ مُقَطَّعاتِ النِّيل ، فما كان إلا مَخْصوصًا فى الأدب بحور الهِبَات ، وكلامُه فى العُذُوبة والبلاغة يُزْرِى بالفُرَات وآبنِ الفُرَات ، وإنْ قيل أىُّ أصْدقِ كَلِمَةٍ قالها شاعِرٌ بعد لَبِيد ، يقال قولُ آبن نَبَاتة .

فلا عَجَبٌ للَفْظِى حينَ يَحْلُو * فهذا القَطْرُ من ذَاكَ النَّبَاتِ ! :

وأما النِّيل فقد آستوىٰ على الأرض فثَبَتت فيها قَدَمُه ، وآمتدَّ نَصْلُ تَيَّارِه كالسَّيْفِ الصَّقيل فقتَل الإقليمَ وهذا الاحْمِرارُ إنَّما هو دَمُه :

حُمْرتُها من دِمَاءِ ما قتَلَتْ * والدَّمُ فى النَّصْل شاهدٌ عَجَبُ !

فلم يترك وَعْدًا بل وعيدًا إلا وَفَّاه ، ولا وَهْدًا بل جَبَلًا إلا أخْفَاه ، أقبل كالأسَدِ الهَصُور إذا آحتدَّ وآضطَّرم ، وجاء من سِنِّ الجَنَادل فتحدّر وعَلا حتى بلغ أقْصَى الهَرَم ، وعامَلَ البلادَ بالخُيَلاءِ وكَيْفَ لا ؟ وهو سُلْطانٌ جائرٌ أُيِّدَ بالنَّصر ، قائلًا :

إن كُنْتُ بُليتُ بالاحْتِراق فى أرْضِكُم فأنا أفِيضُ بأن أرْمِىَ من بُرُوقِ تيّارى بشررٍ كالقَصْر .

هذا وطالمَا قابَلنا قبلها بوَجْهٍ جَميل، وسَمِعْنا عنه كلَّ خبرٍ خَيْرٍ ثابتٍ و يَزِيدُ كما قال جَميل، وكلَّ بَديعٍ من آثار جُودٍ يصبغ الثَّرىٰ فيَخْضَرُّ بخلاف المشهور عن صَبْغَةِ اللَّيْل ؛ وطالمَا خصصناه بدُعاءٍ فكانت الراحةُ به كمِقْياسِه ذَاتَ بَسْطَه ، وكمَنازِلِ الخِصْبِ بقُدُومه المُبارَك ذَات غِبْطَه ، ومَنَحْناه بوَلاءٍ وثَناءٍ هذا يَدُور من الإخلاص بفُلْكٍ وهذا يَعْذُب من البِحَار بنُقْطَه ؛ كَمْ وَرَد إلى البِلاد ضَيْفًا ومعه القِرَىٰ ، وكَمْ أتى مُرْسَلًا بمُعْجِز آيات الخِصْب إلىٰ أهْلِ القُرىٰ ؛ فهو جَوَادٌ قد خَلَع الرَّسَن ، سَاهِرٌ فى مصالح الخَلْق وقد مَلأَ الأمْنُ أجفانَهم بالوَسَن ، جامِعٌ لأهل مِصْرَ من سُقْيَاهُ ومَرْعاه وَوَجْهِه بين المَاءِ والخُضْرة والوَجْهِ الحَسَن ؛ كَمْ باتَ سَيْرُ مقْياسه يشملُ بظِلِّه الغَائبينَ والحاضرين ، وكَمْ رَفَع على الوَفَاءِ رايَةً صَفْراءَ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرين ؛ وبَلَغ وبَلَّغ بخَرِير التَّيَّار سَلامَه ، وباتَ الناسُ بوَفَائه من حِذارِ الغَلاءِ تَحْت السِّتْر والسَّلامَه ؛ وخَلَّق صَدْرَ العَمُود وكيف لا يُخَلِّق بَشِير العباد والبلاد ، ودعَا مِصْرَ لأخْذِ زُخْرُفِها فسَوَاءٌ قيل : ذَات العَمُود أو ذَات العِمَاد ؛ وبَسَط يدَه ببركَةِ المَاءِ فقيل : سَلامٌ لكَ من أصْحابِ اليَمين ، وخَضَّب بَنَانه وأقْسَم بحُصُول الخَيْرِ فقيلَ لمَخْضُوب البَنَان يَمِين ؛ وأشار إلىٰ وُصُول المَدِّ المتتابع ، وقَبَضَ يَدَه المخَلَّقَةَ على المَاء فوفَتْ وما خَابَتْ فُروجُ الأصابع ؛ ونادىٰ رَائِدُ الوَفَاء ولٰكِنْ كَمْ حَياةٍ فى الأرْض لمن يُنَادِى ، وتَمَّت أصابِعُ الزيادة ونَمَتْ حتَّى قَال الناسُ : ما ذِى أَصَابِعُ ذِى أيَادِى .

هـذا وقد قُرِنَتْ زرابِىُّ الدُّورِ المَبْثوثة بالنَّمَارِق ، وقال المقياسُ : تَغَطَّت منها الدَّرَجُ فنال الرَّجاء وظَهرتِ الدَّقائق ؛ فهو جَمُّ المَنَافع ، عَذْبُ المَنَابِع ، يُشَار فى الحقيقة والمجاز إليه بالأَصَابِع .

فأعاده الله إلىٰ ذلك النَّفع المعهود ، وأرانا منـه الأمانَ من الطُّوفان إلىٰ أن نَرِدَ الحَوْضَ المَوْرود ؛ وكَفَىٰ أهـلَ مصْرَ هـذه المُصيبة التى إذا أصابَتْهـم قالوا : إنَّا للهِ وإنا إلَيْـهِ رَاجِعُون ، ولَا ٱبْتَلاهم بمِثْل ما ٱبتـلىٰ به قوْماً جعَـلُوا أصابِعَهم فى آذَانِهـم وٱسْتَغْشَوْا ثيابَهُم فإنَّمـا يَسْتَغْشِى ثِيابَه منهـم الفُقَراء فى المَطَر ويَجْعَـلُ أصَابِعَه فى آذَانِه منهـم المُؤَذِّنُون ؛ اللَّهُـمّ إنكَ ولىُّ النِّعمه ، وأوْلىٰ برحْمةِ خَلْقِك من فَيْضِ هٰذه الرَّحْمه .

وما قاله صاحِبُنا الشـيخُ شِهابُ الدين بن أبِى حَجَلَة الذى كان أغْرَبَ من زَرْقاءِ اليَمامَه ، وأعْجَبَ اذا رَكِبَ بَغْلَته وزُرْزُورَه من أبِى دُلَامَه ؛ الأديبُ الذى كان حُجَّةَ العَرَب ، والنَّـاثِرُ الذى كان بنِسْبَته إلى الطُّيور مُحَرِّكَ المَنَاطق وإلى الشِّـعْر صَنَّاجَةَ الأَدب، والنَّاظِمُ الذى كان إذا أنْشَدَ مَقَاطِيعَه فى التَّشْبِيبِ فاقَ على المَوَاصيل ذَوَاتِ الطَّرَب ؛ والصِّـدِيقُ الذى كانتْ منه عَوَائِدُ الوفاء مَأْلُوفه ، وشَـيْخُ الصُّوفِيَّة الذى لاعَجَب إذا كانتْ له المَقَاماتُ المَوْصُوفه ؛ أسْكَنه الله فَسِيحَ الجِنان ، وخصَّ ذلك الوَجْه الجميلَ بالعَارِضِ الهَتَّان ؛ من مَقَامَته الزَّعْفَرانيَّة عن أبى الرِّياش :

فَٱعْتَنَقْتُه لَدَى السَّـلام، وقلتُ : ما وَرَاءكَ ياعِصَام ؛ فقد بَلَغَنا أن النِّيـلَ تَزَايَدَ دَفْعُه، وأدَّىٰ إلى الضَّرر نَفْعُه ؛ فقال : خُذِ العَفْو، ولا تُكدِّرْ بذِكْرِ النِّيلِ الصَّفْو ؛ فقد ٱمْتَزَج بالمُعْصِرَات ثَجَّاجُه، وأعْيَىٰ طَبِيبَ الغيطَانِ عِلَاجُه :

وشَرَّق حتَّىٰ ليس للشَّرْق مَشْرِقٌ * وغَرَّبَ حتَّىٰ ليس للغَرْبِ مَغْرِبُ !

قلتُ : فمـا فعل النُّغَيْر، بجزيرَة الطَّيْر ؛ قال : لم يبْقَ بها هاتِفٌ يُبَشِّر بالصَّـباح، ولا ساعٍ يَسْعىٰ برِجْلٍ ولا طَائِرٌ يَطير بجَناح ؛ إلا ٱتخذ نَفَقًا فى الأرض أو سُلَّمًا فى السَّماء، أو أَوَى إلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُه من المـاء؛ فاذَاقَ بها الحَمَامَ الحَمامَ فى المُرُوج، وترَكَ أرْضَها

كسَماءٍ مالهـا من فُرُوج، وتَلا على الحَمَام : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ . وكَمْ فى سماء مَائِها من نَسْرٍ واقع، وبُومَةٍ تُصَفِّر علىٰ دِيَارِها البَلَاقِع :

ومَنْهَـــل فيه الغُرَابُ مَيْتُ * سَقَيْتُ منه القَوْمَ وآسْتَقَيْتُ !

قلتُ : فمِصر؟ قال : زَحَف عليها بعَسْكَرِه الجَرَّار، ونَفَط مائه الطَّيَّار .

قلتُ : فالجِيزَة ؟ قال : طَغَى المـاءُ حتَّىٰ علَا علىٰ قَناطِرِها وتَجَسَّر، ووَقَع بهـا القَصَبُ من قَامَتِه حين عَلَا عليه المـاءُ وتَكَسَّر؛ فأصْبَح بعد آخْضرارِ بِزَّتِه شاحِبَ الإهاب، نَاصِـلَ الخِضَاب، غَارِقًا فى قَعْرِ بَحْرٍ يَغْشَاه مَوْجٌ من فَوْقِه مَوْجٌ من فَوْقِه سَحَـاب؛ وقَطَع طريقَ زَاوِيَتِهـا علىٰ من بها من المُنْقَطِعينَ والفُقَراء، وتركَ الطَّالِحَ كالصَّالح يَمْشِى على المـاء؛ فتنَادَوْا مُصْبِحين، أَلَّا يَدْخُلَنَّهـا اليَوْمَ عَلَيكُم مِسْكين؛ وأدْركهـم الغَرَقُ فأَيِسُوا من الخَلَاص، وغَشِيَهم من اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاص؛ ونَخَرَ عليهـم السَّقْفُ من فَوْقِهم فهُدَّت قُوَاهُم، وآسْتَغاثُوا من كَثْرةِ المـاء بالذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقَلِيـلٌ مَّا هُم .

قلتُ : فالرَّوْضَة؟ قال : أحاط بها إحَاطَةَ الكِمَامِ بزَهْرِه، والكَأْسِ بحُبَابِ خَمْرِه :

فَكَأَنَّها فيـــه بِسَاطٌ أخْضَر * وكأنّه فيها طِـرَازٌ مُذْهَب !

فلم يَكُن لها بدَفْعِ أصَابِعه يَدَان، وكَمْ أنْشَدَ مَرْجُها حِينَ مَرَج البَحْرينِ يَلْتَقِيان :

أَعَيْنَيَّ كُفَّا عن فُـؤَادِى فإنّه * من البَغْيِ سَعْىُ آثْنَيْن فى قَتْلِ وَاحِد !

قلتُ : فدَارُ النُّحاس؟ قال : أنْحَسَ حالَها، وأفْسَدَ ما عليها وما لَهـا؛ فدخل من حَمَّامِها الطُّهْر، وقطع الطريقَ بالجـامع الظُّهر؛ فأَلْحَقَ مَجَازَ بابه بالحقيقه، ورَقِى منه علىٰ دَرَجَتَينِ فى دَقِيقه؛ ثم آغْتَرف ما جاوَرَه من الغُرف غَرْفا، وأطلق من مائه الأحْمرِ النَّارَ بمَوْرِدَةِ الحَلْفا .

قلتُ : فالخليج الحاكِمِىُّ ؟ قال : خرج عَسْكَرُ مَوْجِه بعد الكَسْر على حَمِيَّه ، ومَرَقَ من قِسِىِّ قَنَاطِرِه مُرُوقَ السَّهْم من الرَّمِيَّه .

قلتُ : فالمنشاة؟ قال : أصبحتْ للبَحْر مَقَرَّه ، بعد أن كانتْ للعُيُون قُرَّه ، وقيل لمنشئها : أنَّى يُحْيِى هٰذِه اللهُ بعد مَوْتِها قال : يُحْيِيها الذى أَنْشَأَها أوّلَ مَرَّه ، قد مالَ على ما فيها من شُئُون الغِلال كلَّ المَيْل ، وتَرَكَها تَتْلُو بفَمِها الذى شَقَّتاه مِصْراعا بابها : ﴿ يٰاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْل ﴾ .

قلتُ : فجزيرةُ أروى ؟ قال : قد أفْسَدَ جُلَّ ثِمَارِها ، وأتى على مَغَانِيها فلم يَدَعْ شيئًا من رَدِيِّها وخِيارِها ، أَخْلَقَ ديباجةَ رَوْضِها الأُنُف ، وتركَ قُلْقاسَها فى الجُرُوف على شَفَا جُرُف :

بعَيْنِى رأيتُ المَاءَ يَوْمًا وقد جَرَى * على رَأْسِهِ من شَاهِقٍ فَتَكَسَّرَا !

طالما تَضَرَّع بأصابِعه إلى رَبِّه ، ولَطَم برُؤُوسِه الحيطانَ مما جرى من الماء على قَلْبِه ، وتَمَثَّل بقول الأوّل :

وإنْ سَأَلُوكَ عن قَلْبِى وما قَاسَى * فَقُلْ : قَاسَى ، وقُلْ : قَاسَى ، وقُلْ : قَاسَى ! ! !

لم يُفِدْه تَحَصُّنه من وَرَقِه بالدَّرَق والسَّتائِر ، ولا حَنَّ عليه حينَ تَضَرَّع بأصابِعه فَصَحَّ أن المَاءَ سُلْطانٌ جائِر .

قلتُ : فحِكْرُ ابن الأثير؟ قال : لم يَبْقَ منه غير الثُّلُث والثلثُ كَثِير ، قد أَخْمَل من دُوره خَمائِلها ، وجَعَل عالِيَهَا سَافِلَها ، فكَمْ دَارٍ أعدم صَاحِبَها قَرَارَه ، ونَادَى فى عَرَصَاتِها المُتَداعِيَة : إيَّاكِ أعْنِى فاسْمَعِى ياجَارَه ، فأَصْبحتْ بعد نفعها قليلةَ الجدا ، مُسْتولِيَةً عليها يَدُ الرَّدى ، شَبِيهةً بدار الدُّنيا لأنها دَارٌ مَتى أَضْحَكَتْ فى يَوْمِها أَبْكَتْ غَدًا .

قلتُ : فبولاق ؟ قال : إمْلَاق ، قد ٱلْتَفَّتْ بهـا من الزَّلَقِ السَّاقُ بالسَّاق ؛ فأتىٰ من النُّوتية على الصَّغير والكَبير ، ومن المَرَاكب ومَمَرِّها على النَّقير والقِطْمير .

هذا بعد أن تَرَكَ جامع الخَطيرىّ علىٰ خَطَر ، وحيطَانَه يانعةَ الثَّمر ؛ قد دَنَا قِطَافُها ، وحَان تِلَافُها ؛ فكأنِّى به وقد مَنَع رِفْدَه ، وتَلَا علىٰ مِحْرابِه سُورَةَ السَّجْدَه .

قلتُ : بجزيرة الفيـل ؟ قال : ٱقتلع أشْجارَها بشُرُوشِها ، وتَرَكَ سَواقِيَها خاوِيةً علىٰ عُرُوشِها .

قلتُ : فالتاج والسـبعة وجوه ؟ قال : هَجَم علىٰ حُرَمِها ، وعَمَّ الوُجوهَ من فَرْقِها إلىٰ قَدَمِها ؛ فبَلَّ تَرَى المَوْتَىٰ فى التُّخُوم ، وعَنَتِ الوُجُوهُ للحَىِّ القَيُّوم ؛ قلتُ : فمـا الحِيلَه ؟ ، قال : تَرْكُ الحِيلَه :

دَعْها سَمـاوِيَّةً تَجْرى علىٰ قَدَرٍ * لَا تُفْسِدَنْها برَأْيٍ مِنْكَ راضى(؟)

طَالَ الكِتَاب ، وخَرَجنا عن فَصْل الخِطَاب :

ولَرُبَّما سَاقَ المُحَدِّثُ بعضَ ما * لَيْسَ النَّدىُّ إليـه بالمُحْتاج !

وكأنِّى بقائِلٍ يقولُ : أليس من الكِبْر أن يَسْتَخْدِم هذا فى رسالته مُلُوكَ الكلام ، ومن الحُمْق أن يُحَـلِّيَ عَرائِسَ أفكاره بمـا للناس من حَلْيِ النِّثَارِ والنِّظَام ؛ فأقولُ : مُسَلَّمٌ أنَّ كلَّ ما أوردتَه دُرَرٌ وجَواهِر ، وعُقودٌ كزَهْرِ الرَّبيع عُيونُ وُجُوهِها النواضر نَواظِر ؛ ولٰكنَّها هاهُنا أمْثل ، وجَمْع شَمْلِها علىٰ هَذِى العَرُوس أجْمَل :

* وفى عُنُقِ الحَسْنَاءِ يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ ! *

وعلى الجُمْـلة فيرجع المملوك إلى التَّواضُع وهو الأَلْيَقُ بالأدب ، فيقول : لا عَيْبَ على الفقيرة إذا تَجَمَّلَتْ بِحُلِيِّ الغَنيـه ، ولا عَارَ على الجَوْهَرِىّ إذا نَظَم سِـلْكا كانت دُرَرُه على الطُّرق مَرْمِيَّه ؛ ونَرْجِعُ إلىٰ ما وَلَّده الفِكْر من عَجَب البَحْر ، وما ظهر من دَفْع

الملوك لأمثالها عن جَرْيِها إلىٰ غاياتها بصُوَر القَمر، فأقولُ : إنما قالت الأدباءُ ذلك لما جَرىٰ من جَوْرِ النيل على الأرض، ولما عَمَّ الناس من الإرْجاف بُطولِ أذاه وهَرْجِه فكأنَّما هم فى يَوْم العَرْض ؛ وكلُّ ذلك وما وصل إلىٰ هذا الارتفاع ، ورُبَّما كان أنْقَصَ من هذه الزيادة بقَرِيبِ الذِّراع .

وعلىٰ هذا القياس إنَّما دَفَع ضَرَرَه، وجَمَّل فى البلاد أثَرَه، وحَسَّنَ فى السَّماءِ خَبَره وفى الأرْضِ مَخْبَرَه ؛ السَّرِىُّ الذى اهْتِمامه بالمَعْروف مَعْروف ، وسَيْفُ الدِّين الذى سَهِر فى مصالح الرعايا لمَّا تَنامُ مِلْءَ أجْفانِها السُّيوف ، أتَابِكُ العساكر، والمَلِكُ الذى هو بالإسلام وله مَنْصُورٌ وناصِر، حَصَّن سائرَ الكُوىٰ بالجُسُور، ورَكَز على أفواه البَحْر والخَليج الأمَراءَ كما يَرْكُزُ المجاهدون على الثُّغُور ، وقابَلَ البَحْر من سَطَواته بما ليس له به قِبَل ، ورَدَّ دَفْعَه بكلِّ دَفْعٍ من الرَّأْيِ والتَّدْبِير يُغْنِي عن البِيض والأَسَل ؛ وحارَبه بجَيْشِ عَزْمٍ إلىٰ أن وَلَّىٰ هارِبًا مع التراع والقَناطِر، وجاهَدَه بجُنْد رَكَزَهم علىٰ جَوانِبِه لمَّا تَحَقَّق أن البَحْر سُلْطانٌ جائِر، وحَصَره بالتَّضْييق عليه كما تُحْصر البِرَك والتِّراع ، وغَلَّ يَدَه عن التَّصَرُّف فسَقاه المَوْتَ كما سَقَى الناس أنواعَ النِّزاع ؛ فما هو إلا أن تَضاءَل بنِيرانِ سَطَواتِه واحْتَرق ، وذَلَّ خاضِعًا وكَفَىٰ به تَضَرُّعًا بالأصابع وتَوَسُّلا بالمَلَق، وأطاعَ لمَّا لم تُنْجِه مُجاهَرَتُهُ من تَيَّارِه بالسيوف ولا تَحَصُّنُه من داراتِه بالدَّرَق .

علىٰ أنه تَطاوَل ليُضاهِيَ بأصابعه جُودَ أيادِيه فقَصَّر، وتَحَسَّر فركب خَيْلَ خُيَلائِه ليُحاكِيَ بَأْسَه فوقع من جُسُور عُجْبِه وتَقَطَّر، وسَمَتْ نَفْسُه كِبْرًا لأن يبلغ قَدْرَه فقيل : يا بَحْرُ هذا خَليفةُ اللهِ فى أرْضه واللهُ أكْبَر ؛ نَعَمْ :

رَأَى البَحْرُ الخِضَمُّ نَداهُ طامٍ * يَفِيضُ على الوَرَىٰ منه بِحارُ،
فَصار البَحْـرُ مُلْتَطِمًا وأضْحىٰ * على الحالَيْن ليس له قَرارُ!

فلو زدْتَ فى أيَّام غيره من المُلُوك المُتْرَفين، وفيمَنْ يُؤْثِر،لاذَّ نَفْســه علىٰ مصالح المُسْلمين، كنتَ أيُّها المَلِك بلغتَ قَصْدَك، وفعلتَ فى أبناء مصْرِك جُهْدَك؛ وكنتَ من الملوك الذين إذا دخلوا قَرْيةً آنتعلُوا فيها الأهِلَّه، وأفسدوها وجعَلوا أَعِزَّة أهْلِها أَذِلَّه؛ لكن هبَّ قَبُولك إدْبارا، ولاقتْ رِيحُـك إعْصَارا؛ فايئس لك به قِبَـل، "والسَّيْلُ أدْرَىٰ بالجَبَل"؛ فمالك سبيلٌ إلىٰ بلاده، ولا طاقةٌ بإياب الخيْرعلىٰ عباده؛ فانه خَادِم الحَرَمَيْن، والمدعوُّ له حتَّىٰ فى مَوَاقِف الحَرْب بين العَلَمَيْن؛ حامى السَّواحِل والثُّغور، والمَخْدومُ بأيادى السَّحائِب وأصَابِـع البُحُور، وإن كنتَ يا أبا خالدٍ أبا جعفرٍ فلستَ بمَنْصُور؛ والرَّأْىُ أن تَقِفَ مُسْـتَغْفِرا، وتقولَ مُعْتَذِرا؛ : لم أُفْرِط بالزيادة فى أيامه، ولم أَفِضْ علىٰ طَرَف المَيْدان إلا لِأَفُوزَ بتقبيل آثارِ جَوَادِّ خَيْله ومَوَاطِئِ أقْدامه؛ ونَتَّبِـع نَواهِيه ونَمْتَثِـل أوَامِره، ونَدْعُوَ له كالرعايا بطُول البَقَاءِ فى الدُّنيـا وحُسْنِ الثواب فى الآخره .

ونحنُ نسألُ الله كما بَلَّغ بك المَنَـافِع، أن يُرِينَا كَوْكَبَ نَوْئِك عن قريبٍ راجع؛ وكما أغْنىٰ بزيادتك عن الآسْتِسْقاء، لايُحْوِجُنا فى نَقْصِك إلىٰ الآسْتِضْحاء، إنه سميعٌ مُجيب الدُّعاء؛ بمَنِّه وكَرَمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فى قدمات البُنْدق)

جمع قِدْمَة بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهى رَسَائل تشتمل على حال الرَّمْى بالبُنْدق، وأحوال الرُّماة، وأسماء طَيْر الواجب، واصطلاح الرُّماة وشُروطِهم.

وهذه نسخةُ قِدْمة، كتَب بها شيخُنا الشيخُ شمسُ الدِّين محمدُ بن الصَّائغ الحَنَفىّ الأديب رحمه الله، لصلاح الدِّين بن المقرّ المحْيَوِىّ بن فَضْل الله، ونصُّها :

الحمدُ لله الذى سَدَّد لصَلاح الدِّين سِهام الواجب، وشَيَّد بنَجاح المَطْلُوب مَرَامَ الطَّالب، وجعَل حُصولَ الرِّزق الشَّارِد بالسَّعْى فى المَناكِب، وسَهَّلَ المُمْتَنِعَ على القاصدين فما منهم إلا مَن رَجَع وهو صَائِب.

وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا وَلَد ولا صَاحِب، شهادةً تزجُرُ طَيْر الإشْراك بهذه الأشْراكِ من كُلِّ جانِب، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى قَرَّبه فكان قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدْنىٰ وهٰذه أعْلَى المَرَاتِب، صلى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين رَقَوْا فى العَلْياء لمَرَاقٍ لم يَسْمُ إليها طَيْرُ مُراقِب، صلاةً يَسْبِق بها المصلِّى إلى بِقاعِ شَرفٍ يُشْرِق سَناهُ فى المَشَارق والمَغَارِب، ويَرْجع طائرًا بالسُّرورِ ولا رُجوعَ الطائر الشَّارِد إلى المَشَارِب.

وبعدُ، فإن الصَّيْد من أحَلِّ الأشياء وأحْلاها، وأجَلِّها وأجْلَاها، وأبْهرِها وأبْهاها، وأشْهَرِها وأشْهاها، وأفْخَرِها قِيمَه، وأغْزَرِها دِيمَه؛ بوُرُودِ الطَّيْر فيه إلى المَنَاهِل تَنْشَرِح الصدور، وبوُقُوعه فى شُرُور الشَّرَك يَتِمُّ السُّرور؛ يُحَصِّلُ عند مُتَعاطيه نَشَاطا، ويَزِيدُه انْبِساطا؛ ويَشْرحُ خاطِرَه، ويُسَرِّح ناظره؛ ويَمْلأُ عَيْنه قُرَّه،

وقَلْبَه مَسَرَّه، يُشَجِّع الجَبَان، ويُثَبِّت الجَنَان، ويُقَوِّى الشَّهْوه، ويُسَوِّى الخَطْوَه؛ ويَسُوقُ الظَّفَر، ويَشُوقُ النَّظَر، ويَرُوقُ منه الوِرْد والصَّدَر، ويَفُوق فيه الخُبْرُ على الخَبَر. قال بعضُ الحكماء: قلَّما يَغْمَشُ نَاظِرُ زَهْرَةٍ، أو يَزْمَنُ مُرِيعُ طَرِيدَةٍ، يعنى بذلك من أَدْمَن الحَرَكَة فى الصَّيد ونظَر إلى البَسَاتِين، فاستمتع طَرْفُه بنُضْرَتِها، وأَنِيقِ مَنْظَرِها.

ومَن ذا الذى يُنْكِر لَذَّة الاصْطِياد، والطَّرَبَ بالقَنَص على الإطْراد؟ ولله دَرّ القائل:

لَوْلا طِرَادُ الصَّيْدِ لم تَكُ لَذَّةٌ * فَتَطَارَدِى لى بالوِصَالِ قَلِيلَا.

هٰذا الشَّرابُ أخو الحَيَاةِ وما له * مِنْ لَذَّةٍ حتَّىٰ يُصِيبَ عَلِيلَا!

يا حُسْنه من فِعْلٍ اعتلَّتْ بالنَّسِيم مَوَارِدُه ومَصَادِرُه، وفاقَتْ أوائلَه فى اللَّذَاذَةِ أَوَاخِرُه؛ ولله القَائِل:

إنَّما الصَّيْدُ هِمَّةٌ ونَشَاطٌ * يُعْقِبُ الجِسْمَ صِحَّةً وصَلاحَا،

ورَجاءٌ يُنَالُ فيه سُرُورٌ * حِينَ يَلْقَىٰ إصَابَةً ونَجَاحَا!

وما أطْيَبَ الاقتناصَ بعد الشُّرُود، وكَيْفَ يُرىٰ مَوْقِعُ الوَصْلِ بعد الصُّدود:

وزَادَنِى رَغْبَةً فى الحُبِّ أنْ مَنَعَتْ * أَحَبُّ شَيْءٍ إلى الإنسان ما مُنِعَا!

تَقْضِى رياضاتُ النُّفوسِ السامية بمُعاطَاةِ كَاسِه، ومُصَافَاةِ نَاسِه؛ لما فيهم من الفُتُوَّه، وكمالِ المُرُوَّه؛ وصِدْق اللسان، وثَبَات الجَنَان؛ وطِيبِ الأَخْلاق، وحِفْظ المِيثاق؛ لا يعرفون غَيْرَ الصِّدْق وإن كانوا يَمِيلُون إلى المَلَق، ولا يَبْغُون بصاحِبِهم بَدِيلًا يَعْطِفُون عليه عَطْفَ النَّسَق؛ لا سيَّما تَعاطى صَيْدِ طُيُور الواجب، الذى سَنَّه الأكابرُ وجعلوا أَمْرَه من الوَاجِب؛ وتَشَرَّفتْ به هِمَمُهم العَالِيةُ: تَارةً إلى السَّماء، وآونةً إلىٰ مَشَارِعِ الماء.

لا يَتِمُّ سرورُهم إلا برُؤْيَةِ تمٍّ كَبَدْرِ التَّمام، ومِصْبَاح الظَّلام؛ يَفِرُّ من ظِلِّه فِرَارا، ويُرِيكَ بَياضُ لَوْنه وسَوَادُ مِنْقاره شَيْبًا ووَقَارا؛ ولا يُدَاوِى هُمُوم لَغَبِهم مِثْلُ كُىٍّ، لأَجْنِحَته الخَوَافِقِ فى الخَافِقَيْن نَشْرٌ وطَىٌّ؛ ولا تَبْتَهِج نُفُوسُهم النَّفِيسةُ إلا بإِوَزَّه، يَزْدَرِى دَلالُها بالكَاعِب المُعْتَزَّه؛ ولا يُطْرِبُ أَسْماعَهم غيرُ لُغَاتِ اللَّغْلَغَه، حين تَمْتَدُّ كأنها مُدامَةٌ فى الزُّجاجة مُفْرَغَه؛ ولا يُؤْنِسُهم إلا الأَنِيسَةُ الأَنِيسَه، والدُّرَّة النَّفِيسه؛ ولا يُذْهِب حَرَجَهم غيرُ الحُبْرُجِ الصَّادِح، المُسْتَوْقِف بحُسْنِه كلَّ غَادٍ ورَائِح؛ تَكادُ قُلوبهم تَطِير بالفَرَح عند رُؤْية النَّسْرِ الطائر، وتُجْبَر خَواطِرُهم بكَسْرِ ذلك الكَاسِر؛ إذا عاينوا عِقْبانًا أعقبهم الفَرح، ونَزَح عنهم التَّرَح؛ وإن كَرَّ كُرْكِىٌّ فَرَّ عنهم البُوس، ورَأَوْا علىٰ رَأْسه ذلك التَّاجَ الذى لم يَعْلُ مِثْلُهُ على الرُّؤُوس؛ وإن عَرَض غِرْنَوْقٌ غَرِقوا فى بِحَارِ أفكارهم، وجَدُّوا إلىٰ أن يَقَع بجَدْول أَوْتَارِهم؛ وإن لاح ضُوَعٌ كالذَّهب المَصُوغ، أَلْقَوْه فى الحِبَال وهو بدَمِه مَصْبُوغ؛ وإن مَرَّ مِرْزَمٌ كالخَوْدةِ الحَسْناء، ضَرَبوا له الآلَةَ الحَدْباء؛ وإن مَرَّ السَّبَيْطَر أَجْنِحَتُه كالسَّحائب، جاءته المَرَامِى من كلِّ جَانِب؛ وإن عَنَّ عَنْزٌ عَمَدوا إليه، حتّىٰ يُسْقَط فى يَدَيْه؛ قد تَعَالَوْا فى رُتَبِها، وتَغالَوْا فى وَصْفِ وَشْيِها .

وجَعَلُوا كلَّ آلةٍ صَنِيعَه، ورَبَّة جمال مَنِيعه، وبَعِيدَة الرَّمْىِ بديعه : —

من كلِّ قَوْسٍ هى فى العَيْن كالحاجب، أو النُّونِ التى أجادَها الكَاتِب؛ تُدَوِّرُ الطائرَ عند الرَّمْىِ وتُذِيبُه، وتَئِنُّ أَنِينًا أَوْلىٰ به من تُصِيبهُ . وبُنْدُقٍ جُبِلتْ طِينَتُه علىٰ صَوْب الصَّواب، يَسْتَنْزِل الطَّيْرَ ولو اسْتَتَر بذَيْل السحاب؛ كأنه النَّجْم الثَّاقِب، والشِّهابُ الصَّائب؛ يَرَى الطَّيْرَ كالسحاب الوَاكِف، فيَنقَضُّ عليه انْقِضاضَ البَرْقِ الخَاطِف؛ ويَرْجع النَّسْرُ من حَتْفِه راتِعا، ويَغْدو بعد أن كان طَائِرًا واقِعا؛ ويَصِير بعد أن كان كاسِرًا مَكْسورا، وفى سِوَارِ القسىِّ مأسُورا؛ فهنالك يُلْفَى الغَالِبُ

وهو مَغْلوب ، والطير الوَاجِبُ وهو مَنْدُوب ؛ فحينئـذٍ تَنْشَرِحُ النفوس ، وتَطْرَبُ ولا طَرَبها بالكُؤُوس .

ولما كان بهذه المَنْزِلة العظيمه ،والمَرْتَبة الجَسيمه ؛ تَعَاطَتْه الملوكُ وأبناءُ المُلُوك ، ونَظَمُوا عِقْدَه بحُسْنِ السُّلوك ؛ وٱرْتاضَتْ به النفوسُ الطَّاهِره ، وٱعتاضَتْ به عن الكُؤُوس الدَّائِره ؛ ورَأَتْ به تَكْمِيـلَ الأدَوات ، وسامَتْ به فِعْـل الواجب و إنْ قيـل : إنَّ ذلك من الهَفَوات ؛ فهو تَعَبٌ تَنْشأ الراحةُ عنـه ، ولَعِبٌ لم يكن شئٌ أشبهَ بالجِدِّ منه .

فلذلك قَصَد الجنابُ الكريمُ ، العالى ، الصَّلاحِىُّ ، صلاحُ الدُّنيا والدين ، ونجاحُ الطَّالِبين ؛ سَلِيلُ الوُزَراء ، ونَجْل الكُبَرَاء ، وصَدْرُ الرؤساء ، وعَيْنُ العظماء ؛ ٱبنُ المقرّ المَحْيوىّ بن فَضْل الله ، أدام الله تعالىٰ علاه ، وكبَتَ عِداه ؛ وأعلىٰ مَعَالِيَـه ، وشكر مَسَاعِيَه ؛ وأطالَ حيَاتَه ، وأطاب ذَاتَه ـ أن يسلُكَ تلك المَسَالِك ، و يُرِيض نَفْسَه الكريمةَ بذلك ، و يَتَحَيَّلَ علىٰ تَحْصيل اللذات بالتَّحَوُّل ، عَمَلًا بقول الشاعر :

* تَنَقَّلْ فَلَذَّاتُ الهَـوَىٰ فى التَّنقُّل ! *

وعَمَد إلىٰ تَحْصِـيل آلاَتِه ، سائرًا كالبَـدْر فى هَالاَتِه ؛ فسار مع سَرَايا كالنُّجُوم ، يتَفَاكهونَ فى الحَديث بالمَنْثور والمَنْظوم ؛ و يَخْلِطون جِدَّ القول بهَزْلِه ، كلَّما خُلِط لهم طَلُّ الجُودِ بوَبْلِه ؛ وٱنْحدَروا فى النِّيل بجَمْعِهم الصحيح ، وقَصَدُوا المَرَامِىَ العالية ولم يَقْنَعوا مِن الأيام بالرِّيح ؛ وظَلُّوا يسـيرون فى تلك المَرَاكب ، التى كأنها قِطَعُ السَّحائِب .

هذا وهم يَتَشَوَّفون إلى المَصَايِد ، ويُشْرِفون إلى الشَّوارِد ؛ فيَطْلُعون أَحْيـانًا إلى البَرِّ متفَرِّجين ، و بِطِيبِ ذلك النسيم مُتَأَرِّجين :

نَسِيمٌ قد سَرىٰ فيهم بنَشْرٍ * فأذْكَرهم بمَسْراه السَّرِيَّا!

كَرَامَتُهُ آستقرّتْ حِينَ وَافَىٰ * له نَفَسٌ يُعِيدُ المَيْتَ حَيَّا!

ويَجْتَنُون من الغُصْن الزَّاهى قدّا ، ويَجْتلُون من الوَرْدِ الزَّاهِرِ خَدّا ؛ ويتأمَّلُون ضِحكَ الأرض من بُكَاء السماء ، وشَماخَة القُضُبِ عند خَرِيرِ المـاء ؛ لاتَذُوق أجْفانُهم طَعْمَ الكَرىٰ ، ولا يَمِيلُون عن السَّيْر ولا يَمَلُّون السُّرىٰ ؛ مامنهم إلا مَن إذا رَأَى الطَّيْر جانِئًا ، عاد من وَقْتِه له حَانِئًا ؛ بينما هم يَسِـيرون مُتَفَرِّقين ، حتَّىٰ إذا لاح لهم طَيْرٌ تَدَاعَوْا إليه غير مُقَصِّرين وٱلْتَفُّوا مُحلِّقِين ؛ ولم يزالوا كذلك يَنْهَمون العَيْش ، بالدَّعة والطَّيْش ؛ حتَّىٰ إذا أقبـل اليومُ المُبـارك الثامنُ والعشرون من جمادىٰ الآخرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، وهو اليومُ الذى عَزَم فيه الجنابُ الصَّلاحِيُّ على الاصطياد ، بالبَنادِق الحِدَاد ؛ فتباشرتْ به الطُّيور ، وسَـدّت بأجْنِحَتِها الثُّغور ؛ وسَهُل عندها فيـه نُزُول الرَّئِيس ، فجـادتْ له بالنَّفِيس ؛ وخرجَتْ من قشْرِها ، وسَمَحتْ عنـد مَدِّ القَوْس بحَزِّ نَحْرِها ؛ ورَغِبَ كلٌّ منها أن يكون له بذلك أَوْفَرُ القِسَم ، وتَرَجَّى أن يكونَ هو المكتوب له فى القِدَم .

ومدّ يَدَه نحو السَّما ، فأصاب مِرْزَما ؛ فيالَه من صَيْدٍ فاقَ به على الأكابر الصِّيد! ويالَه من يَومٍ صار بِنَحْرِ الطَّيرِ يَوْمَ العيد! ! قام فيه بواجب ماشَرَعه الرُّماة من الشَّرع ، وذَكَّرنا بهذا الصَّرْع يوم ذلك الصَّرْع ؛ فلا زال سَهْمُه مسدّد الأغراض ، وجَوْهَره مَحْمِيًّا من الأَعْراض ؛ يَجْرى بمُرادِه المَقْدور ، ويُطِيعُه فى سائر الأمور .

وقد نظمتُ مُخَمَّسًا مشتملاً علىٰ ذِكْر طُيُور الواجِب ، وطَرَّزْته بآسْمِه ، لأن هـذه القِـدْمة قد قُدِّمتْ له وجُعِلتْ برَسْمِه ، غير أنى أَعْتَذِرُ عنهـا ، لعَدَم مادّة عنـدى أسْتَمِدُّ منهـا :

جَلِّ كُؤُوسًا عُطِّلتْ بالرَّاحِ، * ولا تُطِعْ فيها كَلامَ لَاحِى،
وٱشْرَبْ هَنِيئًا وٱسْقِنِي ياصَاحِ، * وٱذْكُرْ زَمانًا مَرَّ بالأفْرَاحِ،
* هَبَّتْ به فيما مَضَىٰ رِيَاحِى! *
أيامَ كنتُ أصْحَبُ الأكابرَا، * وأغْتَدِى مع الرُّماةِ سَائِرا،
ولا أزَالُ بالغِيارِ غَائِرا، * إذا رأيتُ فى المِيَاهِ طَائِرا،
* نَحَوْتُه من سَائِرِ النَّواحِى ! *
فتارةً كنتُ أصِيدُ النَّسْرا * وبَعده العُقَاب يَحْكِى الجَمْرَا
والكِّىَّ والكُرْكِىَّ صِدْتُ جَهْرا * وصِدْتُ غِرْنَوْقًا وَعَنْزًا قَهْرا
* وكُنْتُ بالإوَزِّ فى ٱنْشِرَاحِ! *
وتَارةً تِمًّا كَبَدْرِ التِّمِّ * تَتْبَعُه أَنِيسَةٌ كالنَّجْمِ،
ولَغْلَغٌ أسْوَدُ مِسْكُ الهَمِّ، * وحُبْرُجٌ عن الرُّماةِ مَحْمِى،
* والضُّوعُ مع سَبَيْطَرٍ[(1)] سَيَّاحِ! *
وكَمْ وكَمْ قد صِدْتُ يومًامِرْزَمَا * أنْزلْتُه بالقَوْسِ من جَوِّ السَّما،
جَنَاحُه يَحْكِى طِرَازًا مُعْلَما * علَىٰ بياضٍ شِيَةٍ شِبْهِ الدِّما،
* كأنَّه لَيْلٌ علىٰ صَبَاحِ! *
حَيْثُ الصَّبا تُشْفَعُ بالقَبُولِ، * وشَمْلُنَا يُجْمَعُ بالشَّمُولِ،
فى مَجْلِسٍ ليس به فُضُولِى، * وجاءَنا التَّوقِيعُ فى الوُصُولِ:
* فَسَادُكُمْ يُغْفَرُ بالصَّلَاحِ! *

(١) ورد فى (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب: بالشين المعجمة مضمومة .

السَّيِّدِ الفائِقِ فى أفْعالِه ، * والمُزْدَرِى بالبَدْرِ فى كَمَالِه ،
والمُشْتَرِى حُسْنَ الثَّنا بمالِه ، * لا أحدٌ يَحْكِيه فى نَوالِه :
* إلا أَخُوه مَعْدِنُ السَّماح ! *
مَنَ سادَ فى الدُّنيا على الكُتَّابِ ، * وصَانَ سِرَّ المُلْك فى حِجَاب ،
عَلِىٌّ العَالِى على السَّحَابِ ، * البَاذِلِ المَال بلا حِسَابِ ! (١)

زاده الله نِعما ، وأجْرَىٰ له فى النَّدَىٰ يَدا وثَبَّت له فى العُلَىٰ قَدَما ، بمَنِّه وكَرَمه .

* * *

وهـذه نسخةُ رسالةٍ فى صَيْد البُنْدقِ ، من إنشاء الشَّيخ شهاب الدِّين أبى الثَّناء محمودِ بن سلمانَ الحَلَبِىِّ رحمه الله ، وهى :

الرِّياضَةُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَ الجَناب الفُلانىِّ ، وجعل حُبَّه كقَلْب عَدُوِّه واجبا ، وسَعْده كوَصْفِ عَبْدِه للسارِّ جَالبا ، وللمَضارِّ حاجبا ـ تَبْعثُ النفسَ علىٰ مُجانَبَةِ الدَّعة والسُّكون ، وتَصونُها عن مُشابَهَة الحَمَائِم فى الرُّكُون إلى الوُكُون ، وتَحضُّها علىٰ أخْذِ حَظِّها من كلِّ فَنٍّ حَسَن ، وتَحُثُّها علىٰ إضافَةِ الأدوات الكامِلَةِ إلىٰ فَصَاحَةِ اللَّسَن ، وتأخذُ بها طَوْرًا فى الجِدِّ وطوراً فى اللَّعِب ، وتَصْرِفُها من مَلاذِّ السُّموِّ فى المَشَاقِّ التى يَسْتروحُ إليها التَّعب . فتارةً تَحْمِلُ الأكابرَ والعُظَماءَ فى طَلَبِ الصَّيْد علىٰ مُواصَلَةِ السُّرىٰ ، ومُقاطَعَةِ الكَرىٰ ، ومُهاجَرة الأوْطار ، ومُهاجَمَة الأخْطار ، ومُكابَدَةِ الهَواجر ، ومُبادَرةِ الأوابد التى لا تُدْرَكُ حتى تَبْلُغَ القلوبُ الحَناجر ، وذلك من مَحاسنِ أوصافِهم التى يَذُمُّ المُعْرِضُ عنها ، وإذا كان المقصودُ من مَيْلِهم جِدَّ الحَرْب فهذه صُورةُ لَعِبٍ يُخْرَجُ إليها منها .
وتارةً يدعوهم إلى البُرُوزِ إلى المَلَق ، ويَحْدُوهم فى سُلوكِ طريقها مع مَن هو دونهم

(١) سقطت الشطرة الخامسة من قلم الناسخ .

علىٰ مُلازَمَةِ الصِّدْق ومُجانَبَةِ المَلَق؛ فيَعْتَسِفُون إليها الدُّجىٰ، إذا سَجَى؛ ويَقْتَحِمون فى بلوغها حرق النَّهار، إذا آنْهار؛ ويَتَنَعَّمون بوَعْثاءِ السَّفر، فى بُلُوغ الظَّفَر؛ ويَسْتَصْغِرُون رُكوبَ الخطر، فى إدراكِ الوطَر؛ ويُؤْثِرونَ السَّهر على النَّوْم، واللَّيلةَ على اليَوْم؛ والبُنْدقَ على السِّهام، والوَحْدَة على الاْلْتِئام .

ولمَّا عُدْنا من الصَّيْد الذى آتَّصَل به حَدِيثُه، وشُرِحَ له قَدِيمُ أمْرِه وحَدِيثُه؛ تُقْنا إلىٰ أن نَشْفَع صَيْد السوانح، برَمْيِ الصَّوادح؛ وأن نَفْعلَ فى الطَّيرِ الجَوانِح، بأَهِلَّة القِسِيِّ ما تَفْعل الجَوارِح؛ تَفْضِيلًا لملازمة الآرتحال، على الإقامة فى الرِّحال؛ وأخْذًا بقولهم :

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إذ كانت مُدَبَّرَةً ✻ إلَّا التَّنقُّلُ من حالٍ إلىٰ حَالِ !

فبرزنا وشَمْسُ الأصِيلِ تَجُود بنَفْسِها، وتَسِيرُ من الأُفُقِ الغَرْبِيِّ إلىٰ مَوْضِع رَمْسِها؛ وتُغَازِلُ عيونَ النَّور بمُقْلةِ أرْمَد، وتنظُر إلىٰ صَفَحاتِ الوَرْدِ نَظَر المَرِيض إلىٰ وُجُوه العُوَّد؛ فكأنها كَئِيبٌ أضْحىٰ من الفِراق علىٰ فَرَق، أو عَلِيلٌ يقضى بين صَحْبِه بقايَا مُدَّة الرَّمَق ؛ وقد آخْضلَّت عيونُ النَّوْرِ لوَدَاعِها ، وهَمَّ الرَّوْضُ بخَلْع حُلَّتِهِ المُوَهَةِ بذَهَبِ شُعَاعِها :

والطَّلُّ فى أعْيُنِ النُّوَّارِ تَحْسَبُه ✻ دَمْعًا تَحَيَّرَ لم يَرْقَأْ ولم يَكِفِ:
كلُؤْلُؤٍ ظَلَّ عَطْفُ الغُصْنِ مُتَّشِحًا ✻ بعِقْدِه وتَبَدَّىٰ منه فى شَنَفِ.
يُضَمُّ من سُنْدُسِ الأوْراق فى صُرَرٍ ✻ خُضْرٍ ويُجْنَىٰ من الأزهار فى صَدَفِ !
والشَّمْسُ فى طَفَلِ الإمْسَاءِ تَنْظُرُ من ✻ طَرْفٍ غَدَا وهو من خَوْفِ الفِراقِ خَفِي :
كعَاشِقٍ سَارَ عن أحْبابه وهَفَا ✻ به الهَوىٰ فترَآهُمْ علىٰ شَرَفِ .

إلىٰ أن نَضَى المَغْرِبُ عن الأُفُقِ حَلْيَ قَلَائِدِها، وعَوَّضَه عنها من النُّجومِ بخَدَمِها ووَلائِدِها؛ فلَبِثْنا بعد أداء الفَرْضِ لبْثَ الأَهِلَّة، ومَنَعنا جُفُونَنا أن تَرِدَ النَّومَ

إلا تحلّه؛ ونهضنا وبُرْد الليل مُوَشّع، وعقده مرصّع؛ وإكليله مجوهر، وأديمه معنبر؛ وبدره في خِدْر سِرارِه مستكن، وبحره في حشا مطالعه مستجن؛ كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليطا مسك وصندل، وكأن ثريّاه لامتداده معلّقة بأمراس كتّان إلى صمّ جندل:

ولاحت نجوم الليل زهرا كأنّها * عقودٌ على خَوْدٍ من الزنج تُنْظَمُ،

محلّقةً في الجوّ تحسب أنّها * [طيورٌ] على نهر المجرّة حُوَّمُ

إذا لاح بازي الصبح ولّت يؤمّها * إلى الغرب خوفا منه نسرٌ ومرزمُ!

إلى حدائق ملتفّه، وجداول محتفّه؛ إذا خمش النسيم غصونها اعتنقت اعتناق الأحباب، وإذا فرك مرّ المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحُباب، ورقصت في المناهل رقص الحَباب؛ وإن لثم ثغور نورها حيّته بأنفاس المعشوق، وإن أيقظ نواعس ورقها غنّته بألحان المشوق؛ فنسيمها وان، وشميمها لعرف الجنان عنوان، وورودها من سهر نرجسها غيران:

وظلّها في خدود الورد منبعثٌ * طورًا وفي طُرَر الريحان حيرانُ!

وطائرها غرد، وماؤها مطّرد؛ وغصنها تارةً يعطفه النسيم إليه فينعطف، وتارةً يعلّل تحت ورقائه فتحسب أنها همزةٌ على ألف؛ مع ما في تلك الرياض من توافق المحاسن وتباين الترتيب، إذ كلّما اعتلّ النسيم صحّ الأرج وكلّما خرّ الماء شمخ القضيب:

فكأنّما تلك الغصون إذا ثنت * أعطافها ريحُ الصَّبا أحبابُ:

فلها إذا افترقت من استعطافها * صلحٌ ومن سجع الحمام عتابُ.

وكأنّها حول العيون موائسًا * شَرْبٌ وهاتيك المياه شرابُ!

فغديرها كأسٌ وعذبُ نطافها * راحٌ وأضواء النجوم حَبابُ!

يحيط بمَلَقٍ نطاقُها صافٍ، وظِلال دَوْحِها ضافٍ، وحَصَاها لصفَاءِ مائها فى نَفْسِ الأمْرِ راكدٌ وفى رَأْيِ العَيْنِ طَافٍ ؛ إذا دَغْدَغَها النَّسيمُ حَسِبْتَ ماءَها بتَمايُلِ الظِّلال فيه يتبرّجُ ويَمِيل، وإذا ٱطَّردتْ عليه أنْفَاسُ الصَّبا ظننتَ أفْيَاءَ تلك الغُصونِ تارةً تَتَمَوّجُ وتارةً تَسِيل :

فكأنه مُحِبٌّ هَامَ بالغُصُون هَوًى فَمَثَّلَها فى قَلْبِه، وكأنَّ النسيمَ كَلِفٌ بهـا غارَ من دُنُوِّها إليه فميلها عن قُرْبه :

والنَّـوْرُ مِثْـلُ عَرائِس * لُفَّتْ عَلَيهِنَّ المُــلاءُ،
شَمَّرْنَ فَضْــلَ الأُزْرِ عن * سُـوقٍ خَلَاخِلُهُنَّ مَاءُ،
والنَّهْـــرُ كالمِــرْآةِ تَنْـ * ــظُرُ وَجْهَهَا فيه السَّماءُ ! ! !

وكأن صَوافَّ الطُّيور المُتَّسِقة بتلك الأرْضِ خِيام، أو ظِباءٌ بأعلَىٰ الرَّقْمَتَيْنِ قِيام، أو أبَارِيقُ فِضَّةٍ رُؤُوسها لها أقْدام ، ومَنَاقِيرُها المحْمَرَّة أوائلُ ما ٱنْسَكَبَ من المُدَام ؛ وكأنّ رِقَابَهـا رِماحٌ أسِنَّتُها مِن ذَهَب ، أو شُموعٌ أسْوَدُ رُؤُوسِها ما ٱنْطَفَىٰ وأحْمَرُه ما ٱلْتَهَب ؛ وكُنّا كالطَّيْرِ الجَليل عِدّه ، وكطِرَازِ العُمْرِ الأوّل جِدّه :

مِنْ كُلِّ أبْلَجَ كالنَّســيمِ لَطَافَةً * عَفِّ الضَّـميرِ مُهَذَّبِ الأخْلاقِ ،
مِثْــلِ البُــدُورِ مَلاحةً ، وكَعُمْرِها * عَدَدًا ، ومِثْلِ الشَّمْسِ فى الإشْرَاق !

ومعهم قِسِيٌّ كالغُصون فى لطافَتِها ولِينِها ، والأهِلَّةِ فى نَحافَتِها وتَكْوِينها ، والأزاهِرِ فى تَرافَتِها وتَلْوِينها ؛ بُطُونُها مُدَبَّجه ، ومُتُونها مُدَرَّجه ؛ كأنها كواكبُ الشَّوْلَةِ فى ٱنعطافها ، أو أرْواقُ الظِّباء فى ٱلْتِفَافِها ؛ لأَوْتَارِها عنـد القَوادِمِ أوْتار ، ولبَنَادِقِها الحَواصِـلِ أوْكار ؛ إذا ٱنْتُضِيَتْ لصَيْدٍ ذَهَب من الحَيَاةِ نَصِيبُه ، وإن ٱنْتَصَتْ لرَمْيٍ بَدَا لهـا أنها أحقُّ به ممن يُصِيبُه ؛ ولعـلَّ ذاكَ الصَّوْتَ زَجْرٌ لبُنْدقِها أن يُبْطِئَ فى سَـيْرِه ،

أو يتخطّى الغَـرَضَ إلىٰ غيره ، أو وَحْشَـةٌ لمُفارَقَة أفلاذ كَبِـدها ، أو أَسَـفٌ علىٰ خروج بَنِيهـا من يَدِها ، علىٰ أنها طالمَـا نبذتْ بَنِيها بالعَـراء ، وشَفَعتْ لخَصْـمِها التَّحْذيرَ بالإغْراء :

مِثْـلَ العَقارِبِ أذْناباً مُعَـقَّدَةً * لمن تَأمَّلها أو حَقَّق النَّظَرا !
إنْ مَـدَّها قَمَـرٌ منهـم وعَايَنَه * مُسَافِرُ الطَّيْرِ فيها أو نَوَىٰ سَفَرا ،
فهوالمُسِيءُ اخْتِيَارًا إذْ نَوَىٰ سَفَرًا * وقَدْ رأىٰ طَالِعًا فى العَقْرَبِ القَمَرا !

ومن البَنَادقِ كُراتٌ متَّفِقَةُ السَّرْد ، مُتَّحِدَةُ العَكْس والطَّرْد ، كأنما خُرِطَتْ من المَنْدلِ الرَّطْب أو عُجِنَتْ من العَنْبَرِ الوَرْد ، تَسْرى كالشُّهُب فى الظلام ، وتَسْبِقُ إلىٰ مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّداتِ السِّهام :

مِثْل النُّجومِ إذا ماسِرْنَ فى أُفُقٍ * عَنِ الأَهِـلَّة لكن نُونُهـا رَاءُ .
مافَاتَها منْ نُجُوم اللَّيلِ إن رُمِقَتْ * إلا ثَبَـاتٌ يُرَىٰ فيها وأَضْوَاءُ ،
تَسْرى ولا يَشْعُرُ اللَّيلُ البَهِيمُ بها * كأنَّهـا فى جُفُون اللَّيلِ إغْفَاءُ ،
وتَسْـمَعُ الطَّيْرَ إذ تَهْفُو قَوادِمُه * خَوافِقًا فى الدَّياجِى وهِى صَمَّـاءُ ! ! !

يَصُونها جِراوةٌ كأنّها دُرْج دُرَر ، أو دُرْجُ غُرَر ، أو كِمَامَةُ ثَمر ، أو كِنَانَةُ نَبْـل ، أو غَمامة وَبْل ، حَالِكَةُ الأَدِيم ، كأنَّمـا رُقِمَتْ بالشَّفَقِ حُلَّةُ لَيْلِها البَهِيم :

كأنَّهـا فى وَضْـعِها مَشْرِقٌ * تَنْبَثُّ منه فى الدُّجى الأَنْجُمُ ،
أو دِيمَةٌ قد أطْلَعتْ قَوْسَها * مُلَوَّنًا وانْبَثَقتْ تَسْـجُمُ !

فاتَّخذ كلٌّ له مَرْكَزًا ، وتَقَضَّى من الإصابة وَعْدًا مُنْجَزا ، وضَمِنَ له السَّعدُ أن يُصْبِحَ لمراده مُحْرِزا :

كَأَنَّهُمْ فى يُمْنِ أفْعَالِهِم * فى نَظَرِ المُنْصِفِ والجَاحِدِ:
قَدْ وُلِدوا فى طَالِعٍ وَاحِدٍ، * وأَشْرقُوا من مَطْلَعٍ وَاحِدِ!

فسَرتْ علينا من الطَّيْرِ عِصابَة، أظَلَّتنا من أجْنِحَتِها سَحَابَة؛ من كلِّ طائِرٍ أقْلَعَ يَرْتادُ مَرْتَعا، فوجَدَ ولٰكِنْ مَصْرعا، وأَسَفَّ يَبْتغِى ماءً جَمًّا فوجدَ ولٰكِنّ السُّمَّ مُنْقَعا، وحلَّق فى الفَضَاءِ يبْغِى مَلْعباً فباتَ هو وأشياعُه سُجَّدًا لمحَارِيبِ القِسِىِّ ورُكَّعا؛ فتبرَّكْنا بذلك الوَجْه الجميل، وتَدارَكْنا أوائِلَ ذلك القَبِيل .

فاستقبلَ أوَّلُنا تَمَامَ بَدْرِه ، وعَظُم فى نَوْعِه وقَدْرِه ؛ كأنه بَرْقٌ كَرَع فى غَسَق ، أو صُبْحٌ عَطَف علىٰ بَقِيَّة الدُّجىٰ عطْفَ النَّسَق ؛ تَحْسبه فى أسْدَاف المنىٰ غُرَّة نُجْح ، وتَخالُه تحتَ أذيال الدُّجىٰ طُرَّة صُبْح ؛ عليه من البياض حُلَّة وَقَار ، وله كدُهْنِ عَنْبَرٍ فوق مِنْقارٍ من قَار ، له عُنُق ظَلِيم ، والْتِفاتَة رِيم ، وسُرىٰ غَيْم يُصرِّفُه نَسِيم :

كَلَوْنِ المَشِيبِ ، وعَصْرِ الشَّبابِ ، * ووَقْتِ الوِصَالِ ، ويَوْمِ الظَّفَر!
كَأَنَّ الدُّجَىٰ غَارَ من لَوْنِه * فأَمْسَكَ مِنْقَارَهُ ثم فَرّ!

فأرسل إليه عن الهلال نَجْما ، فسقط منه ما كَبُر بما صَغُر حَجْما ؛ فاستبشر بنَجَاحِه ، وكَبَّر عند صِياحِه ، وحَصَّلَه من وَسَط الماءِ بجَنَاحِه .

وتلاه كُرْكِىٌّ نَقِىُّ اللِّبَاس ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّأْس ، كأنَّه فى عَرَانِين شَيْبِه لا وَبْلِه كبيرُ أُناس ؛ إن أَسَفَّ فى طَيَرانِه فغَمام ، وإن خَفَق بجَنَاحِه فقِلْعٌ له بيَدِ النَّسِيم زِمَام ؛ ذو عَيْبَةٍ كالجِرَاب ، ومِنْقَارٍ كالحِرَاب ، ولَوْنٍ يَغُرُّ فى الدُّجىٰ كالنَّجْم ويَخْدَع فى الضُّحَىٰ كالسَّراب ؛ ظَاهِرِ الهَرَم ، كأنما يُخْبِر عن عَادٍ ويُحَدِّثُ عن إِرَم :

إن عَامَ فى زُرْقِ الغَدِيرِ حَسِبْتَه * مُبْيَضَّ غَيْمٍ فى أَدِيمِ سَمَاءٍ ،
أو طَارَ فى أُفُقِ السَّماءِ ظَنَنْتَه * فى الجَوِّ شَيْخًا عائِمًا فى مَاءِ ،

مُتَناقِضُ الأوْصافِ فيه خِفَّةُ الـــ * جُهَّالِ تحت رَزانَةِ العُلَمَــاءِ!

فَثنى الثانى إليــه عِنانَ بُنْدُقِه، وتوخَّاه فيما بين رأســه وعُنقِه، فخرّ كمارِدٍ انقضّ عليــه نَجْمٌ من أُفُقِــه؛ فتلقَّاه الكَبِير بالتَّكْبِير، واختطفه قبْــل مصافحة المـاء من وجْهِ الغَدِير.

وقارنَتْه إوَزّةٌ حلْباء دَكْناء، ومُقْلتُها حَسْناء، لها فى الفَضَاء مَجال، وعلى طَيَرانِها خِفَّةُ ذَوات التَّبرُّج وخَفَرُ ربَّاتِ الحِجَال؛ كأنَّمـا عبَّتْ فى ذَهَب، أو خاضَتْ فى لَهَب؛ تختالُ فى مِشْيتِها كالكَاعِب، وتتأنَّى فى خَطْوِها كاللَّاعِب؛ وتَعْطِف بجِيدها كالظَّبْيِ الغَرِير، وتتدافعُ فى سَيْرِها مَشْيَ القَطَاةِ إلى الغَدِير:

إذا أقْبلَتْ تَمْشِى فخَطْرَةُ كاعِبٍ * رَدَاحٍ، وإن صاحَتْ فَصوْلَةُ حازِمٍ،

وإن أقلعَتْ قالتْ لها الرِّيحُ: ليتَ لِى * خَفَا ذِى الخَوافِى أو قُوَى ذِى القَوادِمِ.

فأنعِمْ بهـا فى البُعْــدِ زَادُ مُسَـافِرٍ، * وأحْسِــنْ بها فى القُرْبِ تُحْفَــةُ قادِمِ!

فلَوَى الثالثُ جِيدَه إليها، وعطَف بوَجْهِ إقباله عليها؛ فلجَّتْ فى ترفُّعها مُمْعِنَه، ثم نزلتْ على حُكْمِه مُذْعِنَه؛ فأعجلها عن استكمال الهُبُوط، واستولى عليها بعد استمرار القُنُوط.

وحاذَتْها لَغْلَغةٌ تَحْكِى لَوْنَ وَشْيِها، وتصِفُ حُسْنَ مَشْيِها؛ وتُرْبِى عليها بغُرّتِها، وتُنافِسها فى المَحاسن كضرَّتِها؛ كأنها مُدامةٌ قُطِبتْ بمـائِها، أو غمامةٌ شفَّتْ عن بعض نُجُوم سَمـائِها:

بغُـــرّةٍ بيْضاءَ ميمُـــونَةٍ * تُشْرِقُ فى اللَّيلِ كبَدْرِ التَّمامِ!

وإن تَبدَّتْ فى الضُّحَى خِلْتَها * فى الحُلَّةِ الدَّكْناءِ بَرْقَ الغَمَامِ!

فنَهَض الرابعُ لاستقبالهـا، ورَماها عن فَلَكٍ سَعْدِه بنَجْمِ وَبالِهـا؛ فجَدَّتْ فى العُلُوِّ مُبْتدَّه، وتطاردتْ أمامَ بُنْدُقِه ولولا طِرادُ الصَّيْدِ لم تكُ لَذّه؛ وانقضَّ عليها من يده

شهابُ حَتْفِها، وأدركها الأجَلُ لخفَّة طَيرانها من خَلْفِها؛ فوقعتْ من الأُفُقِ فى كَفِّه، ونَفَر مافى بقايا صَفِّها عن صَفِّه .

واتتْ فى إثْرِها أَنِيسةٌ آنِسَه، كأنَّها العَذْراءُ العَانِسَه، أو الأدْمَاء الكَانِسَه؛ عليها خَفَر الأبكار، وخِفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكار، وحَلاوةُ المَعَانى التى تُجْلىٰ على الأفكار؛ ولها أُنْسُ الرَّبِيب، وإدْلَال الحَبِيب، وتَلَفُّتُ الزائر المُرِيب من خَوْف الرَّقيب؛ ذَاتُ عُنُقٍ كالإبريق، أو الغُصْنِ الوَرِيق، قَدْ جمعَ صُفْرة البَهارِ إلىٰ حُمْرة الشَّقيق؛ وصَدْرٍ بَهِىِّ الملبوس، شَهِىٍّ إلى النفوس، كأنَّما رُقِم فيه النهارُ باللَّيلِ أو نُقِش فيه العَاجُ بالآبَنُوس؛ وجَناحٍ يُنْجِيها من العَطَب، يَحْكى لونُها المَنْدَلَ الرَّطْب لولا أنه حَطَب :

مُدَبَّجَــةُ الصَّـــدْرِ تَفْوِيفُـــهُ * أَضَاف إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهارِ!
لهــا عُنُـــقٌ خَالَه مـن رآه * شَـــقَائِقَ قد سُيِّجَتْ بالبَهارِ!

فوثبَ الخَامِسُ منها إلى الغَنِيمه، ونظم فى سِلْكِ رَمْيِه تلك الدُّرَّةَ اليَتِيمه، وحصَّل تَحْصِيلها بين الرُّماة على الرُّتْبَة الجَسِيمه .

وأَتَىٰ علىٰ صَوْتِها حُبْرُجٌ تَسْبِق هِمَّتُه جَنَاحَه، ويَغْلِب خَفْقُ قَوَادِمِه صِياحَه؛ مُدَبَّجُ المطا، كأنَّما خَلَع حُلَّةَ مَنْكِبَيْه على القَطَا؛ يَنْظُرُ من لَهَب، ويَخْطُو علىٰ رِجْلَين من ذَهَب :

يَزُور الرِّياضَ، ويَجْفُو الحِياض * ويُشْبِه فى اللَّوْنِ كُدْرَ القطا،
ويَغْوِى الزُّرُوعَ ويَلْهُو بهـا، * ولا يَرِدُ المـاءَ إلا خَطَـا!

فبَدَره السادسُ قبل ارتفاعِه، وأعانَ قَوْسَــه بامْتِداد بَاعِه، فخَرَّ على الأَلَاءِ كَبِسْطَامِ ابن قَيْس[1]، وانْقَضَّ عليه رَامِيه فحمله بحِذْقٍ وحمله بكَيْس .

(١) يشير الى قول الشاعر فى بسطام :
فخَرَّ على الألَاءَةِ لم يُوَسَّـدْ * كأنّ جبينه سَيْفٌ صقيلُ :
الألاء بوزن العلاء شجرٌ والألاءة أخص منه .

وتعذّر على السّابع مرامُه، ونبا عن بلوغ الأرب مقامُه؛ فصعد هو وتِربٌ له إلىٰ جبل، وثبت فى موقفه من لم يكن له بمرافقتهما قبلَ .

فعنّ له نَسرٌ ذو قوائمَ شداد، ومناسرَ حداد . كأنّه من نُسور لُقمانَ بنِ عاد؛ تحسبه فى السماء ثالثَ أخوَيه ، وتخالُه فى الفضاء قُبَّتَه المنسوبةَ إليه ؛ قد حلق كالفُقراء راسَه، وجعل مما قصّر من الدُّلوق الدُّكنِ لِباسَه ؛ واشتمل من الرِّياش العسَلِيِّ إزارا، وألِف العُزْلةَ فلا تجِدُ له إلا فى قُنَن الجبال الشَّواهِق مزارا ؛ قد شابتْ نَواصى اللَّيل وهو لم يَشِب، ومضتِ الدُّهورُ وهو من الحوادثِ فى معْقِل أَشِب :

مَليكُ طُيُورِ الأرضِ شرْقًا ومغرِبًا * وفى الأُفُقِ الأعلىٰ له أخَوانِ!

له حالُ فتّاكٍ، وحِلْيةُ ناسِكٍ، * وإسْراعُ مِقْدامٍ، وفَتْرةُ وَانِ!

فدنا من مَطاره، وتوخَّىٰ ببُنْدقه عُنُقَه فوقع فى مِنْقاره ؛ فكأنّما هدّ منه صخرا، أو هدم به بِناءً مُشْمخِرّا ؛ ونظر إلىٰ رفيقِه، مُبشِّرًا له بما آمتاز به عن فريقِه .

وإذا به قد أظلته عُقابٌ كاسر، كأنّما أضلّتْ صيْدًا أفلتَ من المَناسر ؛ إن حطّت فسحابٌ آنكشف، وإن أقامتْ فكأنَّ قُلوبَ الطَّيرِ رطْبًا ويابِسًا لدىٰ وكْرِها العُنّابُ والحَشَف، بعيدةُ ما بين المنَاكِب :

إذا أقلعتْ بجّتْ عُلُوًّا كأنّما * تُحاوِلُ ثأْرًا عند بعْضِ الكواكِبِ!

يُرَى الطَّيْرُ والوَحْشُ فى كَفِّها * ومِنْقارِها ذا عِظامٍ مُزالَه .

فلَوْ أمكن الشَّمْسَ من خوْفِها * إذا طَلَعتْ ما تَسمَّتْ غَزالَه!

فوثب إليها الثامنُ وثبةَ ليث قد وثِق من حركاته بنجاحها، ورماها بأوّلِ بُنْدقة فما أخطأَ قادمةَ جناحها ؛ فأهوتْ كعوْدٍ صُرِع ، أو طوْدٍ صُدِع ؛ قد ذهب باسُها ،

وتَذْهَب بدَمِها لِباسُها، وكَذٰلك القَدَرُ يُخادِعُ الجَوَّ عن عُقابِه، ويَسْتَنْزِلُ الأعْصم من عِقَابِه، فحملها بجَناحِها المَهِيض، ورَفَعها بعـد التَّرفُّع فى أَوْجِ جَوِّها من الحَضيض، ونزلَ إلىٰ الرُّفْقه، جَذِلًا برِبْح الصَّفْقه .

فوجد التَّاسِعَ قد مرَّ به كُرْكىٌّ طويل الشَّـفَار، سَرِيعُ النِّفار، شَهِىُّ الفِراق، كَثِير الاغْتراب يَشْـتُو بمِصْر ويَصِيفُ بالعِراق، لقَوَادمه فى الجَوِّ حَفِيف، ولأَدِيمه لَوْنُ سَماءٍ طَرَأ عليها غَيْمٌ خفيف، تَحِنُّ إلىٰ صَوْتِه الجَوَارِح، وتَعْجب من قُوَّته الرِّياح البَوارِح، له أَثَرُ حُمْرةٍ فى رأْسه كوَمِيض جَمْرٍ تَحْت رَماد، أو بَقِيَّة جُرْحٍ تحت ضِمـاد، أو فَصِّ عَقِيقٍ سَفَت عنه بَقَايا ثِمـاد، ذُو مِنْقارٍ كسِنَان، وعُنُقٍ كعِنَان، كأنَّمـا يَنُوس، علىٰ عُودَيْن من آبَنُوس :

إذا بَدَا فى أُفُـقٍ مُقْلعًا * والجَوُّ كالمَـاءِ تَفَاوِيفُهُ :
حَسِبْتَه فى لُجَّـةٍ مَرْكَبًا * رِجْلاه فى الأُفْقِ مَجَادِيفُهُ !

فصَبَر له حتَّىٰ جازه مُجَلِّيا، وعَطَف عليه مُصَلِّيا، فخرَّ مُضَرَّجًا بدَمِه، وسَقَط مُشْرِفًا علىٰ عَدَمه، وطالمَـا أفلتَ لَدَى الكَوَاسِر من أظْفَارِ المَنُون، وأصابَه القَدَرُ بحَبَّةٍ من حَمَإٍ مَسْنُون، فكَثُر التكبيرُ من أجْلِه، وحَمَله علىٰ وَجْهِ المـاء برِجْلِه .

وحاذاه غِرْنَوْقٌ حكاه فى زِيِّه وقَدْرِه، وآمتاز عنـه بسَوَادِ رَأْسه وصَـدْرِه، له رِيشَتَان مَمْدُودتان من رَأْسِه إلىٰ خَلْفِه، معقودتان من أُذُنَيْه مكان شَنْفِه :

له مِنَ الكُرْكِىِّ أوْصَافُـهُ * سِوَىٰ سَوَادِ الصَّـدْرِ والرَّاس.
إن شَالَ رِجْلا وآنْبَرَىٰ قَائِمًا * أَلْفَيْتَـه هَيْئَـةَ بِرْجَاس!

فأصْغَى العاشرُ له مُنْصِتا، ورَماه مُتَلَفِّتا، فخرّ كأنَّه صَرِيعُ الأَلْحَان، أو نَزِيفُ بِنْتِ الحَـان، فأهوىٰ إلىٰ رِجْله بيَدِه، وآنقضَّ عليه آنقضاضَ الكَاسر علىٰ صَيْدِه .

وتبعه فى المَطار ضُوع[1]، كأنَّه من النُّضار مَصْنُوع؛ تَحْسَبه عاشِقًا قد مَدَّ صَفْحَته، أو بَارِقًا قد بَثَّ لَفْحَتَه :

طَوِيلَةٌ رِجلاه مُسْـوَدَّةٌ * كَأَنَّمـا مِنْقـارُهُ خَنْجَرُ:
مِثْـلُ عَجُوزٍ رَأْسُها أَشْمَط * جَاءَت وفى رَقَبَتِها مِعْجَرُ!

فاستقبله الحادى عَشَر ووَثَب، ورماه حين حَاذَاه من كَثَب؛ فسقط كفَارِسٍ تَقَطَّر عن جَوَادِه، أو وَامِقٍ أُصِيبَتْ حَبَّةُ فُؤَادِه؛ فحَمَلَه بسَاقِه، وعَدَل به إلىٰ رِفَاقِه .

وٱقترن به مِرْزَمٌ له فى السماء سَمِىٌّ معروف، ذُو مِنْقارٍ كصُـدْغٍ مَعْطوف؛ كأن رِيَاشَه فَلَقٌ ٱتَّصَـل به شَفَق، أو مَاءٌ صافٍ عَلِق بأطرافه عَلَق :

له جِسمٌ من الثَّلْج * علىٰ رِجْلينِ من نَارِ :
إذا أَقْلَـعَ لَيْـلًا قُلْـتَ بَرْقٌ فى الدُّجىٰ سَارِى!

فانتحاه الثانى عشر مُيَمِّمًا، ورماه مُصَمِّمًا؛ فأصابه فى زَوْرِه، وحَصَّله من فَوْرِه، وحصل له من السُّرور ما خرج به عن طَوْرِه .

وٱلتحق به سَبَيْطر، كأنه مِذَبَّةٌ مُبَيْطِر؛ يَنْحطُّ كالسَّيْل، ويَكُرُّ على الكَوَاسِر كالخَيْل، ويجمع من لَوْنَيْه بين ضِدَّيْن يُقْبِلُ منهما بالنَّهار ويُدْبِر باللَّيل؛ يتَلَوَّىٰ فى مِنْقاره الأَيْم، تَلَوِّىَ التِّنِّين فى الغَيْم :

تَراهُ فى الجَوِّ مُمْتَدًّا وفى فَمِـه * من الأَفَاعِى شُجَاعٌ أَرْقَمٌ ذَكَرُ:
كأنَّه قَوْسُ رَامٍ عُنْقُه يَدُها * ورِجْلُه رِجْلُها والحَيَّةُ الوَتَرُ!

---

(١) هو بضم الضاد المعجمة وكسرها مع فتح الواو . وورد فى الجزء الثانى (ص ٦٤) من هذا الكتاب : "صُوغ" وٱنظر ما كتبناه عليه فى الحاشية الثانية هناك .

فصوّب الثالثَ عَشَر إليـه بُنْدُقَه ، فقطع لَحْيَـه وعُنُقَه ؛ فوقع كالصَّرْح المُمَرَّد ، أو الطِّرَاف المُمَدَّد .

وٱتَّبعه عِنَازٌ أصبح فى اللَّوْن ضِدّه ، وفى الشَّكْلِ نِدّه ؛ كأَنَّه لَيلٌ ضَمَّ الصُّبحَ إلىٰ صَدْره ، أو ٱنطوىٰ علىٰ هَالَةِ بَدْرِه :

تَرَاه فى الجَوِّ عند الصُّبح حينَ بَدَا * مُسْوَدّ أجْنِحَةٍ مُبْيَضَّ حَيْزُومِ :

كَأَنَّه حَبَشِىٌّ عَامَ فى نَهَـرٍ * وضَمَّ فى صَدْرِه طِفْلًا من الرُّومِ !

فنهض تَمَـامُ القوم إلى التَّتِمَّه ، وأسفرتْ عن نُجْحِ الجماعة تلك اللَّيْلَةُ المُدْلَهِمَّه ؛ وغَدا ذلك الطَّيْر الواجِبُ وَاجِبا ، وكَمُل العددُ به قبل أن تُطْلِعَ الشمسُ عَيْنًا أو تُبْرِزَ حاجِبا ؛ فيالَهَا لَيْلَة حضَرنا بها الصادِحَ فى الفَضَاء المُتَّسِع ، ولَقِيتْ فيها الطيرُ ما طارتْ به من قَبْلُ علىٰ كلِّ شَمْلٍ مُجْتَمِع ؛ وأصبحت أشْـلاؤُها علىٰ وَجْه الأرض كفرائِدَ خَانَها النِّظام ، أو شَرْبٍ كأنَّ رقابَهـم من اللِّينِ لم يُخْلَق لهنّ عِظَام ، وأصـبحنا مُثْنِين علىٰ مَقَامنا ، مُنْثَنِين بالظَّفَرِ إلىٰ مُسْتَقَرِّنا ومُقَامِنا ؛ دَاعِين للولىّ جُهْدنا ، مُذْعِنِينَ له قَبِلَنا أو رَدّنا ؛ حَامِلين ما صَرَعْنا إلىٰ بين يديه ، عَامِلينَ على التَّشَرُّف بخِدْمتِه والانْتماءِ إليه :

فَأَنْتَ الذى لم يُلْفَ مَن لا يَوَدُّه * ويُدْعىٰ له فى السِّرِّ أو يُدَّعَىٰ لَه :

فان كَانَ رَمْىٌ ، أنْت تُوضِحُ طُرْقَه ، * وإنْ كَانَ جَيْش : أنْتَ تَحْمِى قَبِيلَه !

والله تعالىٰ يجعل الآمَالَ مَنُوطَةً به وقد فَعَل ، ويجعله كَهْفًا للأَولياء وقد جعل ؛ بمَنِّــه وكَرَمِه :

الفصل الرابع

من الباب الأوّل من المقالة العاشرة

(فى الصَّدُقات ، وفيه طَرَفان)

الطرف الأوّل

(فى الصَّدُقات المُلُوكيَّة وما فى معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوّج سلطانٌ أو ولَدُه أو بِنْتُه أو أحدٌ من الأمراءِ الأكابرِ وأعيانِ الدَّوْلة أن تُكْتبَ له خُطْبةُ صَدَاقٍ تكون فى الطُّول والقِصَر بحسب صاحب العَقْد، فتطالُ للملوك وتُقَصَّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخةُ صَدَاقٍ، كُتِب به للملك السَّعِيد بَرَكَة ، ٱبنِ السلطان الملك الظاهر بِيبَرس البُنْدُقْدارِىّ، علىٰ بنْتِ الأمير سَيْف الدِّين قَلَاوُون الصالحىّ الألْفِىّ قبل سَلْطَنته، بالقَلْعة المحروسة، من إنشاء القاضى مُحْيِي الدِّين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله مُوَفِّق الآمال لأسْعَدِ حَرَكه، ومُصَدِّق الفَأْل لمن جَعَل عنده أعْظَم بَرَكَه، ومُحقِّق الإِقبال لمن أصبح نَسِيبُه سُلْطانَه وصِهْرُه مَلِكَه ؛ الذى جعل للأولياء من لَدُنْه سلطاناً نَصِيرا ، ومَيَّز أقْدَارهم بٱصْطِفاء تَأَهُّلِه حتّىٰ حَازُوا نَعِيماً ومُلْكاً كَبِيرا ؛ وأفْرد فَخَارَهم بتَقْرِيبه حتّىٰ أفاد شَمْسَ آمالهم ضِيَاءً وزاد قَمَرها نُورا ، وشَرَّف به وُصْلَتهم حتّىٰ أصبحَ فضلُ الله عليهم بها عظيماً وإنعامُه كَثِيرا ؛ مُهَيِّئِ أَسْبابِ التَّوْفيق العاجلةِ والآجِله ، وجَاعِلِ رُبوعِ كلِّ إِمْلاكٍ من الأَمْلاك بالشُّموسِ والبُدُور والأَهِلَّة آهِلَه ، جامعِ أطْراف الفَخَار لذَوِى الإِيثار حتّىٰ حَصَلت لهم النِّعمةُ الشاملةُ وحلَّت عندهم البَرَكة الكَامِلَه .

نَحْمَدُه علىٰ أن أحسنَ عند الأولياء بالنِّعمة الاستيداع، وأجْمَل لتأْميلِهم الاسْتِطْلاع، وكَمَّل لأَخْيـارِهم الأَجْناسَ من العِزِّ والأنواع، وأَتَىٰ آمالَهم بمـا لم يكن فى حساب أحْسابِهم من الابتداء بالتَّخويل والابتداع؛ وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً حسـنةَ الأَوْضاع، مَلِيَّةً بتَشْرِيف الألسِنةِ وتكريم الأَسْماع؛ ونُصَلِّى علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى أعلى اللهُ به الأقدار، وشَرَّف به المَوَالِىَ والأَصْهار، وجعـل كَرَمَه دارًّا لهم فى كلِّ دار، وفَخْرَه علىٰ من اسْتَطْلَعَه من المهاجرين والأنصار مُشْرِقَ الأنوار، صلّى الله عليه وعليهم صلاةً زاهيةَ الأَزْهار، يانِعَةَ الثِّمـار.

وبعـدُ، فلو كان اتصالُ كلِّ شىءٍ بحسب المُتَّصِل به فى تَفْضِيله، لمـا اسْتَصْلَح البَـدْرُ شيئًا من المنازل لنُزُوله، ولا الغَيْثُ شيئًا من الرِّياض لهُطُوله، ولا الذِّكْر الحَكِيم لِسانًا من الألسِنة لتَرْتِيلِه، ولا الجَوْهَرُ الثمينُ شيئًا من التِّيجَانِ لحُلُوله؛ لٰكن ليَتَشَرَّف بيْتٌ يَحُلُّ به القَمَر، ونَبْتٌ يَزُوره المَطَر، ولِسانٌ يتعوَّذُ بالآيات والسُّوَر، ونِثارٌ يَتَجَمَّلُ باللآلئ والدُّرَر؛ ولذلك تجمّلتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم أَصْهارُه وأصحابُه، وتشرَّفَتْ أنْسابُهم بأنْسابِه؛ وتَزَوّجَ صلَّى الله عليه وسلم منهم، وتَمَّتْ لهم مَزِيَّة الفَخَار حتى رَضُوا عن الله ورَضِىَ عنهم.

والمُرَتَّب علىٰ هذه القاعدة الفاضلةِ نُورٌ يَسْتَمِدُّه الوُجود، وتَقْرِيرُ أمْرٍ يقارن سَعْدَ الأَخْبِيةِ منه سَعْدُ السُّعود؛ وإظهارُ خِطْبةٍ تقول للثُّرَيَّا لانتظام عُقُودها: كَيْف، وإبْرازُ وُصْـلَةٍ يتجمَّلُ بتَرْصِيع جَوْهَرِها مَتْنُ السَّـيْف الذى يَغْبِطُه علىٰ إبداع هذا الجَوْهَر به كلُّ سَـيْف؛ ونَسْـجُ صِهارةٍ يَتِمُّ بها ـ إن شاء الله ـ كلُّ أمرٍ سَـدِيد، ويَتَّفِقُ بها كلُّ توفيقٍ تَخْلَق الأَيَّام وهو جَدِيد، ويُخْتارُ لها أَبْرَكُ طالعٍ: وكيف لا تكون البَرَكة فى ذلك الطَّالِـع وهو السَّعيد؟ .

وذلك بأن المَرَاحِمَ الشريفةَ السلطانيةَ أرادتْ أن تُحَصِّنَ المجلسَ السامىَّ بالإحسان المُبْتكَر، وتُفرِدَه بالمَواهِب التى يُرْهَفُ بها الحدُّ المُنتضىٰ ويَعْظُم الجَدّ المُنتظَر، وأن تَرْفع من قَدْره بالصِّهارَةِ مثْل ما رَفَعه صلى الله عليه وسلم من قَدْر صَاحِبَيْه : أَبى بَكْرٍ وعُمَر، فخَطَب إليه أسْعَدَ البَرِيَّه، وأَمْنَع من تَحْمِيها السيوفُ المَشْرَفيَّه، وأَعَزَّ من تُسْبل عليها سُتور الصَّوْنِ الخَفِيَّه، وتُضْربُ دونَها خُدُورُ الجَلال الرَّضِيَّه، وتَجَمَّلُ بنعوتها العُقُود : وكيف لا ؟ وهى الدُّرَّة الأَلْفيَّه؛ فقال والدُها وهو الأميرُ المذكورُ : هكذا تُرْفَع الأقدارُ وتُزان، وكذا يكون قِرَان السَّعْد وسَعْدُ القِرَان! ! !؛ وما أسْعد رَوْضًا أصبحتْ هذه المَرَاحِم الشريفةُ السلطانيةُ له خَمِيلَه! ، وأشْرَف سَيفًا غَدَتْ مِنطَقَةُ بُرُوجِ سَمَائِها له حَمِيلَه! ؛ وما أعْظَمَها مُعجِزَةً آتَت الأولياءَ من لَدُنْها سُلْطَانا! ، وَزادَتْهم مع إيمانهم إيمانا! ؛ وما أفْخَرها صِهَارةً يقول التوفيق لإبرامها : لَيْت! ، وأَشْرَفَها عُبُودِيَّةً كُرِّمَتْ سَلْمانَها بأن جَعلَتْه من أَهْلِ البَيْت! .

وإذ قد حصلتْ الاستخارةُ فى رَفْع قَدْر المملوك، وخَصَّصتْه بهذه المَزِيَّة التى تقاصرتْ عنها آمالُ أكابر الملوك؛ فالأمْرُ لِمَلِك البَسِيطة فى رَفْع درجات عَبِيده كيف يَشاء، والتَّصدُّق بما يَتفَوَّهُ به هذا الإنشاء؛ وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ مباركٌ تحاسدَتْ رِماحُ الخَطِّ وأقْلام الخَطِّ علىٰ تَحْرِيره، وتَنافَسَتْ مَطَالِع النُّوّار ومَشَارِقُ الأَنْوار علىٰ نَظْم سُطُوره؛ فأضاءَ نُورُه بالجلالة وأَشْرق، وهَطَل نَوْءُه بالإحسان فأَغْدَق، وتَنَاسَبَتْ فيه أجناسُ تَجْنِيس لَفْظ الفَضْل فقال الاعتراف: هذا ما تَصَدَّق، وقال العُرْفُ : هذا ما أصدقَ مولانا السلطانُ : أصْدَقَها ما مَلأَ خزائنَ الأحْساب فخَارا، وشَجَرة الأنْساب ثِمارا، ومِشْكَاةَ الجلالة أنْوارا، وأضافَ إلىٰ

ذلك ما لولا أدبُ الشَّرْع لكان أقاليمَ ومَدائنَ وأمْصارا، فبَذَل لها من العَيْنِ المِصْرىّ ما هو باسِمِ والدها قد تَشَرَّف ، وبنُعُوتِه قد تَعَرَّف ، وبين يَدَىْ هِباتِه وصَدَقَاتِه قد تَصَرَّف .

* * *

وهذه نسخةُ صداقِ المَقام الشَّريفِ العالى السَّيْفىِّ أنُوك ، ولَدِ السلطان الشَّهيد المَلك النَّاصر «محمدِ بن قَلاوُون» علىٰ بِنْتِ المقرِّ المَرْحوم السَّيفىّ «بكتمر الساقى» . وكان العاقِدُ قاضىَ القُضاة جلالَ الدِّين القَزْوِينىّ، والقابِلُ السلطانَ المَلِكَ الناصر والِدَ الزَّوْج، وهى :

الحمـدُ لله مُسَيِّر الشَّمسِ والقَمَر، ومُيَسِّر حَياةِ كلِّ شيءٍ بٱتصال الرَّوْض بالمَطَر، ومُبَشِّرِ المتَّقِينَ من دَرارِىِّ الذَّرارِى بأسْعَدِ كَوْكَبٍ يُنْتَظَر ، وأحْمَـدِ عاقبةٍ تَهْتَزُّ لها أعطافُ عظماء الملوك علىٰ كِبَر، وتَنْجابُ عن الأنجاب كما تَتَفَتَّح الأكمام عن الثَّمَر؛ الذى مَدَّ من الشَّجَرةِ المباركةِ الملوكيَّة فُروعًا ٱلْتَفَّتْ بَعْضها علىٰ بَعْض، ورَفَّتْ علىٰ من ٱستظلَّ بها فَواقَبَ السماءَ على الأرض .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمه التى أطَابَتْ لنـا جَنَى الغُرُوس ، وأطالَتْ منـا مُنَى النُّفُوس ، وأطافَتْ بمُلُوكنا حتَّىٰ مُدَّتْ لسُؤالهم الأيْدِى وخَضَعَتْ لأمرِهم الرُّؤُوس؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَتَّخِذها عِصْمةً نافعـه ، ونِعْمةً لحُسْن العاقبـة جامِعَه ، ورحمـةً تُبارِك علىٰ أئمَّتِنا وعلىٰ أبنائهـم البُدُورِ الطالعه ، والأنوارِ الساطعه، والبُرُوقِ اللَّامعه، والغُيُوثِ الهَامِعه، والسُّيولِ الدَّافعه، والسُّيُوفِ القَاطِعه، والأُسُود التى هى عن حَرَمِ حَضْرتِها مَانِعه؛ ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أزَانَ من تمسك له بحَسَب، وشَرَّفَ من ٱعتزىٰ إليه بالقُرْبىٰ أو ٱعْتَزَّ منه بصِهْرٍ أو نَسَب؛

صلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين أرضاهم ورضِىَ عنهم، وكرّمهم بصلَته الشريفة لما زوَّجهم وتزوَّج منهم؛ وسلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ، فإنَّ من عادة الغَمام أن يتفقَّد الأرضَ بمطَرِه ، والبَحْرِ أن يَسْقِىَ الزُّروع بما فاضَ من نَهره؛ والمَصابيحِ أن تمدَّ بأنوارها ما يتوقَّد ، والسَّماءِ أن لا يَخْلُو أُفُقُها من اتّصال فَرْقَدٍ بفرقَد ؛ ولو توقَّفتِ القُرْبىٰ علىٰ مُقارَبة كبير ، أو مُقارَنة نَظير ، لما صَلحتِ الأغْمادُ لمَضاجِع السُّيوف ولا دَنَتِ الكَواكبُ من الشَّمس والقَمر المُنير ؛ ولا صافَحتْ يَمِينٌ شِمالا ، ولا جَاوَرتْ جَنُوبٌ شَمالا ؛ ولا حَوَتِ الكَنائنُ سِهاما ، ولا جَمَع السِّلْكُ للجواهر نِظاما ؛ ولا طَمَح طَرْفٌ إلىٰ غايه ، ولا قَدَر لِسانُ إنسانٍ علىٰ تلاوة سُورَةٍ ولا آيه ؛ وإنَّما الصَّدَقات الشَّريفة المُلُوكية لها فى البرّ عَوَائد، وفى الخَيْر سَجَايَا يقتدِى فيها الوَلَد بالوَالِد .

ولم يَزَل من المقام الشريف ، الأعْظمِ ، العَالى ، المَوْلَوىِّ ، السُّلطانِىِّ ، المَلَكِىّ ، النَّاصِرىّ ، أعزَّ الله سُلْطانَه علىٰ من لاذ به تُسْبَلُ ذُيول الفَخار ، وتُودَع فى هَالَاتِ أَقْمارِهم وَدَائعُ الأَنْوار ، وتُؤَهَّل أَهِلَّتهم لأن يكون منها أَحَدُ الأَبَوَيْنِ لذُرِّيَّته الأطهار ، وتَخْطُب من حُجُبِهم كلَّ مَصُونةٍ يَغُور بها بَدْر الدُّجىٰ وتَغَار منها شَمْسُ النَّهار .

وكان من تَمام النِّعمة الشريفة السلطانية ، النَّاصِريَّة ، علىٰ من تعرّض لسَحَابِها المَاطِر ، ووَقَف للاغْتراف من بَحْرِها الزَّاخر - ما رفعتْ به ذِكْره إلىٰ آخر الأَبَد ، وأتَمَّتْ له السعادةَ إذ كان يُعَدّ فى جُدُود من يُنْسب إليه من وَلَد ؛ وأكَّدتْ له بالقُرْبىٰ مَزِيَّةَ مَزِيد ، واستخرجتْ من بَحْره جَوْهرةً لا يَطْمَعُ فى التَّطوُّق بها كُلُّ جِيد ؛ وقالتْ : نَحْنُ أحقُّ بتكميل ما بَنَيْنا ، وتَخْوِيل الخُؤُولَة مَن أَوْلَيْنا ، وتَأْهِيل من قرّبنا عَيْنًا وقَرَّبْناه إلينا ، وتَفْضِيل غَرْس نِعْمةٍ نحنُ غَرَسْناه واجْتَنَيْنا ثَمَراته بيَدَيْنا .

فاقتضىٰ حُسْنُ الآختيار الشريف المَلَكىّ الناصرىّ، لولَدِه المقام العالى السَّيْفىّ، أحسن الله لهما الآختيار، وأجْرى بإرادتِهما آقتدار الأَقْدار ـ أن تُزَفّ أتمّ الشموس إلىٰ سُتُوره الرفيعه، وتُصانَ أَكْمَلُ مَعاقِل العقائل بحُجُبِه المَنيعَه، وتُحاطَ أشرفُ الدُّرَرِ فى مُسْتَوْدَعِه، وتُناطَ أَشْرَفُ الدَّرارِىّ بمَطْلَعِه، وتُساقَ إليه الكَرِيمَةُ حَسَبا، العظيمةُ بأَبِيه ـ عظّم الله سُلْطانَه ـ أبَا، الذى كَمْ له فى خِدْمَةِ الدولة القاهرة من مَناقِبَ كالنجوم، ومَذاهِبَ تَشَبَّه بها البرقُ فتَشَبَّثَ بأذْيالِ الغُيُوم، ومَراتِبَ تقدّم فيها على كلّ نَظِيرٍ قال : وما مِنّا إلّا مَن له مَقامٌ مَعْلوم، مَن قَدْرُه لايُسَامىٰ ولا يسام، ورأْيُه لا يُرامىٰ ولا يُرام، وسَيْفُه فى غير طَاعتِنا الشَّريفةِ لا يَشِيمُ ولا يُشَام، وهو «سَيْفُ الدولة» لا كما يُسَمَّى به من آستعارَ هذا اللّقَب فى سَالِفِ الأيام، كم له فى مَرَاضِى سُلْطانِه من رَغْبةٍ بَذَل بها ما لَدَيْه، وسَمَحَ فيها بولَدِه وهو أحبُّ شَىْءٍ إليه، وجاد برُوحِه أو بما هو أعزّ عليه، كم نُبِّهَتْ بعزائمه السُّيوفُ من سِناتِها، كم وُهِبَتْ من مكارمه الأيامُ ما يُعَدّ من حَسَناتِها، كم آلْتَهَبَتْ صَوارِمُه نارًا فَجَرَتْ أنهارًا فُجِّرَتْ من جَنَباتِها، كَمْ لسماء المُلْك بشُهُبِه من حَرَس، وبقُضُبِه من قَبَس، وكَمْ قام وقَعَد فى مَصْلَحةٍ وكان أدْناهم من مَلِكه مَقامًا لمَّا قَامَ وأعلاهُم مجْلِسًا لمَّا جلَس، فَسَمِع المقامُ العالى السَّيْفىُّ وأطاع، وآنتهىٰ إلىٰ ما بَرَزتْ به مَرَاسِم والده ـ أنفذها الله ـ وآمتثل أمْرَه المُطاع، وعَمِل برَأْيه الشريف وهو ناصرُ السُّنّة فقدّم فيها ما آستطاع، وسارَع إلىٰ ما أمَرَ اللهُ به من الأُلْفَةِ والآجتماع، وآتّبع السُّنّة النَّبويّة فى تكثير الأُمّة ذُرِّيةَ أَئِمَّةٍ مُلُوكيّةٍ كلُّ واحدٍ منها له الأُمّة أتْباع، لعِلْمِه اليَقِينِ أنه لو خَطَب له وَالِدُه فى أقطار الأرض إلىٰ جميع الملوك، لم يَجِدْ منهم إلا كلَّ مَلِك عَظِيم وهو له عَبْدٌ مملوك، فأحْيَا سُنَّةً شريفةً مُلُوكيّةً ما برِحَت الخلفاءُ والمُلُوك تحفظ بها قُلُوب أوليائها علىٰ أمداد المَدَىٰ، ويكْفى من هذا مَيْمُونُ فعْلِ «المَأْمونِ» لمَّا تزوّج

« بُورَانَ » من أبيها « ٱبنِ سَهْلٍ » وخَطَب « المعتَضِدُ » إلىٰ « ٱبن طُولُون » ٱبْنَته « قَطْر النَّدَىٰ » .

ورأى والِدُها أعَزَّه الله تعـالىٰ قَدْرا هَالَه مهابَةً فسَـلَّمَ وقال : لِلمَـالِكِ التَّصرُّفُ وللمَلِد التَّصْرِيف ، و إذا ٱقتضَىٰ حُسْنُ النَّظَر الشَّريف تَشريفَ عَبْدٍ فياحَبَّـذَا التَّشْريف ؛ و ياحَبَّذا السَّبَبُ الذى ٱتصلتْ له بالمقام الشَّريف الأسباب ، وٱحْتَفَلَتْ دِيَمُ النِّعَم وٱحْتَفَّت للاجتماع علىٰ سُنَّةٍ وكِتَاب ، فتَحَاسدتْ علىٰ إثباته صُفْرُ الأصائل وحُمْرُ النَّعَم ، وتَنافَسَتْ علىٰ رَقْمِ سُطوره صَحائِفُ السَّـحاب وصَفيحُ المـاء وصَـلِيلُ السَّيْف وصَرِيرُ القَلَم ؛ وتَمَنَّت الكواكِبُ لو ٱجتمعتْ مَوَاكِبَ فى يوْمه المَشْهود ، والمَنَاقِبُ لو أنها حَوْلَه بِمَقانِبَ خَافِقَـةِ البُنُود ؛ ووَدَّتْ نَسماتُ الأسْحار لو كانت هى التى سَعَتْ بالاتِّفاق ، والحَمَائِمُ لو أبِيحَ لها أن تُغَرِّد وتَخْلع مافى أعناقها من الأطْواق ؛ بَل السُّيوفُ لمَّـا رأتْ مَقامَ الجلالة أغْضتْ وغَضَّتِ الأحْداق ، والرِّماحُ لمَّـا بَدَا لها سَرِيرُ الملك مائِلًا وقَفَتْ علىٰ سَاق .

فبرزت المَرَاسِمُ الشريفةُ ــ زادها الله شَرَفًا ــ بتَحْرِيرِ هذا الكِتَابِ الكَرِيم ، وتَنْضِيد ما يَصْلُح من الدُّرَرِ لهذا العِقْدِ النظيم ؛ ونَفَّذ المرسومُ العالى المولوىُّ السلطانىُّ ماأمر به وصَدَّق ، وتَأَدَّب إجلالًا لمقام أبيه الشريف فأطْرق ، وتَوَاضَع لله فلم يقلْ : هذا ما تَصَدَّق ؛ بل قال : هذا ما أصْدَق المقامُ العالِى السَّيْفىُّ أنُوكُ ٱبنُ مولانا السلطان الأعظم ، مالكِ رقاب الأمَمِ ، المَلِك النَّاصر ، السَّيِّد الأجَلّ ، العالم ، العَادل ، الغَازى ، المُجاهِد ، المُؤَيَّد ، المُرابِط ، المُثاغِر ، المُظَفَّر ، المَنْصور ، الشَّاهَنْشاه ، ناصر الدنيا والدِّين ، سُلطانِ الإسلام والمسلمينَ ، مُحْيِى العَـدْل فى العالَمين ، مُنْصِف المَظْلومين من الظالمين ، مَلاذِ البَسِـيطة ، ناصِرِ السُّـنَّة ، رُكْنِ الشريعة ؛ ظلِّ الله فى أرْضه ،

القائم بسُنَّته وفَرْضِه ؛ وَارِث المُلْك ، مَلِكِ العَرَب والعَجَم والتُّرْك ، خداوند عالم بادشاه بنى آدم ، بهلوانِ جهان ، شهريارِ إيران ، إسْكَنْدرِ الزَّمان ، مُمَلَّكِ أصحاب المَنَابِر والأسِرَّةِ والتُّخوتِ والتِّيجان ؛ فاتِحِ الأقْطار ، وَاهِبِ المَمَالك والأقَالِيم والأمْصار ، مُبِيدِ البُغاةِ والطُّغاةِ والكُفَّار ؛ صاحِبِ البَحْرين ، حامى الحَرَمَين ، خادِمِ القِبلَتين ؛ كَفيلِ العُبَّاد والعِباد ، مُقِيم شَعائرِ الحَجِّ والجِهاد ؛ إمامِ المُتَّقين ، قَسِيمِ أمير المؤمنين ، أبى المعالى محمد بنِ السلطان الشهيد الملك المنصور ، السَّيِّد ، الأجَلِّ ، العالِم ، العادِل ، المجاهِد ، المؤيَّد ، سيفِ الدِّين ، والدِ المُلوك والسلاطين ، أبى الفَتْح «قلاوون» خلَّد الله سلطانه ، ونَصَر جُنودَه وجُيوشَه وأعْوانَه ـ : الجَنَابَ الكَرِيمَ ، الرفيعَ ، المَنِيعَ ، المَصُونَ ، المَكْنونَ ، الجِهَةَ المُكَرَّمةَ ، المُفَخَّمةَ ، المُعَظَّمةَ ، بنتَ الجَنابِ الكَرِيم ، العالى ، الأميرىِّ ، الأجَلِّ ، الكَبِيرىِّ ، العَالِمىِّ ، العَادِلىِّ ، المُمَهِّدىِّ ، المُشَيِّدىِّ ، الزَّعِيمىِّ ، المُقَدَّمِىِّ ، الغِياثِىِّ ، الغَوْثِىِّ ، الذُّخْرِىِّ ، الأوْحَدىِّ ، الظَّهِيرىِّ ، الكافلىِّ ، السَّيفىِّ ، رُكْنِ الإسلام والمسلمين ، سَيِّد الأمراء فى العالَمين ، نَصِيرِ الغُزَاةِ والمُجاهِدِين ، زعيمِ الجيوش ، مقَدَّمِ العساكر ، عَوْنِ الأمة ، غِياثِ المِلَّة ، ممهِّد الدُّول ، مُشَيِّدِ المَمَالك ، ظَهيرِ المُلُوك والسلاطين ، عَضُدِ أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرىّ ، ضاعف الله نعمته .

أَصْدَقَها ما تَلَقَّتْ به أنسابُها إجلالا ، وبَلَغَتْ به أحْسابُها جَمَالا ، وطلعَتْ فى سماء المُلْكِ هِلالا ، ولَبِستْ نَخَارا ، وقَبَستْ أنْوارا ، وأَوَتْ إلىٰ حِصْنٍ حَصِين ، ووَصَلَتْ إلىٰ مَقامٍ أَمِين ، وا سـ(؟) بأَمْوال وبَنِين ؛ مالولا أَدَبُ الشَّرَف ، وتَجَنُّبُ السَّرَف ؛ والعَمَلُ بالشَّرع فى تَعْيِين مَعْلوم ، وتَبَيُّن مقْدارٍ مَفْهوم ؛ لخَرَج عن كلِّ وَصْفٍ مَحْدود ، وقَدْرٍ معدود ؛ ولمَا قام به مَوْجُود ، ولكان مما تَقلُّ له المَمالك ولا يُسْتَكْثر لأجلِه الوُجُود .

قَدَّم لها من الذَّهَب العَيْنِ المِصْرىّ المَسْكوك ما هو بنَقْدِ ممالك وَالِده معْروف، ومن حُقُوقه مَقْبوضٌ وفى هِبَاتِه مَصْروف ؛ ما يُحْمد مآلا، ويُنَمِّىٰ مالا ، ويأتى كلُّ دِينَارٍ منه ووَجْهُه بذكر الله وٱسْمِ أبيه يتَلَالا .

أَصْدَقها علىٰ بَرَكَةِ الله تعالىٰ وعَوْنِه وتَوْفيقِه كذا وكذا، عَجَّل لها كذا وكذا، قَبَضه وكيلُ والدها من وكيلِه ، قَبْضًا تامًّا كاملًا، وتَأَخَّر بعد ذلك كذا وكذا دِينَارًا حالًّا، علىٰ ما أَمَر اللهُ به من إمساكٍ بمعروف أو تَسْرِيحٍ بإحْسَانٍ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

ووَلِىَ تَزْويجَها منه على الصَّداق المُعَيَّن بإذْن والدها ــ أَعَزَّه الله تعالىٰ ــ المقدّمِ ذِكْرُه : ــ العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ، قاضِى القُضاة، حاكِمُ الحُكَّام، خطيبُ خُطَباءِ المسلمين، جلالُ الدِّين، خالصةُ أمير المؤمنين ؛ أبُو المعالى ، محمد بنُ قاضِى القضاة سَعْدِ الدِّين أبِى القاسم، عبدِ الرحمن ٱبنِ الشَّيخ الإمامِ العالِمِ العلَّامةِ إمامِ الدِّين، أبى حَفْصٍ عُمَرَ بن أحمدَ القَزْوِينىّ الشافعىّ، الحاكِم بالديار المصريةِ المحروسةِ وأعمالها وبِلادِها، وجُنْدها وضَواحيها، وسائرِ الممالك المضافةِ إليها، بالولاية الشَّرْعية، أدام الله أيَّامَه، وأعَزَّ أقْضِيَتَه وأحْكامَه . فقَبِل مولانا السلطانُ ــ خَلَّد الله مُلْكَه ــ لولده المسمَّى ــ أدام الله تعالىٰ نِعْمَتَه ــ ذلك منه قَبُولًا شَرْعِيًّا، يخاطَبُ عليه شِفَاهًا بحُضُور من تَمَّ العَقْد بحُضُوره ، فى دار المُلْكِ بالقَصْر الأَبْلق ، بقَلْعةِ الجَبَل ، حرسها الله تعالىٰ ، بُكْرَة يوم السَّبت حادى عشرين من صَفَر سنة ٱثنتين وثلاثين وسبعمائة .

* * *

وهذه نسخةُ صَدَاق المقرِّ الشَّرِيف إبراهيم بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد ٱبن قلاوون، من إنشاء المَقرّ الشِّهابىّ بن فَضْل الله، وهى :

الحمدُ للهِ مُغْنِي المُلوك بالمُظافَره ، ومُكَثِّر زِينَة الأسمـاء بنُجُومهم الزَّاهِـره ، ومُكَبِّر أقدار الأولياء بمـا تَمَّت النِّعْمَةُ به من شَرَف المُصَاهَـره .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى شَرَّفتْ قَدْرا ، وصَرَّفَتْ أَمْرا ، وأَطْلعتْ من هَالَة البَدْر المُنِير شَمْسًا لا تتخـذ غير الأُفُق خِدْرا ، ولا تَتَمَنَّى الليالى والأيامُ إلا أن تُقَلِّدَها من الأَشِعَّة يَاقُوتًا ومن الكوا كب دُرّا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً تجمعُ من حُماةِ الدِّين نَسَبًا وصِهْرا ، وتَرْفع فى أنباء الأبناء لهـا حَسَبًا وذِكْرا ؛ ونشهدُ أن سـيدَنا محمدًا عبـدُه و رسولُه الذى عَصَم به ، وخصَّ صَفْوةَ الخَلْق فى المصاهـرة باختلاط نَسَبِهم بنَسَبِه ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَستوثِقُ بها الأسْباب ، وتَسْتَوسِق الأنساب ، وتَبْقَىٰ أنوارُها بملْكِ أبنـاء الملوك كَلِمةً باقِيـةً فى الأعقاب ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

و بعـدُ ، فلمَّـا جمع اللهُ بمُلوك البَيْت الشريف المنصورىّ ــ كَثَّر الله عَدَدَهم ــ شَـتَات الإسلام ، ومحَـا ببَوارِق جِهادِهم ما آمْتـدَّ من ظَلَام ؛ حتَّى آنتهت النَّوْبةُ إلىٰ مَن أصبحتْ به الدولة القَاهِـرة وكلُّ أوْقاتها أنوارُ صَـبَاح ، ونُوَّار أَقَاح ، وسَمَاء سَمَـاح ، وأَسْمىٰ نِعَمٍ لا تُعَـدُّ إلا مَعَاقد تيجَان المُلُوك علىٰ كلِّ جَبِينٍ وَضَّاح ؛ المَقَامِ الشريف العـالِى المَوْلوىّ ، السُلْطانىّ ، المَلَكِىّ ، النَّـاصرىّ ، زاد الله شَرَفه ، وأعلىٰ علىٰ شُرُفات بُرُوجِ السماء غُرَفه ؛ فأَحَبَّ ــ لمـا أجراه اللهُ به و بمَن سَلَف من ملوك بَيْته الشريف من تأييدِ هٰـذه الأمَّه ، وتأْييد ما شَمِلها بفُتُوحاتهم المُذْهبات الفُتُوح من سَوَابغ النِّعمه ؛ ــ أن يَعْمل بقَوْل نَبِيِّـه المُشَرَّف بموافقة آسْمِـه ومُتَابَعَة حُكْمه فى التزويج ، وأن تَقَع مَوَاقِعُ أَمْطارِه علىٰ كلِّ أرْض حُرَّة فتُنْبِت كلَّ زَوْجٍ بَهِـيج . وكان من بَنِيـه ــ أدام الله سُعُودَهم ــ مَن يُطيع فى كلِّ أمْرٍ أمْرَه العـالىَ أدام الله تَمْكِينه ، ولولا هذا لمـا رَضِى سوىٰ أقران الفُرْسان له قَرِينَه ؛ وكان من نُجَبائِهم إذا

عُدَّت الأولاد ، وأَحِبَّائهم إذا كان كما يقال : الوَلَد ثَمَرةُ الفُؤاد ؛ ومَن هو لجملتهم جَمَال ، ولدَوْلتهم دَلَال ، ولغَابِهم أَسَد الأَشْبال ــ من يَعْترِفُ كلُّ مَن عرفه بفَضْلِه ، ويؤمَّلُ فى أبنائه ما لأبناء سَمِيِّه إبراهيمَ صلى الله عليه وسلم من برَكَةِ نَسْلِه .

بَرَز المرسومُ الشريفُ العالى ، المَوْلوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصِرىُّ ، أنفذه الله فى الأقطار ــ بأن يُتَخَير لَمغرِسهِ الكريم ، ونَسَبِه الصَّميم ؛ وصَباحه المُشْرِق ، وسَماحِه المُغْدِق ؛ فصادف الإحسانُ مَوْضِعه ، وآنْتُخِبَ له من مَشْرِق البَدْرِ التَّمام مَطْلَعه ؛ ومَن هو من هذه الدَّولة القاهِرة على الحَقِيقَة باليمين ، ومَن هو البَحْر الزَّاخِر ومِن مَكْنُونه يُسْتخْرَج أَنْفَسُ الثَّمين ؛ فبَادَر الخاطِب إليه إلى آغتنام هذا الشَّرَف الذى لا يُطاوَل ، وعاجَلَ هذه النِّعْمة التى لَولا فَضْلُ الله وصَدَقاتُ سُلْطانه ــ خَلَّد الله مُلْكَه ــ ما كانتْ مما تُحاوَل ؛ وقال : إن رَضِيَتْ تلكَ السُّتور بهٰذه المَخْطوبة ، أو أَهَلَّتْ تلك السماءُ العَلْياءُ هٰذه المَحْجُوبة ؛ فهى لما أُهِلَّتْ له فى خِدْمة ذلك المَقام الأمِين ، وهى كما شاء مالِكُها المُتَصدِّق من ذوات العِفَّة وإلا فهى مما مَلَكت اليمين ؛ فأتَمَّتِ الصدقةُ الشريفةُ عَوارِفَها بما هو أشرفُ مَقاما ، وأعظم لها فى رتبة الفَخَار فهى تَسْمُو بهذا ولا تُسامىٰ ؛ وشَرَّفته بما وَصَلَتْ إليه عند المَقرِّ الشريف من المَقَامِ الكريم ، ولم تكُنْ إلا من ذَواتِ العُقُودِ ولا كَيْدَ ولا كرامة لما يَنْجلى به اللَّيْلُ البَهِيم ، ولا لما يَحَلَّى فى جِيدِ الجَوْزاءِ من عِقْدِ دُرِّها النَّظِيم ؛ ولولا إجْلالُ المقامِ عن التطويل لما آختصر القائلُ فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أصدق ... ...

الطـــــرف الثـانى

(فى صَدُقاتِ الرُّؤَساء والأعيانِ وأوْلادِهم)

وهى علىٰ نَحْوٍ من الصَّدُقات المُلُوكِيَّة فى التَّرتِيب، إلا أنها أخْصَر، ومن الألقاب بحَسَبِ أحوال أصحابها من أرْبابِ السيوف والأَقْلام .

وهذه نسخةُ صَدَاق جمال الدِّين عبد الله [بن سيف الدين أبى سعيد أمير حاجب](١) على بنت بيدمر العمرىّ، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله مُبلِّغ كلِّ آملٍ ما يَرجُوه، ورَاعِى ذِمَمِ من لم يَنْسوا عَهْده ولم يُخْلِفُوه، ومُكَمِّل الخَيْر لكل ذى (١) يصدّ من يَجْفُوه، ومُجِيب كُلِّ مُنِيبٍ يَدْعوه قائمـا وقاعدا : ﴿وَلَمَّـا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ .

نحمدُه حمدًا نُكرِّر فَضْــله ونَتْلوه، ونَحُلّ مُعْضَلَه ونَجْلُوه؛ ونشهدُ أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهــادةً يتظافَرُ عليها الآمِرُ المُسْـلم وبَنُوه، وتَبْيضّ بهـا وُجُوه الأوِدَّاء، وتَسْوَدُّ وجوهُ الأعداء، يوم تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وُجوه؛ ونشهدُ أن سَيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى سَــعِد بِه ذَوُوه، وصَــعِد قَدْر صِهْره وحَمُوه، وشَرَّفَ نَسَــبًا ما آلتقىٰ فيه علىٰ سِفَاحٍ هو ولا أَوَّلُوه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صــلاةً لا يزال بها الرَّوْض الأَرِجُ يَفُوه، والسِّحرُ يُبَلِّغُها ولو سَكَتَ وخُتِمَ بالبَرْقِ فُوه؛ وسلَّم تسليماً .

وبعــدُ، فإن أَزْهىٰ زَهْرٍ طاب مُجْتَنوه، وطالَ باعًا فى الفَخَار مُجْتَبُوه؛ زَهْرُ كِمَامَةٍ جَرَت عنها لَأْمَةُ كَمِىّ، وأبرزتْها سُــنَّة الإسلامِ من حِجَابِ ذِى أَنْفٍ حَمِىّ؛ وطَلَعتْ من أُفُقٍ بَدْرِىّ طالمَـا سَنَح مُجْتلُوه، وحمىٰ سَيْفٍ أمِنَ فى كَلَئِه بِكَلَاءَتِه مُخْتَلُوه .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من الصفحة التالية .

وكان الجنابُ الجمَالىُّ عبدُ الله بنُ المرحومِ سيفِ الدِّين أبى سعيدٍ أمير حاجب، أدام الله تعالى عُلاه، ورَحِم أباه؛ هو ولَدَ ذلك الوالد، وطَارِفَ ذلك التالد، ونَشْوَ هٰذِه الدولة الشريفة الكاملية التى أَخَذ منها حَظَّه بالتمام والكمال، وأصبحتْ به كالغَادَةِ الحَسْناءِ ذاتِ الحُسْنِ والجمَال؛ ولم يَمُتْ أبُوه فى أَيَّام سلطانها ــ خلَّد الله مُلْكه ــ حتَّى قَرَّتْ به عَيْنُه، وسَاوَاه فى الإمْرَةِ لولا تفَاوُت العدَّة وقِدَمُ المُدَّة بَيْنه وبَيْنه؛ وجاء منه وَلَدٌ نَجِيب، وٱبنٌ شاعَ وذَاعَ سِرُّ أبيه وحُمِد وهٰذا عَجِيب !!!.

ولمـا ٱنْتَقلَ والِدُه رحمه الله تعالىٰ إلىٰ رحمة رَبِّه، وشَرِب بالكَأْس الذى لا بُدَّ لكلِّ حَىٍّ من شُرْبه ــ تطَلَّب مِثْـلَ ذلك الأَبِ ولم يَزَلْ يَجِدُّ حتَّىٰ وَجَد، وظَفِر بوالدٍ إن لم يكن وَلَدَه حقيقةً فإنه عنده مِثْلُ الوَلَد؛ وهو المَقرّ بيدمر، وهوالوَالِد الذى لم يَفْقد معه من وَالِده ذَرَّه، والأبُ الذى هو أَرْأَفُ من كلِّ أمٍّ بَرَّه؛ والنَّيِّر البَـدْرِىّ الذى سَعِد قِرانا، وصَعِد ودَاسَ بقَدَمِه أَقْرانا، وقسَّم دَهْره شَطْرينِ: نَهارَه للضُّيوف قِرًى ولَيْلَه لله قُرآنا.

هذا إلىٰ أنه طَالمـا طَيَّب لزكاة أمْوالِه وثَمَّرها، وزَيَّن فى أعماله بمَدْرسةٍ عَمَّرها، وقَيَّد شَوَارِدَ حسناته وثَقَّفَها؛ مع أنه شَيَّد المَمـالِكَ وسَدَّدَ أمُورها، وسَدَّ ثُغُورها؛ وحَمىٰ بِبِيضِ سُـيوفه السَّوادَ الأَعْظَم، ورَمىٰ بصوائب سِهامه النَّوائِبَ ولم تُسْتعظم؛ ولم تَزَل نُوَبُ الأيام تُجرِّب منه مِسْوَرِيًّا، وتُجرِّدُ حُرًّا كريمـا جاء فى أوَّلِ السَّنَة صَقْرا بَدْرِيًّا؛ فكان من تمـام بِرِّه بمن سَلَف إجابةُ ولَدِه، وإجَالةُ الرَّأْىِ فيما يكون سببا لِصيانَةِ عَزْمَتِه وذَاتِ يَدِه؛ فأنعم له بعَقِيلَتِه الممنَّعَه، ورَبِيبَتِه التى غَدَت الشمس منها سَافِرَةً مُقَنَّعه؛ وقال: على الخَيْر والخِيرَه، وٱبنُ أخٍ كريم وجَدَعَ الحَلالُ أَنْفَ الغَيْرَه؛ وما أَسْنىٰ عَقْدا يكون مُتَولِّيه، ومُنْشِئَه إحساناً منه ومُسْنِيه؛ مَوْلًى به نُظِمَتْ عقودُ اللآلى، ورُقِمَت بعَلَمِه أعلامُ الأَيَّام وذَوائِبُ اللَّيالِى؛ وسُلِّمت القضايا به إلىٰ مُنَفِّذ

أحكامها، ومُنيــل الفَضْل لحُكَّامِها؛ البَحْرِ الزَّاخِر، والنَّجْم الذى كَمْ ترَكَ الأوَّلُ منه للآخِر؛ والغَمَامِ إلا أنه قَضَتْ صَوَاعِقُه على الخُصُوم، والإمامِ الذى أجمعتْ عليــه السُّنَّة ولم تُنْكِرِ الشِّيعَةُ أنه الإمامُ المَعْصُوم؛ والعالمِ الذى ما برحَتْ بُرُوقُه تُشام، وحُقُوقه علىٰ أهــلِ مِصْر والشَّام؛ والذى وَلَّى الظُّلْمُ مُنْذُ وَلِى، وآعترف ذَوُو الفَضْل والفَصْل فى القَضَاء أَنَّ أتقاهم تَقِىُّ الدِّين وأقضاهم :

قَاضِى القُضَاةِ أبُوالحَسَن * بِبَقَائِه يُجْلَى الحَزَن،
و [هو](١) الذى فى حُكمه * يَجْرِى علىٰ أَقْوَىٰ [سَنَن](١)!
طَــوْدٌ إذا وَازَنْتَــهُ * بالطَّوْدِ فى حُكْمٍ وَزَن!
والبَحْــرُ طَىُّ رِدَائِه * قَلَّدَ(٢) العُقُود بلا ثَمَن!

فأضاء المَحْفِل به وبالحاضرين، وقام شِعار الدين حتّىٰ قال القائلُ : هذه سُيُوف المجاهدينَ وهٰذا ســيف المُناظِرِين؛ وقيل: هــذا وَقْتُ جُودٍ قد حضر، ومَوْضِعُ سُرُورٍ يَنْبَغِى أن يُعَجَّلَ منه ما يُنْتَظر؛ فآبْتَدَأَ السَّعْد مَحياه الوَسِيم، وآفْتتح فقــال :

بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا ... ...

✤

وهٰــذه نسخةُ صَدَاق ناصِر الدِّين مُحمد بن الخطيرى، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمْــدُ لله الذى زاد الأُصُولَ الطَّيِّبةَ قُرْبا، وزَانَ الأنسابَ الطَّاهِرةَ بِصِلَةٍ تتأَكَّد حُبّا، وصانَ كَرَائِم البُيُوت القَدِيمة الفَخَار بمَن يُناضِلُ عن حَسَبِه ذَبا، وبُنَاظِر العَلْياءَ فلم يَبْنِ إلا بين مَنَازل النُّجوم بُيُوتًا ولم يُسْبِلْ سِوىٰ السُّمْرِ سُمْرِ القَنَا حُجْبا .

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من المقام .
(٢) بمعنى جمع .

نحمـدُه حَمْدَ من دعاه قبْـل بثّ النَّسَم فَلَبّىٰ ، وآستدعاه لأَخْذِ العَهْد عليـه أَمَام تَفْريق القِسَم فمـا تأَبَّىٰ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَسْتنطِقُ أَلْسِنةً وتشكرِ قَلْبا، وتَسْتغْدِقُ أنواءَ السُّرورِ فتضِيءُ البَشائرُ بُروقًا وتُمطِر الرَّحْمـةَ سُحبا ؛ ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى قام فى تكْثِير الأمّة حتى زاد عَدَدُها علىٰ مَوَاقِع القَطْر وأَرْبىٰ، وقال مما أَمَر به : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه وعلىٰ أقْرِبائه صلاةً تَضُمُّ آلًا وصَحْبا، ماسَارَت الشُّهُب تَقْطع الآفاقَ شَرْقًا وغَرْبا ؛ وسلَّم تسليماً .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ ما آشْتَبَك وَشِيجُه ، وآشْتَبه فى مَنَابت الأَيْك بَهِيجُه ، وآنْتَبَه فى أَرَائِك الخَمَائِل أَرِيجُه، وآنتَدبَ لإتيانه الأُفُق وظَهر عليه من ذَهَب العِشاء تَمْوِيهُه ومن لَمْع الصَّباح تَدْبِيجُه ـ ما آتُّبِعَتْ فيه الشريعةُ المطَهَّرةُ حيثُ لا تختلِفُ الأَئمّه، والسُّـنةُ النبويَّةُ علىٰ من سَنَّها أفضلُ الصلاة والسـلام فيما تَأْتَلِفُ به البُعَداء وتكْثُر لمباهَاتِه الأمَمَ يَوْم القيامةِ هٰذه الأُمَّه، وتَدْنُو به الأجانب بَعْضهم من بَعْضٍ ويَجْعَـلُ بينهم مَوَدَّةً ورَحْمَـه ، وتُعَدّ به أيادٍ جَمَّةٌ لا تُحْصَر ويُخَـلَّد به فى العاقبة شَرَفُ الذِّكْر ويُتَعجَّلُ به شَرَفُ النِّعْمَه ؛ وهو النِّكاحُ الذى تَشْتدّ به الأَوَاصِر، وتَعْتدُّ به المَوَارِد لتمثيل أكْثَر الصُّوَر من أَزْكَى العَنَاصِر، وتمتدّ به هِمَمُ الأَبْطال لمـا يَسْتخرِجه بحفَدَة أبنـائه من أتَمِّ قُوَّةٍ وناصِر . وأَكْمَلُه ما تمـاثَلَتْ فى أشرف البيوت العَرِيقـة وُجُوهُ نِجَارِه، وتقابَلَتْ فى مَطَالع السُّعودِ ـ حيثُ البَـدْرُ المنيرُ والشَّرَفُ الخطيرُ ـ مَشارِقُ شُمو سه ومَطَالِعُ أَقْمَـارِه .

وكان الأَبَوانِ فى أَهْلِ الفَخَار من جُرْثُومةٍ بَسَـقا ، وأَرُومَةٍ تفرَّقَتْ فُروعُها ثم تلاقىٰ منها غُصْنان وآعْتَنَقا ، من بَيْتٍ ما حُجُبُه إلا مَوَاضِى الصِّـفاح ، ولا شُهُبُه

إلا طَلائعُ الأَسِنَّة فى رُؤوس الرِّماح، ولا سُحُبه إلا ما يَفيضُ علىٰ جَنَباته من النُّفوس او يَفيضُ من السَّماح، ولا سُجُفُه إلا المَنَاقِبُ لولا أن الثُّريَّا جاذبَتْ ما يعْرِضُ فى السماء أَثْنَاءَ الوِشَاح ؛ وكان هو الرَّاغِبَ إلىٰ عَمِّه، الخَاطِبَ إليه ما لم يكن يُخْبَأُ إلا لقِسْمه ؛ الطَّامحَ بنَظَره إلىٰ عَقِيلة الفَخَار فى غُرَفِها، الطَّامعَ بِخِطْبة الشَّمْس شَمْس النَّهار إلا أنها فى بَيْتِ شَرَفِها ؛ المُتوَقِّعَ من كَرَم عَمِّه الإجابةَ التى لحَظَها بأَمَله ، وتَوْلِية يدٍ كَرِيمةٍ لا يَعْتدِلُ الزمانُ إلا إذا حُمِلتْ شَمْسُها فى بَيْتِ حَمَلِه ؛ تَوقُّعًا لنَسْلٍ لا يزال به شَرَفُ هذا البَيْت الكَرِيم مَوْجودا ، ونَسَبٍ إذا عَدَّ وَلَدٌ منه الآباءَ عَدَّ جَدَّيْن سَعِيدَيْن هٰــذا مَسْعُودا وهٰذا مَحْمُودا ؛ فتَلَقَّىٰ قصــدَه بإكرامٍ بَوَّأَه أَكْنَافَ الشَّرَف ، وأَوطَأَه فُرُشَ الكَرَامَة ممتَّعًا بنَعِيم التَّرَف ، ٱبتـداءً للكَرَم المألوف ، وٱتِّباعا للسُّــنَّة الشَّرِيفة إذ كان الأَقْرَبون أَوْلىٰ بالمعروف .

فتَبارَيَا جُودًا سارعَ كلٌّ منهما فى أَدَاءِ حَقِّه إلى الواجب، وتَجَارَيَا إليــه ليَلْحقا شَأْوَ أَبَوَيْهما وكلٌّ منهما يعــلم أنه العَيْن والعَيْن لا تَرْتفِعُ على الحَاجِب، وأَتَمَّ الجناب الشَّرَفىُّ محمودٌ ــ أدام الله نِعْمته بحُسْنِ إجابته، ويُمْنِ رَغْبته فى أَهْلِ عُصْبَته ، وأَهْلَ جُنُودَه إلىٰ أن سَارُوا إلى الهَيْجاءِ تحْت عِصَابَته ــ بأن فوّضَ هــذا الأمر إلىٰ أَخِيه الكبيرِ وَالدِ الخاطب، وسَكَت وقال : هو فى التَّصرف وعَنِّى المخاطب ؛ وله الأَمْرُ ولولا الشَّرفُ بنِسْبةِ الأُخُوَّة إليه لمــا قُلْنا : إلا أَنَّنا مِلْكُ يَده ، وإذا كان العَمُّ صِنْوَ الأَب فأَىُّ فَرْقٍ بين وَلَدِى ووَلَده؟ ، ولَئِن ٱخْتَصَّ فى نِسْبةِ هذه الزَّوجة فى يَوْمِه هذا فإنَّ أولادها لا تُعْرف إلّا به فى غَدِه ؛ فكَمُل هــذا العَقْد، وأَشْرق به السَّعْد الطالِـعُ أَضْوأَ ممَّــا قَدَّم وأَخَّر من النَّقْد ، وكان من تَمَــام التَّكْرِيم، أنْ قال قَائِلُه :

بسم الله الرحمــٰن الرحـــيم ... ...



وهذه نسخةُ صداق القاضى تقِيِّ الدِّين، وهى :

الحمدُ لله الذى رَفَع إلى المَنازِل العَلِيَّة من كان تَقِيّا ، وجَمَع شَمْلَ من لم يبرحْ لسَنَنِ السُّنَن تابِعًا وبها حَفِيّا ، وخَلَع أثوابَ الثَّوابِ علىٰ من سَرَّح طَرَفَ طَرْفِه فى رَوْض التَّأَهُّل وجعله وَضِيّا .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى من هَزَّ جِذْعَ نَخْلِها تساقَطَ عليه رُطَبًا جَنِيّا ، ونَشْـكره علىٰ فَضْله الذى كَمْ أجرىٰ لقاصِـدِه من بَحْرِه المعروف سَرِيّا ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تمنحُ قائِلَها فى غُرَفِ الجَنَّة مكاناً عليّا ، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى آتاه الله الكتابَ وجعله نَبِيّا ، الآمِرَ أمَّتَه بالنِّكاح ليُكاثِرَ بهم الأمَمَ يومَ يُقَرِّبُه اللهُ نَجِيّا ، صلّى الله عليه وعلىٰ آلِه وأصحابِه الذين كان يُحَلّ منهم فى حَالَتَي الكَرَم والكَرَامات وَلِيّـا ، ما أَطْلَعَ التوفيقُ فى آفاق الاتِّصالِ من الأَنْساب الكَرِيمـة كَوْكبًا دُرِّيّا ، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعـدُ، فإن أوْلَىٰ السُّنَنِ بالاتّباع سُنَّةُ النِّكاح، التى أَخْفىٰ نُورُ مِصْباحِها شَمْسَ الصَّباح، وخَفَقتْ علىٰ مَعالِمها أعلامُ النَّجاةِ والنَّجاح، وحُمِدَ المَسِيرِ إلىٰ رُبُوعها الآهلة بأَهِلَّة العِصْمة فى الغُدُوِّ والرَّواح ؛ يالها سُنة سُنَّةُ وجْهِها جَميله ، وأصابِـعُ نيلِ نَيْلِها بل أيادِيه جَزِيلَه ؛ بها تُحْمىٰ أشجار النَّسَب ويَطِيب جنَاها ؛ وتبلغُ النفوسُ من الصِّيانة أقْصىٰ مُناها ؛ ويَظْفر أُولُو الرَّغْبة فيما أَحَلَّ الله بمَطْلُوبهم ، وتُؤلِّف بين مَن لَوْ أنفقْتَ ما فى الأَرْض جميعًا ما أَلَّفْتَ بين قُلُوبهم ؛ وهى الوَسِيلة التى تُكَثِّر سَوَادَ هٰذه الأمَّه ، والذَّرِيعـةُ إلىٰ [بقَاء] النَّوْعِ الذى أظهرَ اللهُ فى سَمَـاء التَّكريم نَجْمَه ؛ وإليها الإشارةُ فى قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَه ﴾ .

ولما كان كذلك رَغب فى ٱقْتِناء آثَارِها، وٱهْتَدىٰ بالضَّوْءِ اللَّامع من أقْمارها؛ مَن يتشرفُ المَكَانُ بذِكْرِ وَصْفِه، ويتَعطر ما ٱنْتَشر فى طِيبِـه من طِيبِ عَرْفِه؛ مَاجدٌ عَمَر البـلادَ السَّاحِليَّةَ بدوام دِيَـمِه، وجَوَادٌ ما جاوره البَحْر إلا ليَقْتَبِسَ من كَرَمه؛ ورئِيسٌ ٱمْتطىٰ ذِرْوة العَلْياء بحُسْنِ السُّلوك، وأَرْيَحِيٌّ لو لم يكن صَدْرًا لمـا أُودِعَ سِرَّ الملوك؛ إن تكلَّم أبْرزَ لك الجَوْهرَ المَصُون، وإن كَتَب ضَحِكَتْ لبُكاء قلَمِـه ثُغُور الثُّغور والحُصُون؛ لِلّٰهِ نَسَـبه المشهورُ بين الأَكابر الأَعْيـان، وبَيْتُه المعمورُ بالعِينِ المَرفُوعِ خَبَرُها إلىٰ فِتْيان؛ فخَطَب من عَلَا قَدْرُها، وٱشْتَهر بالحُسْنِ الجَميلِ ذِكْرُها؛ وجَلَّتْ عن أن تَرَى العُيُونُ لهـا فى الصَّوْنِ شَبِيها، وعَمّت البِقاعَ سُحُبُ بَرَكَةِ أبيها؛ أَكْرِمْ به عالِمًـا عامِلًا، وإمامًا لم يزلْ يُبْدى فَضْـلا ويُسْدى نائلا؛ كَمْ له من آثَارٍ مَشْهُوره، ومَناقِبَ مَأْثوره، وصَدَقاتٍ مَبْروره، ومَوَاطِنَ بذِكْرِ الله مَعْمُوره .

فقُوبِل بالبِشْر قَوْلُ رَسُوله، ورُدَّ رائِدُه مُخْبِرًا ببلُوغِ سُوله؛ وقيل له بلِسَانِ الحَال : هـذا ما كانت تَنْتَظِرُ الآمال؛ يالَه عَقْـدا غَلَتْ جَواهِرُ عُقُوده، وأنارتْ فى آفَاقِ الأتِّفاقِ أَنْجُم سُـعُوده؛ وتَمَـايلَتْ قُدود أَغْصانِ الأَفْراح، وزَهَتْ مجالِسُ السُّرور بالأنْشِراح؛ وهَبَّتْ قَبُول الإقبال، وقام القَلَم خَطِيبًا على مِنْبرِ الطِّرْس فقال :

هذا ما أصدق... ... .

* * *

وهذه نسخةُ صداقٍ من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِىّ، للقاضى بَدْرِ الدين خَطِيب بَيْتِ الآثار، علىٰ بِنْتِ شمسِ الدِّين الخَطِيب من بَيْتِ الآثار، تُسَمَّىٰ سُولى، فى مُسْتَهل جُمادَى الآخرة سـنة ثلاث وخمسين وسَبْعمائة ، فى مجْلس مولانا قاضى القضاة تَقِيِّ الدين السُّبْكِىّ الشافعىّ ، أدام الله أيَّامَه، وهى :

الحمدُ لله الذى زيَّن سماءَ المعَالى ببَدْرِها، وأنْبتَ فى رِياض السَّعادَةِ يانِعَ زَهْرِها، وألْهَم ذَوِى الهِمَم أن يبْذُلوا فى الكَرائم غَوالِىَ مَهْرِها .

نحمَدُه علىٰ نِعمِه التى حَلَّتْ ما ضَفا من لِبَاسِها ، وسَوَّغَتْ ما صَفَا من رُضَابِ كَاسِها، وخَصَّنا بما عَمَّت به من أنواع أجْناسِها ؛ وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، أعْلَمَنا فى الإيمان نَصَّها بالأداء ، وبَنَى ٱسْمَها على الفَتْح كما فُتِح المضافُ فى النِّداء ، ورفَع خبَرها : إمَّا علىٰ رَأْىِ الرُّواة للشُّهرة وإما علىٰ رأى النُّحاةِ بالابتداء ؛ ونشهدُ أن سيدَنا محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى شَرَع النِّكاح لهذه الأُمَّه، ومَنع السِّفاحَ فلم يكن أمْرُنا علينا غُمَّه ، ونَهَج الصَّوابَ فما ظَنُّك بالصَّباح إذا ٱبتلج عَقيبَ اللَّيلةِ المُدْلَهِمَّه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين تَلقَّوْا أوامِرَه بالطاعه ، وٱجْتَنَبوا نَواهِيَه حتَّىٰ بلغوا جُهْد الاستطاعه ، وفَهِمُوا مُرادَه بمُكاثَرَةِ الأُمَم فكان البِضَاعُ عندهم خَيْرَ بِضَاعَه ؛ صلاةً رِضْوانُها يُضِىء إضاءة الكواكب فى أبْرَاجِها ، وغُفْرانُها يُكاثِر البِحَارَ فى أعْدادِ مَوْجِها ؛ ما ٱتَّصل سَبَبٌ بالنكاح ، وٱنْفَصل نَسَبٌ بالسِّفاح ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وبعدُ ، فإن النِّكاح من محَاسِنِ هذا الدين القَيِّم ، وفَضَائِل هذا الشَّرْع الذى لا زال شَرَفُه بَدْرًا بين مُشْرِقاتِ النُّجوم وهو مُخَيِّم ؛ به يُحْفَظ النَّسَبُ الشَّرُود ، ويُرْعىٰ عَهْدُ القَرِينة الوَلُودِ الوَدُود .

وكان فلانٌ ممن أَشبه أباه ، وأَبْيَن ما أَوْدعه من نَفَائِس العُلُوم وحَباه ؛ تَصدَّر فى المَجالِس ، ودَرَّس فى المَدارِس ، وأَوْرد ما عنده من النَّفائس ؛ كَيْف لا ؟ وهو سِبْط شيخ الإسلام وإمَامِ المسلمين ، وقاضِى قُضاة الشَّافعِيَّة وأَوْحَدِ المجتهدين ؛ وقد أراد الآنَ إحْصانَ فَرْجه ، وأن تَنْزِلَ الزُّهَرَةُ مع بَدْره فى بُرْجه .

فلذلك رَغِب إلى المَجْلس العالى (المسمى) وخَطَب الجهة المَصُونةَ المُحَجَّبة ، النَّقِيَّةَ، التَّقيةَ، العَفِيفةَ ، الخَاتونَ، غُصْنَ الإسلام، شَرَفَ الخَواتِين، جَمَالَ ذَواتِ السُّتور، قُرَّةَ عين الملوك والسلاطين، السَّيِّدةَ "سُولى" بنتَ فلان، صانَ الله حِجَابَها ـ فأَكْرِم مَوَارِدَ قَصْدِه، وحَبَاه أَنْفَس دُرَّةٍ فى عِقْده .

فلذلك قام خَطِيبُ هذا الحَفْلِ الكريم، والنَّجْمُ الذى لم يَزَلْ نَجْمُه بالطَّالِع المُسْتقيم، وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم ... ...

⁂

قلتُ : وهذه نسخةُ صداقِ زَيْنِ الدِّين صَدَقة السَّيْفِى أزدمر ، علىٰ بنت أمير المؤمنين «المُتوكِّل على الله» . أنشأتُه له فى خِلافةِ أخِيها المستعين بالله العَبَّاسى، وهى :

الحمدُ لله مُسْتخرِجِ الدَّوْحَةِ الهاشِمِيَّة من أَطْيَبِ العَنَاصر ، ومُفَرِّعِ النَّبْعَةِ العَبَّاسيَّة من أكْرَم صِنْوٍ انْعَقدتْ علىٰ فَضْلِه الخَنَاصِر، ومُخَصِّص بيْتِ الخلافة منها بأعَزِّ جانِبٍ ذَلَّتْ لعِزِّه عُظَماءُ الملوكِ ما بين مُتقَدِّم ومُعاصِر .

نَحمدُه علىٰ أن صَانَ عقائِلَ الخُلَفاء بمَعاقِلِ الحَسَب، وحَصَر كَفاءَتَها فى العِلْمِ والدِّين حيثُ لم يُكافأ بحِرْفَةٍ ولا نَسَب ؛ ونشهدُ أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له الذى سَنَّ النِّكاحَ وشَرَعه، وأرغَم بالحِلِّ أنفَ الغَيْرة لَدَى الإباءِ وقَمَعه ؛ شهادةً يُسْتَنْشَقُ من رَيَّا عبيرِها كلُّ شَذًى أَرِيج ، وتُجْتَنَىٰ ثِمارُ يَنْعِها بشريف النِّتاج من كلِّ زَوْجٍ بَهِيج ؛ ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيٍّ وُفِّرَ فى الفَضْل سَهْمُه حتى لم يُسَاهَم، وأكْرَمُ رسولٍ رَخَّص فى تَزْويج بَنَاتِه من صِحَابه وإلا فأَيْنَ كُفْءُ رسولِ الله من العَالَم ؟ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين شَرَّفهم بقُرْبه ، وقَرَن الصِّهْر

بالنَّسب فيهم نخصَّ مُصاهرَته أَخَصَّهُمْ به ؛ صلاةً تَصل سَبَبَ قائلِها بسَبَبِه ، وتجعلُ الفَخَار بها كلمةً باقِيَةً فى عَقِبِه؛ وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ ما أطال فيه المطيلُ ، وشُحِذَ فى وَصْفه الذِّهْنُ الكَليل، ورُقِمَتْ مَحاسِنُ ذِكْرِه علىٰ صَفْحة النَّهار بذَائِبِ ذَهَبِ الأَصيل ـ ما تواصَلَتْ به الأَنْساب ، وتُوُصِّل بواسطته فى دَرَارِيِّ الذَّرَارى إلىٰ شَرَف الأَحْساب؛ وتَوفَّرتْ عليه الدَّواعى فاشْتَدَّتْ به الأَوَاصر، وحَسُنَتْ فى طريق قَصْده المَسَاعى فتأكَّدتْ به المَوَدَّةُ فى البَوَاطن والظواهر . وهو النِّكاحُ الذى نَدَب اللهُ تعالىٰ إلىٰ مُعاطَاته، وحَضَّ على التَّحلِّ بحَلْيِه حتى أَلْحقه بالعِبَادة فى بَعْض حالاته؛ طَلَباً للتَّحْصين الكافل بسُلُوك نَهْجِ الاستقامه، ورَغْبةً فى تَكْثِير النَّسْلِ الواقع [به] مُكَاثَرةُ الأُمَمِ يوم القيامه .

هـذا وكَرَائِمُ بَيْتِ الخلافَه ، ورَبائِبُ مَحْتِدِ المَجْد والإِنَافَه ؛ فى حَيِّزٍ لو طَلَب مُناوِ مُكافَأَتَها لطَلَب مُعْوِزا ، أو رَامَ مُقاوِمٌ مُضاهَاتَها فى عُلُوِّ الرُّتبة لَرَامَ مُعْجِزا ؛ لِمَا اختصَّتْ به من السِّيادة التى لا يُرْقَىٰ إلىٰ مَنْزِلتها، والمَعالِى التى لا تَسْمو النُّفوسُ وإن شَمَخَتْ إلىٰ رُتْبَتِها ؛ إذ كان النَّظِيرُ لشَرَفِ أَرُومَتِها مُمْتَنِعا، والنَّقِيضُ بما ثَبَتَ من طِيبِ جُرْثُومَتِها مُرْتَفِعا؛ فبَرْقُ مَعالِيها فى التَّطاوُلِ لا يُشَام ، وجَوْهَرُ نَخَارِها فى المآثِرِ لا يُسَامىٰ ولا يُسَام؛ فعزَّ بذلك فى الوُجُود مُكافِيها، وامْتَنَع ـ خَوْفَ الهُجُوم بالاخْتطاب ـ مُوافِيها ؛ إلا أن المَوَاقِفَ الشريفةَ المقدّسةَ المُتوكِّليّةَ ـ زاد الله تعالىٰ فى شَرَفها، وأدام رِعايَتَها بحُلَّة الملوك وحِمايَتِها وكَنَفِها ـ مع ما انفردتْ به من العِزِّ الشَّامخ الذى لا يُساوَىٰ، والشَّرَفِ البَاذِخِ الذى لا يُناوَىٰ؛ قد رَغِب تَفَضُّلُها فى أَهْلِ الفَضْل فمال إليهم، واخْتَصَّ بإقباله أَهْلَ الدِّين فأقبل بكُلِّيَّتِه عليهم ؛ مُحِلًّا لهم من شريف مقامه العَلِيِّ مَحَلَّ الاصطفاء ، ومُقَدِّماً لهم فى المُصاهَرَةِ علىٰ أبناء المُلُوك والخُلَفاء ؛ فوافَق

فى الفضـل شَنَّ طَبقَه، وحاوَل سارّةَ النِّعم منهـا خَيْرُ خَاطِبٍ فتلَقَّى بقَبُولٍ : إنَّ الله تَصَدَّق عليكم بصَدَقَه؛ فعند ذلك ٱبْتَدر القَلَمَ مِنْبَرَ الطِّرْس فخَطَب، وخَطَب بالمَحَامِد لِسانُه اللَّسِنُ فكَتَب :

هذا ما أَصْدق العَبْد الفَقيرُ إلى الله تعالىٰ، الجَنابُ العَالى، الأَميرىُّ، الكَبِيرىُّ، الشَّيْخىُّ، الإمامىُّ، العالِمىُّ، العامِلىُّ، العَابِدىُّ، الخاشِـعىُّ، النَّاسِكىُّ، البَليغىُّ، المُفَوَّهىُّ، الصَّـدْرىُّ، الرئيسىُّ، الأصيلىُّ، العَرِيقىُّ، الزَّيْنىُّ، أبو المعالى صَدَقَةُ ـ الجِهَةَ الشَّريفةَ العاليةَ، الكُبْرىٰ، المعظمةَ، المحَجَّبةَ، المَصُونةَ، سَلِيلةَ الخلافَة، فَرْعَ الشجرةِ الزَّكيَّة، جليلةَ المَصُونات، جَميلةَ المُحَجَّباتِ، سَارَّةَ، البِكْرَ البَالِـغَ، ٱبنةَ سَيِّدنا ومولانا المَقَامِ الأشرفِ، المقدّسِ، العَالِى، المَوْلَوِىِّ، السيِّدىِّ، الإمامىِّ، النَّبوىِّ، المُتوكِّلِ على الله "أبى عبدالله محمد" أميرِ المؤمنين، ٱبنِ المقامِ الأشرفِ العالى، المَوْلوىِّ، الإمامىِّ، المُعْتَضِدِ بالله "أبى الفَتْح أبى بَكْر" بن الإمام المُسْتكفِى بالله "أبى الرَّبيع سُلَيمان" ٱبنِ الإمامِ الحاكِم بأمرالله "أبى العباس أحمد" لازال شَرَفُه باذِخا، وعِرْنِينُه الشَّريفُ شَامِخا، وذِكْرُ مناقِبه العَلِيَّة لكلِّ مَنْقَبةٍ نَاسِخا ـ صَـدَاقًا جُمْلته كذا وكذا، زَوَّجَها منه بذلك فلانٌ، وقَبِلَه فلانٌ؛ وتَمَّ علىٰ بَرَكَة الله تعالىٰ وحُسْنِ تَوْفيقه، كاملةً شُروطه ولَوَازِمُه، مُبارَكةً عُوذُه وتَمـائِمُه، مَيْمونةً فواتِحُه وخَوَاتِمُه؛ مُفْتَتَحةً بِطِيبِ العَيْش أزَاهِرُه مُفْتَرَّةً عن [نَوْرِه] إن شاء الله تعالىٰ كَمائِمُه .

الفصـــــل الخامس

من البـاب الأوّل من المقـالة العـاشرة

(فيما يُكتب عن العُلَماء وأهلِ الأَدَبِ مما جَرَت العادة بمراعاة النَّثْر المسجوع فيه، ومُحاوَلَة الفصاحة والبلاغة، وفيه طرفان)

الطـــرف الأوّل

(فيما يُكْتب عن العلماء وأهْلِ الأدب، ثم هو على صنفين)

الصـــــنف الأوّل

(الإجازاتُ بالفُتْيا والتَّدْريس والرِّواية وعِرَاضَاتِ الكُتُب ونحوها)

أما الإجازة بالفُتْيا، فقد جرتِ العادةُ أنه إذا تَأَهَّل بعضُ أَهْلِ العِلْمِ للفُتْيا والتَّدْرِيس أن يَأْذَنَ له شَيْخُه فى أن يُفْتِيَ ويُدَرِّس، ويَكْتُبَ له بذلك. وجَرَتِ العادةُ أن يكونَ ما يُكْتبُ فى الغالب فى قَطْعِ عرِيضٍ، إما فى فَرْخَة الشَّامىِّ أو نَحْوِها من البَلَدِىّ، وتكونُ الكِتَابةُ بقَلَمِ الرِّقاعِ أَسْطُرًا متوالية، بين كلِّ سطرين نحوُ أُصْبُعٍ عرِيضٍ.

وهـذه نسخةُ إجازَةٍ بالفُتْيا والتَّدْريس على مَذْهَبِ الإمام الشافعىّ رضى الله عنه وأرضاه، كُتِبَتْ لِى حين أَجازَنِى شيخُنا العـلَّامة سِراجُ الدِّينِ أبو حَفْصٍ عُمرُ بن أبى الحسن الشهير بِٱبن المُلَقِّن، سَقَى الله تعالى عَهْدَه، عند قدومه ثَغْرَ الإسكندرية، وأَنا مُقِيمٌ به فى شهور ســنة ثمـانٍ وسبعين وسبعمائة، وكَتَب لى بذلك القاضى تاجُ الدِّين بن غنوم مُوَقِّعُ الحُكْمِ العزيز بالإسكندرية فى دَرْجِ وَرَقٍ شامىٍّ فى قَطْعِ الشامىّ الكامِلِ، وسِنِّى يومئذٍ إحدى وعِشْرون سنةً، فَضْلًا من الله ونِعْمَةً.

ونُسْخَتُها بعد البَسْمَلةِ الشريفة :

الحمدُ لله الذى رفَعَ للعُلَماء مِقْدارا ، وأَجْزَل نِعَمَه عليهم إذْ أَعْلىٰ لهم مَنَارا ، ووَفَّق بسَواءِ الطَّرِيق مَن ٱقتدىٰ بهم إيرَادًا وإصْـدَارا ؛ أُشْرِعَتْ هِمَمُهم العَلِيَّـةُ فى حَلْبة السِّباقِ فهى لا تُجارىٰ ، وتَحَلَّوْا بالمَفَاخرِ جَهْرًا وقد عَجَز غيرهم أن يَتَحَلَّىٰ بهـا إسْرَارا ؛ أَبْرز بهم فى هَالَاتِ المَفَاخرِ أَقْمَـارا ، وأَزالَ بضِياءِ عُلُومِهم رَيْبَ الشَّكِّ حتَّىٰ عاد لَيلُ الجَهَالةِ نهارا ؛ جَعَلهم لدِينِه أنصارا ، وصَيَّرهم نُخْبَةَ أَصْفِيائِه إذ أَوْدعهم من المَعَارِف أَسْرارا ، وٱخْتَصَّهم بكَوْنِهم وَرَثَة أنبيائه : وناهِيكَ بها فَخَـارا .

أحمَـدُه حَمْدَ من هُدِىَ إلى الحَقِّ فجعله شِعارا ، وٱستضاء بنُورِ الهُـدَىٰ فلَجَأَ إلىٰ مولاه فى حَالَتَىْ سِرِّه وجَهْرِه ٱفْتِقارا ، وعَجَز عن شُكْرِ ما أَسْدَىٰ إليه من النِّعَم لمَّـا تَوالَىٰ عليه وَبْلُها مِدْرارا ؛ وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له تَصْـدِيقاً وإقرارا ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أرسلَه والأَصنامُ قد عُبِدَتْ جِهارا ، والكُفَّار قد أعرضوا عن الحقِّ ٱسـتكبارا ؛ فقام بأَمْرِ الله ٱنْتِصارا ، وقَهَر مَن أَعْرَضَ عن الله ٱغْتِرارا ، وأَخْمد بضِياءِ نُورِه البَاطِلَ وأَهْدره إهْدَارا ؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه صـلاةً تَزِيدنا فى دِينِنا ٱسْتِبْصارا ، وتَحُطُّ عنَّا من ثِقْـلِ الذُّنوب أَوْزَارا ، وتُبَوِّؤُنا إن شاء الله تعالىٰ فى دار الخُلُود قَرَارا .

أما بعدُ ، فقد وَضَح لذَوِى الأَبْصار والبَصَائِر ، وٱتَّضَح عند ذَوِى الأَسْرار والسَّرائِر ؛ وٱسْتقَرَّ عنـد ذَوِى القُـلُوب السَّلِيمه ، والعقُولِ الرَّاجحة المُسْتقيمه ؛ أنَّ منزلةَ عِلْمِ الشَّريعة عند الله تعالىٰ أَعلى المَنَازِل ، وفَضْلَه أَفْضلُ المَآثرِ وآثَرُ الفَضَائِل ؛ وخُصوصًا معرفةُ تفاصيلِ أَحْكامِ أفعالِ المُكَلَّفين بالشَّريعة المُحَمَّدِيَّة ، التى مَن عَلِمَها وعَمِلَ بها وعَلَّمها فقد سَعد السَّعادةَ الأَبَدِيه ؛ إذ هى الشريعةُ الجامعةُ لمصالح الدُّنيا والآخِرَه ،

النَّاسخةُ لما خالَفها من الشَّرائع الغابِره ، البَاقيةُ إلىٰ أن يأْتِيَ وَعيدُ الله وكُلُّ شَريعةٍ سواها دَاثِرَه ؛ فقد أَعْظم اللهُ تعالىٰ علىٰ مَن حَفِظها علىٰ عِبادِه المِنَّه ، إذْ جعله وِقايةً لهم من مَهَالك الجَهْل وجُنَّه ، ووَعَده أن يَنْزِل فى أعلىٰ منَازِل الجَنَّه ، لِما شَهِدتْ به نُصُوص الكِتَاب والسُّنَّه ؛ قال الله تعالىٰ لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . فنبَّهه علىٰ أنَّ العِلْمَ أقوىٰ أسباب العِبَاده ، إذْ خَصَّه به وحَضَّه علىٰ أن يَطْلُب منه الزِّياده . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فثَنَّى بذِكْرِهم بعده ، لكَوْنهم أفضلَ الخلائِق عنده . وقال تبارك وتعالى ٱسمُه ، وتقدّس عِلْمُه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فأوضح بذلك أنَّ أولياءَه من خَلْقِه العُلَماء ، إذ وصفهم وخَصَّهم بأنهم الخائِفُون منه الأَتْقِياء . وقال عليه السلام : "مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْراً يُفَقِّهْهُ فى الدِّين" . وقال أيضا : "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ له طَرِيقًا إلى الجَنَّة" . وقال أيضا : "أَلَا إِنَّ الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فيها إلا ذِكْرُ اللهِ تعالىٰ وما وَالَاه ، وعَالِمٌ ومُتَعَلِّمٌ" .

ولما كان فلانٌ ــ أدام الله تعالىٰ تَسْديدَه وتَوْفيقَه ، ويَسَّر إلى الخيرات طَريقَه ــ ممَّن شَبَّ ونَشَأَ فى طَلَب العِلْم والفَضِيله ، وتَخَلَّق بالأخلاق المَرْضيَّة الجميلةِ الجَليله ؛ وصَحِبَ السَّادةَ من المشايخ والفُقَهاء ، والقَادَة من الأكابرِ والفُضَلاء ؛ وٱشْتغل عليهم بالعِلْمِ الشريف ٱشتغالاً يُرضِى ، وإلىٰ نَيْل السعادة ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ يُفْضِى ــ ٱستخار اللهَ تعالىٰ سَيِّدُنا وشَيْخُنا وبَركَتُنا العَبْدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ ، الشيخُ الإمام العَلَّامه ، الحَبْرُ الفَهَّامه ؛ فَرِيدُ دهرِه ، ونَسيجُ وَحْده ، جمال العُلَماء ، أَوْحَد الفُضَلاء ، عُمْدَة الفُقَهاء والصُّلَحاء ؛ سراجُ الدِّين ، مُفْتى الإسلام والمسلمين ؛ أبو حَفْص عمرُ ٱبنُ سيدنا العبْدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ، الشيخِ الإمامِ العالمِ ، العامِلِ ، الأَوْحدِ ، الكاملِ ، القُدْوة ، المرحومِ نُور الدين أبى الحسن علىّ ، ٱبنِ سيدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ،

الشيخِ الصالحِ، الزاهدِ، العابدِ، الخاشعِ، الناسكِ، القُدْوةِ، المَرْحومِ شِهابِ الدِّين، بَرَكَةِ الصالحين، أبي العبَّاس أحمدَ، ٱبنِ سيدِنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ، الشيخِ الصالحِ، القُدْوةِ، العارفِ، المرحومِ، شَمسِ الدِّين، أبي عبد الله محمد الأنصاريّ الشافعيِّ، أدام الله تعالىٰ النَّفْعَ به وبِبَرَكَتِه، وأشْرَكَنا والمسلمين فى صالح أَدْعِيَتِه، بمحمدٍ وآله وصَحْبه وعِتْرَتِه.

وأَذِن وأجاز لفلان المسَمَّىٰ فيه، أدام الله تعالىٰ مَعالِيه؛ أن يُدَرِّس مَذْهَبَ الإمام المجتهِدِ المُطْلَقِ العالم الرَّبَّانيّ، أبي عبد الله محمدِ بن إدريس المُطَّلِبيِّ، الشافعيِّ، رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجَنَّةَ مُتَقَلَّبَه ومَثْواه؛ وأن يقرأ ما شاء من الكُتُبِ المصَنَّفة فيه، وأن يُفِيد ذلك لطَالِبيه؛ حيثُ حَلَّ وأقام، كيف ما شاء متىٰ شاء وأين شاء، وأن يُفْتِيَ مَن قَصد ٱسْتِفتاءَه خَطًّا ولفظا، علىٰ مقتضى مَذْهَبه الشريف المشار إليه: لعِلْمِه بديانته وأمَانَتِه، ومَعْرِفته ودِرَايَتِه، وأَهْلِيَّتِه لذلك وكِفايَتِه.

فلْيَتَلَقَّ أيده الله تعالىٰ هذه الحُلَّة الشريفه، وليَتَرَقَّ بفَضْلِ الله تعالىٰ ذِرْوَة هذه المرتبة المُنِيفه؛ وليعلَمْ قَدْرَ ما أنعم الله تعالىٰ عليه، وأَسْدَىٰ من الإحسان الوَافِرِ إليه؛ ولْيُراقِبْه مراقبةَ من يعلم ٱطِّلاعَه علىٰ خَائِنَة الأَعْينِ وما تُخْفِي الصدور، وليُعامِلْه معاملة مَن يَتَحقَّق أنه يعلم ما يُخْفِيه العبد وما يُبْدِيه فى الوُرُود والصُّدُور؛ ولا يَسْتَنْكِفْ أن يقول فيما لا يَعْلم: لا أَعْلم: فذاكَ قَوْلُ سعدَ قائلُه. وقد جاء: "جُنَّةُ العالِمِ لا أَدْرِي فإن أَخْطَأَها أُصِيبَتْ مَقَاتِلُه" فالله تعالىٰ يرزقنا وإياه التَّوفيقَ والتحقيق، ويَسلكُ بنا وبه أَقْرَبَ طريق؛ ويهدينا إلىٰ سواء السبيل، فهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

وكُتِب فى تاريخ كذا.

وكتب شيخُنا الشيخُ سراج الدين المشارُ إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالىٰ ما صُورتُه:

ما نُسِبَ إلىَّ فى هذه الإجازة المُبَارَكَة من الإذْنِ لفلانٍ ـ أدام الله تعالىٰ النَّفْع به ، وأجزَلَ كلَّ خيْرٍ بسَبَبِه ، بتَدْرِيس مَذْهب الإمام المُطَّلِبِيِّ ، محمد بن إدريسَ الشافعيّ ، قَدَّسَ الله رُوحَه ، ونَوَّر ضَرِيحَه ، والإفتاءِ به لفظًا وخَطًّا ـ صحيحٌ . فإنه ممن فَاقَ أقْرانَ عَصْرِه بذَكَائه ، وبَرَع عليهم بالاستحضار وتَحْرِير المَنْقُول ووَفَائه .

وقد اعْتَنىٰ وَفَّقَه الله تعالى وإيَّاىَ من جملة محفوظاته بـ "مُخْتَصَر الجوامع" لشيخنا العَلَّامة كمالِ الدّين النشائيّ تغمده الله تعالى بغُفْرانه ، فاستحضر بحَضْرَتِى مواضِعَ منه جَمَّـه ، وأزال ببديع فَصَاحَتِه جُمْلَةً مُدْلَهِمَّـه ؛ وأظهر من مُشْـكِلاته ما يعجِزُ عنه اللبيب ، ومن أغَارِيبِه ما يقف عنده البارع الأَرِيبُ .

فليتَّقِ اللهَ حينئذٍ فيما يُبْدِيه ، ولْيَتَحَرَّ الصوابَ فى لَفْظِه وخَطِّه ولْيراقِبِ اللهَ فيه ؛ فإنه مُوَقِّعٌ عن الله تعالىٰ فلْيحْذَرِ الزَّلل ، ومُحَاوَلَةَ الخطإ والخَطَل ؛ وليَسْتَحْضِرْ ما اشتملتْ عليه من الجـلاله ، فإن الله تعـالىٰ تولَّاها بنَفْسِه حيثُ قال : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَه﴾ .

وأجزْتُ له مع ذلك أن يروِىَ عنِّى مالِى من التآليف ، ومنها "جَامِعُ الجوامع" أعان اللهُ علىٰ إكماله ، وكذا شرح "صَحِيح الإمام أبى عبد الله محمـد بن إسمـاعيلَ البُخاريّ" . ومنها "البَدْرُ المنير ، فى تخريج الأحاديث والآثار الوَاقِعَـةِ فى الشَّرْحِ الكبير" للامام أبى القاسم الرَّافعيّ . وبه تكمُلُ معرفة الفَقِيه ويَصِير محدّثا فَقِيها .

وأجزتُ له مع ذلك ماجاز لِى وعَنِّى رِوَايتُه بشَرْطِه عند أهله ، زاده الله وإيَّاىَ من فَضْلِه . ومنها الكُتُب الستة : "البُخَارِىّ" و"مُسْلِم" و"أبو دَاود" و"التِّرمذِىّ" و"النَّسائى" و"ابن مَاجَه" . والمسانيد : "مُسْـند أحمد" و"مُسْند الشافعىّ" وغير ذلك .

وكان ذلك فى تاريخ كذا . وكَتَب عمرُ بن علىّ بنِ أحمدَ الأنصارىُّ الشَّافِعىّ ، غفر الله لهم : حامدا ومُصَلِّيا ومُسَلِّما ، وأشهدَ عليه جماعةً من أهل العلم بآخره .

قلتُ : وتكون ألقاب المُجازِ علىٰ قَدْر رُتْبته ، مثل أن يُكْتَبَ له : «الفقيرُ إلى الله تعالىٰ ، الشيخُ ، الإمامُ ، العالِمُ ، العامِلُ ، الأوْحَدُ ، الفاضِلُ ، المُفِيد ، البارِعُ ، عَلَمُ المفيدين ، رُحْلَةُ القاصدين ، فلانُ الدين ، أبو فلان فلانُ بن فلان» (بحسب رُتَب آبائه) . وإنما أهملتُ ذِكْرَ الألقابِ فى هذه الإجازة ، من حيثُ إنه لايليقُ بأحدٍ أن يذكرَ ألقابَ نَفْسِه فى مُصَنَّفٍ له ، لأنه يصير كأنَّه أثنىٰ علىٰ نَفْسه .

وأمّا الإجازة بعَراضة الكُتُب ، فقد جَرَتِ العادةُ أن بَعْضَ الطَّلَبة إذا حفظ كتابًا فى الفِقْه ، أو أصول الفِقْه ، أو النَّحْوِ ، أو غير ذلك من الفنون ، يَعْرِضُه على مشايخ العَصْر ، فيقطَعُ الشيخُ المعروضُ عليه ذلك الكتاب ، ويَفتَحُ منه أبوابًا ومواضع ، يَسْتَقرِئُهُ إيَّاها من أىِّ مكان ٱتَّفق ، فإن مضىٰ فيها من غير تَوَقُّفٍ ولا تَلَعْثُمٍ ، ٱستدلَّ بحِفْظه تلك المواضع علىٰ حِفْظِه لجميع الكتاب ، وكتبَ له بذلك كلُّ من عُرِضَ عليه ، فى وَرَقٍ مربَّعٍ صغيرٍ ، يأتى كلٌّ منهم بقَدْر ما عنده من المَلَكة فى الإنشاء ، وما يناسبُ ذلك المقامَ من براعة الاستهلال ونَحْوها : فمن عالٍ ، ومن هابِطٍ . وربَّما خَفَّف بعضهم فكتبَ : «وكذلك عَرَضَ علَىَّ فلان» ، أو : «عُرِض علىّ وكتبه فلان» . إما رِياسةً وتأبِّيًا عن شُغْل فِكْرِه وكَدِّ نَفْسه فيما يكتبه ، وإما عجزًا عن مُضاهاة من يكتب معه .

وقد ٱخترتُ أن أضَعَ فى هذا المحلِّ ماوافق الصنعةَ ، وجرىٰ علىٰ أسلوب البلاغة .

فمن ذلك ما كتب به الشيخُ الإمامُ العلّامة ، لسانُ العرَب ، وحُجَّة الأَدب ، بَدْر الدين محمدُ بنُ أبى بكر المخزومىّ المالكىّ ، للنَّجْلِ النبيل الذى تنتهى الألقاب ولانِهايةَ

لمَناقِبه، شهابِ الدِّين أبى العباسِ أحمدَ ٱبنِ سيدِنا الفقيرِ إلى الله تعالى، ذِى الأَوْصافِ التى تَكِلُّ شَبَا الأَلْسُنِ عن حَدِّها، شمسِ الدِّين أبى عبد الله محمد العُمَرِىّ الشافعىّ، حين عرض عليه "عمدةَ الأحكام" للحافظ عبد الغَنِىّ، و"شُذُورَ الذَّهب" للشيخ جمال الدِّين بن هِشَام، فى رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو :

أما بعدَ حَمْدِ الله على كَرَمِه الذى هو عُمْدتنا فى النَّجاة يوم العَرْض وناهِيكَ بها عُمْدَه، وسَنَدُنا الذى لايزال لِسَانُ الذَّوْق يَرْوِى حَدِيثَ حلاوته عن صَفْوانَ بن عَسَّال من طريق شُهْدَه؛ والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ الذى أَحْيا بُرُوح سُنَّته الشريفة كلَّ من جاء ومن ذَهَب، وأعْرَبَتْ كَلِماتُه النَّفِيسةُ عن عُقُود الجوهر و"شُذُورِ الذَّهَب" وعلى آله وصَحْبه الذين أحسنوا الرواية والدِّرايه، وَبَنَوا الأَمْرَ على أَسَاسِ التقوى وأعربوا عن طُرُق الهِدَايه؛ ما ٱنْهَلَّ من أُفُقِ الكَرَم المحمدىِّ كلُّ عارِضٍ صَيِّب، وتَحَلَّتِ الأسماعُ والأفواهُ من أخباره بنفائس الشُّذُورِ البديعة وحَلاَوَةِ الكَلِم الطَّيِّب ـ فقد عَرَضَ علىّ الجَنابُ العالى البارِعىُّ، الأَوْحدىُّ، الأَلْمَعِىُّ، اللَّوْذَعِىُّ، الشِّهابِىُّ، شهابُ الدين، نُخْبة النُّجَبَاء، أوحدُ الأَلِبَّاء، نَجْلُ السَّادَةِ العظماء، سُلالةُ الأعيان العلماء، أبو العَبَّاس أحمدُ ٱبنُ سيدنا المَقَرِّ الكريم العالى، المولوىِّ، العالمىِّ، الفاضلىِّ، البليغىِّ، المُفِيدىّ، الفَرِيدىِّ، المُفَوَّهِىِّ، الشَّمْسِىِّ، العُمَرِىِّ، أطاب الله حَدِيثَه، وجمع له بالإعْراب عن عُلُوِّ الهِمَّة قَدِيمَ الفَضْل وحَدِيثَه ـ طائفةً متفرِّقةً من "عُمْدة الأحكام" للحافِظ عبد الغَنِىِّ المَقْدسىّ، و"شُذُورِ الذَّهَب" للعلامة جمالِ الدِّين بن هِشَام رحمة الله عليهما ـ عَرْضًا قَصُرت دونَه القرائحُ على طُول جَهْدِها، وكانت الألفاظ المُورَدَةُ فيه لأَمَةَ حَرْبِ الفِئَة الباغية عليه فأحْسَنَ عند العَرْض فى سَرْدِها؛ وزَيَّن أبقاه الله تلك الأماكنَ بطَيِّب لَحْنِه وإعراب لَفْظِه، وآذَنَ ٱمْتِحَانُه فيها بأنَّ جَوَاهِرَ الكِتابَيْنِ قد حَصَلت بمجموعها فى خِزَانة حِفْظِه ..

فحبَّذا هو من حافظ رَوىٰ حديث فَضْلِه عَالِيا، وتَلَا على الأسماع ما ٱقتضىٰ تَقْديمه على الأقران فللّه دَرّه مُقَدّمًا وتاليا؛ وسار فى حُكْم العَرْض على أعْدَل طَرِيق وناهِيكَ بالسِّيرة العُمَرِيَّه، وصانَ مَنْطِقَه عن خَالِ المعانِى وكيف لا؟ وقد تَمَسَّك بطريقة والده وهى "المقدّمة الشَّمْسيَّه"؛ وسابَقَ أقْرانَه فكانت له زُبْدَةُ التَّفضِيل فى حَلْبة السِّباق، وطابَقَ بين رَفْع شأْنِه وخَفْض شانِيه ولا يُنْكَر لمن هو من هذا البَيْتِ حُسْنُ الطِّباق، وٱشْتَغَلَ فلم يَقَعِ التنازعُ فى حُسْنِ دُخُوله من باب الٱشتغال، ونَصَب فِكْره لتحصيل العِلْم فتعيَّنَ تمييزُه علىٰ كلِّ حال، وتوقَّدَتْ نارُ ذِهْنه فتَلَظَّىٰ حاسدُه بالٱلتهاب، ورُوِيَتْ أحاديثُه بَالِغَةً فى العُلُوِّ إلىٰ سماء الفَضْل ولا بِدْعَ إذا رُوِيتْ أحاديثُ الشِّهاب، وافتخر من والده بالفَاضِل الذى ٱرْتَفَع فى دِيوان الإنشاء خَبَرُه، وهزَّ المَعاطِفَ بتَوْقِيعه الذى لا يزال يُحَرِّره ويُحَبِّره؛ ووَشَّى المَهارِقَ فكأنّما هى رياضٌ قد غَرَّد فيها بسَجْعه، ونَحَاها بإنشائه الذى هو عُمْدة المتأدبين فلا عجبَ فى رَفْعه، ونَظَم ببَيانِه نَفَائِسَ الدُّرر فَفَدَتْها بالعيْن "صِحَاحُ الجَوْهَرِىّ"، وفتح بجَيْش بَلاغَتِه معاقِلَ المعانى الممتنعة وحَسْبُكَ بالفَتْح العُمَرِىّ:

بَيَانُه السِّحْرُ قد أَخْفَى معَاقِدَهُ * لٰكِنْ أرانا لِسِرِّ الفَضْلِ إنْشَاءَ
إذَا أرَادَ أدَارَ الرَّاحَ مَنْطِقُهُ * نَظْمًا ويُطْرِبُنَا بالنَّثْرِ إن شَاءَ!

والله تعالىٰ يُبْهِج نَفْسَه بما يُصْبِح به الحاسدُ وهو مُكْمَد، ويُقِرُّ عَيْنَه بهذا الوَلَدِ النَّجيبِ حتى لايبرحَ يقولُ: أَشْكُر الله وأَحْمَد، بمحمدٍ وآله.

⁂

ومن ذلك ما كتب به الشيخُ شمسُ الدِّين محمدُ بن عَبْدِ الدائم، لولَدِى نَجْمِ الدِّين أبى الفَتْح محمد، حين عرض عليه "المِنْهاجَ" فى الفِقْه للنَّوَوِىّ، فى سَنَة ثلاث عشرة وثمانمائة، وهو:

الحمدُ لله الذى أوضح بنَجْم الدِّين مِنهاجَ الفقه وأنارَه ، وأفْصَح لسانَه بكتاب من عنـد الله وأثارَه ، فسطعتْ أنوارُ شِهابه لمن ٱستَنْبطه وأثارَه ، مَنْ يُرِد اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْه فى الدِّين ويَرْفَعْ منارَه ، والصـلاةُ والسلامُ علىٰ سيدنا محمد المخصوص بعموم الرِّساله ، والمنصوص فَضْـلُه بجميع أنواع الدِّلاله ، وعلىٰ آله وصَحْبِه نجومِ الهُـدىٰ ، وشُهُبِ التأسِّى والاقْتِدا :

وبعدُ ، فقد عَرَض علىَّ الفَقيهُ الفاضلُ نَجْلُ الأفاضل ، وسَليلُ الأَماثِل ، ذُو الهِمَّة العَليَّه ، والفِطْنة الذَّكيَّه ، والفِطْرَة الزَّكيه ، نَجْم الدِّين ، أبو عبد الله محمدُ بن فلان : نفع الله به كما نَفَع بوالده ، وجَمَع له بين طارِف العـلم وتالِده ــ مواضِعَ متعدِّدةً من "المِنْهاج" فى فِقْه الإمام الشافعىّ المُطَّلِبىّ رضى الله عنه وعنَّا به ، تأليف الحَبْر العلَّامة ولىِّ الله أبى زكريا بن شَرَف بن مِرى النَّوَوِىّ ، سقى الله تعالىٰ ثَراه ، وجعل الجَنَّة مأواه ، دَلَّ حِفْظُه لهـا علىٰ حِفْظِ الكتاب ، كما فَتَح الله له مَناهِجَ الخَير دِقَّه وجِلَّه ، وكان العَرْض فى يوم كذا .

*
* *

وكتب علَّامةُ العَصْر الشيخُ عِزُّ الدِّين بن جَماعَةَ ما صورته :

كذلك عَرَض علىَّ المذكورُ باطِنَها عَرْضًا حَسَنا ، محرَّرًا مُهذَّبا مُجادًا مُتْقنا ، عَرْضَ من أتْقنَ حِفْظُه ، وزُيِّن بحُسْن الأداءِ لَفْظُه ، وأُجْزِلَ له من عَيْن العناية حَظُّه ، مَرَّ فيه مُرُور الهِمْلاج الوَساع ، فى فَسِيح ذى السِّباع . وقد دَلَّنى ذلك منه ــ نَفَعه الله تعالىٰ ونَفَع به ، ووصل أسباب الخَيْر بسَبَبِه ، علىٰ عُلُوّ هِمَّته ، ووُفُور أرْيَحيَّته ، وتَوَقُّد فِكْرته ، وٱتِّقاد فِطْنَتِه ، وأَصْلُه فى ذلك كلِّه عَرِيق :

سَجِيَّـةٌ تِلْك منهـم غيرُ مُحْـدَثة * إنَّ الخلائقَ ــ فاعلَمْ ــ شَرُّها البِدَعُ !

وقد أذِنْتُ له أن يَرْوِىَ عنّى الكتابَ المذكورَ، وجميعَ ما يجوزُ لى وعنّى روايتُه من مُصَنَّفاتى وغيرِها من مَنْظوم ومَنْثور، ومَنْقولٍ ومَعْقول ومأْثور، بشَرْطِه المعتبر، عند أهْلِ الأَثَر. وكتب فلانٌ فى تاريخ كذا .

* * *

ومن ذلك ما كتبتُه لمن آسمه «محمد» ولقبُه «شَمْسُ الدين» من أبناء بعض الإخوان :

وقد عَرَض علىّ "الأربعينَ حديثًا" للشيخ مُحْيِى الدِّين النَّوَوِىّ رحمه الله، و"الورَقَات" فى الأُصُول لإمام الحرمين، و"اللَّمْحَةَ البَدْرِيَّة" فى النَّحْو للشيخ أثير الدِّين أبى حَيَّانَ دَفْعةً واحدة، وهو لدُونِ عَشْرِ سنين، وهو :

الحمدُ لله الذى أطْلَع من دَرَارِىّ الأفاضل فى أفُقِ النَّجابة شَمْسا، وأظهر من أفاضل الدَّرارِى ما يغُضُّ به المخالفُ طَرْفاً ويرفع به المُحَالِفُ رَأْسا، وألْحَقَ بالأصل الكريم فَرْعَه فى النجابة فطاب جَنًى وأعْرَقَ أصْلًا وزَكا غَرْسا؛ وأبرزَ من ذَوِى الفِطَرِ السليمة من فَاقَ بذكائه الأقرانَ فأدْرَكَ العَرَبِيَّة فى لَمْحَه، وسَما بفَهْمِه الثاقِب على الأمثال فأمْسَى وفَهْم "الوَرَقَات" لديه كالصَّفْحَه، وخَرَق بكَرَمِ بدايته العادةَ فحَازَ الأربعين لدُونِ العَشْرِ وأتَى على ذلك بما يَشْهدُ له بالصِّحَّه؛ والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ الذى عَمَّتْ بركةُ آسمِه الشريف سَمِيَّه ففاز منها بأوفرِ نَصِيب، وخُصَّ بإلهام التَّسمية به أولو الفَضْل والنُّهَى فما سُمِّىَ به إلا كَرِيمٌ ولا سُمِّىَ به إلا نَجِيب؛ وعلى آله وصَحْبِه الذين أَيْنعتْ بهم رَوْضةُ العلم وأزْهَرتْ، وأوْرَقَت شجرةُ المعارف وأَثْمَرَتْ .

وبعدُ، فقد عَرَض علىَّ فلانٌ مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فمرّ فيها مُرُورَ الصَّبا، وجَرَى فى مَيْدانِها جَرْىَ الجَواد فما حَادَ عن سَنَنِ الطريق ولا كَبَا (١) .

---

(١) يظهر أن بقية هذه النسخة سقطت من قلم الناسخ كما ترى .

وأما الإجازة بالمَرْوِيَّات علىٰ الاستدعاآت : ـ

فمن ذلك ما كتب به الشَّيخُ صلاح الدين الصَّفَدِىُّ رحمه الله على ٱستدعاء كَتَب له به القاضى شِهابُ الدين أحمدُ الحَنْبلىّ خطيبُ بَيْت الآلهة ، وكاتبُ الدَّسْتِ بالشَّأْم ، يطلب منه فيه الإجازةَ لنَفْسِه ، وهو :

الحمدُ لله الذى إذا دُعِىَ أجاب ، وإذا أنْعَم على الأدِيب بذَوْق أتَىٰ فى نَظْمِه ونَثْره بالعُجَاب ، وإذا وَهَب البليغَ فِطْرةً سَلِيمةً لم يكن علىٰ حِجَاه حِجَاب .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى منها البَلاغَه ، وإتقانُ ما لصناعة الإنشاء من حُسْنِ الصِّياغَه ، وصَيْدِ أوَابِدِ المعانى التى من أَعْمَل فِكْرَه فى ٱقْتِناصِها أو رَوَّىٰ [أَمِنَ] رَوَاغَه ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له شهادةً فُطِر الضميرُ علىٰ إخلاصها ، وجُبِلَ الفِكْر على ٱقْتِناء أَدِلَّتِها القَاطِعة وٱقْتِناصِها ، وجُعِلتْ وِقايَةً لقائِلِها يوم يَضِيقُ على الخلائق فَسِيحُ عِرَاصِها ؛ ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفصحُ من نَطَق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العَرَبِيَّة بالنُّكَتِ الحِسَان ، وحَثَّ على الخَيْر وحَضَّ على الإحسان ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين رَوَوْا أقوالَه ، وبَلَّغوا لمن لم يَرَه سُنَنَه وأفعالَه ، وعَلِمُوا أنَّ هـذه الشِّرْعة المُطَهَّرَةَ أَذْخَرها الله تعالىٰ له فلم تَكُنْ تصلحُ إلا لَه ؛ صلاةً هامِيَةَ الغُفْران ، ناميةَ الرِّضْوان ، ما أجاب مُجِيبٌ لمن ٱسْتَدْعَىٰ ، وعَمِلَتْ إنَّ فى المُبْتدإ نَصْبًا ولم تُغَيِّرْ على الخبَر رفْعًا ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وبعدُ ، فإن [عِلْمَ] الرِّوايةِ من محَاسِن الإسلام ، وخَصَائِص الفُضَلاء الذين تَخْفِقُ لهم ذَوائِبُ الطروس وتَنْتَصِبُ رِماحُ الأقلام ؛ ولم تَزَلْ رَغْبة السَّلَف تتوفَّرُ عليه ، وتُشِير أنامِلُ إرشادهم للانام بالحَثِّ إليه . قِيل للإمام أحمد بن حَنْبل رضى الله عنه ما تَشْتَهِى؟ فقال : سَنَدٌ عَالٍ ، وبَيْتٌ خَالٍ . وما بَرِحَ الأئمَّة الكبار يَرْتحلون إلىٰ أقاصى

الأقاليم فى طَلَبِه، ويتحملون المَشَاقّ والمَتَاعِبَ فيه ويتجملون بسَبَبِه ؛ فقد ٱرْتحل الإمامُ الشافعيُّ رضى الله عنه وغيرُه إلىٰ عبد الرَّزّاق باليَمَن، وكان فيمَنْ أخَذَ عنه ممن هو أحَقُّ بالتفضيل عليه قَمِن ؛ ولٰكنه فَنٌّ يحتاج إلىٰ ذَوْقٍ يُعاضِدُ من لا يُعانِدُه، وأَمْرٌ لا يَصْبِر عنه من أَلِفَه وما يَعْلَم الشَّوْقَ إلا من يُكَابِدُه ؛ فما عند من طَلَبَ الروايةَ أَجَلُّ من أبناء جِنْسه، ولا عند المُفِيدِ المُفِيدَ أحْلَىٰ من قوله : حَدَّثنا فلانٌ أو أَنْشَدَنا فلانٌ لنفْسِه، ولكن :

مَا كُلُّ من طَلَبَ المَعَالِيَ نافِذًا * فيها ولا كُلُّ الرِّجال فُحُولَا !

ولما كان الشيخُ الامامُ شهابُ الدّين أبو العَبَّاس أحمدُ ٱبنُ الشيخ ... ... مِمَّن نَظم فَوَدَّت الدُّرَر فى أفلاكه لو ٱتَّسَقَتْ، وكَتَب فَرَقَم الطُّروسَ ووَشَّاها، وغَشَّاها من زَهَرات الرِّياض ما غَشَّاها ؛ وحَلَّ المُتَرْجَمَ فسَحَر عَقْلَ كلِّ لَبِيبٍ وخَلَبَ لُبَّه، ووقع على القَصْد فيه فكأنَّه شيءٌ من الغَيْبِ خصَّ الله به قَلْبَه، وأتىٰ فيه ببدائِعَ ما تَسَاوَى ٱبنُ الصَّيْرَفِيِّ ولا ٱبن (١) عندها بِحَبَّه ؛ وخَطَب فصَدَع القُلُوب، وأجرىٰ ذَنُوبَ المَدَامِع من أهْلِ الذُّنوب، وحَذَّر فكانت أسجاعُه كألْحَانِ إسْحٰق وسامعُه يبكى بأجْفانِ يَعْقوب ؛ كأنَّما هو فى حُلَّة الخَطَابة بَدْرٌ فى غَمامَه، أو منبرُه غُصْنٌ وهو فوقه حَمامَه، أو بَحْرٌ وفضائلُه مثلُ أمواجه ودُرُّه يحكى كَلامَه ؛ لو رآه ”ٱبنُ نُبَاتَة“ ما أورقت بالفصاحة أعْوَادُه، أو ”ٱبنُ المُنَيِّر“ ما رُقِمتْ بالبلاغة أَبْرادُه، أو ”ٱبن تَيْمِيَة“ ما حَظِيَتْ بالحُدُود أَجْدادُه ؛ فأراد أن يُشَرِّفَ قَدْرِى، ويُعَرِّفَ نُكْرِى ؛ فطلب الإجازة منى وأنا أحقُّ بالأخْذِ عنه، وٱستدعىٰ ذلك مِنِّى : ورُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلىٰ من هو أَفْقَه منْه .

(١) بياض بالأصول ولعله : ولا ٱبن نباتة .

فنَعَمْ قد آستخرتُ الله تعالىٰ وأَجَزْتُ له ما يجوز لى تَسْمِيعُه ، وذكرتُ هنا شيئًا من مَرْوِيَّاتِى وأشياخى رحمهم الله وذكرتُ مُصنَّفاتى :

إجَازَة قاصِرعن كلِّ شَيْءٍ * يَسِيرُ من الرِّوايةِ فى مَفَازَه :
لمَنْ مَلَكَ الفضَائِلَ وآقْتَناهَا * وجَازَ مَدَى العُلىٰ سَبْقًا وحَازَه !

* * *

ومن ذلك ما كتب به الشيخُ العلَّامة شمسُ الدِّين محمد بن الصائغ على آسْتِدْعَاءٍ لبعض من سأله الإجازة .

أقولُ بعد حَمْدِ الله الذى لا يُخَيِّبُ من آسْتَجْدىٰ كَرَمه ، ولا يَخِيبُ من آسْتَدْعىٰ نِعَمَه ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمدٍ وآله وصَحْبِه وخدمه وما آسود مدمه (١) : (؟)

أَثْرتَ الجَوَىٰ بى إذ أَردتَ جَوَابِى * وعَظَّمْتَ خَطْبِى إذ قَصَدتَ خِطَابِى :
ومَنْ أنا فى الدُّنيا أُجيبُ ومَنْ أنا ! * أُجيزُ ؟ مَضَى الأشياخُ تَحْتَ تُرابِ !
عَجِيبٌ لطُلَّابٍ لَدَيْنا تَخَلَّفُوا * وكَمْ قد أتَانَا دَهْرُنا بعُجَابِ !
نحن إلىٰ المولحه أمر ناى * عربناه بالعذيب عذاب (١)

ياأخانا : إنَّ بِضَاعَتنا فى العِلْمِ مُزْجاه ، وصِناعَتَنا فى الوَقْت مُرْجاه ، ونَسِيم أخباره عَليل ، وأَدَب إخباره قليل ، وتَصَانيفى وُجُوهُ أكثرها مُسْوَدَّه ، وآمالى فى تَبْيِيضها لِقصَر الهِمَم ممتدّه ، سُئِلْت قديمًا من بعض الفضلاء أن أُعِدَّها ، فكتبتُ فيها رسالةً لاأَعْرِف لصَقْلِ الأذهان حدَّها ، ومَنَّ الله بعد ذلك بتصانيف أُخَر ، ومَقاطِيعَ إن لم تكُن كالزُّهْر فهى كالزَّهَر ، ثم عَدّد نَيِّفًا وثلاثين مُصنفا ، منها ''مَجْمع الفرائد'' فى ستّ (٢) عشرةَ مجلَّدةً . ثم أنشد فى آخر ذلك :

---

(١) كذا فى الأصل ، ولم نهتد اليه مع دقة البحث .
(٢) فى كشف الظنون : تسعة عشر مجلدا .

ولقد شرَّفت قدرى * بنفيس من هدايا:
بنظام شنَّف السمـ * ـع بدرٍّ كالثَّنايا.
فارْوِمنِّى وارْوِعنِّى * واغْنَ عن شدّ المَطايا،
وانْتقِ الفَضْل وحصِّلْ، * واحْظَ منِّى بمَزَايا،
وتحرَّ الصِّدْق واعْلَمْ * أنهُ خيْرُ الوصَايا!!!

أجَزْتُ لك أن تَروِىَ هذه وغيرها عنِّى، ولك الفَضْلُ فى قَبُول ذلك منِّى .

الصنف الثانى

(التَّقريضات التى تكتب على المُصَنَّفات المُصنَّفة والقصائد المَنْظومة)

قد جَرَت العادة أنه إذا صُنِّف فى فَنٍّ من الفنون أو نَظَم شاعِرٌ قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك، أن يَكْتُبَ له أهْلُ تلك الصناعة علىٰ كتابه أو قَصِيدَتِه بالتَّقْرِيض والمَدْح، ويأتِىَ كلٌّ منهم بما فى وُسْعِه من البلاغة فى ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاحُ الدين الصَّفَدىُّ على مُصَنَّف وضعه الشيخُ تاجُ الدِّين علىّ بن الدِّرهم المَوْصِلىُّ الشافعىُّ فى الاستدلال على أن البَسْملةَ من أوّل الفاتحة، وهى :

وَقَفْتُ علىٰ هذا التصنيف الذى وضعه هذا العَلَّامه، ونَشَر به فى المَذْهَب الشافعىِّ أعْلامَه، وأصْبحَ ونِسْبته إليه أشهرُ عَلَمٍ وأبْهَر عَلَامَه؛ فأُقْسِمُ ما سَامَ الرَّوْضُ حَدَائقه، ولا شَام أبُو شَامةَ بوارِقَه؛ كلُّ الأئمة تعترفُ بما فيه من الأدلَّه، وكلُّ التصانيف تقول أَمامَه: بِسْمِ اللهِ؛ كَمْ فيه من دليل لا يُعارَضُ بما يَنْقُضُه، وكَمْ فيه من حُجَّةٍ يَكِلُّ عنها الخَصْمُ لأنَّ عَقْلَه علىٰ مَحَكِّ النَّقْدِ يَعْرِضُه؛ قد أيَّد ما ادَّعاه بالحَديث والأثَر، ونَقَل مَذْهب كلِّ إمامٍ سَبَق وما عَثَر؛ لقد سُرَّ الشافعىُّ بنَصِّ

قَوْله الذى هَذَّبه ، وجَعَل أعلامَ مَذْهَبِه مُذْهَبَه ؛ وأتىٰ فيه بنُكَتٍ تُطْرِب من أَسْرار الحَرْف ، وفَوَائدَ عُرِف بها ما بين ابن الدِّرْهَم وبين البُونى من البَوْن فى تَفاوُت الصَّرْف :

أَكْرِمْ به مُصَنَّفًا * فاقَ تَصانيفَ الوَرَىٰ!
لَيْلُ المِدَادِ فيه بالْـ * ـمَعْنَى المُنِيرِ أَقْمَرَا!
كَمْ فيه بُرْدُ حُجَّةٍ * قَدْ حاكه مُحَرَّرا،
وكَمْ دَلِيل سَيْفُه * إذا ٱلْتَقى خَصْما فَرَىٰ.
فَلَمْ يَكُنْ مِن بَعْدِه * مُخَالِفٌ قَطُّ يُرَىٰ!!

ومن ذلك ما كتب به المَقرّ الشِّهابىّ بن فَضْلِ الله على قَصِيدةٍ مِيمِيَّةٍ ، للشيخ غَرْس الدِّين خليل الصَّفَدِىّ المعروف بالصَّلاح الصَّفَدِىّ ، مَدَح بها الأميرَ سَيْفَ الدين أُلجاى الدَّوادَار النَّاصِرىّ ، فى شهور سنة تِسْعٍ وعشرين وسبعمائة ، وهى :

وقَفْت علىٰ هذه القصيدة التى أَشْرقَتْ معانيها فكادَتْ تُرىٰ ، وتمكَّنَتْ قَوافِيها فاسْتَمسكَ بها الأَدَبُ لَمَّا كانَتِ المِيَاتُ فيها كالعُرَا ؛ فوجدتُها مشتملةً من البلاغة بوَزْنِها على البَحْرِ المحيط ، لَطِيفةً لا تُقاسُ بأمثالها من الكلام المُركَّب لأنها من البَسِيط ؛ فنظَرتُ إليها مُكْتَسِبًا من بيانِها سِحْرَ الحَدَق ، مُتَعَجِّبا من مُنْشِئِها لغَرْسٍ يُسْرِعُ الإثْمارَ فى الوَرَق ؛ ثم فَطِنتُ إلىٰ أنَّ الممدوحَ بها أَعزَّه الله تعالى سَحَّتْ دِيَمُه فَرَوَّضَتِ الطروس ، وبَرَّحَتْ مَناقِبُه بما كان مَصُونًا فى أَخْبِيَةَ النُّفوس ؛ وقد ٱستوجبَ هذا المَادِحُ عَطْفَ الله تعالىٰ قَلْبَه عليه من مَنائِحه حَظًّا جَزِيلا ، وحُبًّا يقول به لمن قصد المساواة به : لو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لٱتخذتُ فُلانًا خَليلا :

مـــدبّر المُـــلْكِ له * على العُـلىٰ مَقَاعِـــدُ،
تَهْـــوِى إلىٰ جَنَـابِه الْــ * قُصَّـادُ والقَصَـــائدُ!

*
* *

قلتُ : وكتبتُ علىٰ قَصِيدةٍ نظمها شَرَفُ الدِّين عيسى بن حَجَّاج الشاعِرُ المعروفُ بالعَالِيةِ ، مَدَح بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم وضَمَّنها أنواعَ البَدِيع، ضَاهَىٰ بها بَدِيعيَّة الصَّفِيِّ الحِلِّيِّ، فى شهور سنة ٱثنتين وتسعين وسبعمائة، ما صُورَتُه :

أما بعدَ حمدِ الله الذى أَحَلَّ سِحْرَ البَيَان، وأَقْدر أَهْلَ البلاغة من بَدِيعِ التَّخَيُّل علىٰ ما يَشْهد بِصحَّته العِيَان، وذَلَّل برَائِض أَفْكارِهِم صِعَابَ الألفاظ فَٱمْتَطَوْا من مُتُون احَاسِنِها الجِيَـاد، وأَوْضَحَ لهم طُرُقَ الفصاحة فغَدَتْ لديهم ـ بحَمْدِ الله تعالىٰ ـ سَهْلَةَ القِياد، وأحْيىٰ مَيِّتَ الأَدَبِ برُوحِ الأنفاس العِيسَوِيَّة وعَمَّر بأُنْسِها رُبُوعَه الخَالِيَـه، وحَمَىٰ نفس الفَضْـل فى رُقْعة المُساجَلَة أن تَصِلَ إليها فَرازِنَةُ الدَّعاوىٰ ولا غَرْوَ أنَّ حَمَاها العاليه؛ والصَّلاةَ علىٰ رسوله محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم أفْصحِ من نَطَق بالضَّاد، وأُوتِيَ جَوامِعَ الكَلِمِ فلن تَحْصُرَ مَعَـانِيَ كلامِه الأَعْداد ـ فإنِّى وقفتُ على البَدِيعِيَّـةِ البَدِيعَـة التى نظمها الفاضِـلُ الأرْفع ، واللَّوْذَعِيُّ المِصْقَع ؛ أدِيبُ الزَّمان ، وشاعِرُ الأَوَان؛ شرفُ الدِّين أبو الرُّوحِ عِيسى العالية ـ أعلى الله تعالىٰ مَنَارَ أدَبِه ورَفَعَه علىٰ مُنَاوِيه، وبلغ به من قَصَبِ السَّبْقِ ما يَمْتَنِـعُ أن يراه على البُعْد مُضَاهِيـه ـ فأَلْفَيْتُها الدُّرَّةَ الثمينة غير أنها لاتُسَام، والخَرِيدةَ المُخَدَّرَةَ إلا أنها لا يَلِيقُ بها الاَحْتِشَام :

تَرُومُ ٱحتِشامًا سَـــتْرَ لَأْلَاءِ وَجْهِها! * ومَنْ ذَا لِذَاتِ الحُسْنِ يُخْفِي ويَسْتُرُ؟!

قد ٱتَّخذَتْ من الاحتشام مَعْقِلًا وحِصْنًا لا يُغْشَىٰ، وٱنْتَبَذَتْ من حُسَّادِها مَكانًا قَصِيًّا فلا تخافُ دَرَكًا ولا تَخْشَىٰ :

وَلَمْ أَدْرِ ـ والألفاظُ منها شريفةٌ ـ * إلى البَدْرِ تَسْمُو أَمْ إلى الشَّمْسِ تَرْتَقِي ؟ !

أراد المُدَّعِي بلوغَ شأوِها الجَرْيَ في مِضْمارِها فقيلَ : كَلَّا ، ورامَ المُلْحِدُ في آياتها الغَضَّ منها عِنادًا فأبَى اللهُ إلَّا :

مَا إنْ لها في الفَضْلِ مِثْلٌ كائنٌ ! * وبيانُها أَحْلَى البَيانِ وأَمْثَلُ !

فأمسَوْا في مُعارَضَتِها غيرَ طامعين، وتلَتْ عليهم آياتُ بلاغتِها : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ :

كَمْ جَدَّلَتْ يومَ الوَغَى من جَنْدَلٍ * صاحَتْ به فما أطاقَ تَصَبُّرًا !

وكيف لا تَخْضَعُ لها الأعناق، وتَذِلُّ لها رِقابُ الشُّعَراء على الإطلاق ؛ وهي اليتيمةُ التي أعقمتِ الأفهامُ عن مِثْلِها، والفريدةُ التي اعترف كلُّ طويلِ النِّجادِ بالقُصُورِ عن وَصْلِها :

زَادَتْ عُلًى، مَنْ ذا يُطِيقُ وِصالَها؟ * ومَحَلُّها منه الثُّرَيَّا أَقْرَبُ !

وأنَّى بذلك وقد أخذتْ من المحاسنِ بزِمامِها، وأحاطَتْ من الطَّلاوةِ بِكَمامِها، وأحدقتْ رياضُ الأدبِ بحدائقِها ، واقتطفتْ من أفنانِ الفُنُونِ ثِمارَ مَعانٍ تَلَذُّ لناظرِها وتَحْلُو لذائقِها؟ :

ولا تُعِرْ غيرَها سَمْعًا ولا نَظَرًا * في طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عن زُحَلِ !

وتَصَرَّفتْ في جميع العلوم وإن كانت على البديع مَقْصُورَه ، وشَرُفَتْ بشَرَفِ مُتَعَلَّقِها فأصبحتْ بالشرف مَشْهُورَه :

أَهَانَتِ الدُّرَّ حتَّى ماله ثَمَنٌ ، * وأَرْخَصَتْ قِيمةَ الأَمْثالِ والخُطَبَا !

لا جَرَم أضحتْ أمَّ القصائدِ وكَعْبةَ القُصَّاد، ومَحَطَّ الرِّحالِ ومَنْهَلَ الوُرَّاد؛ فأرْبَتْ في الشُّهْرة على "المَثَلِ السائر"، واعترفَ بفَضْلِها جَزالةُ البادي وسُهُولةُ الحاضر :

فللأفاضـــلِ فى عَلْيائهـا سَمَرٌ * إنَّ الحَديثَ عن العَلْياءِ أَسْمارُ!

فأَعْجِبْ بها من بادِرَةٍ جَمعتْ بين مُتضادَّيْنِ سُمْرٍ وسَمَر، وقَرنتْ بين متباعِدَينِ زُهْرٍ وزَهَر، وجادَتْ بمستنزهين رَوْضٍ ونَهَر؛ وتَفَنَّنتْ فى أساليب الكلام وجالَتْ، وطاوعَتْها يَدُ المقَالِ فقالتْ وطَالَتْ؛ ودَعتْ فُرسانَ العَربيَّـةِ إلى المُبارزَةِ فنكَسُوا، وتَحقَّقَ المُفْلِقُون العَجْزَ عن مُؤاخاتها ولو حَرَصُوا:

فأَعْربَ عَنْ كُلِّ المَعَانِى فَصيحُها * بمـا عَجَزتْ عنـه نِزارٌ ويَعْرُبُ!

إن ذُكِرَتْ ألفاظُها فما الدُّرُّ المَنْثور؟ أو جُلِيَتْ معانِيها أَخجلتِ الرَّوْضَ المَمْطُور؛ أو آعْتُبِرتَحْرِيرُوَزْنِها فاق الذَّهبَ تَحْريرا، أو قُوبِلَتْ قَوافِيها بغيرها زَكَتْ تَوْفيرا وسَمَتْ تَوْقيرا؛ أو تَغزَّلَتْ أسكتَتِ الوُرْقَ فى الأَغْصَان، أو آمْتَدَحتْ قَفَتْ إِثْرَ «كَعْبٍ» وسَلَكتْ سَـبِيلَ «حَسَّان»؛ فإطْنابُها ـ لفَصاحتِها ـ لا يُعَـدُّ إطنابا، وإيجازُها ـ لبلاغتِها ـ يَمُدُّ على المعانى من حُسْنِ السَّبْك أَطْنابًا:

أَبِنْ لِى مَغْزَاهَا أَخَا الفَهْـمِ إنَّهـا * إلى الفَضْلِ تُعْزَى أو إلى المَجْدِ تُنْسَبُ؟

هذا وبَراعةُ مَطْلَعِها تحثُّ على سمـاعِ باقيها شَغَفا، وبَدِيعُ مَخْلَصِها يَسْتَرِقُ الأسماعَ لَطَافةً ويَسْتَرِقُّ القلوبَ كلَفا، وحُسْنُ آخْتِتامِها تكاد النُّفوسُ لحلاوةِ مَقْطَعِه تَذُوبُ عليها أَسَــفا:

لَهَا من بَراهينِ البَيَان شَواهِـدُ: * إذِ الفَضْلُ وِرْدٌ والمَعَالى مَوارِدُ!

وبالجملة فمآثِرُها الجميلة لاتُحْصَى، وجمَائلُها المأثورة لاتُعَدُّ ولا تُسْتَقْصَى؛ فكأنَّمـا «قُسُّ بن سَاعِدَةَ» يأتَمُّ بفَصاحَتِها، و«آبنُ المُقَفَّع» يَهْتَـدِى بهَـدْيِها ويَرْوِى عن بلاغتِهـا؛ «وآمْرُؤُ القَيْسِ» يقْتَبِسُ من صَـنْعةِ شِعْرِها، و«الأَعْشَى» يَسْتَضِىءُ بطَلْعةِ بَدْرِها؛ فلو رآها «جَرِيرٌ» لرأى أنَّ نَظْمَه جَرِيرةٌ آقترفها، أو سَمِعها «الفَرَزْدَقُ»

لعرف فَضْلها وتحقق شَرَفَها ؛ أو بَصُربها « حَبِيبُ بنُ أَوْسٍ » لأَحَبَّ أن يكونَ من رُوَاتِها ، أو آطَّلَع عليها « المُتَنَبِّي » لتحيَّر بين جَمِيل ذاتها وحُسْن أدوَاتِها :

فلِلْبصـائِرِ هَـادٍ مِنْ فَضَائِلِهَـا * يَهْدِى أُولِى الفَضْل إن ضَلُّوا و إن حَارُوا !

ولا نُطِيلُ فَمَبْلَغُ القول فيها أنَّ آيَتها المُحْكَمة ناسخةٌ لما قبلها ، وبُرْهانَها القَاطِعَ قاضٍ بأن لا تَسْمحَ قَرِيحةٌ أن تَنْسُج علىٰ مِنْوالِهـا ولا يَطْمَعَ شاعِرٌ أن يسلك سُبُلَها :

وآيَتُهـا الكُبْرىٰ التى دَلَّ فَضْـلُها * علىٰ أنَّ مَن لم يَشْهَدِ الفَضْلَ جاحِدُ !

الطــــرف الثـانى

(فيما يُكْتب عن القُضَاة ، وهو علىٰ أربعة أصـناف)

الصــــنف الأوّل

(التقاليد الحُكْمِيَّة ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبــــة الأولىٰ

(أن تُفْتتح بخطبـــة مفتتحةٍ بـ«الحمـــد لله»)

ثم يقال : «أمّا بعد» ثم يقال : «ولـمَّا عَلِمنا من حال فلان الفُلَانىّ كذا وكذا ، آستخرنَا الله تعـالىٰ وفوّضنَا إليـه كذا وكذا ، فليباشِرْ ذلك» ويُوصِ بما يناسب . ثم يقال : «هذا عَهْدُنا إليك ، وحُجَّتنا عند الله عليك ، فآعلَمْ هذا وآعمَلْ به ، وكُتِب ذلك عن الإذن الفلانىّ» .

وهذه نسخة تقليـــد :

الحمدُ لله الولىِّ الحَمِيـد ، الفَعَّالِ لِـمَا يُرِيد ، نحمـدُه علىٰ ما أولانا من إحسانه فهو المَوْلىٰ ونحن العَبِيد ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً توصِّـلُنا إلىٰ

جَنَّة نَعِيمُها مُقِيم ، وتَقِينا من نَارٍ عَذابُها شَدِيدٌ أَلِيم ؛ وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه النبيُّ الكريم ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه المشتملين على الطاعة والقَلْبِ السَّلِيم ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

أما بعدُ ، فإن مَرْتبةَ الحُكْمِ لا تُعْطىٰ إلَّا لأهْلِها ، والأقْضيةَ لايَنْتَصِبُ لها إلَّا من هُو كُفْءٌ لها ؛ ومن هو مُتَّصِفٌ بصفات الأمانة والصِّيانَه ، والعِفَّةِ والدِّيَانه ؛ فمَنْ هذه صِفَتُه آستحقَّ أن يُوجَّهَ ويُسْتَخْدَم ، ويَتَرَقَّىٰ ويتقدّم .

ولَمَّا عَلِمْنا من حَالِ فلانٍ الفلانىِّ الأوصافَ الحَمِيدَه ، والأفعالَ السَّدِيدَه ؛ فإنه قد حَوَىٰ المعرفة والعُلُوم ، والاَصْطِلاحَ والرُّسوم ، وجُمِعَتْ فيه خِصَالٌ حَمَلَتْنا علىٰ آسْتِنَابَتِه ، وقَوَّتْنا علىٰ نِيَابَتِه ؛ — آسْتَخرنا الله تعالىٰ وفَوَّضْنا إليه كذا وكذا .

فلْيُباشِرْ ذلك مُتَمَسِّكًا بحَبْلِ الله المَتِين ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ ولْيجتَهِدْ فى إقامة الدِّين وفَصْلِ الخصومات ، وفى النَّظَر فى ذَوى العدالات والتَّلَبس بالشهادات وإِقَامَةِ البيِّنات ؛ فمَنْ كان من أهْلِ العَدَالةِ نَزِها ، وإلى الحَقِّ مُتَوَجِّها ؛ فلْيُراعِه ويُقَدِّمْه علىٰ أقرانه ، ومَن كان منهم خلاف ذلك فلْيُقْصِه ويُطالِعْنا بحَالِه . ولْينظُرْ فى أمْرِ الجوامع والمَسَاجِد ويفعلْ فى ذلك الأفعالَ المَرْضِيَّه ، وفى أموال الأيتام يَصْرِفُ منها اللَّوازِمَ الشَّرْعيه ؛ فمن بَلَغ منهم رَشِيدًا أَسْلَمَ إليه ما عساه يَفْضُل له منها ، ويُقرِّر الفُرُوضَ ، ويُزَوِّجُ الخالياتِ من الأزواج والعِدَدِ والأَوْلياء ، من الأَزْواج الأَكْفاء ، ويَنْدُبُ لذلك من يَعْلَمُ دِيانَتَه ، ويَتَحقَّق أمَانَتَه ؛ ويَتَخيَّرُ لكتابة الصُّكوك من لا يرتاب بصِحَّتِه ، ولا يَشُكُّ فى دِيَانَتِه وخِبْرَتِه ؛ وينظر فى أَمْرِ المتصرِّفين ، ومَن عنده من المُسْتَخْدَمين ؛ فمن كان منهم على الطريقة الحميدة فلْيُجْرِه علىٰ عَادَتِه ، ولْيُبْقِه علىٰ خِدْمَتِه ؛ ومن كان منهم بخلاف ذلك فلْيَسْتَبْدِلْ به ولْيُقْصِه .

هذا عَهْدِى إليك ، وحُجَّتِى غدًا عند الله عَلَيك ؛ فاعلَمْ هذا واَعْمَلْ به .

وكُتِب ذلك عن الإذْنِ الكريم الفلانىّ وهو فى مَحَلّ وِلَايتِـه وحُكْمِه وقَضَائه ، وهو نَافِذُ القَضَاء والحُكْم ماضِيهما ، فى التاريخ الفلانىّ . (ثم يكْتُب الحاكِمُ علامَتَه والتاريخ) وحَسْبُنا الله ونِعْم الوَكِيل .

***

وهذه نُسْخة تَقْلِيد :

الحمدُ لله الحَكَمِ العَدْلِ الهَادِى عِبادَه صِراطًا مُسْتقيما ، الحاكِمِ الذى لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَــنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ؛ المُثِيبِ من قــدّم له الطاعةَ من قَبْل أن يَأْتِىَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلَال ، الرَّقِيبِ علىٰ ما يَصْدُر من أفعالهم فلا يُغَيِّر ما بِقَوْمٍ حتَّىٰ يُغَيِّروا ما بأنْفُسِهم وإذَا أَرادَ اللهُ بقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وما لَهُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَالٍ .

أحمدُه علىٰ نِعَمِه التى تُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقال ، وأَسْـتعيذُه من نِقَمِه التى يُرْسِـلُها فيُصِيبُ بها من يَشَاءُ من عِبادِه وهو شَـدِيدُ المِحَال ؛ وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُفِيد المُخْلِصَ بها فى الإقرار النَّجاةَ يومَ المآل ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى نَعَتَه بأكرمِ الشِّيَمِ وأشْرَفِ الخِصَال ، وعَرَّفه بما يَجِبُ من عُبُودِيَّته فقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين اتَّبعوه فى الأقوال والأفعال ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

أما بعدُ ، فإنّ مَنْ حَسُنتْ سَرِيرَتُه ، وحُمِدَت سِيرتُه ، وعُرِفَ بوَرَعٍ وشُهِرَ بعَفَاف ، ودِيانَةٍ وخَيْرٍ وإنْصَاف ، وأضحىٰ نَزِهَ النَّفْس عن الأمور الدَّنِيَّه ، فَقِيهًا دَرِبًا بالأحكام الشَّرْعيه ، عارِفًا بالأوضاع المَرْضِيه ـ اسْتَحَقّ أن يُوَجَّه ويُسْتخْدَم ، ويُرَقَّىٰ ويتقدَّم ،

ولمَّا علمنا من حال فلانٍ الفلانىِّ من الأوصاف الحَميده، والأفعال السَّديده ــ آستخرْنا الله تعالىٰ وفوّضنا إليه كذا وكذا .

فَلْيَكُنْ متمسِّكًا مُعْتَصِمًا بحَبْلِ الله القوىِّ المتين، ﴿إنَّه مَنْ يتّقِ ويَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المُحْسنِينَ﴾ ولْيُباشِرْ ما قلَّدناه أعانه الله سبحانه وتعالىٰ، ويُراعِ حُقُوقَ الله تعالىٰ فى السِّرِّ والعَلانية : فإنَّه مُعِينُ من آستعان به وتوكَّلَ عليه، وهَادِى من آسْتَرْشَدَه وفَوّض أُمُورَه إليه .

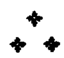
ولْيجْتَهِدْ فى فَصْلِ الأحكام بين المتنازِعين، والمُساواةِ فى العَدْل بين المُتحاكِمين؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وأن يَتْبُتَ فى الخُصُومات، ويَفْرِقَ بين الحَقَائِقِ والشُّبُهات ؛ ويُنْصِفَ كلَّ ظالِمٍ من ظَالمه بالشَّريعَةِ المحمَّديَّه ، ليكون ذلك سَببًا للسعادة الأبَديَّه؛ ويَنْظُرَ فى أمْرِ الشهود : فمن كان منهم نَزِهًا، وإلى الحقِّ مُتَوَجِّها؛ فلْيُراعِه، ومن كان منهم غير ذلك طَالَعَنا بحاله . ويَنْظُرَ فى أمْرِ الجوامع والمَساجِدِ مُعْتَمِدًا فى ذلك قولَ الله العَزِيزِ القاهِرِ : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

ويَنْظُرَ فى أمْرِ الأيتام ، ويَحْتاطَ علىٰ ما لهم من الأموال ، ويَفْعل فى ذلك علىٰ جَارِى عَادَة أمثاله من الحُكَّام ؛ من نَفَقَةٍ وكُسْوَةٍ ولَوَازِمَ شَرْعيَّه، فمن بَلَغ منهم رَشيدًا أسْلَمَ إليه ما فَضَل من مَاله بالبَيِّنة المَرْضيَّه؛ ويُقَرِّر الفروضَ علىٰ مقتضى قول الله تعالىٰ : ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾. ويُزَوِّج النِّسوةَ الخالِيَةَ من العدَدِ والأوْلياء ، ممَّن رَغِبَ فيهنّ من الأكْفاء ؛ ويَنْدُب لذلك من يَعْلَمُ أمانَتَه وخِبْرَتَه، وينظر فى أمْرِ المتصرّفين : فمن كان منهم على الطَّرِيقَةِ المأثورة أجْراهُ علىٰ عادَته ،

وأبقاه علىٰ حُكْمِه وخِدْمَتِه ؛ ومن كان منهم خلافَ ذلك يُبْعِدُه ويُقْصِيه ؛ ويَسْتَبْدِلُ به غيرَه ليَبْقَىٰ مكانَه وفى تَصَرُّفه .

هـذا عَهْدى إليك ، وحُجَّتِي يوم القيامة عنـد الله عَلَيْك ، فلتعلَمْ ذلك وتَعْمَلْ به إن شاء الله تعالىٰ . (ويُؤَرِّخ ، ويكون ذلك بخَطِّ الحاكم) ويكتبُ : «وحَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل» ويتَوَّجُهُ بعلامَتِه الكَرِيمة .



وهذه نسخة تقليـــد :

الحمدُ لله ذِى الفَضْلِ والسَّخاء، واللُّطْفِ فى الشِّدَّة والرَّخاء، الذى من تَوَاضَعَ إليه رَفَعَه، ومن أطاعه نَفَعَه، ومن أَخْلَصَ له فى العبادة أمَالَ عنه كَيْدَ الشيطان ودَفَعَه، الذى أحاط عِلْمُـه بالموارِدِ والمَصَادِر، وٱسْـتَوَتْ عنده أحوالُ الأوائِلِ والأواخِر، وٱطَّلَع علىٰ ضمـائرِ النفوس ولا ينبغى لغيره أن يَطَّلِـعَ على الضمائر، الخَافِض الرَّافِع، والمُعْطِى المَـانِـع، فإليه الأمْرُ والتَّـدْبير، المُقْسِـطِ الجامِع : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أحمده حمدًا يَقْضِى للسعادة بالتَّيْسير، وأشكُرُه شكرًا يُسَهِّل من المآرب العَسِـير، وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له سبحانه نِعْمَ المولىٰ ونِعْمَ النَّصير، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أرسله بالهُدَىٰ والكتابِ المُنير، وجَعَله للأمَّة خيرَ بَشِيرٍ ونَذِير، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحَابَتِه شهادةً يَحُلُّ المخلصونَ بها جَنَّةً ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

أما بعدُ، فإنَّ مَن كان عارِفًا بأَحكام الشَّرِيعَه، مُتَهَيِّئًا لنَيْل دَرَجاتها الرَّفِيعَه، مستندًا إلىٰ بَيْتٍ مَشْكُور، وقَدْرٍ مَوفور، قُلِّدَ الأَحكامَ الدِّينيَّه، ليعملَ فيها بالشَّرِيعَة المُحَمَّدِيَّه،

ولمّا علمْنا فلانَ بنَ فلان بنِ فلانٍ الفلانىّ ، قلّدْناه كذا وكذا .

فباشِرْ أعانَكَ الله : محافظًا علىٰ تقوى اللهِ الذى إليه المَرْجِع والمَصِير ، قال الله تعالىٰ فى كتابه العزيز : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وآسْتَشْعِرْ خيفةَ اللهِ وآجْعَلْها نُصْبَ عَيْنِك ، وتَمَسَّكْ بالحقّ وآجْعَلْه حجابًا بين النار وبَيْنَك ؛ وآنْتَصِبْ لتنفيذ الأحكام آنْتِصابَ من يُرَاقِبُ اللهَ ويَخْشاه ، وحَاسِبْ نَفْسَك مُحاسَبَةَ من يتحقّقُ أنه يطّلِعُ عليه ويراه ؛ وآبْذُلْ فى إنصاف المظلوم من الظالم وُسْعَك ، ورَحِّبْ للمتحاكِمين ذَرْعَك ؛ وآنْظُر فى أَمْرِ الشُّهود وحَذِّرْهم أن يَزُوغُوا عن الحَقّ ، وحاسِبْهم فيما جَلّ ودَقّ ؛ ولا تُرَخِّصْ لهم ، وأَلْزِمْهم أن يَتّخِذُوا الصِّدْقَ مَنْطِقَهم ؛ وآنْهَهُم عن التَّسَمُّح فيها ، وعَرِّفْهُمُ التَّحَرّز عما يؤدّى من التُّهَمَةِ والتَّطرُّق إليها ؛ وآنظر فى أمْرِ المتصرفين بباب الحُكْم العزيز نَظَرًا يؤدّى إلىٰ صَلَاحِهم ، ولا تُعَوِّلْ فى النيابة عنك إلا علىٰ من تَخْتارُه وتَرْتَضِيه ، ولا تَعرِّجْ إلىٰ من هو مُسْتَنِدٌ إلىٰ غايةٍ ولا تَمِلْ إليه ؛ وآنْظُرْ فى أمرِ الأحْباسِ نظرًا يحفَظُ أصولَها ، ولا تُراعِ فى آستخلاص مايتعيَّنُ لها كبيرًا ولا صغيرا ، ولا تُعامِلْ فيها إلّا ذَوِى الوَفَاء واليَسَار ، وآرْفُضْ معاملة من يَسْتَنِدُ إلى العُدْمِ والإعْسار ؛ وآفْعَلْ مايفعله مِثْلُك من الحُكّام ، من إنشاء العَدَالةِ والفَسْخِ والإنكاح وغير ذلك فقد قَلَّدْناكَ هذه الأَحْكام ؛ فإن عَمِلْتَ فيها بتَقْوى الله تعالىٰ وطَاعَتِه يُعِينُك علىٰ ذلك ، وإن عَمِلْتَ غير ذلك فأنتَ واللهِ هَالِكٌ ثم هَالِك ؛ وآسْتَمِعْ نَصِيحَتِى ، وآفعلْ ما تُبَرِّدُ به جِلْدَتَك وجِلْدَتِى ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ[(١)] : ورُبَّما كُتِب التقليدُ بصيغة كِتَاب ، مِثْلُ أن يُكْتَب إلىٰ الذى يتولّىٰ علىٰ قدرِ مَرْتبته ، من : «صَدَرتْ هذه المكاتبة» أو : «هٰذه المكاتبة» ثم يقال :

(١) هذه هى المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان فى الأصل .

«تتضمّن إعلامَه أنّ المجلس الفلانىّ» بلقبه، ويُدعَى له: «لمّا علمْنا من حاله كذا وكذا ـ آستخَرْنا الله تعالى وفوّضنا إليه الحُكْمَ والقَضاءَ بمكانِ كذا، فليباشِرْ ذلك» على نحو ما تقدّم فى التقليد الذى قبله .

الصـــنف الثانى

(إسجالاتُ العدَالة)

قد جرَت العادةُ أن أبناء العُلَماء والرُّؤَساء تَثْبت عدالتُهم على الحُكّام، ويُسجَّل لهم بذلك، ويحكُم الحاكِمُ بعـدالةِ من تَثْبُت عَدالتُه لَدَيْه، ويُشْهِدُ عليـه بذلك، ويكتب له بذلك فى دَرْجٍ عَريضٍ، إمّا فى قَطْع فَرْخة الشامىّ الكاملة، وإما فى نحو ذلك من الوَرَق البَلَدىّ، وتكون كتابته بقلَم الرِّقاع وأسْطُرُه متوالية، بين كلّ سَطْرين تقدير عَرْض أصبع أو نحو ذلك .

قلتُ : وهذه نُسْخة سِجِلّ أنشأتُه، كُتِبَ به لولَدى نَجْم الدِّين أبى الفَتْح محمد، وكُتِبَ له بها عند ثُبُوت عَدالتـه، على الشَّيخ العَلّامة ولىّ الدِّين أحمدَ، آبنِ الشَّيْخ الإمامِ الحافِظ زَيْنِ الدِّين عبدِ الرَّحيم العِرَاقىّ، خليفةِ الحُكْمِ العزيز بمصرَ والقاهرةِ المحروستين، فى شهور سنة ثلاثَ عشرةَ وثمـانمـائةٍ، وهى :

الحمدُ لله الذى أَطْلَعَ نَجْمَ العَدالة من سَماءِ الفضائل فى أُفُقِ مَعاليها، وأَنارَ بدرارِىّ العُلَمـاء من حَنادِس الجهالة مُدْلَهِمَّ لياليها، وكَلَّل عُقُود النَّجابة من نُجَباءِ الأبناء بأغلى جَواهِرها وأنْفَس لآليها؛ وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُرَقِّى قائلَها إلى أرفع الذُّرا، ويَمْتطى مُنْتَحِلها صَهْوَة الثُّرَيّا: وإنّا لَنَرْجو فوقَ ذلك مَظْهرًا؛ وأشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه المخصوصُ بمَحاسِنِ الشِّـيَم، والمَوْصوفُ بكَرَم المآثِر ومآثِرِ الكَرَم؛ صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين تمسّكوا من عُرا الدِّين بالسَّبَب

الأَقْوىٰ، وسَلَكُوا جادَّةَ الهِـدايَةِ فحَصَلُوا من أقصىٰ مُغَيَّاها على الغـايَةِ القُصْوىٰ؛ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

وبعدُ، فلمَّا كانتِ العدالةُ هى أُسَّ الشريعة وعِمادَها، ورُكْنَهَا الأعْظَمَ فى الآستناد إلى الصَّوابِ وسِنَادَها؛ لا تُقْبَل دونَها شهادةٌ ولا رِوَايَه، ولايصحُّ مع عَدَمِها إسْنادُ أمْرٍ ولا وِلَايَه ــ فقد بُنِيَت الشريعةُ المطَهَّرةُ علىٰ أرْكانِهـا ، واعْتَمَد الرُّواة فى صِحَّة الأخبار علىٰ أُصُولِهـا وتعلقتِ الحُكَّام فى قَبُولِ الشهادة بأحْضَانِهـا ؛ إذ هى المَلَكَة الحَامِلَة علىٰ مُلازَمَة التَّقْوىٰ ، والحَفِيظَةُ المـانِعَةُ من الوقوع فى هُوَّةِ البِدَعِ المُتَمَسَّكُ بسَبَبِها الأَقْوىٰ ؛ والحَكَمَةُ الثَّانِيَةُ عن الجِمَاحِ إلى آرتكاب الكبائر، والعِنَانُ الصَّارِفُ عن الجنوح إلى الإصرار على الصَّغائر؛ والزِّمَامُ القَائِدُ إلىٰ صَلاحِ أعمـال الظواهر وسَلامة عَقَائِد الضَّمائر .

ولمـا كان مجلسُ القاضى الأجَلِّ ، الفَقيهُ ، الفاضِـلُ ، المشتغِلُ ، المحصِّـلُ ، الأصِيلُ، نَجْمُ الدِّين، سَلِيلُ العلماء، أبو الفَتْح محمدُ بن فلان القَلْقَشَنْدِىُّ الفَزَارِىُّ ، الشَّافعىُّ، خليفةُ الحُكْم العزيز بالقاهرة المحروسـة والِدُه، والحاكِمُ بالعَمَـلِ الفلانىِّ ومامعهما : أيَّدَ الله تعالىٰ أحكامَه، وأقَرَّ عَيْنَه بولَدِه ــ هو الذى وُلِدَ علىٰ فِرَاشِ الدِّيانه، وظَهَرتْ عليــه فى الطُّفُولية آثارُها، ونَشَأَ فى أحْياءِ الصِّيانه ، فرُوِيَتْ عنه بالسَّـنَد الصحيح أخبارُها، وآرْتَضع ثَدْىَ العِلْمِ حين بُزُوغِ نَجْمِه، وغَذِيَه مع لِبَانِ أمِّه فآمْتَزَج بَدمِه ولَحْمِـه وعَظْمِه ؛ وأَعْلَنَ مُنادِى نَشْأَته بجميل الذِّكْر فأغْنَىٰ فيه عن الآستِخْبار، ولاحَتْ عليــه لوائِحُ النَّجابة فقضى له بالكمال قبل أن يَبْلُغَ قمرعُمْره زَمَن الإبْدار ؛ فلم يَرِدْ مَنْهلَ التكليف إلا وقد تَزَيَّن من مَحاسِنِ الفضائل بأكمل زَيْن، ولم يَبْلُغْ مَبْلَغَ العِلْمِ حتّىٰ صار لوالده ــ ولله الحمدُ ــ قُرَّةَ عين ــ رُفِعتْ قِصَّةٌ مخبرةٌ عن حاله فيها من مضمون السؤال طَلَبُ الإذْنِ الكريم بسَماعِ بَيِّنَـةِ المذكور، وكتابة إسجالٍ بعدَالَتِه،

فشَمِلها الخطُّ الكريمُ العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القاضَوِىُّ ، الإمامىُّ ، العالمىُّ ، العاملىُّ ، العَلّامىُّ ، الشَّيْخىُّ ، المحدِّثىُّ ، الحافظىُّ ، الحَبْرِىُّ ، المجتهدىُّ ، المحقِّقىُّ ، المدقِّقىُّ ، الوَحيدىُّ ، الفَريدىُّ ، الحُجِّىُّ ، الحُجَجِىُّ ، الخَطيبىُّ ، البَليغىُّ ، الحاكمىُّ ، الجَلالىُّ ، الكَنانىُّ ، البُلْقينىُّ ، الشافعىُّ ؛ شيخُ الإسلام ، الناظرُ فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية ، والممالك الشريفة الإسلامية : أدام الله تعالىٰ أيّامَه ، وأعزّ أحكامَه ؛ وأحْسَنَ إليه ، وأسبغ نِعَمَه فى الدّارَيْنِ عليه ـ لسَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ، الشَّيخِ الإمامِ العالمِ ، الحافظ ، ولىِّ الدِّينِ ، شرفِ العلماء ، أوْحَدِ الفُضَلاء ، مُفْتِى المسلمين ، أبِى زُرْعة أحمدَ ابنِ سَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ زَيْنِ الدِّين ، شيخِ الإسلام ، قاضِى المسلمينَ ، أبى الفضلِ عَبْدِ الرَّحِيم ، ابنِ سَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ بَدْرِ الدين ، شرفِ العُلَماء ، أوْحَدِ الفُضَلاء ، مُفْتِى المسلمين ، أبى عبد الله الحسين العِراقىّ الشافعىِّ ، خليفةِ الحُكْم العزيز بالقاهرة ومِصْر المحروستين ، والحاكم بالأعمال المُنُوفيَّة ، ومُفْتِى دار العَدْلِ الشريف بالديار المصرية : أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ، وأحسنَ إليه بالنظر فى ذلك على الوَجْهِ الشَّرعىِّ .

فحينئذ سَمِعَ سيدُنا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ الشيخُ الإمامُ ، العالمُ ، الحافظُ ، ولىُّ الدِّين ، الحاكمُ المشارُ إليه : أحسنَ الله تعالىٰ إليه ـ البَيِّنَةَ بتَزْكِيَتِه ، وصَرَّحَتْ له بالشَّهادة بعدالته ، وقَبِلَها القبولَ الشرعىَّ السائغَ فى مِثْلِه .

ثم أشهدَ علىٰ نَفْسِه الكريمةِ مَن حَضَر مجلس حُكْمِه وقَضائِه ، وهو نافذُ القضاء والحُكْمِ ماضيهما ، وذلك فى اليوم المبارك يومِ الأربعاء الثامنِ والعشرين من شَهْر رجب الفَرْد سنةَ ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة ـ أنَّه ثَبَتَ عنده وصَحَّ لديه : أحسن الله إليه ـ على الوَضْعِ المعتبر الشرعىّ ، والقانون المُحَرَّر المَرْعىّ ؛ بالبينة العادلة المَرْضيّة ، التى

تَثْبُت بمثلها الحقوقُ الشَّرْعيَّه ـ عَدَالَةُ القَاضِى الأجلّ، العَدْلِ ، الرِّضِىِّ ، نجْمِ الدين محمدٍ المسمىٰ أعلاه : زاده الله تعالىٰ تَوْفِيقا، وسَهَّلَ له إلى الخَيْرِ طريقا، وما آشتمل عليه من صِفَاتِها، وتحلَّىٰ به من أَدواتِها، ثُبُوتًا صَحِيحًا مُعْتبرًا، مستوفَى الشرائِطِ مُحَرَّرًا.

وأنه ـ أيَّد الله تعالىٰ أحكامه ، وسَدَّد نَقْضَه وإبرامَه ـ حَكَم بعَدَالته ، وقَبُولِ شهادته ، حُكْمًا تامًّا وجَزَمَه ، وقضىٰ فيه قَضَاءً أبْرَمه ، وأَذِنَ له ـ أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ـ فى تَحَمُّلِ الشهادة وأَدائِها، وبَسْطِ قلمه فى سائرِ أَنْديتِها وأَرْجائها، وأجراه ـ أَجْرَى الله تعالى الخيراتِ علىٰ يَدَيْه ـ مُجْرىٰ أمثالِه من العُدُول، ونَظَمه فى سِلْكِ الشُّهَداءِ أهْلِ القَبُول، ونَصَبه بين الناس شَاهِدًا عَدْلا، إذ كان صالحًا لذلك وأَهْلا.

فلْيَبْسُطْ بالشهادة قَلَمه، ولْيُؤَلِّف علىٰ شروط أَدائها كَلِمَه، ولْيَحْمَدِ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما مَنَحه من مَلابِسِها الجميله ، وأَنالَه من التَّرَقِّى لرتبتها الجَلِيله، ولْيَتَّقِ اللهَ تعالىٰ فى مَوَارِدِه ومَصَادِرِه، ولْيَسْلُكْ مَسَالِكَ التقوىٰ فى أوّلِ أمْرِه وآخِرِه، وليعلمْ أن مَن سَلَكَ الحَقَّ نَجا، ومن يَتَّقِ اللهَ يجعلْ لَهُ مَخْرَجا . أوْزَعَه الله تعالىٰ شكر هذه الرتبة العليه، والمَنْزِلةِ السَّنِيَّه .

وتقدّم أَمْرُ سيدنا العَبْدِ الفقيرِ إلى الله تعالى الشيخِ الإمام، العالِم، الحافظ، وَلِىّ الدين ، الحاكِمِ المذكور ، وَقَاه الله تعالىٰ كُلَّ مَحْذُور ، بكتابة هذا الإسجال ، فكُتِبَ عن إذنه الكريم، متضمِّنًا لذلك مسئولا فيه، مُسْتَوْفيا شرائِطَه الشرعية . وأشْهَدَ علىٰ نَفْسه الكريمة بذلك فى التاريخ المقدّم ذِكْرُه بأعاليه، المكتوب بخَطِّه الكريم ـ شرفه الله تعالىٰ ، حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكِيل .

قلتُ : والعادة أن يُعَلِّمَ فيه الحاكم عَلامةً تِلْوَ البسملة، ويَكْتُبَ التاريخَ فى الوَسَط، والحَسْبَلَةَ فى الآخِر، كل ذلك بخَطِّه ، ويُشْهِدَ عليه فيه من يَشْهد عليه من كُتَّاب الحُكْم وغيرهم، كما فى سائر الإسجالات الحُكْمِيَّة .

الصـــــنف الثـالث

(الكُتُب إلى النُّوّاب ومافى معنـاها)

واعلَمْ أنَّ الكُتُبَ التى تُكْتب عن القُضاة أَلْفَاظُها مُرْسلةٌ، لاجُنُوح فيها إلىٰ فَنِّ البلاغة والسَّجْع إلا فى القَليل النَّادِر .

وهذه نسخةُ كتابٍ كُتِب به عن قاضى القُضَاة فخر الدِّين الشافعى، إلى الحُكَّام بالمملكة، وهو :

أدام الله فضائل الجَنَابات العَالِيَــة والمجالس العالية، وجعلهم قَادَةً يُقْتدىٰ بهــم فى القَوْل والعَمَل، وو (١) الاحْتِفال من يعتنىٰ بأمْرِه ويُحْتفل، ولاسيَّما من سارتْ طريقةُ فَضْلِه المُثلىٰ فى الآفاق سَيْرَ المَثَل ؛ ولا زَالَ عَرْفُ مَعْروفهم علىٰ ذَوِى الفضائل يَفُوح، وجِيَاد جُودِهم تَغْدُو فى مَيْدان الإحسان وتَرُوح، ونِيلُ نَيْلِهم يَسْرِى إلى القُصَّاد فيُحْمَد سُرَاه عند الغَبُوق كما يُحْمَد سُرَاه عند الصَّبُوح .

هذه المكاتبةُ إليهم تُقرِيهم سلامًا أَلْطَفَ من النَّسِيم، وتُهْدِى إليهــم ثَنَاءً مِزَاجُ كاتبه من تَسْنِيم ؛ وتُبْــدِى لعلومهم الكريمة أن الجناب الكَرِيمَ، العالِيَ، الشَّيخىَّ، الإمامىَّ، الفاضلىَّ، البارِعىَّ، الأوْحَدىَّ، الأكْملىَّ، البليغىَّ، المقدَّمىَّ، الخَطِيبىَّ، البَهائِىَّ، أوحدَ الفضلاء، فَخْرَ العلماء، زَيْنَ الخُطَباء، قِبْلةَ الأدَباء، قُدْوة البُلَغاء، صَفْوَةَ الملوك والسلاطين، خَطِيبَ المَوْصِل - أدام الله المَسَرَّةَ به، ووَصَــل الخَيْر بسَبَبِه ؛ ونفعَ بفوائد فَضْله وأدَبِه - ورَدَ علينا بطَرَابُلُس المحروسة، فحصَلَت المَسَرَّةُ بذلك الوُرُود، وتجدَّد بخِدْمته ماتقدم من وَثِيق العُهُود ؛ وأبْدىٰ لنا من نَظَرِه الفائِق الرَّقِيق، وإنْشائِه المُغْنِى عن نَشْــوَة الرَّحِيق، وكِتَابَتِــه التى هى السِّحْر الحَلَالُ على

(١) بياض بالأصول .

التَّحْقيق ، ما نَزَّه الأبْصار وشَنَّف الأسماع ، وقطَع من فُرْسانِ الأدَب أسْبابَ الأَطْماع ، فأزالَ عن القلْبِ الكئيبِ فِكْرا ، وأخْجَلَ من الرَّوْض الأَنيقِ زَهْرا ، وأخمل من المِسْكِ السَّحيق عِطْرا ، وكَيْفَ لا ؟ وهو النَّفيسُ الذى جُمِعَ فيه قديمُ الأدَبِ وحَديثُه ، والجَليسُ الذى لا يُسْأَم كَلامُه ولا يُمَلُّ حَديثُه ، يالَه أَ بِيًّا ليس فيما يُبْديه من الأدَبِ تَحْريفٌ ولا غَلَط ، وفاضِلًا لو لم يكنْ بَحْرًا لما كان الدُّرُّ من فِيهِ يُلْتَقَط ، يَمينُه وفِطْنَتُه الكريمتان ذَواتا أفْنان ، فهٰذه إن رَقَمَتْ طِرْسًا فرُوحٌ وريحان ، أو بَذَلَتْ بِرًّا فعينان تَجْرِيان ، وهٰذه إن نَظَمتْ شِعْرًا فياقُوتٌ ومَرْجان ، أو نَثَرتْ تِبْرًا فثَمينُ الدُّرِّ ألْوان ، مابَرِح الفضلاءُ إلىٰ لِقائه يُسارِعُون ، وحَقَّ لهم أن يُسارِعُوا ومن أبواب مَعْروفِه يَقْتَبِسُون ، وكَيْفَ لا ؟ وهو الشِّهاب السَّاطِع ، والجَليلُ الذى لم تَزَلْ تُشير إليه بالأصابِع ، والنَّبيلُ الذى تَجْرى لفِراقه من عُيُونِ اللَّبيبِ المَدامِع ، والنَّزيل الذى يُنْشِدُه العارِفُ عند وَداعه :

* بِعَيْشِكَ خَبِّرْنِى مَتَىٰ أنْتَ راجِع *

يَعْرِفُ المُحْسِنُ إحْسانَه فينشُرله من الثَّناء لِواء ، ويُجْمِلُ فى مَدْحِ صِفاته ونُعوتِه الإنْشاءَ إن شَاء ، ويُجْزِلُ فى ذَمِّ مستحِقِّ الذَّمِّ منه الهِجَاء ، فأَكْرِمْ به مَدَّاحًا وأعْظِمْ به هَجَّاء ، العُلَماء لحُضوره يترقَّبُون ، وإليه يتَقرَّبون ، والفُضَلاء بفَضْله يَعْترِفُون ، ومن بَحْرِه يغْترِفُون ، والأُدَباء إليه يَسْتَبِقُون ، ومنه يَقْتَبِسُون ، والطَّلَبةُ بأَذْيالِ فَضْله يَتَمَسَّكُون ، وبنَشْرِ أثْنِيَتِه يتَمسَّكُون ، وإخْوانُه فى اللّٰهِ بوجُودِه يَفْتَخِرون ، وإلىٰ جُودِه يفْتَقِرُون ، كُلَّما عَرَضَتْ لهم حَاجَةٌ تَمَسَّكُوا بإيثاره ، وكُلَّما عانَدَهم الدَّهرِ سَأَلوه الإمْداد بأنْصاره ، فيُجَوِّدُ فى خِدْمتهم بيانَ بَنانه ، ويُجَرِّدُ فى نُصْرتهم سَيْفَ لِسانه .

ثم من قبل أن نَبْلُغَ منه الوَطَر، ومن دُونِ أن يكْتفِيَ منه السَّمْع والبَصَر، عَرَفْنا أنه قَصَد التَّوجُّه إلى البلاد الساحِليَّه، والأعمال الطَّرابُلُسِيَّه، ليُمْلِيَ على أهْلِها من فضائله البَاهِرَة الباسِقَه، وألفاظه التي هي كالدُّرَرِ المُتناسِقَه، ويُجْلِيهم عَرَائِس الأفكار من أفكاره، ويُجْنِيهم غَرَائِسَ الأثْمَارِ من أشجارِ عِلْمِه، ويُرِيهم البَدِيهةَ البديعه، والقَوافِيَ المُجِيبةَ المُطِيعه.

فلْيَتقَدَّمْ الجماعةُ ـ أيدهم الله تعالى ـ بإكرامه إكْرامَ الأهْلِ والأصحاب، وتَلَقِّيه بالبِشْرِ والطَّلاقَةِ والتَّرْحاب، وإحْلالِه من الإحسان مَحَلًّا ساميا، وإنْزالِه من الإفضال مَنْزِلًا عَالِيا، والاعْتِناءِ الوَافِرِ بأمْرِه، واسْتِجلابِ بَثِّ حَمْدِه وشُكْرِه، والْتِقاطِ دُرَرِ فَوائدِه، واكْتِسابِ غُرَرِ فرائده، والإصْغاءِ إلى المَنْثُورِ والمَنْظُومِ من أقواله، والتَّعَجُّبِ من حُسْنِ بَدَاهَتِه وسُرْعة ارْتِجاله.

ولْيُحْتَفَلْ كلَّ يومٍ بخِدْمتِه غاية الاحْتِفال، ويُعْتَنَ بأمْرِه اعتناءً لا يُشارِكُه تقْصيرٌ ولا إهمال، ويُرْعَ له حقُّ الضَّيْفِ الجليل، والقَادِمِ الذي إذا رَحَلَ عن بَلَدِه أبقَى له بها الذِّكْرَ الجميل، ويُسَاعَدُ على ما توَجَّه بصَدَدِه كلَّ ساعةٍ يَعُودُ نفعها عليه، ويُنْفِق مما آتاه الله ويُحْسِن كما أحْسَنَ اللهُ إليه.

ونحن نُؤكِّد على الجماعة ـ أيَّدهم الله ـ في ذلك كلَّ التأكيد، ونُبَالِغُ فيه مُبالَغةً ماعليها من مَزِيد، ونُحَذِّرُهُم من الإهمال والتَّسْوِيف والتَّقْصير، ومن مُقابلَةِ جِنَايةِ الكريم بالنَّزْرِ الحقير والقَدْرِ اليَسِير، فإكْرامُ هذا الرجل ليس كإكْرامِ مَن لم يَسِرْ بسَيْرِه، وما هو إلا لعِلْمِه وفَضْلِه وخيرِه، وقد قال الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه: «ولَيْسَ من يُكْرَمُ لنَفْسه كالذي يُكْرَمُ لغَيْرِه».

فَلْتُعَظِّمُوه كلَّ التعظيم وتُنْزِلُوه منزلةً تَلِيق بأهْلِ الفَضْلِ والإفضال، وتَرْفَعُوا له المقَامَ وتَحْفَظُوا له المَقَال، ليَعُودَ مُحقَّقَ الآمال مُبلَّغَ المَقاصِد، ناشرًا ألْوِيَةَ الثَّناءِ

والمَحامِد ، مَشْمولًا بجميـل الصِّلَة والعَائِد ؛ ونَحْنُ منتظرون ما يَرِدُ عنه من مكاتباته الكريمة بمـا وصل إليه من ... ...[1] الحَسَنه .

وفى هِمَمِهم العَلِيَّه ، ومَكارِمِهم السَّنِيَّه ، ما يُغْنِي عن التأكيد بسَبَبِه والوَصِـيَّه ؛ والله تعالىٰ يُديمُ عليهم سَابِـغَ الإفضال والإنعام ، ويُجَمِّل بوجودهم وجُودِهم الأَحْكَامَ والحُكَّام ؛ بمَنِّه وكَرَمه .

الصـــــنف الرابع
(ما يُكْتَب فى ٱفتتاحات الكُتُب)

فمن ذلك ما يُكْتب فى أوائل كُتُبِ الأوقاف .

وهذه نسخة خُطْبة فى ٱبتداء كِتَابِ وَقْفٍ علىٰ مَسْجِد ، وهى :

الحمدُلله جَامِعِ الناسِ ليَوْمٍ لارَيْبَ فِيه إنه لايُخْلِفُ الميعاد ، ونَاصِرِ الدِّين المُحَمَّدِىِّ بنَبِيِّنَا صلَّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله الكِرَامِ الأَمْجاد ، ومُشَرِّف هذه الأمَّة بالأَئِمَّةِ والجُمَعَة والجمـاعات من أَهْلِ الرَّشاد ، وجاعِلِ من ٱرْتضاه من أَرْبابِ سُـنَّةِ نَبِيِّه المختار من عباده العُبَّاد ، ومُيَسِّرِ القُرُباتِ إليه لأهْـلِ السَّـدَاد ، ومُرِيد الأعمـال الصالحات مِمَّن أخلصـه بالطاعات ومَزِيدِ الإرْفاد ، ومُفَضِّـل الأوقاف علىٰ أَفْضَلِ وُجُوهِ البِرِّ من جعـله للخَيْر أهْلًا بالنَّفْعِ المتعـدّى وكَثْرة الأَمْداد ، ومُعَظِّم الأَجْرِ لمن بَنَىٰ بيتًا للهِ بِنيَّةٍ خَلِيَّةٍ من الرِّياء والعِناد ، وقد قال رسولُ الله صـلَّى الله عليه وسـلم : "مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا للهِ ولَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللهُ تعالىٰ له به قَصْرًا فى الجَنَّة" ونَرْجُو من كَرَمِ الله الٱزْدِياد .

---

(١) بياض بالأصل ولعله : من المنازل الحسنة الخ أو ما أشبهه .

أحمدُه علىٰ مَوَادِّ نِعَمِه التى جَلَّتْ عن التَّعداد ، وأشكُره شُكْرًا وافيًا وافرًا نجعلُه ذَخيرةً ليومِ التَّنادِ ، وأَسْتَمِدُّ من اللُّطْفِ لَوَازِمَ الفَضْل الخَفِيِّ وهو الكَرِيم الجَوَاد ، وأشهدُ أن لاإلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الخاتِمُ الحائِمُ علىٰ حَوْضِه الوُرَّاد ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه ما أُصْغِيَ إلى الذِّكْر وأُجِيبَ كلُّ دَاعٍ من حاضِرٍ أو بَادٍ .

وبعدُ ، فلمَّا كانتِ المَثُوباتُ مَضمونَةَ الأَجْرِ عند الكريم ، والأعمالُ متعَدِّدةً فى التَّقْديم ، وكان بُنْيانُ المَسَاجد وافِرًا أجْرا ، لمن أقام بواجِبِ تِبْيانِ الظَّنِّ الجميل وسَدَّد إلى الخيرات سَيْرا ، وقد قال تعالىٰ : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِى بِى.فَلْيَظُنَّ بِى خَيْرا » . ورَأى العُقَلاءُ أنَّ الأَوْقاف على المَسَاجد والجَوَامِع من أنْفَسِ قَواعِدِ الدِّين وأعلىٰ ــ فلذلك قيل فى هذا الإسْجالِ المُبارَك :

هذا ما وَقَفَه وحَبَّسَه ، وسَبَّله وأبَّدَه فلان.وقَف وحَبَّس رَغْبَةً فى مزيد الثَّواب ، ورَجَاءً فى تَهَوُّن تَهْويل يَوْمِ الحِساب ، واْغْتِنامًا للأَجْرِ الجَزِيل من الكريم الوَهَّاب ؛ لقول الله تعالىٰ فى الآيات المَبْرورة : ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَه﴾ . وقَفَ بنِيَّةٍ خَالِصَه ، وعَزِيمَةٍ صالِحَه ، ونِيَّة صادِقَه ، ما هو له وفى مِلْكه ، وحَوْزِه ويَدِه وتَصَرُّفِه ، من غير مُنَاظِرٍ له فى ذلك ولا شَرِيك ، (ثم يَذْكُر الوَقْفَ) .

الفصــــل السادس
فى العُمراتِ التى تكتَبُ للحـاجّ

وهذه نسخةُ عُمْرةٍ ٱعتمرها أبو بكر بن محمد الأنصارىّ الخَزْرَجىُّ ، عند مُجاوَرته بمكّةَ المشرفةِ فى سنة سبعٍ ، وسنة ثمـانٍ ، وسنة تسعٍ ، وسنة عشر وسبعمائة ، للسلطان المَلِك الناصر «محمد بن قلاوون» ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جَعَل البَيْتَ مَثَابَةً للناسِ وأَمْنا ، وأَمَّنَ مَن فيه بالقائم بأَمْرِ الله ومَنْ هو للإسلامِ والمُسْلمين خَيْرُ نَاصِر ، وجَعَله ببَكَّةَ مُباركًا ، ووَضَع الإِصْرَ بمَن كَثُرتْ منه ومن سَلَفه الكَرِيم على الطَّائِفِين والعَاكفين الأَواصر ، وعَقَـدَ لِـوَاءَ المُلْك بخير مَلِكٍ وهو واحدٌ فى الجُودِ أَلْفٌ فى الوَغَىٰ : ففى حَالَتَيه تُعْقَد عليه الخَنَاصر ، وأَطَاب المُقَام فى حَرَمِ الله تعالىٰ وحَرَمِ سَـيِّدنا رَسُولِ الله صـلَّى الله عليه وسلم بمَن يَسْتَحِقُّ السَّلْطنة بذَاتِه الشريفة وشَرَف العَنَاصر ، وسهل الطَّريقَ ، إلىٰ حَجِّ بَيْتِه العَتِيق ، من المَشَارِق والمَغَارِب فى دَوْلَةِ مَن أَجْمعتِ القُـلوبُ علىٰ مَحَبَّته ووَرِثَ المُلْكَ كَابِرًا عن كَابِر ، وأَنطقَ الأَلْسِنَةَ بالدعاء له من كلِّ وَافِدٍ إلىٰ بَيْتِه الحَرَام على ٱخْتِلاف لُغَاتِهم وٱهْتَزَّتْ لوَصْفِ مَنَاقبِه المَنَابِر .

أَحمدُه علىٰ ما بَلَّغ من جَزِيل إنْعامِه ، وأَشْكُره شُكْرًا أَسْتَزِيدُ به من فَضْـلِه ونَوالِه وإِكْرامه ، وأَشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له نعم الذَّخيرةُ لصاحِبِها يوم لِقَائه وعند قِيَامه ، وأَقُولهـا خَالِصًا مُخْلِصًا ويَافَوْزَ من كانت آخِرَ كَلَامِه ، وأشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ مَبْعوثٍ إلى الحَقِّ دُعِىَ فجاء بأَشْرَفِ مِلَّه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « عُمْرَةٌ فى رَمَضان تَعْدِلُ حَجَّه » صلى الله عليه وعلىٰ جميعِ آله وأصحابه

خُصُوصا علىٰ خَلِيفَتِه فى أُمَّتِـه المَخْصوصِ بالسَّـبْق والمُؤَازَرَةِ والتَّصْـدِيق ، مولانا أبى بَكْر الصِّدّيق ؛ وعلىٰ مُظْهِرِ الأَذَانِ ومُصَـدِّقِ الخطَاب ، مولانا أمير المؤمنين عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ؛ وعلىٰ من جَمَـع على الأُمَّةِ آياتِ القُرآن ، مَوْلانا أميرِ المؤمنـين عُثْمانَ بنِ عَفَّان ؛ وعلى ٱبْنِ عَمِّـه ، وَارِثِ عِلْمِه ، الجـامع لجميع المآثِرِ والمَنَاقِب ، مَوْلانا أميرِ المؤمنين عَلِيِّ بنِ أبِى طَالِب ؛ وعلىٰ بَقِيَّةِ الأنصار والمُهَاجِره ، سادَاتِ الدُّنيا ومُلُوكِ الآخِرَه ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

و بعدُ ، فإن الله تعالىٰ مَالِكُ المُلْكِ يُؤْتِيه مَن يَشَاءُ من عباده ، والخَيْرُ بيَدِه يُفِيضُه علىٰ خَلْقِـه فى أَرْضِـه و بِلَادِه ؛ فإذا أراد اللهُ تعالىٰ بعباده خَيْراً نَصَر نَاصِرَهم و رَفَع عنهم الغَلَا ، ودَفَع عنهم العِدَا ، و وَلَّى عليهم خِيَارَهم ؛ فيُقِيمُه من خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس ، لِيُـذْهِبَ عنهم الضَّرَرَ ويُزِيلَ عنهـم البَاس ؛ و يَأْمُرَ بالمعروف ويَنْهىٰ عن المُنْكَر ، ويُنْصِفَ المَظْلومَ من الظَّالم ويقيمَ مَنَار الشَّرْعِ المُطَهَّر .

ولمـا كان مولانا السلطانُ الأعْظَم ، والشَّاهِنْشاه المُعَظَّم ، المَلِكُ النَّاصِرُ ــ خَلَّد الله سلطانه ــ قد جمع فى المَحْتِدِ بين طَارِفٍ وتَالِد ، ووَرِثَ المُلْكَ عن أَشْرفِ أَخٍ وأَعْظَم وَالِد ؛ وقامتْ على ٱسْتِحقاقه للسَّـلْطنة الدلائل ، وأَلِفَه سَرِيرُ المُلْك وعَرَفَ فيه من وَالِدِه ومن أَخِيه ــ رحمهما الله تعالىٰ ــ الشَّمائِل ؛ فهُو المَـالِكُ الذى لم يَزَلِ المُلْكُ به آهِلًا ولم يَزَلْ له أَهْلا ، والسَّيِّد الذى لَبِسَ حُلَّةَ الفَخَار فلم نَجِدْ له فى السُّؤْدُدِ والفَخَار مِثْـلا ، والمَلِكُ الذى ما بَدَا لِرَائِيه إلا قيـل : بَحْرٌ طَمَىٰ أو بَدْرٌ تَجَلَّىٰ ؛ والمُؤَيَّدُ الذى خَصَّه الله تعالىٰ بعُلُوِّ شَأْنه وٱرْتِقائه ، ولم يَرْضَ مَرَاقِدَ الفَرَاقِد لعَلْيائِه ؛ والكَرِيمُ الذى سادَ الأَوَائِلَ والأَوَاخِر ، وأَضْفِيَتْ عليه حُلَلُ المَفَـاخِر ؛ والمَنْصُورُ الذى أُعْطى على الأَعْدَاءِ قُوَّةً ونَصْرا ، والنَّاصِرُ الذى ٱتَّسَع مَجَالُ نَصْرِه فأخذ الكُفَّار حَصْرا ، وحكمت سُيُوفُه القَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عن الأولياء إِصْرا ؛ قد خَصَّه الله تعالىٰ بالعِزِّ والنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كَرّه، وفَضَّلَه علىٰ سَائرِ مُلُوك الإسلام بالحَجّ وزِيارَةِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم مَرَّةً بعد مَرَّه ، ومَرَّة أخرىٰ إن شاء الله تعالىٰ ومَرَّةً ومَرَّه ! ! ! كم سَلَكَ سَنَنَ وَالِده وأَخِيه ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ بالغَزَاة فكان له كُلُّ مَشْهَدٍ مَذْكور، وعُرِفَ تَقَدُّمه و إقْدَامُه فكان أعْظَم ناصِرٍ وأشْرَف مَنْصور، يَحْمَدُه الله تعالىٰ والناسُ عن جميل ذَبِّه عن الإسلام وحَمِيدِ فعله ، وٱسْتَقَلَّ الجَزِيل فيُنِيلُ الجَمِيلَ لمن أَمَّ أبْوَابَه الشريفةَ فلا يُسْتَكْثَر هذا من مِثْلِه ؛ ما حَمَلَتْ رَايَاته الشَّريفة كَتِيبَةً إلا نُصِرَتْ ، ولا وَقَفَ بوجهه الكريم فى دَفْع طائفةِ الكُفْر إلا كُسِرَتْ ؛ ولا جَهَّزَ عساكِرَه المنصورةَ إلىٰ قَلْعةٍ إلا نَزَل أَهْلُها من صَيَاصِيهم ، ولا حَاصَرُوا ثَغْرًا للكُفَّار إلا أَخَذُوا بنَواصِيهم ؛ ولا سَيَّرَ سَرِيَّةً لمُواجَهَةِ مُحارِبٍ إلا ذَلَّ علىٰ رَغْمه ، ولا نَطَق لِسانُ الحَمْد لمُجَاهِد أو سَارَ الشاهد إلّا وَقَفَ الحَمْدُ علىٰ قَوْله وٱسمِه ؛ فاختاره الله تعالىٰ علىٰ عِلْمٍ على العالَمِين ، وٱجْتَباه للذَّبِّ عن الإسلام والمسلمين ، وجعله لسُلْطانه وَارِثا ، وفى الملك مَالِكًا ، وللقَمَرَيْنِ ثالثا ، ولأموره سِدَادا ، ولثُغُور بلاد الإسلام سَدَّادا ، وفَوَّضَ إليه القيامَ بمَصَالح الإسلام ، والنَّظَرَ فى مَصَالح الخاصّ والعَامّ ؛ وعَدَق به أُمُورَ الممالك والأملاك ، وأَطْلَع بسعادته أيْمَنَ البُرُوج فى أثْبَت الأفلاك ؛ وحَمَى الإسلام والمسلمين من كُلِّ جانِبٍ شَرْقًا وغَرْبا ، وملأ بمَهَابَتِه البِلادَ والعبادَ رُعْبًا وحُبّا ؛ وبَسَط فى البسيطة حُكْمَه وعَدْلَه ، ونَشَر على الخلائق حِلْمَه وفَضْلَه ؛ وفَرَض طاعتَه علىٰ جميع الأُمم ، وجَعَله سَيِّدا لملوك العُرْب والعَجَم ؛ وأَمَّن بمَهَابَتِه كُلَّ حَاضِرٍ وبَاد ، ونَوَّم سُكَّانَ الحَرَمين الشريفين من كَنَفه فى أَوْطإ مِهاد ؛ وسَكَّنَ خَوَاطِرَ المجاورين من جميع المَخَاوِف ، وصَانَ بالمُقَام فى مَكَّةَ الطَّائِفَ والعَاكِف ؛ قد حَسُنَ مع الله تعالىٰ سِيرَةً وسَيْرا ، ودَلَّتْ أيامُه الشريفةُ أنه خَيْرُ مَلِكٍ أراد الله تعالىٰ برَعِيَّته خَيْرا ؛ ورَاعَى الله فيما رَعَىٰ ، وسَعَىٰ فى مصالح الإسلام عالمًا أنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلّا مَاسَعَىٰ .

قد مَلأَ أَعْين الرعايا بالطُّمَأْنِينَةِ والهُجُوع، وأَمَّنَهم فى أيَّامه الشريفة بالرَّخاء من الخَوْف والجُوع؛ وجَمَع لهم بين سَعادة الدُّنيا والأُخْرىٰ، وسَهَّل لهم الدُّخُولَ إلىٰ بَيْتِه الحَرَامِ بَرًّا وبَحْرا؛ وفَتَح الله تعالىٰ علىٰ يديه ـ خَلَّد الله تعالىٰ سلطانه ـ جَمِيعَ الأَمْصار، ومَلأَ من مَهابَتِه جَمِيعَ الأَقطار :

فسارتْ مَسِيرَ الشَّمْسِ فى كُلِّ بَلْدَةٍ * وهَبَّتْ هُبُوب الرِّيح فى القُرْب والبُعْد!

فوجب على العالَمِين أن يَدْعُوا لدَوْلَتِه الشريفةِ المباركة بطُولِ البَقاء، و[دَوَامِ] العُلُوِّ والآرتقاء؛ ووَجَبَ علىٰ كُلِّ من الواصلين إلىٰ بَيْتِه الحرامِ وحَضْرة قُدْسه، أن يَبْتَهِلَ بالدعاء له قبل أن يَدْعُوَ لنَفْسه؛ فكيف من هو مَمْلُوكُه وآبْنُ مملوكه ووَارِثُ عُبُودِيَّته، ومن لم يَزَلْ هو ووالِدُه وإخْوَتُه فى صَدَقاتِ والِدِه الشهيد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وعَمِيم نِعْمَتِه؛ العَبْدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ أبو بَكْر بن محمد بنِ المُكَرَّم الأنصاريّ الخَزْرَجيّ، فإنه لم يَزَلْ مدّة أيَّامه مُبْتَهِلًا بصالح دعواته، مُتَوسِّلًا إلى الله تعالىٰ بدوامِ نَصْره وطُول حَيَاتِه؛ طَائِفًا عند مَقَامِه الشريف حول بَيْتِه الحَرَام، والمَشَاعِرِ العِظَام .

وأَحَبَّ أن يُتْحِفه بأشرف العبادة فلم يَجِدْ أجَلَّ مِقْداراً ولا أعظم أَجْرا، من عُمْرةٍ يَعْتَمِرُها عنه ويُهْدِى ثَوَابَها لصحائِفِه الشريفةِ ويَزِيد بذلك فَخْرا؛ فقام عنه بعُمْرتين شريفتين آعتمرهما عنه فى رَمَضان، مكملتين بإحْرامِهِما وتَلْبِيَتِهِما، وطَوَافِهِما وسَعْيِهِما؛ يَتَقَرَّبُ بذلك إلىٰ أبوابه الشريفة، ويَسْأَلُ الله تعالىٰ ويسأل صَدَقاته الشريفة أن ينعم عليه بِنِصْفِ مَعْلوم صَدَقَةً عليه، وبِنِصْفه لأولاده : ليَقْضِىَ بَقِيَّةَ عُمْره فى الثلاثة المساجد، ويَخُصّه بجَزِيل الدعاء من كُلِّ راكِع وسَاجِد؛ وأن يكون ذلك مستمرًّا عليه مُدَّة حياته، وعلىٰ ذُرِّيَّته ونَسْلِه وعَقِبِه بعد وَفَاته؛ لتشمل صدقاتُ مولانا السلطان ـ خَلَّد الله تعالىٰ ملكه ـ الأَحْياءَ والأموات، ويَطِيب لغلمانه

فى أيامه الشريفة الممات ؛ جعل الله تعالى مولانا السلطان وارث الأعمار ، وأجرى بدوام أيامه الشريفة المقدار ، وجعل كلمة الملك باقية فى عقبه ، وبلّغه من النصر والظفر والأجر غاية أربه ؛ وجعل أيامه كلها مسارّ وبشائر ، ودولته تسر النواظر ، وسعادته ليس لها آخر ، ويهنئه بما قد أتمه الله له من ملك والده الشهيد رحمه الله تعالى :

[أهنيك] بالملك ياخير من * أجار البرايا ومن مارها ،
ومن ليس للأرض ملك سواه * تميل له الخلق أبصارها !
وأنت الذى تملك الخافقين * (١) وإعصارها ،
وتملك سيب تكفورها * وتركب بالجيش أوعارها ،
وتحكم فى المرء حكم الملوك * وتنشد فى التخت أشعارها ،
وتفتح بغداد دار السلام * وتنفى بملكك أكدارها ،
وتأخذ بالعسكر الناصرى * قصور الخلافة أوتارها ،
ويأمن فى ذلك العالمون * وتحمى الأسود وأوكارها ،
وتبقى إلى أن تعم البلاد * بنعمى تتابع إدرارها ،
ويبلغ ملكك أقصى البلاد * وتجرى العباد وأوطارها ،
وينظم سيرتك الناظمون * وتعيى مغازيك سمارها ،

[والله يبقيه (١)] بعدها دائما ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده ناصر الدنيا والدين ؛ إنه على مايشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من المقام .

البـاب الثـانى

من المقـالة العـاشرة فى الهَزْلِيَّـات[1]

آعلم أنه رُبَّما آعْتنَتِ الملوكُ ببَعْضه، فاقْتَرَحتْ علىٰ كُتَّابها إنشاءَ شَيْءٍ من الأمور الهَزْلِيَّة، فيحتاجون إلى الإتيان بها علىٰ وَفْق غَرَض ذلك المَلِك . كما وقع لمُعِين الدَّولة آبن بُوَيْه الدَّيْلَمِيِّ فى آقتراحه علىٰ أبى إسحٰق الصَّابِى كتابةَ عَهْدٍ بالتَّطَفُّل، لرجُلٍ كان عنده آسْمُه عليكا، يُنْسَب إلى التَّطَفُّل، ويَسْخَر منه السلطانُ بسَبَب ذلك .

وهذه نسخةُ عَهْدٍ بالتَّطَفُّل، التى أنشأها أبو إسحٰق الصَّابِى لعليكا المَذْكُور :

هٰــذا ما عَهِدَ علىُّ بنُ أحمدَ المَعْرُوفُ بعليكا إلىٰ علىِّ بن عُرْس المَوْصِلِىِّ، حين آسْتَخْلفه علىٰ إحياء سُنَنه، وآسْتَنابه فى حِفْظ رُسُومه ؛ من التَّطَفُّل علىٰ أهل مَدِينَة السَّــلَام وما يتَّصِلُ بها من أرْباضها وأكْنافها، ويجْرِى معها فى سَوَادِها وأطْرافِها ؛ لِمَـا تَوَسَّمه فيــه من قِلَّة الحَيَــاء، وشِدَّة اللِّقاء، وكَثْرة اللَّقْم، وجَوْدَة الهَضْم ؛ ورآه أهْلًا له من سَدِّ مكانه، والرَّفاهَة المُهْمَلَة التى فَطِنَ لها، والرَّقاعة المُطَّرَحَة التى آهْتدىٰ إليهــا ؛ والنِّعَم العائدة علىٰ لابسِها بمَلَاذِّ الطُّعوم، وخِصْبِ الجُسُوم ؛ وردًّا علىٰ من آتَّسعتْ حاله، وأقْدَره اللهُ علىٰ غَرَائِب المأكولات، وأظْفَره ببدائع الطَّيِّبات ؛ آخذًا من ذلك كُلِّه بنَصِيبِ الشَّريك المُنَاصِف، وضَارِبًا فيــه بسَهْم الخَلِيط المُفَاوِض ؛ ومُسْتعْملًا للمَدْخَل اللَّطِيف عليه، والمُتَوَلَّج العَجِيب إليه ؛ والأسْباب التى سَتُشْرَح فى مَوَاضِعها من أوَامِرِ هذا الكتاب، وتُسْتَوفَى الدَّلالةُ علىٰ مافيها من رَشَادٍ وصَوَاب ؛ وبالله التَّوْفِيق وعليه التَّعْوِيل، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكِيل .

---

(١) ذكر المؤلف فى بيان محتويات الكتاب فى الجزء الأوّل (ص ٣٢) أن الباب الثانى فى الهزليات يشتمل على فصلين : الفصل الأوّل فيما آعتنت الملوك ببعضه . الفصل الثانى فى سائر أنواع الهزل، ولكنه لم يذكر هنا الفصل الثانى، فليتنبه .

أمَره بتَقْوى الله التى هى الجانبُ العَزِيز، والحِرْزُ الحَرِيز، والرُّكْن المَنيع، والطَّوْد الرَّفِيع؛ والعِصْمَة الكَالِئَه، والجُنَّة الوَاقِيَه؛ والزَّادُ النَّافِعُ يوم المَعَاد، وحيثُ الأمثلة من الأَزْواد، وأن يسْتَشْعِر خِيفَتَه فى سِرِّه وجَهْرِه، ويُرَاقِبَه فى قَوْلِه وفِعْلِه؛ ويَجْعل رِضَاه مَطْلَبَه، وثوابَه مَكْسَبَه، والقُرْبَةَ منه أَرَبَه، والزُّلْفىٰ لديه غَرَضَه؛ ولا يُخَالِفَه فى مَسْعاةٍ قَدَم، ولا يتَعرّضَ عنده لعاقبَة نَدَم؛ ولا يُقْدِمَ علىٰ ما كَرِه وأَنْكر، ولا يَتَقاعَسَ عما أَحَبَّ وأَمَر.

وأمَرَه أن يتأَدَّبَ بأدَبِه فيما يأْتِى ويَذَر، ويَقِفَ علىٰ حُدُودِه فيما أَباحَ وحَظَر؛ فإنه إذا كان ذلك هِجِّيراه ودَيْدَنَه، وجرىٰ عليه مِنْهاجُه وسَنَنُه؛ تكفَّلَ اللهُ له بالنَّجاح والصَّلاح، وأَفضىٰ به إلى الرَّشاد والفَلاح؛ وأظْفَره بكُلِّ بُغْيَه، وأَوْصله إلىٰ كُلِّ مَشِيَّه؛ ولم يُخْلِه من الفَوْز بما يُرْصِد، والحَوْز بما يَقْصِد؛ بذاك وَعَد، وكذاك يَفْعَل، وما تَوْفيقُنا إلا بالله، ولا مَرْجِعُنا إلا إليه.

وأَمَرَه أن يتأَمَّل ٱسْمَ التَّطْفِيل ومَعْناه، ويَعْرِفَ مَغْزاه ومَنْحاه؛ ويتَصَفَّحَه تَصَفُّحَ الباحِثِ عن حَظِّه بمَحْمُودِه، غيرِ القائلِ فيه بتَسْلِيمِه وتَقْلِيدِه؛ فإنَّ كثيراً من الناس قد ٱسْتَقْبحه ممن فَعَله، وكَرِهَه لمن ٱستعمله؛ ونَسَبه فيه إلى الشَّرَه والنَّهَم، وحَمَلَه منه على التَّفَه والقَرَم؛ فمنهم من غَلِط فى ٱستدلاله، فأسَاء فى مَقَاله؛ ومنهم من شَحَّ علىٰ ماله، فدافع عنه بٱحْتِيالِه؛ وكُلُّ الفريقين مَذْمُوم، وجَمِيعُهما مَلُوم؛ لا يتعلقان بعُذْرٍ واضح، ولا يَعْتَرِيان من لباسٍ فاضح؛ ومنهم الطائفةُ التى ترىٰ فيها شَرِكَةَ العِنَان: فهى تَتَدَلَّه إذا كان لها، وتَتَدَلَّىٰ عليه إذا كان لغيرها؛ وترىٰ أن المِنَّة فى المَطْعَم للهَاجِم الآكل، وفى المَشْرَب للوَارِدِ الوَاغل، وهى أحَقُّ بالحُرِّيَّه، وأَخْلَق بالخَيْرِيَّه؛ وأحرىٰ بالمُرُوَّه، وأولىٰ بالفُتُوَّه؛ وقد عرفت بالتَّطْفِيل، ولا عَارَ فيه عند ذَوِى التَّحْصِيل،

لأنه مُشْتَقٌّ من الطَّفَلِ وهو وَقت المَسَاء، وأَوَانُ العَشَاء، فلما كَثُرَ ٱسْتُعْمِلَ فى صَدْر النَّهار وعَجُزِه، وأوَّلِه وآخِرِه، كما قيل للشَّمْس والقَمَر: قَمَرانِ وأَحَدُهما القَمَر، ولأبى بَكْر وعُمَر: العُمَرانِ وأَحَدُهما عُمَر، وقد سَبَق إِمَامُنا بيَانَ رحْمَةُ الله عليه إلىٰ هـذا الأمر سَبْقًا أوجَبَ له خُلُود الذِّكر، فهو بَاقٍ بَقَـاءَ الدَّهْر، ومُتَجدِّدٌ فى كُلِّ عَصْر، وما نعرف أحدًا نَالَ من الدُّنيا حَظًّا من حُظُوظها فبَقِيَ له منه أَثَرٌ يخلفـه، وصِيتٌ يَسْتَبِدّ به إلا هو وَحْدَه، فبيَانٌ رِضْوانُ الله عليـه يُذْكر بتَطْفيـلِه كما تُذْكَر الملوك بسِـيَرِها، فمَن بَلَغ إلىٰ نِهايَتِه، أو جَرَىٰ إلىٰ غايَتِـه، سَعِدَ بغَضَارَةِ عَيْشِـه فى يَوْمه، ونَبَاهَةِ ذِكْرِه فى غَدِه، جعلنا اللهُ جميعًا من السابقين إلىٰ مَدَاه، والمَذْكُورين كذِكْرَاه.

وأَمَرَه أن يَعْتَمِدَ مَوائِدَ الكُبَراء والعُظَماء بغَزَايَاه، وسُمُطَ الأُمَراء والوُزَراء بسَرَايَاه، فإنه يَظْفَر منهـا بالغَنِيمَة البارِدَه، ويَصِلُ عليها إلى الغَرِيبَة النَّادِرَه، وإذا ٱسْتَقْراها وَجَد فيها من طَرَائِف الألوان، المُلِذَّة للسان، وبَدَائِع الطُّعُوم، السَّائِغَة فى الحُلْقوم، ما لا يَجِدُه عند غيرهم، ولا يَنَاله إلا لَدَيْهِـم، لحِذْقِ صِناعَتِهم، وجَوْدة أدَوَاتِهـم، وٱنْزِياحِ عِلَلِهم، وكَثْرة ذَاتِ بَيْنِهم، واللهُ يُوَفِّر من ذلك حَظَّنا، ويُسَدِّدُ نحوه لَحْظَنا، ويُوَضِّح عليه دَلِيلَنا، ويُسَهِّل إليه سَبِيلَنا.

وأَمَرَه أن يَتَتَبَّع ما يَعْرِض لمُوسِرِى التُّجَّار، ومُجَهِّزِى الأمصار، من وَكِيرَةِ الدَّار، والعُرْس والإعْذار، فإنهم يُوَسِّعون علىٰ نفوسهم فى النَّوائب، بحَسَب تَضْيِيقِهم عليها فى الرَّاتِب، ورُبَّمـا صَبَروا علىٰ تَطْفيـل المُتَطَفِّلين، وأَغْضَوْا علىٰ تَهَجُّم الوَاغِلين، ليَتَحَدَّثُوا بذلك فى مَحَافِلِهم الرَّذْله، ويَعُدُّوه فى مَكَارِم أخلاقهم النَّذْله، ويقولُ قائلُهم البَاجِحُ باتِّساع طَعَامِه، المُبَـاهِى بكَثْرة حُطَامِه: إنّى كنتُ أرىٰ الوُجُوه الغَرِيبَةَ فأُطْعِمها، والأَيْدِىَ المُمْتَدَّةَ فأَمْلَؤُها. وهٰـذه طائفةٌ لم تُرِدْ بمـا فعلَتْه الكَرَمَ والسَّعه،

وإنما أرادت المَنَّ والسُّمْعَه ، فإذا آهْتَدَى الأريبُ إلىٰ طَرائِقِها وَصَـل إلىٰ بُغْيَته من إعلانِ قَضِيَّتها ، وفاز بمُرادِه من ذَخَائِر حَسَنَتِها ، إن شاء الله .

وأمَره أن يُصادِقَ قَهارِمَةَ الدُّورِ ومُدَبِّريها ، ويُرَافِقَ وُكَلاءَ المَطَابِخ وحَمَّالِيها ؛ فإنَّهم يَمْلِكون من أصحابِهم أَزِمَّةَ مَطاعِمِهم ومَشَارِبهم ، ويَضَعُونها بحيث يُحِبُّون من أهْل مَوَدَّاتهم ومَعَارِفهم ؛ وإذا عَدَّتْ هـذه الطائفةُ أحدًا من الناس خَلِيلًا من خُلَّانها ، وآتَّخَذَتْه أَخًا من إخوانها ، سَـعِدَ بمُرافَقَتِها ، ووَصَلَ إلىٰ مَحابِّه من جِهَاتِها ، ومآربِه فى جَنَباتِهـا .

وأمَره أن يَتَعَهَّد أسْوَاقَ المُسَوِّقين ، ومَوَاسِم المُتبايِعِين ؛ فإذا رَأَىٰ وَظِيفةً قد زِيدَ فيها ، وأَطْعِمَةً قد آحْتَشَد مُشْـتَرِيها ؛ آتَّبعها إلى المَقْصِد بهـا ، وشَيَّعها إلى المَنْزِل الحَاوِى لهـا ؛ وآسْتَعلم مِيقَاتَ الدَّعْوه ، ومن يَحْضُرها من أهْـل النِّسْيان والمُرُوَّه ؛ فإنه لا يَخْلُو فيهم من عَارِفٍ به يُرَاعِى وَقْتَ مَصِيرِه إليها ليَتْبَعَه ، ويَكْمُن له ليَصْحَبه ويَدْخُلَ مَعَـه ؛ وإنْ خَلا من ذلك آخْتلط بزُمَرِ الدَّاخِلِين ، وعُصَبِ الرَّاحِلين ؛ فما هو إلا أن يَتَجَاوزَ عَتَبَ الأَبْواب ، ويَخْرُجَ من سُلْطان البوّابين والحُجَّاب ؛ حتَّىٰ يَحْصُلَ حصولا قَلَّ ما حَصَل [عليه] أحدٌ قَبْلَه فانصرفَ عنه إلا ضَلِيعًا من الطَّعَام ، بَرِيقًا من المُدَام ، إن شاء الله .

وأمَرَه أن يَنْصب الأَرْصَاد علىٰ مَنَازِل المُغَنِّيات والمُغَنِّين ، ومَوَاطِنِ الأبليات(؟) والمُخَنَّثين ؛ فإذا أتاه خَبرُ جَمْعٍ يَضُمُّهُم ، ومأْدُبَةٍ تَعُمُّهم ؛ ضَرَب إليهـا أعْناقَ إبِلِه ، وأَنْضَىٰ نَحْوَها مَطَايا خَيْله ؛ وحَمَل عليها حَمْـلةَ الحُوتِ المُلْتَقِم ، والثُّعبانِ المُلْتَهِـم ؛ واللَّيْث الهَـاصِر ، والعُقَاب الكَاسِر ، إن شاء الله .

وأمَره أن يَتَجَنَّبَ مَجامِعَ العوامِّ المُقِلِّين ، ومَحَافِلَ الرَّعاع المُقْتِرِين ؛ وأن لا يَنْقُل إليها قَدَما ، ولا يُعَفِّر لمأْكلها فَمـا ، ولا يَلْقَى فى عَتَب دُورها كِيْسانا ، ولا يعدّ الرَّجل

منها إنسانا ؛ فإنها عِصَابَةٌ يجتمع لها ضِيقُ النُّفوس والأحلام ، وقلّة الإحكام والأموال ؛ وفى التَّطْفيل عليها إجْحافٌ بها يُوسَم ، وإزْراؤُه بمُرُوءَةِ المُتَطفِّل يُوصَم ؛ والتَّجنُّبُ لهـا أحرىٰ ، والازْوِرَار عنها أحْجَى ؛ إن شاء الله .

وأمَرَه أن يَحْزِرَ الخِوَانَ إذا وُضِع ، والطعامَ إذا نُقِل ؛ حتىٰ يَعْرِف بالحَدْس والتَّقْريب ، والبَحْثِ والتَّنْقيب ، عَدَدَ الألوان فى الكَثْرة والقِلّة ، وٱفْتِنانَها فى الطِّيب واللَّذّة ، فيُقَدِّر لنَفْسـه أن يَشْبَع مع آخِرِها ، ويَنْتَهِيَ منها عند ٱنتهائها ؛ ولا يَفُوتُه النَّصيبُ من كثيرها وقليلِها ، ولا يُخْطِئُه الحَظُّ من دَقيقها وجَليلها . ومتىٰ أحَسَّ بقِلَّة الطَّعام ، وعَجْزِه عن الأقْوام ، أمْعَنَ فى أوَّلِه إمْعانَ الكَيِّس فى سَعَتِه ، الرَّشيدِ فى أمْرِه ، المَـالِئِ لبَطْنِه ، من كُلِّ حارٍّ وبَارِد ، وخَبِيثٍ وطَيِّب ؛ فإنه إذا فعل ذلك سَـلِمَ من عَواقِب الأغْمَـارِ الذين يَكُفُّون تَطَرُّفا ، ويُقِلُّون تَأَدُّبا ، ويَظُنُّون أن المَـادَّة تبلغهم فى آخر أمْرِهم ، وتَنْتَهِي بهـم إلىٰ غاية سَعْيِهم ؛ فلا يَلْبَثوا أن يَخْجَلوا خَجْلَة الوَاثِق ، ويَنْقلِبُوا بحَسْرة الخائب ؛ أعاذَنا اللهُ من مِثْل مقامهم ، وعَصَمَنا من شَقَاء جُدُودِهم ؛ إن شاء الله .

وأمَرَه أن يَرُوضَ نَفْسَه ، ويُغالِطَ حِسَّه ؛ ويَضْرِبَ عن كَثِيرٍ مما يَلْحَقُه صَفْحا ، ويَطْوِيَ دُونَه كَشْحا ، ويَسْتَحْسِنَ الصَّمَمَ عن الفَحْشا ؛ وإن أتَتْه اللَّكْزَة فى حَلْقِه ، صَبَرَ عليها فى الوُصُول إلىٰ حَقِّه ؛ وإن وَقَعتْ به الصَّفْعة فى رَاسِه ، صَبَرَ عليها لمَوْقِـع أضْراسِه ؛ وإن لَقِيَه لَاقٍ بالجَفَاء ، قابَلَه باللُّطْف والصَّفَاء ؛ إذ كان قد وَلَجَ الأبواب ، وخَالَط الأسْـباب ؛ وجَلَس مع الحُضُور ، وٱمْتَزج بالجُمْهور ؛ فلا بُدَّ أن يلقاه المُنْكِرُ لأمْرِه ، ويَمُرَّ به المُسْتَغْرِبُ لوَجْهِه ؛ فإن كان حُرًّا حَيِيًّا أمْسك وتَذَمَّم ، وإن كان فَظًّا غَلِيظًا هَمْهَم وتَكَلَّم ؛ وتَجنَّب عند ذلك المُخاشَنَه ، وٱستعمل مع المُخَاطِبِ له المُلاينَه ؛ ليُبَرِّد غَيْظَه ، ويَفُلَّ حَدَّه ، ويَكُفَّ غَرْبَه ، ويَأْمَن شَـغَبَه ؛ ثم إذا طال المَدَىٰ

تكررت الالحاظ عليه فَعُرِف ، وأَنِسَتِ النُّفوسُ به فَأُلِف ؛ ونال من المَحَالِّ المُجْتَمِع عليها ، مَنَالَ من حُشِم وسئل الذَّهابَ إليها .

وقد بَلَغنا أن رَجُلًا من العِصَابَة كان ذا فَهْمٍ ودِرَايه ، وعَقْلٍ وحَصَافه ؛ طَفَّلَ علىٰ وَليمَه ، لرجلٍ ذِى حالٍ عَظِيمَه ؛ فرَمَقَتْه فيها من القوم العُيُون ، وصُرِفتْ بهم فيه الظُّنُون ؛ فقال له قائلٌ منهـم : من تَكُون أعزَّك الله ؟ فقال : أنا أوَّلُ من دُعِىَ إلىٰ هذا الحَقّ . قيل له : وكَيْف ذَاكَ ونحنُ لا نَعْرِفك؟ فقال : إذَا رأيتُ صاحِبَ الدَّارِ عَرَفَنِي وعَرَّفْتُه نَفْسِى . فِجَىءَ به إليه ، فلمـا رآه بَدَأَه بأن قال له : هَلْ قُلْتَ لِطَبَّاخِك : أن يَصْنَع طَعامَك زَائِدًا علىٰ عدد الحاضرين ، ومِقْدار حَاجَةِ المَدْعُوِّين ؛ قال : نعم ! قال : فإنَّمـا تلك الزيادةُ لى ولأَمْثالِى ، وبها يُسْتَظْهَر لمن جَرَىٰ مَجْراى ، وهى رِزْقٌ لنا أنزله الله علىٰ يَدِكَ وبِك ، فقال له : كَرَامَةً ورُحْبا ، وأَهْلا وقُرْبا ؛ والله لا جَلستَ إلا مع عِلْيَـةِ الناس ووُجُوه الجُلَسَاء ، إذْ أَطْرَفتَ فى قَوْلك ، وتَفَنَّنْتَ فى فِعْلك . فلْيَكُنْ ذلك الرجُلُ إمامًا يُقْتَدَىٰ به ، ويُقْتَفَىٰ طَرِيقُه ، إن شاء الله .

وأَمَره بأن يُكْثِر من تَعاهُد الجوارشـنات المُنَفِّذَة للسُّـدَد ، المُقَوِّيَة للمعَد ؛ المُشَهِّيَةِ للطعام ، المُسَهِّلةِ لسُبُلِ الآنْهِضَام ؛ فإنها عِمادُ أَمْرِه وقِوَامُه ، وبها آنْتِظَامُه وآلْتِئَامُه ؛ إذْ كانت تُعِينُ علىٰ عَمَلِ الدَّعْوتين ، وتُنْهِضُ فى اليومِ الواحدِ الأَكْلَتين ؛ وهو يتناولهـا كذا كالكاتب الذى يَقُطُّ أَقْلامَه ، والجُنْدِىِّ الذى يَصْقُلُ حُسَامَه ؛ والصَّانِـعِ الذى يُحَدِّد آلتَه ، والمَـاهِرِ الذى يُصْلِح أَدَواتِه ، إن شاء الله .

هذا عَهْد عليكا بن أحْمد إليك ، وحُجَّته لَكَ وعليك ؛ لم يَأْلُك فيه إرْشادًا وتَوْقِيفا ، وتَهْذِيبا وتَثْقِيفا ، وبَعْثًا وتَبْصِيرا ، وحَثًّا وتَذْكِيرا ؛ فكُنْ بأوامره مُؤْتَمِرا ، وبزَوَاجِره مُزْدَجِرا ، ولرسومه مُتَّبِعا ، وبحِفْظِها مُضْطَلِعا ؛ إن شاء الله تعالىٰ ، والسَّلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

الخاتمة

في ذِكْرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ، وفيها أربعة أبواب

الباب الأوّل

في الكلام على البَرِيد، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

في مقدمات يحتاج الكاتِبُ إلى معرفتها ، ويتعلَّقُ الغَرَضُ من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأوّل

(مَعْرفة معنَى لَفظِ البَرِيدِ لُغَةً واصْطِلاحا) .

أما معناه لُغَةً ، فالمراد منه مَسافةٌ معلومة مُقَدَّرةٌ بآثنى عَشرَ ميلًا ، واحْتَجَّ له الجَوْهَرِىّ بقول مُزَرِّدٍ يَمْدح عَرَابَةَ الأَوْسِىَّ :

فَدَتْكَ عَرَابَ اليومَ أُمِّى وخَالَتِى ، * ونَاقَتِىَ النَّاجِى إليك بَرِيدُها !

يُرِيدُ سَيْرها فى البَرِيد . وقد قَدَّره الفُقَهاءُ وعلماءُ المَسَالِك والمَمَالك بأنه أربعةُ فَرَاسِخَ ، والفَرْسخُ ثلاثة أَمْيالٍ ، والمِيلُ ثَلاثةُ آلاف ذراعٍ بالهَاشِمِىّ ، وهو أربعةٌ وعشرون أُصْبُعا ، كُلُّ أُصْبُعٍ ستُّ شعيراتٍ مُعْترِضاتٍ ، ظَهْر إحداها لبَطْنِ الأخْرى ، والشَّعيرة سَبْعُ شَعَرات معترضات من ذَنَبِ بَغْلٍ أو بِرْذَوْنٍ .

قال الجَوْهرىّ : ويقال أيضا على البريد : المُرَتَّبُ، يقال : حُمِل فلانٌ على البَرِيد . قال : ويُطْلَقُ أيضا على الرَّسولِ بَرِيدٌ .

ثم ٱختلف فيه فقيل : إنه عَرَبِىٌّ . وعلىٰ هذا ذَهَب الخليل إلىٰ أنه مُشْتَقٌّ من بَرَدتُ الحَديد إذا أرسلتَ مايخرجُ منه . وقيل : من أَبْردتُه إذا أرْسلْتَه . وقيل : من بَرَد إذا ثَبَت، لأنه يأتى بما تَسْتقِرُّ عليه الأخبار، يقال : * اليَوْمَ يَوْمٌ بارِدٌ سَمُومُه * أى ثَابِتٌ .

وذَهَب آخرون إلىٰ أنَّه فارِسِىٌّ معَرَّبٌ . قال أبو السعادات بنُ الأثير فى كتابه "النّهاية فى غَرِيبِ الحَدِيث" : وأصله بالفارسِيَّة بريده دم، ومعناه مَقْصُوص الذَّنَب . وذلك أن مُلوكَ الفُرْس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بَغْلًا فى البريد قَصُّوا ذَنَبه، ليكونَ ذلك علامةً لكونه من بِغَال البريد . وأنشد الجَوْهَرِىُّ لاَمْرِئِ القَيْس :

عَلَىٰ كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابَىٰ مُعَاوِدٍ * بَرِيدَ السُّرَىٰ باللَّيْلِ مِن خَيْلِ بَرْبَرَا .

الأمـــر الثـانى

(أَوَّلُ من وَضَع البَرِيدَ وما آل إليه أمْرُه إلى الآن)

أما فى الجاهلِيَّـةِ، فقد ذكر فى "التعريف" : أنَّ البريد كان موجودًا فى عَهْد الأكاسرة من مُلُوكِ الفُرْس، والقَيَاصِرَة مُلوك الرُّوم . قال : ولكن لا أَعْرِفُ هل كان على البريد المُحَرَّرِ أو كانت مَقَادِيرُه مُتفاوِتةً كما هو الآن؟ . ثم قال : ولا أَظُنُّـه إلا على القَدْرِ المحرّر، إذ كانت حِكْمَتُهم تأْبَىٰ إلّا ذلك .

وأمّا فى الإسلام فقد ذكر أبو هِلالٍ العَسْكرىُّ فى كتابه "الأوائل" : أنَّ أوَّلَ من وَضَعَه فى الإسلام مُعاوِيَةُ بنُ أبى سُفْيان رَضِى الله عنهما . قال فى "التعريف" :

وذلك حينَ ٱستقرَّتْ له الخلافةُ، ومات أميرُ المؤمنين عليٌّ رَضى الله عنه، وسَلَّم له ٱبنُه الحَسَنُ عليه السلام، وخلا من المُنَازِع، فوضَعَ البَريد لتُسْرِعَ إليه أخْبارُ بلاده من جميع أَطْرافها، فأَمَر بإحضار رِجَالٍ من دَهَاقين الفُرْس وأهْلِ أعمال الرُّوم وعَرَّفَهم ما يُرِيد، فوضعوا له البَريد. قال: وقيل: إنما فُعِل ذلك زَمَن عَبْد الملك ٱبن مَرْوانَ حين خَلَا وَجْهُه من الخَوَارِج عليه: كعَمْرو بنِ سَعيدٍ الأَشْدَق، وعَبْد الله بنِ الزُّبير، ومُصْعَب بن الزبير، والمُخْتارِ بن أبى عُبَيْد.

والذى ذكره العَسْكرىُّ: أن عَبْدَ الملك إنما أَحْكَمه. وذُكِرَ عنه أنه قال لٱبنِ الدغيدغة: ولَّيْتُكَ ماحَضَر بَابِي إلا أَرْبعةً: المُؤَذِّنَ، فإنه دَاعِى الله تعالىٰ فلا حِجابَ عليه. وطَارِقَ اللَّيلِ، فَشَرٌّ ما أَتَىٰ به ولو وَجَد خَيْرًا لنَامَ. والبَريدَ، فمتىٰ جاء من لَيْلٍ أو نَهارٍ فلا تَحْجُبْه، فربَّما أفسد على القوم سَنَةً حَبْسُهم البَريدَ ساعَةً. والطَّعامَ إذا أَدْرك، فٱفتحِ البابَ وٱرْفَعِ الحِجابَ وخَلِّ بين الناسِ وبين الدخول. ثم قال: ويُذْكَر هذا الكلام عن زِيادٍ أيضا.

قال فى "التعريف": وكان الوَليدُ بنُ عبدِ المَلِك يحملُ عليه الفُسَيْفِساءَ وهى الفِصُّ المُذْهَبُ من القُسْطَنْطِينيَّة إلىٰ دِمَشْقَ، حتى صَفَّحَ منه حِيطانَ المسجد الجامع بها، ومَساجِدَ مَكَّةَ والمدينةِ والقُدْس.

قال: ثم لم يَزَلِ البريدُ قائمًا، والعملُ عليه دائمًا، حتى آنَ لبِناءِ الدَّوْلة المَرْوانيَّة أن يَنْتقض، ولحَبْلِها أن يَنْتكِثَ، فٱنقطع ما بين خُراسانَ والعراق، لٱنصرافِ الوُجُوه إلى الشِّيعة القائمة بالدَّولة العَبَّاسيَّة. ودام الأمْرُ علىٰ ذلك حتَّى ٱنقضتْ أيامُ مَرْوانَ بنِ محمدٍ آخرِ خُلَفاء بنى أُمَيَّة، ومَلَك السَّفَّاحُ، ثم المَنْصور، ثم المَهْدىُّ، والبَريدُ لا يُشَدّ له سَرْج، ولا تُلْجَم له دَابَّةٌ. ثم إن المَهْدىَّ أغْزَى ٱبنَه هٰرُونَ الرشيدَ الرُّومَ، وأَحبَّ أن لا يزالَ علىٰ عِلم قَريبٍ من خَبَره، فرتَّب فيما بينه وبين

معسكر ٱبنـه بُرُدًا كانت تأْتيه بأخباره، وتُريه مُتَجَدِّداتِ أيَّامه . فلما قَفَلَ الرشـيدُ قَطَعَ المَهْدِىُّ تلك البُرُدَ ، ودام الأمر علىٰ هذا بَاقِى مُدَّته ومُدَّة خلافة مُوسى الهَادى بعده . فلمـا كانتْ خِلافةُ هٰرُونَ الرَّشيد، ذَكَرَ يومًا حُسْنَ صَنيعِ أبيه فى البُرُد التى جعلها بينهما، فقال له يَحْيى بنُ خَالدٍ : لو أَمَرَ أميرُ المؤمنين باجراء البَريد علىٰ ما كان عليه، كان صَلاحًا لمالْكه . فأمره به فقرَّره يحيى بنُ خَالدٍ، ورتَّبه علىٰ ما كان عليـه أيامَ بنى أُمَيَّة، وجعَل البغالَ فى المراكز ؛ وكان لا يُجَهَّز عليه إلا الخليفةُ أو صاحبُ الخبَر، ثم ٱستمرّ علىٰ هذا . فلما دَخَل المأمونُ بلادَ الرُّوم ونزل علىٰ نَهْر البِرْذَوْن وكان الزمان حَرًّا، والفَصْل صَيْفًا، قعَدَ على النَّهر ودَلَّىٰ رِجْليه فيه وشَرِبَ ماءه ، فٱستَعْذَبَه وٱسْتَبردَه وٱستطابه ، وقال لمن كان معـه : ما أطيَبُ ما شُرِبَ عليه هذا المـاءُ؟ ، فقال كلُّ رَجُلٍ برَأْيِه . فقال هو : أَطْيبُ ما شُرِبَ عليه هـذا المـاءُ رُطَبُ إزَازَ ، فقالوا له : يَعِيش أميرُ المؤمنـين حتَّىٰ يأتِىَ العراقَ ويأكلَ من رُطَبِها الإزاز ، فـا ٱستَتَمُّوا كلامَهُم حتى أقبلتْ بِغالُ البريد تحمـل ألْطافًا فيها رُطَبُ إزاز ، فأُتِىَ المأمونُ بها فأكَلَ منها وأَمْعنَ وشَرِبَ من ذلك المـاء . فكثُر تعَجُّبُ الحاضرين منه لسعادَته فى أنه لم يَقُمْ من مَقامه حتَّىٰ بلغ أُمْنِيَّتَه ، علىٰ ما كان يُظَنُّ من تَعَـذُّرِها . فلم يقم المأمون من مَقامِه حتَّىٰ حُمَّ حُمَّى حَادَّةً كانتْ فيها مَنِيَّتُه .

ثم قطع بَنُو بُوَيْهٍ البريدَ حين عَلَوْا على الخلافة وغَلَبوا عليهـا ، ليَخْفَىٰ على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحَرَكَاتِهـم أحْيانَ قَصْدِهم بَغْداد، وكان الخليفةُ لا يزال يأخذُ بهم علىٰ بَغْتَة .

ثم جاءتْ ملوكُ السَّلاجِقَة علىٰ هذا ، وأَهَمَّ مُلُوكَ الإسلامِ ٱخْتِلافُ ذات بينهم وتَنَازُعُهُم، فلم يكن بينهم إلا الرُّسُل على الخَيْل والبِغَال، فى كلِّ أرْضٍ بحَسَبِها .

فلما جاءت الدَّوْلَةُ الزَّنْكيَّة أقامتْ لذلك النجَّابةَ ، وأعدّتْ له النُّجُبَ المُنْتَخَبَةَ . ودام ذلك مُدّةَ زمانِها ثم زمانِ بَنِي أيُّوبَ إلى انقراض دَوْلتهم . وتَبِعَها علىٰ ذلك أوَائلُ الدَّولة التُّرْكية ، حتّىٰ صار المُلْك إلى المَلِك الظاهر بِيبَرْس رحمه الله ، واجتمع له مُلْكُ مِصْر والشامِ وحَلَب إلى الفُراتِ ، وأراد تجهيز دَوْلته إلىٰ دِمَشْقَ فعيَّن لها نائبًا ، ووَزِيرًا ، وقاضِيًا ، وكاتبًا للانْشاء .

قال : وكان عَمِّى الصاحبُ شرفُ الدِّين أبو محمد عبدُ الوَهَّاب رحمه الله هو كاتِبَ الإنشاء ، فلما مَثَل إليه لِيُوَدِّعَهُ ، أوصاه وصايا كثيرةً ، آكَدُها مُواصَلَتُه بالأخبار وما يَتَجَدَّدُ من أخبار التَّتار والفرَنْج ، وقال له : إن قَدَرْتَ أن لا تُبَيِّتَنِي كلَّ لَيلة إلا على خَبَرٍ [ولا تُصبِّحَنِي إلا علىٰ خَبَرٍ](1) فافْعَلْ ، فعرّض له بما كان عليه البريدُ فى الزَّمان الأوّل وأيامِ الخُلَفاء ، وعَرَضه عليه فحَسُن مَوْقِعُه منه وأمر به . قال عَمِّى : فكنتُ أنا المقرِّرَ له قُدّامَه وبين يَدَيْه . ثم ذكر أنه لم يَزَلْ باقيًا علىٰ ذلك إلىٰ أيَّامه . ثم قال : وهو جَنَاحُ الإسلام الذى لا يُحَصّ ، وطَرَفُ قادِمَته التى لا تُقَصّ .

قلتُ : ولم يَزَل البريدُ بعد ذلك مُسْتقرًّا بالديار المصريَّة والممالك الشَّامِيَّة إلىٰ أن غَشِيَ البلادَ الشامية تمرلنْكُ صاحِبُ ما وراء النَّهْر ، وفَتَح دِمَشْقَ وخَرَّبَها وحَرَّقها فى سَنَة أربَعٍ وثمانمائة ، فكان ذلك سببًا لحَصّ جَناح البريد وبُطْلانه من سائر الممالك الشامية . ثم سَرىٰ هذا السُّمُّ إلى الدِّيار المصرية فألحقها بالهَمَل ، ورَمَاها بعد الحَلْيِ بالعَطَل ، فذَهبتْ مَعالِمُ البَريد من مِصْر والشام ، وعَفَتْ آثارُه ، وصار إذا عَرَض أمرٌ من الأمور السلطانية فى بَعْض نَوَاحِى الديار المصرية أو الممالك الشامية ، رَكِبَ البريدىُّ علىٰ فَرَسٍ له ، يسير بها الهُوَيْنا سَيْرَ المُسافِر إلى المكان الذى يُرِيدُه ، ثم يعود علىٰ هذه الصورة ، فيحْصُل بواسطة ذلك الإبطاءُ فى الذَّهاب والإيَابِ .

(1) الزيادة من التعريف (ص ١٨٧) .

الأمر الثالث

(بيان معالم البريد)

اعلمْ أنه كان فيما تقدّم فى زمن الخُلفاء للبريد شخصٌ مخصوصٌ يتولّىٰ أمره بتنفيذ ما يَصْدُرُ وتلقّى ما يَرِد، يُعبَّر عنه بـ«صاحب البريد» . وممن تعرّض إلىٰ ذكر ذلك أبو جعفرٍ النحّاسُ فى كتابه "صناعة الكُتّاب" فى الكلام علىٰ أرباب الوظائف، واشتقاق أسمائهم . وقد أشار إليه الجوهرىُّ فى صحاحه أيضا فقال : ويقال أَبْرَدَ صاحبُ البريد إلى الأمير فهو مُبْرِدٌ يعنى أرسل إليه البريد .

ثم قد تقدّم فى مُقدّمة الكتاب فى الكلام علىٰ صاحب ديوان الإنشاء وماله التّحدُّثُ عليه ـ أن صاحبَ ديوانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المُتولّى لأمر البَريد وتنفيذ أُموره فى الإيراد والإصدار . وكان للبريد ألْواحٌ من فِضّةٍ مُخلَّدةٌ بديوان الإنشاء تحت أمرِ كاتب السّرّ بالأبواب السلطانية، مَنْقوشٌ علىٰ وَجْهَيِ اللّوح نَقْشًا مُزْدوجًا ماصُورتُه : «لاإله إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله، أرسَلَه بالهُدىٰ ودِينِ الحَقِّ ليُظْهِرَه على الدّينِ كُلِّه ولَوْ كَرِهَ المُشْركُونَ . ضُرِبَ بالقاهرة المحروسة» . وعلى الوَجْهِ الآخرِ ما صُورتُه : «عِزٌّ لمولانا السُّلطانِ المَلِكِ الفُلانىِّ : فلانِ الدُّنيا والدِّين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلانٍ، ابنِ مولانا السلطانِ الشهيد المَلِك الفلانىِّ فلانٍ، خَلّد اللهُ مُلْكه» . وفى ذلك اللوح ثَقْبٌ مُعلّق به شُرّابة من حَريرٍ أصْفر ذات بَنْدَيْن، يجعلُها البَريدىُّ فى عُنقِه، بإدْخاله رأسَه بين البَنْدَيْن، ويُصيِّر اللوحَ أمامه تحتَ ثيابه، والشُّرّابةَ خَلْفَه من فَوْق ثيابه . فإذا خَرَج بريدىٌّ إلىٰ جِهَةٍ من الجهات، أُعطِى لَوْحًا من تلك الألواح، يُعلّقُه فى عُنقِه، علىٰ ما تقدّم ذكره، ويذهب إلىٰ جِهَة قَصْده، فكلُّ من رأىٰ تلك الشُّرّابة خَلْفَ ظَهْره علم أنه بَريدىٌّ . وبواسطة

ذلك تُذْعِنُ له أربابُ المَرَاكز بتَسْليم خَيْلِ البريد . ولا يزالُ كذلك حتّىٰ يذْهَب ويعودَ ، فيُعِيدُ ذلكَ اللَّوْحَ إلىٰ دِيوانِ الإنشاء .

وكذلك الحُكْم فى دواوين الإنشاء بِدِمَشْق وحَلَب وغيرهما من الممالك الشامية، لا يَخْتَلِف الحُكْم فى ذلك إلا فى الكتابة بمحلّ ضَرب اللَّوْح . فإن كان بدِمَشْق كُتِب : «ضُرِبَ بالشَّام» . وإن كان بحَلَبَ كُتِب : «ضُرِب بحَلَبَ المحروسةِ» وكذلك باقى الممالك .

الفصــــل الثانى

من الباب الأوّل من الخاتمة فى ذِكْرِ مَرَاكِزِ البريد

وهى الأماكِنُ التى تَقِفُ فيها خَيْلُ البريد لتغيير خَيْلِ البَرِيدِيَّة فيها فَرَسًا بعد فَرَس ، قال فى "التعريف" : وليْستْ على المقدار المُقَدَّرِ فى البريد المُحَرَّر، بل هى مُتَفاوِتَةُ الأبعادِ، إذ أَلْجَأَت الضَّرورةُ إلىٰ ذلك : تارة لبُعْدِ ماءٍ، وتارة للأُنْسِ بقَرْيةٍ، حتى إنك لتَرَىٰ فى [هـذه][1] المَرَاكِزِ البريدَ الواحِدَ بقَدْرِ بريدين . ولو كانت على التَّحْرِير [الذى عليه الأعمال][1] لَمَا كان تَفَاوُتٌ . وقد ذكر منها المقرّ الشِّهابىّ بن فَضْل الله رحمه الله فى "التعريف" ما أَرْبىٰ فى ذلك على المقصود وزاد، وهو بذلك أَدْرىٰ وأَدْربُ . وهأنا أذْكُر ما ذَكَره ، موضِّحًا لما يحتاج منه إلى التَّوْضِيح ، مع الزيادة عليه وتَقْرِيبِ التَّرْتيب .

ويَشْتمل علىٰ ستة مَقَاصد :

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٤) .

المقصـــــد الأوّل

(فى مَرْكزِ قَلْعة الجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التى هى قَاعِدَةُ المُلْك، وما يتفرّع عنه من المَرَاكز، وما تَنْتَهِى إليه مَرَاكِزُ كلِّ جِهَةٍ)

اِعلم أن الذى يتفرّعُ عن مَرْكَز القَلْعة ويَتَشَعَّبُ منه أَرْبَعُ جِهاتٍ، وهى : جِهَةُ قُوص من الوَجْه القبلىّ وما يتّصِلُ بذلك من أُسْوانَ وما يَلِيها من بلاد النُّوبَة، وعَيْذَابَ وما يليها من سَوَاكِن . وجِهَةُ الإسْكَنْدَرِيَّة من الوَجْه البَحْرِىّ . وجِهَةُ دِمْياطَ من الوَجْه البَحْرِىّ أيضا، ومايتفرّع عنها من جِهَةِ غَزَّةَ من البلاد الشامية .

فأما مَرَاكِزُ قُوص وما يليها : فمن مَرْكزِ قَلْعَةِ الجَبَل المحروسة ، ومنها إلىٰ مَدِينَة الجِـيزَة، وهى قاعدةُ الأعمال الجيزِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى الكلام علىٰ بلاد المملكة فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ زَاوِيَة أمِّ حُسَين، وهى قَرْيَةٌ من عَمَل الجيزَة . قال فى "التعريف" : والمَرْكَز الآنَ بمُنْية القائد وهى على القُرْب من زاوية أُمِّ حُسَينٍ المذكورة ، ثم منها إلىٰ وَنا وهى بَلْدةٌ من عَمَلِ البَهْنَسىٰ ؛ ثم منها إلىٰ دَهْرُوط وهى بَلْدةٌ من عمل البَهْنَسَىٰ أيضا . ثم منها إلىٰ أقلوسنا[1]، وهى بَلْدةٌ من عَمَلِ الأُشْمونَيْنِ . ثم منها إلىٰ مُنْيةِ بَنِى خَصِيبٍ، وهى مَدِينَةٌ من عَمَل الأُشْمُونَيْنِ ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ مَدِينة الأُشْمُونَيْنِ وهى قاعدةُ بِلادِها، وقد تَقَدَّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ ذِرْوَة سَرْبَامَ وهى بَلْدةٌ من عمل الأُشْمُونَيْنِ علىٰ فَمِ الخليج اليُوسُفِىّ الوَاصل من النِّيل إلى الفَيُّوم، وتعرف بِذِرْوَةِ الشريف، إضافةً إلى الشَّريف نَاصِر الدِّين محمد بن تَغْلب الذى كان عَصَىٰ بها فى زَمَنِ الظَّاهِرِ بيبَرْس، وسَمَتْ نَفْسُه إلى المُلْكِ حتّىٰ كادَه الظَّاهِرُ وقَبَض عليه وشَنَقَه بالإسكندرية، وبها

(١) فى معجم البلدان لياقوت : قَلُوسَنَا .

دِيَارُه وقُصُوره والجامعُ الذى أنشأه بها إلى الآن . ثم منها إلىٰ مدينة مَنْفَلُوط ، وهى قاعدةُ الأعمال المَنْفَلُوطيَّة التى هى أَجَلُّ خَاصّ السُّلْطان . ثم منها إلىٰ مَدِينَة أُسْيُوطَ ، وهى قاعِدَةُ الأعمال الأُسْيُوطِيَّة ، ومَقَرُّ نائِب الوَجْهِ القِبْلِيّ الآن ، وقد تقدّم ذِكْرُها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ طَا ، وهى قَرْيَةٌ من عَمَل أُسْيُوطَ المقدّمةِ الذِّكْر علىٰ ضَفَّةِ النِّيل ، ثم منها إلى المَرَاغَة ، وهى بَلْدةٌ من عَمَلِ إِخْمِيمَ . قال فى "التعريف": ورُبَّما سُمِّيت المَرَائِغ . ثم منها إلىٰ بَلَسبورة وهى بَلْدة من عَمَل إِخْمِيم أيضا . قال فى "التعريف" : ورُبَّما قيل بلزبورة بإبدال السِّين زَايًا . ثم منها إلىٰ جَرْجَا ، وهى بلدة من العَمَل المذكور ، ثم منها إلى البُلْيَنَة ، وهى بَلْدةٌ من عمل قُوص ، ويقال فيها البُلْيَنَا بإبدال الهاء أَلِفًا . ثم منها إلىٰ هو ، وهى بَلْدةٌ من عَمَل قُوص أيضا ، قال فى "التعريف": ويليها الكَوْمُ الأحمر ، وهما من خَاصّ السلطان ، وعندهما يَنْقَطِعُ الرِّيفُ فى البَرِّ الغربىّ ، ويكون الرَّمْل المتَّصِلُ بدَنْدَرىٰ ويسمَّى خَانَ دَنْدَرىٰ ، وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك مستوفًى فى المقالة الثانية . ومنها إلىٰ مَدِينَة قُوص قاعدة الأعمال القُوصِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية .

ثم من قُوص تَنْقطع مَرَاكِزُ البريد ، ويَتَشَعَّبُ الطريقُ إلىٰ جِهَة أُسْوانَ وبلادِ النُّوبة ، وجِهَة عَيْذَاب وسَوَاكِن .

فمن أراد المَسِير إلىٰ جِهة أُسْوان رَكِبَ الهُجْن من قُوص إلىٰ أُسْوان ، ثم منها إلىٰ بلاد النُّوبة .

ومن أراد المَسِيرَ إلىٰ عَيْذَاب سار من قُوص إلىٰ كِيمَان قِفْط على القُرْب من قُوص .

قلتُ : ثم يَسِير فى قِفَارٍ وجبالٍ ، من كِيمانِ قِفْط إلىٰ ماءٍ يسمىٰ ليطة علىٰ مَرْحلةٍ من الكيمان ، به عينٌ تَنْبع وليستْ جارية ، ثم منها إلىٰ ماءٍ يسمى الدريج على القُرْب

من مَعْدن الزُّمُرُّذ ، به عَيْنٌ صغيرة يُسْتقىٰ منها من الماء ما شاء الله ، وهى لا تزيد ولا تَنْقُص . ثم منها إلىٰ حُمَيْثَرَة حيثُ قبر سَيِّدى أبى الحَسَنِ الشَّاذِلِىّ ، وهُناك عَيْن ماء يُسْتقى منها . ثم منها إلىٰ عَيْذابَ ، وهى قريةٌ صغيرةٌ علىٰ ضَفَّةِ بَحْر القُلْزُم فى الشمال إلى الغَرْب ، وعلى القُرْب منها عينٌ يُسْتقىٰ منها .

وتَقْدِيرُ جميع المسافة من الكِيمانِ إلىٰ عَيْذابَ نحو عَشَرة أيامٍ بِسَيْر الأثقال . علىٰ أنه فى "مسالك الأبصار" قد ذَكَر أنَّ الطَّرِيقَ إلىٰ عَيْذابَ من شُعْبَةٍ على القُرْب من أُسْوان ، ثم يَسِير منها فى بلاد عَرَبٍ يُسَمَّوْنَ بنى عامرٍ إلىٰ سَوَاكِن ، وهى قَرْية حَاضِرة البَحْر صاحِبُها من العَرَب ، وكُتُبُ السلطانِ تنتهى إليه ، علىٰ ما تقدّم ذِكْره فى الكلام على المكاتبات .



وأما الإسْكَنْدرِيَّة فالمراكز المُوَصِّلة بها فى طريقين :

الطريق الأولىٰ : الآخِذَةُ على الجَبَل الغَرْبىّ ويسمَّى طَرِيقَ الحَاجِر . والمَسِيرُ فيها من مَرْكز القلعة المقدَّمِ ذِكْرُه إلىٰ مدينة الجيزِيَّة . ثم منها إلىٰ جزِيرةِ القِطّ ، وهى قريةٌ من آخِرِ عمل الجيزَةِ من الجهــة البَحْرِية . ثم منهــا إلىٰ وَرْدَانَ ، وهى قريةٌ من عَمَل البُحَيْرة . [ثم منها إلى الطَّرَّانَة][1] . ثم منها إلىٰ طيلاس وهى بَلْدةٌ من عَمَل البُحَيْرة أيضا وتعرفُ بزَاوِيَةِ مُبارك . قال فى "التعريف" : وأهلُ تلك البلاد يقولون : أنْبَارَك . ثم منها إلىٰ مدينــة دَمَنْهور وتعرف بدَمَنْهُور الوَحْش ، وهى قاعدةُ أعمــال البُحَيْرة ، ومحلُّ مُقَامِ نائبِ السَّلْطنة بالوَجْهِ البَحْرىّ ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ لُوقين وهى قَرْيةٌ من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسْكَنْدَرِيَّة .

الطريق الثانية : الآخذة فى وَسَطِ العُمْران ، وتعرفُ بالوُسْطَىٰ .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهى من مَرْكز القَلْعة إلىٰ مدينة قَلْيُوب قاعدةِ الأعمـال القَلْيُوبيَّة ، وقد تقـدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ مَدينةِ مَنُوف العُلْيا، وهى قاعدَةُ الأعمال المَنُوفيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ مدينة المَحلَّةِ المعروفة بالمَحلَّةِ الكُبْرىٰ، وهى قاعدة الأعمـال الغَرْبِيَّة، وقد تقـدّم الكلام عليها فى المقالة الثانيـة . وقد وَهِم فى "التعريف" فسماها مَحلَّة المَرْحُوم بلدةٌ من بلاد الغَرْبِيَّـة غيرها . ثم منهـا إلى النحْرِيريَّة ، وهى مدينةٌ من عَمَل الغَرْبيـة . ثم منها إلى الإسْكَنْدَرِيَّة .



وأما الطريق إلىٰ دِمْياطَ وغَزَّةَ ، فمن مَرْكز القَلْعـة إلىٰ سِرْيَاقُوس ، وهى بلدةٌ من ضَوَاحى القـاهرة ، وليس المَرْكز فى نَفْسِ البَلَد ، بل بالقَرْيةِ المُسْـتَجَدَّة بجوارِ الخَانِقَاه النَّاصرية التى أنشأها السلطانُ المَلِكُ الناصرُ محمدُ بنُ قَلاوُونَ على القُرْب من سِرْيَاقُوس . قال فى "التعريف" : وكان قبل هـذا بالعُشِّ، وكان طويل المَدَىٰ فى مكان مُنْقَطِع، وكانت البَرِيديَّة لا تزال تَتَشكَّىٰ منه، فصَلَح بنَقْله ، وحَصَل به الرِّفْق لأمورٍ لو لم يَكُنْ منها إلا قُرْبُه من الأَسْواق المجاورةِ للخانِقَاه النَّاصريَّة وما يوجدُ فيها، وأُنْسُه بمـا حَوْلها [لكفىٰ] . ثم منها إلىٰ بِئْر البَيْضاء، وهى مَرْكزُ بَرِيدٍ مُنْفَردٌ ليس حَوْله ساكنون . ثم منها إلىٰ مَدينة بُلْبَيْس قاعدةِ الأعمـال الشَّرْقية ، وقد تقـدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . قال فى "التعريف" : وهى آخرُ المراكز السُّلْطانية، وهى التى تُشْـتَرىٰ خَيْلُها من الأموال السلطانية ويُقامُ لهـا السُّوَّاسُ وتصرفُ لهـا العلُوفات . ثم منها إلى السَّـعيديَّة . ثم من السَّـعيدية إلىٰ أُشْمُومِ الرُّمَّان قاعدةِ بلاد الدَّقَهْلِيَّة والمُرْتَاحِيَّة، وقد تقدّم ذكرها فى المقالة الثانية . ومنها إلىٰ دِمْياطَ ومَن أراد غَزَّة . وقد تقدّم أنَّ مَدينةَ بُلْبَيْس هى آخِرُ المَرَاكِزِ السلطانية . ثم السَّعيديَّة وما بعدها

إلى الخرُّوبَة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ البَريد بهـا مقترِةٌ على عُرْبانٍ ذَوِى إقطاعاتٍ، عليهم خُيُولٌ مُوظَّفَةٌ يَحْضُرِبها أرْبابُها عنـد هِلالِ كلِّ شَهْرٍ إلى المراكز، وتَسْتَعيدُها فى آخر الشَّهْر ويأتى غيرها، ومن هنـالك سُمِّيت الشَّهارة . قال فى "التعريف" : وعليهـم وَالٍ من قِبَل السُّـلطان يَسْتَعِرضُ فى رَأْسِ كلِّ شَهْرٍ خَيْـلَ أصحاب النَوْبَة ويُدَوِّغها بالدَّاغ السـلطانىّ . قال : وما دامتْ تستجدُّ فهى قائمة ، ومتى آكترىٰ أهـلُ نَوْبةٍ ممن قبلهم فَسَـدَتِ المراكز، لأن الشَّهْر لايَهِلُّ وفى خَيْلِ المُنْسَلِخ قُوَّة، لا سِيَّـا والعربُ قَلِيلة العَلَف .

وأوَّلُ هذه المَرَاكِز السَّعيديةُ المقدَّمُ ذِكْرُها ، ثم منها إلى الخَطَّارة، ثم منها إلىٰ قَبْر الوايلى . قال فى " التعريف " : وقد آستُجِدّ به أبْنِيَةٌ وأسْوَاقٌ وبَسَاتِينُ حتّىٰ صار كأنه قَرْيَة . ثم منها إلى الصَّالحِيَّة، وهى قريةٌ لَطِيفة . قال فى "التعريف" : وهى آخِر مَعْمُور الديار المصرية ، ثم منها إلىٰ بئر عفرىٰ (١)، وإلىٰ هـذا المركز يجلب المـاء من بئرٍ وراءه. ومنها إلى القُصَيْر . قال فى "التعريف" : وقد كان كَرِيمُ الدِّين وكِيلُ الخاصّ بَنَىٰ بها خانًا ومَسْجِدا ومِئْذَنَةً، وعَمِل ساقِيةً، فتَهدَّم ذلك كُلُّه، ولم يوجد له من يُجَدِّده، وبَقِيتِ المِئْذَنَةُ خَاصَّة، ورُتِّب بها زَيْتٌ للتَّنْوير . قال : وهذا القُصَيْر يقارِبُ المركزَ القَدِيمَ المعروفَ بالعَاقُولة المُقارِبَ لقَنْطَرة الجِسْرِ الجارى تحتها فَوَاضِلُ ماء النيل أوَانَ زيادته إذا خرج إلى الرَّمْل . ثم منها إلىٰ حبوة . قال فى "التعريف" : وليس بها مَاءٌ ولا بناءٌ، وإنمـا هى مَوْقِفٌ يَقِف به خَيْلُ العرب الشَّهَّارة، ويُجْلَبُ المـاء إليها من بِئْرٍ وراءها . ثم منهـا إلى الغرابى . ثم منها إلىٰ قَطْيـا ، وهى قَرْيةٌ صغيرةٌ بها تؤخذ المُرَتَّبات السلطانية من التُّجّار الواردين إلىٰ مصر والصادرين عنها،

(١) الذى فى التعريف : بئر غزىٰ، آنظرص (١٩٠) .

وهناك رَمْلٌ بالطريق يُخْتم فى الليل ويُحْفَظ ما حوله بالعُرْبان ، حتّى لا يمرّ أحدٌ لَيْلًا . فيكونُ من القاهرة إلىٰ قَطْيا آثنا عشر بَرِيدًا . ثم منها إلىٰ صَبِيحة نَخْلة مَعْن . قال فى " التعريف " : ومن الناس من يَقْتصر علىٰ إحدىٰ هذه الكلمات فى تَسْميتها . ثم منها إلى المُطَيْلب ، ثم منها إلى السَّوادة . قال فى " التعريف " : وقد حُوِّلتْ عن مكانها فصار المُسافرُ لا يحتاج إلىٰ تَعْرِيج إليها . ثم منها إلى الوَرَّادَة ، قال فى " التعريف " : وهى قريةٌ صغيرةٌ بها مَسْجدٌ علىٰ قارعة الطريق ، بناه المَلِكُ الأشرفُ « خَليل » بن المنصور قَلَاوُون تغمده الله برحمته ، حَصَل به الرِّفْقُ بمَبِيتِ السَّفَّارة به . قال : وقد كان فَخْرُ الدِّين كاتبُ المماليك بَنَىٰ إلىٰ جانِبه خانًا فبِيعَ بعده . ثم منها إلىٰ بِئْر القَاضِى . قال فى " التعريف " : والمَدَىٰ بينهما بَعِيدٌ جدا يَمَلُّه السَّالِكُ . ومنها إلى العَرِيش . قال فى " التعريف " : وقد أحْسن كَرِيمُ الدِّين رحمه الله بعَمَلِ ساقِيَةٍ سَبِيلٍ به وبِناءِ خَانٍ حَصِينٍ فيه يَأْوِى إليه من أَلْجَأَهُ المَساء ، وينامُ فيه آمِنًا من طوارق الفَزَع . ثم منها إلى الخَرُّوبة ، وبها ساقيةٌ وخانٌ ، بناهما فَخْرُ الدِّين كاتبُ المماليك ، حَصَل به من الرِّفْق والأَمْنِ ما بالعَرِيش . قال فى " التعريف " : وهذا آخر مراكز العَرَب الشَّهَّارة . ثم ممّا يليها خَيْلُ السلطان ذَواتُ الإصْطَبْلاتِ والخَدَم تُشْترىٰ بمال السلطان وتُعْلَف منه ، وأوّلها الزَّعْقَة ، ثم منها إلىٰ رَفَحْ ، ثم منها إلى السلقة . قال فى " التعريف " : وكان قبل هذا المَرْكَز بِبِئْر طرنْطاى حيثُ الجُمَّيْز ويسمىٰ سَطر . قال : وكان فى نَقْله إلى السلقة المَصْلَحَةُ . ثم منها إلى الدَّارُوم ، ثم منها إلىٰ غَزَّة . يكون من قَطْيا إلىٰ غَزَّة أحَدَ عَشَرَ مَرْكَزًا .

المقصـــد الثانى

(فى مَرَاكِز غَزَّة وما يتَفَرَّع عنه من البلاد الشامية)

والذى يتَفَرَّعُ عنه مَراكِز ثَلاثِ جِهَاتٍ، وهى : الكَرَكُ، ودِمَشْقُ، وصَفَدُ .

فأما الطريق إلى الكَرَك : فمن غَزَّة إلى ملاقس وهو مَرْكز بَرِيدٍ ، ثم منها إلى بَلَد الخليل عليه السلام ، ثم منها إلى جنبا ، ثم منها إلى الصَّافِيَة ، ثم منها إلى الكَرَك .

وأما مراكز دِمَشق : فمن غَزَّة إلى الجِينِين ، وهو مَرْكَز بَرِيدٍ، ومنها إلى بَيْت دَارِس، والناس يقولون : تدارس ، وبها خانٌ بَناه ناصِرُ الدِّين خزندار تنكز . قال فى "التعريف" : وكان قديمًا بياسور ، وكان قريبَ المدى فنُقِلَ وكانت المَصْلحةُ فى نَقْله ، ثم منها إلى قطرى . قال فى "التعريف" : وهو مَرْكَزٌ مُسْتجدٌّ كان المُشيرُ به طاجار الدوادار الناصرى ، وبه بِئْر سَبِيلٍ وآثارٌ له . قال : وقد حصل به رِفْقٌ عَظِيمٌ لبعد ما بين [لُدٍّ وبَيْت دَارِس] (1) أو ياسور، ثم منها إلى لُدٍّ، ثم منها إلى العَوْجَاء . قال فى "التعريف" : وهى زَوْراء عن الطَّرِيق، ولو نُقلتْ منه لكان أَرْفَق ، ثم منها إلى الطيرة . قال فى "التعريف" : وبها خَانٌ كان قد شَرَع فى بنائِه ناصِرُ الدِّين دوادار تنكز ثم كَمُل بيَدِ غَيْره . ثم منها إلى قَاقُون ، ثم منها إلى فَحْمَة [ثم منها إلى جِينِين] (1) . قال فى "التعريف" : وهى على صَفَد، يعنى القِيَام به، وبه خانٌ لطَاجَار الدَّوادار، حَسَنُ البِنَاءِ جَلِيلُ النَّفْع ، ليس على الطريق أَخَصُّ منه ولا أَحْصَنُ ، ولا أَزْيَدُ نَفْعًا منه ولا أَزْيَن .

---

(1) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١) .

ومن أراد دِمَشْــقَ وما يليها سَارَ من جِينِينَ إلى ذَرْعِين . قال فى "التعريف" : ومنها ينزل علىٰ عَيْن جَالُوت ، وهو مَرْكَزٌ مُسْتَجَدٌّ حصل به أَعْظَم الرِّفْق والرَّاحة من العَقَبَةِ التى كان [يُسْلك](١) عليها بين جِينِين و بَيْسَانَ مع طُولِ المَدَىٰ . ثم منهـا إلى بَيْسانَ، ثم منها إلى المَجَامِع . قال فى "التعريف" : وهو مَرْكَزٌ مستجدّ عِنْـد جِسْرِ سَامَة، كنتُ أنا المشيرَ به فى سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمائة ، وحَصَل به الرِّفْق لبُعْد ما كان بين بَيْسانَ وزحر . قال : وقد كان الطريقُ قَدِيمًـا من بَيْسان علىٰ طَيْبَةِ آسم ، ثم إلى أَرْبَد، وكانت غَايةً فى المَشَقَّة، إذ كان المسافِرُ ما بين بَيْسان وطَيْبةِ آسمٍ يحتاجُ إلىٰ خَوْض الشَّرِيعَة ، وبهـا معدّية للفَارِس دون الفَرَس ، وإنمـا يَعْبُر فيها الفَرَسُ سِبَاحَةً ، وكان فى هذا من المَشَقَّة ما لا يوصف، لا سِيَّما أيامُ زيادة الشَّرِيعَةِ وكَلَبِ البَرْد : لقَطْع المَـاءِ ومُعاناةِ العِقَـاب التى لا يَشُــقُّها جَنَاح العُقَاب . ولٰكن الأمير الطنبغا كَافِل الشَّامِ رحمه الله نَقَل هذه الطَّرِيقَ وجَعَلَها على القُصَيْر حيثُ هى اليوم، ونَقَل المَرْكَزَ من الطَّيبة إلى زحر حين غَرِقَ بعضُ البَرِيدِيَّة الجَبَلِيِّينَ بالشَّرِيعَة . ثم من المجامع المذكورة إلىٰ زحر، ثم منها إلىٰ أَرْبَد، ثم منها إلىٰ طفس، ثم منها إلى الجامع . قال فى "التعريف" : وكان قديمًا فى المكان المسمَّىٰ برأس المـاء، فلما مَلَكه الأميرُ الكبيرُ تنكز كافِلُ الشَّامِ رحمه الله نَقَل المَرْكَز منه إلىٰ هذا الجامع ، فقَرُب به المَدَىٰ فيما بينه وبين طفس، وكان بَعِيدًا فما جاء إلا حَسَنًا . ثم منها إلى الصَّنَمَيْنِ، ثم منها إلىٰ غَبَاغِب، ثم منها إلى الكُسْوة، ثم منها إلىٰ دِمَشْقَ المحروسة .

وأما الطريق المُوَصِّلة إلىٰ صَفَد : فمن جِينِينَ المقدّم ذِكْرُها إلىٰ تِبْنِين ، ثم منها إلىٰ [حِطِّين](١) وبها قبر شُعَيْب عليه السلام، ثم منها إلىٰ صَفَد .

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصـــــــد الثـالث

(فى ذِكْرِ مركز دِمَشْـــقَ وما يتفرّعُ عنه من المراكز الموصِّلة إلىٰ حِمْصَ وحَمَاةَ وحَلَب ، وإلى الرَّحْبة ، وإلىٰ طَرَابُلُسَ ، وإلىٰ جَعْبَر ، ومِصْياف وبَيْروتَ وصَيْدا وبَعْلَبَكَّ والكَرَكِ وأَذْرِعَاتٍ)

فأما طريق حَلَب : فقال فى " التعريف " : من دِمَشْـقَ إلى القُصَيْرِ . والذى رأيتُـه فى بَعْض الدَّسَاتِير أنه من دِمَشْـق إلىٰ خَانِ لَاچِينَ ، ثم إلى القُصَيْر . قال فى " التعريف " : ثم من القُصَـيْر إلى القَطِيفَة ، ثم منها إلى القَسْـطَل . ورأيتُ فى الدُّسْتُور المَذْكُور أن من القُصَـيْر إلىٰ خان الوَالِى ، ثم إلىٰ خَانِ العَرُوس ، ثم إلى القَسْطل ، ثم منها إلىٰ قَارا ، ثم منها إلىٰ بريح العَطَش ويقـال فيه البزيج أيضا . قال فى " التعريف " : وقد كان مَقْطَع طَرِيقٍ ، ومَوْضِـعَ خَوْف ، فبَنَىٰ به قاضى القُضاة نَجْمُ الدِّين أبُو العَبَّاس أحمدُ بن صصرى رحمه الله مَسْـجِدًا وبِرْكَةً ، وأَجْرى المـاءَ إلى البِرْكَةِ من مِلْكٍ كان له هُناك وَقَفَه علىٰ هذا السَّبِيل ، فبَدَّل الخَوْفَ أمْنًا ، والوَحْشَـةَ أُنْسًا ، أثابه الله علىٰ ذلك . ثم منها إلى الغَسُولة ، ثم منها إلىٰ شَمْسِـينَ ، ثم منها إلىٰ حِمْصَ ، ثم منها إلى الرَّسْتَنِ ، ثم منها إلىٰ حَمَاة ، ثم منها إلىٰ لَطْمِيـــن ، ثم منها إلىٰ طَرَابُلُسَ ، ثم منها إلى المَعَرَّةِ ، ثم منها إلى أنقراتا ، ثم منها إلىٰ إيادٍ ، ثم منها إلىٰ قِنَّسرِينَ ، ثم منها إلىٰ حَلَب .

وأما طريق الرَّحْبَة : فمن القَطِيفَة المقدَّمَةِ الذِّكْرِ إلى العطنة . قال فى "التعريف" : وليس بها مَرْكَز ، وإنَّمـا بها خَانٌ تُفرَّق به صَدَقَةٌ من الخُبْز والأَحْذِيَة ونِعَالِ الدَّوابِّ إلىٰ جُلَيجِلَ ، ثم منها إلى المَصْنع ، ثم منها إلى القَرْيَتَيْنِ ، ثم منها إلى الحسير ، ثم منها إلى البَيْضاء ، ثم منها إلىٰ تَدْمُر ، ثم منها إلىٰ أَرَكَ ، ثم منها إلى السُّخْنَةِ ، ثم منها إلىٰ

قُبَاقِب، ثم منها إلىٰ كَوَائِل . قال فى "التعريف" : وهو اليَوْم عُطْل. ثم منها إلى الرَّحْبة وهى حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُس : فمن الغَسُولَةِ المتقدّمة الذِّكر [إلى القصب، ثم منها الى قَدَس][1] إلىٰ أقمار، ثم منها إلى الشَّعْراء، ثم منها إلىٰ عرقا، ثم منها إلىٰ طَرَابُلُس .

وأما طريق جَعْبَر وما يليها : فمن حِمْص المتقدِّمة الذِّكر إلىٰ سَلَمْيَة ، ثم منها إلىٰ بُغَيْدِيد، ثم منها إلىٰ سُورِيَا، ثم منها إلى الحص، ثم منها إلىٰ جَعْبر، إلىٰ عَيْنِ بذال، ثم منها إلىٰ صهلان، ثم منها إلى الخَابُور، ثم منها إلىٰ رَأْس عَيْن .

وأما طريق مصْياف : فمن حِمْص المُقَدّمة الذِّكر إلىٰ مِصْياف .

وأما طريقُ صَفَد : فمن دِمَشْق إلىٰ بريح الفلوس، ومنه إلىٰ أُرَيْنبة ، ومنها إلىٰ لغران، ومنها إلىٰ صَفَد .

وأما طريق بَيْروت : فمن دِمَشْق إلىٰ خَانِ ميسلون، ومنها إلىٰ زُبْدانَ، ومنها الى الحُصَيْن، ومنها إلىٰ بَيْرُوت .

وأما طريق صَيْداء : فمن دِمَشْق إلىٰ خان ميسلون المقدّم الذِّكْر ، إلىٰ جَزِيرَةِ صَيْداء، إلىٰ كَرَك نُوح ، ثم منه إلىٰ بَعْلَبَكَّ . قال فى "التعريف" : واعْلم أنّ من صَيْدَاءَ إلىٰ بَيْرُوتَ قَدْرُ مَرْكَز .

وأما بَعْلَبَكّ ، فلها طريقان : إحداهما من خَانِ ميسلون المقـدّمِ الذِّكرِ إلىٰ كَرَك نُوحٍ إلىٰ بعَلْبَكَّ . والثانيةُ من دِمَشْقَ إلى الزَّبَدَانِيِّ إلىٰ بَعْلَبَكَّ .

ومن أراد من بَعْلبكَّ حِمْص ، توجّه منها إلى القَصَب ، ثم إلى الغَسُولَة المتقدّمة الذِّكر، وبعدها شَمْسِين ، ثم حِمْص علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٩٤) .

وأما طريق الكَرَك : فمن دِمَشْق ـ فى المَرَاكز المذكورة فى الوُصُول من غَزَّة إلىٰ دِمَشْقَ ـ علىٰ عَكْس ما تقــدّم ، إلىٰ طفس ، ومنها إلى القنيــة ، ومنهـا إلى البُرْج الأَبْيض ، ومنهـا إلىٰ حُسْبَانَ ، ومنها إلىٰ [ديبـاج](١) ومنها إلىٰ [اكريه](١) ومنها إلى الكَرَك .

وأما طريق أَذْرِعاتٍ ، مَقَرِّ وِلَايةِ الوُلاة بالصَّفْقة القِبْلِيَّــة : فمن طفس المقدّمة الذِّكْر إلىٰ أَذْرِعات . قال فى "التعريف" : فهــذه جملة مَرَاكز دِمَشْق إلىٰ كل جِهَــةٍ .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كلّ واحدةٍ إلىٰ ما يليها ، حتىٰ يَتَوصَّلَ المسافرُ على البريد إلىٰ حَيْثُ أراد .

المقصـــد الرابع

(فى مركز حَلَب وما يتفرع عنه من المراكز الواصلة إلى البِيرَةِ وبَهَسْنىٰ وما يليهما ، وقَلْعةِ المسلمين المعروفة بقَلْعة الرُّوم ، وآيَاس مدينةِ الفُتُوحات الجَاهَانية ، وجَعْـبَرَ)

فأما الطريق المُوَصِّــلة إلى البِيرَةِ : فمن حَلَبَ إلى البَاب ، ثم منها إلى السَّاجُور ، ثم منها إلىٰ كلنـاس(٢) ، ثم منها إلى البِــيرَةِ ، وهى فى البَرِّ الشَّرقِيِّ من الفُرَات . قال فى "التعريف" : وهى أَجَلُّ ثُغورها(٣) .

---

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجل قلاع الاسلام ، وعقائل المعاقل التى لم تفترع على طول الأيام » فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بَهَسْنىٰ[(١)] وما يليها : فمن حَلَب إلى السموقة، ثم منها إلىٰ سندرا، [ثم منها إلىٰ بيت الفار][(٢)] ثم منها إلىٰ عَيْنتاب ، ثم منها إلىٰ بَهَسْنىٰ .

ثم منها يُدْخَلُ إلىٰ جهة قَيْسارِيَّة والبلادِ المعروفةِ الآن ببلاد الرُّوم وهى بلاد الدُّرُوب . قال فى "التعريف" : وقد آستَضَفْنا نحنُ (يعنى أهلَ هذه المملكةِ) فى هذا الحِينِ القريبِ إلينا منها : قَيْسارِيَّة ودَرَنْدَة ، وإنما المستقِرُّ المعروفُ أنَّ آخرَ حدِّ الممالك الإسلامية من هذه الجهَة ــ بَهَسْنىٰ .

وأما طريق قَلْعَة المسلمين وما يَليها : فمن عَيْنتابَ المقدَّمة الذِّكر إليها، وهى وَسط الفُرات ، وهو خُلْجانٌ دائرةٌ عليها . ثم من قلعة المسلمين إلىٰ جسر الحجر ، ثم إلى الكَخْتا، وهى آخر الحدِّ من الطَّرَف الآخر .

وأما طريق آياس : فمن حَلَبَ إلىٰ أرحاب، ثم منها إلىٰ تِيزِينَ، ثم منها إلىٰ يغْرا، ثم منها إلىٰ بَغْراس ، قال فى " التعريف " : وهى كانت آخِرَ الحدِّ مما يلى بلاد الأَرْمَن . قال : وقد آستَضَفْنا نحنُ فى هذا الحِينِ ما آستَضَفْنا، فصار من بَغْراس إلىٰ باياس، وهى أوّل جِبال الأَرْمَن ، ثم من باياس إلىٰ آياس .

وأما طريق جَعْبَر : فمن حَلَبَ إلى الجَبُّول، ثم منها إلىٰ بالِس، ثم منها إلىٰ جَعْبَر . قال فى "التعريف" : هذه جُمْلة مراكز حَلَب . أما بقايا القِلاع ومَقارُّ الولايات، فمن شُعَبِ هذه الطُّرُق، أو من واحدَةٍ إلىٰ أُخرىٰ .

---

(١) فى التعريف سنداره .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصـــــد الخـامس

(فى مَرْكَز طَرَابُلُس وما يتفرّعُ عنه من المراكز المُوَصِّلة إلى جِهاتها)

فأما طريق اللَّاذِقِيَّة : فمن طَرَابُلُس إلىٰ مَرْقية، ثم منها إلىٰ بِلِنْيَاس، ثم منها إلى اللَّاذِقِيَّـة ، ثم منها إلى صِهْيَوْنَ ، وهى قَلعـةٌ جَليلةٌ كانت دَارَ مُلْكٍ . ثم منهـا إلىٰ بَلَاطُنُس . قال فى "التعريف" : ومَن شاء فمن صِهْيَوْن إلىٰ بُرْزَيه ، وهو حِصْنٌ سُمِّيَ باسم من عَمَره أو عُرِف بِمُلْكِهِ ، ومن شاء فمن بَلَاطُنُس إلى العُلَيْقَة أوّلِ قلاع الدَّعْوةِ ممـا يلى بَلَاطُنُس، ثم منها إلى الكَهْف، ثم منها إلى القُدْمُوس، ثم منها إلى الخَوَابى ، ثم منها إلى الرُّصَافَة ، ثم منها إلىٰ مِصْياف . قال فى "التعريف" : فهذه جملة مَرَاكزِ طَرَابُلُس . فأما مَقَارُّ الولاياتِ فمن واحدةٍ إلىٰ أخرىٰ ، ثم ذَكَر جميع مراكز البَرِيدِ بالممـالك المحروسة .

قال : فأمَّا من أطراف مَمَالِكنا إلىٰ حَضْرة الأردو، حيث هو ملْكُ بَنِى هُولَاكُو، فلهم مراكز تسمَّى خَيْل الأولاق وخيل اليام يُحْمَل عليها، لا تُشْترى بمـال السلطان ولا يُكَلَّف ثمَنها ، وإنمـا هى علىٰ أَهْلِ تلك الأرض، نحو مَرَاكِز العَرَبِ فى رَمْل مِصْر ونحو ذلك .

المقصـــــد السـادس

(فى معرفة مَرَاحِلِ الحِجَاز الموصِّلةِ إلىٰ مـكَّة المُشَرَّفةِ والمَدِينة النَّبوِيَّة علىٰ سا كنها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام، إذْ كانتْ من تَتِمَّة الطُّرُق الموصِّلة إلىٰ بَعْض أقطار المملكة)

وكما ضُـبِطَتْ تلك بالمَرَاكز فقد ضُبِطَتْ هـذه بالمَرَاحِل . وعَادةُ الحُجَّـاج أنهم يَقْطعون فى كلِّ يومٍ وليْلةٍ منها مَرْحلتين بسَيْرِ الأَثْقال، ودَبِيبِ الأقدام، [ويَقْطعُونها

كلّها] فى شهر، بما فيه من أيّام الإقامة بالعَقَبة والينْبع نحو ستّة أيام . أما من يُسافر على النُّجُبِ مُخِفًّا مع الجدّ فى السَّيْر فإنه يَقْطعُها فى نحو أحَدَ عشر .

ثم أوّل مَصِيرهم من القاهرة إلى البِرْكة المعروفة ببِركَةِ الحاجّ، ثم منها إلى البُوَيْب، ثم منها إلى الطُّلَيْحاتِ، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلىٰ مراكع موسىٰ، ثم منها إلىٰ عجرود، وبها بِئْر ومَصْنَعُ ماءٍ مُتَّسعٌ يملأ منها . ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلىٰ وَادِي القِبَاب، وهو كثير الرَّمْل . ثم منها إلىٰ أوّل تيهِ بنى إسْرائيلَ، وهو وَادٍ أَفْيَحُ مُتَّسعٌ . ثم منها إلى العُنق، ثم منها إلىٰ نخِل، وبها ماء طَيِّب . ثم منها إلىٰ جَسَد الحىّ، ثم منها إلىٰ بِئْر بيدرا، ثم منها إلىٰ ثمد الحصا، ثم منها إلىٰ ظَهْر العَقَبة، ثم منها إلىٰ سَطْح العقَبة، وهو عُرْقُوب البَغْلة علىٰ جانب طَرَف بَحْر القُلْزُم، وفيها ماء طَيِّبٌ من حَفَائِر . ثم منها إلىٰ حَفْر علىٰ جانب طَرَف بحر القُلْزُم، وفيها ماء طَيِّب من الحفائر . ثم منها إلىٰ عُشّ الغُرَاب، ثم منها إلىٰ آخر الشرفة، ثم منها إلىٰ مَغَارةِ شُعَيْب، وبها ماءٌ ومَصْنَع . ثم منها إلىٰ وادى عفَّان، ثم منها إلىٰ ذَاتِ الرَّخِيم، ثم منها إلىٰ عُيُون القَصَب، وبه ماءٌ نابعٌ وأجَمَةُ قَصَبٍ نابِتَةٌ فيها . ثم منها إلى المُوَيْلِحَة، وبها ماءٌ فى آبار . ثم منها إلى المُدرّج، ثم منها إلىٰ سَلْمَى مُجَاوِرِ بَحْر القُلْزُم، وبها ماء مِلْح . ثم منها إلى الأثيلات، ثم منها إلى الأَزْنَم، والناسُ يقولون: الأَزْلَم باللام بدل النون، وبه آبارٌ بها ماءٌ رَدِىءٌ يُطْلِق بَطْنَ مَن شَربه، لا يسقىٰ منه غالبًا إلا الجِمَالُ، وهى نِصْفُ الطَّرِيق . ثم منها إلى رَأْس وَادِى عَنْتَر . ثم منها إلى الوَجْه، وبه آبارٌ قليلةُ المَاء، وما هو داخل الوَادِى يَعِزُّ المَاء فيه غالبًا ولا يُوجد فيه إلا حَفَائر، ويقال: إنه إذا طَلَعتِ الشَّمْسُ عليه نَضَبَ ماؤُه، وفيه يقولُ بعض من حَجَّ من الشعراء وعَزَّ عليه وُجُودُ المَاء فيه :

إذَا قَلَّ ماءُ "الوَجهِ" قَلَّ حَيَاؤُه، * وَلَا خَيْرَ فى "وَجْهٍ" بغيْرِ حَيَاءِ!

ثم منه إلى المَحَاطب، ثم منها إلىٰ أكرا ، ثم منها إلىٰ رَأْس القَاعِ الصَّغير، ثم منه إلىٰ قَبْر القروىّ ، ثم منــه إلىٰ كَلْخا ، ثم منها إلىٰ آخرِ القَاعِ الصَّــغير، ثم منه إلى الحَوْراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العُقَيْق بضم العين تَصْغيرَ عَقِيقٍ بفَتْحها ، وهو مَضِيقٌ صَعْبٌ . ثم منها إلىٰ مَغَارَة نبط ، وبها ماءٌ عَذْبٌ ليس بطريق الحجــاز أَطْيبُ منه . ثم منها إلىٰ وَادِى النُّور، ثم منها إلىٰ قَبْرِ أحمدَ الأَعرج الدَّلِيل، ثم منه إلىٰ آخرِ وادى النُّور، ثم منه إلىٰ رَأْس السَّبْع وَعْرات، ثم منها إلىٰ دَارِ البَقَر، ثم منها إلى اليَنْبُع ، وهى النِّصْف والرُّبُع من الطريق، وبها تَقَع الإقامةُ ثلاثةَ أيامٍ أو نحوها ، وبهــا يُودِعُ الحُجَّاجُ ما ثَقُل عليهم إلىٰ حِينِ العَوْدِ ، ويَسْتَمِيرُون منها ممــا يَصِلُ إليها من الديار المصرية فى سُفُنِ بَحْر القُلْزُم . ثم منها إلى المحاطب فى الوَعْر . ثم منها إلىٰ رَأْس وادى بَدْر، وهى منزلة حَسَنةٌ بها عُيُونٌ تجرى وحَدَائِق . ثم منها إلىٰ رَأْس قَاعِ البزوة، ثم منه إلىٰ وَسْط قَاعِ البزوة، ثم منه إلىٰ رَابِــغ ، وهو مقابل الجُحْفة التى هى مِيقَاتُ الإحْرام لأهل مِصْر ، وبها يُحْرِمُ الحُجَّاجُ ولا يَغْشَوْن الجُحْفَة ، إذ قد دَعَا النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم بنَقْل حُمَّى المدينة إليها بقوله : «وآنْقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَة» فلو مرّ بها طائرٌ لَحُمَّ . ثم منها إلىٰ قُدَيْدٍ بضم القاف . ثم منه إلى عَقَبة السَّوِيق، ثم منها إلىٰ خُلَيْص ، وبه مَصْــنع ماء . ثم منها إلىٰ عُسْفَان، ثم منها إلىٰ مدرّج عَلِىٍّ، وهو كثير الوَعْر. ثم منه إلىٰ بَطْنِ مَرٍّ، والعامة يقولون : مَرْو، بزيادة واو، وبه عُيُونٌ تجرى وحَدَائِق . ثم منه إلىٰ مَكَّة المُشَرفة شَرَّفها الله تعالىٰ وعَظَّمَها، ثم من مَكَّةَ إلىٰ مِنًى ، وبها ماءٌ طَيِّبٌ من آبار تُحْفَر، ثم منها إلى المَشْعَرِ الحَرامِ والمُزْدَلِفَة، ثم منها إلىٰ عَرَفَةَ وهى المَوْقفُ، وإليها يَنْتَهى سَفَرُ الحُجَّاج .

ثم العَود فى المَنَازِل المتقدّمة الذِّكْر إلىٰ وادى بَدْر علىٰ عَكْس ما تقدّم .

الطريق إلى المدينة النَّبَـــوِيَّة
(علىٰ ساكِنِها أفْضَـلُ الصلاة والســلام)

من مِصْر فى المَرَاحِلِ المتقدّمةِ الذّكْر ، إلىٰ وَادِى بَدْرٍ المُتَقَدِّمَةِ الذِّكْر، إلى رأس وَادِى الصَّفْراء ، وبه عيونٌ تَجْرِى وحَدَائِقُ وأشجارٌ . ثم منهـا إلىٰ وَادِى بَنِى سَالِمٍ، ثم منه إلىٰ وَادِى الغَزَالة، ثم منه إلى الفَرْش، ثم منه إلىٰ بِئْرِ عَلِيٍّ، وبها ماء طَيِّب . ثم منهـا إلى المَدِينَة الشريفة النَّبَوِية علىٰ ساكنها أفضـلُ الصلاة والسلام والتحية والاكرام .

ومن شَاءَ ذَهَب إليها من اليَنْبُع إلىٰ رأس نَقْب عَلِيٍّ عنـد طَرَف الجَبَل ، ثم إلىٰ وَادِى الصَّفْراء، ثم فى المَرَاحِل المتقدّمة الذّكْر إلى المَدِينَـة . وهى أقرب الطريقين للذَّاهِب من مِصْر، وتلك أَقْرَبُ للعائد من مَكَّة .

الباب الثانى

من الخاتِمة فى مَطارَاتِ الحَمَام الرَّسَائِلِىّ ، وذِكْرِ أبْراجِها المقَرَّرةِ بطُرُقِ الديار المصرية والبِلَاد الشَّامِيَّة ، وفيه فصلان

الفَصْــــل الأوّل

فى مَطَـارَاتِه

قد تَقَدّم فى الكلام علىٰ أوصاف الحَمَام ـ عند ذكر ما يُحْتاج إلىٰ وَصْفِه فى أواخر مَقَاصِد المكاتبات من المَقَالة الرَّابِعة ـ أَنَّ الحَمَام ٱسْمُ جِنْسٍ يقع علىٰ هَذا الحَمَام المُتَعارف بين الناس ، وعلى اليَمَام والدَّباسىّ والقَمَارِىّ والفَوَاخِت وغيرها ، وأنَّ المُتَبادَر إلىٰ فَهْم السامع عند ذكر الحَمَام هو هذا النَّوْع المَخْصوص ، وأن أَغْلاه قِيمةً وأعلاه رُتْبة الحَمَامُ الرسَائِلىُّ ، وهو الذى يَتَّخِذُه الملوكُ لحَمْلِ المكاتبات ، ويُعَبَّر عنه بـ«الهَدِى» . وتقدّم هناك الكلام علىٰ ذِكْرِ ألوانها على ٱختلافها ، وعَدَدِ الرِّيَاش المعتبرة فيها ، وهى رِيَاشُ أجْنِحَتِها وأَذْنابِها ، وبَيَانِ الفَرْق بين الذَّكَرِ والأنثىٰ ، وصِـفَةِ الطائر الفَارِهِ ، والفِرَاسةِ فى نَجَابَتِهِ فى حال صِغَرِه ، والزَّمانِ والمكانِ اللائقين بالإفْراخ ، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك ممـا يحتاج إليه الكاتب عند وَصْفِه لبيان النَّجِيبِ منه من غيره ، فأغنىٰ عن ذِكْرِه هنا .

والمختصُّ منه بهـذا المكان ذِكْرُ الاعتناء بهذا الحَمَـام ، وأَوَّلِ من ٱهتمَّ بشَأْنه ، واعْتَنىٰ بأمْرِه ، ومن قام به مِن الملوك ، ومَسَافات طَيَرانه ، وما يَجْرى هـذا المَجْـرىٰ .

فأما الاعتناء به والاهتمام بشأنه ـ فقد اعتنى به فى القديم خلفاء بنى العباس : كالمهدى ثالث خلفائهم، والناصر منهم . وتنافس فيه رؤساء الناس فى العراق لا سيما بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا فى اقتنائه، ولهجوا بذكره، وبالغوا فى أثمانه، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار . ثم قال : ويقال : إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال : وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا، وأنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام، والمنافسة فيه، والإخبار عنها، والوصف لأثرها، والنعت لمشهورها، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شيبة البكرانى قاضى مصر، (وكان فى فضله وعقله ودينه وورعه على مالم يكن عليه قاض) بحمامات لهم مع ثقات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه، ففعل . وكان الحمام عندهم متجرا من المتاجر، لا يرون بذلك بأسا .

وذكر المقر الشهابى بن فضل الله فى "التعريف" أن الحمام أول مانشأ بالديار المصرية والبلاد الشامية من الموصل، وأن أول من اعتنى به من الملوك [ونقله](١) من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكى صاحب الشام رحمه الله، فى سنة خمس وستين وخمسمائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وصنف فيه الفاضل محيى الدين بن عبد الظاهر كتابا سماه : "تمائم الحمائم" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف فى ذلك ـ أبو الحسن بن ملاعب الفوارس البغدادى، فصنف فيه كتابا للناصر لدين الله الخليفة العباسى ببغداد، وذكر فيه

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسمـاءَ أعْضاءِ الطّائرِ ورِيَاشِـه ، والوُشُوم التى تُوسَم فى كلِّ عُضْوٍ ، وألْوان الطُّيور وما يُسْتَحْسنُ من صفاتها ، وكيفيـة إفْراخها ، وبُعْد المَسَافات التى أرسلت فيها ، وذِكْر شيء من نَوَادِرِها وحِكَاياتها ، وما يَجْرِى هذا المجرى . وأظنُّ أنَّ كتابَ القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر نَتِيجَةٌ عن مُقَدِّمته .

وأما مَسَافاتُ طَيَرانه ، فقد تقدّم أن الطائرَ الذى بِيعَ بألْف دِينـارٍ طَارَ من القُسْطَنْطِينِيَّة إلى البَصْرة ، وأن الحَمَـام أُرْسِلَ من مِصْر إلى البَصْرةِ بحَضْرة القاضى بَكَّارٍ قاضى مصر .

وذكر ابن سَـعِيد فى كتابه "حَيَا المَحْـل وجَنَى النَّحْل" أنَّ العَزِيزَ ثانِىَ خُلَفـاءِ الفاطِميِّين بمصر ، ذَكَر لوَزِيرِه يَعْقوبَ بن كِلِّس أنه ما رأى القَرَاصِـيَةَ البَعْلَبَكِّيَةَ ، وأنه يُحِبُّ أن يراها . وكان بِدمَشْـق حَمَامٌ من مِصْرَ وبمِصْرَ حَمَـامٌ من دِمَشْقَ ، فكتب الوزيرُ لوَقْته بِطاقَةً يأمر فيها مَن هو تحت أَمْرِه بدِمَشْقَ أن يجمع ما بها من الحَمَام المِصْرىِّ ، ويعلِّقَ فى كلِّ طائرٍ حَبَّاتٍ من القَرَاصِـية البَعْلَبَكِّية ، ويُرْسلَها إلى مِصْر ، ففعـل ذلك ، فلم يَمْضِ النَّهارُ حتَّى حضرتْ تلك الحمائم بمـا عُلِّق عليها من القَرَاصِية ، فجمعه الوَزِيرُ يعقوبُ بن كِلِّس وطَلَع به إلى العَزِيزِ فى يَوْمِه ، فكان ذلك من أَغْرَبِ الغَرائِبِ لَدَيْه .

وذكر أيضًا فى كتابِه "المُغْرِب فى حلى المَغْرِب" أن الوَزِيرَ البازُورِىّ المَغْرِبِىّ ، وَزِيرَ المستنصر بالله الفاطمىّ وَجَّه الحَمَـام من تُونس من أفريقيـة من بلاد المغرب فجـاء إلى مِصْر ، والعُهْدة عليه فى ذلك .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثـانى من الخاتمة فى أبراج الحَمَـام المقرَّرةِ لإطَارتِها بالديار المِصْرية والبـــلاد الشَّاميَّـــة

وهى من القَوَاعد والطُّرُق، على ماتقدّم فى البريد .

أما فى المَسَافات فإنَّهـا تختلفُ، فإن مَطَاراتِ الحَمَـامِ رُبَّمـا زادت علىٰ مَرَا كِزِ السـبريد .

الأَبْراجُ الآخِذَة من قَلْعة الجَبَل المحروسة إلىٰ جهات الديار المصرية

قال فى "التعريف" : وٱعْلَم أن الحَمَـام قد ٱنقطع تَدْرِيجُه من مِصْر إلىٰ قُوص وأُسْوَانَ وعَيْذاب . وهـذا ظاهِرٌ فى أنَّ الحَمَـام كان يُدَرَّج إلىٰ هـذه الأَمَاكِن، ثم أُهمِلَ تَدْرِيجُه بعـد ذلك . قال : ولم يَبْق منـه الآن إلا ما هو من القَاهِرةِ إلى الإِسْكَنْدَرِيَّة ، ومن القاهرة إلىٰ دِمْيـاط، ومن القَاهِرة إلى السُّوَيْس من طريق الحَاجِّ، ومن القَاهِرة إلىٰ بُلْبَيْس متَّصِلًا بالشام .

قلتُ : وآهَلُ هـذه الأبراج كُلِّها بُرْجُ قَلْعةِ الجَبَل المحروسة، ومنهـا التَّدْريج إلىٰ سائر الجِهَات .

ثم لم يذكر فى "التعريف" : الأَبْرَاجَ الموَصِّلَةَ إلىٰ أسْوان وعَيْذابَ والإِسْكَنْدَرِيَّة ودِمْيـاط .

الأبراج الآخذة من قَلْعة الجَبَل إلىٰ غَزَّة

من بُرُوج قَلْعة الجَبَل — إلىٰ بُلْبَيْس، ثم منها إلى الصَّالِحِيَّة، ثم منها إلىٰ قَطْيا، ثم منها إلى الورَّادَة، ثم منها إلىٰ غَزَّة .

الأبراج الآخذة من غَزَّة ومايتفرّع عنها

اِعلم أن الأبراج من غَزَّة تتشعَّبُ فيها مَسارِحُ الحَمَام إلىٰ غيرجِهةِ دِمَشْق وإلىٰ جِهتها .

فأمَّا غيرجِهةِ دِمَشْق، فمن غَزَّةَ إلىٰ بَلَد الخَلِيل عليه السلام، ومن غَزَّة إلى القُدْسِ الشَّرِيف، ومن غَزَّة إلىٰ نَابُلُس .

وأما جِهةُ الشَّام : فمن غَزَّةَ إلىٰ لُدّ، ومن لُدَّ إلى قَاقُونَ، ومن قَاقُونَ إلىٰ جِينِينَ .

ومن جِينِينَ تَتَشعَّبُ المَسَارِحُ إلىٰ غيرجِهَةِ دِمَشْق وإلىٰ جِهتها .

فأمَّا ما إلىٰ غَيْرجِهَةِ دِمَشْق : فمن جِينِينَ إلىٰ صَفَدَ . وأمَّا ما إلىٰ جِهَةِ دِمَشْقَ : فمن جِينِينَ إلىٰ بَيْسانَ، ومن بَيْسَانَ إلىٰ أَرْبَدَ، ومن أَرْبَدَ إلىٰ طفْس، ومن طفْسٍ إلى الصَّنَمَيْن، ومن الصَّنَمين إلىٰ دِمَشْقَ .

قال فى "التعريف" : ومن كلِّ واحدٍ من هـذه المَرَاكز إلىٰ ما جَاوَر ذلك من المَشَاهِير : مِثْـل من بَيْسانَ إلىٰ أَذْرِعاتٍ مَقَرِّ ولاية الوُلاة بالصَّفْقةِ القِبْلِيَّـة، ومن طفْسٍ إليها ــ لإشعار وَإلى الولاة .

الأبراج الآخذة من دِمَشْق وما يتفرَّعُ عنها

تتشعَّبُ مَسارِحُ الحَمَام من دِمَشْق إلىٰ غيرجِهَةِ حَلَبَ، وإلىٰ جِهتها .

فأما إلىٰ غيرجِهَةِ حَلَب : فتُسَرَّح من دِمَشْقَ إلىٰ بَعْلَبَكَّ، ومن دِمَشْق إلى القَرْيتين .

وأما ما هو إلىٰ جِهَةِ حَلَب : فتُسَرَّح من دِمَشْق إلىٰ قارا[1]، ثم من قارا[1] إلىٰ حِمْص، ثم من حِمْص إلىٰ حَمَاة، ثم من حَمَاةَ إلى المَعَرَّة، ثم من المَعَرّةِ إلىٰ حَلَب .

---

(١) سماها فى معجم البلدان : قَارَة بالهاء .

الأبراج الاخذةُ من حَلَب وما يتفرّع عنها

بُرْجُ الحَمَام من حَلَب إلى البِيرَةِ ، ومن حَلَبَ إلىٰ قَلْعَـةِ المسلمين، ومن حَلَب إلىٰ بَهَسْنىٰ . قال فى "التعريف" : وإلىٰ بقيـة [ماله شأن] (١) ممّا حَوْلَها [ثم من القَرْيَتَين إلىٰ تَدْمُر، ومنها إلى السُّخْنَةِ، ومنها إلىٰ قُبَاقِب، ومنها إلى الرَّحْبة . وقد تعطّل الآن تَدْرِيجُ السُّخْنَةِ إلىٰ قُبَاقِب، وإنما صار يَسُوق ببَطَائِقِ تَدْمُرَ الواقِعة بالسُّخْنَةِ منهـا إلىٰ قُبَاقِبَ ، ثم يُسَرَّح على الجناح من قُباقِب إلى الرَّحْبَة] (١) . قال : وبمـا ذُكِرتَمَّ ذِكْرُ مراكِزِ الحَمَام فى سائرالممالك الإسلامية .

قلتُ : وقد تَعَطَّل تَدْرِيجُ الحَمَام الآنَ .

---

(٢) الزيادة من التعريف ليتمّ الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة فى ذِكْرِ هُجُنِ الثَّلْج والمَرَاكِبِ المُعَدَّة لحَمْلِ الثَّلْج الذى يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصريّة،

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأوّل

فى نَقْل الثَّلْج

اِعلم أنَّ ماءَ نِيلِ مِصْرِ لما كان من الحَلَاوة واللَّطافة علىٰ ما لا يُساوِيه فيه نَهْرٌ من الأنهار، علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه فى الكلام على الديار المصرية فى المقالة الثانية، مَعَ شِدَّةِ القَيْظ بها فى زَمَن الصيف، وسُخُونة الهواء الذى قد لا يَتأتّىٰ معه تَبْرِيدُ الماء، وكان الثَّلْج غيرَ موجودٍ بها، وكانت الملوكُ قد ٱعتادت الرَّفاهيَةَ مع ٱقْتِدارِها علىٰ تَحْصِيلِ الأشياء العَزِيزة، ووَلُوعِهِم بجَلْبها من الأماكِنِ البعيدة ــ إِكْمالًا لحال الرَّفاهِيَةِ، وإظهارًا لأُبَّهَةِ المُلْك ــ دَعَاهم كَمَالُ الرَّفاهِيَةِ والأُبَّهةِ إلىٰ جَلْبِ الثَّلْج من الشام إلىٰ مصر: لتَبْرِيدِ الماء به فى زَمَن الحَرّ. علىٰ أنَّ ذلك كان فى غيرهم من الملوك التى لا تَلْجَ بحاضرتهم.

وقد ذكر أبو هلالٍ العَسْكَرىُّ فى كتابه "الأوائل" أنَّ أوّلَ من حُمِلَ إليه الثَّلْجُ الحَجَّاج بن يُوسُف بالعِراق. ثم لاعتناء مُلوكِ مِصْر بالثَّلْج قَرَّروا له هُجُنًا تَحْمِله فى البَرِّ وسُفُنًا تحمله فى البَحْر، حتى يَصِلَ إلى القلعة المحروسة.

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثالث من الخاتمة فى المَرَاكِبِ المُعَدَّة لنَقْلِ الثَّلْج من الشام

قد ذكر فى "التعريف" أنها كانت فى أَيَّام المَلِك الظَّاهِر «بيبرس» تَغَمَّده الله برَحْمتِه ثَلاثُ مَرَاكِبَ فى السنة، لا تَزِيدُ علىٰ ذلك . قال : ودامتْ علىٰ أيَّام سُلْطاننا (يعنى المَلِكَ النَّاصِرَ «محمدَ بنَ قَلَاوُون») فى السَّلْطنة الثالثة، وبَقِيتْ صَدْرًا منها، ثم أخذت فى التزيُّد إلىٰ أن بلغتْ أحدَ عَشَر مَرْكبًا فى مملكتى الشـام وطَرَابُلُس، ورُبَّمـا زادت علىٰ ذلك . قال : وآخِرُ عَهْدِى بها من السَّبْعة إلى الثمـانية تُطْلَب من الشام ولا تُكَلَّف طَرَابُلُس إلا المساعدة، وكلُّ ذلك بحَسَب آختلاف الأوقاتِ ودَوَاعى الضرورات .

قال : والمَرَاكِبُ تأتى دمْيـاطَ فى البَحْر، ثم يخرج الثَّلْج فى النِّيلِ إلىٰ ساحل بولاق، فيُنْقَلُ منـه على البِغَال السلطانية، ويُحْمَل الى الشرابْخاناه الشريفة، علىٰ ما تقدّم ذكره .

وقد جَرَتِ العـادةُ أن المراكب إذا سُفِّرَتْ سُفِّر معها من يَتَدَرَّكُها من ثَلَّاجِينَ لمداراتها . ثم الوَاصِلون بها فى البَحْر يعودون على البريد فى البَرِّ .

الفصـــــل الثـالث

من الباب الثالث من الخاتمة فى الهُجْنِ المُعَدَّة لنَقْل ذلك

قد ذكر فى "التعريف" أنه ممـا حَدَث فى الدَّولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وآستمرَّ . وقد كان قبل ذلك لا يُحْمل إلا فى البَحْر خاصَّةً . ثم ذكر أن هذه المَرَاكِزَ من دمَشْقَ إلى الصَّنَمين، ثم منها إلىٰ بَانِيَاس، ثم منها إلىٰ أَرْبَد، ثم منها إلىٰ بَيْسَان،

ثم منها إلىٰ جِينِينَ ، ثم منها إلىٰ قَاقُون ، ثم منها إلىٰ لُدٍّ ، ثم منها إلىٰ غَزَّة ، ثم منها إلى العَرِيش ، ثم منها إلى الوَرَّادة ، ثم منها إلى المُطَيْلِب ، ثم منها إلىٰ قَطْيا ، ثم منها إلى القُصَيْر ، ثم منها إلى الصَّالِحِيَّة ، ثم منها إلىٰ بُلْبَيْس ، ثم منها إلىٰ القَلْعَة .

قال : والمُسْتَقِرّ فى كلِّ مَرْكَز ستُّ هُجُنٍ : خمسةٌ للأَحْمال ، وهَجِينٌ للهجَّان ، تكونُ كلُّ نَقْلةٍ خَمْسةَ أحمال . وهــذه الهُجْن من الشام إلى العَرِيش على المملكة الشَّامِيَّة ، خلَا جِينِينَ فإنها علىٰ صَفَد . ومن الوَرَّادةِ إلى القَلْعة هُجُنٌ من المَنَاخَاتِ السُّلْطانية ، والكُلْفة علىٰ مال مِصْر . ولا تَسْتَقِرُّ هذه الهُجْن بهذه المراكز إلا أَوَانَ حَمْل الثَّلْج ، وهى : حَزِيرَانُ وتَشْرِينُ الثانى . وعِدَّة نقلاته إحدىٰ وسبعون نَقْلة ، مُتَقارِبٌ مُدَد ما بينها ، ثم صار يَزِيدُ علىٰ ذلك . ويُجَهَّزُ مع كلِّ نقلة بَرِيدِىٌّ يتداركه ، ويُجَهَّزُ معه ثَلَّاجٌ خَبِير بحَمْلِه ومُدَاراتِه ، يُحْمل علىٰ فَرَسٍ ببَرِيدٍ ثَانٍ . قال : وٱستقرّ فى وَقْتٍ أن يُحمَلَ الثَّلَّاجُ علىٰ خَيْل الوِلَاية .

وٱعلَمْ أن الثَّلْجَ إذا وصــل على المَرَاكِب والهُجْنِ حتّى ٱنتهىٰ إلى القَلْعة ، خُزِنَ بالشرابخاناه السلطانية . قال فى "التعريف" : ومذ قرّر أن يُحْمَل من الثَّلْج على الظَّهْر ما يُحْمــل ، ٱسْتَقرَّ منه خاصُّ المَشْرُوب ، لأنه يَصِــلُ أَنْظَفَ وآمَنَ عَاقِبَةً ، علىٰ أن المُتَسفِّرِين يأخذون الحَــاشِى منــه بحضور أَمِير مَجْلس وشَادِّ الشَّرَابخَاناه الســلطانية وخُزَّانهــا . أما المَنْقول فى البَحْر فلمّــا عدا ذلك . قال : وللمُجَهِّزِين به من الخِلَــع ورُسُومِ الإِنْعام رُسُومٌ مُسْتقِرَّة ، وعَوَائِدُ مُسْتَمِرَّة .

قلتُ : وقد جَرَت العادة أنّ وَاصِلَ الثَّلْج فى كلِّ نَقْلةٍ فى البَرِّ والبَحْر تُكتَبُ به رَجْعةٌ من دِيوَانِ الإنشاء ، وهذا هو وَجْه تَعلُّقه بديوان الإِنْشاء .

الباب الرابـــع

من الخاتمة فى المَنَاوِر والمُحْرِقات ، وفيـــه فصلان

الفصـــــل الأوّل

فى المَنَـاوِر

قال فى "التعريف" وهى مَوَاضعُ رَفْع النَّارِ فى اللَّيلِ والدُّخان فى النَّهار .

وذلك أن مَمْلكةَ إيرَانَ لمَّا كانتْ بيَدِ هُولَاكُو من التَّتار، وكانتْ الحُرُوب بينهم وبين أهْلِ هذه المَمْلكَةِ، كان من جُمْلة آحتياط أَهْلِ هــذه المملكة أن جَعَلوا أماكِنَ مُرْتَفعةً من رُؤُوس الجبال تُوقَد فيها النَّارُ ليلًا و[يُثَارُ] الدُّخَانُ نهارا، للإعلام بحركَة التَّتار إذا قَصَدوا دُخولَ البلادِ لحَرْبٍ أو إغَارة . وهذه المَنَاوِر تارةً تكونُ علىٰ رُؤوس الجبال ، وتارةً تكون فى أَبْنِيَةٍ عالِيةٍ ، ومَواضعُها معروفةٌ تَعَرَّف بهـا أكْثَرُ السَّفَّارة، وهى من أقصَىٰ ثُغُور الإسلام كالبِيرَةِ والرَّحْبَة، وإلى حَضْرة السلطان بقَلْعَة الجَبَل، حتَّىٰ إنَّ المُتَجدِّدَ بالفُراتِ إن كان بُكْرةً عُلمَ به عِشَاءً ، وإن كان عِشَاءً عُلِمَ به بُكْرةً. ولِمَا يُرْفَع من هذه النِّيران ، أو يدخَّنُ من هــذا الدُّخَان أدِلَّةٌ يعرفُ بهـا آختلافُ حالات رُؤْيَةِ العَدُوِّ والمخبر به بآختلاف حَالَاتِها، تارةً فى العَدَد، وتارةً فى غير ذلك. وقد أُرْصِدَ فى كلِّ مَنورٍ الدَّيادِبُ والنَّظَّارة ، لرؤية ماوراءَهم وإيراء ما أَمَامَهم ، ولهم علىٰ ذلك جَوَامِكُ مُقَرَّرة كانت لا تزال دَارَّة . قال : وكان يُنَوِّرُ بمدينة عانَةَ من تلك المملكة قَوْمٌ من النُّصَّاح بحُجَّة أمرٍ سِوَى التَّنْوير، ويستر عليهم أهلُ البَلَد حُبًّا للملوكنا، فترىٰ [نَارُهُ أو دُخَانُه بخَرِبَة الرُّوم وبالحرف أيضًا، ويُرْفَعُ فيهما أو فى إحداهما فيرىٰ] (١)

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

من كلٍّ منهما بوادِى الهَيْكَل، ويُرفَع فيه فيُرىٰ [بالقَنَاطِر، ويُرْفع بالقناطر فيُرىٰ بالرَّحْبة وقاها الله ، ويُرْفع بهـا فيُرىٰ فى كَوَائِل ، ويُرْفع فيها فيُرىٰ فى مَنْظرة قُبَاقِب ، ويُرفع فيها فيُرىٰ فى حَفير أَسَدِ الدّين، ويُرْفع بهـا فُيرىٰ(١)] بالسُّخْنَة ، فيُرْفع فيها فيُرىٰ بمَنْظَرة أَرَكِ ، فيُرْفع فيها فيُرى بالبُوَيْب وهو قَنْطرةٌ [بين أَرَكِ(١)] وتَدْمُر ، فيُرفَع فيهـا فيُرىٰ بمَنْظَرة تَدْمُر ، فيرفع فيهـا فيُرىٰ بمَنْظَرة البَيْضَاء ، فيرفع فيها فيُرىٰ بالحَيْر ، فيرفع فيها فيرىٰ بجُلَيْجِل ، فيُرْفع فيها فيُرىٰ بالقَرْيَتَين ، فيرفع فيها فيرىٰ بالعطنة ، فيرفع فيها فيرىٰ بثَنِيَّة العُقَاب ، فيُرْفع فيها فيُرىٰ بمِئْذَنَة العَرُوس ، فيُرفع فيها لِمَـا حَوْلها ، إنْذارًا للرعايا وضَمًّا للأطراف ، فيُرْفع حَوْل دِمَشْق بالجَبَل المُطِلّ علىٰ بَرْزَة فيُرىٰ بالمـانع ، فيُرْفع به فيُرىٰ بتَلّ قَرْية الكتيبَة ، ثم يُرفع فيها فيُرىٰ بالطُّرَّة ، ثم يرفع فيرىٰ بجَبَل أَرْبَد وبجبَل عَجْلُون ، ثم يُرْفع بهما فيُرىٰ بجَبَـل طَيْبة آسم ، ثم يرفع بها فيُرىٰ بالمُنَوَّر المعمولِ بإزاء البِئْر الذى بِرَأْس الجَبَل المُنْحَدِر إلى بَيْسانَ المَعْروفِ بعَقَبة البَرِيد(٢) ، لا عُدُولَ بطريق البريد الآن عنه ، ويُرىٰ منه أطرافُ أعمالِ نَابُلُس [نحو جبال أبزيق وما حَوْلهـا ، ويُرْفع من هذا المُنَوَّر الذى برأس عَقَبة البَرِيد فيرىٰ بالجَبَل المعروف بقَرْية جِينِينَ ، ثم يُرفَع منه فيُرىٰ بجَبَل فَحْـمة ، ثم يُرفع منه فيُرىٰ بشُرْفة قَاقُونَ ، ثم يرفع منه فيرىٰ بأَطْراف أعمال نَابُلُس(١)] ويُرَىٰ علىٰ قَصْد الطريق بذِرْوة الجَبَل المُصاقِب لمجدل بابا ، فيرفع منه فيُرىٰ بمَرْكَز ياسور المَعْدول بالبريد الآن عنه ، ثم يُرْفع منـه فيُرىٰ بالجبال المطِلَّة علىٰ غزَّة ، فيرفع بغَزَّة علىٰ أَعَالِى الحَدَب المعروف بحَدَب غَزَّة ، ثم [لا مُنَوَّر و(١)] لا إخْبَـارَ بشَأْنِ التَّتار إلا على الجَنَاح والبَرِيد .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ — ٢٠١) .

(٢) الذى فى التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فتنبه .

قال : ثم اعْلم أن جَمِيعَ ما ذكرناه مَناوِرُ تتشعَّب إلىٰ ما خَرَج عن جادَّة الطريق إلى البلاد الآخذة علىٰ جَنْبٍ جنوبًا وشمالا ، شرقًا وغربًا . أما منذُ أصلح الله بين الفئتين، وأمَّنَ جانبَ الجهتين، فقد قلَّ بذلك الاحتفال، وصُرِف عن البال. وهذه المناور رُسُومٌ قد عفَتْ ، وجُسُومٌ [أكلت شُعُلُ النَّارِ أرواحَها][1] فانطفت .

علىٰ أنه قد نَصَّ في "التعريف" علىٰ مَنَاوِر طريقِ البِيرَة، ومناور طريق الرَّحْبَة، وهما من نَفْس المملكة .

قلتُ : وهذه المَناوِر مأخوذةٌ عن مُلوك الهِنْد . فقد رأيتُ في بعض الكُتُب أنَّ ببلادهم مَنَاوِرَ علىٰ جِبالٍ مرتفعةٍ، تُرى النَّارُ فيها علىٰ بُعْدٍ أكثر من هذه .

علىٰ أن مُرَتِّبها بهذه المملكة أوّلًا أتىٰ بحِكْمةٍ مُلُوكيَّة لا تُساوَىٰ مِقْدارا، إذ قد ترقّىٰ في سُرْعة بُلُوغ الأخبار إلى الغاية القُصْوىٰ . وذلك أن البَريدَ يأتي من سُرْعة الخبر بما لم يأتِ به غيرُه، والحَمَامَ يأتي من الخبَرِ بما هو أسرعُ في البريد، والمَنَاوِرَ تأتي من الخَبَرِ بما هو أسرع من الحَمَام . وناهِيكَ أن يَظْهر عُنْوانُ الخبَر في الفُرات بمصر في مَسَافة يَوْمٍ ولَيْلة .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

الفصـــل الثـانى

من الباب الرابع من الخاتمة فى المُحْرِقَات

قال فى "التعريف": وهى مَوَاضِعُ ممَّا يلى بِلادَنا من حَدِّ الشَّرق داخلةٌ فى تلك المَمْلَكة (يعنى مملكةَ بنِى هُولاكُو من التَّتار) يُجَهَّز إليها رجالٌ فتُحْرِقُ زَرْعَها، كأرض البُقْعة والثَّرْثار والقِينة، وباشزة، والهَتَّاخ، ومَشْهد ابن عُمَر، والمُوَيْلِح، وبلادِ نِينَوَى من بَرِّ الموصل التى يقال، إن يُونُس عليه السلام بُعِث إلى أهْلِها، والوَادِى، والمَيْدان، والبَاب، والصَّومَعة، والمَرْج المعروفِ ببَنِى زَيْد، والمَرْج المُحْتَرِق، ومنازل الأويراتية، وهى أطراف هذه المواضع إلى جَبَل الأكراد. وبِلَاد سِنْجَار ـ المنطق والمَنْظَرة والمَزْيدة، وتحتَ الجبال عند التُّليلات، وكذلك التارات، وأعالى جَبَل سنْجار وما والى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التَّتر أنّهم لا يكلفون عُلُوفَةً لخيلهم بل يَكِلُونها إلى ماتُنْبِتُ الأرضُ، فإذا كانت تلك الأرْضُ مُخْصِبَةً سَلَكُوها، وإذا كانت مُجْدِبَةً تَجَنَّبُوها، وكانت أرضُ هذه البلاد المتقدّمة الذِّكْر أرضًا مُخْصِبَةً، تقومُ بكفايةِ خَيْلِ القَوْمِ إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحْرَقُوا زَرْعها ونَبَاتَها ضَعُفُوا عن قَصْدِ بلادنا وحصل بذلك جميعُ الرِّفْقِ، والدَّفْعُ عن مباغَتَة الأطراف ومُهاجَمة الثُّغور.

وكان طَرِيقُهم فى إحراقها أن يُجَهِّزوا إليهم الرجالَ ومعهم الثَّعالِبُ الوَحْشِيَّة وكلابُ الصَّيْد، فيَكْمُنون عند أُمَناءِ النُّصَّاح فى كُهُوف الجبال وبُطُون الأَوْدِيَة، ويَرتَقِبُون يومًا تكون رِيحُه عاصفةً وهَواؤُه زَعْزَع، تُعلَّق النارُ مُوثَقةً فى أذْنَاب تلك الثعالب والكلاب، ثم تُطْلَق الثَّعالِبُ، والكِلابُ فى أثَرِها وقد جُوِّعت، لتجدّ

الثعالبُ فى العَدْوِ ، والكِلابُ فى الطَّلَبِ ، فتُحْرِقُ ما مَرَّتْ به من الزَّرْعِ والنَّبات ، وتُعْلِقُ الريحُ النارَ منه فيما جاوَرَه ، مع ما يُلْقيه الرَّجَّالةُ بأيديهم فى اللَّيالى المُظْلِمه ، وعِشاء الأيام المُعْتِمه . وكان يُنْفَق فى نَظِير هذا الإحراقِ من خزانة دِمَشْق جُمَلٌ من الأموال .
قال : وكان الاهتمامُ بذلك فى أوّل الأمرِ قبل أن يَفْطُنوا بقَصْد التَّحْرِيق ، ثم نَبَّهَهم على ذلك أهْلُ المُدَاجَاة ، فصاروا يَرْبطون عليها الطُّرُق ، ويُمْسِكُون منها بالأطراف ؛ وقُتِلَ عَدِيدٌ من الرجال بسَبَبِها ، وأَحْرَقُوهم بأشَدَّ من نَارِها .

وذَكَرَ أنَّ ممــا كان يُجْتَنَب تَحْرِيقُه ــ أرضَ الجِبَال ، من حيثُ إنها بِلادُ بَقِيَّـــة السَّلَفِ الصالح من ذُرِّيَّة شيخِ الإسلام الإمامِ الكبيرِ العارفِ بالله «عَبْدِ القَادِرِ الجِيلِيّ» المعروف بالكِيلَانِيِّ ، نفع الله تعالى ببركاته ، لتَعْظِيمِهم من الجهتين ، مع مالَهم عنـد مُلُوكنا من المكانة العَلِيَّة : لقَدِيم سَلَفِهم ، وصَمِيم شَرَفِهم ، ولِمَـا للإسلام وأهْلِه من إسْعافهم بمـا تَصِلُ إليه القُدْرةُ ويَبْلُغه الإمْكان .

قلتُ : وبتَمام القَوْل فى هذا الطَّرَف قد تَمَّ ما كنتُ أُحَاوِلُه من التأليف ، وأَهْتَمُّ به من الجَمْع ؛ وبالله التَّوفيق ، وإليه الرَّغْبة ؛ وهو حسبِي ونِعْم الوَكِيل .

واعْلَم أن المصنَّفاتِ تَتفاوَتُ فى الحُظُوظ إقْبَـالًا وإدْبارا : فمن مَرْغُوبٍ فيه ، ومَرْغُوبٍ عنه ، ومُتَوسِّط بين ذلك . على أنه قلَّ أن يَنْفُق تَـأْلِيفٌ فى حياة مُؤَلِّفه ، أو يَرُوجَ تَصْنِيفٌ على القُرْب من زَمانِ مُصَنِّفه .

قال المَسْعُوديُّ فى كتابه "التَّنْبِيه والإشراف" وقد تَشْتَرِكُ الخَواطِر ، وتَتَّفِقُ الضمائر ؛ ورُبَّمـا كان الآخِرُ أحْسَنَ تأليفا ، وأمْتَنَ تَصْنِيفا ؛ لحِكْمة التَّجارِب ، وخَشْيةِ التَّتَبُّع ، والاحتراسِ من مَوَانِـع المَضَارِّ . ومن هاهُنا صارتْ العلومُ نامِيـةً ، غيرَ مُتَنَاهِيَـة ، لوجود الآخِرِ ما لا يَجِـدُه الأوَّلُ ، وذلك إلى غير غَايَةٍ مَحْصُورة ، ولا نِهايَة مَحْـدُودة .

علىٰ أنَّ من شِيَم كَثِيرٍ من الناس إطْراءَ المُتَقَدِّمين، وتَعْظِيمَ كُتُبِ السَّالِفين؛ ومَدْحَ المَاضِى، وذَمَّ البَاقِى؛ وإن كان فى كُتُبِ المُحْدَثِينَ ما هو أعظم فائده، وأكْثَر عائدَه.

ثم حَكَى عن الجَاحِظ - علىٰ جلالة قَدْرِه - أنه قال: كُنْتُ أُؤَلِّف الكتابَ الكَثِيرَ المَعَانى، الحَسَنَ النَّظْمِ، وأَنْسُبُه إلىٰ نَفْسِى، فلا أَرَى الأَسْمَاعَ تُصْغِى إليه، ولا الإرادات تَتَيَمَّم نَحْوَه، ثم أُؤَلِّف ماهو أنْقَصُ منه رُتْبَةً، وأَقَل فائدةً، وأَنْحَلُه عَبْد الله بنَ المُقَفَّع، أو سَهْلَ بنَ هٰرُونَ، أو غيرَهما من المُتَقَدِّمين، مِمَّنْ صارت أسماؤهم فى المُصَنِّفِين، فيُقْبِلُون علىٰ كَتْبِها، ويُسارِعُون إلىٰ نَسْخِها، لا لِشَىْءٍ إلا لنِسْبَتِها للتقدّمين، ولِمَا يُداخِلُ أهلَ هذا العَصْر من حَسَدِ مَن هو فى عَصْرِهم، ومُنافَسَتِه على المَنَاقِب التى عُنِىَ بتَشْيِيدِها.

قال: وهذه طائِفَةٌ لا يَعْبَأُ بها كِبَارُ الناس، وإنَّما العَمَلُ على أَهْلِ النَّظَر والتَّأَمُّلِ الذين أَعْطَوْا كلَّ شَىْءٍ حَقَّه من القَوْل، ووَفَّوْه قِسْطَه من الحَقِّ؛ فلم يَرْفَعُوا المتقدِّمَ إذا كان نَاقِصًا، ولم يُنْقِصُوا المتَأَخِّرَ إذا كان زَائِدًا؛ فلِمِثْلِ هٰؤلاء تُصَنَّفُ العُلُوم، وتُدَوَّن الكُتُب.

وإذا كان هذا نَقْلَ المَسْعُودِىّ عن الجَاحِظ الذى هو رَأْسُ المُصَنِّفين، وعَيْنُ أَعْيانِهم، فَمَا ظَنُّكَ بغَيْرِه؟ .

لٰكِنِّى أَحْمَدُ اللهَ تعالىٰ علىٰ رَوَاجِ سُوقِ تَأْلِيفِى، ونَفَاقِ سِلْعَتِه، والمُسارَعَة إلى اسْتِكْتَابِه قبل ٱنْقِضاء تَأْلِيفه، حتَّىٰ إنَّ قَلَمَى التَّأليف والنَّسْخ يَتَسابَقان فى مَيْدان الطِّرْس إلىٰ ٱكْتِتابِه، ومُرْتَقِبَ نَجازِه للاستنساخ يُساهِمُهما فى ٱرْتِقابِه. فَضْلًا من الله ونِعْمَة، ﴿ذٰلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ .

قال المُؤلِّف : نَجَزَتْ تأليفَه فى اليَوْمِ المُبَارك ، يَوْمِ الجُمعة الثامنِ والعِشرين من شَهْر شوّال، سنة أربعَ عَشْرة وثَمانِمائةٍ .

ونُجِّزَتْ هذه النسخة فى يوم السبت المبارك التّاسِع والعشرين من شَهْر صَفَر الخير، سنة تسعٍ وثمانين وثمانمائة .

فَرَغ منه كِتابَةً وسِتَّةٍ قَبلَه ، فقيرُ رَحْمة ربه الغَنِيّ الفاتح ، عَبْدُ الرَّزاق بنُ عَبْد المُؤْمن آبن محمد الناسخ الشّافعىّ ، نَزِيلُ الصّالحيّة النَّجْمِيّة المعروفةِ بالسَّادةِ الحَنَابِلَة ، بخطِّ بين القَصْرَيْن : غَفَر الله ذُنُوبه ، وسَتَر عيُوبَه ، وخَتَم له وللمسلمين بخَيْر ، آمين

وحَسْبُنا اللهُ ونِعْم الوَكِيل ، وصلّى الله علىٰ سيدِنا محمدٍ خاتَمِ الأنبياء
وسَيِّد المرسلين ، وعلىٰ آله وصَحْبه أجمعين : سُبْحان رَبِّكَ
رَبِّ العِزَّة عمّا يَصِفُون وسَلَامٌ على المُرْسلين
والحَمْدُ لله رَبّ العَالَمين

(المطبعة الاميرية ١٦٩٤/١٩١٨/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجـــــزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى



صفحة

المقـالة العـاشـــرة

صفحة

الخاتمة

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمة

فى التعريف بكتاب صبح الأعشىٰ

وترجمة مؤلفه

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربىّ بالقسم الأدبىّ

بالمطبعة الأميرية

كلمة

فى التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

نَحْمَدُ الله تعالى على ما مَنَح من الإعانة ووَهَب من التَّيْسِير، ونَشْكُره على ما أَوْلَى من التَّوْفِيق فهو نِعْم المَوْلَى ونِعْم النَّصِير، ونُصلّى ونُسَلّم على سيدنا محمد صُبْح الهِدايَة وشِهابِها السَّاطع، وعلى آله وأصحابه النُّجُومِ الثَّوابتِ والبُدُورِ الطَّوالع.

وبعدُ، فإنَّ الأُمَم بآثارها، والشُّعُوبَ بسِيَرِها وأَخْبارِها؛ ومن أَعْظَم الآثار قِيمَه، وأغْزَرِها دِيمَه، ما تُعرف بواسطته نَتائج أفكارِ القادَةِ العُلَماء، وتَتَبيَّن به قرائحُ الجَهابِذَة الحُكَماء.

ولم تَزَل الأُمَم الرَّاقيةُ فى سَالِف الدُّهور وإلى وَقْتِنا الحاضِر تُعْنَى بشَأْن علمائها: على اختِلاف مَذَاهِبِهم، وتبايُنِ مَشَارِبهم؛ وتحلُّهم من الكرامة والإجلال أَعلى الدَّرَجات، وتَرْجِعُ فى أمر معَاشِها ومَعَادِها إلى آرائهم السَّديده، وأفكارِهم الرَّشِيدَه؛ وتَعمل بكُلِّ جُهْدِها فى إنشاء دُورِ الكُتُب وتَشْييدها، والمُبالَغة فى تَنْسيقها وتَرْتِيبها: لتَحْفَظ فيها دَفَاتِرهم وطَوامِيرَهم التى أودعوها ثَمَرة أفْكَارِهم، ونَتِيجَةَ بحوثِهم.

ولقد أخَذَتْ مِصرُنا العَزِيزَة فى صَدْرِ الإسلام تُسابِقُ «البَصْرة والكُوفَة» فى هذا المَيْدان العظيم، مَيْدانِ التَّقَدُّمِ والارْتقاء.

وسارَتْ من بَعْدهما تُنَاهِضُ « بَغْـدادَ » دَارَ السلام، ومَرْكَز الخلافة العبَّاسيَّة وكَعْبةَ العالَم، وقِبْلةَ الآدابِ ـ مع ما كان يَبْذُله الخُلَفاء لعُلَمائها من أنواع التُّحَف، ويُفْرِغُونه عليهم من بَدْرِ الأموال : حُبًّا فى نَشْرِ العِلْم وبُلُوغِه إلى دَرَجة الكَمَال .

ولم تَكُنْ فى ذٰلك أقلَّ حَظًّا من الأَنْدَلُس : جَنَّة العالَم وزينَةِ الدُّنْيا، حتَّىٰ فى أعْظَم عُصُورِها الذَّهَبِيَّة المَمْلُوءَة بالمَعَالِى والمَفَاخِر، يوم كانَتْ تَنْشُر على العالَم أَلْوِيَةَ الحَضَارة، وتَتْلو عليه آياتٍ بَيِّناتٍ من الهُدَىٰ والفُرْقان .



وفَتَحتْ مِصْر ذِراعَيْها : مُرَحِّبَةً بكلِّ وَافِدٍ عليها من أَهْلِ العِلْم والأَدَب، خُصُوصًا بعدَ أن طَوَحتْ يَدُ الرَّدىٰ بمُدُن العِراق وحَواضِر الأَنْدَلُس، ودَارَتْ عليها الدَّوائِر، وذَهَب كلُّ ما كان لها من آثارِ العِلْم وأَعْمالِ المَجْد والحَضارة . فوَفَد عُلَماؤُها على هذا البَلَد الأَمِينِ ووَجَدُوا فيه ضَالَّتَهم المَنْشُودَة وأُمْنِيَّتَهم الكُبْرىٰ .

فأصبحَتْ مَيْدَانًا واسِعًا يَتَسابَقُ فيه طُلَّابُ العُلُوم والمَعَارِف، ومَوْرِدًا عَذْبًا يَزْدَحِم عليه عُشَّاق الآدَاب ومُحِبُّو الحِكْمة، وجَنَّةً زاهِيَةً بأكابِرِ العُلَماءِ ونَوابِغِ الحُكَماء .

وأَصْبح مُلُوكُها وأُمَراؤُها يَنْظُرون إلى العِلْم والعُلَماءِ بعَيْنٍ مِلْؤُها الإعْظامُ والإجْلال، وأخَذُوا يساعِدُونهم، ويُبالِغُون فى إكْرامِهم وإدْرارِ النِّعَم عليهم، ويُشَجِّعُونهم على الإكثار من التَّأْلِيفِ والتَّصْنِيف فى العُلُوم المختلفة . وصَارُوا لا يُؤَسِّسُون مَسْجِدًا للصَّلاة، ولا يَبْنُون مَدْرسةً أو مَعْهَدًا من معاهِد العِلْم إلا ويُشَيِّدُون فى دَاخِله خِزَانةَ كُتُبٍ جامِعَةً، يُودِعُونها الكَثِيرَ من نَفَائس الأسْفَار والمُصَنَّفات فى كلِّ فَنٍّ ومَطْلَب : مَيْلًا منهم إلى نَشْر المعارف، ورَغْبةً فى تَخْلِيد الذِّكْر وجَمِيل الأَثَر .

وقد كان لخُلَفائِها الفاطِميِّينَ خِزانةُ كُتُبٍ كُبرىٰ ، كانتْ من أجَلِّ الخزائِن وأعْظَمِها شأْناً عندهم ، وأكْثَرِها جَمْعًا للكتب النَّفيسة من جميع العلوم والفُنُون .

يقال : إنَّه لم يكنْ فى جميع بِلادِ الإسلام دارُ كتبٍ أعْظَم من التى كانتْ بالقَاهِرَة فى قَصْرِ الخُلَفاء الفاطميين .

* * *

ولم تَزَل الأمَّةُ المِصْريَّة الكَرِيمةُ سائرة على هـذا المَنْهَج القَوِيم : تَرِدُ مَناهِلَ العِلْمِ العَذْبة ، وتَتَغذَّىٰ بِأَلْبانِه الطَّيِّبةِ ــ حتَّىٰ أصابها ما أصابَ غيرَها من الأُمَمِ الإسْلامية ، فتَفَرّقَتْ شِيَعًا وأحزابًا ، وآنصرفَتْ عن الشُّؤُونِ العامّةِ ، وصار كلُّ واحدٍ لا هيًّا بذاته لا يشعر إلا بنفسه التى بين جَنْبَيه .

فقلَّ الآحْتِفالُ بالعِلْمِ وأَهْـلِه ، وأُهْمِلتِ العِنَاية بدُورِ الكُتُب وخَزَائِنِ الأسفار على كَثْرتها ، وآمْتـدَّتْ إليها يَدُ الخِيـانة تَعْبثُ بنَفائسِها أنَّىٰ شاءتْ بدُونِ مُحاسِبٍ أو رَقِيبٍ . وآسْتولَى المغِيرون على الديار المِصرية على أنْفَس ما كان مُودَعًا فيها من الكُتُبِ والآثارِ ، ونَقَلوا منه إلىٰ بلادهم ومَمـالِكهم ماشاء الله أن يَنْقُلوا .

وهَاهِى اليوم تُنادِى أهـلَ مِصْرِ من وراءِ البِحارِ ، وتُناجِيهم بمـا كان لسَـلَفِهم الناهِضِ من آثار العَمَل ودلائِل النُّبُوغ .

وما بَقِى فى تلك الدُّور والخَزائِن ، مما زَهِدتْ فيه نُفُوس الطَّامِعين ــ صار رَهْنًا عليها ، لاتقع عليه الأبصار ، ولا يمرُّ بفكر : كأنَّه كَنْزٌ مَدْفونٌ لم يُهْتَدَ إليه بعدُ ، أو سَجِينٌ حُكم عليه بالسِّجْن الأبَدىِّ لا يَجِدُ لنفسه خَلَاصا .

تلك كانتْ حالةُ مِصْر حِيناً من الدَّهْر كادت تَذْهَبُ بكلِّ ما بَنىٰ أهْلُها فى الزَّمن السَّابقِ من مَجْـدٍ وأَسَّسُوا من قُوَّة ـ لَوْلا أنَّ اللهَ تعالى أرادَ بها خيراً ، فجلسَ علىٰ أَرِيكَتِها ذلك المُصْلِح الكَبير، والعِصامِيُّ الشَّهير، مُؤسِّسُ «مِصْر الحديثة» ساكِنُ الجنان "محمد على باشا" رأسُ العَائلة العَلَوِيَّة الكَرِيمة .

فانَّه — نَوَّر اللهُ ضَرِيحَه — أعاد لهـذه الأمةِ سَالِف مَجْدِها، ونَبَّه الأفْكَار بعد طُول رُقادِها ، ونَشَر العُلومَ والمَعَارِفَ بين أبْنَائِها، وأرْسَلَ البِعْثاتِ العِلْمِيَّة إلىٰ أَشْهر الجَامِعاتِ بأورُوبَّا : ليَتعلَّموا أساليبَ التَّعليم الحَديثَة، ويعودوا إلىٰ مصر بفُنُونٍ من التَّرْبِيةِ والتَّهْذيب تدعو اليها سُنَّة التقدّم والارْتقاء .

وقَرَّب إليه العُلَمَاءَ والأدَباء ، وشَجَّعهم على التَّأْليفِ والتَّصْنِيف . ووَصَل اللَّيلَ بالنَّهار فى سَبِيل إنهاضِها وإسْعادِها، وأَسَّس المَدَارِسَ، وشاد دور الصناعات والمعامل فى حواضر هذا القطر السعيد .

وأنْشأَ "المطبعة الأميرية الكبرى" ، وجَهَّزها بكلِّ ما يَلْزم لها من الآلات والعُدَد ، حتَّىٰ صارتْ من أرْقىٰ دُورِ الطِّباعة فى الشَّرْق ، واخْتار لها نَوابِغَ العُلماءِ وأساطين الكُتَّاب : ليقوموا بتَصْحِيح ما يُطْبع فيها . وإليها يَرْجع الفَضْل الأكبر فى تَقْوِيةِ النَّهْضَة العِلْمية فى مِصْر وغيرِها من البِلاد ، ونَشْر العلوم والآداب العَرَبِيَّة فى جميع أَنْحاءِ العالَم .

⁂

وجاء من بَعْدِه حفيدُه أبو الأَشْبالِ، المَغْفورُ له "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دَارَ الكُتُب" بالقاهرة، وجَمَع فيها ما بَقِيَ من الكُتُب في خَزائِنِها المُتَفَرِّقة في الدُّورِ والمَسَاجِد . وأَخَذ الأمراءُ وغيرُهم من كِبَارِ الأَمَّة يَتَبَرَّعون لها بما في دُورِ كتبِهم وخَزائِنِها من نفائس المصنفات .

واهْتَمَّ بها بعدَه وَلَدُه طَيِّب الذِّكْر "محمد توفيق باشا" خديو مِصْر فوَقَف عليها ألفًا وثَمانَمِائَة فَدَّانٍ من أَجْوَد أَرَاضِي القُطْر الزِّراعِيَّة ، وجَعَلها إدَارةً مُسْتَقِلَّةً بعد أَنْ كانتْ عالةً على إدارة المَكَاتِب، يُنْفِق عليها من الأوقاف المُحَبَّسَةِ عليها .

وامتلأتْ خَزَائِنها بنَفَائِس الأَسفار وجَلائِل المُؤَلَّفاتِ، من مِصر وغيرها من سائر الممالك، بما كان يُنْفَق عن سَعَةٍ وكَرَمِ نَفْسٍ في سَبِيل الحُصُول عليها .

وبها مَعْرِضٌ كَبِير حَوَى كثيرًا من المصاحف الشريفة والآثار النَّفيسة، والمُؤَلَّفات القَديمَةِ، والمَخْطُوطات العَرَبِيَّة والنُّقود القديمة في كلِّ دولةٍ من الدُّول الإسْلامية .

وهي على أَهْل هذا القُطْرِ السَّعيد حَسَنَةٌ من أعظم الحَسَنات، وأثرٌ خالدٌ من الآثار الباقيات، ولها على العِلْم وأَهْلِه الأيادي التي لا تُنْكَر، والمَفَاخِر التي تُذْكَر فتُشْكَر، فقد أَعَدَّت للمتردِّدين إليها قاعةً كُبْرى للمُطالَعة، وجَهَّزَتها بكلِّ ما يلزم لراحَتِهم وتَسْهِيل أَعْمالِهم ـ فأقبل عليها الطُّلَّاب والعُلَماء، والكُتَّاب والشُّعَراء، والمُنَجِّمون والحُكَماء وغيرهم : يَرِدون نميرها، ويُوَلُّون وُجُوهَهم شَطْرَها : على اخْتِلاف لُغَاتِهم، وتَبايُنِ أَجْناسهم وطَبَقاتِهم .

ولما أشرفَ عليها حضرةُ صاحِبِ السعادة "أحمد حشمت باشا" وزيرُ المَعَارف الأَسْبق وَجَّه — حفظه الله — عِنَايَتَه إلى تَنْظِيمها تَنْظِيما يَكْفُل لَها التَّقَدُّمَ فى طريقِ الإصلاح اللَّائقِ بمَكَانَتِها : لتَأْتِيَ بالثَّمَرَة المَطْلُوبة منها ، وتَقُوم بالخِدْمةِ الواجبةِ عليها : وذلك بنَشْرِ العلومِ والمَعَارِف بين طَبَقَاتِ الأُمَّة ، وطَبْعِ الآدابِ العَرَبِيَّة وإذَاعَتِها بين أَبْنائها .

فٱختار طائفة مما فيها من نَفَائس الأَسْفارِ ونَوادرِ المُؤَلَّفات ، وخُصُوصًا المُؤَلَّفات المِصْرِيَّة ، وأَمَرَ بأن تُطْبَع فى «القِسْم الأَدَبِيّ» بالمَطْبعة الأَميرِيَّة ، فتُشْرِق أنوارها على طلّاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قَرُب ومن بَعُد ؛ ضَنًّا بها أن تَبْقَى مَقْصُورةً على قاعات المطالعة وغُرَفِها ، لا ينتفع بها غيرُ فَرِيقٍ من المقيمين فى مدينةِ القاهرة .

فكانَ أجل كِتَابٍ ظهر من هذه الكُتُب فى سماء الآداب العَرَبِيَّة ، كِتَابُ :

"صبح الأعشى فى كتابة الإنشا"

(للقلقشندىّ)

———

التعريف بهذا الكتاب

مَهْما أطَالَ الكَاتِب فى وَصْفِ هـذا الكتاب ، وَجَوّد فِـكْره ، وأَجْهَدَ قلمـه فى التَّعْرِيف به وبقِيمَتِه العِلْمِيَّة والأَدَبِيَّـة ــ فانه لا يبلغُ تَعْدادَ ما أُودِعَ فيـه من الفَوائِد ، وٱنْطَوىٰ تَحْته من الدَّقائِق .

فهو كتابٌ جَلِيلُ القَـدْر ، عَظِيم النَّفْع ، كَبِير الفائِدَة ، لم يُنْسَجْ علىٰ منْوالِه فى عَالَم التَّألِيف فى فُنُون الأدَبِ والكتَابة . ولا نُعَدُّ مُبالِغين إذا قُلْنـا : إنه أنفسُ كِتَابٍ أُلِّفَ فى اللُّغةِ العَرَبِيَّة وتاريخ آدابِها .

كِتَابٌ بين لنا فيه القَلْقَشَنْدِيُّ مُؤَلِّفُه ــ رحمه الله ــ حالَةَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة الشَّرِيفَة ، وكَيْفَ كانت فى العُصُور الأُولَىٰ قبل الإسلام ، إلىٰ أن وَصَلَتْ إلىٰ ما وصَلَتْ إليـه من الانْتِشار بعد أَنْ صارت لُغَة القُرْآن الـكريم ، لُغَة الشَّريعة الإسـلامِيَّة السَّمْحةِ والدِّين الحَنِيف ، تَبَعًا لانْتِشارهما فى أكْثَرَ أَنْحاءِ الكُرَة الأَرْضِـيَّة : فى بلاد فارِسَ وما وَرَاء النَّهْر ، فى بلاد الرُّوم ، فى البـلاد المِصْرِيَّة (وقاها الله) فى بلاد أَفريقيـة والمَغْرِب الأَقْصىٰ ، فى بلاد الأَنْدَلُس ، فى بلاد الهِنْـد ، فى بلاد الصِّينِ ، فى بلاد كثيرة من أوروبا .

كِتَابٌ بيّن لنا فيه مُؤَلِّفُه كيف زَهَتْ هٰذِه اللُّغَة الشَّريفة فى عُصُور الخلفاء : من بنى أُمَيَّـةَ وبنى العَبَّاس ، وغزرَتْ مادَّتُها ، وٱتَّسَعَ نِطاقُها ، ودَنَا قِطَافُها : فصَارَتْ لُغَة العِلْمِ والحِكْمة ، لُغَة الأَدَبِ والشِّعْر ، لُغَة القَضَاء والأَحْكَام ، لُغَة الجَدَل والمناظَرَة . كما صارتْ لُغَة التَّأليف والتَّصْنِيف : فى أَحْكَام الدِّينِ ، وتَهْذِيب النُّفُوس ، وتَثْقِيف العُقُول ، ونِظَـامِ المُلكِ والمَمالك ، وسياسـة الأُمَمِ والشُّعُوب . وعلوم الفَلْسَفَة ، والرِّياضة ، والنُّجُوم ، والطِّبِّ ، والكيمياء ، وما أَشْبَهَهَا .

كِتَابٌ بين لنا فيه مُؤَلِّفُه الكِتابة العَرَبِيَّة فى البلاد والممالك الإسلاميَّة، وما بَلَغتْه من دَرَجاتِ الرِّفْعَة والارتقاء، ثم ما آلَتْ إليه بعد ذلك من الضَّعْف والوَهنِ، تَبَعًا لضَعْفِ اللُّغَة العَرَبِيَّة : باستيلاءِ المُغيرين على بلاد الخلفاء وممالكهم، ممن لَيْسُوا من أهلها فى اللُّغَة، أو فى اللُّغَة والدين. كما بيَّن لنا طَبقَاتِ الكُتَّاب وأَهل الأدب، وما كان لهم عند الملوك من الرِّعاية وعظيم الاحْتِرام.

كِتَابٌ بَيَّنَ لنا فيه مؤلفه الخلافة الإسلاميَّة وشُرُوطَها ورُسُومها، ومَن وَلِيهَا : من الخُلَفاء الرَّاشدينَ ومَرَاكزِ ولاياتِهم، وخُلَفاءِ بَنِى أُميَّةَ بالشَّام والأنْدَلُس، وخُلَفاءِ بَنِى العبَّاس ببَغْدَادَ ومِصْر، وخُلَفاءِ الفاطِمِيِّين بالديار المِصْريَّة، ومُدَّعِى الخلافَة من بقايا المُوَحِّدين بأفْرِيقيَة.

كِتَابٌ بَيَّنَ لنا فيه مُؤَلِّفُه المَمالك الإسلاميَّة فى المَشْرِق والمغرب، وما بلغته من دَرَجاتِ المَجْد والحَضَارة، وحُدُودَها، وأَنْظِمَتَها، ورُسُومَها، وما آشْتَمَلَتْ عليه من الفَضَائِل والمحاسِن، والخَوَاصِّ والعَجائب، وما بها من الآثار القديمة، ومن وَلِيهَا من المُلُوك والسلاطين جاهليَّةً وإسلاما.

كِتَابٌ بَيَّنَ لنا فيه مُؤَلِّفُه — وهو هو ذلك المصرىّ الصَّمِيمُ، الذى أقلَّتْه أرضُ مِصْر، وأظلَّتْه سماؤُها، وشَرِب حتى رَوِىَ من نِيلِها — البِلادَ المِصْرية، وفَضَائلَها ومَحَاسِنَها، وخَوَاصَّها وعَجائِبَها، وما فيها من الآثارِ القَديمة. وبين نهر النِّيل ومَنْبَعَه ومَصَبَّه، وزِيادَتَه ونَقْصَه، ومقاييسَهُ، وما يَنْتَهِى إليه فى الزِّيادة، وما يَصل إليه فى النُّقْصان، وخُلْجانَه المُتَفَرِّعة عنه، وجُسُورَه الحابِسَةَ لمائه. وبَيَّنَ بُحَيْرَاتِها، وجِبالَها، وزُرُوعَها، ورَياحِينَها، وفَوَاكِهها، ومَوَاشِيَها، ووُحُوشَها، وطُيُورها. وبَيَّنَ حُدُودَها، وآبتداء عِمارَتِها، وسَبَب تَسْمِيَتِها بمصر، وتَفَرُّعَ الأقالِيم التى حولَها

عَنْها . وبين أَعْمالَها وقواعِدَها القَديمة، ومبانِيَها العَظِيمة الباقية علىٰ مُرُور الأزمان . وبَيَّنَ قَواعِدَها الحَدِيثَة وما اشْتَمَلَتْ عليه من مَحاسِنِ الأبنيــة . وبَيَّنَ من وَلِيها من الملوك والسلاطين قبل الإســلام وبعده . وبَيَّنَ تَرْتِيبَ أَحْوالِهـا ، ومُعَامَلاتِها ، ونُقُودها ، وترتيب مَمْلَكَتِها ، ووَظائِف دُولِها القَدِيمَة والحَدِيثَة .

كِتَابٌ دوّن فيه مؤلفه عدّة كُتُبٍ أَدَبِيَّة نَفِيسَة بتمامها ، وجَمَع فيه كثيرا مما تَفَرّق فى غيره من المُؤَلَّفات .

ورَتَّبه على مُقَدِّمةٍ وعَشْر مقالاتٍ وخَاتِمة ، بناها بالإجمــال على التَّعْرِيف بحقيقة دِيوانِ الإنشاء وأَصْلِ وَضْعِه فى الإسلام ، وتَفَرُّقِه بعد ذلك فى الممالك ، وبَيانِ كِتَابةِ الإنشــاءِ وتَفْضِيلها على سَائِر أنواعِ الكتابة ، وصِفاتِ الكُتَّابِ وآدابِهــم ، ومَدْح فُضَلائِهم وذَمِّ حَمْقَاهُم .

ومَعْرفةِ كلِّ ما يحتاجُ إليه كاتِبُ الإنشاء فى الأمور العِلْمِيَّة والعَمَلية : كَمَعْرفةِ المَوادِّ اللَّازمةِ للمُنْشِئ : من الخَطِّ وتَوابِعِه ولَواحِقِه وغير ذلك .

ومعرفةِ المَسَالِكِ والمَمَالِكِ (علم تَقْوِيم البُلْدان) : كمعرفة شَكْلِ الأرض وإحَاطة البَحْر بهـا ، وبيانِ جِهاتِها الأَرْبع وما اشتملتْ عليــه من الأقاليم السَّبْعة الطَّبِيعيَّة ، وبيانِ مَوْقع الأقاليم العُرْفِيَّة منها ، وذِكْر حُدُودها الجَامعة لهـا ، وما فِيها من الجِبالِ والبِحارِ والأنهــار ، والأقاليم والممــالك والبلدان ، ومُلُوكها فى القَدِيم والحَدِيث وما يَتْبع ذلك .

ومعرفة الأمور التى تَشْــترك فيها أنواعُ المُكاتَباتِ والوِلَايات وغيرهما : من ذِكْر الأسمــاء والكُنىٰ ومَواضِع ذكرهما فى المُكَاتبات ، وذِكْر الألقاب وأَصْل وَضْعِها ، وما كان يُلَقَّبُ به أهلُ كلِّ دَوْلة إلىٰ زَمَنــه ، وكَيْفية تَوْزيع الأَعْمــال على كُتَّاب

الإنشاء ، ومَقَادِيرِ قَطْع الوَرَق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قَوانِين الكِتَابة وأَنْظِمَتها .

ومعرفةِ المُكاتبات العامَّة وأُصولِها ومَقَاصِدها ، فى القَدِيم والحديث ، ومُصْطَلَح المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب الإسلام ، وكُتُبِ النَّبىّ (صلَّى الله عليه وسَلَّم) إلى أَهْلِ الإسلام وغيرهم ، والكُتُبِ الصَّادِرة عن الصَّحابة والخُلَفاء والمُلُوك ومَن فى معناهم ، وبيانِ مذاهِبِ الكُتَّاب فيما تُفْتَتح به المكاتباتُ ، وما يُخاطَبُ به أَهْلُ الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرِفةِ الوِلايات وطَبَقاتها ، وما يَتْبعها من البَيْعاتِ والعُهُود ، ومَعْناهما ، والوِلَاياتِ الصادرة لأرباب المَنَاصِب : من أَصْحابِ السُّيُوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفةِ الوَصَايا الدِّينيَّةِ وما يُكْتب فيها فى القَدِيم والحَدِيث ، والمُسَامحاتِ والإطلاقاتِ وما يكتب فيهما ، والطَّرْخانيات وتَحْوِيلِ السِّنِينَ ، والتَّوفيقِ بين السِّنِين القَمَرِيَّة والشَّمْسِيَّة ، وما يُكْتب فى التَّذَاكِر التى يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعاتِ وأَصْلِ وَضْعِها فى الشَّرْع ، وما يكتب فيها فى القَدِيم والحَدِيث ، وأوّلِ من وَضَع دِيوانَ الجَيْش فى الإسلام .

ومعرِفة الأَيْمانِ وما يَقَع به القَسَم ، والأَيْمانِ التى أَقْسَم الله تعالى بها ، وما كان يَحْلِف بها العَرَب فى الجاهِلِيَّة ، وما يُقْسِم به أهلُ كلِّ مِلَّةٍ ونِحْلة .

ومعرفةِ عُقُود الأمانات والصُّلْح ، والهُدَنِ الواقعة بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فُنُوناً كثيرةً يَتَداوَلُها الكُتَّاب والأُدَباءُ ويتنافَسُون فى عَمَلِها ، لا تعلُّقَ لها بديوان الإنشاءِ : كعَمَل المَقَامات ، والرَّسائِلِ المُلُوكِيَّة المشتملة على الغَزْو

والصَّيْد ، ورَسائل المَدْح والذَّمّ ، ورسائل المُفاخَرات بين الأشياء، والرَّسائل المُشْتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرَّسائل المُكْتَتبة بالحَوادث والمَاجَريات وغيرها ، وكِقدْمات البُنْدُق ، والصَّدُقات المُلوكية وغيرها ، والعُمرات التى تُكْتب للحَاجّ ، وذِكْر نُسَخ من ذلك كلّه . وما يُكْتب عن العُلَماء وأهل الأَدَب : من الإجازة بالفَتْوىٰ والتَّدْريس والمَرْويّات، وما يُكْتبُ على الكُتُب المصَنَّفة والقَصائد من التَّقْريظات ، وما يُكْتب عن القُضاة : من التَّقاليد الحُكْمِية وإسجالات العَدَالة وغير ذلك .

وتكلَّم فيه على البَرِيد وأَوّل من وَضَعه فى الجاهِلية والإسلام ، وبيان مَعالِمه ومَرَاكِزه ، ومَطارات الحَمَام الرَّسائِلىّ وأبراجه بالدِّيار المِصرية والبلاد الشَّاميَّة ، ومَرَاكِب الثَّلْج والهُجْن المُعَدّة لنَقْله ، والمَناوِر والمُحْرِقات .

وذكر فيه كثيرًا من الآيات القُرآنية الشَّريفة والأحاديث النَّبَوية الكريمة ، والأَمْثال والحِكَم العَرَبِيَّة ، وأقوال الكَثِيرين من أَئِمَّة اللُّغة والتَّفْسير والحَديث والفِقْه وعلوم العربية .

وأتىٰ فيه علىٰ كَثِيرٍ من أسماء الكُتُب والفُنون ، وكثِيرٍ من أسماء مشاهِير المُؤَلِّفين والعلماء والأُدباء والكُتَّاب والشُّعراء .

وأورد فيه من أصول الصَّنْعة فى الكِتابة مايُغْنِى قارِئَه عن تَصَفُّح كثِيرٍ من المؤلفات الأدبِية وغيرها .

وضَمَّنه شيئًا كثيراً يفوقُ الحَصْر من الرسائِل البَلِيغة لمشاهير الكُتَّاب وأَهل الأَدب فى الشَّرق والغَرْب والقَدِيم والحَديث .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلا من فصوله دون أن يحليه من غرر منشآته لنفسه بالمعجب والمطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها ، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .

فصار كتابه لذلك — كتاب تاريخ وسير ، ولغة وأدب ، وفقه وتفسير للقرآن والحديث ، وشرح للأمثال والحكم العربية ، و بسط لنظام الحكومات عامة والحكومة المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتاب ممتع ، ودائرة معارف أدبية كبرى ، يشهد لمؤلفه بالفطنة والذكاء ، وطول الباع فى هذا الفن الجليل فن كتابة الإنشاء ، وقوة التمكن فى اللغة العربية وآدابها ، و ينطق بما له من كثرة الاطلاع على دقيقها وجليلها .

و إن حسن نية مؤلفه ، واعتماده على فضل الله تعالى فى النفع به — ساعدا على حفظه إلى هذا الزمن من أيدى العوادى ، وانتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال فى خاتمة تأليفه لهذا الكتاب — تحدثاً بنعمة الله عليه — بعد أن ذكر أن المصنفات تتفاوت فى الحظوظ إقبالا و إدبارا : فمن مرغوب فيه ، ومرغوب عنه ، ومتوسط بين ذلك ، وأنه قل أن ينفق تأليف فى حياة مؤلفه ، أو يروج تصنيف على القرب من زمان مصنفه ، و بعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودى فى كتابه "التنبيه والإشراف" عن الجاحظ . قال :

لكنى أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفى ونفاق سلعته ، والمسارعة إلى استكتابه قبل انقضاء تأليفه ، حتى إن قلمى التأليف والنسخ يتسابقان فى ميدان الطرس إلى اكتتابه ، ومرتقب نجازه للاستنساخ يساهمهما فى ارتقابه ، فضلا من الله ونعمة : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

ترجمـــة مؤلفـــه

أما مُؤَلِّفه "أبو العباس أحمد القَلْقَشَنْدِىّ" رحمه الله تعالىٰ، فقد تَرْجمه السَّخَاوِىّ فى الجزء الأوّلِ من كتابه : "الضَّوْء اللَّامِع ، فى أعيان القَرْن التاسِع" فقـال :

« هو أحمـدُ بن علىّ بن أحمدَ بن عبـد الله ، الشِّهاب بن الجَمَـال بن أبِى اليُمْن القَلْقَشندىّ، ثم القَاهِرِىّ الشَّافِعىّ .

ولِد سنة ستٍّ وخمسين وسَبْعِمائة ، وآشتغل بالفقْه وغيره ، وسمِع على آبن الشيخة . وكان أحدَ الفُضَـلاء ، ممن بَرَع فى الفِقْـهِ والأَدبِ وغيرهما . وكَتَب فى الإنشاءِ ، وناب فى الحُكْم ، وشَرَح قِطَعًا من "جامِع المُخْتصرات" بل شَرَع فى نَظْمِه .

وعمِل "صُبْح الأعْشىٰ فى قَوَانِينِ الإنشا" فى أرْبعِ مُجَلَّدات ، جَمَـع فأوعىٰ . وكان يستحِضر أكثر ذلك مع "جَامِع المُخْتصرات" و "الحاوِى" . وألَّف كتابًا فى أنْسابِ العَربِ . وكان فيه تَواضُعٌ ومُرُوءةٌ وخَيْر .

مات يوم السَّبْت عاشر جمـادى الآخِرةِ سـنةَ إحدىٰ وعشرين وثمـانِمـائةٍ ، وله خمسٌ وسِتُّون سنةً . ذكره المَقْرِيزىّ فى "عُقُودِه" والعَيْنِىّ وآخرون . وسَمَّى المقريزىُّ والِدَه عَبْد الله وهو وَهَم » .



وترجمه صاحبُ "شَذَرات الذَّهب فى أخبار من ذَهَب" فقال :

« شهاب الدِّين أحمدُ بن علىّ بن أحمدَ القَلْقَشندىّ الشافعىّ ، نَزِيلُ القاهرة . تَفَقَّه ومَهَر، وتعانى الأَدب، وكَتَب فى الإنشاء، ونَابَ فى الحُكْم . وكان يَسْتحْضر "الحاوى" ، وكَتَب شيئًا على "جامع المختصرات" . وصَنَّف كتابًا حافلا سَمَّاه "صُبْح الأَعشى فى معرفة الإنشا" وكان مُسْتحضرًا لأكثر ذلك، وصَنَّف غير ذلك . وكان مفْضالاً وَقُورا فى الدَّوْلة إلى أن تُوفِّىَ ليلة السَّبْت عاشِر جُمادى الآخرة ، عن خَمْس وستِّين سَنَة » (١) .



وقد وَقَفْنا على شىء من تَرْجَمته وقت تَصْحيحنا لكتابه "صبح الأعشى" نُورده هنا، إتْمامًا للفائدة، فنقول :

ميــــلاده ونسبته

وُلد المُؤَلِّف فى سنة ستٍّ وخمسين وسَبْعمائة كما ذكره السخاوىّ فى "الضَّوْء اللامع" ببلدةٍ يقالُ لها "قَلْقَشَنْدَة" من أَعمال مُديريَّة القَلْيوبيـة بالدِّيار المصرية : من أَصْلٍ عَرَبىّ صَميم ، من بَنِى بَدْرِ بن فَزَارةَ من قَيْس عَيْلان . وكان بَنُو فَزَارةَ ورَدُوا مِصْرمع من وَرَدها من العَرَب، أَيَّام الفَتْح الإسْلامىّ وبعده،

---

(١) سماه صاحب "كشف الظنون" مرة بأحمد بن علىّ، ومرة أخرى بأحمد بن عبد الله، وثالثة بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان "نهاية الأرب" للؤلف ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله آبن سليمان بن إسماعيل القلقشندى، الشهير بآبن أبى غدّة .

ووجد مكتوبا على بعض أجزاء "صبح الأعشى" الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله آبن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

ونزلوا باقليم القليوبية ، واستولى بنو بدر منهم على أجل بلاده . وكانت لهم الرآسة والغلبة على جيرانهم من بني عمهم بني مازن بن فزارة . وكان بقلقشندة فرقتان : فرقة من بني بدر وفرقة من بني مازن[١] .

نشأته وتربيته

ونشأ نشأة حسنة ، وتربى تربية علمية صحيحة ، وتوجه إلى ثغر الإسكندرية وأقام به مدة من عمره ، وطلب العلوم الشرعية على مشهوري العلماء في عصره ، واشتغل بفنون العربية والأدب حتى اجتمع له مقدار وافر منها . واطلع على كثير من الكتب والأسفار في مختلف العلوم والفنون .

إجازته بالفتيا والتدريس

وفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة حينما كان مقيماً بثغر الإسكندرية أجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن ـ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، ولم تكن سنه إذ ذاك تتعدى إحدى وعشرين سنة ، كما أجازه بأن يروي عنه كل ماله من التآليف في الفقه والحديث وغيرهما ، وأن يروي كل ماجازت له روايته بشرطه عند أهله ، كالكتب الصحاح الستة ، ومسند الشافعي ومسند أحمد بن حنبل وغير ذلك .

وكتبت هذه الإجازة بخط القاضي تاج الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بمدينة الإسكندرية .

---

(١) أنظر "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" للمؤلف (ص ١٥٠) .

تَصَدُّره للإفادة

وجلس بعد ذلك للإفادة، فٱنْتفعَ الكثيرون من فِقْهه ووَرَعِه وأمانَته .

وعَرضَ عليه كثيرٌ من تَلامِيذه ما حَفِظوه من الكُتب وغيرها فى الفِقْهِ والأصُول وعُلوم العَرَبية، فأجازهم بما حَفِظُوه منها .

ٱلْتِحاقُه بديوان الإنشاء

وفى شهورِ سنةِ إحدىٰ وتسعين وسبعمائة ٱلْتَحق بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المِصرية، وأنشأ مقامةً فى تَقْريظِ القاضى بَدْرِ الدِّين، بن القاضى عَلاءِ الدين، بن القاضى مُحْيِي الدين، بن فَضْلِ الله : رئيسِ دِيوان الإنشاء وقْتئِذٍ، سماها "الكَواكِب الدُّرِّية، فى المَنَاقِبِ البَدْرِية"(١) بناها على التَّعريف بكتابة الإنشاء وعُلُوِّ قَدْرِها، وعِظَم خَطَرِها، وأنها الحِرْفةُ التى لايليقُ بطالِبِ العِلم غيرُها، والصِّناعةُ التى لايجوز له العدولُ عنها إلىٰ ماسِواها، وضَمَّنها كثيراً من أُصُولِ الصَّنْعة فى الكتابة وفروعها . إلا أنها لإيجازِها، مع ما ٱشتملتْ عليه من كثيرِ المعانى ــ ٱحتاجتْ إلىٰ شرحٍ وافٍ يكشِف إشاراتِها، ويُوضِّح عِباراتِها، فألَّفَ كِتابه "صبح الأعشىٰ" وجعله كالشَّرْحِ لها .

وفرغ من تَألِيفه فى يوم الجُمُعة الثامِنِ والعشرِين من شَهْر شوّال سنة أربع عشرة وثمانمائة .

---

(١) ذكرت فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيمته فى الكتابة والإنشاء

كانتْ كِتابتُـه وإنشاؤه كإنشاء أهل عَصْره وكتابتهم ، مَبْناها على التَّخَيُّل والتزام المُحَسِّنات البَديعيَّة : من السَّجْع والجِناس والتَّورِية وغيرها، والغُلُوِّ فيهـا ، على نَحْوِ ما كان من كِتابةِ « القاضى الفاضِل » و « ابن نَبـاتَة » والقاضِى « شِهاب الدِّين ابن فَضْل الله العُمَرىّ » وأضرابهـم . غير أنها كانت تَبْـدُو أخَفَّ رُوحًا وأعظم وُضُوحا من كتابة أمثـاله .

وإنَّ من قَرأَ مَقامتَه التى أنشأها عند التحاقه بديوان الإنشاء، عَرَف ما كان عليه : من غَزارة المـادَّة، وسَلامةِ الذَّوق، وقُوَّة الذَّاكِرة .

مُؤَلَّفـــاته

وله تآليف كثيرة ، منهـا :

كتابُ "صبح الأعشى فى كتابة الإنشا" وهو هذا الكتاب .

وكِتابُ " ضَـوْء الصُّبْح المُسْفِر وجَنى الدَّوْح المُثْمِر " وهو مختصر كتاب "صبح الأعشى" . طبع الجزء الأوّل منــه فى مطبعة الواعظ بالقـاهرة فى سنة ١٣٢٤ هـ .

وكِتابُ " الغُيُوث الهوامِـع ، فى شَرْح جامِع المختصرات ومختصراتِ الجوامِع " فى علْم الفقه على مذهب الإمامِ الشافعىّ رضى الله عنه .

وكتابُ "نهاية الأرَب، في معرفة قبائل العرب" في الأنساب، ألّفه للمقرّ الجمالىّ يوسف الأُمَوىّ[(١)]، وطُبع في مطبعة الرياض بمدينة بغداد (دار السلام) .

وكتابُ "قلائد الجُمَان، في قبائل العُربان" في أنساب العربِ أيضا[(٢)] .

وله غير ذلك رسائلُ كثيرةٌ تزيد على المائة أودعها كتابه "صبح الأعشى" .



هـــذا : وقد أُسنِد إلينا تصحيحُ كتابِه "صُبح الأعشى" المطبوع على نفقة دار الكُتُب، بالقِسْم الأدبىّ بالمطبعةِ الأميرية . فقُمْنا نحْوه بما يجب بإزاء مُؤلِّف جليلٍ مثلِه، واجْتهدنا في تهْذيبِه وتَنْقيحه بقَدْرِ الطَّاقَة .

واسْتَعنَّا على ما وجدناه بأَصْلِه من التَّحْريف الكثير والتَّصْحيف الغريب ـ زيادةً على ما فيه من الطَّمْس والسَّقَم في مواضِع من بَعْض أجزائه ـ بمُراجَعة كثيرٍ من المؤلفات في الفُنون المختلفة، ونُسَخ شتّى من رسائل الكُتَّاب ودواوينِ الشعراء وأَهل الأَدب، باحثِين فيها عن كلِّ مَوْضوعٍ تكلَّم عنه المؤلِّف أو أَشار إليه في كتابه . ومتَى توقَّفْنا في شيءٍ من مَسائله أثناء التَّصْحيح : لعَدَم وُضُوحه، أو لأن يَدَ النَّاسخ مَسَخَتْه، أو لغير ذلك ـ رَجَعنا إلى تلك الكُتُب والرَّسائل فصحَّحْناه منها، مع المُحافظَة التَّامَّة على عبارة الأَصلِ مَهْما بلغتْ من السَّقَم . وما لم نَقِفْ عليه فيها، أبْقيناه على حَاله،

---

(١) كما ذكر ذلك المؤلف في خطبته، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجود «بتر بن راشد» أمير العربان في البلاد الشرقية والغربية .

(٢) نسبه صاحب "كشف الظنون" لوالد المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك في كتابه "نهاية الأرب" . [وقد تصفحناه فلم نعثر على ذلك] .

ووَضَعْنا بجانِبِه علامةً تدلُّ على التَّوقُّف ، ووكلناه إلىٰ فَهْم القارئ الكريم وعَبْقرِيّته ، ناسبين كلَّ إصلاحٍ أدخلناه عليه إلىٰ مَوْضعِه من كُتُب المُراجَعة .

وقَيَّدنا أكثر كلماتِه بالشَّكْل ، مُعْتَمِدين فى ضَبْطِها علىٰ مَعَاجِم اللُّغة المشهورة ، وبَذَلنا الجُهْـد فى تَقْريبِه إلى فَهْم القَارئ ، بوَضْع علاماتِ التَّرقيم بين جُمَـلِه وأجزاءِ عِبـاراتِه .

ومَيَّزنا ما فيه من الآياتِ القرآنيةِ الكَريمة ، والأحاديث النَّبَوِيَّة الشَّريفة ، وأمْثالِ العَرَب وحِكَمِها ـ بعلاماتٍ مختلفةٍ تُمَيِّزها عن سِواها .

ووَشَّيْنا أكثر صَفَحاته بحواشٍ شَرَحْنا فى بعضها ما يُوجد فى مَتْنه من غَرِيب اللُّغة ، وأَثْبَتنا فيها أسماءَ كلِّ الكُتُب التى آعتمدنا عليها عند التَّصْحِيح .

وها هُو ذا نقـدِّمه لحضرات قُرَّائه الكِرام ـ من أكابر الكُتَّاب وأساطِين اللُّغَـة والأَدب ـ فى ثَوْبِه الجَـدِيد الذى يَسُرُّ النـاظِر ويَشْرَحُ الخـاطِر ، مُعْتَذِرين إلىٰ حضراتهـم فيما يقِفون عليـه من خَطَإٍ مطبَعِيٍّ وقَع فيـه أثنـاء الطَّبْع ولم نَتَنَبَّهْ له ، والكمالُ لله وَحْدَه .

وَفَّقنا الله تعالى إلىٰ ما يُحِبُّه ويرضاه ، وأعاننا على مَشَاقِّ هـذه الصِّناعة ، ووَهَبنا من لَدُنْه الصَّبْر وحُسْنَ الثَّباتِ ، فهو حَسْبُنا ونِعم الوَكِيل .

القاهرة فى ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ ينـاير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول
إبراهـيم